يسألني البعض عما اذا كنت نادماً على قضاء زهرة شبابي و سنوات عمرى في العمل ضمن الحركة الشيوعية، التي تبدو اليوم للكثيرين و كأنها مصابة بنكسة لانهوض منها.
فأجيب بأني لم افعل ما اندم عليه ولم امارس النشاط السياسي لكي اكسب الجاه والثراء .. انما فعلت ما اعتز به، ناضلت في سبيل مثل وأهداف سامية.. خدمت الشعب والوطن.. بذلت قصارى جهدي من اجل ما حلمت به الاجيال المتعاقبة من اهل الكدح، وما سوف تظل تحلم به الى ان تناله، بناء حياة حرة سعيدة تسودها العدالة الحقيقية ويختفي عندها الظلم والاضطهاد بشتى الوانه – بناء الاشتراكية.
ويسألني البعض عما اذا كنت سأعود الى ممارسة نشاطي السياسي في اطار الحركة الشعيوعية. فأجيب بأنني ساهمت بقسطي في النضال واديت واجبي بشرف، دون ان اخاف الصعوبات و التضحيات. و انا مدين للحركة الشعيوعية التي ربتني بروح الحقد على الظلم والاستغلال وبروح الذود عن حقوق المظلومين والحب لكل الطيبين فوق كوكبنا. انا كنت اممياً، وسأظل امميأ، احب شعبي و وطني وأحب سائر الشعوب والاوطان و أرفض كل شكل من التمييز بين بني البشر بسبب احتلاف الدين او القومية او اللون... الخ
غير انني احس بالاقتراب من ذلك اليوم الذي يحملني فيه تقدم السن على الكف عن ممارسة النشاط الحزبي – السياسي .. وأعتقد ان الوقت قد حان، في ظل الاوضاع المستجدة، لكي يستلم جيل الشباب الواعي راية النضال المقدسة ولكي يمزج تجربتنا مع حيويته و يواصل العمل الذي بدأته اجيال سابقة.
اما انا فأشعر بأن علي ان أكُرس ماتبقى لدي من طاقات نضالية ضمن توجه ديمقراطي عام ذوداً عن حقوق الانسان وحريته في مجتمع ديمقراطي حضاري ينتهي فيه الصراع الجنوني وكل ما يقترن به من سفك للدماء البريئة و اشاعة للخوف والقلق و نشر للدمار.. احلم بأن ارى هذا المجتمع وقد اختفت فيه لغة البندقية و لغة الارهاب والسجون والملاحقات واستعيض عنها بصراع سلمي – حضاري يصبح فيه الحكم صندوق الاقتراع و تر فرف عليه راية الحرية والديمقراطية و تسوده القيم الخلقية النبيلة وتعلو فيه كلمة القانون فوق كل الكلمات.

المؤلف

كردستان العراق – السليمانية

تشرين الثاني 1992

كلمة الى القارئ

كتبت هذه المذكرات ليس فقط لقناعتي بكتابتها، بل كذلك تلبية لطلب العديد من اصدقائي و نصحهم لي. وأنجزتها في غضون عشرة اشهر من عام 1991، معتمداً بالدرجة الاساسية على الذاكرة اذ لم تسمح لي ظروف حياتي السابقة الصبعة بتدوين يومياتي والاحتفاظ بها.
ولم تتح لي، وانا اكتب هذه المذكرات، فرصة الرجوع الى الوثائق الحزبية من تقاريرومحاضراجتماعات ومقالات...ألخ، كان من شأنها ان تساعدني على تذكر العديد من الاحداث وتدقيقها والكتابة عنها بشكل اكثر تفصيلا. وسأكون شاكراً لمن يرسل الي اياً من تلك الوثائق، لعلها سوف تفيد عند اصدار طبعة لاحقة. وقد غطت صحفات هذا الكتاب مذكراتي حتى 1984، وهي سنة انفصالي عن ح.ش.ع..وآمل ان تتاح لي الفرصة مستقبلا لأكتب عن السنين الأخيرة ايضاً.
سيجد القارئ ان هذا الكتاب يتناول، بالدرجة الاساسية، شؤون الحزب والسياسة وذوي العلاقة من الناس. غير انني لم اقتصر على تناول هذه الاحداث وحدها، بل تطرقت كذلك الى سائر الاحداث الملفتة للانتباه، لأنني لم اعش في قفص حزبي-سياسي، انما عشت بين الناس في هذا المجتمع وكانت لي اهتماماتي وهواياتي مع النكتة والادب والموسيقي والتسلية البريئة ومع السباحة والغابة وتسلق الجبال ومع النجارة والزراعة..الخ، فرحت وحزنت وضحكت وبكيت، كما هي سنة الحياة بالنسبة لكل انسان طبيعي.
بقدر ما يتعلق بسرد الاحداث استطيع التأكيد على انني كنت اميناً ولم اتعمد التغيير والتشويه، رغم انني لا انفي احتمالات النسيان اذ انني اعتمدت على الذاكرة، وهي قد تخون المرء. اما فيما يتعلق بالتعليق على ألاحداث ، حيث ايدت و أنتقدت وأستحسنت مواقف وتصرفات، افراداً ومنظمات.. الخ، فأن ذلك ما اتحمل مسؤوليته كرأي شخصي ابديته دون ان اضمر الحقد على احد ممن زاملتهم في العمل واختلفت معهم حول العديد من الامور. ومثلما امنح نفسي فأنني امنح غيري ايضاً، ممن لا تروق لهم ارائي، الحق في الرد وأبداء الرأي.
اكتب هذه المذكرات، وعمري الحيزبي- السياسي يقترب من نصف قرن، كرسته كله للنضال في سبيل المثل والاهداف السامية، التي آمنت بها وأخلصت لها وناضلت من اجلها.. نعم ، من اجلها تحملت السجن وعذاباته لسنوات وتحملت حياة الاختفاء الصعبة والملاحقات المستمرة لسنوات و صعوبات الاغتراب بعيداَ عن الاحبة والبلد لسنوات ، كما تحملت العيش في الجبال ، تحت القصف و التهديد ، لسنوات . ورغم انه لم يكتب لي ان اشهد انتصار القضية ، التي كرست لها زهرة شبابي و كل سني حياتي ، فأنني لست نادماً على ما فعلت ، بل اجد فيه ما يبعث على الاعتزاز و ماسيعطي ثماره عاجلاً ام اجلا .

فأنا عشت لقضية الشعب ، للناس ، وليس لنفسي . و ضعت كامل طاقاتي في خدمة اولئك الذين ظلمهم نظام اجتماعي جاءر قائم على الظلم و الاستغلال و الاضطهاد . وسأظل، ماحييت، متمسكاً بتلك المثل والمبادئ السامية، مبادئ الكفاح بثبات من اجل تحرير العمال وجميع شغيلة العمل اليدوي والفكري من الظلم والاستغلال الطبقي والاضطهاد القومي والسياسي.

بديهي انني ارتكبت، خلال سني حياتي النضالية، اخطاء وهفوات متنوعة فكرية وسياسية وتنظيمية. غير انني لم اسئ الى المثل والمبادئ التي آمنت بها وناضلت من اجلها، ولم اناقض بين اقوالي وبين اعمالي ولم احاول قط استغلال نفوذي الشخصي او مركزي الحزبي-السياسي وراء امتيازات شخصية او اغراض خاصة و لم ابحث عن الزعامة و البروز الشخصي ، بل دأبت على العمل كجندي مجهول و حرصت على النزاهة و الاستقامة السياسية ووضعت القضيةالعامة فوق المصالح الخاصة . ويشرفني انني اليوم ، بعد قرابة نصف قرن من النشاط الحزبي – السياسي ، لا املك في هذه الدنيا شيأ سوى ملابسي الشخصية و كرامتي الشخصية و شرفي السياسي المصان .

تسلمت زمام القيادة في ح.ش.ع يوم كنت شاباً ثورياً متحمساً ضعيف المستوى و قليل التجارب ، و يوم كان الحزب نفسه في نكسة عميقة (48-1949) . و أفلحت في قيادة نشاط الشيوعيين لاجتياز الصعاب و اعادة بناء الحزب و عودته قوياً الى المسرح السياسي خلال السنوات التي بقيت فيها سكرتيراً له. و لم آ به بأن ازحت من مركزي القيادي ، وأنا في السجن ، و ان تعرضت في سني حياتي الحزبية للعقوبات الحزبية الجائرة والاجراءات القاسية على ايدي رفاقي سلام عادل و عزيز الحاج و عزيز محمد . و كان لي شرف الاسهام الفعال في قيادة نشاط الحزب خصوصاً ايام المحن و الصعوبات ، التي مرت بها الحركة الشيوعية والديمقراطية في العراق .

في خضم النضالات طالعت الكتب و أستمعت الى المحاضرات و ناقشت القضايا النظرية و السياسية و كتبت في السياسية و كتبت في السياسة و الادب و طورت ثقافتي العامة ، فتعلمت و نميت مستواي الفكري ، بيد ان الحياة نفسها كانت على الدوام المدرسة الاساسية التي تعلمت منها . و أعتبر خريف 1964 ، حيث عدت من الخارج الى الوطن، نقطة فاصلة بين مرحلتين في حياتي الفكرية-السياسية، فمنذ هذا الوقت بالذات بلغت سن الرشد فكرياً وسياسياً ولم اتورط في تأييد السياسات والمواقف الخاطئة التي اعقبها الندم.

لمحة عن ذكريات الطفولة

في صباي كنت ارى قريتي تكيه، التي ولدت ونشأت فيها ، عالماً جميلا مترامي الاطراف، حيث الوفر من الاصدقاء ومن الجبال والتلال والوديان ومن احواض السباحة الطبيعية ومن الالعاب. ولا اذكر يوماً احسست فيه بالملل في حياة القرية ، في حين كنت ارى في مدينة السليمانية ، حين يأخذني ابي إليها ، عالماً ضيقاً مملا فيها حياة رتيبة شبيهة، بالنسبة الي ، بسجن كبير. ومقابل عدد كبير من الاصدقاء في القرية فان رفيق طفولتي الاساسي والوحيد تقريباً في المدينة كان ابن عمتي محمد، الذي خضت المعارك ضد صبية آخرين دفاعاً عنه اكثر مما خضتها دفاعاً عن نفسي.

كان لوالدي مكانة خاصة بين اهالي القرية اذ اعترف به الجميع كالرجل الاول غير منازع لانه كان من مثقفي زمانه وكان قروياً ومدنياً. اقامت امي في القرية وأقامت زوجته الثانية الصغرى في منزل جدي ـ ابرز علماء الدين في مدينة السليمانية. كان والدي يقضي اوقاته متنقلا بين المدينة والقرية . وأعتبرت عائلتنا ميسورة الحال معيشياً ، بالمقارنة مع سائر القرويين آنئذ، اذ كانت محاصيلنا الزراعية تسد حاجاتنا . كان والدي يبيع من التبوغ ما يشتري به السكر والشاي والملابس وماشابه مما لم يكن هناك مناص من شرائه . كان قد اكمل دراسة العلوم الدينية واعترف به كعالم . لكنه انصرف الى الزراعة كملاك صغير. وكان ميالا الى ان يغدو اقطاعياً او ملاكاً كبيراً . بيد ان طبيعته المسالمة اللاعدوانية، من جهة، وطبيعة الاستثمارات الزراعية الصغيرة المقرونة بشحة الماء والارض الصالحة للزراعة في القرية ، من جهة اخرى ، كانت عائقاً امام رغبته وبالتالي فأن رفاهنا النسبي كان مشروطاً ببقائنا في القرية واستثمارنا لاراضينا الزراعية.

وبخلاف ما كان سائداً في الريف من عادات وتقاليد كان والدي غير ميال الى استخدام اساليب الضرب ضد اطفاله . انه ضربني في طفولتي، بل طيلة عمري ، مرتين فقط وبشكل بسيط. احدهما بسبب تهربي من واجباتي الدراسية والاخرى بسبب صعودي ذات مساء متأخر شجرة توت عالية . ولم ار والدتي يوماً وهي تضربني او تضرب اياً من اطفالها الستة الاخرين . فهي كانت اماً شرقية نموذجية من حيث حنانها وعنايتها بنا . وكم من مرة جلست لتأكل الخبز مع الماء بعد ان قدمت لنا جميع ما طبخته من رز أو لحم او اي اكل اعتبر جيداً. وكانت تبرر ذلك بالقول:

- ان الصغار احوج الى الاكل الجيد لانهم في دور النمو، في حين تكون النتيجة واحدة بالنسبة الى امثالي. رزاً اكلنا ام خبزاً .. فالمهم ان نملأ بطوننا.

كنت في العاشرة او الحادية عشر من عمري يوم خاطبني أمي قائلة: ((والدك في المدينة وعليك ، انت الابن الاكبر للعائلة ، ان تجلس صباح الغد الباكر بين رجال القرية في الجامع لتتناول معهم اكلة العيد. ستجلس هناك كما يجلس الرجال وسناتي لك بصينية الطعام الى هناك)) . فرحت بذلك لانه يضعني في عداد الرجال. وكانت تقاليد الاكراد ان يهيئوا اكلة العيد ليلا ويتناولوها في الصباح الباكر . كان الرجال يظلون في الجامع بعد صلاة العيد ويرسل الى كل منهم ما هئ في بيته من طعام ليقاسموا على الموائد ما ملكوه في بيوتهم بمناسبة العيد . وكان خادم الجامع (سعه) يضع عند المدخل طشتاً نحاسياً كبيراً

ليصب فيه القرويون ، حين مغادرتهم للجامع ، ما بقي في الاواني من الاكل رزاً كان ام برغلا ام مرقاً ام غير ذلك. كان العيد ينتهي ظهيرة نفس اليوم، اللهم الا لغير المتزوجين من شبان وشابات خرجوا من القرية، كل فريق على حدة حاملين الطعام والشاي ليلتقوا في مكان ما ، بعيداً عن انظار آبائهم، ليقضوا ساعات سوية في اجواء الغناء والعزف على الناي، الذي كان آلتهم الموسيقية الوحيدة ، وفي الدبكات والرقصات الجماعية...

اذا كان منشأي الريفي قد ترك أثاره الملموسة على مجمل حياتي اللاحقة ، التي قضيتها في السليمانية وبغداد وخارج العراق ، فان لكتاب كاكه حمة ، الفلاح نصف الملا الذكي، دوره في ذلك . كان هذا الفلاح الشاب رجلا هادئاً ومربياً ومعلماً مناسباً في زمانه . ولم يلجأ الى لغة العصي في تعامله مع تلاميذه بخلاف الاغلبية الساحقة من معلمي الكتاتيب في تلك الفترة. كان والدي اقدر على تعليمي لكن ظروف تنقله ومشاغله لم تسمح له بأن يكون معلماً لي الا بصورة محدودة. وأتذكر ان القائمقام كان في زيارة الى قرى قرةداغ وكان ضيفاً على والدي في بيتنا يوم تراست ، بدفع من الاخير ، وفداً من اطفال القرية حاملين عريضة الى الضيف نطالب بفتح مدرسة لنا. وقد تأثر القائمقام عاطفياً بطلبنا ووعد ببذل قصارى جهده لتحقيق مطلبنا. ولكن المدرسة فتحت لقرية سيوسينان المجاورة قبل ان تفتح لقريتنا بسنوات.

كان الشاعر الفلاحي الكادح الجائع قانع بين معلمي مدرسة سيوسينان منذ اوائل تاسيسها . وزار والدي في قريتنا اكثر من مرة . كانا يقرآن الاشعار لبعضهما وهما يشربان الشاي . ولم يطل بقاء شاعرنا معلماً اذ كسرت ساقه حين حاول فض نزاع بين قرويين مشتبكين فتلقى ضربة عصى غليظة من احدهما وكسرت ساقه، نقل على اثرها الى مستشفى السليمانية . وقبل ان يتمثل للشفاء ابلغ بفصله من وظيفته.

لم يكن هناك رقصات فردية في القرية ، لكن الحفلات الغنائية والرقصات الجماعية (الدبكة) كانت تتكرر بمناسبة عرس او ختان او ولادة طفل جديد . وأتذكر تفاصيل حفل الختان الذي جرى لي ولعدد من اطفال القرية. كانت دبكات مقرونة بالاغاني والعزف على الناي اعقبتها وليمة طعام حضرها جميع رجال القرية . وجلسوا في فسحة كبيرة تشكل السطوح لعدد من الدور . كان الجميع يأكلون اللحوم والرز والمرق بايديهم ولم يكن هناك من يفكر في استخدام الملعقة والشوكة. وخلال الحفل وقع حادثان مثيران لضحك الجميع احدهما انني اعلنت بصوت عال ماكان والدي لقنني اياه تلقين الببغاء : ((كلوا حتى الشبع ، ايها الضيوف، بفضل قضيبي)) . والثاني كان ضرطة الطفل حمه كرده، التي فلتت منه لحظة الختان. كان الختان القروي، الذي جلب من قرية سيوسينان، قد امسك بسكينه الحاد مستعداً لتنفيذ العملية، التي لايمكن ان ينجو منها طفل مسلم. وخاطب الطفل:

- انظر يا حمه الى هذا العصفور الجميل فوق رؤوسنا في سقف الغرفة!

رفع الطفل نظره نحو العصفور المزعوم فيما نفذ الرجل بسرعة خاطفة العملية الجراحية ، التي اقترنت بحركة لاارادية مفزعة وبضرطة مدوية ظلت موضع التندر والضحك في القرية لسنين عديدة.

وشاركت مع صبية آخرين في حفل استمر سبع ليال بمنزل معلمنا كاكه حمه بمناسبة ميلاد ابنه الاول محمود . كان الحفل يبدأ بعد تناول العشاء مساءاً ويستمر حتى الفجر صاخباً بالاغاني والالعاب وتناول الشاي والزبيب والتمر... الخ مع الالحاح الشديد من أم كاكه حمه العجوز على الانتباه الدائم نحو الطفل لكي لاتظفر به الجنية العفريتة ((شةوة)) المتربصة دوماً بالمولود الجديد والباحثة عن فرصة مؤاتية لاشباع رغباته الخبيثة بخنق الطفل قبل ان يبلغ اليوم السابع من عمره.

كان الصبي مينه دوم احد المغنين في حفلات معلمنا الساهرة . وكان مغنينا المفضل نحن اطفال القرية. وحفظنا عن ظهر قلب اغانيه كلمات والحاناً. وهو لم يكن من اهالي القرية، بل قدم مع عائلته من مكان مجهول ليقيموا في القرية سنوات ، حيث كانت بضاعتهم المحلية ـ الكيوة ـ رائجة . وكان في صحبة العائلة شاب دعوه (احه ششه) وأتقن الغناء الريفي الراقص. وهو كان صديق العائلة وعشيق ابنتها بهية. وكان على استعداد دائم للغناء ، بالاخص للفتيات اللائي كان يغازلهن بصورة مكشوفة تارة في كلمات غنائية وأخرى في حركات فنية مكشوفة من عينيه وحاجبيه. وكانت بهية مستعدة بدورها لتغني للشبان وتغازلهم وتسعى لحملهم على مغازلتها . ومثل هذا التصرف لم يكن مألوفاً في القرية اللهم الا لاناس طارئين من الغجر.

على ان قبلة فتيات القرية وفتاة احلامهم انما كانت (فاته) ، التي قدمت من قرية مجاورة مع عائلتها هرباً من محاولة احدهم للتزوج منها عنوة. كانت فاته ذات جمال نادر، في حوالي العشرين من عمرها، بين البيضاء والحنطاوية طويلة القامة ورشيقتها، متناسقة الجسم وجميلة الصدر والرقبة، ذات شعر حريري اسود وعينين واسعتين مكحلتين دون استعمال اي كحل. كانت هادئة باسمة الوجه طافحة بأنوثتها. مع ابتسامتها كانت تكشف عن شفتين ورديتين رقيقتين وعن صفين من اسنان جميلة متناسقة. وحين تبتسم كانتتبتسم معها عينها الجميلتان الواسعتان وخداها الطريان وحتى خصلات شعرها السارح الممشط بعناية. وقد التف حول رقبتها الجميلة عقد قروي بسيط كان يبدو كالدر والياقوت. وكانت تمشي بغنج يثير اعجاب الشبان ومشتهاهم. وأظن انها كانت وافرة الحظ للفوز بلقب ملكة الجمال فيما لو اتيحت لها فرصة دخول المسابقة. كانت جميلة وكأن جميع آلهة الجمال قد وحدوا جهودهم لكي يصنعوها على هذه الصورة.

وبدلا من ان يكون هذا الجمال سبباً للعيش السعيد، كما يمكن ان يحدث ذلك في بعض المجتمعات النتطورة، فانه لم يكن في هذا المجتمع الكردي المتخلف الا سبباً لشقائها وتعاستها وحتفها السريع اذ أجبرت في نهاية المطاف على الزواج، رغم

ارادتها، من ذلك الشاب الذي كرهته وهربت منه الى قرية تكيه. وهو كان شاباً قصير القامة افطس الانف غليظ الشفتين منقاري الذقن، مصغر الوجه وقبيحاً بوجه عام. وقد توفت فاته بعد زواجها بسنتين.

الشيخ الحفيد في القرية

كنت صغيراً، في حوالي الرابعة من عمري، عندما وصل الى القرية الزعيم القومي الثائر الشيخ محمود الحفيد. ولا اتذكر الا البعض من الاحداث المقرونة بتلك الزيارة. توزع رجاله المسلحون على بيوت القرية التي كانت تزيد عن التسعين. وبقي نفسه مع بضعة اشخاص ضيوفاً على بيتنا، رغم غياب والدي الذي كان في السليمانية. اتذكر ان احد اقاربي اخذني الى الشيخ واجلسني الاخير في حضنه وقبلني. وسألني اذا كان لدينا خيل. فأجبته:

- نعم لنا فرسان.
- واين هما؟
- اخذهما والدي الى السليمانية خوفاً من عصابات الشيخ محمود.وقد رددت بهذه الاجابة ما كنت اسمعه في البيت مراراً. وكنت اجهل ان من يسألني هو هذا الشيخ محمود نفسه. ولاادري ما اذا كان الشيخ قد تاثر في سره ام لا. لكني اتذكر انه طبطب على ظهري بحنان وقال:
- صدقت! انك قلت الحقيقة ولم تتعلم الكذب بعد. ولهذا تستحق مني المكافأة.

وقد كافأني اذ مد يده الى كيس من الخام الاسمر موجود بجانبه فاخذ منه مبلغاً ـ سمعت فيما بعد انه كان خمسة ربيات معدنية ـ ووضعه في يدي. وتركت الضيف فوراً بعد استلام النقود. وكنت محسوداً من اطفال القرية وكبارها سوية.

ولايزال ماثلا في ذهني منظر رجل ملطخ بالدماء وأمسك به مسلحان، وهما يسحلانه عبر زقاق شطر جامع القرية. وقد اشيع فوراً ان القتيل كان ((خفيه ـ اي جاسوساً)) للسلطة الحاكمة متسللا الى القرية ووشى به بعض القرويين. ويبدو ان احداً لم يفكر باعتقاله للتحقيق والمحاكمة، بل قتل اول ما عثر عليه واصبحت مسألة دفنه مشكلة القرويين الذين انقسموا الى فريقين احدهما يفتي بعدم جواز دفنه في مقبرة القرية لأن تجسسه على الشيخ الملك ـ وكان الفلاحون يسمونه ملكاً ـ يجعله كافراً فلايجوز دفنه في مقبرة القرية. ووجد فلاح مسن عاقل حلا مقبولا للمشكلة اذ اقترح دفنه بجانب المقبرة، فيكون فيها ويكون خارجها في ان واحد.

في اليوم التالي لمغادرة الشيخ للقرية حلقت عليها طائرة والقت منشورات. اخذوا نسخة منها الى ملا القرية الشيخ عبدالله لينبئهم بما تحوي. اخبرهم الملا بان القرية ستقصف بعد ساعة واحدة. هرب الجميع وارتفع الضجيج والصراخ. كنت بين النساء والاطفال الذين احتموا بصخرة كبيرة قرب القرية واتذكر منظر الطائرة المغيرة، وهي كادت تلمس اغصان اشجار العرموط امام الصخرة. كان الطيار يتفرج على النساء وتاكد ان ليس هناك مسلحون فلم يقصف. واشتد العجب والاستغراب بعد ان ذهبت الطائرات وعاد القرويون الى بيوتهم وعرفوا من معلمنا كاكه حمه ان ليس في المنشور الملقى سوى التهديد بقصف القرى التي تدعم الملك محمود. وظهر ان الملا لم يعرف قراءة المنشور على حقيقته. بعد هذا الحادث باعوام التقيت بالشيخ الحفيد من جديد وفي مكان قريب من القرية ـ في قوبي قرةداغ. فقد كنت ضمن الصبية المتفرجين على لعبة الداما فوق احد الاسطح حين ظهر قبالة القرية رجل مسلح نصف عار، في منظر غير مألوف. وحين استقبل وسئل عن سبب هذا الوضع العجيب اجاب:

- ارسلني الشيخ الملك الى القرية في طلب الطعام له ولرجاله الموجودين في قوبي.
- ولماذا جئت عارياً؟
- لاني اضكررت الى عبور بعض الاحواض داخل المضيق (دربند) سباحة فتركت ثيابي هناك لكي البسها عند العودة، وابقيت معي اللباس والبندقية فقط.

كان الشيخ قد ثار على النظام من جديد، اثناء الحرب الثانية. وسارعت القرية الى جمع المؤن مع ذبيحتين. وتحرك فريق كبير من القرويين ـ كنت بينهم ـ الى قوبي. وكانت ضمن الفريق اربع نساء من افضل من يطبخن واقتربنا من الشيخ، وهو جالس بين رجاله على نبع موتار البديع. وصاح منكتاً:

- يبدو انكم جلبتم لنا نساءاً جميلات ايضاً.

ربما فرحت القرويات بهذه المجاملة، رغم انهن كن كهلات ولم يكن جميلات.

كان الشيخ في لباسه الكردي التقليدي ـ جرغده وحزامه الكبير وخنجره الدبان. ووضع بجانبه بندقيته ـ برنو من النوع القديم ـ وصف رصاصه. واثار دهشة الفلاحين واعجابهم عندما قتل بطلقة برنو قبجاً كان قد ظهر على مسافة بعيدة نسبياً، مبرهناًعلى انه هداف ماهر.

واذ استعيد الى ذاكرتي احداث تلك الايام فاني لا أجد ما يمكن اعتباره عنصر التنظيم، بمعنى الكلمة الحديث، في حركته القومية التحررية المسلحة لامن حيث الامور السياسية ولا المالية ولا العسكرية.

كان آخر لقاء لي مع الشيخ في منزله الريفي بقرية ((داريكلي)) اواسط الاربعينات. لم اكن في هذه الزيارة اكثر من مرافق لوالدي، الذي ذهب بتكليف من احد فلاحي تكيه وبأمل استحصال رسالة من الشيخ الحفيد الي موظف مسؤول في جهاز

الدولة. ورحب بنا وتناولنا معه الغذاء وبقينا 3-4 ساعات لنعود بعدها دون استحصال الرسالة المرجوة. وكان الشيخ في دار يكلي يعيش حياة ريفية اعتيادية بسيطة وبدت على محياه آثار التعب والشيخوخة واليأس السياسي.
في اواخر الثلاثينات رأيت اول انكليزي في حياتي. اتى الى قريتنا نازلا من قوبي بصحبة بضعة رجال من الشرطة وادلاء قرويين. اثار انتباهي، وهو ضيفنا، لباسه وشعر راسه الاصفر وانعدام الشوارب عنده. لو اريد توجيه اهانة كبيرة الى احد القرويين في ذلك الحين لحلقت شواربه او هدد بحلقها. فكيف سمح هذا الرجل لنفسه بحلق شاربيه؟ والامر المثير الاخر هو انه نصب حوضاً صغيراً من قماش ما وصب فيه قدراً من الماء الساخن داخل الغرفة التي يجلس فيها واستحم فيه. وقد سمعت في وقت لاحق بأن هذا الشخص كان المستشار الانكليزي في السليمانية. كانت قريتنا في سفح جبل وأمام مضيق شكل اقرب ممر الى قوبي قرةداغ. وكان اجمل المضايق هناك بمناظره الخلابة وكثيرة شلالاته البديعة واحواضه العميقة الصافية. وتميزت القرية بمكانتها الدينية المرموقة اذ ينحدر اغلب سكانها (وفق شجرة الانساب الموجودة عندهم) من حمزة ابن موسى الكاظم الذي هرب من بغداد خوفاً من بطش الخليفة العباسي، بعد ان قتل والده بالسم سجيناً. واعتاد اهل القرية على ان يحلفوا بالامام حمزة اكثر مما بغيره. كما اعتادوا على زيادة ضريحه وطلب بركاته كلما هددهم خطر ما او شحت الامطار لمزروعاتهم. واتذكر جيداً اني شاركت في اكثر من مسيرة بدأت من القرية حتى الضريح طلباً من الامام ان يتضرع الى الله كي ينزل الامطار. وبديهي ان جامع القرية الاثري الكبير، الذي بلغت مساحة بنائه مئتي متر مربع وعرض حائطه اكثر من مترين، لم يكن بمعزل عن المكانة الدينية ـ التاريخية للقرية. وكان الشائع بين شيوخ القرية ان الجامع بني قبل 750 سنة. ومهما يكن فانه كان مبنى اثرياً جديداً بالصيانة كمعبد ـ متحف، الى ان هدمه صدام عن بكرة ابيه في نيسان 1988.
وتميزت القرية ايضاً بكثرة القادرين فيها على قرأءة القرآن، الامر الذي اعتبر لوناً من الثقافة وسبباً لاحترام اهليها في القرى الاخرى. بيد ان القدرة على قرأة القرآن قد تحولت، بالنسبة الى الفلاح سالان، الى ورطة تحدثت عنها القرية عشرات السنين. وكان ذلك حين وصل سالان مع حماره المحمل بالعنب الى قرية تبطروس ـ من سنطاو ـ لمقايضة العنب بالحبوب. فرحت به ربة البيت المضيفة لعله يقرأ لها رسالة اتته من زوجها عبدالرحيم الذاهب بعيداً وراء الرزق. بعد جهد جهيد قرأ سالان بعضاً من كلمات الرسالة. ضمنها كلمة ((سيروان)) (وهي التسمية الكردية للنهر الذي يسمى ديالى) وانفجر باكياً، زاعماً ان الزوج غرق في نهر سيروان. وبكت معه القرية كلها وتحرك حشد كبير من القرويين لعلهم يعثرون على جثة الفريق. وبطلب من سالان نفسه عرضت الرسالة على الملا في قرية اخرى فاتضح ان الرجل لم يغرق انما كتب انه سيعبر نهر سيروان بعد يومين في طريق العودة الى البيت. وقد تسنى لي ان اسأل سالان عما اذا لفقت هذه الحكاية او بولغ فيما حدث فأجاب ببساطته القروية ان الحادث وقع فعلا بالشكل المروي.
لم يكره القرويون احداً قدر كرههم لرجال الشرطة التجسيد الحي للسلطة الحاكمة في تلك الحقبة. لم يأت هؤلاء يوماً بنبأ سار الى القرية. كانت زياراتهم ترهق الفلاحين مادياً وروحياً اذ ينبغي تقديم افضل طعام للشرطي والشعير لحصانه، مع توقع استدعاء البعض للجندية ـ وماكره في نظرهم الجندية ـ او جمع الكورة (ضريبة الاغنام) او استدعاء بعضهم بسبب شكوى دائن.. الخ . واشتهر بين القرويين الشرطي الاول ملا خضر المعروف بشراسته وصفاقته. كان هذا الشرطي عضواً في مافيا ترأسه مدير الناحية. فكان يوقف اي شاب يصادفه ليأخذه الى مركز الناحية بحجة الجندية حتى يدفع الرشوة لقاء اطلاق سراحه.
الخبر السار الوحيد الذي نقله البوليس الى القرويين ، كان : ((من يقتل خنزيراً ويسلم اذنيه الى السلطات يقبض لقاء ذلك مبلغ 150 فلساً)). في الماضي كان قتل الخنازير مجرد لهو وتسلية او دفاع عن المزروعات. لكنه اليوم اصبح مورد رزق. ياله من امر عجيب وسار اكثر الباحثون عن الخنازير بهدف قتلها. ولم يلبث ان اصبح موظفو الدولة شركاء في هذا الرزق اذ اتفقوا مع الفلاحين على تقديم بذان اصطناعية مهياة كلها من جلد خنزير واحد شريطة تقسيم المكافأة بين الطرفين.
كانت الارملة طولة تأتي لتأخذني الى بيتها. وكنت مولعاً بالتفرج على كلبها (بوره) وهو يسوق حمارها من البيت الى المراعي ويظل حارساً اميناً له طيلة ساعات النهار ويسوقه عائداً الى البيت قبيل غروب الشمس. وفي ساعات حراسته للحمار كان الكلب يمنع اي حيوان او انسان من التقرب اليه.
وقتل الفلاح المعدم العقيم عارف حماره بعد ان حرن وأبى السير خطوة في طريقه الى طاحونة الماء، فيما كان يسير خبباً نحو البيت. مزقه بخنجره تمزيقاً وترك الحمل هناك، على بعد كيلومتر من القرية، بين التراب والدماء وعاد الى القرية وهو يكيل الشتائم باعلى صوت للحمار ولمن يملك الحمار ومن خلقه.
كان الفلاح (كاخله) راعي اغنام القرية كلها تقريباً. واظن انه لم يشك يوماً من مرض ولا من الم ولم يحدث ان يغتسل يوماً بالماء الساخن او يستعمل الصابون لغسل يديه او جسمه. ولم يكترث قط لما يجري خارج قطيع مواشيه ولم يتدخل في شؤون غيره ولم يحاول معرفة اسم ملك العراق او اسم مدير ناحيته. وبخلاف معظم الرعاة الاكراد لم يتعلم كاخله العزف على الناي.. لكنه كان خبيراً حقيقياً بشؤون الاغنام والماعز، يتفقدها يومياً ويعرف لمن يعود هذا الحيوان او ذلك كما يعرف فقدان اي راس من المواشي في قطيعه حين يسوق الى القرية مساءاً.
من اخطر الاحداث في تاريخ القرية خلال الثلاثينات كان هجوم قطيع من الذئاب على قطيع المواشي. لم يكن لدى الراعي سلاح ناري. كان يعتمد على كلبه حسب. ولسوء الحظ فأن الكلب لاذ بالفرار مندحراً امام الذئاب في ذلك اليوم. وهرب الراعي

نفسه خوفاً ولكي يستنجد بالقرية. وعندما وصل الفلاحون الى هناك كانت الكارثة قد وقعت اذ فتكت الذئاب بأكثر من 250-300 رأس. لو اكل ذئب حيواناً بكامله لهان الامر. غير ان الذئاب كانت مولعة بالقتل اولا. فتترك الحيوان القتيل دون ان تاكل منه لقمة لتهاجم حيواناً اخر. وكانت تعض الفريسة من رقبتها اولا لتكون الضربة قاضية. وكان القسم الاكبر من الضحايا بين النعاج، التي لم تحاول الهرب من العدو، بعكس الماعز التي كانت تحاول التخلص بالهروب او تسلق الصخور والاشجار. وبعد الكارثة تركت الحيوانات الميتة في اماكنها وذبحت الميؤوس من شفائها فيما نقلت الجريحة المؤمل علاجها الى القرية وتحولت البيوت كلها الى مستشفيات بيطرية عقاقيرها هي الرماد والخرق المتسخة. وشبعت القرية كلها، ربما لأول مرة في تاريخها، من اللحوم. وكانت خسارة الارملة العجوز افروز اكبر من غيرها اذ فقدت كل ما ملكت ـ وهي اربعة رؤوس من الماعز.

قبل هذا الحدث ببضعة ايام كان قد وقع لهذه الارملة مكروه اخر. كانت جالسة فوق سطح وفي يدها مغزلها. ورأت ان تخرج من الزريبة كتاكيتها الاحدى عشر الصغيرة ليستمتعن بالشمس والهواء الطلق تحت اشرافها المباشر. وقد ربطها كلها الى بعضها بخيط واحد مشدود في نهايته الى رجل الدجاجة الأم، خوفاً من العدو الطائر الغدار: الحدأة. وفي غفلة من العجوز شن العدو غارة خاطفة واخذ كتكوتاً. وارتفعت معه البقية وانقطع الخيط جراء الضغط وبقي كتكوت واحد مع امه وحملت الحداة العشرة لاخرى الى حيث راق لها.

خسر الفلاحون مواشيهم ومنوا انفسهم بامل اعفائهم من ضريبة الاغنام لتلك السنة. لكن آمالهم قد خابت اذ جمعت الضرائب مع بعض التخفيض. وقد قال آمر مفرزة الجباية، رداً على طلبات الفلاحين باعفائهم من الضريبة:

- الحكومة عادلة ولايمكن لها ان تجبي ضرائب الرؤوس المفقودة من مواشيكم.

كان هناك شيخان اكبر الجميع سناً. وكان احدهما ـ العم كريم ـ يختلط بالناس ويسدي النصح ويفض النزاعات بين القرويين. فيما كان العم فرج انعزالياً لايختلط بالناس كثيراً. وقد انفصل عنه ولداه بعد زواجهما وبقي مع ابنته خديجة رافضاً تزويجها من اي كان، مجيباً لمن يطلب منه يدها:

- ارهقت نفسي في الحر والبرد كي اربي هذه البنت ولتخدمني بدورها، وليس ليأخذها شاب لم يتعب نفسه ولا ذرة على اطعامها وتربيتها. اتركوني وابنتي ايها الناس.

ولم تتزوج خديجة المسكينة ابداً. وقد رأيتها في الثمانينات، وهي عجوز محدبة تتكئ في سيرها على عصى لتختبئ في الملجأ هرباً من القصف الجوي في قرية بلكجار.

من المشاهد التي تظل ماثلة في ذهني ذلك العراك الذي حدث ذات يوم بين نساء القرية في مهبطها الصيفي السيار. كانت البيوت ـ او الكبرات ـ تشكل حلقة حول ساحة تبيت فيها مواشي القرية ليلا. وقع العراك وسط الساحة وبمشاركة اكثر من عشرين امرأة. بدأ النزاع بتبادل الشتائم بين امرأتين ثم التشابك في ((قتال عنيف)). وهبت النجدة من بيوت عديدة وتكون فريقان متقاتلان بما يشبه مشهداً كوميدياً حقيقياً. لم تستخدم اية امرأة عصى او سكيناً او حجارة. الاسلحة التقليدية هي العض والقرص وجر الشعر والصراخ. وكانت ((المقاتلة)) تستسلم بمجرد ان تمسك امرأة اخرى بشعر رأسها. وسرعان ما تنقلب المنتصرة الى مندحرة جراء مسك شعرها من قبل امرأة اخرى. وبدا ان من المستحيل انتصار اي فريق على الاخر بالاستناد الى وسائل القتال المستعملة. واخيراً حضر فلاح مسن وفض النزاع باستخدام عصاه. وفي المساء، حين عاد الازواج من اعمالهم، تلقى بعض النساء وجبة جديدة من الضرب عقاباً على ما فعلن.

بالحاح شديد انتزعت من امي عانه (اربعة فلوس) لكي اشتري ((اجازة لمسك الافاعي) من فراش مستوصف الناحية المدعو حسن، الذي كان يحمل عدداً من الافاعي في كيس قماش ويتجول في القرى لبيع بضاعته ((الاجازة)) او قصاصة ورق كتب فيها بعض الكلمات بخط سئ كتوصية للحية بعدم لدغ حاملها. واعترف اني لم اتجرأ على مسك الافاعي حتى بعد ان حصلت على الاجازة واخافني ما قاله حسن من ان بين الافاعي ما لايخضع للاجازة. ولاادري ما اذا كان على علم بأن هناك افاعي سامة واخرى غير سامة. ولااظن انه كان قادراً على التمييز بين هذا وذاك. وقد رأيته بنفسي حين طلب منه الفلاحون المسك بحية كانت لدغت الفلاح عبدالله قبل بضع ساعات ثم حفرت الارض تحت شجرة التين للعثور عليها. فأجاب : ((انها ليست خاضعة للاجازة)) وقد توفى الفلاح بعد اللدغ بحوالي 15 ساعة ولحق بالشابين رؤوف وعبدالكريم من ضحايا لدغ الافاعي.

رأيت اول انسان قتيل بضربة خنجر، دعي (حسين دوخور) وهو من اهالي قرية بلخه. وقد قتل على يد قروي آخر بسبب نزاع على اسبقية سقي الزرع. وبعد حين رأيت جنازة القاتل ايضاً، وهي تنقل مع مفرزة من رجال الشرطة الى قرةداغ .

اثناء احدى سفراتي الى مدينة السليمانية راق لوالدي ان يسجلني في مدرسة مسائية. وبفضل كتاب كاكه حمه قبلت راساً في الصف الثاني. وكانت الغالبية الساحقة من تلاميذ الصف اكبر مني سناً. وسأل المعلم الصف كله ذات مساء قائلا:

- من الذي يستطيع كتابة 88 على اللوحة؟

لم اعرف، انا الطفل القروي، ان الراغبين في الاجابة انما يرفعون اصابعهم بانتظار اشارة المعلم الى احدهم. فقلت بصوت عال، تماماً كما كنا نفعل في كتاب كاكه حمه:

- انا اعرف.

لم يقل المعلم شيئاً، فيما اطلق التلاميذ ضحكة مدوية مقرونة بالسخرية. وخلال الايام التالية كان الضحك يتجدد بمجرد ان يشاهدني التلاميذ في ساحة المدرسة او في ممراتها وغرفها. وكان شابان كبيرا الشوارب يبالغان في الضحك اكثر من الصغار. فكرهت المدرسة لهذا السبب وتركتها بعد ايام معدودة دون ان اقدم توضيحاً لوالدي.
كانت لنا، انا وابن عمتي محمد، هوايات غريبة. مرت اسابيع ونحن نشتري في كل يوم سبحة جديدة بيومياتنا ـ فلسين ـ ونضيفها الى سبحتنا القديمة التي زادت عن عشرة امتار. واحياناً كنا ننصب تلفوناً بيننا بربط علبتين فارغتين بطرف خيط ممدد يزيد طوله عن الخمسين متراً. وحين كان محمد يشتري ساعة جديدة كنا نسرع في تفكيكها ثم نعجز عن اعادة تركيبها فترمى في سلة المهملات مع اخفاء الامر عن عمتي، التي كانت بدورها معلمة كتاب لبضع بنات صغيرات.
في خريف 1940 اشتد المرض بجدي بابا على وهو في العقد التاسع من عمره. وكنت مصادفة في السليمانية. كان الشيخ المريض، وهو ابرز عالم ديني لزمانه في المدينة، متمدداً على بساط صغير عتيق داخل غرفة صغيرة في منزله شبه الكوخ القريب من جامعه. ولم ينزع عن رأسه عمامته البيضاء. وكان يتحمل الالام في هدوء ولاأتذكر ان طبيباً جلب اليه او تناول عقاقير طبية كان يتردد عليه الزوار من اهالي الحي ومن الاصدقاء. وهم يجلسون على بساط عتيق لفترة وجيزة كي يخلوا بعدئذ المكان لغيرهم. وفي ساعة متأخرة من الليل كان يحتضر فارسل والدي خادم الجامع ليأتي بمصطفى صفوت، الذي حضر ـ اضافة الى افراد العائلة ـ ساعة الوفاة. وقد ترجى مصطفى صفوت من جدي رجاءاً حاراًلكي ينقل تحياته الى ابيه المتوفي منذ اعوام.
لقد عاش جدي فقيراً ومات فقيراً، رغم مركزه الديني ـ الاجتماعي المرموق، الذي كان يسمح له بأن يغدو ثرياً ومرفهاً فيما لو رغب بنفسه. وأحبه الناس لأنه كان دينياً صادقاً مع نفسه. وهبت المدينة كلها لتشييعه من الجامع الى مقبرة سيوان. وكان في موكب التشييع الضخم الى مقبرة سيوان رجال يدقون الطبول والدفوف ويرددون عبارات تدل على الحزن والرثاء. وبعد ثلاثة ايام من استقبال المعزين في المدينة عاد والدي الى قرية تكيه لاستقبال المعزين من اهالي قرى قرةداغ وطرميان ايضاً.

2

في مدينة السليمانية

ادت وفاة جدي الى تغيير جدي في حياة عائلتنا اذ حمل والدي على هجر القرية والاستقرار في المدينة، خشية ان يستولي ((ملادخيل)) على جامع ابيه. ودعت القرية عائلتنا بالبكاء والدموع ان اخفقت في اقناع والدي بالعدول عن السفر.
اقترن الانتقال الى المدينة بهبوط حاد في مستوى العائلة المعاشي اذ فقدنا موردنا الزراعي في وقت لم يكن بين افراد العائلة من هو قادر على العمل اسهاماً في الاعالة، سوى والدي الذي كان عليه ان يطعم 14 شخصا ـ هو نفسه مع زوجتيه واطفاله الاحد عشر ـ اضافة الى الضيوف الذين ندر ان يفرغ منهم البيت. وقد حصل والدي على راتب قدره ثلاثة دنانير شهريا، بعد مساع ومراجعات استمرت لاكثر من سنتين. وكانت الحرب العالمية الثانية قد سببت الغلاء وشحة المواد الغذائية. وكان علينا ان نشتري كل حاجاتنا بفلوس. فعانينا من الفقر والجوع ولم يكن بمقدورنا ان نشبع حتى الخبز اليابس من طحين الشعير والذرة. وقد احتفظ والدي بكيس الطحين ليعطي يوميا الحصة المقننة لكل من زوجتيه تلافيا للاسراف.
احسست في المدينة بضيق شديد وظللت احن الى الجبال وتسلقها والى احواض المضيق والسباحة فيها والى التجول في الغابات، وبالاخص في قوبي. لكني تعودت تدريجيا على الحياة الجديدة. ومع استمرار علاقتى الوثيقة مع صديق الطفولة ابن عمتي فاني وجدت العديد من الاصدقاء الجدد. وبحكم منشأي كأبن عالم ديني وثيق الصلة بسائر رجال الدين في المدينة غدوت بدوري وثيق الصلة بالجامع وبطلاب العلوم الدينية في جوامع عديدة.
لم اكن افهم شيئامن السياسة حين كنت اسمع الناس يتناقشون حول حركة رشيد عالي الطيلاني في 1941. كان الجمهور يتعاطف مع الحركة وحتى مع هتلر بسبب كرههم للانطليز. واجمع بسطاء الناس على ان سبب هزيمة رشيد عالي لم يكن الا خيانة بعضهم داخل الحركة نفسها. لم يكن لي من الوعي ما يحملني على متابعة احداث الحرب سياسيا. ولكني كنت اسمع يوميا احاديث الناس حول الغلاء المرتبط بالحرب. وسمعت مراراً ان هناك اناسا يشتغلون في السوق ويدعون لهتلر بالنصر لانهم اثروا بفضله اثراءا فاحشا خلال فترة قياسية. علما بانهم لم يملكوا شروى نقير قبل الحرب. وشكا المجتمعون ذات مساء حول مدفأة الجامع من ارتفاع سعر اللحم كمشكلة جدية. ورد عليهم الخياط الفقير محمد قائلا:

- انا توصلت الى حل جذري لهذه المشكلة.
- وماهو هذا الحل؟ ـ سأله احدهم.
- لن اشتري ولن آكل اللحوم بعد اليوم.

هجرنا القرية وظلت علاقتنا وثيقة بالقرويين من اهالي تكيه وقرى اخرى عديدة. وندر ان يفرغ بيتنا يوما من الضيوف الفلاحين. وكان جامع والدي فندقا دائميا لهؤلاء، الذين كانوا يأتون لبيع الحطب او الفحم او لمراجعة احدى دوائر الدولة او للمستشفى .. الخ. وكانت طرمة داررنا الصغيرة، في حالات عديدة، اسطبلا لحمير الضيوف فترة بقائهم في المدينة. وسوق اخي الصغير قادر ذات يوم حمار احدهم من الطرمة وباعه الى الاطفال باربعة فلوس ومصيادة مطاطا. وعندما عاد صاحب الحمار ولم يجده ذهب يبحث عنه وعثر عليه في حي اخر وقد ركبه عدد من الاطفال والتف حوله عدد اكبر. ولم يسترجعه الا بعد صراع حاد وبعد دفع الفلوس الاربعة الى الشاري.

*****

كان حلول عيد رمضان او الاضحى حدثا كبيرا لاطفال السليمانية: ارتداء ملابس جديدة والحصول على العيدية من الاهل والاقارب والاصدقاء الكبار وبالتالي التجول في الشوارع وركوب الخيل والعربات التي تجرها الخيل وشراء الشكرات وغير ذلك. ورغم اننا كنا نملك الفرس في القرية واني تعلمت هناك الفروسية وخوض المسابقات المحلية مع الفرسان بمناسبةعرس ما، فاني كنت ادفع نقودا من عيديتي في المدينة لاركب ـ ضمن الاطفال ـ فرسا مئة متر. كان الكبار يكتفون في العيد بتبادل الزيارات لبعضهم وتقديم الشكرات والشاي او تقديم القهوة الى البعض. في حين كان مهرجانا حقيقيا للصبية. وكان اكبر مبلغ يأتيني في العيد وانفقه كله تقريبا. واكبر عيدية حصلت عليها كانت ستة دراهم قدمها لي صديق ابي الشاعر نوري الشيخ صالح يوم ذهابنا لزيارته.

في احد الاعياد تعذر الحصول على ملابس جديدة. فاشتريت الصبغ باربعة فلوس وصبغت به صايتي العتيقة. وكنت في سن المراهقة. لبستها في اليوم الاول غير مبال باخضرار قميصي الابيض تحت الصاية. وفي اليوم الثاني تكدر مزاجي حين انحنيت لاخذ بعض الحلوى من بائع جالس على رصيف الشارع المزدحم فتمزقت الصاية وخجلت من نفسي وعدت الى البيت زاعما بان الناس كلهم اخذوا يتفرجون علي ويضحكون على ماحدث لي. في المدينة واصلت الدراسة، وانا مقيم في البيت.

درست مبادئ النحو والصرف . وكان والدي معلمي الرئيسي. درست كتابا يدعى (تصريف الزنجاني) اظن انه ظل يدرس منذ حوالي الف سنة. وكنت في السادسة عشر من عمري عندما الح علي والدي كي اذهب الى احد الجوامع في قرداغ أو حلبجة أوبياره وادرس كطالب دين ، لعلني اصبح عالما دينيا واحتفظ لاحقا بجامع ابي كما احتفظ هو به بعد وفاة والده. لكني لم البِ رغبته ولم اخف عنه باني اريد دخول مدرسة مسائية اعتيادية بدل الدراسة الدينية. وبين اصراره على ان ادرس الدين واصراري على رفض ذلك توصلنا الى حل وسط : اظل في البيت واجمع بين مايريده هو وما اريده انا. فسجلت في المدرسة المسائية وتابعت في الوقت نفسه دراسة النحو والصرف لدرجة الاستيعاب والاتقان . ومع اجتياز الدراسة الابتدائية ساهمت كشاب نشط في جمع التواقيع على عريضة تطالب بفتح متوسطة مسائية. واستجيب لطلبنا. فأسست لنا المتوسطة المسائية، لكنها شبه اهلية وكان علينا ان ندفع اجور الدراسة السنوية بقسطين، كل قسط 4,5 دينار . وكنت ادبر هذا المبلغ بصعوبة بالغة.

وقبل الانغمار في النشاط السياسي كنت اقضي قسطا غير قليل من الوقت مع اصدقائي من طلاب الدراسة الدينية وكنت انتظر بفارغ الصبر مساء كل اثنين وكل خميس لاذهب الى حيث كان هناك حشد منهم لممارسة العاب مسلية في حجرة احد الجوامع .وكان يوما الثلاثاء والجمعة هما العطلة الدراسية الموروثة لطلاب الدين. وبالتعاون مع احمد بانيخيلاني وعزيز جوانرويي اسسنا جمعية ثقافية –اجتماعية شبه سياسية لطلاب الدين .وفي اجتماع لهيأتها العامة انتخبت الجمعية قيادتها . كنا ندرس لاعضائها مواضيع الجغرافيا والرياضيات وما شابه. وبرز فريق معارض لنا، ربما بتحريض من بعض الملالي، متهما ايانا بالذندقة واشاعة الكفر. وكان طلاب الدين موزعين على الجوامع بمعدل 2-4 لكل جامع، يتلقون الدروس صغارهم من كبارهم من علماء الدين ، ويعتاشون على الخبز الذي يجمعونه يوميا، من كل بيت خبزة في نطاق الحي ، وعلى معونة او طبيخ بعض البيوت في المساء. كان المجتتمع هو الذي يتكفل باعاشاتهم فترة دراستهم . وعلى هذا النحو كانت تتكون الفئة المثقفة من المجتمع طيلة قرون متعاقبة.

- وكان لي اصدقاء من ابناء المحلة التلاميذ ايضا .واقربهم الي حسن عنبرخان وكريم شريف وغيرهما ممن كنا نجلس في دكان عارف وهاشم ولاحقا علي فوتاو-لقضاء سويعات في الاحاديث الموسلية.

كنت انتظر بفارغ الصبر شهر رمضان من اجل السهرات في لياليه الممتعة، التي كانت تبدأ بعد صلاة التراويح وتنتهي باطلاقة مدفع السحور . كان والدي يسهر طيلة رمضان مع فريق من زملائه رجال الدين وبعض اصدقائهم ، بالتناوب بين الجوامع . يقضون الوقت بالضحك وتبادل النكات ولعب الداما واحيانا بالغناء والطرب، بمشاركة شبان مغنين امثال صالح ديلان وقادر حاجي حسين وغيرهما. وكان المجلس الساهر يتناول الشاي والفواكه في كل ليلة.

كان بيخود الشاعر احد المشاركين الثابتين في سهرات رمضان واحد لاعبي الداما الرئيسيين . وكانت علاقات الصداقة بينه وبين والدي متينة منذ عهد الدراسة في شبابهما . وكان نفسه رجلا مرحا ولبقا في الحديث حافظا لنكات كثيرة . بضمنها النكات الجنسية، سيما الخاصة بممارسة الجنس مع الاولاد. وكان ميالا الى الطرب والغناء وعلى صلة ببعض الشباب المطربين. وعاش في بيت اخيه ولم يتزوج قط لسبب لاأعرفه.

ذات ليلة حضر سيد علي بسم الله في مجلس السهرة وجلس هادئا متفرجا على لعبة الداما. لكنه لم يترك ليتمتع بالسهرة . فقد حرضنا احد الكبار على كتابة كلمة(بسم الله) على قصاصة ورق لرميها امامه . وحين قرأها نهض بعصبية شاتما ممزقا للقصاصة وانسحب من السهرة . ولم اره بعد ذلك في اي سهرة.

****

في زياراته للسليمانية كان قانع الشاعر يتخذ من حجرة في جامع والدي فندقا له. وأتذكر انه القى قصيدة على جمع صغير في الغرفة، تناول فيها معاناته من الفقر واحرمان ، وأثار بها اعجاب المستمعين . وكان شاعرا ريفيا مقبولا لزمانه، ساخطا على نظام الحكم وعلى الاقطاع والمستغلين.

****

الى جانب معاناتنا من الفقر والحرمان كان في بيتنا مشكلة ابدية اخرى ،مشكلة العداء المستحكم بين امي وبين الزوجة الثانية لوالدي. كانت امي تنظر الى تلك كمعتدية اتت لتشاركها في بعلها . وكانت هذة المشكلة محلولة نوعا ما حين وجودنا في القرية ولالاخرى في المدينة. ولكنها احتدمت حين اصبحت الا مرأتان متقابلتين داخل بيت صغير ليل نهار. وأظن ان والدي قد ادرك لتوه مشكلة ان يكون لرجل واحد زوجتان ، خاصة في ظروف الفقر والحرمان . وكان يروي نكاتا عن رجال متعددي الزوجات ، منها ان احدهم تأخر في العودة الى البيت – وكانت زوجتاه في بيتين منفصلين، وهو يبيت عندهما بالتناوب . وعندما دق الباب ظنت زوجته انه خدعها وكان حتى ذلك الوقت لدى الزوجة الثانية . فأبت ان تفتح له الباب وصرخت من وراء الباب:

- عد الى حيث كنت حتى الان.

وحين دق الباب على الزوجة الثانية تلقى نفس الجواب وذهب مظطرا الى الجامع لينام في بيت الله بعيدا عن كلا بيتيه.

بعد سنوات من الاقامة المشتركة في بيت صغير اشترى والدي قطعة الارض – صغيرة كانت ذات يوم مقهى (سرضمن) الشهير وبني فيها غرفتين وطرمة طينية لتنتقل امي اليها. فخفت المشكلة بعض الشيء اذ كانت تفصل بين الزوجتين مسافة خمسين مترا.

كانت محطة توليد الكهرباء - او طاحونة الالكتريك ، كما سماها الناس – قريبة من بيتنا ويزعجنا هدير الماطور ، بالاخص في فصل الصيف حيث كنا ننام فوق السطح. وكان يجري ماء ساخن من المحطة ليصب في حوض جامع (حمزة أغا) . وقسم الحوض بسياج خشبي الى قسمين ليمكن لشخصين الاغتسال فيهما في أن واحد . وطوال فصل الشتاء ، وخصوصا في ساعات الصبح الباكر ، كان الناس يتقاطرون على هذا الحوض الدافيء لأن الاسلام يفرض عليهم الاغتسال بعد ان جامعوا زوجاتهم او احتلموا او ما شاكل.

****

تمنت ضيفة قروية عندنا ان تعود الينا عندنا ان تعود الينا بعد سنة لترى في بيتنا الانارة الكهربائية. فردت عليها امي:

- الفانوس النفطي يكفينا ولسنا بحاجة الى الانارة الكهربائية. ادعي لنا كي ندخل الى البيت حنفية الماء ونتخلص من نقل سطلات الماء من بيوت الاخرين الى بيتنا.

****

كم قصت علينا عمتي حكاية عفريت كان يقطن زقاقا ضيقا قرب منزلها الصغير .كنا ،انا وابنائها محمد وسائر الصغار ، على ثقة تامة بصواب ماكانت تقص . كان العفريت يزيد من حركته ليلا ويظهر احيانا في صورة قط او كلب او معزة او انسان غريب الشكل...الخ . وفي ليلة من ليالي رمضان، وكان التيار الكهربائي قد انقطع في حينه ، سألوني في البيت اذا كنت قادرا على اخذ طبيخ الرز الى عمتي ساعة السحور. فأجبت بالايجاب وأخذت أنية فيها الرز لأنقلها عبر مسافة مظلمة تقارب 250 مترا.وعندما وصلت الزقاق الذي يسكنه العفريت تراءى لي اني ارى العفريت قادما من الجهة الاخرى، وقد اتخذ شكل قطة . فتعطلت قواي الحركية او انهارت كليا وكأن طنا من الحديد قد القي على رأسي. القيت بنفسي على باب احدهم ودققته بيدي طالبا للنجدة. وبدأت اكرر تلقائيا كلمة(بسم الله.. بسم الله). لم يفتح لي الباب ولم ينجدني احد . لكني استعدت شيأ من قواي وتمكنت من متابعة السير ، وفي يدي أنية فارغة ، حتى وصلت بيت العمة ودققت الباب بقوة مستنجدا:

- افتحي الباب سريعا يا عمة.

اسرعت في الباب وسألت:

-ماذا حدث لك.. بسم الله الرحمن الرحيم ؟

- لقد داهمني العفريت .

- كنت اعرف ان هذا سيحدث ... بسم الله الرحمن الرحيم.

اوصلتني العمة مع امرأة جارة الى بيتنا . وخلال اشهر اعقبت ذلك كنت اخشى اي ظلام ليلا كان ام نهارا.

****

في ضاحية المدينة وبين اشجار العرعر، بجانب جامع سمي تكية الشيخ سعيد ، كان مقهى فرج الموسمي: كراسي خشبية صغيرة وبسيطة بين الاشجار وفي ظلالها ، على العشب الاخضر وفي الهواء الطلق. يمكن لمن يرتاد المقهى ان يتناول قدحا من الشاي او يتناول الخس مع بعض الخل، او باقلاء مسلوقة. كنت اجلس احيانا بين الاصدقاء في هذا المقهى ، معتبرا اياه قمة الطرب، وقد اصبحت في سن المراهقة. كان يزيد من جاذبية المقهى ان صاحبه نصب مذياعا يبث برامج عربية من لندن وقبرص وانقرة. وكنا نسمع اخبار الحرب الدائرة. وقد جلس معنا ذات يوم شاب من اهالي قرية (تكيه). وكان طالب دين وابن ملا القرية. وعندما بدأ المذياع المعلق على جذع شجرة يتكلم بصوت عال سألني الشاب محمد ، وهو يرى المذياع لأول مرة في حياته:

- من الذي يتكلم هناك؟

- انه مذيع يتكلم من لندن، على بعد ألالف الكيلومترات ، ونسمعه هنا.
- وكيف يصل الصوت من لندن الى هنا؟
- انه العلم يوصله الينا.
- يستحيل ذلك . اقسم بالله ان المتكلم هو الشيطان.

كنت عاجزا عن اقناع الشاب بأن المتكلم هو انسان مثلنا جالس في غرفة ما بلندن. لكن الصدف خدمتني . ففي تلك اللحظات بدأ المذياع بتلاوة أيات من القرأن . وسألت صديقي عما اذا كان للشيطان ان يقرأ القرأن . فأجاب:

- استغفرالله العظيم . لايمكن للشيطان ان يتلو أيات القران ابدا.

****

اطلق تاجر الاقمشة سيد علي رصاصة من مسدسه على رأس ابنته البالغة من العمر عشرين عاما، وكانت نائمة في الصباح الباكر. وقيل ان السبب كان علاقة غرامية وصلت حد الممارسة الجنسية مع شاب من زملائها. وقد احتجت فئة واسعة من سكان السليمانية ، سيما من الشباب. وعبرت عن مشاعر السخط تجاه الاب القاتل بالمشاركة في تشييع جنازة الفتاة الى مقبرة سيوان كما لو كانت مستشهدة . وقد سجن الاب وحكم عليه بعشر سنوات.

وتزوج جار لنا من فتاة جميلة، طبعا من دون علاقة مسبقة بينهما.. وفي اول ليلة من الزواج، حين جامع زوجته وجدها- حسب زعمه – غير باكر لأن الدماء لم تسل من فرجها ولم تصبخ المفرش الابيض. فتركها في الحال وطردها من بيته في صبحية اليوم التالي طردا ابديا.

وكان لشاب من اقربائي قصة مغايرة مع زوجته .ذهب اليها ولم يستطيع ممارسة الجنس معها، لافي الليلة الاولى ولا في الليالي القادمة. وقد اشيع الخبر وتكدر مزاجه. واكد بعضهم ان هناك سحرا قد جرى ساعة عقد المهر. فكان لابد من الاستعانة بساحرة معروفة تدعى (كوله ناني) او زميلة لها تدعى (عاصة بيضرينة) ، وهي تتعاطى السحر لقاء مبلغ زهيد وتطبل مفعول السحر السابق المدبر من شخص أخر. وقد نجحت الساحر ة، التي تفرجت من خلف الشباك ، بدافع الفظول ، على كل ما فعلت فدخل الشاب على زوجته وأفلح في "اقتحام القلعة" الحصينة التي عصت عليه طيلة الايام العشرة الماضية.

****

كانت معاملات الناس البسطاء تعطل عمدا في دائرة تجنيد السليمانية لكي يدفع المراجعون الرشاوي لقاء تمشيتها. وعبثا حاولت تمشية معاملة قروي من اقاربي خلال 3-4 ايام ومن دون دفع الرشوة. ودفعت لنائب الضابط الكاتب ربع دينار ورقي بعد ان دونت عليه اشارة معينة . ومشيت المعاملة . وقررت الشكوى فذهبت الى ضابط التجنيد الكردي ، وهو من ابناء عائلة ارستقراطية في السليمانية. وأوضحت له كل شيء . كنت اتصور انه سيتخذ اجراءات ضد الكتبة في دائرته ولم ادرك انه شريك رئيسي في الرشاوي التي يأخذونها الا بعد ان اتضح الامر جليا حيث اكتفى باستدعاء نائب الضابط واسترجاع المبلغ منه بهدوء تام ودون توجيه كلمة مزعجة اليه ناولني اياه قائلا:

- استطيع ان اعتقلك الان لانك دفعت الرشوة. ولكني لاأفعل ذلك في هذه المرة. خذ فلوسك ولاتقرب ثانية من هذه الدائرة.

****

منذ اواسط الاربعينات تحول عيد نوروز في مدينة السليمانية الى مهرجان شعبي حقيقي يشارك فيه الغالبية الساحقة من سكان المدينة.

كنت اذهب يوم المهرجان منذ الصباح الباكر وبسرور كبير الى ضاحية المدينة- بجانب تلة (مامه ياره)، حيث كان الشباب والاطفال والكهول يحتشدون ليحتفلوا بعيدهم القومي. كانت هناك في اماكن منفصلة عن بعضها الدبكات والموسيقي والاغاني الحماسية الفردية والجماعية.وكان الشبان والشابات يرتدون افضل ملابسهم ليأتوا الى المهرجان ويدبكوا سوية. فيما كانت هناك عوائل جالسة على العشب الاخضر يتوسطها السماور والطعام الذي جلبته من البيت خصيصا لهذا المهرجان .وهناك حشود صغيرة اخرى متفرقة منصرفة، بعضها الى لعب الداما- وكانت لعبة شعبية بين الاكراد وفي المدن والارياف- والبعض الاخر الى لعب الورق او تبادل النكات.ولم يندر ان يجلس بعضهم في زاوية منعزله لشرب الخمر.

كان ثيرةميرد المنظم الاول للمهرجان. وكان يدبر طبخ ثلاثة ألاف دولمة لتوزيعها على المشاركين في المهرجان او على بعضهم.

وفي احد هذه المهرجانات قرأ بيكس قصيدته الشهرية(بيست و حةوت سالَة من رةنجبةري تؤم- أنا شغيلك منذ 27 سنة) امام الضابط الانطليزي الذي كان يجلس بجانب ثيرةميرد.

****

شاهدت بغداد مرة قبل ان انخرط في النشاط السياسي. كنت بصحبه والدي وفلاح شاب من قرية تكية. وذهبنا بمهمة البحث عن جثة القروي الشاب طاهر ، الذي كان قد غرق او اغرقه احدهم طمعا في دريهماته، في نهر دجلة بالقرب من سامراء ، وكان هذا المسكين قد انطلق من قره داغ ، وهو يسوق حمارين محملين بالتبوغ. ولم يتوقف حتى وصل الى مكان ما من نهر

دجلة بأمل ان يبيع بضاعته بثمن غال. وقد فقد تبوغه وحياته معا. وعبثا حاولنا العثور على جثته، وسبب موته بهذه الصورة حزنا ابديا عميقا لوالده عبدالله القروي المسن الذي مات فيما بعد بلدغة افعى.

لم ار اثناء زيارتي تلك شيئا من بغداد سوى شارع الرشيد. كنت اسير فيه لأتفرج على السلع المعروضة في المخازن ، وأنا لاأملك في جيبي سوى بضعة عشر فلسا . وبعد عودتي الى السليمانية بشهرين حصلت على دينار بكامله وتمنيت لو كان ذلك قبل سفري الى بغداد.

كنت مع ثلاثة من اقاربي القرويين في احدى حجر الجامع مساءا.كان بينهم(أخان) الفلاح الفقير ذو العينين الضعيفتين . وطلبت منهم اطفاء الضوء الكهربائي حين الرقاد. وقلت لأخان : "انظر الي كيف اطفىء الضوء بالنفخ . ينبغي ان يعرف المرء من اين ينفخ".وفيما كنت اضغط على الزر في الحائط كنت انفخ على اللمبة فتنطفىء . وطلب زميلاه من أخان ان يجرب ويتعلم قبل خروجي من الغرفة- وكانا يفعلان ذلك عن عمد ، وللضحك عليه . ونفخ أخان تكرارا لكي ينطفىء النور. ولم ينتبه حتى النهاية بأن هناك زرا لاشعالها واطفائها . كان زميلاه يلومانه لانه لايعرف المكان الذي يجيب ان يركز عليه النفخ .

****

في فترة انتصاراته على الحلفاء كان الحاكم النازي هتلر يستأثر بعطف الكثيرين في العراق ، دون ان يفهموا شيئا من طبيعته . كان للانطليز ما يحملهم على التعاطف مع هتلر . لكن امزجة الناس قد تغيرت، ولم يبق مع هتلر سوى اثرياء الحرب، حين انتقل الجيش السوفيتي الى الهجوم وأخذ يلحق الهزائم بالجيش الالماني . وقد اصبح السوفيت موضع العطف لدى بسطاء الناس.

****

في القرية كنت اساهم في اعمال زراعية بسيطة كسقي التبغ وتقديم العلف لفرسنا وحمارنا او الذهاب مع اخواتي فاطمة وعطية الى بستان العنب لقطف عناقيده ونشرها تحت الشمس كي تتحول الى زبيب. وكنا نغلي الرماد .ولنطمس فيه عناقيد العنب قبل نشرها . كان الزبيب بهذه الطريقة انظف وأجمل وأكثر ليونة.وخلال السنوات الثماني التي قضيتها في المدينة لم امارس عملا اكسب منه بعض الدراهم سوى الاشتغال ثلاثة ايام عامل بناء ولقاء درهم لكل يوم. لكنني ظفرت ذات صيف ،وكنت شابا واعيا ،بوظيفة وقتية في دائرة الصحة . اشتغلت 3-4 اشهر عاملا في مكافحة الملاريا لقاء راتب شهري دسم – 12 دينارا شهريا. واشتريت من أول راتب هدايا لأمي وأخواتي . وكان المسؤول عنا، نحن العمال العشرة، شاب بغدادي دعي عبدالكريم اليعقوبي. وحين زرته في غرفته ذات مرة وجدت لديه كتابا من منشورات اعلام الحرية وأخذته لأقلبه فأنتزعه اليعقوبي مني وقال :

- مالك ولهذا الكتاب ؟اتركه . فهو كتاب شيوعي ممنوع.

ولوج المعترك السياسي

غيرت المدينة منهج حياتي ومجرى اهتماماتي . هنا، بخلاف ماكان في القرية ، حشود من الناس، اسواق ومدارس ودوائر ومقاهي وراديو وصحف وكتب..الخ. ودون أية خطة مسبقة وجدت نفسي أنجذب تدريجيا – شأن أخرين من أقراني – الى النشاط السياسي. وكانت أجواء السليمانية مشجعة على ذلك.ولم يرافقني أي من أقرب أصدقائي ، في بادىء الامر، الى دخول الحلبة السياسية. ولكني اكسب اصدقاء جدد من الشبان المهتمين بالسياسة.

كان أول اهتمام لي بالسياسة في تطورات الحرب العالمية الدائرة. وكنت افرح بأنتصارات السوفيت على الالمان . وكنت أقرأ مايقع في يدي من مطبوعات باللغة الكردية، التي كانت في تلك الفترة لغتي الوحيدة للمطالعة .كنا مشتركين في مجلة"طلاويذ" الكردية. وكان علاءالدين سجادي، طالب الدين السابق في الجامع جدي، يرسل لنا الاعداء مجانا.والشىء نفسه بالنسبة لجريدة "ذين" التي كان يصدرها ثيرةميرد وكان صديقا لوالدي.

قبل ان تضع الحرب اوزارها ازداد اهتمامي بمطالعة الصحف اليومية القادمة من بغداد . وقد تقوت لغتي العربية. وفي تلك الايام نفسها وقعت في يدي ذات يوم لأول مرة جريدة(القاعدة) السرية الصغيرة وطالعتها بشغف. وبعد ايام حصلت على جريدة(أزادي) السرية التي كانت تصدر باللغة الكردية وتنطق، شأن القاعدة، بلسان الحزب الشيوعي . وبعد ذلك غدوت أبحث بنفسي عن هاتين الجريدتين. كان ذلك بداية اتصالي بالحركة الشيوعية في العراق. وقد وجدت نفسي مؤيدا لها لأنها كانت متحيزة الى الفقراء . الذين كنا منهم. وكانت ضد الاستعمار الاجنبي وأعوانه الحكام المحليين . ولم يلبث أن بدأت أبحث عن الكتب الماركسية والتقدمية واطالع منها مايقع تحت يدي، ومن اول ما طالعته منشورات سلسلة اعلام الحرية. منها كتاب (جمال الدين الافغاني) و(كروموبل)الذي قاد ثورة في بريطانيا، و(أبو ذرالغفاري)الذي مثل تيارا يساريا تقدميا في الاسلام. وقرأت بعض مؤلفات سلامة موسى . ولكني لم اتأثر بأي كتاب قدر تأثري برواية الأم لمكسيم غوركي، التي كانت مترجمة الى العربية في العراق.وهي من الروايات النادرة التي رغبت في قراءتها للمرة الثانية.

كان لمكتبة "بيري نوي"- "الفكر الجديد" – أثرها البارز على نشاطي الفكري . وهي كانت مكتبة الشبيبة الشيوعية والتقدمية في المدينة. كنا نستعير منها الكتب لقاء اجور رمزية لنطالعها ولنشجع الاصدقاء والمعارف على مطالعتها . وفي الوقت نفسه كنا نسعى لجمع الكتب التقدمية هنا وهناك وتقديمها الى المكتبة مجانا.
ومنذ وقت مبكر غدوت احد المترددين يوميا على دكان(قادر أغا العطار)الذي وضع فيه صاحبيه بعض المساطب لجلوس امثالي من المرتادين يوميا لمطالعة الصحف البغدادية لقاء دفع اربعة فلوس. وكان الرجل يبيع الصحف ايضا لمن يشتري . وكانت مشكلتي هناك هي صعوبة دفع الاربعة فلوس في بعض الايام.لكن قادر أغا كان يتسامح ويقبل تأجيل الدفع الى الوقت الذي تتوفر فيه النقود.
وحين دخلت الانارة الكهربائية منزل عمتي واشترت بعدئذ مذياعا توفر لدى مصدر أخر هام لمتابعة الاخبار العالمية اذ كان الذهاب الى هناك امرا ممكنا وعاديا في أي وقت.
ْْْ**********

كانت الحرب في أو اخر أيامها حين وصلت الى السليمانية سيارة وفيها ألة سينما سيارة وافلام تعرض انتصارات القوات البريطانية والمتحالفة على القوات الهتلرية . وأختيرت ساحة مدرسة واقعة في مركز المدينة لعرض الافلام.كنا نكره الانطليز بوصفهم مستعمرين. ولهذا كنا ضد عرض افلامهم.ولم يسمح لها بالعرض فعلا اذ قطعت الاسلاك،بعد بدء العرض ، وخربت العملية وارتفعت الهتافات ضد الاستعمار. فأنسحبت سيارة السينما . ولا أتذكر أي عرض من هذا القبيل بعدئذ.
بدأت في العراق ، مع انتهاء الحرب الثانية، فترة من التنفيس وتخفيف الملاحقات وسمحت السلطات بتشكيل عدد من الاحزاب القانونية .. الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاحرار وحزب الاستقلال وحزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني ...وقد حاول سكرتير ح ش ع فهد الاستفادة من هذا الفرصة لايجاد واجهة قانونية يمكن للشيوعيين أن يمارسوا عبرها نشاطهم السياسي. ويبدو ان اتفاقا قد عقد بين فهد وعزيز شريف ليكون حزب الشعب، الذي اسمه الاخير، هذه الواجهة. الا ان عزيز قد خرق الاتفاق. واضطر فهد على تدبير الامر بشكل مغاير. فتقدمت الهيأة المؤسسة لحزب التحرر الوطني،شأن سائر الهيئات المؤسسة لاحزاب اخرى ، بطلب الاجازة. وكان من غير المؤمل استحصال الاجازة بأسم ح ش ع.
وبتوجيه من قيادة ح ش ع اقترن طلب اجازة حزب التحرر في العاصمة بتنظيم حملة واسعة من التأييد، عن طريق العرائض والبرقيات في مختلف المدن والقصبات الى السلطات الحكومية ، لدعم هذا الطلب. كان ذلك أواخر ذ945 وأوائل 1946. وقد شاركت بنشاط في هذه الحملة داخل مدينتي. واصبحت هذه المشاركة بمثابة بطاقة انتماء الى الحزب اذ اعتبرت نفسي منذ ذلك الحين ، واعتبرني الاخرون ايضا، شيوعيا منتسبا دون ان املأ يوما ورقة الترشيح للعضوية ودون ان استلم اشعارا بالقبول. وبالنظر الى انني لم اكن منشغلا في تلك الفترة بشيء سوى الدراسة المسائية، التي كانت تأخذ القليل من وقتي، فاني كنت قادرا على تكريس جهد كبير للعمل الحزبي- السياسي منذ بدء انضمامي.
في تلك الايام كانت الجماهير الشعبية تعرفنا – في مدينة السليمانية – باسم" التحريين "دون ان تجهل بأننا شيوعيون. وأظن ان بالامكان اعتبار حملة التأييد لاجازة حزب التحرر نقطة تحول في تأريخ الحركة الشيوعية بتلك المدينة اذ ادت الحملة الى اثارة وتحريك الجو السياسي لصالح ح ش ع والتفاف غالبية الشباب حوله وتحويله الى تنظيم سياسي جماهيري فعال.
في تلك الايام تعرفت على انشط الشبان الشيوعيين في المدينة امثال انور حمة أغا، الذي انظم الى الحزب وهو طالب في دار المعلمين العالية(كلية التربية)ببغداد، واحمد غفور ، الذي انتمى وهو طالب في دار المعلمين الريفية، وغفور كريم الذي كان من اوائل المنتسبين في السليمانية وغيرهم من الشباب.
في 1946 قرأت، لاول مرة ،جريدة كردية سرية مطبوعة بالالة الكاتبة والرونيو وتحمل اسم "رزطاري".ولم تستهوني مواضيعها كثيرا، بالمقارنة مع نشرتي "أزادي" و"القاعدة".
وكغالبة الشباب في السليمانية أنئذ ، كنت اتابع من بعيد اخبار جمهورية مهاباد في كردستان ايران وأقرأ مواضيع جريدة كردستان التي تصل الينا .وكنت ابحث في كل عدد منها عن اشعار جديدة لهيمن وهذار. ورغم انني لم اكن بالمستوى الذي يسمح لي بتحليل الوضع هناك على اسس سليمة، فأني اذكر طعاتفنا مع الجمهورية الفتية، وتأثيرها البارز في انعاش حركة التحرر القومي بكردستان العراق عامة ومدينتنا بوجه خاص .وكانت مركز النشاط الثوري (الوطني والقومي) بالنسبة الى كردستان العراق.
في 1947 زارني ذات يوم صديقي مصطفى محمد ، وكان طالبا في ثانويا السليمانية، واختلى بنا، أنا وصديقي احمد بانيخيلاني وفتاح – وكان طالبين دينيين في جامع والدي – في احدى غرف الجامع واخرج من جيبه قرأنا وضعه امامنا واستحلفنا به:

- اقسم بهذا المصحف الشريف انني لن اخون الكرد وكردستان.
- ولماذا هذا القسم؟ -سألته انا.
- لكي اضمكم الى صفوف الثارتي (ث . د . ك)

اظن ان مصطفى كان قد ضم حديثا الى صفوف الثارتي وبنفس الطريقة التي لجأ اليها لكسبنا . وقد بادرت الى الاجابة:

- أنا لن اقسم ولم انتمي الى الثارتي ...لي حزبي الذي اعمل فيه. اتخذ صديقاي بانيخيلاني وفتاح موقف الرفض لطلبه وغادرنا الغرفة. وخجل مصطفى من نفسه وبعد اشهر قليلة أتاني ليبشرني بأنه ترك الثارتي وانضم الى حزبنا.

****

في 1947 اصبحت ، لأول مرة، منظما لخلايا حزبية كسبت البعض من اعضائها ورحل الي البعض الاخر من خطوط تنظيمية اخرى. كان اعضاء تلك الخلايا خليطا من عمال وكادحين وطلاب وغيرهم، بينهم نجار مختص بصنع المهود للاطفال الاكراد دعي نوري وعامل بناء دعي عبد اللة وشاب خباز على ما اذكر - دعي محمود ضالاك وعامل بناء دعي عبدل...الخ. وبعد وثبة كانون 1948 ازداد عدد الاشخاص الذين كنت انظمهم. كنت اعقد الاجتماعات الحزبية لبعض الخلايا الحزبية في غرفة صغيرة، وبالاحرى في قبو مظلم منزلنا لم يكن لها شباك ولم يدخلها يوما نور الشمس منذ ان بنيت وسقفت. كنا نضيئها باشعال فتيلة نفطية لايلبث ان تملأ الغرفة بدخان اسود وان يصبح بصاقنا اسود اللون. ولم يندر ان اعقد الاجتماعات الحزبية في الغرفة الصغيرة الملاصقة لغرفة والدي في الجامع. وكان الوالد يلاحظنا احيانا ويعرف ما نعمل. وكان يلتزم الصمت رغم عدم ارتياحه من انخراطي في النشاط السياسي.

****

في ايام محاكمة السكرتير العام للحزب يوسف سلمان (فهد) كنت اتخذ مكانا لي في دكان قادر آغا قبل ان تصل الصحف اليه. كنت انتظرها بفارغ الصبر لأقرأ وقائع المحاكمة المنشورة في اكثر من جريدة. كانت المحاكمة علنية وكان في قاعة المحكمة مراسلو الصحف ومواطنون عاديون - أذكر ذلك لأقارن بين العهد الملكي وبين عهد النظام البعثي التكريتي. وحين كنا نغادر دكان قادر آغا كنا نظل مع الموضوع نفسه في مناقشاتنا وتعليقاتنا.

طيلة 1947 وفيما بعدها كانت المناقشات محتدمة، ولكن بقدر من الديمقراطية والاحترام المتبادل، بيننا وبين الثارتيين. وكان النقاش يدور حول نقطتين رئيسيتين: هل الاكراد أمة أم لا ؟ وهل يصح وجود تنظيم شيوعي في كردستان أم لا؟ نحن كنا نناقش الامور من منطلق الجمود العقائدي وعلى ضوء ما كتبه ستالين حول الامة باعتبار ذلك رأيا صائبا غير قابل للنقاش والجانب الثاني كان يناقش ايضا بعيدا عن الاسلوب العلمي. فكانت الحقيقة ضائعة بين هذا وذاك. وكانت نزعة الاحتكار لحق النشاط السياسي موجودة في ثنايا النقاش لدى الطرفين.

****

كنت في قرية تكيه حين وصلتني اخبار انتصار وثبة كانون الثاني 1948. في اليوم التالي دخلت جامع القرية واستأذنت من الملا لكي اتحدث الى الحضور بعد الانتهاء من صلاة الجمعة مباشرة. تحدثت بضع دقائق في اول ندوة سياسية شهدتها القرية. اشرت الى ان ما حدث يبرهن على ان الشعب هو الاقوى حين يهب للنضال بصفوف موحدة. وقد دعا الجميع اللة والامام حمزة ليكونا في عون الشعب ضد الانكليز وضد الكفرة والفاسقين. وكان من الصعب للغاية ان يفهم القروي الامي المنعزل في قرية نائية ما يجري في شوارع العاصمة من صراعات سياسية معقدة. وحين عدت الى السليمانية وجدت جوا سياسيا جديدا منعشا ومغايرا كليا لما كان قبل بضعة ايام. وحتى خالي، العالم الديني البارز مصطفى، الذي كان يلومني في الماضي لأني سائر - حسب قوله - وراء الاوهام، هنأني بالنصر حين التقينا وقال بحماس:

- الان آمنت بأنك كنت على حق يا بهاء.

وقد غدا بأمكان العراقيين لأول مرة، في ظروف النهوض الثوري العظيم، ان يخرجوا بحرية الى الشوارع في مظاهرات تهتف بما يريدون وتعبر عن مشاعرهم دون خوف من ان تهاجم الشرطة وتعتقل وتقتل كما كانت تفعل سابقا. كان الحقد الاشد منصبا على الاستعمار البريطاني واعوانه الحكام المحليين. ولم يكن في السليمانية ما يرمز الى الوجود المباشر للاستعمار البريطاني سوى المركز الثقافي البريطاني، الذي له مدير محلي كردي من اهالي المدينة ومنبوذ شعبيا دعي علي ملا شريف. فنظم الشيوعيون مظاهرة جماهيرية هتفت ضد الاستعمار وداهمت المركز الثقافي المذكور واشعلت فيه النيران. ونجا علي من ايدي المتظاهرين لكن دراجته البخارية قد احرقت. وفي اليوم التالي انتظم حشد كبير من الصبية وساروا في مظاهرة حاملين بقايا الدراجة المحروقة.

لقد اسقطت الوثبة وزارة صالح جبر وبعدها اشتدت المطالبة الشعبية بحل المجلس النيابي الذي كان مهيأ للتوقيع على معاهدة بروتسموث. واضطر البلاط على حله واصدار قرار باجراء انتخابات نيابية جديدة. وقرر ح ش ع ، ربما لمرة الاولى في تاريخه، المشاركة في الانتخابات. وكان الانكليز قد شرعوا، او نقلوا من الهند، قانونا انتخابيا مغايرا لما كان في بريطانيا نفسها وملائما لضمان تسلط السلطة التنفيذية على البرلمان. بموجب هذا القانون كانت الانتخابات تجري على مرحلتين. في الاولى يقوم الناخبون من الذكور وحدهم بانتخاب بضع عشرات في كل دائرة انتخابية ممن سموهم ((المنتخبين الثانويين)). وفي المرحلة التالية، وتحت اشراف السلطات الادارية نفسها، كان المنتخبون الثانويون يجتمعون لينتخبوا النواب، فيما كان اعضاء مجلس الاعيان يعينون بكاملهم من قبل الملك. وكان من المنتهي ان يفوز مرشحو البلاط والسلطة بجميع المقاعد النيابية او غالبيتها الساحقة في كل مرة. لكن الوثبة الظافرة غيرت الوضع ولم يعد بمستطاع السلطة ان تزور الانتخابات. في ربيع 1948 ، وفي اجواء المد الثوري شاركنا في الانتخابات النيابية - وكانت هي المرة الاولى التي شاركت فيها في الانتخابات وصوت بحرية.

كنا، جميع الشيوعيين في المدينة، شبانا صغارا ولم تتوفر في أي منا الشروط القانونية ـ خاصة من حيث العمر ـ للترشيح الى النيابة. لم نعان من تهيأة قوائم المنتخبين الثانويين من بين الشيوعيين ومن آبائنا واقاربنا. وكنت بنفسي ووالدي ضمن قائمة حزبنا للمنتخبين الثانويين. وكان والدي فرحا وخائفا في آن واحد حين ابلغته ان اسمه ضمن قائمتنا. وكان مرشحانا للنيابة عربي هو شريف الشيخ العاني ، المدير المسؤول لجريدة الحزب المركزية الاساس التي صدرت بعد الوثبة، وآخر كردي ملاك دعي محمود هموند.

قبيل التصويت قمنا بحملات انتخابية وعقدنا اجتماعات جماهيرية. في اول اجتماع انتخابي القيت قصيدة ثورية حظيت بالاستحسان. وقال لي احمد غفور بعد الاجتماع:

ـ ان قصيدتك عرضت الافكار الماركسية باسلوب مبسط جيد.

وفي اجتماع جماهيري ـ انتخابي نخر عقد بساحة المدرسة الاعدادية في المدينة القيت قصيدة مكرسة لدعم قضية الشعب الفلسطينى ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية. سهرنا على الصناديق طيلة ساعات التصويت وطيلة ساعات فرز الاصوات. وسهر معنا ممثلو الثارتي وبعض المستقلين، اضافة الى الموظفين الحكوميين. كانت الانتخابات حرة فعلا وكان يتعذر على أي جهة تزويرها في تلك الاجواء، بخلاف ما كانت في الماضي. وفازت قوائمنا بالاغلبية الساحقة من الاصوات، بفارق شاسع بين قائمتنا وقائمة الثارتي المنافسة. فكان من المفروض ان يكون المقعدان النيابيان للمدينة من حصصنا. لكن الامور تغيرت كليا وبشكل مفاجئ، قبل ان تجري المرحلة الثانية من الانتخابات. فقد اعلنت الاحكام العرفية في 15 آيار 1948 وبدات حملة الملاحقات ضد الشيوعيين وسائر معارضي السلطة. وفي زيارة انتخابية له اعتقل مرشحنا للنيابة شريف الشيخ وحجز في مرحاض مديرية الشرطة. وفي الظروف المستجدة اعلن ح ش ع مقاطعة الانتخابات. أخذت السلطة كل المقاعد لمؤيديها، كما كانت العادة في العهد الملكي، تاركة بعض المقاعد للمعارضين البرجوازيين واحيانا لمعارضين مفتعلين.

****

دخل النشاط النقابي ـ الاتحادي، لأول مرة بعد الوثبة، الى مدرستنا ايضا. كنت في الصف الثالث المتوسط. وكانت مدرستنا كلها متميزة بأن تلاميذها كانوا شبانا كبارا لم يمكن لهم اكمال الدراسة في المدارس الصباحية. كانت المنافسة في الانتخابات الاتحادية بيننا وبين الثارتي وفزنا بفارق كبير في صالح مرشحينا. في صفنا رشحنا صديقا للحزب هو جمال محمد سعيد واخفق مرشح الثارتي علي محمود الذي لم أره بعد تركي المدرسة أواخر 1948 حتى عام 1960 حيث وجدته واحدا من رفاقنا الشيوعيين الذين اجتمعت بهم في شقلاوة بمناسبة عقد كونفرنس المعلمين في كردستان.

****

في ايام النهوض الثوري لما بعد الوثبة شاهدت العاصمة من جديد. ذهبت برفقة اختي وزوجها لمراجعة بعض الاطباء. وقدر لي ان احضر الجلسة الافتتاحية لمؤتمر السباع، أي المؤتمر الطلابي الاول في العراق الذي حضره مندوبو اللجان الاتحادية لطلبة الكليات والمعاهد والمدارس واسسوا فيه اتحاد الطلبة العراقي العام بصورة قانونية. في ساحة السباع، التي احتشد فيها دمهور طلابي كبير زاد عن الالوف، رايت الشاعر الكبير الجواهري وهو يلقي قصيدته (يوم الشباب تحية وسلام) وسط التصفيق والهتافات الجماهيرية الحماسية. وبعد عودتي الى السليمانية بايام زارنا وفد طلابي اتحادي من بغداد واستقبله طلاب السليمانية استقبالا حماسيا. وفي لقاء طلابي ضم بضع مئات القى الطلب الشيوعي بدر شاكر السياب قصيدة حماسية قوطع مرارا بالتصفيق.

****

في آيار 1948 اعلنت الادارة العرفية في العراق بذريعة تأمين مؤخرة الجيش العراقي الذي دخلت وحدات منه الى فلسطين وشاركت في الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى . كانت انظمة الحكم العربية قد رفضت قرار تقسيم فلسطين، الذي نص على اقامة دولتين فيها، وزعمت انها ستمنع بالقوة تنفيذه. وهي خسرت الحرب في فلسطين واستولت القوت الصهيونية على اكثر من نصف الاراضي المخصصة للعرب. لكن حرب فلسطين كانت ذريعة وغطاءا لحرب النظام العراقي ضد الحركة الوطنية وخاصة ضد ح ش ع ذي النفوذ الشعبي الواسع. وقد وضعت المخابرات البريطانية محططا متكاملا للحرب الاخيرة ضد الحركة الشيوعية والوطنية. فضح حزبنا جانبا منها بنشر وثيقة وقعت في ايديه ـ عن طريق احد العملاء المزدوجين ـ وكانت تقضي باثارة الفتن والصراعات القومية والطائفية والدينية بين العراقيين.

ولم تكن الهجمة البوليسية العنيفة، المقرونة بحرب فلسطين، المشكلة الوحيدة التي واجهتنا في تلك الايام. فقد كان قرار التقسيم وتأييد السوفيت له ومعارضة الاوساط القومية سببا لاثارة البلبلة الفكرية بين الشيوعيين في العراق ايضا. وزاد من هذه البلبلة نشر كراسة مترجمة الى العربية في باريس. وتضمنت مغالطات وتشويهات للحقائق، باتجاه التحيز الى اسرائيل وتجاهل حقيقة انها اسست منذ البداية على اساس الظلم والاغتصاب وتشريد الجماهير العربية من ارضها وسلب حقها المسورع. وكانت الحملة البوليسية العنيفة، التي وصلت الى حد سجن الالوف واعدام ابرز القادة الشيوعيين في العراق، لم تسمح لهؤلاء بدراسة الوضع المستجد برؤوس باردة وفي جو من الهدوء. ورغم اننا لم نشك في كفاءة القيادة السوفيتية لدراسة الوضع واتخاذ الموقف الصحيح الا اننا لم نكن قادرين على تفسير ما يجري من الاحداث امامنا.

****

خلال الاشهر الثلاثة التي اعقبت انتصار وثبة كانون اتسعت عضوية ح ش ع لدرجة غير معقولة وبصورة غير مبرمجة. لم يكن لدى الحزب الكادر القادر على استيعاب الجمهرة الواسعة من المقبلين على صفوفه. وكان ذلك احد الاسباب لاضطراب وضعنا التنظيمي اثر اتساع الحملة الارهابية. وكانت الحملة قد بدأت واشتدت بعض الشئ يوم جمعتني هيأة حزبية واحدة مع بهجت ومحمد مصطفى لبعض الوقت. وكان ينظمنا ـ ان لم تخني الذكرة ـ الشاب الشيوعي النشيط غفور كريم، الذي كان يعطي العمل الحزبي كامل وقته.

****

في صيف 1948، وقبل ان ادخل حياة الاختفاء، قمت بزيارتي الاخيرة الى قرية تكية، فالى مصيفي المفضل قوبي. كنت مع ابن عمتي، الذي لم يرتبط قط بأي نشاط سياسي بل كان هدفه في الحياة ان يشغل مكان أبيه المتوفي كأمام للجامع وأن يعيش في رفاه. ورافقنا ستة من اقاربنا الشبان في القرية. وبعضهم مسلحون ببنادق تصلح للصيد وحسب. فشل شبابنا في اصطياد اي حيوان يؤكل لحمه. لكننا لم نفشل في اصطياد العسل من افخر انواعه. فقد قال صديق انه يعرف نحلا بريا وقد نحصل على العسل منه. وماكان منا الا ان نوافق بحماس. تركنا معروف الذي كان يعشي في الليل. وذهبنا الى حيث النحل. امامنا شجرة بلوط كبيرة، وفي جوفها بيت النحل. ثقبها صديق نفسه بطبره، بعد ان غطى وجهه بيشماغه ونحن نتفرج على بعد بضعة عشر مترا. بان العسل في القسم الاسفل من الشجرة. بدأنا نأخذ العسل حتى ملآنا الطشت، الذي كان معنا لنعجن فيه، والقدر وسائر الاواني. قدرت كمية العسل بحوالي ثلاثين كغم. كنت في حيرة من أمر الاختلاف في لون طبقات العسل اذ كان الاعلى منها ابيض والاسفل اسود وما بينها يتغير اللون تدريجيا باتجاه السواد نحو الاسفل . فسر لي الفلاح صديق هذه الظاهرة فقال:

ـ هذا العسل هو انتاج سنوات سبع لهذا النحل. والسنة الاخيرة هي الابيض. وفي كل عام يزداد سواد الشمع تدريجيا.

****

في خريف 1948 أصبح كريم صوفي منظما لي. كان من عائلة فقيرة، ابن فراش لاحدى المدارس. وكان شابا خلوقا وذا جهادية عالية. في ذلك الوقت لم انقطع بعد عن الدراسة في الاعدادية المسائية. وقد دبرت بصعوبة القسط الاول من اجور الدراسة. وواظبت على الدوام حتى صدر، لاول مرة، أمر القبض علي. وقد اوصل الينا الخبر، قبل مداهمة بيتنا، قريبي المغوض في التحقيقات الجنائية (لاحقا الامن العام) عثمان ملا. واتخذت الاحتياط وتركت البيت. وبعد بضعة ايام تمكن زوج اختي الضابط الصف في الشرطة من غلق القضية وعدت الى البيت ولكن لفترة وجيزة اعقبها امر جديد بالقبض واختفاء جديد استمرت سنوات. لم اكن على علم بما حدث في بغداد من اعتقال للمسؤولين وانهيار للبعض منهم حين ابلغني منظمي كريم صوفي في اوائل 1949 بأن قيادة الحزب قررت اقامة مظاهرات بمناسبة الذكرى السنوية الاولى لوثبة كانون وبهدف تجديد الوثبة. واضاف كريم:

ـ قررت قيادة منظمتنا هنا أن تعهد اليك بمهمة قيادة المظاهرات في السليمانية. ثم اطلعني على رسالة حزبية وردت من المركز وفيها توجيهات حول المظاهرات التي يجب ان تؤدي الى تجديد الوثبة. كان على كل متظاهر ـ وفق الرسالة ـ ان يحمل في يده عصى يبلغ طولها 75 سم وأن يكون مستعدا لمهاجمة الشرطة ودحرها. وافقت دون تردد على ان اضطلع بالمهمة المناطة بي ـ قيادة المظاهرات. وكان مطلبي الوحيد ان يوفر لي مكان مناسب اختفي فيه. وقد اخذني كريم مساء نفس اليوم الى منزل الخياط الشيوعي الشاب فتاح بيساراني في حي ملكندي. وترك لي، حسب طلبي، تحديد المكان الذي تنطلق منه المظاهرة. اخترت نقطة مزدحمة بالناس وسط سوق المدينة. وجرت التبليغات بالحضور في الموعد المحدد. وحضرت بنفسي ملثما واطلقت اول هتاف كاشارة لبدء المظاهرة. وتراءى لي اننا فاجأنا الشرطة اذ لم الاحظ اي استعداد مسبق لديها. قارب عدد المتظاهرين المئتين فقط ـ وهذا عدد قليل دل على عدم استعداد الناس، حتى من الشيوعيين انفسهم، للمشاركة فيها. كانت هناك لافتات ارتفعت مع اطلاق الهتاف الاول. وكانت اللافتات والهتافات موجهة كلها ضد الاستعمار والحكم العميل ولدعوة الجماهير الى تجديد الوثبة. سارت المظاهرة بضع مئات من الامتار وتجمع حشد كبير من البوليس مشاة وخيالة وسيارات حولنا. بالقرب من (طومرطة سوتاو) اصدرت الامر بالتفرق، قبل ان يحدث اي اشتباك او يعتقل اي متظاهر.

في ذلك الحين كانت مدينة السليمانية كلها معارضة للنظام وكانت الغالبية الساحقة متعاطفة مع الشيوعيين. وكانت بيوت الناس مفتوحة لاحتضان واخفاء اي متظاهر يلجأ اليها وهو مطارد من ازلام السلطة. واذا اقتحم البوليس دار احدهم بحثا عن متظاهر ملتجئ اليه نقل الاخير فورا، بمبادرة من اهل الدار وعبر سطحها في اغلب الاحيان، الى دور اخرى. ولم اسمع ان تفلح الشرطة تلك الايام في القبض على اي متظاهر داخل احدى الدور. انتهت المظاهرة الاولى بسلام ودون اية خسارة. وعدت مساءا الى مخبئي في ملكندي وقدمت الى كريم صوفي، الذي كان هناك في انتظاري، تقريري الشفهي حول المظاهرة. وطلب مني تقرير تحريري ايضا لتطلع عليه القيادة. وفي مساء اليوم التالي حمل الي المراسل الحزبي الصغير (قاله) رسالة تأمرني بالتهيؤ لاخراج المظاهرة الثانية. وقد اجلتها حتى تحل الذكرى السنوية الاولى للوثبة، اي السابع والعشرين من كانون الثاني. في هذه المرة هيأنا نعشا رمزيا، تابوتا خشبيا من النوع التقليدي الذي توضع فيه الجنازة لحملها على الاكتاف الى المقبرة، غطى بقطعة من القماش الاسود. لم يسبق للمدينة ان تشهد شيأ من هذا القبيل. فلم يفطن احد، لا من الاهليين ولا من

رجال الشرطة، بأن ما يحمله المتظاهرون على اكتافهم هو مجرد نعش رمزي وليس ميتا حقيقيا. وقد زاد النعش من هيبة المظاهرة وصعوبة هجوم الشرطة عليها. اخترقت المظاهرة السوق وسط هتافات المتظاهرين وتفرج اصحاب الحوانيت والمارة وسارت عبر شارع مؤد الى مقبرة سيوان. وقد لاحظت بعد خروجنا من السوق ان عدد رجال الشرطة يبلغ اضعاف عدد المتظاهرين وان وحدات من الشرطة الخيالة والسيارات المسلحة تسير امامنا وخلفنا وتكاد تطبق علينا. خشيت من ان يؤدي الوصول الى المقبرة او التفرق في مكان غير ملائم الى القاء القبض على عدد كبير من المتظاهرين. لهذا قررت تفريق المظاهرة في مكان تكون فيه السيارات والشرطة الخيالة مشلولة وغير قادر على ملاحقتنا. واذا بقي البوليس المشاة وحدهم ضدنا فأن الخصم يفقد التفوق ويهرب امام سلاحنا التقليدي، الحجارة. تفرقت المظاهرة امام الجامع ذي البابين لكي يدخل المتظاهرون من احدهما ويخرجوا من الاخر دون ان تستطيع السيارات او وحدات الشرطة الخيالة ملاحقتهم. خسرنا في هذه المرة ثلاثة رفاق امكن للشرطة او وحدات الشرطة الخيالة ان تقبض عليهم. بينهم فرج محمود ونوري النجار وكنت في السابق منظماله. ولم يقبض على أي ممن امكن لهم دخول الجامع. وقد اتى احدهم بالقماش الاسود معه تاركا التابوت الفارغ للشرطة . بمجرد الصدف دخلت في هذه المرة ايضا، بعد تفرق المظاهرة، نفس الدار التي كنت دخلتها بعد تفرق المظاهرة السابقة. كانت هناك نساء جالسات حول التنور، يخبزن لاحداهن. لم اعرف بالطبع ايا منهن وما كنت بحاجة الى ان اعرف. يكفي ان يعرفن باني متظاهر ضد السلطة. اشارت عل احداهن بالصعود عبر الدرج، نحو السطح حيث الامان الاكثر. وقامت نفسها بغلق الباب الخارجي للدار. وبعد بضع دقائق اتتني صبية بين 10 ـ 12 سنة من عمرها وقدمت الي رغيفا حارا مدهنا. اكلته بشهية . وبعد مرور ربع قرن على هذا الحادث، اي في 1974، كنت جالسا بصحبة الكادر الشيوعي احمد حامد بمدينة السليمانية. فسألتني زوجته:

ـ الا تعرفني؟ الا تذكر اننا رأينا بعضنا وتعارفنا سابقا؟

ـ كلا لا اذكر شيأ.

ـ انا تلك الصبية التي حملت اليك الرغيف الحار يوم كنت في منزلنا عام 1949 وبعد تفرق احدى مظاهر اتكر.

بعد المظاهرة الثانية كان علي ان اهيئ، طبقا لامر قيادة المنظمة، الى المظاهرة الثالثة ، التي حدد لها الموعد في 30 كانون الثاني. غيرت مكان التجمع والانطلاق الى شارع صابونكران المنزوي نسبيا. وطلبت من كريم تعيين مساعد لي في المظاهرة كي يحل محلي في حالة اعتقالي او قتلي. واستجيب للطلب. وفي هذه المرة ايضا لم يكن للخصم الحاكم علم بموعد ومكان المظاهرة. معنى ذلك انه ليس هناك اناس مندسون في صفوفنا. وحضر الى المظاهرة عدد قليل، بين 40 ـ 50 شخصا. اطلنا التصفيق والهتافات، ونحن في نفس المكان، بأمل انضمام آخرين اليها. لكن الشرطة هي التي حضرت سياراتها المسلحة. ولم يلبث ان كثر عددها ثم بدأ الاشتباك اثر الهجوم علينا. كان سلاحنا التقليدي هو الحجارة. وردوا علينا بالمثل. كان مساعدي الطالب في الثانوية احمد حسن من اوائل الهاربين بعد بدء الاشتباك. واضطررنا نحن الى الانسحاب عبر زقاق ضيق لاتستطيع السيارات دخوله لكي نكون فقط مقابل المشاة من الشرطة. ومن احدى الدور الواقعة بين الجبهتين المشتبكتين خرج ((القائد المساعد)) احمد وركض باتجاهنا لكي يبتعد عن المعركة. فتلقى ضربة عصى من يدي على رأسه ولم ينظر الي ولم ينقطع عن الركض. كان مرعوبا وربما زعم بأن الضربة اتته من الشرطة. ظل يركض مبتعدا وظللنا نحن في الاشتباك مع متابعة الانسحاب ومواصلة الهتافات ضد الاستعمار والنظام العميل. وصلنا فسحة امام منزل الملاك الارستقراطي حمه آغا، حيث داهمتنا وحدة من الشرطة الخيالة من الخلف واصبحنا مطوقين وغير قادرين على مواصلة الاشتباك. غدت المهمة الملحة لأي متظاهر ان ينجو بنفسه وحده. دخل البعض منازل وتسلق البعض الاخر اعمدة الكهرباء صعودا الى السطوح. وقبض على بعض المتظاهرين.

كدت اصبح احد المتظاهرين المقبوض عليهم اذ انهالت على الضربات من اخامص البنادق بين حشد من الشرطة الخيالة حتى وقعت ارضا ودخلت في اغماءة قصيرة وأفقت بعدها. فاستجمعت قواي وهممت بالنهوض والركض حين نزل احد رجال الشرطة من حصانه ليقبض علي. ركض ورائي الشرطي ولكني دخلت باب دار اعرف اصحابه، وانظم شخصيا احدهم ـ عمر علي عضو اللجنة الطلابية في المدينة واطبقت الباب ورائي. لم يكن في البيت احد سوى الصبية الخادمة آسكة التي كانت تعرفني جيدا لكثرة ترددي على البيت. سألتها عن الدرج الخشبي فوقفت صامتة مرتبكة ولم تجب بشئ. بحثت بنفسي عن الدرج وصعدت الى السطح وسحبته ورائي فاعتبرت نفسي في أمان لأن الشرطة لن يستطيعوا صعود السطح . اجتزت اسطح عدد من الدور مبتعدا عن بيت عمر ثم نزلت الى احد المنازل وخاطبت امرأتين في باحة الدار : ((أنا متظاهر)) . فرحبتا بي وتنافستا على استضافتي وسحبتني احداهما الى غرفتها قرب باب الدار الخارجي. اسرعتا في اشعال المدفأة ثم البدء باسعافي. نزعتا معظم ملابسي ونظرتا بذعر الى البقع الزرقاء في وجهي وجسمي جراء الضرب. ودهنتا جسمي كله بدهن الطعام وقامتا بتدليكي طويلا وغطتاني بلحافين لا ستريح واعرق. بعد ساعة طلبوا مني النهوض لتناول العشاء. وقالت ربة البيت:

ـ ارجو المعذرة اذا قدمنالك البرغل. لم يكن لدينا رز لاطبخه.

قبل ان اتناول العشاء دخل الفرقة عدد من الصبية واظهروا تعاطفهم العميق معي . وسألوني:

ـ انت من حزب التحرر أم من الثارتي؟

ـ انا من حزب التحرر.
ـ نحن جميعا من حزب التحرر ايضا ـ اجابوا بصوت واحد.
وحين وصلت مخبأي في ملكندي كان كريم في انتظاري. واخبرني بأنه التقى بمساعدي احمد بأنه التقى بمساعدي احمد ووجده جريحا في رأسه جراء الاشتباك مع الشرطة، واستقدموا مضمدا لتداوي الجرح . فقلت:
ـ انه جبن وهرب من صفوفنا قبل التصادم مع الشرطة وانه اصيب بالجرح نتيجة ضربة هوت عليه من يدي.
في تقريري عن المظاهرة ذكرت ان الجماهير وحتى اعضاء الحزب انفسهم ليسوا مستعدين للمشاركة في المظاهرات وان الظروف غير ملائمة لمواصلتها ولامناص من الكف عنها. وقد استجيب لاقتراحي وأوقفت المظاهرات ـ التي تجسد روح التطرف اليساري والمغامرة لدى المركز القيادي المتمثل في تلك الايام بساسون دلال. في اوقات فراغي من كانون الثاني 1949 انجزت اول كراسة صغيرة في حياتي بعنوان ((ماذا يريد الانتهازيون)) او شئ قريب من ذلك وارسلت نسخة منها الى ساسون دلال، الذي كان معجبا بها ـ على ما بدا ـ وقرر ان اكون احد مندوبي الكونفرنس الحزبي الذي كان قد قرر عقده ولم يفلح. وقد كانت الصياغات والطروحات، التي تضمنتها الكراسة، تعكس تأثري الكبير بكراسة فهد (حزب شيوعي لا اشتراكية ديموقراطية).
****
في شباط 1949 كنت جالسا في مخبأي منصرفا الى استنساخ رسالة حزبية صادرة عن المركز القيادي وداعية النضال لانقاذ حياة قائدنا فهد من الخطر المحدق به. فدق الشاب المراسل عزالدين، الذي كان قادما من كركوك و مختفيا عندنا، وقال لي:
ـ اليك هذه الرسالة ايها الرفيق! هي رسالة مستعجلة وعليك ان تتبعني بعد اطلاعك عليها.
قرأت الرسالة الموجزة وليس فيها شيئ سوى طلب اتباع المراس للقاء رفيق ينتظرني. اوصلني المراسل الى بيت صغير في حي القزازين غير بعيد عن بيتنا. دخلنا غرفة اعتيادية في الطابق الاول فوجدت شوكت غفور، الشاب الشيوعي الذي الذي كنت على معرفة سابقة به. واوضح لي سبب استدعائي:
ـ لدي اخبار مؤسفة. سافر الرفيق المسؤول (وكان يقصد سكرتير المحافظة حميد عثمان) ولا أدري الى اين. وكان من المقرر ان يأتي كريم صوفي الى هنا ليعيش مختفيا ويتولى المسؤولية. لكنه تماهل وظل في مسكنه حتى داهمته مفرزة من التحقيقات الجنائية مساء أمس وقبض عليه ـ كما اخبرتني اخته. وكان الخائن رفيق ضالاك احد افراد المفرزة.
ـ شئ مؤسف. ولكن ما العلاقة بين ذلك وبين استدعائك لي الى هنا؟
ـ بقدر ما يتعلق بمعلوماتي فائك انت من يجب ان يتولى المسؤولية الاولى في المنظمة، بعد ان اعتقل كريم صوفي . لم ابحث بنفسي عن هذه المسؤولية مسبقا ولم اتهرب منها حين القيت على عاتقي. وظللت اعيش مختفيا ولم افضل المبيت في البيت الذي اقام فيه شوكت. وبعد اسبوعين عاد سكرتير المنظمة حميد عثمان، وعادت اليه الكمسؤولية من جديد. وظلت الصلات بيننا عن طريق المراسلة وحسب.
****
في شباط 1949 وردتني رسالة من حميد عثمان تأمرني بالسفر الى مدينة قلعةدزة لاعادة بناء المنظمة الحزبية التي فلشتها الحملة البوليسية. فسافرت دون تاخير، وأنا مختلف. صادفني في الطريق شرطي يعرفني كشيوعي في ايام النهوض الثوري بعد وثبة كانون ولكنه لم يعرف عن دوري اللاحق وعن اختفائي. وأرسل نفسه معي ليسلمني الى مركز الشرطة في قلعةدزة وليجري معي التحقيق. عبرنا في باصنا الخشبي العتيق الزاب الصغير للمرة الثالثة بواسطة عبارة بدائية، عوضا عن الجسر، يصعدها الباص، وهو مشدود الى سلك حديدي سميك والى بكرتين من كلا طرفي النهر السريع الجريان. كان هناك عدد من الرجال الاقوياء لسحب السلك ودفع السيارة الى الجهة الاخرى. كان المنظر مرعبا بالنسبة الى بعضهم. وفي الطريق الى قلعةدزة تمكنت من اقناع الشرطي بأني اشتغل في البيع والشراء ولا شأن لي بالسياسة. ولهذا الغرض اسافر الى بيت قريب لي في قلعةدزة. وأغريته بأني سأعود اليه بهدية جيدة. بدأت العمل فور وصولي الى قلعةدزة. اجتمعت في بيت محمد الخباز وكريم الخياط مع عدد من الشبان، بينهم عبداللة صوفي رحمان ـ الذي كان في ذلك الوقت شيوعيا متحمسا وسمعت في السبعينات بأنه تحول الى عميل للسلطة ـ والتلميذ غفور محمد والخياط الشيوعي ظاهر. وبعد تكرر اللقاءات والمداولات وجدت ان عبداللة اكثر كفاءة وكان مقبولا من الاخرين ليكون المسؤول الاول، يساعده الخباز الشيوعي المتحمس جدا. وقد شكلت لهم لجنة حزبية من خمسة اعضاء بضمنهم التلميذ الصغير غفور. كنت في قلعةدزة حين أتاني احدهم وأخبرني:
ـ لقد نفذ الاوباش جريمتهم .. اعدموا امس الرفيق فهد.
ـ وكيف عرفت ذلك؟
ـ اذاع راديو لندن النبأ.
هزني الخبر من اعمق الاعماق وكدت انفجر باكيا امام رفاقي. وقد بكيت فعلا عندما غدوت وحيدا في الغرفة. كنت من المعجبين بفهد والمحبين له شان سائر الشيوعيين العراقيين في ذلك الوقت. كان من المألوف ان ينتقل الناس بين المناطق الكردية العراقية ـ الايرانية بحثا عن الرزق او الدراسة في الجوامع او لزيارة الاقارب، دون ان يطالبهم احد بجوازات السفر

او اي وثيقة اخرى. والتقيت في بيت كريم الخياط بقلعةدزة شابا كرديا قادما من ايران لبيع بعض السلع. حادثته في بعض الامور ثم سألته عن حزب توده. فاجاب:
- اي حزب هذا الذي تسال عنه؟
- ولماذا؟ الست من مؤيديه؟
- ليس جديرا بان يؤيده احد.. انهم حفاة، لايملكون لانفسهم احذية يلبسونها.. فهل من المعقول ان يؤسس المرء حزبا وهو نفسه حافي القدمين؟
عدت الى السليمانية وقدمت تقريرا وافيا الى قيادة المنظمة حول ما قمت به في قلعةدزة.
****
ولم يمض سوى ايام معدودة حين جائني المراسل ذات يوم برسالة مستعجلة تطلب مني ايجاد مكان امين لرفيق حزبي ريثما يسافر الى جهة ما. اخذته الى بيت الشاب الشيوعي عضو اللجنة الطلابية عمر علي. وبعد اربعة ايام وردتني رسالة ثانية تطلب مني تسفير الضيف بطريقة امينة الى قلعةدزة. وكان أبيض متوسط القامة قليل الكلام. ودلت لهجته في الكلام على انه من اربيل. سفرته بصحبة الشاب النشط والثرثار المعروف باسم (بله جورج) - وكان جورج هذا اسمه الحزبي السري، الذي عرفه الجميع. وقد قبض على الضيف في الطريق ةأخذ مخفورا الى قلعةدزة رهن التحقيق. وادعى انه يذهب الى هناك لزيادة قريبه محمد الخباز، الذي كان قد ابلغ بالموضوع من لدن بله جورج وذهب بنفسه الى مركز البوليس لاخذ قريبه ومرافقته الى منزله. وبعد ايام نقل الضيف من المدينة الى احدى القرى ليقيم في بيت احد صغار الاغوات. وهناك داهمته الرشطة وقبضت عليه، ربما بسبب وشاية شخص ما به. ولم اعرف الا في وقت لاحق بأن هذا الرجل كان ملا شريف المسؤول السابق عن التنظيم الشيوعي في كردستان العراق وعن جريدة (آذادي) الشيوعية التي تصدر باللغة الكردية. كما عملت كذلك انه ارسل من قبل حميد عثمان ولغرض الوصول الى ايران والاتصال بحزب توده هناك.
الانشقاق
في يوم من نيسان 1949 حمل الي المراسل الحزبي نشرة حزبية مستنسخة بالكربون ومذيلة بتوقيع المسؤول، مع توصية الي باستنساخ نسخ منها وتوزيعها على التنظيمات المرتبطة بي. قرأتها ووجدتها تتناول قضايا حزبية داخلية لم اسمع شيأ عنها قبلئذ. وقد تطرق المسؤول الي الاعتقالات والانهيارات الداخلية الواسعة والقي تبعتها على عاتق المكتب السياسي للحزب الموجود منذ 1946 - 1947 في السجن، أي فهد وزكي بسيم وحسين محمد الشبيبي، وهم الثلاثة الذين نفذ فيهم حكم الاعدام في شباط 1949 وصمدوا صمود الابطال حتى اللحظة الاخيرة من حياتهم. فوترت الفقرة الاخيرة من النشرة اعصابي شديد التوتر، ربما لاسباب عاطفية اكثر من ان تكون علمية. فكتبت رسالة استنكار الى الرفيق المسؤول وطالبته بسحب النشرة فورا والعدول عن توجيه هذا الاتهام الى قادتنا الشهداء.
شئ بخر لم استطع تقبله في الرسالة وهو ان ((المسؤول)) ، الذي اصدر هذه النشرة، قد وضع نفسه، كما يتنضح من سياق البحث، في مركز مضاد لمركز الحزب التقليدي، الذي جرت العادة أن يكون في بغداد وليس في مدينتنا هذه. فتراءى لي كما لو أن هذا المسؤول قد اعلن نوعا من التمرد على قيادة الحزب - ولم تكن لدي فكرة واقعية عن ماهية القيادة الفعلية في تلك اللحظة. رد المسؤول على رسالتي بقدر من الهدوء مع اصراره على رأيه. فيما اصررت بدوري على رأيي. وفي الرسالة التالية طلب مني مرافقة المراسل اليه لكي نلتقي ونتناقش. ذهبت ودخلت الفرقة لأجد نفسي ازاء شاب اسمر قصير القامة ونحيفها هو اكرم عبدالقادر ياملكي، الذي كان يعرفني واعرفه جيدا، رغم انه لم يسبق لنا العمل في هيأة حزبية سوية. وانتهت المناقشة الى طريق مسدود اذ ظل كل طرف مصرا على رأيه ورفضت بحزم استنساخ وتوزيع النشرة. وكنت مسؤولا عن قسم كبير من بقايا التنظيمات الحزبية في المدينة. وهكذا انشقت منظمة السليمانية على بعضها، وبدأ سباق بيننا، كل لكسب عدد اكبر من الكوادر والاعضاء الى جانبه. وقد افلحت في الكسب السريع لكل من علي حسين البرزنجي وأحمد الحلاق و عبداللة خالد واسعد بانيخيلاني ومجيد عبدالرزاق وغيرهم. ولم يلبث ان اقمنا صلة حزبية مع المركز القيادي في بغداد، الذي لم اكن على علم بأن حميد عثمان قد اصبح على راسه. واستلمت رسالة جوابية معها شفرة وقصاصة تحوي عنوان المراسلة - بغداد ، علاوي الحلة ، المكوي حسن عوينه. في الوقت نفسه حاول اكرم كسب مؤيدين له في مدن اخرى خارج السليمانية ايضا.
لم ار اكرم بعد ان انقسمنا سوى مرة واحدة، حيث كان متنكرا في زي مغاير لزيه الاعتيادي وهو يسير في احد الشوارع الفرعية بمدينة كركوك عام 1950. ولكن الصراع بيننا ظل يحتدم. وهو كسب الى جانبه البعض في بغداد ايضا. كما كسب منظمة الناصرية التي كان يقودها المعلم الشيوعي دلي مريوش. وفي وقت لاحق اصدر اكرم نشرة ناطقة بلسان كتلته سميت (النجمة)) وكانت تستنسخ بالايدي وتوزع بنطاق محدود. لكن عمر منظمته لم يطل كثيرا اذ انسحبت منها منظمة الناصرية في 1950 وعادت الينا. ووصل اكرم الى وضع تعذر معه مواصلة العمل. وقيل انه استعان ببعض اقاربه من الضباط بغية تسليم نفسه الى الامن العام واطلاق سراحه سريعا. واشيع انه سلم الى السلطات اسماء المرتبطين به سابقا - ولست متوثقا من ذلك. لم يكن في واقع الامر اي اساس فكري وسياسي لذلك الانشقاق. فنحن لم نختلف على الشعارات والاتجاهات السياسية. ولم يكن القاء مسؤولية الاخطاء والانهيارات في الحزب على المكتب السياسي مبررا كافيا للانشقاق، فيما لو كان لنا ولاكرم

مستوى اعلى من الوعي والتفهم. لكن الصعوبات الناتجة عن نكسة الحزب في تلك الفترة، من جهة، وضعف مستوى الوعي لدى الجميع، من جهة ثانية، كان قد اوجد الجو الذي يمكن ان يحدث فيه الانشقاق.

****

بادرت، بعد الانشقاق، الى تشكيل لجنة قيادية جديدة لمنظمة المحافظة مني ومن عبداللة خالد وعلي البرزنجي واحمد الحلاق. وكلنا مختفون او ما شابه. واعتبرنا اسعد بانيخيلاني بمثابة عضو احتياط اللجنة. وعندما غدوت المسؤول الاول عن المنظمة اصدرت اول نشرة داخلية توجيهية بعنوان (واجباتنا). وكانت تستنسخ من قبل الرفاق بالايدي اذ لم تكن لدينا ادوات للطباعة.

4

سكرتيرا للحزب

في حزيران 1949 أتاني علي البرزنجي برسالة مغلقة مرسلة من بغداد. قرأتها: قبض على المسؤول الأول في المركز القيادي حميد عثمان، الذي كان أوصى مسبقاً باخبار مسؤول السليمانية كي يتوجه الى بغداد ويحل محله متى ما قبض عليه. إذن علي الذهاب الى العاصمة لأكون سكرتيراً للحزب. كان حامل الرسالة شاباً موثوقاً طالباً في دار المعلمين ببغداد من أهالي مدينة السليمانية. ولم يكن هناك إحتمال إيقاعي في الفخ. درست الأمر مع سائر رفاق اللجنة وأرسلت الجواب بالموافقة وطلبت إنتظاري في موعد محدد يوم 25 حزيران 1949. وفي السليمانية أسندت مسؤولية اللجنة الى عبداللة خالد، الذي لم يلبث ان ترك العمل الحزبي كما علمت لاحقاً. وابتعدت عن المدينة بصحبة البرزنجي مشياً الاقدام على لأركب بعد ئذ فوق حمولة شاحنة محملة بالحبوب. ووصلت بغداد دون أن يسأل عني أحد في الطريق. اقمت في فندق (الزعماء) الصغير الخاص بالفقراء الباحثين عن أرخص مكان. وفيما كنت متمدداً فوق الفراش على السطح مساءاً إستمتعت بسماع مقام اللامي يغنيه محمد القبانجي من راديو بغداد. في الموعد التقيت وفق الاشارة المتفق عليها بشاب اصطحبني الى غرفة في حي حمام المالح، علمت فيما بعد ان مرافقي يدعى بلال عزيز، وهو طالب من أربيل يدرس بدار المعلمين الابتدائية في بغداد. وفي الغرفة التقيت كذلك بكل من هادي سعيد الطالب في نفس الدار ونوري عزيز الطالب في كلية الحقوق. وأبلغني هادي انه الشخص الذي وجه الي الرسالة تنفيذاً لوصية حميد عثمان. سكنا سوية في تلك الغرفة، التي كان قد استأجرها احدهم. ولم يكن فيها شئ يذكر من الثاث. منذ ان وصلت العاصمة غدوت مسؤولاً عن ح.ش.ع دون ان أكون قد فكرت بشئ من هذا القبيل أو بحثت عنه ودون أن يكون لى عمل حزبي طويل أو تجربة سياسية تؤهلني لمثل هذا المنصب. كنت شاباً في الثانية والعشرين من عمري ولم أكمل بعد أربع سنوات من عمري الحزبي ولم أملك من الثقافة النظرية والتجربة النضالية ما يؤهلني لمثل هذا المركز القيادي. يضاف الى ذلك ان الظروف، التي توليت فيها القيادة، كانت بالغة الدقة والتعقيد بسبب النكسة العميقة التي اصيب بها ح.ش.ع . في 48 ـ 1948. ومع ذلك قبلت المسؤلية دون تردد. كنت املك الحماس الثوري والجهادية العالية والاخلاص العمق لقضية الشعب والشيوعية. وقبلت المسؤولية في وقت كان قبوله مخاطرة بحياة المناضل، بعد أن كان الخصم الوطني والطبقي قد افلح في كبس وتحطيم المراكز القيادية، الواحد تلو الآخر، خمس مرات متعاقبة بين تشرين 1948 ـ حزيران 1949، وفي إعدام أبرز قادة الحزب وسجن الألوف من كوادره وأعضائه وإسقاط العناصر الهزيلة سياسياً وتسخير البعض منها لخدمة الجهزة القمعية ـ أمثال مالك سيف ورفيق ضالاك وجاسم الطعان وصبري عبدالكريم و ... الخ. وقد صمد القليلون ممن قبض عليهم ضمن هذه المراكز القيادية. وكان ضمن الصامدين ـ حسب معلوماتي ـ ساسون دلال وحميد عثمان ومهدي حميد. تأتي علي أن أشكل سادس مركز قيادي في غضون ثمانية اشهر وفي ظروف وإمكانات شحيحة وصعوبات كثيرة وجراح عميقة. وقد حالفني الحظ ولم يتمكن الخصم من تحطيم المركز القيادي الجديد الذي شكلته، رغم أنه وجه اليه ضربة قوية كادت تحطمه. كانت السجون والمنافي مليئة بالشيوعيين والمعنويات هابطة لدرجة قياسية والحركة الثورية تعيش في جزر عميق. وقد إبتعد عن الحزب وعن كل نشاط سياسي معظم أولئك الذين كانوا يتقدمون الصفوف ويهتفون باعلى اصواتهم في ايام النهوض بعد وثبة كانون. ووصل الوضع الى ما أغرى الحاطمين بان يتاملوا إختفاء كل نشاط شيوعي في العراق لعشر سنوات على القل ـ كما صرح آنئذ مدير الشرطة العام علي الحجازي. وبديهي أن النكسة ماكانت لتتعمق الى هذه الدرجة لولا الانهيار الداخلي في الحزب وإباحة اسراره من لدن عدد من المسؤولين والكوادر. وكان بين المنهارين من ضعف أمام التعذيب واكتفى باعطاء معلومات معينة دونما رغبة في محاربة الشيوعية والانضمام الى صف اعدائه. ومنهم من استسلم للعدوكلياً وانزلق الى حد وضع نفسه كلياً في خدمة الجهزة القمعية بصورة مكسوفة أو مستورة. في غرفة هؤلاء الطلاب بمحلة (حمام المالح) بدأت نشاطي الحزبي الجديد وتعرفت على ما لم أعرفه سابقاً من الوضع الذي وصل اليه الحزب. سلمني هادي نشرة مخطوطة معنونة ((الصراع)) وعلى غلافها صورة مطرقة. وتحت اسمها جملة (لسان حال الطبقة العاملة العراقية). وقال لي:

ـ حميد عثمان هو الذي أصدر في حينه هذه النشرة. وقبض عليه قبل أن يصدر العدد الثاني.

تراءى لي أول المر ان علي ان أواصل إصدارها. وأصدرت عدداً جديداً منها ثم توقفت عن إصدارها بعد أن فكرت في المر بصورة أهداً وتساءلت: لماذا إصدار نشرة باسم باسم الطبقة العاملة العراقية؟ وإذا كان بالامكان إصدار شئ ما فلماذا لايكون باسم الحزب الشيوعي نفسه؟

لم يطل بي المقام في غرفة حمام المالح إذ حدث ما شتتنا. كنا جالسين جميعاً عندماً ظهر شخص كهل طويل أسمر في بدلة مدنية ووقف في باب غرفتنا ليسأل:
ـ هل في هذا المبنى غرفة للايجار؟
فوجئت بالشخص وبادلت معه النظر إذ كنا نعرف بعضنا منذ سنوات. وهو يدعى أحمد جيشانه ومن أهالي مدينتي. كأن ضابط صف في الشرطة، وإجتاز دورة ليصبح بعدها مفوض بوليس وليد خل بعد ئذٍ ضمن ملاك الأمن العام في بغداد. وهو لم يكن على علم باني مختف عن أنظار السلطة وموجود في بغداد لممارسة النشاط الحزبي. لكنه يعرفني شخصياً وحياني وسألني عما افعل في العاصمة. وانسحب بعد أن أخبر أنه لاتوجد غرفة فارغة. واخبرت رفاقي الثلاثة بما عرفته عن الرجل وطلبت منهم ترك الفرقة كاجراء إحتياطي ولغرض الصيانة. رفض هادي تصديق ما قلته وأصر على البقاء في الغرفة. وقال نوري:
ـ بائع الكبة مصطفى الموجود أمام الدار يعرفه شخصياً. وأنا ذاهب اليه لأسأله عنه ـ ذهب نوري فعلاً وعاد بعد قليل ليخبرنا:
ـ يقول مصطفى ان هذا الشخص مجرد قواد وليس شيئاً آخر.
زاد ذلك من حراجة موقفي ومن صعوبة إقناع الأخرين بما قلت. لكن بائع الكبة قد وصل الغرفة، وهو يلهث وكرشه يهتز، وإتكأبكلتا يديه على جانبي الباب ليعلن أمامنا:
ـ سألت الجار، الذي يعرف جيداً هذا الشخص. فقال أنه مفوض في الأمن العام. إذا كنتم شيوعيين فاتركوا الدار فوراً، قبل أن يداهموكم ويلقوا القبض عليكم.
" إذن فان مصطفى يدخل ضمن قوانا الاحتياطية" ـ فكرت مع نفسي. وإقتنع الجميع بترك الغرفة. أخذني هادي الى غرفة صغيرة في دار ذات طابقين بحي عقد النصاري. وأخرج من جيبه مفتاحا فتح به الباب وجلسنا سوية. في المساء رجع ساكن الغرفة، الذي دعاه صاحبي بـ (عثمان). وكان شاباً دون العشرين من عمره متوسط القامة وجميل الطلعة. علمت في وقت لاحق أنه طالب يهودي شيوعي صدر أمر القبض عليه فترك منزل أبيه وإستأجر هذه الغرفة على حسابه. وإسمه الحقيقي (سعيد خلا صبجي). وقد إعترف عليه هادي وسلمه الى الشرطة في الشهر الثامن. وقيل أن سعيد إنهار هو الأخر. ولم أعرف عنه شيئاً بعدئذٍ. لم استمتع بأي إستقرار في غرفة عثمان أيضاً. بعد يومين أو ثلاثة، وفيما كنت وحيداً في الغرفة ومشرفاً على باب الدار الخارجي، رأيت مفرزة من الشرطة تقتحم المبنى. تصدى لها صاحب الدار المسيحي، الذي كان يسكن إحدى غرف الطابق الأرضي، وصرخ في وجه ضابط البوليس:
ـ بأي حق تدخلون داري بهذه الصورة؟ اين ترخيص الحاكم بالتفتيش وأين المختار، الذي كان يفترض ان يكون معكم أثناء التفتيش؟
أسرع أحد رجال الشرطة في الصعود الى سطح المبنى ماراً أمام باب غرفتي ونزل بعد أن وجده فارغاً. وفي باحة الدار الشرقية إحتدمت المشاحنة الكلامية بين صاحبها وبين الضابط. وإنتهزت من جانبي الفرصة، بعد نزول الشرطي مباشرة، فصعدت السطح وإنتقلت من هناك الى سطح آخر ونزلت عبر عمود الكهرباء الى زقاق خلفي. إعتبرت ذلك كسباً كبيراً إذ افلت من قبضة الشرطة التي اتت ـ حسب تصوري ـ لكبس الدار وللقبض علينا. وذهبت لأفتش عن هادي وسعيد، اللذين كانا مولعين بالجلوس في المقاهي، ولأحذرهما من العودة الى الدار. عثرت أولاً على هادي . وعثرنا بالتعاون معه على سعيد أيضاً. أفلتنا من الخطر الداهم ولكننا ظللنا بلا مسكن. وكنت شخصياً عاجزاً عن عمل أي شئ لتدبير أمري. كان علي أن أنتظر ما يفعله هادي. في مساء نفس اليوم أخذني هادي، بمعاونة سعيد، الى بيت عامل شيوعي (لاأذكر اسمه) لأعيش عنده بعض الأيام ريثما نجد حلاً أفضل للمشكلة. كان هذا العامل يهودياً وشيوعياً متحمساً، إنسانا بسيطاً ساكناً مع أمه العجوز الحركة الثرثارة في غرفة تشكل واحدة من إثنتين وثلاثين غرفة سميت (خانا) وسكنتها 32 عائلة يهودية كادحة. كان وسك الخان المليئة بالقاذورات حنفية ماء مشتركة يأخذ الجميع منها الماء للشرب والطبخ والغسل. وكانت ملكية الخان تعود الى أحد أثرياء اليهود، الذي لم يكن يسمح بتأجيل دفع الايجار اليه ولا ليوم واحد من أي عائلة يهودية. بقيت 3 ـ 4 أيام في بيت هذا العامل الشيوعي المتحمس. وأحسست خلالها بضيق. كان هذا هو المكان الثالث، الذي اقيم فيه خلال أيام من وجودي في بغداد. نشأت لدي فكرة ان علي أن أعتمد على نفسي في حل مشكلة السكن لكي أوفر لنفسي قدراً أكبر من المان ووضعاً افضل لمواصلة مهماتي الحزبية. سافرت مضطراً الى مدينة بعقوبة كي أقضي بعض الأيام هناك، حيث لايعرفني أحد. أقمت هناك في فندق بسيط مدعياً أني قادم لأداء الشهادة أمام المحكمة. وبعد أربعة أيام سافرت الى خانقين كزيارة وتجارة معاً، أي لقضاء بعض الأيام، من جهة، وللاتصال بمنظمتنا الحزبية والاطلاع على وضعها، من جهة أخرى. قدمت رسالة مغلقة، كتبتها بنفسي، الى الخياط الشيوعي علاءالدين محمود ـ ان لم تخنني الذاكرة ـ الذي كان صاحب حانوت اتخذ منه عنوان الاتصال. وفي إنتظار الجواب ذهبت أسأل عن المقهى المفتوح في شهر رمضان لأكل وأشرب فيه. وبعد ربع ساعة حضر أمامي شرطيان وطلبا مني مرافقتهما الى مركز البوليس. تصورت ان هناك من عرفني ووشى بي. ولكن ليس من المعقول في حالة كهذه إرسال شرطيين فقط. عبثاً حاولت إرشائهما. قال أحدهما رداً علي:

- أخبر عنك شرطي سري ولهذا لا نجرأ على إخلاء سبيلك لقاء الفلوس. إذا كنت ايرانياً فسوف لن يسجنوك بل يكتفون بارسالك الى ماوراء الحدود وتعود هناك الى بيتك.

- وإذا لم أكن ايرانياً؟
- يطلبون منك هويتك ويطلقون سراحك.
- لكني لا أملك معي هنا الهوية.
- إذن عليك الاتيان بكفيل.

ان حديث الشرطي أعاد الي الهدوء إذ علمت ان التهمة الموجهة الي هي كوني ايرانيا ودخلت العراق بصورة غير مشروعة. إذن ليست هناك وشاية سياسية ولم يعرفوا شيئاً عن صفتي السياسية. وفي غرفة مأمور المركز المفوض تاكد لي الاسبب لاستدعائي سوى ذلك. قال المفوض:

- أنت ايراني؟
- كلا لست ايرانيا.. أنا عراقي.
- هاتني هويتك لتثبت انك عراقي.
- اني من السليمانية، وعندنا لايطلبون الهوية من أحد. وأشتغل في كركوك وهناك أيضاً لايطلبون من أحد.. ولهذا لم أحمل الهوية.
- إذا كنت تشتغل في كركوك فلماذا قدمت الى هنا؟
- لأبحث عن عمل افضل في شركة النفط هنا.
- هات من يتكفلك وعندئذٍ نخلي سبيلك.

أعطيت اسم الشاب عبدالقادر ملا أحمد، الذي كنت أعرفه منذ الطفولة، في السليمانية. وكانت المشكلة هي كيف يعرف هذا الشاب انني أعطيت اسم (غفور محمد) بدلاً من أسمي الحقيقي. وعندما وصل الي بصحبة أحد رجال الشرطة أعلن أنه لايعرفني. وبذلك اصبحت في موقف حرج. سألته بهمس:

- كيف ذلك يا قادر؟ أنا محجوز بتهمة كوني ايرانيا وأحتاج فقط الى من يقول أنني عراقي وحسب.
- أنا أخاف ـ أجاب قادر. وأغلب الظن أنه لم يعرف أول الأمر سبب إحتجازي وكان يعرف اني شيوعي ومختف.
- إذن أريد منك إيصال الخبر الى قريبي عخي القرەداغي في سوق الأقمشة لعله ياتي ويتكفلني. قل له أن قريبك غفور محمد ـ لاتنس غفور محمد ـ محجوز ويحتاج الى كفيل ليطلق سراحه.

تركني ووعد بأيصال الخبر الى قريبي. بعد عشرين دقيقة وصل الأخير وهتف من بعيد:
ـ أهلاً بقريبي غفور محمد. لماذا حجزوك ولماذا لم ترسل الي الخبر فوراً؟

اخذوني برفقته الى ضابط البوليس الخفر. قدم لنا الشاي في غرفته، وإعتذر الضابط لقريبي وودعنا الى باب مكتبه. قضيت تلك الليلة في منزل الشخ علي دون أن ابوح له بمهمتي الحقيقة. وزارنى مساءاً قادر ووالده مفتي خانقين وتناولا معنا العشاء، الذي كان أفخم ما أكلته منذ أكثر من سنة. وعندما عرف الرفاق، الذين أرسلت لهم الرسالة عن طريق الخياط، بحادث القبض علي حاولوا إلتقاطي داخل الحدود الايرانية، اثر نقلي المتوقع الى هناك. على انني رجعت صبيحة اليوم التالي الى بغداد دون أن أحاول الاتصال باحد من خانقين.

عند العودة الى العاصمة كانت مشكلتي الملحة هي مشكلة السكن. قررت أن أعتمد على نفسي وأبحث عن غرفة للايجار. وسرعان ما حصلت عليها في الحيدر خانة لقاء نصف دينار شهرياً، في دارٍ تحتوي على 16 غرفة مؤجرة كلها لأمثالي أو لأشباه عوائل. كان صاحب الدار الأعرج ذو العمامة الخضراء يسكن داراً ملاصقة. وكانت الغرفة، التي حصلت عليها، فوق مدخل البناء ومجاوراً لدار الشيد، بل لها باب مغلقة تربطها بأحدى غرف السيد. وكانت آثاثي عبارة عن لحاف عتيق ممزق قيل انه من تركة حميد عثمان مع حقيبة صغيرة مكسرة ومشربة ماء وكأس ألمنيوم لشرب الماء. ولاشئ سوى ذلك. في البدء كان هادي الشخص الوحيد الذي عرفته ليتردد علي أحياناً. وفي وقت لاحق امكن لي إستقبال مجيد عبدالرزاق، الذي صدر أمر القبض عليه في السليمانية ولم يعد من المناسب بقاءه هناك، وكنت من جانبي في حاجة اليه. كان شاباً موثوقاص ومفيداً لي كمراسل للاتصال ببعض الرفاق. قبل إستئجار هذه الغرفة كان يتعذر علي قراءة الرسائل الحزبية وكتابة الردود عليها بسبب إنعدام مكان أجلس فيه بصورة آمنة وإعتيارديه. ووجدت نفسي أكثر من مرة مضطراً على قراءة الرسائل وحتى الاجابة عليها في أحد مراحيض الجامع باعتباره مكاناً أميناً. لكن إستئجار الغرفة وفر لي المكان الآمن. على ان مشكلة أخرى واجهتني، وأنا في غرفتي الحديدة:

كيف وأين اقضي ساعات النهار يومياً؟ فالبقاء في غرفتي طيلة النهار يثير التساؤل والشبهات، خاصة من قبل صاحب الدار السيد. والخروج الى الشوارع والمقاهي لساعات طويلة ـ كما كان يفعل هادي وأمثاله ـ أمر محفوف بالمخاطر. مالحل إذن؟ وجدت الحل في إستئجار غرفة ثانية. فتصبح تحت تصرفي غرفتان أقيم نهاراً في إحداهما مدعياً أني أشتغل في الليل وأقيم ليلاً في الأخرى مدعياً أنني أشتغل في النهار. وقد حصلت على الغرفة الثانية في دار رجل فيلي مؤلفة من ست غرف تسكنها ست عوائل ـ أنا بضمنها ـ مدعياً اني بانتصار أختي واطفالها. وكنت في الواقع أنتظر عائلة عامل النفط الشيوعي المطارد رؤوف محمد لتأتي الينا من كركوك ولنشكل أول وكر شيوعي فيه عائلة ببغداد. كانت صلاتي الحزبية تتسع وتنتظم أكثر

فأكثر سواء عن طريق المراسلة أم عن طريق اللقاءات المباشرة مع البعض. وكان لدينا شيوعيون نشطون وهبوا جل طاقاتهم للعمل الحزبي، أمثال طالب الكلية الطبية طارق المين الذي كانت رسائلي اليه ورسائله الي تذيل برقم 999، وإبن تحدى العوائل الرستقراطية الطالب ثامر الجبيجي، وطالب كلية الحقوق جورج حبيب ... وفي حي الكاظمية، الذي كان يعرف في العاصمة باسم الحي الحمر، كان أنشط رفاقنا عامل النسيج جاسم يحيى والطالب المفصول محمد راضي شبر. وفي السكك الحديد برز الشيوعي الياس بطاح، الذي كان موظفاً صغيراً. وبرز كذلك الموظف الصغير (سامي جرجيس) والعامل النشط أمين. وتمكنا من إقامة الصلات مع منظمات السجون الشيوعية. وأعدنا الصلات مع منظمات كانت مقطوعة في بعض المحافظات كالبصرة والحلة وكركوك وأربيل وخانقين وغيرها. وأصبح مايرد من الاشتراكات والتبرعات الشهرية كافياً لتغطية نفقاتنا المتواضعة. منذ اليام الولى من وصولي الى بغداد تعرفت على الشيوعي اليهودي الشاب يعقوب قوجمان، الذي كان مطارداً ومختفياً. ووجدته مندفعاً وساعدنا على إعادة الصلات مع بعض المقطوعين. وكان يحمل على الدوام حقيبة صغيرة مليئة بمسحوق التبغ. والغرض من ذلك - كما أوضح - هو أن يقذف هذا المسحوق في وجوه وعيون الجواسيس، في حالة مداهمتهم له، لكي يتمكن من الافلات. وكان يهيء للسفر. وقد غادر العراق عن طريق خانقين - على ما أتذكر - في صيف 1949. وبعد أعوام سمعت أنه أصبح أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشييوعي الاسرائيلي. وفي وقت لاحق سمعت انه ترك اسرائيل والحزب الشيوعي الاسرائيلي وسافر ليقيم في بريطانيا. حين إستلمت المسؤولية الحزبية في بغداد كان هادي سعيد يعتبر نفسه - كما إستنتجت لاحقاً - العضو الثاني في المركز القيادي. الا انني لم أجد فيه ما يؤهله لعضوية القيادة ولم أعتبره شريكاً لي في المركز القيادي. وكان ذلك سبباً لاثارة الخلافات والاحقاد لديه تجاهي. ولما كان عاجزاً عن عمل شيء تنظيمياً ضدي فانه قرر الاسراع في التوجه الى البصرة بأمل جلب سكرتير منظمتها زكي وطبان والاستغادة منه في تحقيق غرضه بالوصول الى المركز القيادي. وكنت بدوري راغباً في إستقدام زكي الى بغداد بهدف أن يكون العضو الثاني في المركز القيادي، الذي كنت وحدي أشكله في تلك الأيام.

****

سبقني مجيد عبدالرزاق ذات صباح في العودة الى غرفتنا في الحيدرخانة. وعندما وصلت وجدته واقفاً أمام باب الغرفة من الخارج، فيما كان صراخ السيد العرج متصاعداً داخلها. فتحت الباب فوجدت الى جانب الرجل زوجته ولديه وابنته صامتين مندهشين. وهو نفسه في وضع عصبي حاد بسبب اكتشافه تلك الليلة لارخاء المسامير التي كان قد ثبت بها الباب المغلق بين غرفتي وبين احدى غرف بيته. وأعترف بأني كنت قد أرخيت المسامير فعلاً بهدف التسلل من هذا الباب الى منزله والهروب من هناك في حالة مداهمة الشرطة لغرفتي. ويبدو ان صاحب الدار خشي، عند إكتشافة لهذه الحقيقة، من ان أكون سيء النية وأستهدف سرقة بيته. وحين فتش غرفتي ، في غيابي بالطبع، لم يجد ما يشير الى اني من اللصوص. ولكنه عثر على نشرات شيوعية فعرف من ذلك اننا شيوعيون وأصيب بالذعر من احتمال مداهمة الشرطة لنا. قال لي:

- أنتم تريدون تخريب بيتي.
- لن يخرب بيتك ان شاءاللة يا عم.
- واذا أتت عليكم الشرطة؟

عبثاً حاولت تهدئته. استعنت بابنه الشاب ليهدأه، فاجاب:

- نحن أيضا من الجماعة ولكن الأهل لايقبلون.

أخيرا تمت التسوية على الوجه التالي: ندفع ايجار اليام الماضية (وهو ربع دينار) ونغادر الدار فوراً. فحملنا اللحاف العتيق وخرجنا. كنت قد ابتعدت اكثر من مئة متر حين سمعت صوتاً نسائياً يناديني من الخلف:

- علي ! علي ! قف قليلاً!

وقفت وجاءت ابنة السيد الشابة مهرولة نحوي وأخرجت من تحت عبائتها كليشة (الصراع) التي كنا قد نسيناها في الغرفة، ودسها في يدي قائلة:

- انتبهوا الى ممتلكاتكم ولا تضيعوها.
- شكراً جزيلاص يا أختي.

هكذا خسرنا غرفة الحيدرخانة ولكني لم أتحرج كثيراً لأن غرفة باب الشيخ ظلت بخير وامان.

****

عممت توجيها الى رفاق منظمة العاصمة بخصوص حاجتنا الماسة الى أدوات الطباعة وإخبارنا عن أي إمكانية متوفرة للحصول عليها. فورت رسالة من الشيوعي النشط سامي جرجيس يذكر فيها أن بامكانه سرقة جهاز للرونيو من احدى المؤسسات الاستعمارية. وهو بحاجة الى شخص آخر يساعده في التنفيذ. وبعد يومين أتى سامي والعامل الشيوعي النشيط امين برونيو جستستنر جيد. وبقي أن ندبر الآلة الكاتبة. وجاءت رسالة من ثامر الجبيجي ينبؤنا فيها بان لديه رفيقاً يعمل في احدى الدوائر الحكومية وهو مستعد لطبع ما نريده في ساعات مابعد الدوام الرسمي. ولم يكن بمستطاعنا آنئذٍ تأسيس بيت خاص للطباعة. فاخذت الرونيو الى غرفتي في باب الشيخ. وكانت العائلة المنتظرة قد وصلت قبلئذٍ وسكنت معي في نفس الدار ، وهي أم نضال وطفلتاها الصغيرتان. كما كان زكي وطبان قد وصل هو الآخر بصحبة هادي سعيد وأسكنته معي مؤقتاً

باعتباره عضواً في المركز القيادي للحزب. بعد توفر الرونيو كان يجب إصدار بعض المنشورات لرفع المعنويات بين رفاقنا. لكن تشغيل الرونيو في غرفتنا الوحيدة المجاورة لخمس غرف أخرى تسكنها عوائل في مبنى شرقي صغير لم يكن بالأمر السهل، خاصة وإننا ملزمون بمراعاة قواعد العمل السري الصارمة، مما يستوجب الايرى الآخرون ولا يسمعوا شيئاً. فما العمل؟ عزلنا قسماً من الغرفة بصندوق خشبي صفت فوقه الافرشة الموجودة ووضعنا هناك الرونيو خلف السياج الاصطناعي. وشغلنا أمام باب غرفتنا بريمزاً كبيراً من النوع الذي يضخ فيه الهواء ويطلق دويا كدوي محرك شاحنة عتيقة. أشعلته أم نضال ووضعت فوقه قدراً كبيراً من الماء ووقفت بجانبه لكي لايدخل أحد من الجيران غرفتنا. وكنا أنا وزكي وطبان، جالسين عند الرونيو، الذي نتعامل معه لأول مرة في حياتنا، كي نطبع المنشور الأول. كان منشوراً داخلياً مكرساً لتحية المناضلين الصامدين أمام جلادي الأمن العام في المواقف والسجون. كانت تجربتنا الأولى، وكانت ناجحة على أي حال، رغم ان الطباعة لم تكن نظيفة. وأولينا إنتباهاً أكبر نحو طبع المنشور الثاني، الذي عنوناه (بيان الحزب الشيوعي العراقي حول الوضع السياسي الراهن). قررنا تهيأة تنظيمتنا مسبقا لتوزيعه بنطاق واسع. وعممنا توجيهات حول كيفية التوزيع مع اتخاذ التدابير الصيانية من قبل الرفاق تجاه رد الفعل العنيف المتوقع لدى الأجهزة القمعية. وحددنا يوم 1949/8/24 موعداً للتوزيع . لم يلتزم هادي سعيد بالتوجيهات حول توزيع البيان ـ ربما بسبب موتوريته وتذمره. فذهب كعادته ليجلس في مقهى بسوق حنون، فيما جن جنون المن العام ونشر مغارزه في شتى أنحاء العاصمة اثر توزيع المنشور. وكان هادي الصيد السهل لتلك المغارز. وقيل انه انهار فور القاء القبض عليه وابدى غستعداده للتعاون معهم. وقد إعترف لهم بجميع الأسرار التي كان يعرفها وسبب إلقاء القبض على كل من عرفه من رفاقه وأمكن له تسليمه. كان نوري وعثمان أول من سلمهم في بغداد . وبالتعاون مع مفرزة من البوليس السري سافر الى الحلة واصطاد سكرتير منظمتها الحزبية. وسلم وريا رواندزي في أربيل وقادر شيخ طه في السليمانية وغيرهما. وكان مصمما على بذل الجهود لاصطيادنا، انا وزكي ورؤوف زوج أم نضال، الذي وصلنا قبل ايام قليلة. وقد أرشد البوليس لكبس الغرفة التي كنت قد تركتها في الحيدرخانة ولم يحصلوا على مايفيدهم من المعلومات. ولم أسمح له بالتعرف على غرفتي الثانية في باب الشيخ، بسبب عدم ثقتي به. الا انه كان قد حاول، كما اتضح لاحقا، تتبعنا بهدف معرفة بيتنا. وعلم بأننا نسكن حي باب الشيخ أو ماقاربه. وكتدبير صياني بقينا، انا وزكي ورؤوف ، في البيت طيلة ساعات النهار ولأسبوع كامل . كنا نخرج لاداء مهامنا الحزبية في ساعات الظلام. في عصر 1949/9/2، بعد أسبوع من اعتقال هادي، خرجنا من البيت لنبحث عن بيت جديد لنا في حي آخر، لكي نبتعد عن مصدر الخطر . وبسبب من حماقتنا خرجنا نحن الثلاثة سوية، دون أن يكون موجب لهذا الخروج الجماعي. كل مافعلناه هو اني أوصيت رؤوف بأن يسير وراءنا مسافة 50 ـ 60 مترا لكي ينجو بنفسه في حالة نعرضنا لخطر ما. وحين خرجنا من الزقاق الى شارع الشيخ عمر بهدف العبور من جهة الى اخرى، وقبل أن نطأ الشارع المزفت وجدت نفسي وقد أمسك بذراعي رجلان من الخلف، احدهما رفيق ضالاك . وعلى بعد أمتار كان يقف هادي سعيد مصغر الوجه مرتبكا. كان واضحاً انه دليل هذه المفرزة من رجال الأمن العام، في الكمين الذي نصبته لنا. بصقت من بعيد في وجهه دون أن أكلمه بشيء. واحتقرته أشد مايكون الاحتقار. ووجدت زكي وقد أمسك به اثنان، تماماً كما حدث لي. وعندما طلبت فك يدي وتوضيح السبب لما يجري خاطب ضالاك واحدا من زملائه في المفرزة:

ـ ضع القيود في يديه .. اقتله. اقتله.

جمعت كل قواي وحررت يدي من الرجلين اللذين امسكا بي وخضت معركة غير متكافئة كتلك التي تشاهد في بعض الأفلام. عبثا حاول الجواسيس السيطرة علي خلال المعركة القصيرة، التي كانت أدواتها الأيدي والأرجل. كنت اوجه ضربة قاضية الى كل من يعترضني ويحاول أسري . وكان ضالاك آخر من لويت رقبته واسقطته ارضاً بحركة خاطفة. فتألم واخذ يشتمني، للمرة الأولى، وباللغة الكردية. وعندما اطلقت ساقي للريح وفسح المتفرجون، الذين لم يتدخلوا في المعركة، المجال امامي كي اركض. لجأ رجال المفرزة الى مسدساتهم واظن انهم أفرغوا مخازنها. من المؤكد انهم أطلقوا الرصاص بقصد القتل ولكن الحظ لم يحالفهم. وخلال ثواني بعدت المسافة بيني وبينهم. ولم يكن بامكانهم ابدا اللحاق بي، وهم يركضون ورائي. كنت اقوى منهم بكثير في الركض. وقد تجنبت الركض في الشوارع ، وكنت اعرف الدروب والأزقة بصورة جيدة. ركضت حتى ساحة السباع، وكأني أخوض السباق مع العدائين. في البدء كانوا يركضون ورائي ويصيحون:

ـ الزمه شيوعي! الزمه يهودي ! الومه صهيوني!

في راس الزقاق القريب منهم كان يقف شاب بغدادي أسمر يلبس دشداشة ويشماخ. وهو يسمع نداءاتهم أو أوامرهم الداعية الى القبض علي. فأجابهم بصوت سمعته جيداً ((كلوا خره)) وشجعني على الركض قائلاً ((اركض حيل، خلص روحك)). تلفت وراءاً في ساحة السباع فلم أجد أثراً للملاحقين. كنت أحس بتعب شديد ودخلت منزلا لمجرد أن بابه كان مفتوحاً. وجدت في الممر نساءاً شعبيات جلسن حول رجل شبه أشقر، وهن يضحكن. سالت عما اذا كان لي أن أبقى عندهم بعض الوقت. فأشار علي الرجل بالصعود الى سطح المبنى. وصعدت ورائي احدى النساء حاملة الي كأس الماء. وسألتني، وهي تقدمه:

- ماذا حدث لك يا ولدي؟
- طاردني الانضباط العسكري، أنا جندي فرار.
- لماذا هربت من الجيش؟

- علي أن أعيل أمي وأختي.. لا معيل لهما غيري.
- عمت عيني يمه. ابني هم ضان فرار ولزموه.. اللة كريم.

بعد بضع دقائق، وأنا لازلت جالساً في مكاني، ارتفع وراء سياج السطح المجاور رأسان وقال أحدهما:

- لاتخف، نحن نراقب من هنا. اذا اتوا للقبض عليك فاننا سنأخذك عبر السطوح بعيداً.
- وماذا تعرفان عني؟ سألتهما.
- أمي أخبرتنا بكل شيء... الدربونة كلها تعرف.

عزلة النظام الحاكم واضحة وضوح الشمس. فالناس هنا احتضنوني وتحول البعض منهم الى حراس لي، رغم ان أحدا لم يعرفني وانهم اعتبروني مجرد جندي فرار وملاحق من قبل النظام. وبعد قليل عادت الي العجوز بأنية مليئة بالرقي. ثم صعدت اربع عوائل الى السطح نفسه، وتنافسن في دعوتي لتناول العشاء والشاي. عدت الى غرفتي في جنح الظلام ولم اجد أحدا من زميلي، لا زكي ولا رؤوف . اسرعت في حرق بعض الاوراق لكي لاتقع في ايدي رجال الشرطة في حالة مداهمة البيت الفورية. واخذت أم نضال وبناتها الثلاث، ولم يتجاوز عمر الثالثة منهن يومين أو ثلاثة، لنبتعد عن الخطر. تركت الرونيو العزيز علي في الغرفة. ليس لدي مكان محدد لأتوجه اليه. وليس من السهل تدبير الوضع. توجهنا الى ضريح الشيخ عبدالقادر الطيلاني ، الذي كان ماوى طبيعياً للدراويش والفقراء. كنت أمل ان أجد فيه ماوى لنا أيضاً ولو لتلك الليلة فقط. غير ان أحد سدنة الضريح طردنا قائلاً:

ـ لامكان للنساء والأطفال هنا.. لا يسمح لكم بالمبيت.

اذن كان الشيخ الطيلاني هو الآخر متحيزاً الى جانب الرجال ضد النساء. ولا مفر من مغادرة الضريح. فذهبنا الى خان (الصدرية) القريب، الذي كان ماوى للفلاحين القادمين مع حميرهم، لبيع الخضروات والفواكه في العاصمة، حين يضطرون على البقاء ليلاً. استأجرنا غرفة مفروشة بحصران البواري لقاء عشرين فلساً لليلة واحدة. لم يكف المولود الجديد عن البكاء طيلة الليل ولم تنم امها ابداً. كانت ليلة صعبة. في الصباح الباكر من اليوم التالي اخذنا سيارة أجرة وتوجهنا الى الكرادة الشرقية بأمل أن يساعدنا جورج حبيب على ايجاد حل لمشكلتنا ولو مؤقتاً. الا ان جورج اعتذر عن استقبالنا قبل الساعة التاسعة ـ أي قبل خروج والده من البيت الى محل بيع المشروبات الذي كان يملكه. واضطررنا الى الجلوس في شارع فرعي هناك. وظهر صدفة العامل الشيوعي صبري سباهي، وهو راكب دراجته ويوزع الثلج لصاحب حانوت لقاء مئتي فلس يومياً. وكنت قد تعرفت على صبري قبلئذٍ وسلمته رسالة ليرسلها مع والدته الى السجناء الشيوعيين في سجن نقرة سلمان. أتانا فور مشاهدته لنا وأخذنا دون تردد، حين اطلاعه على وضعنا، الى الكوخ الذي كان يعيش فيه مع أمه واخويه الصغيرين صبيح وعبداللة في حي الزوية بالكرادة الشرقية. وهكذا وجدت حلاً لمشكلة السكن والفضل لهذا العامل الشيوعي.

قبل ان اعرف شيئاً عن مصير رفيقي زكي ورؤوف أرسلت صبري وام نضال، وفق تدبير مدروس، لأخذ الرونيو وأثاث البيت بطريقة امينة من غرفتنا في باب الشيخ. وعندما دوهمت هذه الغرفة في وقت لاحق، جراء اعتراف كلا الرجلين، كانت فارغة تماماً. واعتقل مالك الدار الكردي الفيلي المدعو (ثاشا) وعذب لأسابيع دون أن يكون له ذنب، ودون أن يستطيع تقديم اي معلومة الى البوليس السري. وعلمت فيما بعد أن زكي كان قد حاول الهرب بدوره، حين كان معظم رجال المفرزة منصرفين الى ملاحقتي. وتمكن من الافلات ولكنه أصيب بطلق ناري في ساقه ووقع جريحاً. وانهار بعدئذٍ وسلم الأسرار التي عرفها كما سلم مسؤول منظمة البصرة يحيى صالح. وبالنسبة الى رؤوف فانه اعتقل بسبب ارتباكه وحماقته وحسب. وصمد أربعة أيام، مما منحنا الفرصة لنقل الثاث، وأرشدهم الى البيت بعدئذٍ. حصل صبري سباهي، بناءا على طلبي، على مبنى طيني غير قرب بيته لكي نستأجره. وانتقلنا اليه لقاء دينارين شهرياً. وبعد قضاء ليلة واحدة فيه فوجئنا بصاحبة الدار وهي أتتنا لتصرخ وترعد وتطلب منا تركها فوراً. أجبتها بهدوء:

ـ اذهبي الى البيت وارسلي الينا زوجك لنتفاهم معه.

فذهبت وجاء الزوج وأصر على نفس الشيء دون تبيان أي سبب. وأعاد الي بدل الايجار المدفوع مقدماً عن شهر واحد. واضطررت الى الذهاب للبحث عن دار اخرى ووجدتها بجانب مستشفى العزل (حاليا مستشفى الكرامة) بصوب الكرخ في نفس اليوم. واتيت بباص خشبي صغير لنقل الأثاث. ووجدت صاحب الدار، الذي طردنا، موجوداً ويتوسل الي بأن أبقى في البيت. لم أستجب لطلبه. واتضح لاحقا انه حسبنا أول الأمر يهوداً فقرر طردنا. ثم عرف اننا أكراد فندم من فعلته وطلب منا البقاء. في مبنى الكرخ كان لنا جار أعمى يعتاش على قراءة القرآن في مجالس الفاتحة أو المقابر... الخ. وكانت له بنتان شابتان. نشأت بينهما وبين أم نضال علاقات الجيرة وتبادل الزيارات. وظهر ان إحدى الفتاتين أحبتني أو طمعت في الزواج مني، دون أن يكون لي علم بأمرها أو رغبة في الزواج منها. وفوجئت بأن فاتحتني أم نضام برغبة أم الفتاة في أن توزجني إبنتها. وتملصت من الموضوع مدعياً اني خطبت إحدى قريباتي. وقد أصبحت من تلك اللحظة مكروهاً من تلك الأم.

5

نقل مقر القيادة الى كركوك

بعد ايام من حادث الاصطدام بمفرزة الأمن العام، جراء انهيار هادي سعيد، تبلورت لدي فكرة جديدة، وكنت قد بقيت من جديد وحيداً في المركز القيادي بعد أن أعتقل زكي وطبان: الانسحاب من العاصمة ونقل المركز القيادي مؤقتاً الى مدينة اخرى

آخرى آخذاً بنظر الاعتبار ان العدو يركز على بغداد في البحث عني وانه حصل على معلومات وافرة جراء اعتراف هادي وزكي ورؤوف. ووجدت ان كركوك هي الأفضل. فانتقلت اليها وأخذت معي بلال، الذي كان قد أفلت من يدي هادي سعيد في بغداد. لكن بلال ضاع عني في كركوك. واختفت معه حقيبة ملابسي، بضمنها صايتي " التاريخية " التي كنت البسها أثناء بعض السفرات لغرض التنكر. لم اعرف منذ ذلك الحين ولقرابة عامين شيئا عن هذا الشخص فحسبته في عداد المفقودين. عند مغادرة بغداد خلفت ورائي الرونيو. ثم جلبها صبري سباهي مفككة الي في كركوك. ولم نعرف اعادة تركيبها فخسرناها تقريباً. انتقل معي الى كركوك كل من محمد راضي شبر ومجيد عبدالرزاق. فيما أسندت المسؤولية العمل الحزبي في بغداد الى الياس بطاح الذي كان موظفاً صغيراً في السكك. ورتبت معه صلات أسبوعية واخترت صبري سباهي، الذي كنت أثق به، مراسلاً حزبياً بيني وبين العاصمة. في كركوك أقمت أول الأمر في كوخ العامل النفطي الشيوعي أحمد، الذي كان يواصل عمله في الشركة. وقد وضع بيته وراتبه ونفسه في خدمة الحزب. وكان يملك كوخاً قرب ساحة طاورباغي. وكان عامل النفط الآخر نجم ينفق هو الآخر معظم راتبه الشهري علينا وعلى عائلة السجين الشيوعي كريم أحمد الداوود. وتركت كوخ أحمد بعد فترة واستأجرت داراًصغيرة بحي الامام عباس وسكنتها مع عائلة كريم أحمد. كنت احس بقدر من السرور والانشراح عندما كنت أقف في مدخل شركة النفط لأتفرج على عمال النفط، وهم ينزلون من القطار ويتدافعون على بعضهم مسرعين، هذا الى دراجته الهوائية وذلك الى الباص الخشبي العتيق الموجود هناك، ليعودوا الى بيوتهم وأكواخهم، وهم متسخون ومدهنون، ويتكلمون بلغات عديدة، كردية وتركية وعربية وآشورية وأرمنية. وبالقرب من نقطة تفرق هؤلاء العمل كان يقوم حي اوروبي راق مؤلف من الفيلان والقصور المحاطة بحدائق رائعة، يسكنها المهندسون والموظفون الأجانب القادمون لاستغلال نفطنا وعنالنا وعمالنا وللعيش على حصابنا في هذه البحبوحة. كانت هذه لوحة حية تجسد الاضطهاد الوطني والاستغلال الطبقي معاً.

وبعكس ما وجدته في بغداد من حيوية الشباب والحماس الثوري والتفاف جماهير غفيرة حول ح.ش.ع فاني وجدت الوضع في كركوك على شاكلة مغايرة: السلبية والانكماش وانعدام أي اندفاع نحو النضال الثوري. هنا، في كركوك، حيث تحشد البروليتاريا الصناعية الحديثة ، لم ألمس ذلك الاندفاع الثوري الذي لمسته في السلسمانية، حيث لم يكن أي تحشد عمالي. في مدن قبيل النجف وكربلاء والكاظمية، التي كانت مراكز دينية للشيعة، نافس ح، ش، ع بنجاح القوى الدينية والرجعية. لكن نفوذنا في مدينة كركوك العمالية لم يكن شيئا يذكر بين الجماهير التركمانية خاصة، بالمقارنة مع نفوذ الرجعية التركمانية. لماذا ذلك؟ بماذا تفسر هذه الظاهرة؟ هل هي من صنع الا نطليز أم هي نتيجة أخطاء الشيوعيين أم غير ذلك؟

****

في كانون أول 1949، حين كنت أسكن مع حمدية وأختها، وقع لنا حادث طريف. فبينما كنت منصرفا الى قراءة بعض الرسائل الحزبية وكتابة الأجوبة عليها أتتني الصبية شكرية راكضة مرتبكة لتقول:

ـ داهمتنا الشرطة يا أخي!

انتبهت الى الدقات العنيفة المتواصلة على باب الدار. فذهبت لأتوثق بنفسي من انهم من الشرطة فعلا ثم عدت الى الوراء ركضا وحملت كيس القماش الصغير الحاوي على رسائلي الحزبية وصعدت الى السطح. من هناك انتقلت عبر أسطح أخرى وتأتى علي خوض معركة عنيفة مع كلب كبير عضني من رجلي فوق أحد الأسطح وهويت عليه بضربة عصى عنيفة كنت قد حصلت عليها هناك. وحين نزلت الى باحة احدى الدور هاجمتني نساء تركمانيات وعضت احداهن يدي وهن يصرخن ((خير خز! خيرخز! ـ معناه حرامي ، حرامي)) . ووجدتني مضطرا على تسديد ضربة عصى لها أيضا. وقد أسرعت في الوصول الى محمد شبر فحذرته من الذهاب الى البيت. وكنت أبحث عن مجيد عبدالرزاق لتحذيره هو الأخر. فلاحت شكرية من بعيد، وهي تبحث عني خارج البيت كي تخبرني بأن هؤلاء الشرطة لم يأتوالكبس دارنا، انما بسبب نزاع حدث بين عائلتين مجاورتين . وعلى اثر هذا الحادث اضطررت الى استبدال الدار باخرى في حي آخر.

بعد ذلك بحوالي الشهر وقع حادث جديد أشد خطورة. كنت وشبر عبرنا شارع طاورباغي في مجرى التمشي الاعتيادي. فرأينا شرطياً سرياً كان قد لاحقنا قبل يومين وعدنا أدراجنا لنتجنبه. وأثناء العودة وسط الشارع وبموجرد الصدفة، التقينا بمفرزة من رجال الأمن العام القادمين من بغداد للبحث عن الشيوعيين في كركوك. كان بينهم الشيوعي السابق والمسخر لخدمة السلطة جاسم الطعان، الذي كان يعرف شبر بصورة جيدة. التقت نظرات الرجلين مع بعضهما وهمس محمد قائلا:

- رفيق ! هذا جاسم الطعان!
- واصل السير دون أي أهتمام ـ أجبته.
- قف يا ولد ـ صاح الطعان، وهو على بعد أمتار منا.

كان جوابنا أن انطلقنا ركضا باسرع مانستطيع. وكان شبر متوعك الصحة، مرتديا معطفي العتيق البوليسي الذي كنت قد اشتريته قبل عامين في سوق الملابس المستعملة بالسليمانية. كنت أخف وأقدر على الركض. في الأمتار المئة الأولى قبضوا على شبر بعد أن انزلقت رجله. وتابعوا الركض ورائي، وهم يصرخون كعادتهم:

ـ الزمه شيوعي ! الزمه صهيوني!

واستجاب لندائهم العشرات من رواد المقاهي الشعبية التركمان الموجودين قرب مستشفى العزل وهاجموني من الأمام. واضطررت على العودة وراءاً عبر زقاق آخر ضيق، نحو ذات النقطة التي انطلقت منها، لأجتاز الشارع وأدخل بستان طاورباغي. نزعت عن رجلي ، وأنا أركض، جزمتي ورميت كذلك سترتي. أطلقوا علي الرصاص بعد أن يئسوا من القبض علي. لكنني كنت قد ابتعدت عنهم. ركضت خارج المدينة، خوفا من التركمان، وغير بعيد عنها لكي أعود الى داخل البيوت من مكان آخر. عبرت نهر ((خاصة)) الفائض جراء سقوط الأمطار الغزيرة. وحين دخلت حي الشورجة المكون من مبان طينية كانت الشمس على وشك الغروب. وتأتى على البقاء في زاوية مظلمة عند حوض الماء في الجامع لأكثر من نصف ساعة بانتظار أن يحل الظلام وأذهب حيث اريد دون أن أثير انتباه المارة الى ملابسي المبللة ورجلي الحافيتين. بت ليلتي لدى صديق في القلعة. ووجدت هناك بصدفة سعيدة أسعد بانيخيلاني فأرسلته صبيحة اليوم التالي لاخبار مجيد عبدالرزاق بما حدث لنا واخلاء الكوخ المستأجر، الذي لم يبتعد أكثر من بضعة عشر مترا عن مكان لقاءنا مع المفرزة، ونقل العائلة والرونيو الى مكان آخر.
وفي اليوم التالي، وفيما كنت أحاول تطويق الخطر، ذهب اسعد ـ ربما بدون مبرر ـ الى بيت بهية شقيقة حمدية وداهمته المفرزة نفسها. فقبض عليه غنيمة باردة. وقد سأله أحدهم عند كبس البيت:

- ماذا تعمل هنا؟
- جئت لأشتري الزبيب.
- وهل هنا بقالية لبيع الزبيب؟

غدت خسارتنا كبيرة بفقد شبر وأسعد. كان شبر شابا نشطا عالي الجهادية وذكيا وحسن الخلاق. وقد صمد الاثنان ولم تفلح الجهزة القمعية في انتزاع اي اعتراف منهما. كانت الضربة عنيفة وسلمنا منها أنا ومجيد عبدالرزاق. فاستأجرت غرفة صغيرة في مبنى طيني بحي الشورجة الأشبه بقرية في ضاحية كركوك. كان هذا الحي يتكون من مباني طينية بناها كلها القرويون الكراد الذين هجروا قراهم في سهل طرميان الخصب هربا من ظلم الاقطاع أو من الفقر أو النزاعات العائلية العشائرية.
وبهدف الابتعاد عن كركوك حتى تخف حملة الملاحقة البوليسية قررنا السفر الى مدينة السليمانية لبعض اليام. غادرنا كركوك مشيا على الأقدام حتى ابتعدنا كيلومترات. ثم ركبنا باصا خشبيا الى مقهى تينال ـ بازيان ـ هناك جاءنا شرطي واجرى شبه تحقيق معنا عما اذا لم نكن من الجنود الهاربين. ولكنه لم يشدد كثيرا. على اثر ذلك قررنا متابعة السير الى السليمانية مشيا على القدام خوفا من امثال هذا الشرطي اللعين، فيما كانت الشمس على وشك الغيب. بعد حوالي الساعة حل ظلام دامس مقرونا بمطر غزير والتجأنا مضطرين الى بقايا غرفة أو خرابة كانت في وقت ما مقهى على الطريق ثم هجرت وتهدمت. بقينا طيلة الليل تحت المطر وبرد الشتاء القارس. وفي الصباح الباكر استانفنا السير وفي الظهيرة دخلنا السليمانية مشيا، بعيدا عن الطريق المبلط الذي كانت السيارات تسير عبره. ذهبنا في البدء الى امام جامع دعي ملا حسن طردة زبيري، وهو من رجال الدين الشبان ومن أصدقاء ح.ش.ع. في اليوم التالي ذهبت الى بيت أختي والتقيت هناك مع والدي ووالدتي. وبذل ابي وخالي جهودا كبيرة لاقناعي بالبقاء في المدينة أو السفر الى احدى القرى ابتعادا عن النشاط الحزبي. رفضت بحزم ورجوت والدي الا سلح في هذا الطلب ولا ينزعج من عدم اطاعتي له.
لم يتسن لي شخصيا ممارسة أي نشاط حزبي في السليمانية . وكانت عودتنا الى كركوك اكثر سهولة . وحين حاول مجيد عبدالرزاق في غرفتنا بالشورجة اشعال البريمز لتهيأة الشاي وجد مضخ الهواء عاطلا. طلبت منه اخراج المضخ وتشحيم الواشر. فرد علي بهدوء:
ـ اني لم افتح مكينة البريمز أيها الرفيق، ولا أعرف عنها شيئا.
ضحكت وشحمت المضخ وأشعلت البريمز. الا ان بقاءنا في الغرفة لم يدم طويلا . ولم يكن السبب في هذه المرة حملة البوليس علينا . بل كان رفيقي مجيد نفسه. فقد خرج ذات يوم الى موعد حزبي له مع عامل احذية ولم يعد. انتظرته طويلا، وأنا في قلق شديد، ولم يعد كنت على ثقة من انه هو الآخر قد اضطهد من قبل الاجهزة القمعية. وبذلك تعمقت الضربة التنظيمية في كركوك. وهكذا بقيت وحيدا بين الرفاق الخمسة ، الذين توجهوا من بغداد الى كركوك. غير ان لقاءاتي مع صبري سباهي ظلت مستمرة شان صلاتي مع تنظيمات حزبية أخرى خارج كركوك. بعد فقدان مجيد تركت الغرفة التي كان يعيش معي فيها، واستأجرت غرفة أخرى في الطرف الثاني من الحي. وكان الرونيو أول ما حملته على ظهري ونقلته الى الغرفة الجديدة في منزل القروي الفقير عبداللة روذبياني، الذي كان قد خرج من السجن، بعد قضاء سنوات فيه بسبب نزاعات شخصية، وبقي مع عائلته في كركوك خشية أن يثار منه خصومه في حالة رجوعه الى القرية. كانت له زوجة نصف شقراء (حليمة) وطفلان صغيران اتخذت من احدهما معلما لي بامل تعلم شيء من اللغة التركية التي كنت أود تعلمها ولم أفلح.
كانت في دار عبداللة غرفة أخرى صغيرة معروضة للايجار لقاء ربع دينار شهريا. ولم يكن من مصلحتي أن ياتي مستأجر بخر مجهول الهوية. ولهذا استأجرتها بنفسي رغم عدم حاجتي اليها. وساعدني منشأي القروي ومعرفتي بعادات وتقاليد الفلاحين على توثيق العلاقات مع عبداللة بقدر من السرعة. وقد كسبت ثقته، مما سمح لي بأن أفاتحه حول وضعي الخاص. فأعلمته باني رجل مطارد من السلطة ولا أريد ان اسبب له متاعب، وهو صديقي الطبيب ولا يعرف عني شيئا. وضعته أمام

أحد أمرين، اما أن أترك البيت، اذا لم يرق له بقائي، أو ابقى بموافقته وشريطة أن يتعهد بالحرص على سلامتي. فسألني عن سبب مطاردة السلطة لي ـ وأغلب الظن أنه فكر أول الأمر بالنزاعات العشائرية أو الشخصية. أجبته:

- أنا مطارد لأني شيوعي.
- آ. فهمت.. وما الضير في أن تكون شيوعيا؟ ان أحد أقاربي هو الآخر شيوعي.
- ما اسمه؟
- ملا جميل روذبياني.

كنت أعرف ملا جميل، اذ سبق ان زار والدي اكثر من مرة. ولم أسمع بأن يكون شيوعيا. ولكنه كان يحاول لكي يبدو كرجل عصري او ملا من الطراز الحديث. ولعل ذلك حمل عبداللة على الاعتقاد بأنه شيوعي. وراق لي بالطبع أن يعتبر نفسه من أقارب أحد الشيوعيين. وتحولت علاقتنا الشخصية تدريجيا الى علاقة سياسية وحزبية وغدا نفسه وزوجته حريصين على حمايتي حرصهما على ابن عزيز عليهما.

أسرعت الي حليمة ذات يوم، وكنت أقرأ في كتاب، لتقول:

- أخرجا! أنت وضيفك يا علي! (وكان لدي صبري سباهي).. أخرجا من البيت لبعض الوقت.
- ولمذا نخرج من البيت؟
- لأن الشرطة تفتش الدور المجاورة بحثاً عن التبغ المهرب.
- ليس في هذا البيت تبغ مهرب. وهم لايبحثون عن الناس.
- أرجوك أن تخرج لمدة ساعة واحدة . اخشى أن يحدث ما لاتحمد عقباه.

وفي يوم آخر أتتنا حليمة، وكان لدي صبري أيضا، لتقول:

- جارتنا تريد أن تراكم.
- ولماذا تريد أن ترانا؟
- لأن أحد الرجال قد أتى اليها وخدعها وسرق دهنهم. جاء ليقول لها ان زوجك أرسلني من السوق لآخذ ظرف الدهن اليه للبيع. فأعطته اياه. وعندما عاد زوجها مساء اتضح انه لم يرسل أحداً، بل كان هناك سارق متحايل.
- حسنا. وماذا تريد الجارة الآن؟
- لأنها تشك فيكم.
- هل تعرف الشخص الذي سرقها؟
- تدعي انها تعرف جيدا.

خرجنا من الغرفة نحو الجارة التي كانت واقفة في انتظارنا. رأتنا ونظرت الى وجوهنا وقالت:

ـ أنا اليوم هنا، في هذه الدنيا، وغدا في الاخرة ، وحرام علي أن أتهم البرياء. لأشبه بين هذين الشخصين وبين من سرقنا.

كان قد انقضى أكثر من اسبوعين على ضياع مجيد عبدالرزاق عندما التقيت في كركوك بالشاب الشيوعي من السليمانية نوري جلال وسمعت منه خبراً مفاجئاً: ان مجيد موجود في السليمانية، ولم يعتقل، بل انضم الى كتلة ((الاتحاد)) المنشقة علينا ونشط بينهم ضدنا. ولكن الأرجح ـ الكلام لنوري ـ أن يكون الآن قد ترك صفوفهم أو طردوه. فقلت لنوري انني لم أتوقع مثل هذا الموقف من مجيد اذ كان بمستطاعه الذهاب بصورة اعتيادية، دون التخفي والهروب.

****

كلمة عن كتلة ((الاتحاد)). وقد سميت بهذا الاسم لأنها أصدرت نشرة بنفس الأسم. انها ظهرت في السليمانية أيضا، في أعقاب انقسام المنظمة الى جماعتنا وجماعة ((النجمة)) . وكان مؤسس ((الاتحاد)) مسؤولى الحزبي السابق كريم صوفي. الذي أخلي سبيله وعاد الى السليمانية ليستأنف نشاطه الحزبي بعد حوالي السنة من السجن. وهو لم يرض عن جماعتنا ولا عن جماعة (النجمة)) فأسس كتلة ثالثة زاعما بأنه هو المحق. وقد تمكن، مستفيدا من سمعته الجيدة في المدينة ومن انعدام كادر كفوء لدى منافسيه، من تشكيل كتلة جذبت الأغلبية الساحقة من شيوعيي المدينة ولو لفترة. وكنت شخصيا أنظر الى كريم كشاب مخلص ونزيه وجدير بالثقة. وأرسلت له رسالة عبرت فيها عن هذه الثقة ودعوته الى اعادة النظر في موقفه والى التعاون والتكاتف معنا ضمن تنظيم شيوعي موحد. لكنه أخطأ في تصرفاته اذ لم يكتف بعدم الاستجابة لطلبي بل استغل رسالتي للاستشهاد بها كدلالة على اننا نعترف بـ ((بلشفيته)) في حين يرفض من جانبه الاعتراف بشيوعيتنا. لم يبق كريم طويلا ولم ينعم بالاستقرار بل اعتقلته السلطة من جديد. كان مصابا بالسل ومحتاجا الى العلاج والعناية ولم يوفروا له شيئا من هذا القبيل حتى توفي في احد المستشفيات شهيدا.

****

بقيت وحدي في كركوك . وينبغي الاعتراف بأننا عجزنا، خلال الأشهر الأولى التي قضيناها في تلك المدينة العملاقة، عن بناء تنظيم حزبي جديد أو اقامة صلات وثيقة مع عمال النفط وسائر الفئات الشعبية. كنا وسط ظروف بالغة التعقيد وكنا معزولين شعبيا. وكان العدد الضئيل من رفاقنا وأصدقائنا في المدينة اما من الأكراد أو الأقليات. وظلت الجماهير التركمانية أرضا حراما ومغلقا الى حد أمام نشاطنا الحزبي، بعكس ماكان عليه الوضع في بغداد وبعض المحافظات الاخرى، حيث

كانت النجاحات تحرز بوتائر سريعة نسبيا في إعادة البناء وتوسيع الصلات بالجماهير. وكان ضعف مستواي وقلة تجاربي السياسية ـ التنظيمية عائقا أمام تطور نشاطنا اذ لم نضع برنامجا للعمل الحزبي متلائما مع متطلبات ظروف المدينة. وبالنسبة الى الخط السياسي الذي كنا نتبعه فانه كان ثابتا الى حد: التركيز في نضالنا ضد الاستعمار ولطرد نفوذه، والتمسك بشعار اسقاط النظام العميل أو الوزارة العميلة.
في ربيع 1950 نضجت لدي فكرة العودة الى بغداد، بعد أن استنفذ الغرض من الاقامة المؤقتة في كركوك. وأوصيت صبري سباهي بالبحث عن دار صغيرة للايجار في بغداد. كان علي أن أغادر دار صديقي الفلاح ورفيقي المناضل عبداللة روذبياني . فقد التقيت به لأول مرة انسانا أميا طيبا بسيطا لم تربطه علاقة ما بالحركة السياسية. وها أتركه مناضلا ثوريا حقيقيا يضع بيته الصغير تحت تصرف الرفاق كوكر للنشاط الحزبي. غادرت كركوك بصحبة صبري و عبداللة. وقررت السفر عبر الموصل ليكون زيارة وتجارة معا: التقي هناك بمسؤول منظمتنا الحزبية وأطلع على وضعها، من جهة، وأسافر الى بغداد عن طريق أوفر سلامة، من أخرى. رأيت أربيل لأول مرة ومكثنا فيها بعض الوقت قبل أن نستأنف السفر . كانت مدينة ريفية الطابع يقارب عدد نفوسها الثلاثين ألفاً. وعند الوصول الى الموصل أقمنا في فندق صغير رخيص بانتظار الاتصال مع سكرتير المنظمة في اليوم التالي. وشاهدت الموصل أيضا للمرة الولى. كان سكرتير المنظمة عمر معلما شابا أشقر انيق الهندام هادئا. عقدت معه اجتماعا طويلا في الهواء الطلق وبحثنا امورا سياسية وتنظيمية. ولم أفهم خلاله الكثير عن وضعنا الحزبي هناك. وقدم الي 75 ديناراً من حصيلة الاشتراكات والتبرعات.
في المساء قطعنا تذاكر السفر بالقطار ذي المقاعد الخشبية التي لاتمنح المسافرين شيئا من الراحة عبر طريقهم الطويل. وكان رصيف المحطة والفارغونات مزدحمة مليئة بالضجيج. واتخذنا مقاعد لنا بانتضار أن يتحرك القطار صوب العاصمة. واتانا شاب طويل رشيق في بدلة مدنية أنيقة، ووراءه بضعة رجال في ملابس الشرطة أو الملابس المدنية. وطلب مني ومن عبداللة هوياتنا . أخرجت هويتي المزورة، التي كانت في الاصل لشقيق حليمة المتوفي. في ذلك الحين لم تكن هناك صور ملصقة بدفاتر النفوس. الشيء الوحيد الذي لفت انتباه الرجل في الهوية هو أن تاريخ الولادة هناك لم يكن متناسبا مع مظهري. كان يبدو اقل عمرا فسألني:

- هل من المعقول أن يكون هذا عمرك؟
- والدي هو الذي سجلني على هذه الشاكلة ولا ذنب لي في الأمر.
- ألستم من اليهود الساعين الى الهروب؟
- أشهد أن لا اله اللة وأشهد ان محمدا رسول اللة.

فوجيء الشرطي السري بجواب لم ينتظره وشعر بنوع من الاثم. ثم سال عما اذا كنت جنديا هاربا . أجبته بالنفي . لكنه أقلقني بتوجيه سؤال عن الشخص الثالث، الذي كان معنا ـ وكان يقصد صبري سباهي، الذي جلس بعيدا ببضعة أمتار، فقط لانه لم يجد مقعدا فارغا بجانبنا. السؤال عن ثالثنا اوحى لي وكأننا كنا مراقبين مسبقا. فأجبته بأننا اثنان فقط ولم يكن معنا شخص آخر فتشونا ولم يعثروا على شيء عندنا. أمر الشاب الطويل شرطيا بالبقاء عندنا لحين عودته هو وذهب مع بقية مرافقيه، ربما للبحث عن شخصنا الثالث. وبعد ذهابه مباشرة أفلحت في خداع الشرطي الحارس اذ قلت له:

- نحن جياع ولا ادري ما الذي يمكن شراءه للاكل هنا؟
- هنا على الرصيف انواع الأكل.
- اذن هاتنا الأكل لك ولنا يا أبو اسماعيل. أو خذنا نشتري سوية.

كان المبلغ الذي أعطيته اياه ـ نصف دينار بالكامل ـ مغريا له. فنزل ليشتري الكل على بعد بضعة أمتار. ونزلنا وراءه بحركة سريعة لنضيع بين الازدحام على الرصيف . وغادرنا المحطة فورا ووجدنا مكانا للمبيت فيه. وفي الصباح الباكر غادرنا الموصل عائدين، أنا و عبداللة، الى كركوك. وفي اليوم التالي وصلنا صبري قادما من بغداد واخبرنا أن مفرزة البوليس ظلت تبحث عنا وعنه في عربات القطار حتى وقت متأخر من الليل. وأخبرني أنه إستأجر بيتا صغيرا مناسبا لنا في بغداد. بعد ايام ثلاثة توجهت بالسيارة الى كفري وبالقطار ، من هناك ، الى بغداد. أخذت معي العجوز أم حليمة وحفيدها الصغير كريم ليسكنا معي بعض الوقت ريثما أدبر أموري بشكل افضل. أصبحت من جديد جاراً لمستشفى العزل ولضريح الست الزبيدة عقيلة هارون الرشيد الشهيرة. وبقي صبري، لبعض الوقت، حلقة الوصل بيني وبين مسؤول منظمة العاصمة، التي كانت قد أحرزت بعض النجاحات في إعادة بناء نفسها.

6
في العاصمة من جديد

لم احمل معي الى بغداد، وانا أعود اليها، أي خطة للنشاط السياسي أو العمل التنظيمي اللاحق. كان مثل هذا العمل فوق مستواي. غير ان تجارب مناسبة، أو جيدة ، تراكمت لدي بالنسبة لقضية سرية العمل والصيانة. وكان الخط العملي، الذي انتهجته منذ وصولي بغداد في حزيران 1949 وحتى أواسط 1951، هو خط الانسحاب المنظم، اي تجنب المظاهرات والاضرابات وكل النضالات الجماهيرية التي لم تتوفر مقوماتها، والانصراف الى اعادة بناء الحزب وتربية كادر جديد له. لم أستطع تقديم توضيحات أو صياغات نظرية لتبرير هذا الخط. لكن تجربة المظاهرات، التي قدتها في السليمانية ايام قيادة

ساسون دلال، أقنعتني بصواب مثل هذا الخط السياسي ـ التنظيمي في تلك الفترة. وقد بدأت نشاطي من جيد وأنا مقيم كالعادة بين الكادحين في حي شعبي، أليس وآكل واعيش مثلهم واقيم علاقات الجيرة الاعتيادية معهم دون أن أكشف هويتي الحزبية ـ السياسية أو طبيعة نشاطي السري لأي منهم. وقد وجدت الوضع أفضل بما لايقاس مقارنة مع ماقبل سفري الى كركوك. فالتنظيمات اوسع عدداً ونشاطاً والصلات مع المنظمات الحزبية خارج العاصمة اوسع وأكثلا إنتظاماً. ولأهم من كل ذلك ان المعلومات المتوفرة سابقاً لدى العدو أصبحت عتيقة وغير مجدية له. ولم يحصل على معلومات جديدة عني منذ سفري الى كركوك ،حتى ولا عن كوادرنا وتنظيماتنا الجديدة التي أوجدت في الفترة الأخيرة.

كنت لاأزال أشكل لوحدي المركز القيادي للحزب بعد أن أعتقل زكي وطبان. لكنني كنت أستعين بكوادر حزبية فتية حولي ، أمثال شبر وصبري ومجيد، لتمشية العمال اليومية. وعند فقدان غالبيتهم في كركوك جابهت صعوبات أكبر في تمشية الأعمال. وحين عودتي الى بغداد تغير وضعي خلال فترة قصيرة، خاصة على أثر خروج عاملي النسيج هادي صالح وصادق الفلاحي من السجن، بعد إنتهاء مدة الحكم، وإتصالي بهما شخصياً. فقد وجدت فيهما مناضلين نشيطين متفانيين حقيقيين وضعا كل طاقاتهما في خدمة الحزب، بدون أي تردد وافق صادق على أن يأتي بأمه لتسكن معه أو معنا في وكر حزبي. لكن الأم لم تطق الاقامة بعيداً عن صديقاتها وعن اللقاءات وجلسات الثرثرة اليومية مع نساء الدربونة الشعبية في الجو الذي اعتادت العيش فيه سابقاً. ولم تتحمل حياة الاختفاء وما تفرضه من القيود في البيوت الحزبية فتركتنا بعد اسابيع. وأما فأنه لم يعطي فقط نفسه للحزب بل وضع عائلته ايضاً وطوال أعوام متعاقبة في خدمة الحزب . وقد أصبحت زوجته الأمية البسيطة مثال المناضلة الشعبية المتفانية. ولزام علي ان أعترف بأني مدين لهذه العائلة العمالية الرائعة، التي ساعدتني كثيرا في تمشية العمل وتحقيق مهماتي الحزبية وكذلك توفير الخدمات الشخصية طوال اكثر من عامين وحتى إعتقالي في نيسان 1953.

والعائلة الأخرى ، التي جعلتني مديناً لها بفتح بيتها لي وتقديم كل مساعدة ممكنة في تمشية نشاطي الحزبي، كانت عائلة عمال النسيج في الكاظمية أيضاً ـ خضير وابراهيم وفضيلة وأمهم الكادحة الأمية الباسلة، التي كانت تؤدي باندفاع كل ما نكلفها به من مهام المراسلة ونقل البريد. كما كانت تتصرف أزائي كام حقيقية طيلة فترة بقائي قريبا منها. كانت إمرأة شجاعة أبية النفس ومتفائلة. وندر أن يفارق المغزل يديها، سواء تكون جالسة في البيت أو منشغلة ببعض الأمور. فالمغزل بالنسبة اليها لم يعد مجرد أداة لكسب الرزق، بل كذلك أداة للتسلية. اذا كان لي أن أعتز بما عملت وما حققت من منجزات كمناضل ثوري مؤمن من الأعماق بقضية الشعب والشيوعية، التي كرست لها حياتي في تلك الفترة، فان علي أن أقر بحقيقة انني لم أكن قادراً على انجاز ما أنجزته لولا المساعدات والمساهمات النضالية التي قدمها لي عمال واعون سياسيا ومناضلون باخلاص من أمثال صبري سباهي وصبيح سباهي وهادي صالح وصادق الفلاحي وخضير عباس الكاظمي وجاسم يحيى وغيرهم من الجنود المجهولين، الذين عملوا وضحوا دون أن ينتظروا مكافأة من أحد ودون أن يهابوا الارهاب والملاحقات من لدن النظام الملكي العميل. كان هادي صالح، الذي عشت أطول فترة من حياة الاختفاء معه ومع عائلته قد قضى سنة في السجن، قبل تعرفي عليه. وفي فترة سجنه دبرت زوجته ريفية المنشأ معيشتها، هي وأطفالها الثلاثة، من بيع حليب البقرة التي كانت تملكها وتسهر على مداراتها. وكانت تعتقد بأنها تملك أفضل بقرة في العالم . وظلت محتفظة بها وحريصة عليها حتى بعد انتقالها الى بيت حزبي معنا. كانت تبيع قدرا من حليبها وتطعمنا منها الحليب واللبن. في صبيحة أحد الأيام لاحظناها تصب الماء في الحليب الذي تسخنه لنا فوق البريمز النفطي. فعنفها زوجها قائلاً:

- أنت تغشين حتى أطفالك يا إبنة الأوادم.
- الحليب لايكفي يا أبو عدنان! ـ قالتها وهي تضحك.

في بعض الاحيان كنت أكلف هادي باعمال الطبع أيضا. كان في بيته رونيو وطابعة. ووقع له حادث طريف في حي الرحمانية بالكرخ، حيث كان قد إستأجر مبنذ صغيراً عائداً الى رجل حاج دعي ((الشكرضي)). طبع في إحدى الغرف ذات مرة منشوراً حزبياً. ولكي لاتتسخ نسخه من الحبر، الواحدة من الأخرى، نشرها في الغرفة عن عمد. وغادر البيت قبل أن يجمعها. وبعد قليل دخل الدار المالك الشكرضي برفقة بنتيه الشابتين لتفقد المبنى أو لزيارة ساكنيه المستأجرين ـ كما يحدث عادة في الأحياء الشعبية. ودون إستئذان من ربة البيت، التي كانت منصرفة الى غسل الملابس، دخل الشكرضي والفتاتين غرفة الرونيو وشهدوا المنظر العجيب غير المألوف: طابعة ورونيو ومئات النسخ من منشور مطبوع . أخذت إحدى الفتاتين نسخة من المنشور وقرأت العنوان والتوقيع المذيل به وقالت:

- يابه ! هذه مطبعة الحزب الشيوعي!
- لايا بنتي ! هذه مطبعة الحكومة وهذا المستأجر كاتب في دائرة حكومية وتتراكم عليه الأعمال فيضطر الى إكمالها هنا في البيت بعد إنتهاء الدوام الرسمي. هيا بنا نخرج.

خرج من الغرفة مع إبنتيه وسد الباب بعناية وتحدث بكلمات اعتيادية الى ربة البيت التي كانت شديدة الارتباك. وغادروا البيت تاركين أم عدنان في قلق وحيرة من الأمر. ونزلت رحمة عليها عندما دخلت الدار لأخذ المنشور المطبوع. روت لي الحادث سريعا فيما كانت الفتاتان واقفتين على سطح الدار المجاورة ـ وهي بيت خالتهما ـ تتفرجان علينا وتضحكان وتستغربان من وجود مطبعة ح.ش.ع في هذا المكان وعلى هذه الشاكلة. وبات من الضروري الا اسمح بضياع الوقت وضعت الرونيو

والطابعة ونسخ المنشور المطبوع لتوي في سلتين وعلقتهما على سكان دراجتي الهوائية وغادرت البيت فورا، بعد أن اوصيت أم عدنان بنقل الأشياء الخرى ذات الخطورة على ظهرها الى دكان صديق كانت تعرفه في الشيخ معروف. ولقيتها في السوق بعد أقل من عشرين دقيقة وأبلغتها بأن تخبر زوجها بالبحث عن دار أخرى دون أي تأخير وفي حي بعيد عن الرحمانية. وفي نفس اليوم وجدت الدار المنشودة بين البساتين، في نفس المكان الذي أنشيء فيه القصر الجمهوري لاحقا. كانت فيلا جيدا محاطا بحديقة كبيرة مليئة بالنخيل الباسقات وباشجار الفواكه. كان قد بناها صاحبها الملاك لنفسه. ثم غادر العراق ربما بسبب المرض. وأجرت لنا لقاء ثلاثة دنانير شهريا. كان أفخم وأروع مبنى عشت فيه حتى ذلك الحين. لكن الشيوعي النشاط الثرثار الفضولي حمدي الراوي لم يدعنا لنقيم فيه ونستمتع به طويلاً.

دخلت الصبية المراسلة فضيلة ـ شقيقة خضير ـ وهي مرتبكة . وقبل أن تسلم الرسالة، التي حملتها من أحدهم الي، قالت:

ـ تلفت الى الوراء حين دخلت الدار فوجدت الرفيق حمود يتبعني.

كان الخبر مفاجئا ومثيراً. نحن إعتبرنا حمود من كوادرنا الوسطية النشطة ولم نشك به قطعاً. وها هو يقوم بتصرف غريب يثير حوله الشكوك ويسبب لنا قلقا مشروعا. سألت فضيلة:

- لماذا لم تنبهي الى الملاحقة وأنت في الطريق، قبل الوصول الينا؟
- لم أنظر الى الخلف الافي اللحظة الأخيرة.

قد يكون الدافع الوحيد وراء تصرف حمود مجرد الفضول. لكننا مضطرون الى أن نضع أكثر من علامة إستفهام وان نجابه الوضع على أساس اسوأ الاحتمالات. أخلينا الفيلا والبستان والتمر والفواكه بعد اقل من أربعين يوما. وجد هادي بيتا جديدا في حي كعب الصليخ وأنتقلنا الى هناك. ولم أتساهل مع حمود على تصرفه هذا. لقد طردته من الحزب وأعلنت ذلك الى الملأ. ولكنني لم أتهمه بالتجسس بل بالثرثرة وحب الاستطلاع والتخريب. وسميناه ((التيتوي الثرثار)). ولم أكن بنفسي فاهما معنى أن يكون المرء تيتويا (نسبة الى الزعيم الشيوعي اليوغسلافي تيتو). ولكني كنت محقا تماما في نعته بالثرثار. وهو من جانبه لم يهتم كثيراً بأن ينعت بالثرثار. ولكنه كان شديد التأثر بأن يسمى (تيتويا) حتى انه قال لأحدهم:

ـ أقبل بان يعتبروني ثرثارا ومخربا، ولكني لست تيتويا ورجائي الوحيد الا يوجه الي الحزب هذه التهمة. أنا مخرب وإنتهازي، ولكني لست تيتويا.

كنت اسكن مع عائلة هادي صالح حين دخل المذياع الى بيتي، لأول مرة في حياتي . وفرحت به لأنه كان وسيلة جيدة لمتابعة الأخبار والأحداث العالمية التي لم نملك وسائل لمتابعتها سوى الصحف والراديو . ذات يوم كنت جالسا في غرفتي أجيب على بعض الرسائل الحزبية ساعة دخلت أم عدنان علي مهرولة وسألت باستغراب:

- لماذا لم تفتح الراديو؟ لماذا؟
- ولماذا يجب أن أفتحه؟
- لميعة توفيق تغني .. تغني نايل!

فتحت الراديو وشاركت أم عدنان في الاستماع الى الأغنية. وأذكر أنني أعجبت فعلاً بتلك الأغنية الريفية الحزينة البديعة.

****

إتسعت صلاتي الحزبية في بغداد حتى شملت مختلف أنحاء المدينة وصرت أواجه صعوبة التنقل. ذلك أن إستخدام سيارات الأجرة كان يحمل بعض المخاطر فضلاً عن كلفتها المادية. ورأيت أن افضل شيء هو ركوب الدراجة الهوائية. غير أن هذا لم يكن سهلاً بالنسبة الي، أنا الشاب الذي لم يتعلم ركوبها في الصغر. إشتريت دراجة مستعملة وبدأت أتمرن عليها. وسقطت أكثر من عشرات المرات قبل أن أتعلم السياقة. ولا أستطيع نسيان الحادث الذي وقع لي، قبل أن تتحسن سياقتي للدراجة، يوم ركبتها متجها من بيت خضير في الكاظمية الى بيت الفلاحي في الكرخ. كنت أسير بالدراجة في شارع ضيق بجانب خزان الماء قرب ساحة الزهراء في الكاظمية. جاءت سيارة من الاتجاه المعاكس. وكانت في نقطة الالتقاء نساء أربع من بائعات اللبن الريفيات السائرات جنب بعضها. وأصبحت ، بسبب ضعف سياقتي ، امام أحد الخيارين: إما أن أصطدم بالسيارة، وفي ذلك خطر جسيم، وإما أن أدعم احدى النساء. وهذا أهون الشرين. أخذت الخيار الأخير. كان الاصطدام مفاجأة لبائعات اللبن الحافيات. دخل ويل دراجتي بين رجلي فتاة سمراء طويلة ورشيقة واسعة العينين ملتفة بفوطة وعباءة مستقيمة في وقفتها ومشيها. وهي تحمل ثلاث عبل خشبية كبيرة مليئة باللبن الرائب. مدت يديها بحركة خاطفة الى علب اللبن ونجحت بالامساك بعلبتين. لكن العلبة العليا كانت قد افلتت منها وانقلبت على رأسي وانسكب اللبن بقدر من التناسق على جميع أنحاء جسمي . نزلت من الدراجة واعتذرت للفتاة، التي أذهلتها المباغتة أول الأمر . وحين نطقت كانت كلمتها الأولى طلب التعويض. وقد طلبت ربع دينار، أي مايقارب ثمن العلب الثلاث. ولما وجدتني أدفع المبلغ دون أي إعتراض تشجعت على طلب درهم آخر أيضا. دفعت الدرهم الاضافي وانطلقت نحو الكرخ غير مكترث باللبن الذي لطخني من قمة رأسي الى أخمص القدمين. حيثما يراني الناس يضحكون علي. في الفترة اللاحقة استفدت من الدراجة كثيرا. كنت أسير بها عبر الطرق الفرعية والجانبية في جميع أحياء العاصمة، من حي الزوية الى الطريعات ومن حي العاصمة الى حي الشاكرية، بعيدا عن أنظار الشرطة السرية التي كانت تركز عادة على الساحات والشوارع الرئيسية.

****

بعد العودة الى بغداد فكرت في إستئناف إصدار جريدة الحزب (القاعدة) لكننا لم نملك في حوزتنا لا أدوات الطباعة ولا إمكانية التحرير. وقد فضلت إصدارها ولو بخط اليد، كأداة لرفع المعنويات، مع مواصلة الجهود لتوفير أدوات الطباعة. أظن أنه تم إصدار عددين على هذه الشاكلة. وكانت أقلام الرفاق ومن ذوي الخط الجيد تشتغل في الاستنساخ.
وكان الضابط الشيوعي المفصول عطشان ضيول الازيرجاوي صاحب المبادرة في شراء أول رونيو من الشركة التجارية الأفريقية. وقد ذهب الى الشركة مدعيا أنه يريد الرونيو للكنيسة. فطلبوا منه كتابا رسميا. وفي اليوم التالي عاد اليهم بكتاب رسمي مزور سهل له شراء الجهاز ونقله الى عيادة الدكتور الشيوعي محمد الجلبي، الذي نقله بسيارته الى حيث حدد له. ولابد هنا من الاشارة الى ان عطشان كان مناضلا نشطا وجريئا ومنح كامل طاقاته للعمل الحزبي، رغم انه كان ميالا على الدوام الى التظاهر والتباهي بما يفعل، بعكس محمد الجلبي الذي كان شيوعيا رائعا وجنديا مجهولا بعيدا عن أي تظاهر.
ومنذ أن توفر لدينا جهاز للرونيو أصبح الشاب الشيوعي الصغير صبيح سباهي طباع ح.ش.ع الرئيسي. انه وهب نفسه منذ سن مبكر، قبل أن يبلغ الثامنة عشر من عمره، لقضية الشعب. وكان كتلة من النزاهة والطيبة والجهادية والخلق الفاضل. وكان يدي اليمنى في تدبير المور الفنية لطباعتنا السرية النشطة التي دوخت الأعداء وأنعشت الأصدقاء خلال سني وجودي على راس الحزب.
******
في 1949 تأسست حركة السلم العالمية إثر إجتماع عالمي لأنصار السلم منعقد في ستوكهولم، وإصدار نداء ستوكهولم الشهير الداعي الى تحريم الأسلحة الذرية. وفي 1950 تأسست حركة السلم في العراق وسط ظروف بالغ الصعوبة حيث إنعدام الديمقراطية وملاحقة معارضي السلطة، بالأخص الشيوعيين وكل القوى اليسارية. وكان للشاعر الكبير الجواهري دور شخصي هام اذ وجه نداءا في الصحف العلنية دعا فيه العراقيين الى التوقيع على النداء. غير ان ح.ش.ع كان المحرك الرئيسي الحقيقي وراء إنشاء هذه الحركة في الساحة العراقية. فقد شجعنا الجواهري على مبادرته وهيأنا مسبقا نسخ النداء في حوزة منظمتنا الحزبية للمباشرة بجمع التواقيع فور نشر النداء من الجواهري. واشتغل في هذه الحركة أنشط المثقفين المرتبطين بالحزب بهذا الشكل أو ذاك أمثال عطشان ضيول وعبدالرزاق الشيخ علي وعبدالجبار وهبي وغضبان السعد وعامر عبداللة وتوفيق منير وغيرهم. وربما لهذا السبب وصفت حركة السلام من قبل مؤيدي النظام الملكي، بل حتى من قبل أغلب قادة الأحزاب البرجوازية الوطنية المعارضة للنظام، بانها حركة حركة شيوعية أو تابعة للحزب الشيوعي. وهذا الاتهام لم ينسجم مع الحقائق ولم يستند على شيء سوى ان الشيوعيين كانوا نشطين في صفوفها. ولم تضع لنفسها هدفا سوى تحريم السلاح الذري وإبعاد خطر الحرب الكونية.
عند البدء بجمع التواقيع على نداء ستوكهولم لم تمرد مسؤول منظمة بغداد الياس بطاح ورفض تنفيذ الوامر الحزبية بحجة ان الجواهيري، الذي بادر الى توجيه النداء، شخص برجوازي وان ليس من الصحيح ان نسير نحن الشيوعيين وراء البرجوازية. وازاء هذا التطرف من الياس لجأت بدوري الى أسلوب متشدد في التعامل معه (وكأن هذا التشدد سائدا في تلك الفترة) حيث قررت فورا معاقبته ليس بسحب المسؤولية الحزبية منه بل بطرده من الحزب وإتهامه بالتيتوية.
****
لم تزل جراح الحزب تنزف، رغم احراز بعض النجاحات في تضميدها، حين وردنا، عام 1950 ، نبأ حدوث إنشقاق في منظمة سجن نقرة سلمان. يبدو أن مشاكل غير قليلة واجهت السجناء الشيوعيين هناك وان مسؤول المنظمة سالم عبيد النعمان والبعض من مقربيه كانوا ذوي سلوك بيروقراطي وأحيانا إستفزازي تجاه رفاقهم. فيما كان حميد عثمان المسجون منذ حزيران 1946 قادرا على استغلال نقاط ضعفهم لممارسة التحريض ضدهم وتهياة الأجواء للأنقسام أو ماسموه (التطهير). لقد تمكن حميد من حشد الغالبية الساحقة من شيوعيي السجن ضد النعمان. فيما أبى هذا الأخير وبعض من ظلوا موالين له حتى النهاية أن ينزلوا عن بغلتهم ويقروا بأنهم غير مقبولين من غالبية قاعدتهم. كان النعمان، كأغلب المسؤولين الشيوعيين، أو جميعهم تقريبا، في بلدان كاعراق، متمسكا بكرسي المسؤولية ولا يتزحزح عنه ما لم يزح عنوة. فكان الانقسام. وكان نفر من الكوادر القديمة (أمثال محمد حسين أبوالعيس ونافع يونس ويوسف حنا .. الخ) مع سالم.
كان زعيم المنشقين حميد عثمان المصدر الأول للمعلومات التي وصلتنا حول الحادث. وكان المفتاح في أيدينا، أو في يدي شخصيا، لأقرر من بغداد من يكون المنتصر ومن الخاسر في السجن. ولم أتردد كثيرا في التحيز الى حميد عثمان والأغلبية ضد سالم ومن بقي معه. كان موقفنا هذا نقطة القوة الرئيسية لدى حميد عثمان. فالحزب يؤيده ضد الطرف الثاني وكفى. وعبثا حاول الطرف الثاني إقامة صلات وتنظيمات له خارج السجن. اذا حامت المور وفق عقليتي الراهنة ومقاييسس اليوم فاني مقتنع بأني قد تسرعت آنئذٍ في إتخاذ القرار بتأييد حميد عثمان ورفض سالم عبيد. كان علي التروي وبذل المساعي لرأب الصدع بين السجناء الشيوعيين المنقسمين على أنفسهم. وكان ذلك ممكنا وسهلا الى حد بالنسبة الي كمسؤول أول في الحزب.
وكان من أسوأ نتائج هذا الحادث ان موجة من الانقلابات قد إجتاحت السجون السياسية، خلال الفترة اللاحقة، فأزيح المسؤولون في سجن الكوت وبغداد بنفس الأسلوب. ولم يدرك أحد من مؤيدي الانقلابات السجنية أن مسؤولا جديدا من قبيل حميد عثمان سيكون أقل كفاءة وأشد بيروقراطية وفردية بالمقارنة مع سالم عبيد.
****

لم يمض وقت طويل على عودتي الى بغداد حين تلقينا طلبا من بقايا جماعة ((الاتحاد))، التي أسسها كريم صوفي، بالتباحث والحوار معهم من أجل الاندماج. ولم أتعب نفسي كثيرا بالبحث عن حل مدروس للمشكلة. أنما وجدت الجواب فيما فعله فهد تجاه جماعة ((وحدة النضال)) في 1945، حين طلبوا الحوار من اجل التوحيد فرد عليهم قائلا: لن يكون هناك حوار معكم، بل عليكم حل تنظيمكم وطلب الانتماء كأفراد الى حزبنا. وسيبت الحزب في كل طلب على حدة. وقد تم له ماأراد باستثناء القسم الكردي، أو بالأحرى القسم الربيلي، الذي كان على رأسه صالح الحيدري وكان قوامه حميد عثمان ونافع يونس وجمال الحيدري وعزيز محمد. وقد اضطر هو الآخر على حل نفسه وطلب الانتماء كأفراد الى ح.ش.ع عام 1946.
حلت جماعة ((الاتحاد)) فيما استمرت في الصدور نشرة سرية صغيرة باسم ((النضال)) وهي كانت نشرة كتلة صغيرة انتقلت من المعسكر الوطني اللاماركسي الى المعسكر الشيوعي في 1949. كان عزيز شريف على رأس هذه الكتلة. وهنا أود توضيح الأمور بصورة أفضل:
في أعقاب الحرب العالمية الثانية وحلول فترة للتنفيس الديمقراطي ولتشكيل احزاب قانونية مجازة اتفق فهد مع عزيز شريف على أن يؤسس الأخير حزبا ديمقراطيا قانونيا يدعمه الشيوعيون ويستفيدون منه لممارسة نشاط سياسي علني تحت لوائه وفي اطار ديمقراطي، دون التفريط بوجود ح.ش.ع كحزب سري مجاهد. ولكن عزيز شريف قد أخل بالاتفاق بمجرد حصوله على الاجازة القانونية لحزب الشعب. وبدلا من ان يكون هذا الحزب ميدانا لنشاط الشيوعيين الجماهيري ـ القانوني فان عزيز شريف أخذ يدعو على صفحات جريدته ((الوطن)) الى حل ح.ش.ع وانضواء الشيوعيين تحت لواء حزب ديمقراطي قانوني بزعامته. ورفض فهد هذه الدعوة وتمسك بهدفه في محاولة تاسيس حزب قانوني ديمقراطي جماهيري. وترجم هذه المحاولة الى تاسيس حزب التحرر الوطني بزعامةحسين محمد الشبيبي.
في 1947 ، حين كان الاستعمار البريطاني يهيء طبخة معاهدة بورتسموث، سحبت السلطات اجازة حزب الشعب. وبعد وثبة كانون 1948 ترك عدد من أبرز كوادر حزب الشعب (أمثال عبدالجبار وهبي وعامر عبداللة وتوفيق منير) صفوفه واتجهوا الى ح.ش.ع. ولم يبق مع عزيز شريف الا القليل. وابان نكسة ح.ش.ع المديرة عام 1949 انقلب عزيز شريف من فكرة حل الحزب الشيوعي الى فكرة تحويل بقايا حزبه الى منظمة شيوعية سرية، آملاً ان يحل تنظيمه هذا محل ح.ش.ع الذي اصيب بجراح عميقة.

****

في 1950 أصدرت الحكومة العراقية قانونا سمح لليهود العراقيين باسقاط جنسياته العرقية والهجرة الى الدولة العبرية الفتية. وإقترن صدور القانون بنشر الاشاعات الرامية الى بث الرعب بين اليهود، الذين كانوا موجودين في مختلف المدن العراقية، وخاصة في بغداد، بغية حملهم على التخلي عن جنسيتهم العراقية والانتقال الى اسرائيل. وكان هؤلاء اليهود عراقيين منذ العصور السحيقة، وربما من عهد البابليين والآشوريين . ورغم اني لاأملك معلومات ملموسة الا أنني أعتقد إعتقادا راسخا بأن إصدار هذا القانون جاء كنتيجة تواطؤ بين حكام بغداد ولندن من جهة وبين الصهيونية الحاكمة في اسرائيل من جهة أخرى. وهي كانت خدمة مقصودة لأسرائيل. اتخذت، بصفتي سكرتيرا للحزب، موقف التأييد لاطلاق حرية الهجرة لليهود العراقيين منطلقا في ذلك من حقيقة انهم مضطهدون في العراق وان حرية الهجرة قد تكون طريقا لتحررهم من هذا الاضطهاد، فضلا عن ان من حق الانسان ان يقيم ويعيش حيثما يرغب . وبعد فترة غيرت موقفي هذا وأدنت القانون الصادر عن حكام بغداد باعتباره تواطؤا مع الاستعمار والصهيونية.
أود بهذه المناسبة أن أتطرق الى موضوع كتب عنه خصوم الشيوعية الكثير من المقالات والكراريس واحيانا المؤلفات الضخمة، سواء في العهد الملكي أم العهود اللاحقة، وخاصة في عهد النظام البعثي ـ العنصري ... أعني موضوع سيطرة اليهود على الحركة الشيوعية في العراق وتأثير ماسموه بالنفوذ الصهيوني على سياسة ح.ش.ع. ان هؤلاء بذلوا الكثير من الجهود وأنفقوا الكثير من المال كي يعرضوا الصهيونية والشيوعية كشيء واحد ويثبتوا مزاعمهم في تسلط اليهود على ح.ش.ع.
ان جميع مانشره هؤلاء بهذا الصدد ليست هوى اكاذيب نسجت عن عمد. فاليهود الرعاقيون كانوا أقلية مضطهدة دينيا وطائفيا وقوميا. وهم كانوا يهودا ولم يكونوا قط عربا ولا أكرادا ولا شيئا آخر سوى اليهود ذوي المخاوف المشتركة والمشاعر المشتركة والتطلعات المشتركة. وكان من الطبيعي أن يلتف قسم مبير منهم ـ شأنهم شان أي أقلية مضطهدة ـ حول الحزب العراقي الوحيد الذي وقف صراحة ضد التمييز الديني ـ الائفي وطالب بالمساواة بين الجميع ، وهو ح.ش.ع. وبتأثير سياسة العداء للصهيونية، التي اتبعها ح.ش.ع. فان الغالبية الساحقة من اليهود العراقيين قد وقفوا خلال فترة مينة موقف العداء الشديد للصهيونية كفكرة وكحركة سياسية . وتجلت هذه الحقيقة في وقائع عديدة منها ان اول عراقي استشهد برصاص النظام الملكي في تظاهرة معادية للصهيونية ومؤيدة لقضية الشعب الفلسطيني انما كان العامل اليهودي الشيوعي شاؤول طويق. كما ان عددا كبيرا من اليهود الرعراقيين انضموا الى صفوف عصبة مكافحة الصهيونية ولعبوا دورا فعالا في كفاحها المشرف عام 1945 - 1946.
بديهي أنه كان بين اليهود العراقيين عدد كبير نسبيا من التجار والأثرياء المتنفذين في السوق وفي حياة البلاد الاقتصادية. ولم يتعاطف هؤلاء يوما مع ح.ش.ع. بل كانوا مرتبطين مع الطبقة الحاكمة في العراق وكان لهم ـ لمدة طويلة ـ من يمثلهم في

الوزارة والبرلمان والمؤسسات الحكومية الأخرى .. في وقت كان الكادحون والفقراء اليهود ومثقفون من الفئاتالوسطى يجدون في ح.ش.ع من يعبر عن مصالحهم، فيقبلون على صفوفه.
اني اعلن كرجل عاصر الحركة الشيوعية في العراق طوال ستة واربعين عاما الماضية وكانسان تسنى له أن يعيش مع اليهود الشيوعيين لسنوات في السجن وخارج السجون، بأن العناصر اليهودية التي انتمت الى ح.ش.ع لم تفعل ذلك في حينه الا بدافع الشعور بان هذا الحزب وقف ضد التمييز والاضطهاد ودافع عن حقوقهم المشروعة، شان حقوق سائر العراقيين، وان ناضل بجد واخلاص ضد الاستعمار والرجعية الحاكمة. انني ساكذب اذا قلت انني وجدت فرقا بين اولئك الشيوعيين العراقيين، الذين قدر لي الاحتكاك بهم والعمل معهم، بسبب من اختلاف الدين أو المذهب أو القومية . اني وجدت شيوعيين جيدين خلقا ومتقدين حماسا ومتفانين في النضال بين اليهود كما بين المسلمين والمسيحيين. كما وجدت شيوعيين سسيئين وانتهازيين وجبناء بين اليهود كما بين المسلمين والمسحيين واذا وجد بين اليهود الشيوعيين من انهار واساء مثل يهودا صديق فأن بينهم منهارين وخونة من غير اليهود ايضا أمثال العربي الصابئي مالك سيف والعربي المسلم هادي هاشم والكردي المسلم عزيز الحاج .. الخ . ويجدر بالذكر ان السلطات الحاكمة كانت تركز على اضطهاد الشيوعيين اليهود اكثر مما على الشيوعيين المسلمين والمسيحيين، في حين كان هناك نوع من التساهل تجاه اليهود الصهاينة.
هنا اتذكر حادثا طريفا اظن أنه وقع في بغداد عام 1951 وكشف عن الموقف الحقيقي للحكام تجاه الصهيونية. ففي ذلك الوقت شنت السلطات حملة اعتقالات ذد المنظمة الصهيونية في العراق وتمكنت من اعتقال أبرز العناصر القيادية الصهيونية، منها رئيس التنظيم الصهيوني عزره والصهيونيان الموفدان من اسرائيل للمشاركة في قيادة المنظمة رودني وصالحون. خلال الايام الأولى من الاعتقال أطلق سرا سراح رئيس المنظمة ـ ربما بسبب تدخل مباشر من السفارة البريطانية أو دفع رشاوي كبيرة لبعض الحكام ـ ووضع مكانه في إحدى زنزانات الأمن العام اليهودي البغدادي المجنون منذ أكثر من عشرين عاما المدعو شلومو كراوي. وقد حكمت المحكمة على هذا المجنون المسكين بالسجن المؤبد، فيما ذهب عزره ليمارس نشاطه في اسرائيل أو بلد آخر. وفي نفس الوقت الذي عومل فيه قائد المنظمة الصهيونية على هذه الصورة فان سلطات العهد الملكي أعدمت قادة ح.ش.ع فهد وزكي بسيم والشبيبي في 1949 كما ان سلطات البعث الحاكم قتلت قائد ح.ش.ع سلام عادل وكوكبة من مسؤوليه وكوادره تحت

****

التعذيب عام 1963. كما قتلت الكثيرين من كوادره خلال العهد البعثي الأخير. كان للحزب الشيوعي دور متميز في الحركة الوطنية الديمقراطية العراقية. وكان نفسه محور النشاط الديموقراطي اليساري ومحرك النضالات الجماهيرية. ولهذا كانت نكسته في 1949 نكسة لكل الحركة الوطنية العراقية. وتجلت هذه الحقيقة مرة أخرى عندما قرر كامل الجادرجي عام 1949 تجميد نشاط حزبه (الوطني الديموقراطي) الى اشعار آخر بحجة ان الظروف السائدة لاتسمح بممارسة النشاط السياسي الاعتيادي. وفي 1950، وبالارتباط الوثيق مع نجاحات ح.ش.ع في إعادة بناء نفسه وعودته الى المسرح السياسي، قررت قيادة الحزب الوطني الديموقراطي استئناف نشاط الحزب الاعتيادي.

****

في الأيام العصيبة التي مرت على الحزب ، يوم كنا بحاجة ماسة الى الكادر الحزبي المتقدم، طلبنا من صالح الحيدري ـ كان منفيا سياسيا يقضي حكما الابعاد في سامراء أو مكان آخر لاأتذكره ـ الهرب والالتحاق بنا للمساهمة في العمل الحزبي. وكان لدي انطباع جيد عنه بسبب ماكنت قد سمعت عنه من بعض الرفاق سابقا. غير انه خيب أملي فيه ورفض الهروب وحياة الاختباء من أجل العمل الحزبي.

****

وردتني ذات يوم رسالة حزبية مغادها أن رفيقا قادما من أوروبا يريد مقابلة مسؤول حزبي. أرسلت له موعد لقاء في الشارع بحي الشيخ معروف . وجدته شابا أنيقا ومترددا بعض الشيء في حديثه معي، خاصة خلال اللقاء الأول. أخبرني بأن الرفاق العراقيين الموجودين في فرنسا أرسلوا للحزب بعض الهدايا المتواضعة وسياتي بها في اللقاء القادم. وفي موعد اللقاء الثاني، بعد يومين، انطلق في الحديث وذكر بان الرفاق العراقيين في باريس سمعةا عن نكسة الحزب واعتقدوا بان الضربة كانت عنيفة وقاتلة ولم يعد بالامكان وجود مركز قيادي للحزب داخل العراق. وتصوروا بان المكان المناسب لمثل هذا المركز انما هو باريس أو بلد أوروبي آخر. ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة وخطأوها فور اطلاعهم على نشرات حزبية صادرة في العراق. واضاف الشاب القادم من بأريس:

- أحمل لكم من هؤلاء الرفاق تحيات حارة ومبلغا من متواضعا قدره (75) دينارا مع آلة كاتبة باللغة العربية.
- شكرنا وتقديرنا للرفاق هناك.
- أريد أن اضيف اني كنت حذرا ومترددا في اللقاء الأول معك .. كنت أخشى ان أكون وقعت في الفخ . لكني ارتحت كثيرا ومن الأعماق عندما وجدت ان من ألتقي به عامل. وأعود بانطباع جيد الى باريس.

وفي وقت لاحق عرفت ان هذا الشاب ، الذي التقيت به، كان صفاء الحافظ الطالب الجامعي العراقي في فرنسا. كنت ألتقي في بعض الأحيان مع الطالب في كلية الآداب حمدي أيوب العاني رغم أني لم أكن مسؤولا حزبيا عنه. كان مسؤولا حزبيا

لتنظيماتنا الطلابية الحزبية في كليات ومعاهد العاصمة. وكان إبن عائلة فقيرة وشابا نشطا وذكيا أعطى نفسه لقضية النضال الثوري منذ أولى خطواتنا لاعادة بناء التنظيم الحزبي في بغداد . وفي أحد لقاءاتي به، بعد مرور الأسابيع الأولى من بدء السنة الدراسية، ذكر أن للحزب نفوذا واسعا بين الطلاب . غير أن من المستحيل استيعاب هذا العدد الكبير في التنظيم الحزبي.
وفي سياق الحديث بيننا ولدت وتبلورت فكرة اعادة تكوين اتحاد الطلبة العراقي العام، الذي قد تأسس اثر انتصار وثبة كانون 1948 وسحق ابان الحملة البوليسية على الحركة الجماهيرية في 1948 - 1949. وخلال بضعة ايام تم تشكيل لجنة قيادية للتنظيم الطلابي الجيد باسم ((اللجنة العليا)) ، جميع أعضائها من الطلبة ومسؤولها الأول هو حمدي نفسه - في خريف 1950. وقد عين أعضاء اللجنة هذه تعيينا دون أي انتخاب.
إتسع نفوذ الاتحاد، رغم سريته، بوتائر سريعة ولم يبث أن شكلت شبكة واسعة من اللجان الاتحادية بين طلبة الكليات والمعاهد وحتى بين طلبة الثانويات والمتوسطات. وتحول الاتحاد الى منظمة طلابية جماهيرية ديمقراطية لاحزبية بحق ومعترف بها كقيادة لجمهرة الطلاب. كان الشيوعيون قادتها وكانت الجماهير الطلابية تعرف هذه الحقيقة وترضى بها. وقد أصبح البعض من الكليات والمعاهد (مثل كلية الآداب ودار المعلمين العالمية وكلية الحقوق .. الخ) شبه مغلقة للاتحاد وغدا بامكان هذا الآخير أن يعلن الاضرابات الطلابية، في أغلب الكليات، متى شاء ذلك. وكان سر نجاح الاتحاد أنه تمكن من الجمع بين أهداف الطلاب النقابية - المهنية وبين مطالبهم الوطنية العامة. وقد أصدر جريدته السرية (كفاح الطلبة). كما كان يصدر، حسب متطلبات الوضع، النداءات والبيانات الطلابية وأحيانا الوطنية العامة. وكان الموجه والقائد غير المنازع للاضرابات الطلابية في تلك السنين. ولم يشكل الطلبة المعارضون له سوى أقلية ضئيلة في الوسط الطلابي غير منظمة وغير قادرة على خوض أي منافسة جدية ضده.
وإضافة الى الاضرابات، التي بدأت وتكررت مرارا في الكليات والمعاهد منذ 1951، إبتكرت الجماهير الطلابية، لأول مرة بالنسبة للعراق، أسلوب الاعتصامات في الكليات. كانت كلية الآداب الواقعة في باب المعظم مركز الاعتصامات الرئيسي ومصدر الاقلاق للسلطات الرسمية. وكان المعتصمون يرشقون الشرطة بالحجارة ان هي إقتربت من مبنى الكلية ويستمرون في هتافاتهم ضد الاستعمار والنظام العميل لساعات طويلة.
****
من حزيران 1949 وحتى آيار 1951 كنا منصرفين الى إعادة بناء الحزب. ولم نخطط لأي نشاط جماهيري من الاضرابات ولم يحدث شيء سوى اضراب عمال كري مكنزي (احواض تصليح السفن) في البصرة، وكان عددهم 600، في أواخر 1950، وبعض الاضرابات الصغيرة للعمال في مؤسسات شبه حرفية. (وقد لعب عامل الميناء البصري ناصر العبود دورا بارزا في قيادة اضراب (كري مكنزي). وحين حققنا قدرا من الاستقرار التنظيمي ومن انتظام صدور جريدتنا مطبوعاتنا ومن تشغيل عدد كبير من الكوادر الفتية المتحمسة المتطوعة للنضال.. الخ، ارتأينا اجراء تعديلات على نهجنا بالانتقال التدريجي الى النضالات الجماهرية. وكان اول مظاهرة اقمناها بمناسبة عيد الاول من ايار 1951 صغيرة وخاطفة اشتركت فيها حوالي 150 متظاهرا وحملت فقط ثلاث لافتات وقطعت مسافة محدودة بشبه هرولة لتجنب الصدام مع الشرطة، قادها الشاب الشيوعي النشاط الكادح طالب عبدالجبار. كانت هذه المظاهرة اول تمرين من نوعه واول مظاهرة بعد نكسة 1949. وهي قامت في شارع الشيخ عمر حيث تحشد اعمال والكادحين و حققت الغرض الموجو وتفرقت دون أي تضحية.
بعد اعتقال زكي وطبان في ايلول 1949 وانهياره ومن ثم انهيار يحيى صالح واعترافهما على بقايا تنظيمنا في البصرة انقطع الاتصال الحزبي معها حوالي السنة. لم نعرف شيئا عما يجري هناك ولم يكن بأمكاننا عمل شئ جدي لاعادة بناء المنظمة. وبشكل مفاجئ اتصلت بنا المنظمة الحزبية في ثغر العراق واتضح بان عامل الميناء ناصر عبود، الذي كان قد انهى سجنه وعاد الى كوخه في البصرة، والعامل علي شعبان كانا قد افلحا في اعادة بنائها. عملا اول الامر منفصلين عن بعضهما ودون ان يعرف الواحد منهما شيئا عن الثاني. ثم تعرفا على بعضهما واتحدا فورا دون وضع العراقيل والتعقيدات، التي غالبا ما يضعها بعض المثقفين في مثل هذه الحالات. واعترف علي شعبان بان ناصر هو الاكفأ والاجدر بان يقود.
ولكون ناصر من عمال الميناء فأنه كان على صلة بعمال كري مكنزي وساهم بنشاط في توجيه اضرابهم خريف 1950. واستفادت المنظمة بدورها من هذا الاضراب كتمرين نضالي وكوسيلة لتوسيع الصلات مع العمال. مع انتعاش وضع ح.ش.ع حققت الحركة النقابية قدرا من الانتعاش في بغداد خاصة. وقد بدأنا العمل أولا لاعادة بناء تلك النقابات التي لم تسحب السلطات اجازاتها القانونية من قبل، كنقابة عمال النسيج ونقابات الميكانيك والمطابع والنجارة .. الخ. وكانت السلطات تبدي بعض التساهل ازاء النشاط النقابي في هذه النقابات التي كانت تخص العمال الحرفيين واشباه الحرفيين في القطاع الاهلي، فيما كانت تتصدى بحزم وشدة لكل نشاط نقابي في المؤسسات الصناعية الكبيرة، الحكومية والاجنبية، كالسكك والنفط والميناء. وكان الانكليزا نفسهم ، المعترفون بحق العمل في التنظيم والنشاط النقابيين داخل بلدهم، يتصرفون بحزم وشدة وباللجوء الى النار والحديد لقمع اي نشاط نقابي يبرز في المؤسسات التابعة لهم في هذه البلاد. في مجرى النشاط النقابي برز عدد كبير من الكوادر الحزبية - النقابية الفتية النشطة. وبمبادرة من هؤلاء تأسس، لاول مرة في العراق ، اتحاد لنقابات العمال باسم ((المكتب الدائم لنقابات العمال)). وكان جميع اعضائه من الشيوعيين. وهو مارس نشاطا نقابيا واسعا في الدفاع عن حقوق العمال واشاعة روح التضامن الطبقي في صفوفهم ودعم نضالاتهم واضراباتهم في هذا القطاع أو ذاك. وقد سبب نشاط

هذا ((المكتب)) انزعاجا كبيرا للنظام الحاكم: الذي لفق ضد قادته تهمة زائفة وقدمهم الى المحاكمة في 1952. تحولت المحاكمة الى نضال واسع ضد الاستعمار واعوانه المحليين وادانة سلوكهم المشين. مع ذلك حكم على قادة الاتحاد بالسجن لمدد متفاوتة بلغت بالنسبة لبعضهم اربع سنوات. في تلك الفترة كان القطاع الرئيسي في صناعة العراق الاهلية النسيج والسجاير. وكان نفوذ ح.ش.ع طاغيا في كليهما، في نقابتيهما وبين العمال معا. وقد تكررت الاضرابات العمالية في كلا القطاعين اكثر مما في سائر القطاعات. وبرز شيوعييون فعالون فيهما امثال الفلاحي وهادي صالح وجاسم يحيى وحيدر حاتم وأخويه عبداللة وزامل وطه حسين .... الخ.

في 1951 أوفدنا عزيز الشيخ عن طريق التهريب الى سوريا لغرض الاتصال مع قيادة الحزب الشيوعي السوري ولمحاولة تدبير السفر الى مهرجان الشباب والطلاب العالمي في برلين. كان ذلك اول اتصال لنا، خلال عهدي بالقيادة ، مع جهة شيوعية اخرى خارج العراق. وقد طلبنا بلسان عزيز الشيخ اعادة عبدالقادر اسماعيل الينا ـ وكان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. وقال عزيز عند عودته الينا أن خالد بكداش أيد الطلب ونصح عبدالقادر بالعودة لكن هذا الاخر اعتذر عن تلبية الطلب ورفض العودة بدعوى ان العودة ستعرضه للاعدام. وقال له بكداش:

ـ حتى اذا اعدمت فانك لست باثمن من فهد ، الذي اعدمه النظام الملكي.

وأظن ان عبدالقادر قد عوقب هناك بسبب موقفه هذا أو بهذه الذريعة. وهو لم يعد الى العراق الا بعد ثورة تموز 1958، الذي اطاحت بالنظام الملكي العميل. سافر عزيز الشيخ الى برلين وتراس وفد الشبيبة العراقية في المهرجان. وكان الوحيد بينهم المسافر من داخل البلاد. كما كان اول مشاركة في مثل هذه المهرجانات لشيوعي يذهب من العراق مباشرة. وقبل أن يعود عزيز من الخارج أصدرنا في بغداد نشرة كانت بمثابة الاعلان المبدئي عن تشكيل اتحاد الشبيبة الديمقراطية العراقي. كان القرار صادرا من الحزب بتاسيس هذه المنظمة . لكنها اصبحت من الناحية العملية منظمة ديمقراطية لاحزبية والتغت جماهير غفيرة من الشباب حولها رغم علم الجميع بانها تتبع ح.ش.ع. وقد شكلت لجنة قيادية للمنظمة باسم (اللجنة العليا لاتحاد الشبيبة الديمقراطية العراقي) من شبان شيوعيين عيناهم تعيينا دون عقد مؤتمر أو إجراء انتخابات. وكان في اللجنة العليا آنئذ عزيز الشيخ وعبدالجبار وهبي ومحمد صالح العبللي وفيما بعد دللي مريوش ونزيهة الدليمي ـ ان لم تخنني الذاكرة. وأسسنا جهاز الطباعة الخاص بالمنظمات الديمقراطية ـ الطلبة والشبيبة ورابطة المرأة. وأختير دللي، الذي كان قد إنتقل من الناصرية الى بغداد، للاشراف عليه.

****

حلت كارثة صغيرة بأم عدنان ، ونحن في مب الصليخ، بموت بقرتها الحلوب. كان زوجها قد إستأجر قرب البيت قطعة من الجت (برسيم) بدل الشراء اليومي منه. وسرحت البقرة ذات يوم لتأكل ماتشاء. فأكلت لحد التخمة أو الانتحار. وكان وقع هذه الكارثة كبيرا على أم عدنان، التي عرفت قدر بقرتها كمصدر للاعاشة يوم كان زوجها في السجن. لكن وقعها كان اكبر على شقيقها شحاذة المتحدر من الريف ، حيث قال ، وهو يواسي أخته بفقد بقرتها:

- ليت الميت واحد من الاولاد بدل هذه البقرة.
- انجب يا زمال! ـ أجابه هادي بخشونته الشعبية المألوفة.

كان ذلك آخر عهد لأم عدنان بالبقرة في سني صحبتي للعائلة. وفي وقت لاحق عوضت ربة البيت عن بقرتها بمعزة أجنبية حلوب.

****

كان عطشان ضيول قد رشح أخاه نعمة لعضوية الحزب وبدأ يثقفه ويكلفه باعمال صغيرة. وكان نعمة شابا عاطلا عن العمل وخاوي الجيوب، رغم توفر السكن والأكل له في منزل العئلة. وكان قد باع نفسه للسلطة وأصبح عميلا للأمن العام، دون أن يعرف عطشان شيئا من أمره . لكن صدفة سعيدة قد كشفت عنه. كان الشاب الشيوعي عضو لجنة بغداد كامل السامرائي قد حجز في احدى غرف الأمن العام. وفي ساعة متاخرة بعد منتصف الليل سمع كامل ضجيجا خارج غرفته واقترب من الشباك ليستمع الى مايدور هناك من حديث. اتضح له ان شرطيين أتيا باحد السكارى من ملهى ليلي الى هذه الدائرة بعد أن كان قد عربد واعتدى هناك تحت تأثير الخمرة. وفي الطريق ادعى لدى مرافقيه الشرطيين بانه أحد منتسبي الأمن العام. وجاء به الشرطيان الى هذه الدائرة لمعرفة ما اذا كان صادقا فيما يدعي. وحين سأله ضابط الخفر في دائرة الأمن عن هويته أجاب:

ـ بأمكانك أن تخابر السيد نايل عيسى وتخبره بأن رقمي السري كذا وكذا.

عاد الضابط الى غرفته وخابر المسؤول الثاني في الأمن العام نايل ثم خرج وامر الشرطيين بترك الشاب في الدائرة والعودة الى حيث كانا، وأخبرهما مؤكدا انه صادق فيما ذكر. وسمع كامل هذه الحكاية بكاملها وعرف ان الصوت هو صوت نعمة، الذي غالبا ماكان يراه في بيته. ولكي يوصل الخبر باسرع وقت الى الحزب تمارض في صباح اليوم التالي ليتذرع بذلك في طلب أمه ((قبل أن يموت أو يجن)) على حد تعبيره. وتحقق له ما أراد وأخبر أمه بما سمع ورأى لكي تخبر بدورها الحزب فورا. كان الاجراء الذي اتخذته أنا، بوصفي المسؤول الول عن الحزب، أن قررت طرد نعمة من الحزب فورا وفضحه كعميل للأمن العام. وقد نبذته عائلته، بما في ذلك أمه العجوز التي وجدت فيه عارا كبيرا، وطردته من البيت محتقرا مهانا قائلة:

ـ أخرج من هذا البيت ولن أسمح لك بدخوله وتوسيخ أرضه مرة أخرى.. لست إبنا لي بعد اليوم.
وقيل ان نعمة عاش بعدئذ مشردا ولم يعمر طويلا.
في تلك الفترة نفسها انكشف مندس آخر اسمه طه محمود ـ ان لم تخني الذاكرة . ودلت طريقة كشفه على العزلة الخانقة التي عاش فيها النظام الحاكم وعلى عمق الكره والاشمئزاز لدى الناس تجاهه وتجاه اجهزته القمعية. كان طه عامل نجارة عاطلا عن العمل. وكان عضوا بسيطا في الحزب، ومحتاجا دوما الى الدرهم الواحد. وطلب مرارا فليسات سمن ابن خالة له (لا اتذكر اسم) كان عضوا في حزب قومي ضعيف ومعزول أسسه في حينه سامي شوكت ذو الميول النازية، دعي (حزب الاصلاح). وفجأة لاحظ ابن الخالة ان طه لم يعد ذلك المفلس السابق، انما يملك نقودا ويرتاد دور السينما والمطاعم وينفق حتى على اصدقائه في وقت لايزال عاطلا وليس له مصدر معروف يكسب منه الفلوس. فاثار ذلك لديه الفضول والريبة وبدأ يستطلع ويحقق مع طه حتى انتزع منه الاعتراف بانه باع نفسه ، تحت تأثير الفقر والجوع، الى الامن العام وانه يقبض الان راتبا جيدا لقاء خدماته. واضاف انه يخبر ابن خالته بهذا السر لثقته بأنه لن يكشفه لاحد.
ورغم أن ابن الخالة كان في تنظيم قومي معاد للشيوعية فانه لم يغفر له هذه الخطيئة ولم يرتض التستر عليه. بل قرر ايصال الخبر الى ح.ش.ع بأي ثمن كان. فبدأ يسعى طوال اسبوع كامل مفتشا عن شخص موثوق يوصل رسالة منه الى قيادة ح.ش.ع وحصل على من أوصله. قرات بنفسي رسالته، التي بدأ فيها بانه عضو في حزب الاصلاح ويشتغل في جريدته وانه لايتعاطف مع الشيوعية ولكنه يرفض ان يقبل انخراط اي مواطن شريف في سلك البوليس السري المعادي للشعب. ولهذا قرر ايصال الخبر المتعلق بابن خالته الى ح.ش.ع ليتخذ الاخير الحزر والحيطة. اكتفينا بطرد طه من الحزب وفضحه كجاسوس.
ولم نفكر في اي اجراء اخر بحقه. كان هذا اجراءنا الاعتيادي تجاه امثال طه ونعمه. وفي غضون السنوات الاربع، التي قدر لي ان اكون خلالها على راس ح.ش.ع ، لم يحدث شئ من حوادث الاندساس المعروفة لدينا سوى ما اشرت اليه. وقد ارتبنا من البعض نتيجة تقارير وردتنا أو تصرفات مثيرة للشكوك. على سبيل المثال قدم عطشان رسالة شكك فيها بشنور عودة، الذي كان كادرا وسطيا. ولكننا لم نعتبر المسألة منتهية بل اخضعناها للتحقيق الدقيق لغرض التوثق من برائته أو تثبيت الاتهام ضده. ولم نتوصل الى ما يبرر اتخاذ اي اجراء حزبي ضده.
وفكرت بدوري في دس بعض الرفاق الى صفوف الامن العام بهدف سرقة بعض المعلومات المفيدة لنا أو ايصال معلومات خاطئة ومشوشة الى الخصم. بيد ان صعوبات رئيسية كانت تعترض ذلك. فلم يكن من السهل أبدأ اقناع رفيق حزبي جيد بالعمل في تلك الاجهزة، بسبب ما كان ينجم عن ذلك من قلق نفسي وخوف من الاساءة الى السمعة. وقد بذلت شخصيا الجهود مع كادر وسطي اسمه صالح سطام ـ في بغداد ـ لاقناعه بالانخراط في البوليس السري وشرحت له الهدف من ذلك. ورد علينا ليس فقط برفض الطلب انما بتقديم احتجاج شديد على هذا الطلب الذي يتضمن ـ على حد تعبيره ـ اهانة لكرامته وأعتداء على شرفه النضالي، الامر الذي يحمله على التفكير في جدوى العمل الحزبي معنا. على اننا كنا نحصل، بهذه الطريقة او تلك ، على اناس داخل الامن العام مستعدين للتعاون معنا. صحيح اننا لم نحصل على اي ضابط او رجل ذي مركز هام ومستعد للتعاون. ولكن رجالا متورطين في الانتساب الى الامن العام او متحولين من سلك الشرطة الاعتيادية الى جهاز البوليس السري، كانو يرتبطون معنا عن طريق بعض اقاربهم وأصدقائهم الموثوقين ويوصلون الينا المعلومات المتوفرة لديهم. وكان من انشط هؤلاء شاب عاني اسمه حسن شرهان ، الذي كان يعتبر نفسه شيوعيا. وكان يوصل الينا يوميا ما يحصل عليه من المعلومات . وقد كشفت السلطات عن امره في وقت لاحق وحكم عليه بالسجن (وكان النظام الملكي يكتفي بسجن هؤلاء ولم يقتل يوما اي شخص بتهمة الاتصال بحزب معرض أو تسريب المعلومات الى جهة اخرى، بخلاف النظام البعثي الذي قتل المئات أو الالوف بتهم من هذا القبيل) وعاش بين السجناء الشيوعيين كواحد منهم وظل وفيا لفكرته حتى بعد خروجه من السجن.
في ظل الحكم الملكي كنا نشكو على الدوام من الاعتقال التعسفي والدوس على القانون وحرمان الموقوفين من حق الدفاع عن النفس وحرمان السجناء السياسيين من حقوقهم القانونية ومنع ادخل الكتب والصحف والراديو اليهم ... الخ. وكنا محقين في شكوانا . فالقانون كان يحرم الشيوعية كعقيدة وكحركة سياسية. والسلطات كانت تضع الحركات الديمقراطية، بضمنها حركة انصار السلم، تحت طائلة القانون بأعتبارها هي الاخرى جزءا من الحركة الشيوعية. والاجهزة القمعية كانت تمارس التعذيب النفسي والجسدي بحق الموقوفين السياسيين بهدف حملهم على الاعتراف بما لديهم من اسرار حزبية. والادارة العرفية كانت قائمة في معظم الفترات دون اى مبرر حقيقي. والمحاكم العسكرية كانت تصدر الاحكام القرقوشية بحق المتهمين دون اي تدفيق أو مراعاة للقوانين. والمثال الصارخ ، الذي يكشف ذلك، كان الحكم الذي اصدره رئيس احدى المحاكم عام 1949 ـ وهو النعساني الذي لم سكلف نفسه عناء قراءة اسماء المتهمين المصطفين في قفص الاتهام امامه، بل حسمها على طريقة فلاحية مضحكة:
ـ من ابو السترة لابو الجراوي سنتين سجن ومنه وغاد اربع سنوات.
وهكذا ذهب حشد كبير من المتهمين بالتظاهر الى السجون. وتاتي على كاتب المحكمة ان يفرز بنفسه فيما بعد اسماء المحكومين بالسجن سنتين عمن حكم عليهم باربع سنوات . ومع كا ذلك لا يسهني الا ان اقارن بين الاستبداد والتعسف في ذلك العهد وبين ما قام به النظام البعثي في 963 ثم في 68 ـ 991، ففي العهد الملكي كان المتهم يحاكم في محكمة مدنية، في غير

فترات الادارة العرفية. وكان بامكانه ان يوكل محاميا عن نفسه، او توكل عنه لجنة معاونة العدالة لدى نقابة المحامين، وان يميز الحكم الصادر بحقه، وان يعيش مع زملائه في احدى السجون او المنافي وان يستقبل عائلته مرة في الشهر وان يطلب طبيبا او ينقل الى احد المستشفيات في حالة مرضه .. الخ. وطوال سني العهد الملكي لم يشهد العراق اكثر من ثمانية اعدامات للمواطنين بتهمة الشيوعية.
واما في سني العهد البعثي فان الجميع يعرفون ما كان ولايزال يحدث من ارهاب دموي واقامة المجازر بين معارضي السلطة والمشكوك في ولائهم لصدام حتى بين البعثيين وانصار النظام انفسهم. لو عرف الجمهور العراقي بان النظام الملكي العميل يسقط ويحل محله النظام البعثي الدموي الفاشي العنصري، الذي لم يشهد التاريخ للان مثيلا له من حيث همجيته و ولعه بالتقتيل، لدافع العراقيون عن الملك ونوري السعيد دفاعهم عن شئ عزيز عليهم. كانت نقابة المحامين في سني العهد الملكي تحت سيطرة معارضي السلطة. وكانت تناصر المظطهدين من أبناء البلد قدر المستطاع. وبمبادرة من المحامين الشيوعيين والتقدميين شكلت لدى النقابة ((لجنة معاونة العدالة)) التي اتخذت على عاتقها مهمة مشرفة: الدفاع الطوعي المجاني عن جميع الموقوفين الشيوعيين والوطنيين امام الشرطة والمحاكم. وكان عدد كبير من المحامين، بينهم عامر عبداللة وتوفيق منير وعبدالوهاب القيسي وخالد عيس طه ونافع سعيد ورزوق تللو وعبدالستار ناجي وغيرهم، مستعدين للمشاركة في اداء هذا الواجب الانساني النبيل. وكانت السلطات تقبل منهم ذلك، ولو على مضض. فتفتح دوائر البوليس ابوابها امامهم للالتقاء بموكليهم الموقوفين. وكانت المحاكم تسمح لهم بالحضور فيلقون دفاعاتهم الشفهية والتحريرية ويفضحون ماتعرض له الموقوفون من اعتداءات وانتهاكات.
****
في 1951 أقمنا أول دورة دراسية حزبية، سرية بالطبع. كنا نجمع عددا من الشيوعيين النشطين داخل أحد بيوتنا الحزبية لمدة ثلاثة أيام أو لمدة أطول، لتلقى عليهم محاضرات حول الاقتصاد السياسي وتأريخ الحزب الشيوعي السوفيتي وقضايا العمل الحزبي ـ الجماهيري. وكان من مصادر التثقيف الرئيسية مؤلفات فهد (مستلزمات كفاحنا) و (حزب شيوعي لا إشتراكية ديمقراطية) وغيرهما، وتأريخ الحزب الشيوعي السوفيتي ومؤلف ستالين المعنون (أسس اللينينية). وكان عدد المشاركين في الدور محدودا. وهم ملزمون بالبقاء في المنزل، يأكلون وينامون فيه ولا يسمح لهم بالخروج منه، كتدبير صياني، لحين انتهاء الدورة. وكان مشكلتنا الحقيقية الأولى إنعدام محاضرين كفؤين لهذه الدورات. لكن ضعف مستويات المستمعين كان يغطي على ضعف المحاضرين أيضا. كنت بنفسي أحد المحاضرين احيانا . وكنت في الواقع غير قادر على القيام بذلك لولا المستوى الواطيء لجموع الشيوعيين في البلاد. وكان شريف الشيخ المحامي الذي انتمى الى صفوف الحزب في 1947 أو 1948 وإختفر إثر نكسة 1949 أحد المحاضرين، بل أصبح في فترة معينة محاضرنا الرئيسي الى أن إضطررنا على إبعاده عن هذه المهمة بعد أن شكت ربة المنزل المكرس للدورة من أنه تحرش بها.
****
فتحت ذات يوم رسالة مغلغة موجهة الى المركز وفوجئت بما قرات. كانت مكرسة لنقطة واحدة: أعتراف كاتبها العامل الشيوعي النشط عبدالقادر العياش بانه مارس الجنس مع فتاة في حانوت أحد الاصدقاء. ذكر العياش انه كان جالسا لدى صديقه هناك حين قدمت فتاة من بائعات الهوى ومارس زميله الجنس معها واغراه على أن يحذو حذوه في مجامعتها. وقال انه على فعلته هذه المغايرة للخلق الشيوعي وللتقاليد الاجتماعية التي تعهد بالوفاء لها. ولهذا قرر توجيه هذه الرسالة الى الحزب لكشف الحقيقة أمامه ولانتقاد نفسه على ما تورط فيه. وهو اذ يصارح الحزب فأنه مستعد لتحمل أي عقوبة حزبية توجه اليه. أجبته برسالة مغلقة ذكرت فيها اننا ننتقد ما فعل ونراه غير لائق بسلوك المناضل الشيوعي. لكننا نقدر فيه الصراحة الشيوعية والنقد الذاتي الجرئ. ولانعاقبه مادام قد كشف بنفسه عما فعل. لكننا نطلب منه الاتعاظ بما فعل وعدم تكراره.
وردتني ذات يوم رسالة أخرى مماثلة من كادر حزبي وسطي ـ أثوري ـ ذكر فيها أنه ارتبط بعلاقة جنسية مع امرأة أثورية متزوجة منذ سنوات. وان معظم اطفالها منه هو وليس من زوجها. وهو يشعر ـ حسب رسالته ـ بالاثم ويطلب النصح ويقبل كل ما يقرره الحزب بشأنه. كانت هذه الاحداث والرسائل تكشف ليس فقط عن نمط من القيم والاعتبارات الخلفية السائدة في المجتمع العراقي آنئذ، بل كذلك عن ثقة الكادر واعضاء الحزب بالقيادة وبالحزب نفسه وعن قناعتهم بضرورة التصرف بصراحة تامة معه وعدم اخفاء أي شئ عنه، حتى من القضايا الشخصية. تحسنت وتطورت تدريجيا أجهزة طباعتنا السرية. وكان اعتمادنا الرئيسي على الطابعة والرونيو لسهولة تشغيلها وسهولة التعويض عن أي آلة تستهلك. وقد تلقيت رسالة من عبدالجبار وهبي مفادها ان هناك ماكنة طباعة صغيرة مع قاصة الحروف وتشغيل بالرجل وتطبع بحجم نصف فلسكاب. يمكن الحصول عليها بسعر مناسب اذا كان الحزب في حاجة اليها . في اليوم التالي ركبت دراجتي من الكاظمية الى حي البتاوين ووصلت بيت عبدالجبار لاتحدث معه مباشرة حول الموضوع . بعد الاستيضاح والتداول أشترينا الجهاز بأربعين دينارا ووضع تحت تصرف صبيح وتعلم تنضيد الحروف بسرعة قياسية وطبع بالماكنة بعض النشرات ولكنه ظل يفضل الرونيو لسهولة استخدامه وانتاجيته العالية.
وطلبت من عضو لجنة بغداد الاستاذ المساعد في كلية التربية عزيز الشيخ وكان قد تخرج من نفس الكلية بدرجة الناجح الاول، شراء آلة كاتبة جديدة لنا. في الموعد التالي أتي بالآلة. وسألته عن ثمنها لكي ادفعه له فقال:

- اشتريته باربعين دينارا.
- حسنا. وهل يمكن تأجيل الدفع اليك حتى يتوفر لدينا النقود بعد اسبوعين؟
- يمكن الغاء الدفع. أنا الآن اقبض الراتب الشهري ولم اعد ذلك الطالب السابق. فليكن راتبي لهذا الشهر تبرعا للحزب. وها ليس الا تضحية صغيرة.
- المبلغ كبير يا رفيق.
- وأي تضحية يمكن أن يقدمها المرء للحزب اذا لم يكن مستعدا للتضحية براتب شهر واحد؟

في 952 بلغت طباعتنا السرية أوج نشاطها، خاصة بفضل تجمع عدد من الشبان النشطين في بيت المطبعة السرية قرب جامع الامام الاعظم. كان صبيح لايزال طباعنا الرئيسي الانشط والامبر. وسكن عنده آخرون نشطون هم محمد صالح العبللي وحنا ماربين وأخوه الاصغر عبد الاحد وكذلك ـ لفترة قصيرة ـ ثمينة ناجي ، التي أصبحت فيما بعد زوجة لسكرتير الحزب سلام عادل. وقد تم في هذا البيت طبع كتاب (أسس اللينينية) الذي ألفه ستالين بعد وفاة لينين. وكذلك تأريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي وكراسة (حزب شيوعي لا اشتراكية ديموقراطية) التي ألفها فهد وكراسة (القضايا الاقتصادية للاشتراكية) لستالين وغيرها من الكتب. كان تكنيك الطباعة بدائيا. لكن الحرص والجهد المتواصل لدى الطباعيين كان سببا للغزارة في الانتاج.

وقد حدث لهذا البيت ما أخل بوضعه الامني. كان حنا واخوه يعودان من السوق الى البيت. وعلى مسافة لم تزد عن مئتي متر من البيت اصطدما بكمين نصبه لهما رجال البوليس السري. ولم تفلح محاولاتهما للافلات سوية. فقبض على حنا فيما تمكن عبدالاحد من الافلات ركضا. وبعد حوالي ربع ساعة دخل المنزل قادما من جهة أخرى وروي الحادث لصبيح واللعبلي وذكر ان الحادث وقع قرب الدار نفسها. وهذا معناه ان الدار معرضة لخطر المداهمة اذ يحتمل أن تكون قد عرفت بسسب متابعة تحركات حنا في الايام السابقة للكمين. يضاف الى ذلك ان العامل الشيوعي الموقوف حنا قد يعجز عن الصمود أمام الاعداء ويعترف على البيت. وكما كانت العادة المتبعة في مثل هذه الحالة فأن سكنة البيت الطباعيين قد غادروه فورا تاركين وراءهم أجهزة الطباعة، التي لم تكن ذات أهمية كبيرة مقارنة مع الكوادر الحزبية. وقع الحادث صباحا وخرج الطباعون وليس بينهم من يعرف مسكني. وصلتني رسالة من صبيح حول الحادث عصر ذلك اليوم. أخذت معي هادي صالح فوراً وتوجهنا الى بيت المطبعة لعلنا نستطيع نقل الاجهزة بشكل ما. أشترينا ملء سلة من الفواكه في سوق الاعظمية القريب من الدار واعطيناها لصبي حمال كي يحملها ويسير أمامنا. وعلى مسافة خمسين مترا من باب الدار وقفنا أنا وهادي وأرسلنا الصبي وحده نحو البيت قائلين له:

- اذهب الى ذلك الباب ودقه حتى يفتح وقدم هذه السلة الى من تجده هناك وقل له ان عبداللة هو الذي اهدى لكم هذه الفواكه. وعند العودة خذ منهم السلة وأعدها الى صاحب الدكان.

أستهدفنا من كل ذلك معرفة ما اذا كان البيت مكبوسا أم لا. وقفنامن بعيد لنراقب ما سيحدث وما اذا كان هناك كمين. بعد دق متواصل وانتظار طويل عاد الحمال نحونا وقال أنه لا أحد في البيت اذن لم تكبسه الشرطة وعلينا أن لا نضيع الوقت. ذهب هادي ليستأجر سيارة بيكاب والبدء بنقل الاشياء الهامة فورا والى مكان آخر مؤقت. حتى اذا انهار حنا في اليوم التالي واعترف على البيت لما عثروا فيه على شئ مهم من ادوات الطباعة . نقلنا الاشياء بكاملها الى مكان أمين. وصمد حنا تحت التعذيب الوحشي صمود الابطال.

واظن انهم كانوا يخشون التمادي في تعذيبه هو بالذات بعد أن واجهوا فضيحة كبرى جراء تعذيب أخيه الشيوعي سلمان وممارسة الاعتداء الجنسي عليه قبل ذلك بفترة. لقد فضحنا بنطاق واسع هذا الاعتداء. الذي لم يتكرر بقدر معلوماتي في تلك الفترة ، بخلاف ما حدث وتكرر آلاف المرات وبحق الموقوفات والموقوفين معا في ظل النظام البعثي.

منذ وصولي الى بغداد 949 ولاكثر من سنتين أعقبنا ذلك كنت أنفرد بقيادة ح.ش.ع ولم تكن هناك لجنة قيادية حتى من الناحية الصورية. بالأحرى لم يكن لمثل هذه اللجنة وجود بعد اعتقال فهد في 18 كانون الثاني 947 ولحين تسلمي للقيادة. غير أن استمرار العمل الحزبي واحراز نجاحات مطردة في اعادة البناء وفرت للحزب جيلا جديدا واسعا نسبيا من الكوادر الفتية بين العمال والطلاب والمثقفين والحرفيين وغيرهم. وكانت السمة المميزة لكادرنا عامة بدءا مني أنا سكرتير الحزب ومرورا بالجميع ومن مختلف المستويات، هي أننا كنا شبانا صغيري السن. وباستثناء سليم الجلبي، الذي نبت في لحيته وراسه بعض الشيب، فأني لاإذكر أن قابلت بين كوادرنا أناسا ذوي شعر ابيض . وفي لقاءات لرفاقنا مع بعض قادة الاحزاب البرجوازية كنا نشعر بأنهم يستهينون بنا ويحسدوننا في آن واحد . كان سبب الاستهانة أنهم اعتبرونا زعاطيط السياسة وهم كلهم بين شيوخ وكهول . وسبب الحسد انهم كانو يرون ما لحزب هؤلاء ((الزعاطيط)) من نفوذ شعبي واسع وقدرة نضالية كبيرة.

ومن المؤكد ان اتساع نشاط الحزب وتنامي دوره الكفاحي كان ذا ارتبط وثيق بتوفر هذا العدد الكبير من الكادر الحزبي النشط . وارتباطا مع هذه الظاهرة قمت بتشكيل لجنة مركزية جديدة، بعد أن تحطمت اللجنة المركزية التي شكلت في المؤتمر الاول للحزب عام 1945، وضمت أعضاء سبعة اخترتهم بنفسي بين الكوادر . ولم يخطر ببالي ولاببال غيري في تلك الايام بانه يجب انتخابهم بشكل من الاشكال . وكانوا اضافة الى نفسي، كلا من عامل الميناء البصري ناصر عبود وعامل النسيج

البغدادي صادق جعفر الفلاحي والمعلوم الاربيلي المفصول المتحدر من عائلة فلاحية معدمة كريم احمد والطالب المفصول البغدادي محمد شبر والموظف البغدادي المنحدر من الطبقة الوسطى سليم الجلبي والطالب المفصول من السليمانية المنحدر من عائلة فلاحية فقيرة كاكه فلاح . وربما يمكن لومي على بعض التأخير في اتخاذ هذه الخطوة . لكن الامر من التأخير هو أن تشكيل اللجنة المركزية لم ينه، ولم يكن من شأنه ان ينهي، أسلوب القيادة الفردية والبيروقراطية السائدة في تلك الظروف . لقد ساءت الاساليب الفردية - البيروقراطية الحركة الشيوعية في العراق وفي العديد من البلدان الاخرى، خاصة المتخلفة . وتربيت أنا بعقلية هذه الاساليب . وكنا نعبد فهد كما لوكان الها أو نبيا يعبده المتدينون . وهذا التقديس للفرد كان يغذي على الدوام عقلية القيادة الفردية . وهنا لا اريد أن يساء فهمي حين اتحدث عن فهد واسلوب القيادة الفردية . فأنا كنت ولا أزال معجبا بفهد كرجل عظيم قاد عملية بناء ح.ش.ع وتحويله الى حزب جماهيري كبير . كان قائداً كبيراً ومناضلا متفانيا بكل ما لهذه الكلمة من معان . ولكن لم يكن الها، بل كان انساناً من لحم ودم شأنه شأننا، في حين اتخذنا منه الها محليا الى جانب آلهة آخرين أكبر في عالم الحركة الشيوعية .

اعود الى قضية اللجنة المركزية . فأنا بقيت في الواقع فوق اللجنة المركزية كما كان كل مسؤول آخر فوق هيأته التى كان سكرتيراً لها . ولم يكن هناك قدر من الانتظام في اجتماعات لجنتنا المركزية ولم يكن اعضاءها في المستوى الفكري السياسي الذي يفرض ممارسة القيادة الجماعية . والشئ الذي اكدته الاحداث هو انني كنت اكثر كفاءة بين اعضاء اللجنة رغم ضعف مستواي . واظن ان مستوى العمل القيادي قد تدهور حين تسلم كريم أحمد، بعد اعتقالي في نيسان 953 ، زمام القيادة، وخصوصا بعد أن سلم هذا الزمام الى حميد عثمان الذى امكن له الهروب من السجن .

****

أكلت السوب ـ الشوربة ـ واستعملت الشوكة وجلست على كرسي وراء منضدة الطعام، للمرة الاولى في حياتي في منزل شقيقة سليم الجلبي بالكرادة الشرقية . أخذني سليم الى هناك، وكنا نتباحث في بعض الامور . وتناولنا الغذاء سوية . لم أكن معتاداً على تناول الطعام بهذه الطريقة . كان كل ما في غرفة الطعام يبعث على الاستغراب بالنسبة لي، أنا الشاب القروي اصلا وعديم الاختلاط مع الاثرياء العراقيين من مقلدي الحياة الاوروبية في تلك الحقبة . وقد فكرت مع نفسي : ((هكذا يأكل البرجوازيون)) .

****

في 951 التقيت لاول مرة مع محمدصالح العبللي . وهو ابن عائلة شعبية كادحة من حي قنبر علي بالعاصمة . كان قد انهى سنة من السجن وكان عليه أن يقضي سنة من الحكم بمراقبة الشرطة وان يحضر الى مركز البوليس ويوقع في السجل يوميا . وقد شكا نفسه من أن هذه المراقبة تضايقه وتحد كثيرا من نشاطه الحزبي . فسألته عما اذا كان مستعدا للاختفاء وتكريس كامل نشاطه للعمل الحزبي . واجاب موافقا ومرحبا بالفكرة . ونقلناه منذ اليوم التالي الي بيت آخر بعيدا عن منزله ليعيش فيه مختفيا . بيد أن اختفاءه لم يدم اكثر من بضعة ايام . فقد كتب رسالة الى الحزب ذكر فيها صراحة بأنه غير قادر على تحمل حياة الاختفاء . وعندما التقيت به لاتفهم وضعه بصورة أفضل قال لي:

- حين أسير في الشوارع يتراءى لي ان كل من اراه من المارة ليس الا شرطيا سريا مكلفا بمرفبتي وملاحقتي . ولهذا يتعذر علي تحمل حياة الاختفاء .
- اذن بطل من الاختفاء ودبر أمر العودة الى بيتك والى مراقبة الشرطة، وواصل نشاطك الحزبي كالسابق ـ كان ذلك اول تمرين للعبليي في مواجهة مصاعب الاختفاء من اجل العمل الحزبي . وفي وقت لاحق اختفي من جديد بصورة طوعية واعتيادية ومن دون أي تردد . وحين اعتقلتني الشرطة في 953 كان العبللي كادرا مختفيا . وحين خرجت من السجن في 958 كان ضمن التشكيلة القيادية للحزب وكان يدرس في المدرسة الحزبية بموسكو .

****

مساء يوم من ايام كانون الثاني 952 كنت على موعد مع عزيز الشيخ بحي الوزيرية . نزلت من دراجتي وتمشينا في الشارع قرابة نصف ساعة . ثم صعد هو باص مصلحة نقل الركاب فيما ركبت دراجتي متوجها الى محطة قطار باب المعظم (لم يعد لهذه المحطة أي وجود منذ سنوات طويلة) . وبالقرب من السفارة المصرية اعترضني راكب دراجة شاب قائلا :

- قف دقيقة واحدة رجاءاً.
- وماذا تريد مني؟
- اريدك أن تتوقف .

رفضت الوقوف وزدت من سرعة الدراجة باتجاه مدخل المحطة . وطاردني الشاب بدراجته كما لو دخل في سباق معي . وحين وصلنا تحت جسر القطار ، الذي يعبر فوق دجلة صرخ الجاسوس بصوت عال:

- ولك عباس : هذا هو:

مع هذه الصيحة خرج ستة رجال من كلا جانبي الشارع وها جموني ركضاً فيما كان راكب الدراجة قد سد علي الطريق بفضل قدرته على السير أسرع مني . وحين انحرفت عنه كي اسبقه خرجت من التبليط قليلا ووجدت دراجتي غاطسة في

الطين . لم يبق امامي سوى تركها ومحاولة الهرب سيرا على الاقدام . اعطى ذلك الفرصة لسائق الدراجة ولسائر رجال المفرزة كي يصلوا الي . وامسك احدهم بذراعي . فاخرجت مسدسي وهددتهم قائلا:

- ساقتل من يمسك بي أو يحاول اللحاق بي .

ابتعد عني الجميع خطوات الى الوراء تحت تاثير التهديد بالمسدس . واخرجوا بدورهم مسدساتهم وصاحوا بصوت واحد :

- ولك أرم المسدس: ارم المسدس:

كررت التهديد وركضت هاربا . بدأوا باطلاق الرصاص من مسدساتهم وهم يركضون ورائي . كان الليل والضلام في صالحي . وانتبهت، وانا أركض، الى ان الوصل الى باب المحطة المزدحم بالناس ورجال الشرطة والانضباط العسكري يجعل من شبه المستحيل الافلات منهم. فأنحرفت عن التبليط وركضت عبر ممر ضيق فوق نقطة من بقايا السدة الترابية، التي أقيمت ذات يوم لتقي العاصمة من خطر فيضان دجلة . وكررت التهديد بصوت عال للمطاردين . افرغوا مخازن مسدساتهم في وقت كانت المسافة بيني وبينهم قد ازدادت وكان الظلام يحول دون أي تصويب في الرماية . توقفوا عن ملاحقتي حين دخلت الممر الطيني . ووجدت نفسي بعد قليل داخل فسحة المحطة المسيجة بسياج عال والمكرسة لمخازن الاخشاب والحبوب وممتلكات المحطة نفسها . مررت راكظا على حارسين جالسين عند نار مشتعلة ولاحقني كليهما بعض الوقت ولم يلاحظاني .
أنا الان داخل المحطة . فماالعمل؟ كيف انجو بنفسي؟ عبور السياج امرغير ممكن اذ لااملك ما اقطع به الاسلاك ولايمكن التسلق والقفز الى الجهة الاخرى . والذهاب شطر ازدحام المحطة المكتظة بالناس امر محفوف بمخاطر جدية اذ يحتمل ان يكون اغلب رجال المفرزة المطاردة موجودين هناك للبحث عني والقبض علي. بقي امامي خيار آخر : أن اخفي نفسي في فسحة المحطة لبضع ساعات حتى ييأس المطاردون ويكفوا عن البحث عني . ورغم أن الظلام يساعدني على التخفي فان الامر ليس سهلا طالما حوصرت في قفص مسيج ومملوك للسلطة الحاكمة نفسها. لم يلبث أن دخل رجال المفرزة بقصد التفتيش واقترب الخطر مني جديا . هم عدد كبير نسبيا ومسلحون وانا وحيد واملك مسدسا وبضع طلقات . اذا فرض على الاشتباك فساخوضه وقد أهزمهم جميعا . لكن افلاتي من هذا القفص لن يكون سهلا على أي حال . يجب اللجوء الى السلاح كآخر حل اضطراري . والافضل تجنب الصدام اذا امكن الافلات من دون الصدام . كان هناك حفر لمجاري المياه داخل فسحة المحطة. وحوله انابيب كونكريتية ستستخدم في بناء هذه المجاري . وكانت هناك ساقية مياه جارية ونبت الحشيش على أحد جانبيه . فهل الافضل أن اتخفى في هذا الحفر الذي ليس فيه ماء؟ كلا ليس من المناسب لان هؤلاء سيفتشون . أول ما يفتشون . المجاري المحفورة . والمكان الاكثر امانا هو ساقية الماء التي يبلغ عمقها 50 ـ 60 سم: دخلت الساقية وتمددت داخل الماء غطسا باستثناء رأسي ويدي اليمنى الممسكة بالمسدس، متخذا من الحشائش في جانب الساقية سترا لي، وقد وصل رجال البوليس السري للبحث عني . ومروا مرارا على بعد بضعة امتار مني . كانو يتكلمون همسا وكنت اسمعهم حين يقتربون فتشوا المجاري جيدا . فتشوا كل مكان سوى ساقية الماء . لم يخطر ببال احمد منهم ان يكون الانسان الذي يطاردونه مختفيا داخل الماء البارد في ليلة شتاء شديدة البرودة . أستمر التفتيش من السابعة والنصف الى ما بعد العاشرة مساءا . كانت الفسحة واسعة مليئة بالمخازن وعربات القطار والاخشاب القديمة وغيرها . وربما كانوا يتأملون العثور علي في نهاية المطاف . لكن الياس بدأ يتسرب اليهم تدريجيا وسمعت احدهم يقول لزملائه:

- انه تمكن من الهروب الى خارج المحطة ولا جدوى وراء البحث عنه .
- قد يكون مختبئا هنا ـ اجاب شخص آخر ـ والافضل ان نضع له كمائن حين يخرج من مخبئه.
- نحن نبحث عنه ولانعرف من هو وما جدوى البحث عنه ... كل ما نعرفه انه يحمل مسدسا .
- قد يكون مسسدا دسما لنا .. مادرا شيوعيا أو حراميا خطيرا .

كفوا اخيرا عن التفتيش واقاموا كمائن في المداخل، التي كنت اراها على ضوء المصابيح الكهربائية . وخرجت من الماء في الساعة الحادية عشر لادخل في برميل كونكريتي . شعرت لاول مرة بالبرد .. حين كنت متمددافي الماء البارد جداما كنت لاحس باي برد لانه نشأت لدي قوة خارقة لمقاومة البرد، ربما لان الدماغ ضاعف من كمية الحرارة التي تتولد في جسمي اعتياديا . حين يصبح تحمل هذا البرد طريقة للتخلص من رجال يريدون لك السجن والتعذيب وحتى الاعدام فانك ستملك مقاومة غير اعتيادية ازاء ما تتعرض له من البرد او ما شابه.
يئس المطاردون ورفعوا آخر كمين لهم في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . أصبح بامكاني أن اخرج من المخبأ . لكن الخروج كان يعرضني للمخاطر بعد ان غدوت مبللا ومطينا وحافي القدمين، الامر الذي من شأنه ان يثير شبهات حراس الليل والمارة الذين قد يصادفونني في الطريق . رأيت ان من الافضل ان ارابط في مكاني حتى الفجر . ولما سمعت آذان الفجر من الجوامع القريبة، غادرت مخبأي وسرت مشيا على السدة الترابية التي كانت تمتد بمحاذاة حي الوزيرية نحو الصليخ . وقبل شروق الشمس دقفت باب البيت الذي كنت اعيش فيه بحى كمب الصليخ . فتحت ام عدنان الباب، هادي واقفا خلفها . ووراءهما شابة شيوعية قصيرة القامة كانت قد انتقلت الى هذا المنزل قبل بضمة أيام ـ هى مادلين التي اصبحت فيما بعد زوجة لي . استقبلني هؤلاء بمزيج من الفرح والاستغراب والقلق . فرحوا لاني عدت اليهم بعد غياب ليلة مثير للقلق عندهم . واستغربوا من منظري الغريب حيث كنت مبتلا مطينا حافي القدمين . سألت ربة البيت:

- ما الذى حدث لك؟ لماذا لم تعد الينا في الليل وجعلتنا في القلق حتى الصبح؟

- وقع لي حادث مزعج وخرجت منه بسلام . وأحتاج الان الى بعض الراحة والتدليك .

كانت مادلين تعرف التضميد والتدليك اذ سبق لها أن اشتغلت ممرضة في احدى المستشفيات . وتعاونت مع ام عدنان في تدهين جسمي وتدليكي بحنان وأهتمام فائق الى أن استسلمت للرقاد في فراش دافئ . واستيقظت بعد ساعات ولم أشعر بأن تاك الليلة قد تركت اي أثر على صحتي ونشاطي .

في مساء اليوم التالي التقيت من جديد مع عزيز الشيخ في موعد بأحد شوارع الوزيرية نفسها . وقد سألني عما حدث وذكر أنه كان قلقا بعد سماع اصوات الرصاص بعيد افتراقنا . وبعد يومين حصلنا على معلومات عن سبب اقامة هذا الكمين الذي وقعت فيه . كان أحد الشيوعيين قد داب على توزيع النشرات في ليال متعاقبة داخل حي الوزيرية . ويبدو أنه كان يستخدم دراجة في عملية التوزيع . نصبت مفرزة الامن العام كمينا له . وكنت أنا الذي وقعت فيه .

****

في خريف 951 ، وبعد أن كانت منظمات الشبيبة والطلبة واتحاد النقابات قد خرجت الى الوجود، قمنا بسعي لاستحصال الترخيص القانوني لمنظمة نسائية ديموقراطية باسم (رابطة الدفاع عن حقوق المرأة) . قدم الطلب الى السلطات من قبل فريق من الشيوعيات والديمقراطيات اللاحزبيات امثال الشيوعية النشطة الطبيبة نزيهه الدليمي والديمقراطية اللاحزبية خالدة اليسي . ورغم توفر جميع الشروط القانونية في الطلب وفي الموقعات عليه فأن وزارة الداخلية رفضت الترخيص لمجرد اعتقادها بأن وراء الطلب عناصر شيوعية أو ما كانوا يسمونه ((عناصر غير مرغوب فيها)) . وعلى اثر الرفض قدمت الرغيقات الشيوعيات رسالة الى الحزب يسألن فيها عما يجب عمله في الخطوة التالية . واجبنا على الرسالة (وأظن ان ذلك كان في آذار 1952) موصين بمواصلة العمل لتحويل المنظمة الى منظمة ديموقراطية سرية خاصة بالعمل النسائي كي تعمل مثلما منظمتا الشبيبة الديموقراطية واتحاد الطلبة العام . وهكذا ولدت منظمة الرابطة وفق قرار حزبي، وتحولت تدريجيا الى منظمة ديمقراطية نسائية جماهيرية .

وقد تكونت للرابطة لجنة عليها كان البعض من اعضائها ـ في فترة معينة على الاقل ـ من الرجال . وصيغ لها برنامج بالتعاون بين العناصر الشيوعية النسائية وبيننا وأصدرت نشرة سرية خاصة بها . (وفي 1958 ، اثر انتصار ثورة 14 تموز ، حصلت على الاجازة القانونية) .

****

شهدت فترة من تاريخ السجون السياسية، وبالاخص في ظروف المد الثوري الجماهيري لاعوام 951 ـ 1953، كثرة من اضرابات السجناء السياسيين عن الطعام في سبيل حقوقهم السياسية والانسانية . (واشعر بالندم حين اتذكر اني كنت الموصي بالاضراب في احدى المرات) . واثناء كل اضراب تقريبا كنا نصدر نداءات الى الشعب لدعم مطالب المضربين العادلة . وغالبا ماكانت عوائلهم تتجمع لتقديم مذكرات الى السلطات الحكومية والى الاحزاب والنقابات والصحف الوطنية داعية اياها لتأييد أبنائها المضربين . وفي بعض الاحيان كانت هذه العوائل تخرج في مظاهرات لالفات النظر الى قضية ابنائها المضربين .

عند اطالة الاضراب كانت صحة البعض من العضربين تتدهور مما يؤدي الى نقل هؤلاء الى المستشفى لغرض المعالجة . وكان السجين الشيوعي نعمان محمد صالح احد المضربين المنقولين الى مستشفى في بغداد . وبعد اجراء الفحص عليه اخبره الاطباء بأنهم يتوقعون موته اذا ظل مستمرا على الاضراب . وبذل البعض منهم جهودا انسانية مخلصة لحمله على انهاء الاضراب او ـ على الاقل ـ قبول تغذيته بسبيل اخرى طبية من قبيل الماء المغذي أو زرق الابر . غير ان الشاب المضرب رفض بحزم كسر الاضراب عن اطعام بصورة منفردة وأصر على أنه ينهي الاضراب فقط عندما تستجيب السلطات لمطالبه هو وزملاءه المضربين، كما رفض الماء المغذي وما شابه مستهينا بالموت المخيم عليه . وقد توفى في نهاية الامر داخل المستشفى . وفي اليوم التالي تجمع رفاقه الشيوعيون امام المستشفى وانتزعوا جنازته من السلطات وشيع بمظاهرة جماهيرية تاريخية ضمن في صفوفها اكثر من عشرين ألفا . وقد اشترك في المظاهرة رجال وطنيون من الاحزاب المعارضة للنظام ومن المستقلين . وكان الشاعر الكبير الجواهري بين المشاركين و أثار بكلمات وأبيات شعرية حماس الشباب . وكرس افتتاحية عدد اليوم التالي من جريدته (الرأي العام) لنفس الموضوع فاضحا ومدينا فيها السلطة والاستعمار البريطاني .

****

في أواخر 1951 نشات لدي فكرة تعديل الميثاق الوطني ـ برنامج الحزب ـ الذي كان قد اقر قبيل انتهاء الحزب العالمية الثانية في 1945 . وأخذت على عاتقي مهمة الصياغة الاولى، كما اخذت وثيقة 945 كاساس و حافظت على شكلها المختصر الواضح، الذي كنت معجبا به وابقيت العديد من بنودها دون أي تعديل لاني لم أر ما يوجب التعديل . لكني أجريت تعديلات رئيسية حول القضايا الستراتيجية ـ حول السلطة و المسالة القومية ـ الكردية ـ وكذلك حول القضية الزراعية:

ـ كان الشعار الستراتيجي المتعلق بالسلطة في وثيقة 945 يتلخص في ((اقامة حكومة وطنية ديمقراطية)) دون أي مساس بالنظام الملكي أو أي اشارة الى مستقبله . الامر الذي كان يفهم منه اعطاء موافقة ضمنية على بقاء ذلك النظام . وأنا لا أريد من ذلك توجيه اللوم الى فهد، الذي صاغ ذلك البرنامج في 1945، حيث كانت الظروف مغايرة تماما و كانت الحرب الثانية

مستمرة وكان النظام العراقي عضوا في الحلف المعادي للفاشية .. الخ . لكن تغيرات هامة قد طرأت في سني مابعد الحرب على أوضاع العراق و العالم . واعتقدت أن الوقت قد حان لتغيير شعار الحزب الستراتيجي المتعلق بقضية السلطة . وهكذا تضمنت الصيغة الجديدة فكرة اسقاط النظام الملكي و أقامة حكم جمهوري شعبي يمثل ارادة العمال و الفلاحين و الجماهير الشعبية .

- تضمنت صيغة الميثاق القديم فكرة اعتبار الشعب الكردي في العراق اقلية لها حق المساواة . ولم تتضمن اية اشارة الى ان هذا الشعب يشكل أمة ثانية في العراق و ان لهذه الامة حقها في تقرير المصير . واظن ان هذه الصياغة جاءت في وقت لم تكن المشكلة الكردية في العراق واضحة لدى فهد و ان التنظيمات الحزبية - الشيوعية بين الاكراد العراقيين لم تصل الى المستوى الناضج الذي تعرض معه قضية هذا الشعب عرضا مدروسا صحيحا . وبدلا من هذا العرض الناقص تضمنت الوثيقة تامعدلة فكرة حق تقرير العصير للشعب الكردي في العراق .

- و بدلا من المطالبة فقط بتوزيع الاراضي الميرية على الفلاحين، كما ورد في وثيقة 1945 ، تضمنت الوثيقة الجديدة فكرة توزيع اراضي الاقطاعيين و كبار الملاكين ايضا على الفلاحين.

- وتضمنت الوثيقة الجديدة وضوحا اكثر فيما يتعلق بالموقف من الاستثمارات والمؤسسات الاقتصادية الامبريالية في بلادنا.
وقد نشرت وأقرت صيغة الوثيقة (البرنامج) الجديدة في ربيع 1952 من قبل لجنتنا المركزية ودون عقد أي مؤتمر أو كونفرانس لمناقشة واقرار هذه التعديلات . ولا اتذكر ما اذا كان هناك بين الشيوعيين خارج السجون من عارض هذه التعديلات لكن بعض العناصر الشيوعية في السجون عارض فكرة اسقاط الملكية واقامة الجمهورية الشعبية . وكانت هذه المعارضة ضمن المقومات الفكرية التي استند اليها انقسام جماعة (راية الشغيلة) في آذار 1953.
ومن المؤكد أن الجماهير المتعاطفة مع ح.ش.ع تقبلت صيغة البرنامج المعدل وان ذلك هو الذي هيأ الاذهان والاجواء لطرح شعار اسقاط الملكية واقامة الجمهورية أثناء انتقاضة تشرين 1952 ، حيث هتفت به مئات الالوف من المتظاهرين في شوارع بغداد .

****

كانت وفود من العمال والطلاب والشباب تأخذ نسخا من عرائضها وبرقياتها، الموجهة الى السلطات، لتذهب بها الى الاحزاب الوطنية وصحف المعارضة طالبة منها التأييد لمطالبها النقابية والسياسية . وفي زيارة وفد من هذه الوفود لمقر جريدة الاهالي، التي كانت تنطق بلسان الحزب الوطني الديمقراطي، قدم المراجعون العتاب الشديد الى الجريدة والى كامل الجادرجي شخصيا بسبب عدم نشر شكواهم ومطالبهم خلال أيام مضت . فاجاب الجادرجي بما معناه:
- لماذا لا تقدرون وضعنا ولا تنصفوننا قليلا أيها الاخوان؟ ألا ترون أن انكليز نصبوا حسين جميل رقيبا ليحسب أنفاسي؟
ورغم انني لا املك شخصيا . معلومات موثوقة تسمح لي بادانة أو تبرأة حسين جميل، ولا اعرف سوى أنه كان سكرتيرا للحزب الوطني الديمقراطي، فان اللغط حوله كان موجودا بين الكثير من العراقيين متهمين اياه بالارتباط مع الانكليز .

****

كان الفلاحي يسكن في دار استأجرناه لعائلة باقر جعفر . واكتشف بعد حين ان الدراهم في جيبه تنقص . وشك في أم باقر وأخته، وفاتحني بالامر . فنصحته بان يتوثق أولا وقبل أن يتهم احدا . سالني:

- وكيف يمكن التوثيق؟
- احسب الدراهم في سترتك قبل ان تنزعها وتعلقها . ثم اعد الحساب حين تلبسها مرة اخرى حين تخرج من الدار .

وحين التقينا في موعد لاحق أخبرني انه توثق واتفقنا على أن ليس من المناسب العيش مع عائلة من هذا القبيل . ووجدنا له مكانا آخر مناسبا . فركب دراجته الهوائية وغادر البيت في الصباح الباكر حاملا خلفه فوق الدراجة جميع ممتلكاته المنقولة التي لم تزد عن بضع كيلوغرامات . في طريقه الى بيته الجديد شكت به مفرزة من الشرطة الدورية قرب ساحة السباع اذ تصور المفوض المسؤول عن المفرزة بأن راكب الدراجة هذا ليس الا سارقا للحقيبة المشدودة خلفه . وطلبوا منه الوقوف فلم يمتثل للأمر خوفا من أن يكونوا قد عرفوه . وطاردوه حتى عثرت الدراجة بعارض ما وسقط صادق وقبض عليه بوصفه سارقا . وحين فتحت حقيبته للتفتيش شوهدت لا ممتلكات مسروقة بل منشورات شيوعية . أخذوه الى الأمن العام ووضعوه، كعادتهم دائما، رهن التحقيق وتحت التعذيب . صمد أمامهم في هذه المرة كما صمد في المرة السابقة . قدموه الى المحمة، وحكموا عليه بالسجن من جديد لأربع سنوات .

****

كنت في الخامسة والعشرين من عمري عندما تزوجت - عام 952 - من الفتاة الشيوعية مادلين مير، وهي يهودية من بغداد . كانت مناضلة نشطة و متقدمة . وأختفت بعد صدور امر القبض عليها من السلطات . كان سلوكها الشخصي والسياسي جيدا وكان شكلها مقبولا رغم قصر قامتها ورغم انه لم يمكن وضعها غي عداد الحسناوات . وقد لامني خالد بكداش ذات مرة على زواجي من امرأة يهودية فاجبته بأني تزوجت انسانة مناضلة وشيوعية جيدة . وفي الواقع لم اشعر أبدا بالحرابة بسبب زواجي من فتاة يهودية ولم عليها أية مسلمة أو مسيحية.

على ان الزواج لم يات كنتيجة لعلاقة غرامية سابقة، على الاقل بالنسبة الي ، ولا بسبب التورط في أي علاقة جنسية مسبقة . انما جاء بدون تخطيط مسبق وكنتيجة لحاجتي الى بيت اسكنه مستقلا والى عائلة خاصة بي والى امرأة اشاركها النوم على الفراش . وكنت التقي مع فتيات اخريات في بغداد ، بحكم عملي الحزبي قبل ان اتزوج . لكني لم أحاول أبدا اقامة علاقات شخصية ، غرامية أو جنسية ، مع أي منهن . فالشئ الوحيد ، الذي كان يشغل بالي ، هو الحزب والحزب وحده . وكنت شديد الحرص على نقاء سمعتي بوصفي مسؤولا في الحزب.

بعد الوزاج أصبح في استطاعتي أن اعيش مع زوجتي في بيت مستقل وفي وضع افضل من حيث ممارسة نشاطي الحزبي . وقد تزوجت دون انفاق الفلس الواحد على مراسيم الزواج أو على شراء شيء لي أو لها . فالآثاث في بيتنا ظلت بسيطة أو دون البسيطة . وطيلة السنة التي عشناها زوجين لم نشتر شيئا ، لا السرير ولا فراش الزوجية ولا الاخشاب ولا أي شيء . كنا ثوريين لا هم لهما سوى اداء المهمات الحزبية على الوجه الافضل . ولم ننفق فلسا من مال الحزب على الملابس الشخصية . كنا نكتفي باخذ بعض القطع من تلك الملابس التي تأتي جراء التبرعات الموسمية من الرفاق والاصدقاء ذوي الوضع العاشي الافضل لغرض توزيعها على العوائل الحزبية المحتاجة اليها..

عشت مع مادلين قرابة عام ، كانت تواصل خلاله النشاط الحزبي . ولا اتذكر أن مشكلة جدية قد حدثت بيننا ذات يوم من حيث علاقاتنا الشخصية . الا أن لحظات حرجة قد مرت علينا ابان حياتنا المشركة . ومرت اللحظة الاشد حراجة في أواخر 1952 ، حين كنا نسكن دارا صغيرة في حي الاعظمية كنت أنظف مسدسي فيما كانت واقفة بالقرب من داخل الصالة . وفي مزاح برئ و سخيف قد يلجأ اليه الشبان في البلدان المختلفة وجهت فوهة المسدس الى رأسها ، وانا على كامل الثقة باني افرغته من آخر طلقة . وضغطت على الزناد . ثارت الطلقة ويالها من طلقة مخيفة ! ربما مرت على بعد سنتمتر أو اكثر بقليل من وجهها . وهي تصورت بأني اطلقت الرصاصة كمجرد مزاح ولغرض التخويف . وقالت دون أن تحسن بخوف جدي:

- طرشتني يا رفيق !

فيما اصبحت انا لبعض اللحظات في شبه اغماءة و اصفر وجهي شديد الاصفرار اذ ترأى بأن الطلقة قد اصابتها وانتظرت سقوطها ميتة . طبعا كان عدم اصابتها مجرد صدفة . وكانت صدفة سعيدة للغاية بالنسبة لي شخصيا . هدأت قليلا بعد ان تبين ان الطلقة قد اخطأتها . لكن الحادث أثر تأثيرا على اعصابي للفترة اللاحقة وتصورت انني أنا الآخر منت أموت أو اصاب بالجنون ، فيما لو اصابتها الطلقة على أثر هذا المزاح السخيف . ولحد هذا اليوم تجتاحني رعشة حقيقية حينما اتذكر ذلك الحادث .

لنا لحظات اخرى حرجة مع مادلين ، حين كنا نعيش سوية في دار صغيرة بكمب الصليخ ربيع 1952 . كان محمد شبر جالسا عندي ونتباحث في قضايا حزبية ـ قراءة رسائل والاجابة عليها . وسمعنا فجأة طرقا عنيفا على باب الدار ، اعقبها دخول مادلين مسرعة الى الغرفة لتهمس:

- داهمتنا الشرطة يا رفيق !

كان استمرار الطرق العنيف المثير للشك تأكيدا على صحة ما قالته زوجتي . ومع ذلك قررت التوثق بنفسي مباشرة فذهبت لانظر من شباك صغير مطل مباشرة على مدخل باب الدار الخارجي . رايت بعيني ضابط بوليس مع عدد من رجالهم في ملابسهم الرسمية . فتيقنت من أننا دوهمنا وعدت ركضا نحو الغرفة فاخذت كيس القماش الحاوي على الرسائل الحزبية وهربت مع شبر و مادلين صعودا الى السطح كي ننتقل من هناك الى سطح دار مجاورة من الخلف ونهبط عبر الدرج الى حديقتها الصغيرة ونخرج من هناك الى الشارع الفرعي . قمنا بكل ذلك في حركات خفيفة و سريعة كما يحدث في افلام الكاوبوي . وتابعنا الركض السريع حتى ابتعدنا عن الخطر . لم تكن مادلين قادرة على القيام بكل ذلك من القفز و الركض مثلما فعلنا نحن . ولكنها وصلت اخيراً بسلام وتفرقنا نحن الثلاثة فرحين بان نجونا من قبضة الاعداء.

بعد أقل من ساعة واحدة كان سباهي على دراجته الهوائية في مهمة استلاعية قرب دارنا التي تعرضت للمداهمة سعيا لتسقط الاخبار ولمعرفة ما حدث هناك . ولم يلبث أن عاد الينا ليقول ان كل شئ اعتيادي وهادئ ولا يوجد ما يدل أن شيئا قد حدث . وكرر المرور والاستطلاع عدة مرات خلال نفس النهار . كان يعود في كل مرة بنفس الانطباع أو المعلومات . واصبحت أنا غي حيرة من الامر . هل فتحوا الباب بطريقة ما واقاموا كمينا في البيت دون أن يثيروا أي ضجيج أم هناك شئ آخر؟ ما الذي جرى؟ ألم أر بنفسي ضابط البوليس مع رجاله؟ في صبيحة اليوم التالي ارسلت صبيح كي يطرق باب الدار المجاورة لنا . وكان رب البيت الساكن فيها أبو ناصر رجلا كادحا وثيق الصلة بنا دون أن يعرف شيئا عن هويتنا السياسية و نشاطنا الحزبي . فتح ابو ناصر الباب وسأله صبيح :

- هل تعرفون رجاءا اين هم سكنة الدار المجاورة لكم ؟ جئت ولم أجدهم في البيت لا ليلة البارحة ولا صباح اليوم ؟
- لا ادري أين ذهبوا .. بالأمس أتوا عليهم ثلاث مرات ولم يكونوا في البيت وفي الليل لم نلاحظ أضوية مشغولة في البيت .
- هل أرادوا منهم شيئا ؟ يحتمل أن يكونوا مسافرين لكركوك . وسأذهب اليهم ان دعت الضرورة .
- الدار معروضة للبيع . وأتى الدلال مع ضابط الشرطة لكي يروها ويتعاملوا على شرائها .

اذن هذه هي القضية ! لم تكن هناك مداهمة بوليسية للبيت ، بل كانت معاملة بيع وشراء . ولآن الراغب في الشراء كان ضابط بوليس المنطقة فان عددا من رجال الشرطة قد رافقوه من المركز الى الدار المغلقة ، لمجرد المجاملة والملق . وعاد صبيح مبتسما ليروي لي ما قاله الجار أبو ناصر . وعدت في الليل مع زوجتي الى البيت . ونحن بمزاج متكدر نتيجة ما حدث لنا . لكن الاستقرار لم يدم طويلا . فبعد 3 ـ 4 ايام ، في غيابي من البيت ، تجدد الطرق على البيت في المساء . وخيل الى مادلين ، وكانت وحيدة في البيت ، بأن هناك شرطة ومداهمة وهربت من جديد بنفس الطريقة السابقة . حدث كل ذلك بسبب ارتباكها غير المبرر وخوفها غير المشروع . وشوهدت اثناء هروبها من عائلة الدار الخلفية المجاورة . وكان المنظر مثيرا ـ امرأة شابة تقفز من السطح الى اسفل الدار وتطلق ساقيها للريح . يجري كل ذلك في مجتمع فلاحي متخلف كالمجتمع البغدادي في 1952 .

ادركت مادلين ، بعد هروبها مباشرة بأنها أخطأت ورجعت من تلقاء نفسها الى البيت في نفس الساعة ، وقبل أن اعود بساعة واحدة . وحين كنت واقفا في باحة الدار الصغيرة مساءا ظهر رجل على السطح وحياني وابلغني بانه يريد التحدث الي . عرفته . كان جارنا الخلفي ، صاحب الدار التي هربنا عبرها . صعدت اليه وبدأ يتحدث بشئ من الحرج والخجل :

- كل الناس حواليكم يعرفون كم انتم طيبون ، ياعلي ! كلهم ممنونون منكم . ولكن من المؤسف جدا أن تكون في بيتكم امرأة فاسدة كهذه ، التي هي اختكم أم شئ آخر . هي لاتشبهكم في شئ ولم تبيض الوجه مع شديد الاسف .

عرفت فورا ماذا يريد ان يقول الرجل الجار . وتظاهرت بابداء الاهتمام البالغ بما يقول . فاستطرد :

- هذه المراة سيئة الاخلاق و فاسدة .. ليتها لم تقرب منكم . انها تستقدم الرجال الى البيت كلما وجدت فرصة لذلك لكي تبيع نفسها . فقبل أيام كان معها رجلان يمارسان معها الفساد . وحين عدتم الى البيت ودققتم عليها الباب خافت من انكشاف امرها وهربت مع الرجلين .. نعم هربوا عبر دارنا . وقبل يومين تكررت العملية المخزية نفسها وهربت من جديد عبر دارنا .. انت تعرف لماذا تستقدم اليها الرجال عند غيابكم عن البيت .. وحتى نحن الجيران نشعر بالخجل والمخازي .

شكرت الرجل على اعلامي بهذه الاخبار الخطيرة وتظاهرت بأنني لم انتبه سابقا الى شئ من هذا القبيل . ورجوته رجاءا حارا لكي يكتم النبأ حرصا على سمعتنا نحن جيرانه . ولم يكن بمقدوري مكاشفته بحقيقة ما حدث للفتاة وبالدافع وراء هروبها وبأني كنت نفسي احمد الهاربين معها . وعدني الرجل بكتم السر . واتخذت قرارا بالانتقال الى دار أخرى في نهاية الشهر . لكن الاحداث المتلاحقة لم تمهلني حتى نهاية الشهر . فقد جاء صباح اليوم التالي بما لم يكن في الحسبان . اتضح أن الناس حوالينا سمعوا جميعا بما حدث وعرفوا أن في بيتنا أمرأة ((عاهرة)) . وجاءني الجار الطيب أبو ناصر ، الذي كان يعتبر نفسه وكيلا لصاحب الدار المؤجرة لنا . وقال :

- انتم أناس طيبون يا علي ! لكن هذه البنت اللعينة شذت عنكم وسخمت الوجه . عليكم الانتقال باسرع وقت ممكن الى مكان آخر لكي لا يقوم الناس حواليكم بما لا تحمد عقباه .
- حسنا يا ابو ناصر ! سنننتقل الى مكان آخر باسرع ما يمكن .. أذهب الآن لابحث عن دار أخرى للايجار .

ذهبت وأستأجرت فورا دارا أخرى مكونة من غرفتين في الطرف الآخر من الحي واستعنت بصبيح ليساعدني على نقل الآثاث في عربة يسحبها حصان . وبقيت وحدي ، بعد ارسال الآثاث ، لأتحدث ببعض الكلمات الى الجار أبو ناصر . ربما لم يكن هناك داع لمثل هذا الحديث الذي قررت خوضه مع الرجل . ولكني خضته على أي حال ، وأنا ممسك بدراجتي الهوائية . طرقت الباب وخرج الي الجار :

- ها قد نقلنا البيت يا صديقي الطيب ! وجئت لاودعك ولاخبرك بشئ لم تعرفه .
- بماذا تخبرني ؟ ـ سال ابو ناصر .
- أود أن تعرف أن تلك المرأة ، التي التي اعتبرتموها مومسا ، ليست كما تتصورون . بل هي زوجتي وأنا الذي هربت معها ومع رفيق لنا كان عندنا يوم حضر ضابط البوليس وطرق الباب . نحن شيوعيون مختفون و مطاردون من الشرطة . وتصورنا بأنهم آتو لكبس البيت فهربنا . هذا كل ما في الامر وارجو لكم الخير والسعادة .. وداعا يا صديقي !

حضنني ابو ناصر وقبلني بحرارة ورجاني أن أبقى في الدار وتعهد بألا يتكلم احد في الحي بما يسئ الينا . لكن بقائي كان مستحيلا . فقد ودعته وركبت دراجتي وذهبت .

الطريف في امر البيت الجديد ، الذي انتقلنا اليه ، أنه كان ـ بمجرد صدفة ـ ملكا لزوجة السجين الشيوعي عبدالستار القيسي . ولم اعلم ذلك الا بعد أسابيع حيث زارتنا عجوز وانطلقت تثرثر وتثرثر وتكشف عن كل شئ جميلا كان أم كريها . وقد ذكرت قبل أن تغادرنا :

- ستار سينهي حكمه قريبا ويعود الينا ان شاءاللة .

وقبل اقل من شهرين دخل البيت ذات يوم شابان . وقال احدهما:

- أنا صاحب هذه الدار واسمي ستار . وهذا الأخ مهندس جلبته معي لكي يرى المبنى ويدرس امكانية بناء غرفة اضافية فيه .

وفيما كان المهندس يتفرج على الغرف وقع نظره على ستانسل مطبوع على الآلة الكاتبة ومهيأ لوضعه على جهاز الرونيو . أثار ذلك فضوله وسالني :

- ماذا تشتغل أنت ؟

ادركت أن لهذا السؤال علاقة بمشاهدته للستانسل . ووجدت نفسي في موقع حرج . وانقذني ستار القيسي فورا وعن غير عمد ، عن غير أدراك لما أنا عليه من وضع . فاجاب ، قبل أن اتكلم ، وأظنه كان قد أجاب بما تصوره هو شخصيا :

- انه شرطي .

سكت المهندس ولم يوجه أي سؤال اضافي .. ربما سكت بدافع الخوف من خوض هذا الحديث مع شرطي . أو اعتبر وجود مثل هذا الستانسل في بيت كاتب لدائرة البوليس أمراً اعتياديا . والتزمت من جانبي الصمت كما لو أن ستار يعرفني وتكلم الحقيقة .

****

في خريف 1952 قررت تعلم سياقة السيارة زاعما أن الوقت قد حان لاستبدال دراجتي الهوائية بسيارة صغيرة . اصبحنا اصحاب سيارة دوج قديمة وأصبح كامل السامرائي معلمي في السياقة . كنا نذهب سوية الى بعض ضواحي بغداد الخالية من كل المساكن (حيث تسمى حاليا بغداد الجديدة) لأتدرب هناك . ولا ازال اتذكر حتى اليوم كم تحرجت وكم قلقت حين سقت السيارة ، لأول مرة ، وانا اعبر الجسر الحديدي في العيواضية من صوب الكرخ الى الرصافة . كان الجسر ضيقا في ذاته وكان العبور مغامرة خطيرة بالنسبة الي . يضاف الى ذلك ان السياقة بذاتها كانت مغامرة لأني كنت مختفيا عن الشرطة ولم املك ، ولم يكن بالامكان ان املك ، اجازة لسوق السيارات حتى ولا هوية شخصية مزورة في تلك الايام . غير ان صاحب السيارة الخصوصية كان مهابا و محترما من قبل رجال الشرطة وكل السلطات في عراق تلك الايام . واتذكر انني سقت سيارتي ذات يوم في شارع غازي (لاحقا شارع الكفاح) . وبسبب ضعف البريك عندي دعمت سيارة تكسي قديمة من الخلف دعما خفيفا اشبه بالمداعبة . فنزل سائق التكسي غاضبا وتوجه الي وهو محتد ويصرخ ، رغم أن سيارته لم تصب بأي ضرر . ربما كان يأمل الحصول على بعض الدراهم مني بحجة التعويض عن الخسارة التي لحقت بسيارته . وقبل ان اتكلم وادافع عن نفسي أو اعترف بذنبي تقدم نحونا شرطي المرور وتهجم بحدة على سائق التكسي قائلا :

- انتم سواق سيارت الأجرة لاتعرفون النظام ولا الأصول و لاتستحقون الاحترام . كل ما يقع من الاحداث في شوارع بغداد هو ذنبكم وحدكم .. انتم لاتستحقون سوى السجن والتغريم.

كان واضحا أن الشرطي متحيز الى جانبي ، أنا صاحب السيارة الخصوصية ، ضد سائق سيارة الاجرة . وقد اقترب مني وحياني وسألني :

- بيط !خو ما صار شئ ؟ هؤلاء السواق ليسوا مؤدبين ولا يفيد معهم اللين .

أجبت ان سائق التكسي غير مذنب وان ضعف البريك في سيارتي أدى الى الحادث ولكن ضررا لم يقع لأحد . ورجوت الشرطي أن يتسأهل مع ذلك السائق . وفرح الخير وغير لهجته تجاهي كليا وأصبح همه الوحيد ان انقذه من يدي هذا الشرطي دون دفع الرشوة . وأظن اني لم استطع انقاذه اذ ابقاه الشرطي بعد ذهابي . وربما اخذ منه الدرهم المنتظر .

وقد حولنا سيارة الدوج ، التي اخذناها ،الى سيارة تكسي ليسوقها حافظ ـ شقيق كامل السامرائي ـ ونستفيد منها في نقل البريد وبعض الامور الحزبية . لكننا لم نستفد منها اذ استولى عليها حافظ كسيارة شخصية . وكنت قد اشتريت انا سيارة اخرى صغيرة فرنسية الصنع بمبلغ (120) دينارا لاستخدمها في تنقلاتي . وينبغي الاقرار بأن تعلم السياقة عاد علي بالضرر اذ ارغمني على تبديل قيافتي من قيافة عامل بسيط الى رجل مثقف ، ونقل سكني من الاحياء الشعبية الفقيرة الى حي أرقى بعض الشئ واقصد حي الاعظمية قرب الجامع ، حيث تعرضت للاعتقال عام 1953 .

7

انتفاضة تشرين 1952

لااكتم اعزازي وفخري ، وأنا اتحدث عن انتفاضة تشرين 1952 ، ذلك ليس لانها كانت هبة جماهيرية فريدة من نوعها طيلة سني العهد الملكي و حسب بل كذلك لان نفوذ ح.ش.ع قد برز فيها بشكل لم يسبق له مثيل ، في وقت كنت اشغل منصب المسؤول الول في هذا الحزب .

قامت الانتفاضة كتتويج لسلسلة طويلة من الاضرابات و المظاهرات والنضالات التي شارك فيها العمال و الطلاب و الحرفيون و المثقفون و الفلاحون في عامي 51 - 1952 . ويكفي أن اشير الى اضراب عمال السجاير ـ شركة الدخان الاهلية ـ الذي قام قبيل الانتفاضة في بغداد، تحت قيادة مناضلين شيوعيين وحقق زيادة في الاجور ، فضلا عن تحديد الحد الادنى للاجور ، لأول مرة في تلك المؤسسة ، والى عصيان فلاحي آل ازيرج ، الذين رفعوا السلاح في وجه الاقطاع والسلطة معا في جنوب العراق ، والى اضراب طلبة كلية الصيدلة والكيمياء ، الذي كان عود الكبريت لاشعال نيران هذه الانتفاضة .

ومن المؤكد ان قيام حكومة مصدق بتأميم النفط في ايران وصراعاتها الناجمة عن ذلك ضد الدول الامبريالية كان ذا تأثير ملموس على الوضع السياسي في العراق بالضد من مصلحة النظام الحاكم والاستعمار البريطاني .

وكانت المساعي الغربية الرامية الى اقامة جناح شرق أوسطي لحلف الناتو باسم حلف للدفاع في المنطقة مبعث اثارة السخط والتوتر بين الجماهير العراقية ، التي غدت ذات تقاليد نضالية راسخة ضد جميع المعاهدات التي فرضت عليها من قبل الدول الامبريالية منذ العشرينات وحتى النهاية .
والأهم من كل ذلك هو ان شعب العراق كان يضمر العداء والحقد الشديدين على الاستعمار البريطاني المهيمن على العراق باشكال شتى سياسية واقتصادية وان أي مد للحركة الجماهيرية الثورية كان يقود على الدوام الى انفجار هذا السخط ـ كما حدث في كانون الثاني 1948 وتكرر في تشرين الثاني 1952 .
يقينا اننا لم نحدد ساعة الصفر للانتفاضة . ولم يكن بمقدور ح .ش.ع أن يحدد ذلك . غير ان الحزب لم يكن ذيلا للاحداث والتطورات ، بل كان يواكبها ويؤثر فيها بصورة جدية وكان يثير ويوجه النضالات الجماهيرية . بكلمة اخرى أنه كان سيد الشارع والقائد غير المنازع فيه . وكنت أنا شخصيا اتوقع تصاعد النضالات الجماهيرية الى الذروة والانفجار الشعبي . وقد ورد في العدد (13) من نشرة الحزب الداخلية ((الانجاز)) مايلي : ((أن حركتنا الوطنية الديمقراطية تطورت وتعاظمت ، رغم الارهاب الفاشي والدكتاتورية السافرة ضد الشعب . فبينما كان هناك ، في عامي 949 و 1950 ، أزمة للحركة السياسية الثورية في بلادنا ، نجد اليوم مدا متعاظما للحركة الثورية وأزمة عنيفة للرجعية ونلمس بوادر انتفاضة شعبية للتطويح بالحكم الدكتاتوري ولانتزاع الحريات الديمقراطية وتحقيق مطالب الشعب)) .
يتضح مما تقدم اننا لم نفاجأ بالانتفاضة وان الاحداث لم تأت بصورة عفوية وان لم تخل كليا من العفوية ، ولم تكن هناك ساعة صفر محددة مسبقا .
وكان زعماء الاحزاب البرجوازية الوطنية مدركين ايضا لخطورة الوضع السياسي المتوتر في البلاد وتطور الاحداث شطر الانفجار . وفي مذكرات شديدة اللهجة القى كامل الجادرجي وطه الهاشمي مسؤولية تردي الوضع الى هذه الدرجة على البلاط الملكي وعلى شخص عبدالاله الوصي على العرش مباشرة وحذروا من مغبة الاستمرار على تجاهل المشاكل المستفحلة في البلاد .
لست أدري بماذا فكر السفير البريطاني ذو الكلمة المسروعة لدى الوصي ورجال الفئة الحاكمة آنئذ، غير ان ما يمكن التأكيد عليه هو أن الكثيرين من افراد الفئة الحاكمة كانوا منتبهين الى خطورة الوضع ومتخوفين من حدوث انفجار شعبي . وبالحاح من هؤلاء ، وبينهم رئيس الوزراء مصطفى العمري،وافق عبدالاله على عقد ما سموه مؤتمر البلاط والذي سماه كريم احمد ـ بعد اعتقالي أنا ـ ب((مؤتمر البالوعة)) سخرية من كلام توفيق السويدي الذي كان قد قال في احدى جلسات المؤتمر أن اهالي الشواكة يعارضون رمي القاذورات في البالوعات . وأظن أن الوصي عبدالاله كان اقل الجميع شعورا بالخطر . فهو كان مغرورا وصلفا وكان على ثقة تامة بقدرة الانطليز على مجابهة أي مشكلة والتغلب عليها . ولعل ذلك نتيجة اجتيازه لمحن سابقة في حركة رشيد عالي عام 1941 ثم في وثبة كانون 1948 ، بفضل قوة ودراية الانطليز. وبدافع من هذا الغرور والصلافة اهان ، في المؤتمر الذي دعا اليه بنفسه ، رئيس حزب الجبهة الشعبية واحد اقطاب المعارضة اللبرالية آنئذ طه الهاشمي ، الذي كان نفسه من رؤساء الوزراء السابقين وكان منشقا في الآونة الاخيرة على الطبقة الحاكمة ومنتقلا الى صف المعارضين للسلطة الحاكمة.
وكانت أحاديث اغلب رؤساء الوزارات السابقين ، كنوري السعيد وتوفيق السويدي وصالح جبر وحكمت سليمان .. الخ ، اشبه بحديث رجل مخرف أو متخلف كثيرا عن ركب التطور .
وعلى الرغم من أن ح.ش.ع ، الذي كنت على رأسه آنئذ ، كان اقوى حزب سياسي في البلاد فأن مشاركة ممثل له في محادثات البلاط كان امرا مستتبعدا بالمرة ليس فقط في اذهان الحكام ، بل كذلك في اذهاننا نحن الشيوعيين . وكان المألوف في مثل هذه المناسبات تجاهل اليسار العراقي بوجه عام . وكان هم اليسار الا يكون ضحية قوانين جائرة او دسائس تحاك ضده في الخفاء . أعود الى الانتفاضة ، التي صنعتها جماهير بغداد الثائرة وقادها الشيوعيون بلا منازع . وكانت الانفجار الشعبي الذي حذرت منه مذكرات احزاب المعارضة اللبرالية .
قبل الانتفاضة كان اضراب طلبة الصيدلة والكيمياء ، الذي لم يحدث بمعزل عن حماقة العميد حين أجرى على نظام الكلية تعديلات اضافية اثار بها الطلاب . في هذه الكلية كان عدد الشيوعيين واليساريين المنظمين محدودا واضعف بكثير مما في كليات اخرى كالآداب والحقوق والتربية .. الخ . لكن حماقة العميد دفعتها الى تصدر الحركة الاضرابية ـ النقابية بين الطلاب في تلك الفترة . وكان قرار الاضراب نتيجة مناقشات جماعية بين الطلاب وتعبيرا عن رغبة الغالبية الساحقة منهم . ولم يشذ عنه الا طلبة الصف الثالث ـ كيمياء ـ الذين امتنعوا عن المشاركة فيه لسبب لا اعرفه ثم عدلول عن هذه الفكرة وقرروا المشاركة بعد ايام من الاضراب . وانتخب الطلاب انفسهم لجنة لقيادة اضرابهم ولاجراء اللقاءات والمفاوضات مع الدوائر الحكومية . وكان مطلبهم الرئيسي الغاء النظام الجديد واقصاء العميد المستبد ـ وكان عميدا بالوكالة ـ وربما أجرى التعديلات بامل أن يثبت كعميد دائم .
وازداد قلق السلطة الحاكمة عندما تلمست مخاطر اتساع الاضراب الطلابي لكي يشمل كليات ومعاهد اخرى ، بعد أن وزع اتحاد الطلبة العام بيانا بهذا الخصوص . فاستخدم جمال بابان ، الذي كان يتولى وزارة المعارف بالوكالة آنئذ ، ابنه الطالب لتدبير لقاء له في منزله مع وفد الطلاب المضربين . وأستمع الى مطالبهم وطلب انهاء الاضراب لقاء تلبية مطلبهم الأساسي

بالغاء التعديلات التي اجريت على نظام الكلية . غير ان الطلاب أصروا كذلك على اقصاء عميد الكلية كأحد الشروط لانهاء الاضراب . وأمكن الوصول الى حل وسط : ابعاد العميد باجازة موقتة ثم نقله . ووسط بابان نقيب الأطباء القيسي لاستخدام نفوذه في اقناع الطلاب . وانتهى فعلا بانتصار الطلبة في 1952/11/19.
غير ان انهاء الاضراب اقترن بتدبير اعتداء دبرته الاجهزة القمعية ضد عدد من اعضاء لجنة الاضراب . واخذ الجرحى المعتدى عليهم الى المستشفى . وهاج الطلاب وتجدد الاضراب فورا وتوترت اجواء المجتمع الطلابي كله في بغداد توترا شديدا ، تخللته تجمعات وتظاهرات صغيرة وهتافات ، لم تلبث ان تحولت في 1952/11/20 الى مظاهرة طلابية حاشدة سارت في الشارع وتصدت لها قوة كبيرة من الشرطة مهياة مسبقا ومزودة بالهراوات والبنادق . وبعد اشتباك عنيف تمكنت الشرطة من تفريق المظاهرة وملاحقة بعض فلولها . غير ان الكثيرين من الطلاب احتشدوا من جديد في كلية الآداب ، التي كانت احدى قلاع الحركة الطلابية الديمقراطية . وكبر الحشد تدريجيا أمام الكلية وخطب فيها الطالب الشيوعي النشيط وسكرتير التنظيم الحزبي في الكليات والمعاهد حمدي أيوب العاني . ولعبت الطالبة الاتحادية النشطة سافرة جميل حافظ دورا مؤثرا في تظاهرة ذلك اليوم والتحركات الطلابية عامة . وكان من جملة ما قررته الحشود الطلابية في ذلك اليوم ارسال مذكرة ، يحملها وفد طلابي كبير وتذيل باسم اتحاد الطلبة العام غير المجاز ، الى مقرات الاحزاب المعارضة والصحف الوطنية والى الجهات الحكومية المعنية. كان ذلك مؤشرا على تنامي روح التحدي وتصاعد المد الثوري بين الطلاب وكل الجماهير .
وحين تفرق الاجتماع الطلابي الحاشد في كلية الآداب دعا حمدي ايوب الجميع الى الحضور صباح السبت 1952/11/22 في الزمان والمكان المحددين (أمام كلية الآداب) لاستئناف التظاهرة الشعبية .
اشيع في العاصمة خبر التظاهرة اللاحقة ، التي ستخرج يوم السبت . وهيأنا اللافتات والشعارات وحدد الهتافون وعين من يشارك من الكوادر ومن يستثنى . ومن جهة ثانية بدأت السلطات تهيئ نفسها لمواجهة الاحداث المحتملة خصوصا بالاعتماد على الشرطة .
حوالي الساعة الثامنة صباح اليوم المحدد احتشد أمام كلية الآداب بباب المعظم مايزيد عن ثلاثة الآف طالب وشاب . وأمر قائد المظاهرة حمدي أيوب برفع اللافتات فوق الرؤوس . ووزعت قصاصات ورق تحوي الشعارات والهتافات التي تطلق في المظاهرة . ارتفعت قطع الخام الابيض كتبت عليها باحرف كبيرة :

عاش السلام العالمي وليسقط دعاة الحروب العدوانية
تسقط الاحلاف والتكتلات الاستعمارية والعدوانية
يستقط الاستعمار وعملاءه الخونة المحليون
نطالب بالغاء معاهدة 1930
نطالب باطلاق الحريات الديمقراطية
نطالب باطلاق سراح السجناء والمعتقلين السياسين الأحرار
تسقط الانتخابات المزيفة .. لا انتخابات حرة والأحرار في السجون
نطالب بانتخابات حرة على اساس قانون الانتخاب المباشر
نطالب بتوفير الخبز والعمل للكادحين

عند تحرك المظاهرة التحقت بها جموع غفيرة من غير الطلاب ايضا حتى جاوزوا الألوف . انها لم تعد مظاهرة طلابية ، بل غدت مظاهرة سياسية جماهيرية عامة سواء من حيث طابعها واهدافها أم عدد المشاركين فيها . وهي اتجهت من باب المعظم الى شارع غازي والجموع تهتف بحماس منقطع النظير : ((يا اللة يا شعب ! جدد الوثبة !)) . وفشلت الشرطة في تفريقها عن طريق استخدام الهراوات ، فالتجأت الى القنابيل المسيلة للدموع . وتلقف احد المتظاهرين قنبلة ، وهي في الفضاء ، وأعادها برمية سريعة الى الشرطة فانفجرت بينهم وهربوا بعيون دامعة . وفي حي الفضل اطلق البوليس الرصاص على المتظاهرين وسقط شهيد واحد وجرحى وتفرقت المظاهرة . ولكن المتظاهرين سرعان ما اعادوا تجميع قواهم في نفس الشارع وبمزيد من التماسك ولم تجد القنابل المسيلة للدموع ولم تفلح الشرطة في صد المظاهرة بالهراوات . وانعطفت المظاهرة من ساحة الأمين شطر صوب الكرخ ، وفوق الجسر ذكر الخطباء الجماهير بأنهم يمرون على جسر الشهداء ، رمز وثبة كانون 1948 . وخطب قائد المظاهرة حمدي ايوب من جديد . ومع وصول الحشود المتظاهرة الى حي الشواكة أصيبت السفارة البريطانية بذعر شديد . وعززت حولها الحراسة المسلحة . لكن المتظاهرين اكتفوا بالهتافات ضد الاستعمار البريطاني ومعاهداته وعملائه وضد تمثال الجنرال مود رمز الاحتلال البريطاني للعراق .
في الساعة الثانية بعد الظهر تغرقت المظاهرة بطلب من قائدها على أن تستأنف في الساعة السادسة مساء نفس اليوم أمام المدرسة الجعفرية . وقد استئنفت فعلا في موعدها المحدد واستمرت حتى التاسعة مساءا ليعلن حمدي انتهاءها وليدعو الجميع للحضور صباح اليوم التالي أمام كلية الآداب ويسيروا في مظاهرة جديدة .

في ليلة 22 ـ 23 تشرين الثاني حدثت سرقة فريدة من نوعها في المستشفى الملكي المجاور لكلية الطب ببغداد . ذلك أن طلبة الكلية الشيوعيين عرفوا بوجود جثة جديدة في المستشفى ، وقد تكون جثة شهيد . وتمكنوا من سرقتها واشتروا الثلج لوضعه فوقها كي لا تتفسخ ولكي يحملوها في مظاهرة اليوم التالي .
وادخلت الشرطة سيارتين مليئتين بالخوذ والهراوات الى الكلية ، ربما لاستخدامها ضد الطلبة . وحين عرف الطلاب بذلك قرروا الهجوم على كلتا السيارتين ومصادرة الهراوات . وقرروا فيما بعد استخدام الهراوات المصادرة لملاحقة البوليس وحرق السيارتين . غير أن رجال الشرطة قد هربوا تاركين الكلية والهراوات معا . وقدمت عمادة الكلية احتجاجا الى السلطات .
في صبيحة 23 تشرين الثاني بدأت المظاهرة بصورة اكثر تنظيما واقوى معنوية واكبر عددا . ولم يكن رئيس الوزراء العمري متحمسا في استخدام الرصاص بشكل مفرط . جرى الهجوم على المظاهرة بالعصي ورد المتظاهرون وسقط جرحى من رجال الشرطة ومات ضابط منهم ولاذ الآخرون بالفرار . وقف المتظاهرون قليلا أمام مقر حزب الاتحاد الدستوري (حزب نوري السعيد) واخذوا القطعة المعلقة على بابه وعلقوها على باب المبغى العام في الميدان . فاحتجت احدى المومسات مخاطبة من علقوا القطعة :

- نحن مومسات ولسنا خونة للشعب والوطن وليس من الانصاف في شئ ان تساووا بيننا وبين أمثال نوري السعيد.

اتسعت المظاهرة حتى جاوزت الالوف . صبغ المتظاهرون لافتاتهم بدماء زملائهم الجرحى وتابعوا سيرهم . اتصل شاب باحد مسؤولي المظاهرة وطلب منه السماح بان يسير هو وجماعته وراء لافتة خاصة بهم . فاجابه قبل ان يعرف هويته :

- على الرحب والسعة بمشاركتكم تحت لافتاتكم الخاصة.

بعد قليل كان هناك ما يقارب الثلاثين متظاهرا وراء لافتتهم الخاصة . لكن هذه الحالة لم تدم طويلا اذ لم يلبث ان تفرقوا بين المتظاهرين . وبدافع من الفضول حاول المتظاهر المسؤول التعرف على هوية هذه الجماعة واتضح له اهم جماعة عزيز شريف .
في 22 تشرين طلب سكرتير منظمة العاصمة ناصر عبود عقد اجتماع طارئ للجنة في صباح اليوم التالي وأبلغته اني ساحضره . وقد وصلت بيت الاجتماع مارا بجانب مظاهرة جماهيرية كبرى دشنت اليوم الثالث والعشرين . بعد مداولات قصيرة وسط مزاج ثوري متصاعد من لدن الجميع (وكان من بينهم عزيز الشيخ ومحمد العبللي و كامل السامرائي و حيدر حاتم) قلت لهم :

- للأمس كنا نمنع الكوادر من المشاركة في التظاهر باستثناء من كنا نكلفهم بقيادة المظاهرة وتوجيهها . وكنا محقين في ذلك . وكان الغرض صيانة الكادر . واليوم تغيرت الظروف كليا ، بعد ان هبت الجماهير كلها الى الشوارع واصبحت الشوارع نفسها ليس فقط في مسيس الحاجة الى المزيد والمزيد من الكوادر ، بل المكان الاكثر امانا لصيانة الكوادر . اذن فليشارك الجميع ولن يكون هناك أستثناء.

تلقوا هذا التوجيه بسرور وحماس وخرجوا مسرعين كما لو كانوا يذهبون الى لقاء أعز ما يملكون . كثر القادة للمظاهرات الشعبية المتسعة . بقيت بنفسي في الشارع ايضا ، متنقلا على الآرصفة بين الحشود المتظاهرة التي لم تعد تنحسر في شارع معين أوحي معين . وظللت على صلة مباشرة بعدد من قادة الشارع بتعبير آخر اصبحت قيادة ح.ش.ع كليا في الشارع ، مع الجماهير المحتشدة .
في الضحى اطلق البوليس الرشقات الأولى من النيران على المتظاهرين في ساحة زبيدة . سقط هناك أربعة شهداء ، فضلا عن عدد اكبر من الجرحى . وتكرر اطلاق النار في أماكن اخرى . لكن الحشود الثائرة الساخطة كانت أوسع وأقوى من أن تقمع بهذه السهولة . فالمظاهرات كانت تكبر وتتعاظم بسرعة خيالية .
منذ 22 تشرين ظهرت هتافات في الشوارع بسقوط النظام الملكي . لكن مجازر اليوم دفعت شعار اسقاط الملكية نفسها في المقدمة وجعلته يطغي على سائر الشعارات لدى جميع المتظاهرين . وكان ذلك الانعكاس الطبيعي لما قد اثبت في برنامج الحزب المعدل منذ أوائل 1952 ، الداعي الى اسقاط الملكية واقامة حكم جمهوري شعبي .
أظن ان مصطفى العمري لم يكن بطبيعته من غلاة الشرسين بين أفراد الطبقة الحاكمة الرئيسيين . ربما كان يفضل استخدام الهراوات من قبل الشرطة ، بدل الاسلحة النارية ، ضد المتظاهرين . وحين اتضح له أن ليس بمقدور وزارته السيطرة على الموقف المتفجر من دون المغالاة في سفك الدماء قدم استقالته في ظهيرة 23 تشرين . الا ان هذه الاستقالة لم تقترن بتنازل جدي لدى البلاط الملكي . فمع نشر الاستقالة أذيع نبأ من راديو بغداد يقول ان جميل المدفعي هو المكلف بتأليف الوزارة الجديدة ـ والمدفعي لم يكن سوى احد اقطاب الفئة الحاكمة المعروفين بولاءهم التام للانطليز . فكان من الطبيعي ان يقترن هذا النبأ بشعار جديد انزلناه الى الشارع فورا : ((تسقط وزارة العميل المدفعي)) وقال الخطباء في المظاهرات ان المدفعي اسوا من العمري وان الشعب لم يقدم الضحايا لكي يستبدل العمري بالمدفعي . فيما كانت هذه الهتافات بسقوط الملكية واقامة الجمهورية تتسع اكثر فاكثر .
جاءني محمد شبر ، وهو يقود احدى المظاهرات الكبرى ، وانا واقف على الرصيف وقال :

- أيها الرفيق ! لنقدم بديلا عن وزارة المدفعي ولا يكفي ان نهتف بسقوطها.

رأيتها فكرة سليمة تماما . لن نسمح باقامة جديدة برئاسة المدفعي . ولكن ماذا بعد ؟ اذن يجب تقديم بديل ملموس : تشكيل وزارة وطنية ائتلافية يكون رئيسها كامل الجادرجي ، وهو رئيس الحزب الوطني الديمقراطي ، ويكون اعضائها من ممثلي الاحزاب الوطنية ومن عناصر المعارضة الوطنية المستقلين امثال الجواهري وعبدالرزاق الشيخلي . واحتفظت لنا فقط بمقعدين وزاريين ، ولكنهما كانا اهم مقعدين : وزارة الدفاع للضابط الشيوعي المفصول سليم الفخري و وزارة الداخلية لنائب رئيس نقابة المحامين المحامي الشيوعي توفيق منير . وكتبت قائمة بالتشكيلة الوزارية الجديدة مع ذكر اسم كل وزير و وزارته ووزعنا نسخا منها . وكان العبللي أول متظاهر مسؤول استلم القائمة وقراها على الجمهور . وخلال ربع ساعة اخذت نسخ القائمة طريقها الى مسؤولي شتى اقسام المظاهرة وقرأت على الحشود المتظاهرة ولقيت الترحيب الحماسي من الجميع .

في الوقت نفسه دعوت عزيز الشيخ ، وكان يقود حشدا من المتظاهرين ، للتحدث اليه وارساله الى كامل الجادرجي . فزاره وابلغه بانه موفد من قيادة ح.ش.ع اليه ليبلغه بان الجماهير الثائرة في الشارع تطالب باسناد منصب رئاسة الوزارة اليه . ونحن الشيوعيين ندعم هذا الطلب ونأمل أن يدعمه الحزب الوطني الديمقراطي وسائر الاحزاب الوطنية أيضا ، لكي نفرضه بجهودنا المشتركة على البلاط . استمع الجادرجي باهتمام الى ما قاله موفدنا ولم يعلق شخصيا بشئ . لكن رئيس تحرير جريدة الاهالي عبداللة عباس قد علق - وأظن أنه عبر بدقة عن رأي الجادرجي :

- ينبغي أن يكون لرئيس الوزارء رايه في اختيار وزرائه ، لا أن يفرضوا عليه فرضا .

كان لقاء عزيز الشيخ مع الجادرجي ثاني لقاء ابان المظاهرات الساخنة اذ كنت قد أوفدت اليه في 22 تشرين الضابط الشيوعي المفصول غضبان السعد حاملا اليه طلبا بالتعاون من اجل تحقيق مطالب الشعب أو المطالب التي وردت في مذكرات احزاب المعارضة الى البلاط . ولم نرسل تحدا الى قادة حزبي الاستقلال والجبهة الشعبية باعتبار أن الجادرجي حلقة الوصل المناسبة بيننا وبين هؤلاء . وفي الواقع كان هذا التجبجب في الصلات مع ذينك الحزبين ضربا من التطرف عندي اذ كان الصحيح أن نوفد ممثلينا الى الجميع مباشرة .

ومن الطرائف ان غضبان السعد قد ابلغ في عصر 23 تشرين ، أي بعد لقاء عزيز مع الجادرجي بسويعات ، بان الأخير لن يقبل بعبدالرزاق الشيخلي وزيرا للخارجية حتى ولو ضرب بالنعال على راسه - وكان الشيخلي قد عين في قائمتنا وزيرا للخارجية .

في 23 تشرين ، وفيما كانت الهبة الجماهيرية في ذروتها ، اجتمع قادة احزاب المعارضة اللبرالية بدعوة من الجادرجي وفي مقره هو . وقيل أن الجادرجي عرض على المجتمعين اصداربيان باسم الاحزاب الوطنية يتضمن التذكير بما أوردته هذه الاحزاب في مذكراتها من مطالب تجاهلتها السلطة حتى كانت النتيجة هذا الانفجار . ومن ثم دعوة السلطة الى تلبية مطالب الشعب وعودة الجمهور الى التزام الهدوء والسكينة . وكان فائق السامرائي احد قادة حزب الاستقلال أول من اجاب بعصبية واضحة :

- ماذا تقول يا ابو رفعت ! من نحن الجالسين هنا لنصدر بيانا للشعب ؟ ينبغي أن نكون واقعيين ونعرف الدور الذي نستطيع أن نلعبه نحن وان يلعبه غيرنا .. انتم ترون أن الجماهير تسير وراء ح.ش.ع وحده . واذا رغبنا في عمل شئ ما فيجب الاتصال أولا مع الشيوعيين .

وأيد آخرون هذا الراي وانتهى الاجتماع دون اصدار اي بيان في تلك الجلسة . وتطورت الاحداث بما لم يمهل هؤلاء لعقد جلسات لاحقة أو اصدار شئ ما .

في ظهيرة 23 تشرين ، واثر مصادمات عنيفة مع الشرطة في عدة أنحاء من العاصعة ، انسحبت قوات الشرطة الى داخل مراكزها اقرارا بالهزيمة وبالعجز عن قمع التمرد الشعبي السلمي . وبقيت الجماهير الثائرة وحدها في الشوارع لبضع ساعات . كانت بغداد تغلي غليانا لم يسبق له مثيل . وكان البغداديون ، الذين لم يفكر الكثيرون منهم ذات يوم في الامور السياسية ولا في المشاركة باية مظاهرة ، متحشدين متحمسين جميعا يهتفون ملء اشداقهم بشعارات ح.ش.ع . وكان الشيوعيون و حدهم الذين يقودون بلا منازع تلك الجماهير . كانت المظاهرات منظمة تنظيما جيدا . ويكفي ، للاستدلال على ذلك : أن يعرف المرء أن جميع ما حدث من المظاهرات الكبرى خلال تلك الايام لم يقترن باي عمل تخريبي او مسئ الى قدسية النضال الوطني الديمقراطي .. فلم تحرق سيارة أو مبنى ولم يكسر زجاج سيارة أو عمارة ولم ينهب من الاسواق الواسعة غير المحروسة حتى ولا ابرة أو غرام من البضائع . لقد شهدت العاصمة حريقين فقط ، وكانا موجهين تحت اشراف الشيوعيين أنفسهم - حرق المركز الثقافي الأمريكي وحرق مركز شرطة باب الشيخ ، كما سيأتي ذكرها .

كان المركز الثقافي الآمريكي في مبنى ذي ثلاث طوابق بشارع الرشيد . وكان مغلقا منذ يومين . ورد الاقتراح بحرقه من شخص لا اعرفه أو من الجماهير ، لكنه كان مجرد اقتراح وتوقف التنفيذ على موافقة ح.ش.ع ، بالأحرى موافقتي الشخصية . وقد وافقت موافقة مشروطة : ((يحرق المركز الثقافي دون حرق المبنى)) . كسروا الأبواب خلال دقائق وبدأوا باخراج ممتلكات المركز عبر الباب او رميها من البلكونات الى وسط الشارع . وبعد قليل ، ووسط الهتافات الصاخبة بسقوط الاستعمار الأمريكي ، شهد شارع الرشيد السنة النيران المتصاعدة . وكانت هناك ، بين المتظاهرين عامة وبين الشبان الشيوعيين بوجه خاص ، قيم واعتبارات خلقية سامية تصون قدسية النضال الثوري من التشويه . لم اسمع ابدا أن يكون شخص ما قد سرق شيئا من تلك الممتلكات او من غيرها . ورأيت بعيني متظاهرا وهو يلقي بقلم حبر باركر (وكان ثمنه في

ذلك الوقت خمسة دنانير) الى النار الملتهبة وآخر يلقي بساعة يدوية اليها بعد أن عرضها على المشاهدين حواليه . كانت النفوس الثائرة تابى اللجوء الى اعمال السرقة والنهب .
لم يكن ضمن برنامج المظاهرات وخطة ح.ش.ع اللجوء الى العنف ولا حرق اي مركز للبوليس . فهي كانت مظاهرة سلمية وكان اقصى ما لجأ اليه المتظاهرون استخدام العصي والحجارة عند تعرضهم لهجوم الشرطة . بيد أن شرطة مركز باب الشيخ تمادت ـ اما بدافع الخوف أو الحقد الشديد على المتظاهرين ـ في استخدام العنف بحق الجماهير وجابهت كل محاولة رامية الى سير المظاهرة عبر شارع غازي برشقات جديدة من الرصاص وبقتل وجرح عدد جديد من الشبان . فاثار ذلك غضب الجماهير الشديد وقام بعض المتظاهرين بحمل صفيحتين من النفط وبالوصول عبر مبان مجاورة لمبنى البوليس . واشعلوا فيه النار . وحتى بعد كل هذه الجرائم من رجال الشرطة وبعد انتصار المتظاهرين الكاسح فان شرطيا منهم قد قتل ، بسبب غبائه وحماقته ، في حين اقام الشيوعيون سياجا لصيانة سائر رجال الشرطة وامرارهم بسلام وانتقاذهم من غضب الجمهور الساخط . واذا قورن ما جرى في بغداد ، اثناء انتفاضة تشرين 1952 ، بما جرى في القاهرة حيث حرقت المدينة على ايدي المتظاهرين في أوائل الخمسينات ، أو بما جرى مرارا في باكستان والهند وغيرها من البلدان ، اتضح للمرء كم كانت تلك المظاهرات منظمة واي دور لعب الشيوعيون في قيادتها وتوجيهها وتجنيبها التورط في المطبات .
كان اندحار الشرطة في شوارع العاصمة ، من جهة ، وفشل المحاولات الرامية الى تهدأة الوضع عن طريق تكليف المدفعي بتشكيل وزارة جديدة ، من جهة اخرى ، قد وضع البلاط والسفير البريطاني وأقطاب النظام الملكي في وضع حرج . وتأتي عليهم اللجوء الى آخر ورقة في ايديهم ، الجيش ، باعتباره الوسيلة الوحيدة لانقاذ النظام من الانهيار . وهكذا انزلت وحدات الجيش المدرعة الى شوارع العاصمة وساحاتها العامة وأعلنت الادارة العرفية العسكرية وعين رئيس اركان الجيش الجنرال نورالدين محمود رئيسا للوزراء ، فيما عين العميد عبدالمطلب الأمين حاكما عسكريا في البلاد وفرض منع التجول من المساء الى الصباح وعطلت 17 جريدة ومجلة وحظرت المظاهرات والتجمعات وسحبت رخص الاحزاب والنقابات وعطلت الدراسة في الكليات والمعاهد ونظمت حملة الملاحقات والاعتقالات .
علي ان اعترف باني لم افكر مسبقا في احتمال امر كهذا ولم اتخذ أي استعداد مسبق لمجابهته . كان شبه الانقلاب وما اقترن به من اجراءات مفاجأة لي . وقد وجدت نفسي فجأة في وضع مغاير تماما . ولم تكن لدي ، في أول الأمر ، فكرة عما يجب عمله ازاء انزال القوات المسلحة الى الشوارع . لكن السويعات أو الدقائق الاولى علمتني شيئا جديدا : تجب المبادرة الى اتخاذ موقف ودي وتحريضي تجاه العسكريين المتواجدين في الشوارع . لو كانت لنا خلايا حزبية ، خصوصا بين الضباط ، لامكن لنا التعامل مع الوضع بشكل آخر . ولكننا لم نملك شيئا من هذه الخلايا ولم يكن أمامنا اي خيار سوى السعي من اجل كسب الجيش الى جانب الجماهير أو من اجل تحييده . ولهذا الغرض بادرنا الى اطلاق شعارات وهتافات جديدة في الشارع : عاشق أخوة الجيش والشعب وعاش تضامن الجيش والشعب ضد الاستمعار والرجعية : وسرعان ماسرت هذه الشعارات بين المتظاهرين وتحولت الى هتافهم الرئيسي .
في الوقت نفسه توجهت مسرعا الى بيت مطبعتنا السرية ، حيث كان صبيح سباهي مرابطا تحت الانذار . وجلست لاتكلم شفهيا ـ اذ لم يتسن لي كتابة شئ مسبقا ـ وليطبع بدوره على الستانسل ما اتفوه به . وبسرعة قياسية طبعنا النداء الصادر من ح.ش.ع الى الجنود والضباط الشرفاء . وتركت صبيح ليحمل بعدئذ الآف النسخ في صندوق دراجته الخشبي الى محطة التوزيع ومن هناك الى الشوارع . سلمت نسخ منه مباشرة الى الجنود والضباط فوق دباباتهم وسياراتهم . وصعدت رفيقات ورفاق العربات العسكرية ليقرأوا من هناك نص النداء للجمهور . وأعتقد ان النداء كان موضع الاتياح والترحيب من أغلبيتهم الساحقة ، ان لم يكن من جميعهم . وصفق الكثيرون من العسكريين مع المتظاهرين لكلمات النداء الحماسية ودعواته الى تضامن الجيش مع الشعب ضد الاستعمار وأعوانه المحليين .
طيلة ساعات ما بعد الظهر وحتى ساعة متاخرة من الليل استمرت المظاهرات دون ان تتعرض لها الوحدات العسكرية المرابطة في الشوارع . معنى ذلك أننا نجحنا في تحييد الجيش ، وان لم نفلح في كسبه الى جانب الجماهير المنتفضة . وكان ذلك مبعث قلق شديد للخصوم وتهديدا جديا للنظام والمصالح الامبريالية في العراق . وتأتى على هؤلاء ان يفكروا جديا بخطة جديدة تضمن استخدام الجيش فعليا ضد الجماهير المتمردة . وقد لجأ الخصم ، كما اوضحت الوقاءع ، الى الاجراءات التالية :

- القيام باوسع حملة من الاعتقالات ومداهمات البيوت ليلية 24/23 تشرين ليس فقط بين الشيوعيين ، بل بين جميع معارضي السلطة على اختلاف الوانهم ، على ان تستمر الحملة في نهار 24 وفي الفترة اللاحقة .

3ـ فرز وتهياة وحدات أو مجموعات من العسكريين ، بالأخص من الضباط المخلصين للنظام والمستعدين لتنفيذ الوامر ، لكي يعهد اليهم بمهمة قمع القلاقل ، عن طريق العنف الدموي ، اي اغراق المظاهرات في الدماء في حالة تجددها يوم 24/ تشرين
.
أعتقل الكثيرون في تلك الليلة . لكن كوادرنا الحزبية كانت قد نبهت لكي تحتاط وتترك بيوتها . ولم يقع احد منهم في قبضة البوليس . وفي صبيحة 24 تشرين تجددت المظاهرات بسعة قاربت سعة اليوم السابق . وتحت اشراف الحاكم العسكري المباشر عبدالمطلب الأمين اطلق الجنود الرصاص على المظاهرة قرب وزارة الدفاع ، أولا ، وسقط قتلى وجرحى واصطبغت اللافتات بدمائهم . غير أن الجماهير العزلاء لم تستسلم ، بل تحدت العدو المدجج بالسلاح . ورغم تكرار اطلاق

النار ورغم استمرار الاعتقالات في الشوارع ، فان الجمهور ظل هائجا ومانجا طيلة النهار والى ساعة متأخرة من المساء . لكن بوارد الهبوط المعنوي كانت تلاحظ بين الناس وتركت عمليات القتل والاعتقال الواسع أثرها على الوضع لصالح السلطة . وفقدت وحدات عسكرية معينة حيادها ، بخلاف ماكان في الأمس ، وانحازت الى سياسة القمع والتنكيل بالجماهير . وانعدمت امكانية تجديد المظاهرات في 25 تشرين .

اعتقلت وزارة نورالدين محمود العسكرية عشرات الالوف من الناس ، بينهم جميع قادة الاحزاب البرجوازية الوطنية المعارضة للنظام . كان بين المعتلقين عدد من كوادر الحزب امثال عزيز الشيخ ومحمد شبر وحمدي أيوب وغضبان السعد وحيدر حاتم وكثيرين غيرهم .

وفي معتقل ابوغريب التقى الجادرجي مع عزيز الشيخ ، احدهما يعود من التواليت الى زنزانته والأخر يذهب من الزنزانة الى التواليت ، فبادر عزيز الى تحية الزعيم الوطني ورد الأخير قائلا :

- دعنا الآن من التحايا يا عزيز ! قل لي هل افلحت السلطة في اعتقال قيادتكم؟
- كلا لم تفلح .. قيادتنا في خير وسلام .
- هذا مبعث سروري وسنخرج جميعا من السجن مادامت قيادتكم سالمة.

كانت هذه الكلمات من الجادرجي اعترافا بحقيقة الدور الذي لعبه ح.ش.ع في حياة البلاد السياسية ، وبالاخص في جبهة المعارضة الوطنية ضد الاستعمار والنظام الملكي ، في تلك الفترات من تاريخ العراق .

كان اسلوب العنف ضد الجماهير هو الشئ الرئيسي المعتمد عليه من قبل السلطة . ومع ذلك مارست السلطة ـ الوزارة الجديدة ـ شيئا من المناورة والخداع بهدف ترضية تاناس . وكان اهم شئ بهذا الصدد اصدار مرسوم الغي بموجبه قانون الانتخابات البرلمانية القديم واقر حق الانتخاب المباشر بدلا من الانتخابات على مرحلتين . وفي محاولاته لاظهار نفسه كرجل مهتم بمشاكل الفقراء اصدر رئيس الوزراء قائمة بتسعير عدد من الخضراوات والمواد الغذائية . وسخر منه مواطن من الناصرية اذ ارسل اليه البرقية التالية (واظن أن احدى الصحف قد نشرتها) :

- تسعيركم للشلغم اثلج صدورنا . سيروا على بركة اللة ونحن وراءكم.

ةبرغم الاحكام العرفية والاعتقالات والارهاب بقي لدى الناس قدر من روح التحدي والمعنوية العالية وبقيت السلطة تشعر بضعفها وعزلتها . ولعب استمرار نشرنا الحزبي السري المكثف دوره في ذلك .

بعد الانتفاضة بايام كنت قد كتبت كراسة صغيرة مكرسة لتناولها . ويتعذر علي الآن اعطاء تقييم لتلك الكراسة ، التي لم أرها بعد صدورها في 952 وحتى يومنا هذا . غير انني اتذكر انه كانت هناك مآخذ عليها أو على بعض نقاطها من لدن بعض السجناء في سجن بغداد . ومن المرجح ان تحليلاتي للوضع في ذلك الوقت كانت تستند الى خليط من المسائل الواقعية ومن الأفكار العقائدية الجامدة المأخوذة من الكتب ، على الاقل بالنسبة لبعض الأمور .

اصبح المطلب الاساسي للانتفاضة اقامة وزارة وطنية أئتلافية برئاسة الجادرجي . معنى ذلك اننا لم نطرح شعار الاشتراكية كهدف مباشر ولم نطلب انفراد الحزب الشيوعي بالحكم . وبعد أن اخفقت الانتفاضة في تحقيق هذا الهدف بقينا متمسكين بذات السياسة المتبعة قبل الانتفاضة ورفعنا شعار اسقاط وزارة نوالدين محمود العسكرية الدكتاتورية . وركزنا بوجه خاص على المطالبة باطلاق سراح المعتقلين السياسيين من ضحايا الانتفاضة والارهاب . وقد رفضت السلطات ، كعادتها من قبل ، اعتبار هؤلاء موقوفين سياسيين ـ باستثناء مسؤولي الاحزاب البرجوازية الوطنية . ولكنها اضطرت ، تحت ضغط الاحتجاجات الواسعة والتهديد بالاضراب عن الطعام ، الى التنازل والتعامل مع الشيوعيين ايضا كموقوفين سياسيين .

لم يسحق الارهاب في ظروف الادارة العرفية روح التحدي والمقاومة لدى الجماهير . وبقي بين الطلاب بوجه خاص قدر كبير من الاستعداد للنضال ضد السلطة . وبمبادرة من قيادة اتحاد الطلبة العام تكون وفد طلابي من (150) طالبا جامعيا منتسبين الى مختلف الكليات والمعاهد لمراجعة الوزارات في شبه تظاهرة مطالبة باطلاق سراح زملائهم الموقوفين . واقترح بعض الطلاب الشيوعيين القيام بمظاهرات . لكني وقفت ضد ذلك معتبرا اياه نهجا انعزاليا وتطرفا يساريا قد ينتهي بانزال ضربة جديدة بتنظيماتنا .

في آذار 1953 تمكنت الشرطة من اعتقال زوجتي مادلين اثناء ماكانت ذاهبة الى موعد حزبي . تركت الدار ، التي كنا نعيش فيها ، لحين انتهاء التحقيق معها والحكم عليها بالسجن ووصولها الى سجن بغداد النسائي . كانت صامدة ولم تبد أي ضعف في التحقيق . حكم عليها بالسجن سبع سنوات . وكانت حبلى . وعند العودة الى الدار اضطررت الى أخذ العجوز الطيبة والدة عثمان خوشناو لتعيش معنا وتطبخ لنا الطعام في البيت . وكانت معها حفيدتها الطفلة سعاد ابنة كريم احمد .

****

على اثر فشل الانتفاضة وبعد تبيان وجهات نظري حول الاحداث بدت أولى بوادر الخلافات الفكرية بيني وبين البعض من السجناء الشيوعيين في سجن بغداد وتجلى ذلك في رسائل متبادلة . ولم يكن لهذه الخلافات صدى يذكر في سجن نقرة سلمان والكوت . وفي سجن بغداد نفسه كانت الاغلبية الساحقة معنا ، بعيدا عن أي خلاف فكري . وكان السجين الشيوعي عزيز محمد على رأس العناصر المخالفة في السجن . واظن ان السجين الشيوعي اليهودي ابراهيم شاؤول كان المهندس الفكري

والموجه النظري ـ على حد تعبير سليم الجلبي وصادق الفلاحي اللذين كانا آنئذ في السجن ـ للخلافات الفكرية . وكان جمال الحيدري منجرفا وراء المخالفين ، رغم ان منطلقاته الفكرية كانت مغايرة لمنطلقات عزيز وشاؤول .
الشئ الاكيد ، الذي كان مثار الخلاف ، انما هو شعار اسقاط الملكية واقامة النظام الجمهوري الشعبي ، الذي تضمنه برنامجنا المعدل والذي كان قد وجد التعبير عن نفسه في مظاهرات تشرين 1952 . والمسألة الثانية ، التي اعترتض عليها هؤلاء ، كانت سياستنا في ميدان المحالفات . كانوا يعتبرون سياستنا يسارية متطرفة ازاء الاحزاب البرجوازية الوطنية . وقد كتب الينا مخلص (وهو الاسم المستعار لعزيز محمد في ذلك الحين) رسالة مطولة تضمنت كامل اعتراضاتهم وخلافاتهم . وأجبت عليها برسالة (عممت داخليا في وقت لاحق) رافضا منطلقاته ومعتبرا اياها انتهازية يمينية ، خصوصا بالنسبة للموقف من شعار الجمهورية الشعبية ومن قضية التحالف مع الاحزاب البرجوازية الوطنية . واعتقد الآن انني كنت على حق بالنسبة للموقف من الملكية ، وهو كان مخطئا ، في حين كانت الحقيقة ضائعة بين يساريتي وبين يمينيته هو بالنسبة لموقفنا من المحالفات . وعلى أي حال فاني عاجز الآن عن اعطاء تقييم دقيق لرسالته ولرسالتي الجوابية ، خاصة وأنا لم اطلع على أي من الرسالتين منذ أن اعتقلت في 1953 .
شهدت سجون العراق الشيوعية قبلئذ انشقاقات وانقلابات تنظيمية داخلية بين السجناء انفسهم . ولم نصبح نحن خارج السجون طرفا في أي منها . ولم اتصور ان الخلافات بيننا وبين هؤلاء يمكن أن تصل حد الانشقاق ، خاصة وانهم كانوا اقلية ضئيلة حتى في سجن بغداد. ولم يكن لهم مؤيدون في السجون الأخرى . وقد دخلت واياهم في مراسلات ومناقشات طويلة ـ حسب مستواي ومستواهم في ذلك الوقت . وأعتقد انني اظهرت قدرا من المرونة العملية تجاههم بدليل انني ارسلت لهم رسالة اسندت فيها مسؤولية التنظيم الحزبي في سجن بغداد الى عزيز محمد ، رغم ان الخلافات الفكرية بيننا كانت محتدمة ورغم وجود سليم الجلبي وصادق الفلاحي في السجن ـ وكانا عضوين في لجنة الحزب المركزية التي كنت قد شكلتها . غير ان عزيز رفض قبول هذه المسؤولية وفضل البقاء في صف المعارضين السجناء .
لااستطيع الدفاع عن مواقف الجلبي والفلاحي كما لاأملك ما أدينهما به في تعقيد الامور ودفعها نحو الانشقاق . لكن حادثا واحدا على الاقل ألقى ظلال الشك على ان الفريق المعارض من السجناء كان يخطط للانشقاق مسبقا . ذلك ان مسؤول منظمة النجف الحزبية عبدالأمير الخياط ، الذي سجن في تلك الأيام لفترة معينة وخرج من السجن قبل الانشقاق ، كان قد هيأ كل شئ في مدينته لاستقبال ودعم الانشقاق . وأظن انه اتفق معهم على ذلك قبل خروجه من السجن وربما كان موقفه الموالي لهم احمد عوامل التشجيع على الانشقاق .
في آذار 1953 تطورت الخلافات الى حدوث انشاق تنظيمي . وقف عدد قليل مع الفريق المنشق فيما وقفت الغالبية الساحقة مع الجلبي والفلاحي . وعلي الاعتراف بأن الانشقاق كان مفاجأة نوعاً ما بالنسبة الى شخصيا . وقد اتخذت موقفا متسرعا وخاطئا . كان علي التروي وبذل الجهود لرأب الصدع وتأجيل التحيز الى أي طرف ـ وكان ذلك ممكنا بالطبع في تلك الظروف . لكنني لجأت الى سكين العملية والبتر ، أي الطرد الفوري للفريق المنشق من صفوف الحزب .
وبالنظر الى مستوى الوعي والتجربة المنخفض عندنا ، نحن والمنشقين ، كان من الطبيعي أن يجري الصراع بأساليب خاطئة ، على الاقل من بعض الاوجه . وكانت المشكلة الرئيسية ، ان لم اقل الوحيدة ، هي انضمام النجف الى الانشقاق . ووقف اثنان من شيوعيي النجف ضد المنشقين هما محمد أبوكاله وغازي شريف . وباستثناء النجف لم تنضم أية منظمة اخرى خارج سجن بغداد . ورتبنا في نيسان 1953 محاولة لاسترجاع منظمة النجف ، فاصدرنا نداء الى شيوعيي النجف ـ مدينة حسين الشبيبي ـ مهيبين بهم للعودة الى صفوف الحزب . حمل عضو اللجنة المركزية للحزب ناصر عبود نسخ هذا النداء وتوجه الى النجف بمعنوية عالية كي يقيم في بيت ابوكالة ويخوض الصراع ضد المنشقين . وبعد سفره بيومين جرى اعتقالي في بغداد ولم اعرف مدى نجاح ناصر في مهمته تلك .
كنت معتقلا حين تمكن جمال الحيدري ، الذي كان ضمن الفريف المنشق ، من الهروب اثناء نقله من السجن الى احدى المستشفيات . ويبدو أنه توجه الى النجف ، بعد هروبه ، مستفيدا من وجود منظمتها الى جانبهم . وأصبح المسؤول الأول لتنظيم الجماعة الانشقاقية خارج السجون . وأظن أن الحيدري لم ينجرف وراء الفريق المنشق بدافع الانسجام الفكري مع عزيز محمد وابراهيم شاؤول . بل يمكن القول انه كان على طرفي نقيض معهما . ربما انجرف بدافع قلة التجربة أو لأي سبب شخصي . واتضحت هذه الحقيقة بعد ان اصبح على رأس تنظيمهم خارج السجن وبعد أن اصبح متحررا من رقابة عزيز الفكرية عليه فاصدر النشرة الناطقة بلسان منظمته (راية الشغيلة) كاشفا فيها عن نزعة التطرف اليساري . وفي وقت لاحق اتهم خصومه الشيوعيين ـ ح.ش.ع ـ بالانحراف اليميني وخيانة قضية الشيوعية بسبب عقدهم جبهة انتخابية مع الأحزاب البرجوازية المعارضة وموافقتهم على التعاون مع حزب الاستقلال (عام 1954) .
منذ أن اعتقلت في نيسان 1953 غدوت بعيدا عن الصراع المباشر مع المنشقين . وفي سجن نقرة سلمان ، في وقت لاحق ، قرأت بعض منشوراتهم ومنشورات الحزب ضدهم ووجدت أن كريم احمد نعتهم بـ ((راية البلاط)) اشارة الى وقوفهم ضد شعار اسقاط الملكية .
****

كان سكرتير منظمة البصرة قد أرسل الينا رسالة يخبرنا فيها عن ان الاستعدادات تتخض لاعلان اضراب شامل بين عمال الميناء (أو النفط) ، وهو يطلب رأينا فيما يفعل . ونظرا لاهمية المسألة أوفدت كريم احمد الى هناك للاطلاع المباشر على الوضع ودراسة مايجب عمله بغية تقرير الاضراب ودعمه أو العدول عنه . وبسبب اعتقالي قبل عودته الى بغداد لم اعراف نتائج زيارته وتقديراته .

****

من طرائف نيسان 1953 كان الهروب الذي دبرناه لثلاثة من رفاقنا السجناء في سجن بغداد ـ وهم صادق الفلاحي وسليم الجلبي وحمدي ايوب . كأن ذلك بعد الانشقاق بفترة قصيرة . وكانت خطة التهريب على الوجه التالي : اثناء المواجهة الاسبوعية للسجناء الشيوعيين ادخلنا الى السجن ثلاثة من شباننا الموثوقين (كان بينهم ابراهيم الحريري) واوصيناهم بالبقاء في السجن لمدة اسبوع ، مع الحذر واليقظة . جرى ذلك بالاتفاق مع رفاقنا في السجن . وخرج السجناء الثلاثة المقرر هروبهم في نفس المواجهة ، بعد تبديل أشكالهم بالصورة المناسبة . وقد نفذ الشبان الثلاثة المهمة الموكلة اليهم بحماس ودون اي اعتراض . واستقبل الهاربون واخذوا الى بيوت الاختفاء . وفي مواجهة الاسبوع التالي تحول شباننا الثلاثة من سجناء الى مواجهين واختلطوا بالعوائل للخروج عند انتهاء المواجهة . كانت العادة تعداد السجناء قبل خروج المواجهين . فاكتشف أمر هروب الثلاثة واجري تدقيق شامل لهويات واشخاص المواجهين فرداً فرداً قبل ان يخلى سبيلهم . سجل تقرير الشرطة ان هروب السجناء قد حدث في الليلة الفائتة وبطريقة غير معروفة لدى السلطات . ولم يخطر ببال احد انهم هربوا قبل اسبوع كامل وبتلك الطريقة المذكورة آنفا .

فرقنا الرفاق الهاربين ليعيش كل في بيت . وبعد ايام وصلني خبر مفاده ان البيت الذي يسكنه الفلاحي مراقب ومعرض للمداهمة . فأوصيت بخروجه من هناك فورا وبادرت الى جلبه لمسكني باعتباره احد اعضاء اللجنة المركزية الموثوقين . ولم اعرف انني اجلبه لكي يعتقل معي بعيد ذلك ، قبل ان يستمتع بهروبه .

8
وراء القضبان

كنت قد انتقلت الى تلك الدار القريبة من ضريح أبي حنيفة في شباط 1953 ولم اكمل فيها الشهر الثالث. فبعد حوالي الشهر قبض على زوجتي. وبعد ذلك باسابيع دوهمت الدار وقبض علينا ايضا، أنا والفلاحي وباقرجعفر، العامل الامي الشاب الذي كانت مهمته تقتصر على فتح الباب لمن يدقه وشراء الصحف والحاجات اليومية من السوق. وهو لم يكن كادرا حزبيا ولا وجها شيوعيا معروفا. واعتقلت معنا كذلك العجوز أم عثمان وحفيدتها الصغيرة سعاد البالغة من العمر اربع سنوات.

كنت في ذلك اليوم، الثالث عشر من نيسان 1953، على موعد مع هادي صالح، الذي كان واحدا من اربعة رفاق يعرفون بيتي، في تمام الحادية عشر قبل الظهر. كان المفروض ان يجلب لي رسالة من سكرتير منظمة بغداد في ذلك الوقت رشيد العارف. لم تكن لي ثقة قوية برشيد شخصيا . وكانت صلته مع ناصر عبود. وبعد سفر الاخير الى النجف ارتبط معي عن طريق المراسلة. كنت اتمشى في صالة الدار الصغيرة عندما طرق سمعي دقة واحدة على الباب. فتحته ظنا بأن الطارق هادي . وفوجئت بحشد صغير من الوجوه الغريبة المثيرة للشكوك.كان بينهم ضابط بوليس واحد مرتد ملابسه العسكرية ورجل مسن يلف على رأسه كشيدة دالة على انه زار الكعبة وحصل على لقب الحاج ويلبس عباءة فوق صايته البغدادية القديمة .عرفته جيدا لذا كان مختار المحلة وفي الوقت نفسه كان دلال العقارات . وكان الاخرون "افندية" في بدلاتهم المدنية، وكلهم شبان.ايقنت منذ النظرة الاولى انهم قادمون لكبس الدار ولاعتقالنا. قمت بحركة خاطفة سعيا لغلق الباب في وجوههم بأمل ان اكسب بعض الوقت لاهرب مع زميلي صادق وباقر. لكن بعضهم كان متهيأ ليسفد علي محاولة غلق الباب ، فدفعوه واقتحموا الدار. هربت عبر الممر الداخلي والصالة لعلني اخرج من باب خلفي يوصلني الى فسحة صغيرة يفصل بينها وبين حديقة الدار المجاورة من الخلف سياج يقارب ارتفاعه المتر ونصف المتر. لو امكن لي عبور هذا السياج لتوفرت لدي فرصة مناسبة للهروب. وقد اطلقوا علي الرصاص وأنا اهرب داخل الدار، ولم اصب. تسلقت السياج وكدت اطفر الى حديقة الجار. لكن احدهم امسك برجلي في اللحظة الاخيرة الحاسمة وسحبني الى الوراء. فسقطت ووقعت في قبضتهم. سحبوني الى داخل الغرفة، التي كان يجلس فيها الفلاحي وباقر. بدأوايكيلون لنا السباب والضرب، هم عشرة مسلحين ونحن ثلاثة عزل، مع " الراشديات" والركلات كانوا يسألون بالحاح وتكرار:

- ولك انت منو؟ ولك من اين؟

لم تكن المعركة متكافئة اذ هي تجري داخل غرفة صغيرة وبين عشرة مسلحين بالمسدسات وممثلين للسلطة الحاكمة، من جهة ، وثلاثة عزل عن السلاح وهاربين من السلطة. من جهة اخرى . كان بمستطاعنا ان نرد فقط بالسنتنا وبكلمات السب والاهانة. كنا نصرخ في وجوههم:

- انذال! مجرمين ! فاشست!

نزف الدم من انوفنا ولطخنا قبل ان يتوقفوا عن ضربنا. كانوا يواصلون الضرب لاكثر من عشر دقائق ، مع تكرار الاسئلة، الى ان قال احدهم بلهجة آمرية:

- بس !كافي ! اوقفوا الضرب !

لم يكونوا متأكدين من ان الدار التي داهموها وكر حزبي سري. انما كان مجرد شك. وبعد ايقاف الضرب فتح احدهم حقيبة موجودة في ركن الغرفة ووقع نظره على بعض المنشورات الشيوعية فصاح فرحا:

- الان تأكدنا من انه بيت شيوعي.

لكنهم لم يعرفونا ولم يكفوا عن السؤال نفسه: " ولك انت منو" .وركز احدهم على وجه الفلاحي لبعض الوقت ثم هتف:

- ولك هذا معميلنا العتيق صادق الفلاحي ! شوفوا صابغ شعره حتي مانعرفه.

اوعز آمر المفرزة الى احدهم كي يذهب ويخابر تلفونيا الرجل الثاني في الامن العام نايل عيسى ويحيطه علما بما حدث . وأمر الاخرين في الغرفة:

- هيا فتشوا البيت !

اول ماخطر على بالي هو خطورة اقامة كمين في البيت للقبض على الرفاق القادمين اليه، وهم هادي صالح وكامل السامرائي وناصر عبود وكريم احمد. قررت بذل الجهد من اجل اطالة التفتيش لعل ذلك يكسب لنا الوقت حتى ينتشر نبأ مداهمة الدار فيصل الخبر الى مسامع الجميع ولا يقترب الرفاق عن الدار. طالبت باسم القانون باجراء التفتيش وفق الاصول القانونية .كنت اعرف ان معهم مختار الحي. فطلبت احضار ممثل الادارة العرفية بحجة ان البلاد تعيش في ظروف الاحكام العرفية . لم يعترضوا على الطلب ، بل امر احدهم بالذهاب لجلب ممثل الادارة العرفية وفيما كنا ننتظر اقترب مني الضابط الموجود بينهم بملابسه البوليسية وأخرج من جيبه صورة قديمة لي أخذت قبل ان ينبت في وجهي الشعر وسألني:

- اليست هذه صورتك؟ الست صاحبها؟

لم انف ولم اؤكد له. انما اجبته بأني سأوضح الامور امام حاكم التحقيق فقال:

- اذا كنت صاحب هذه الصورة فاذكر اسمك لكي يحترموك.

قبل ان اجيب دخل ضابط برتبة مقدم واعلن:

- انا ممثل الادارة العرفية وجئت لاشرف على التفتيش.

اعترضت من جديد قائلا:

- اذا اردتم اجراء تفتيش قانوني فأن من الملزم احضار حاكم التحقيق ايضا . اطلب منكم التمسك بالقانون.
- حسنا. اذهبوا واستدعوا حاكم التحقيق ايضا.

خرج احدهم وعاد بعد اقل من ربع ساعة بصحبة رجل اسمر انيق الهندام مربوع عبوس الوجه. واعلن ان هذا هو الحاكم محمد احمد العمر (كان يتردد اسمه احيانا بين معارضي النظام اللبراليين).

- هل استطيع التوثق من ان حضرتك حاكم فعلا؟ هل يمكن التعرف على هويتك؟ - سألته. اصبح الرجل عصبيا فورا اذ اعتبر سؤالي بمثابة اهانة كبيرة موجهة اليه. وأجاب بصورة استفزازية:
- ولك انضب.

لم ادخل في مشادة كلامية مع هذا الحاكم الاحمق، الذي كان يجسد البيروقراطية والمنهجية لدى فئة كبيرة من الموظفين الكبار في جهاز الحكم . انما طلبت فرز وعد الاوراق والنشرات وسائر المستمسكات قطعة بعد قطعة وتثبيت ذلك في المحظر لكي لايدس البعض بعدئذ مايروق له بين الاشياء الموجودة وينسبه فيما بعد الينا. استجيب أول الامر لطلبي.وبعد ربع ساعة ادركوا ان التفتيش على هذه الطريقة سيطول يومين كاملين .فعدلوا عن هذا الاسلوب واوجزوا: حقيبة في داخلها نشرات ومستمسكات شيوعية. وبعد انقضاء حوالي الساعتين على كبس الدار نقلونا كل في سيارة الى دائرة الامن العام.ومنذ خروجي من البيت لم يسمح لي بأن ارى احدا من رفيقي. واعتقلت العجوز ام عثمان مع حفيدتها الطفلة.

في دائرة الامن العام اعلنت انني بهاءالدين نوري وأنني مناضل شيوعي وأن الشخصين اللذين اعتقلا معي في الدار هما شيوعيان ايضا.

اخذت اولا الى مكتب مدير الامن العام بهجت العطية،الرجل الاسمر متوسط القامة الهادىء بعض الشىء. جلست هناك وتأتي على خوض أول جولة من المناقشات . كان اهتمامه منصبا. قبل كل شيء، على مسألة صفتي الحزبية .كانت لديه شكوك قوية قبل اعتقالي، بأني سكرتير الحزب ،ولكن ربما لم يكن لديه اليقين. فسألني:

- الست سكرتير ح ش ع الملقب بباسم؟
- كلا لست سكرتيرا للحزب. أنا عضو في الحزب ولست سكرتيرا.

وقد قررت الثبات على هذه الاجابة حتى النهاية وأن ادافع صراحة وبقوة عن الشيوعية وعن الحزب. ووجدت المدير العام محاججا في كلامه وحاول ان يكون منطقيا . ولم يستعمل كلمات مهينة ولا تهديدات . وقد قال انه كان زميلا لفهد في المدرسة الابتدائية وأنه نصحه، بعد القبض عليه في 1947 ، لكي يفكر ويندم على مافعل ، لكي لايتعرض لعقوبات قانونية قاسية... وأن فهد لم يسمع نصائحه الى ان حدث له ماحدث. كانت هذه الكلمات موجهة الي بالطبع لغرض تخويفي وحملي الاعتراف كي انقذ رقبتي مر حبل المشنقة. وكان هذا الحبل غير غير مخيف لي.

بعد خروجي من غرفة المدير العام اخذوني الى غرفة مساعده نايل عيسى ذي الكرش الكبير، الذي كان يعبر عن نوع من البلاهة الفلاحية تكررت هناك الاسئلة نفسها والمناقشات نفسها تقريبا. وبعد خروجي من مكتب نايل اوقفوني في ممر ، بجانب

ديلاب كان قد نقل من دارنا المكبوسة ، واخذوني لي الصورة الاولى قبل ان يزجوني في زنزانتي الرطبة.حيث وضعوا في يدي القيود وربطوها بقيد مثبت وسط الزنزانة . ولم يلبث ان اخرجوني مرة اخرى الى احدى الغرف حيث كان يجلس ضابط برتبة مقدم وقدم نفسه قائلا:

- أنا المعاون السياسي لقائد الادارة العرفية المقدم صالح مهدي السامرائي.

اظن انه كان احد الضباط الرئيسيين في جهاز الاستخبارات العسكرية ، الذي كان على علاقة وثيقة مع المخابرات البريطانية. كان هو الاخر راغبا في ان يناقشني ويسمعني، تكررت الاحاديث نفسها. وكان هذا الضابط هادئا ولم يلجأ الى التهديد والسب. واعدت بعدئذ الى زنزانتي لأقيد كالسابق ومن دون اعطائي أي فراش أو غطاء. وابلغوني أن مفوظ بوليس سيكون موجودا بصورة دائمة امام باب الزنزانة ويمكنني الاتصال به وطلب ما أريد. قدرت ان هذا الاجراء يهدف الى احكام الحراسة علي ومنع أي محاولة للهروب. كانوا يخشون من امكانات ح ش ع الواسعة بفضل صلة الوثيقة بالشعب .

كان الظلام قد حل على بغداد حين فتح باب زنزانتي ودخل شرطيان بملابسهما الرسمية وقالا انهما امرا بالنوم ليلا في نفس الغرفة. كان احدهما – سعيد – رجلا كهلا متوسط القامة وممتليء الجسم، تدل ملاحمه الظاهرية على انه رجل لا أبالي وغبي ولم يصبح شرطيا الا لكي يعيش .وكان الثاني – كاسب أو ضاسب- شابا طويل القامة رشيقها باسم الوجه وبسيطا بساطة فلاح عراقي لم تفسده بعد الاخلاق البرجوازية . ولم يصدف ان يحاول سعيد التحدث الي، بعكس كاسب، الذي كان يبحث عن أي مناسبة ليبادلني الحديث. وفي مساء اليوم التالي جائني كاسب قبل زميله بساعة كاملة. كان واضحا انه يبحث عن فرصة للتحدث الي. ذكر لي انه ابن فلاح من ريف العمارة ويعيش مع اهله في احدى الصرائف . واعلمته انني ايضا من القرية اصلا وهجرت عائلتي الى المدينة وأنا صبي، وأني اصبحت شيوعيا بعد ان كبرت ورأيت الظلم والاستغلال .وقال انه شهد في هذه الدائرة الكثير من المرارة والتعذيب وأنه رأى منبيين الشيوعيين من لم يصمد ولم يبيض الوجه ، بل انهار ، واعترف على زملائه .. كما رأى آخرين صمدوا رغم قساوة التعذيب. وأشاد بصورة خاصة بحميد عثمان الذي اعتقل في حزيران 1949 وصمد صمود الابطال . أجبته:

- من يصبح شيوعيا بملء ارادته ينبغي ان يتحمل العواقب ويصمد.
- هل تستطيع الصمود حتى النهاية؟
- لن اخون رفاقي ولن ابوح باسرار الحزب حتى اذا مزقوني قطعا تحت التعذيب.

نظر كاسب في وجهي كما لو يراني لتوه ولم يقل شيأ بل نهض من مكانه في ركن الزنزانة واقترب مني وقبلني من جبيني قبلة حب وتقدير.

ثم عاد الى مكانه دون ان يتفوه بحرف واحد. كان وجهه يعكس صدق تعاطفه وطيبته. اقنعني ذلك بأني ازاء انسان طيب بعيد عن ان يكون مدسوسا علي ومكلفا بمهمة استخبارية . وسألني:

- ماالذي تحتاج لاجلبه لك مساء الغد؟

فقط احتاج جريدة يا كاسب!

- هذا خطر كبير. اذا علموا بذلك حكموا علي بالسجن سنتين.
- اذن لاداعي ولست بحاجة الى اي شيء ، مع شكري وتقديري.

عندما اتى في مساء اليوم التالي اخرج من جيبه الجريدة مع موزة وبرتقالة وعبثا حاولت اقناعه باستلام ثمنها. فقد رفض استلام النقود مني بشكل قاطع. وكرر ذلك في الايام التالية ايضا بصورة مجانية رغم شحة دخله. وكان نفسه أول من تحدث الي عن توقيف كامل السامرائي.

كان كامل عضو لجنة بغداد الحزبية وكان صديقي ومعلمي في السياقة . وكانت والدته واخواته نساءا جيدات ومشجعات له على النضال.

وقد حضر .الى بيتي قبل مداهمته بساعة واحدة وأخذ سيارتي العتيقةالصغيرة لاجراء بعض التصليحات لدى بعض المكانيكيين، على ان يعيدها الي في الظهر او بعيدها. ويبدو انه اعاد السيارة ووقع في الكمين المنصوب له داخل الدار. وقبض عليه مع السيارة، التي كنت قد اشتريتها منذ اربعة اشهر لقاء مئة وعشرين دينارا. سألت صديقي الشرطي كاسب:

- ماذا لديك من المعلومات عن زملائي الموقوفين الثلاثة؟ هل يعذبون؟ هل اعترف أي منهم؟
- أنا لم ار مباشرة أيا منهم ولا أستطيع ذلك. ولكني سمعت أنهم يضربون ويعذبون ولم اسمع باعتراف أي منهم. كلهم صامدون. لو كانوا معترفين لسمع الجميع هنا كما هي العادة الجارية.

في اليوم الثالث من اعتقالي ابلغت المفوض الحارس كاظم بأني اريد مقابلة المدير العام. فأجاب انه ذاهب فورا لابلاغه .وخلال اقل من دقيقتين عاد مسرعا وفتح باب الزنزانة وفك القيود من يدي وقال:

- تفضل يا استاذ! سعادة المدير العام في انتظارك.

خرجت من الزنزانة فوجدت عددا كبيرا من رجال الامن العام مصطفين على جانبي الممر المؤدي من الزنزانة الى مكتب بهجت العطية .

وكلهم يتفرجون علي بفضول عجيب. وسمعت همسات بعضهم . كانوا يتوقعون من طلبي لقاء رئيسهم الاستسلام والاعتراف. وقال احدهم " خلينا. ندوخه هنا مثل ماكان مدوخنا هالسنوات ". واستقبلني العطية في مكتبه بالترحيب وجلست لابدأ حديثا لم يكن ينتظره:

- جئت لاحتج على معاملتكم اللاقانونية- اللا انسانية معنا واستنكر هذا التعذيب الوحشي.
- هل تعرض احد لك بالضرب؟
- كلا لم يضربوني شخصيا ولكني مقيد اليدين منذ دخولي الزنزانة ومربوط الى وتد حديدي مثبت في منتصفها كما يربط الحيوان وتركتموني على ارض رطبة وباردة دون اعطائي أي مفرش اوغطاء ومنعتم مني الراديو والمواجهة وكل اتصال بالعالم خارجزنزانتي، واتلقى الشتم والتهديد من بعض رجالكم... فهل هذه معاملة انسانية ؟ وهل تسمح قوانينكم بذلك؟
- وكيف كنتم تعاملوننا لو اصبحتم حكاما وقبضتم علينا؟ هل كنتم ترحموننا؟
- كنا نعتقلكم ونقدمكم الى محاكم الشعب لتقرر هي مصيركم- قلت له ذلك ولم يخطر ببالي آنئذ ان هذا الرجل نفسه سيعتقل فعلا ويقدم الى محكمة الشعب (المحكمة التي ترأسها المهداوي) بعد حديثنا بخمس سنوات، وينتهي الامر بتنفيذ حكم الاعدام فيه.
- ونحن اعتقلناكم وسنقدمكم الى المحكمة لتصدر هي الحكم العادل.
- لم اجيء لاطلب عدم تقديمي الى المحكمة، انما لاطلب معاملتنا بصورة انسانية وقانونية من قبل دائرتكم، بدل المعاملة الوحشية والفاشية كما يجري الان. فأنا لم ارتكب جريمة ولا عداء لي مع احد من الناس شخصيا. انا معتقل سياسي لأني ناضلت ضد الاستعمار واعوانه المحليين.
- ألا تعلم انك رفعت شعار اسقاط النظام الملكي واقامة النظام الجمهوري . وهذه جريمة عقوبتها الاعدام بموجب القوانين العراقية؟
- هذه مسألة متروكة للمحكمة يا سعادة المدير ، ولاشأن لدائرتكم بها . أنا اطالبكم باسم الانسانية والقانون بمعاملتنا كموقوفين سياسيين.
- حسنا يا سيد بهاء. عد الى غرفتك وسنعاملكم معاملة قانونية – قال ذلك ليدفعني وينهي احاديثي المزعجة، بعد ان تأكد بأني لم أزره لكي اركع واعترف.

رجعت الى زنزانتي ولم يتغير شيء من التعامل معي سوى تزويدي ببطانية واحدة رثة . وقد اخبرني صديقي كاسب ان التعذيب مستمر بحق اثنين من زملائي . واستنتجت بانهما كامل وباقر اذ كان (العميل القديم) الفلاحي معروفا لديهم وميؤوسا منه لأنه سبق ان اعتقل وعذب وصمد اكثر من مرة .

في اليوم السابع او الثامن من اعتقالي أتاني كاسب بالقلم والورق سرا وكتبت رسالة الى ل.م أو كريم احمد واعطيتها مع عنوان احد الرفاق الى الشرطي بأمل ايصالها . اشرت في الرسالة الى اني اعترفت بانتمائي وانتماء كل من الفلاحي وباقر الى ح.ش.ع كاعضاء فقط . وذكرت ان كامل غير حزبي ولا أعرف كيف جرى اعتقاله . كما اشرت الى اني قد اضرب عن الطعام احتجاجا على المعاملة السيئة اذا لم يتم نقلي الى خارج الامن العام . وعلمت فيما بعد ان كاسب كان قد اوصل الرسالة بأمانة واطلع عليها كريم احمد .

في نفس اليوم هددت الامن العام بأني اضرب عن الطعام فورا اذا لم يحسنوا التعامل معي واذا لم يحققوا معي كي انقل بعدئذ الى معتقل اعتيادي . فسارع احد مسؤولي الدائرة ليخبرني بأن التحقيق سيجري غدا ولاداعي لأي اضراب . وفي اليوم التالي بدأ التحقيق فعلا . كان المحقق ضابط البوليس عبداللطيف الوتار الذي اعتبر ثالث رجل في الامن العام . وانتفقنا على ان اكتب افادتي بخطي وأن يسأل هو واجيب على اسئلته . جلست في مكتبه . كان شخصا هادئا ولم يتوتر طيلة يومين من التحقيق الا مرة واحدة وبسبب اصراري على رفض الاعتراف بأني سكرتير الحزب الملقب باسم . قال :

- ان لدينا الف دليل على انك باسم . فلماذا الانكار ؟ عليك ان تعترف بأنك سكرتير الحزب.
- انا شيوعي وعضو في الحزب ولست سكرتيرا له .
- اذن يجب ألا تقول انك شيوعي .
- اقول واصر على انني شيوعي .
- ساقطع لسانك على هذا الاصرار.
- لك ان تقطع لساني ولكنك لن تستطيع اذلالي وحملي على الاعتراف .

نظر الي الضابط المحقق قليلا وبتأثر . لم اعرف ما اذا كان يضمر الحقد ام الاشفاق . ثم قال .

- ارجو المعذرة . لنستمر واكتب اجوبتك كما تشاء .

من الاسئلة التي اثارث استغرابي سؤال عما اذا كام محمد مهدي الجواهيري عضوا في ح.ش.ع . فأجبته : ليته كان شيوعيا ! اني لم اسمع يوما بأن يكون شيوعيا . وجوابا على اسئلته عمن رشحني لعضوية الحزب ومن عملت معهم ومن اعرفهم من الشيوعيين .. كنت اكتب كليشة ثابتة : ((لاأجيب على هذا السؤال)) أو ((لاأكشف سرا أؤتمنت عليه)) . وقد استمر التحقيق

، وتتخلله المناقشات الشفوية ، خلال يومي 22 و 23\4 . ونقلت بعده مباشرة الى سجن رقم (1) في معسكر الرشيد . واتضح لي هناك اننا المعتقلين الاربعة محجوزون في غرف انفرادية متلاصقة ونعيش تحت حراسة عسكرية مشددة وبمعنى معين تحت رحمة أمر المعتقل الملازم الشرس عبدالمهيمن .
كان في المعتقل عدد كبير من الموقوفين الشيوعيين ، بينهم من اعتقل لاسباب تعود الى قضيتنا ـ اما لأنهم شاركوا في وفود الى السلطات للمطالبة باطلاق سراحنا أو لأن السلطات عثرت في بيتي على اوراق ساعدت على التعرف عليهم أو ماشاكل ذلك . وقد جرى التشديد خصوصا لمنعنا من الاتصال مع بعضنا أو مع أي كان من سائر الموقوفين . وعندما كان يؤخذ احدنا الى المرحاض ، البعيد عن زنزانتنا قرابة 70 مترا ، كان السجناء الاخرون يحجزون في الغرف والطريق يخلى تماما خشية ان يرانا او يتحدث الينا احدهم . وكان آمر المعتقل يهابنا ويتجنب التحرش بنا ، رغم شراسته وقسوته مع سائر الموقوفين .
كان الانسان الوحيد ، الذي يمكن لي التحدث اليه هو الجندي الحارس ـ المرابط دوما في الممر امام غرفتنا . وكان الحارس يتغير مرة كل ساعتين . فيتيح ذلك فرصة التحدث الى انسان آخر . ولم يكن من الصعب التفاهم مع بعض الحراس بوجه خاص . وقد تكررت اللقاءات وتبادل الحديث ، عبر ثقب الباب لزنزانتي ، مع آمر فصيل الحراسة الجندي الاول اكبر ، التركماني الشيعي من اهالي الدوز . كان هذا الجندي يعتبر نفسه شيوعيا . وكان يأتي الي كلما وجد الحارس امينا وموثوقا . وفاتحني ذات يوم بتدبير هروبي وقال انه سيهرب هو الاخر معي . وكان جديا فيما ذكر . ولكنه كان انسانا بسيطا قليل التجربة . لم ارفض الهروب ، ولكني استوضحت وطرحت اسئلة عديدة . وأظن انه كانت فرصة حقيقية للهروب وكان هناك جنود آخرون مستعدون للتعاون معنا . بيد ان المحاولة انتهت الى الاخفاق اثر نقل اكبر ، ربما بسبب ثرثرته والشك فيه قبل وضع الخطة موضع التنفيذ .
تصادقت مع البعض من الجنود ، الذين كنت اجد فرصة التحدث اليهم اثناء ساعات حراستهم . سألني احدهم ذات يوم ، وكان قرويا اميا:

- لماذا اعتقلت ؟
- بتهمة الشيوعية .
- عجيب أمر هذه الحكومة . ولماذا تعتقل الناس بهذه التهمة ؟ اليس نصف امة محمد شيوعيين ؟

كان لدي 16 دينارا منذ ان اعتقلت ولم اصرف منها شيأ في الامن العام . وفي السجن رقم واحد كلفت احد الحراس بشراء 2 كغم من التمر . كنت اعرف ان الفلاحي لايملك في جيبه ولا فلسا . فأخفيت دينارين في كمية من التمر وقدمتها الى الجندي الحارس راجيا ايصالها الى الفلاحي . وبعد بضع دقائق جائني آمر المعتقل وفي يده التمر ، والقى بالدينارين وبالتمر علي ودفعني نحو حائط الزنزانة مهددا :

- كيف ترسل النقود الى موقف آخر ؟
- أنا لم ارتكب جرما ولم ارسل شيأ ممنوعا . من حقي أن ارسل الاكل والفلوس لرفيقي او لأي انسان . تركني الضابط وشاع الحدث بين الجنود فتهجموا جميعا بكلمات نابية على الحارس ، الذي اعتبروه ((خائنا)) وسبوه . وقد اتى الي اكثر من من مرة ليقدم الاعتذار ولم اجبه .

بعد حوالي ثلاثة اشهر من اعتقالي تسنى لوالدي ، بمساعدة بعض المتنفذين من آل بابان في بغداد ، استحصال الموافقة على زيارة لي في المعتقل . كان أول لقاء طيلة اكثر من ثلاث سنوات . وكان بصحبته المحامي الوطني محمد بابان ورجل دين آخر يدعى ملا محمد الاعرج . جرى اللقاء في مكتب آمر المعتقل عبدالمهيمن وتحت اشرافه المباشر ولمدة عشر دقائق فقط .
قال والدي :

- اعتقلوك في 13 نيسان وأنا قدمت الى بغداد في 14 نيسان ولم ابرحها للان . كنت اذهب الى هذا وذلك وراء شئ من اخبارك او سعي للتخفيف عنك .
- لم يكن من الضروري ان تتعب نفسك لهذه الدرجة يا والدي . انك لاتستطيع عمل شئ لي ولاتملك ما تنفقه على اقامتك في بغداد كل هذه المدة .
- اعرف ذلك ولكني أب لك وأنت ابني يا ولدي !

لم اطق الابتعاد عنك . كان اللقاء في شهر رمضان . وسألني الملا الاعرج :

- هل انت صائم يا بهاء ؟
- كلا لست صائما يا استاذ . حياة السجن لاتسمح بالصوم هنا .
- انك تكذب .. فالذي يريد ان يصوم للة يستطيع ذلك في كل الظروف .

قبل ان ادافع عن موقفي تولى والدي الرد على زميله فقال :
يبدو انك نسيت ما درسته من احكام الشريعة الاسلامية يا ملا محمد ! فالشريعة الاسلامية لاتلزم امثاله بالصوم طالما يعيشون في وضع كالذي يوجد هنا .
سكت الاعرج وقال عبدالمهيمن :

- انتهى وقت المواجهة وليذهب كل الى مكانه .

في اليوم التالي كنت متمددا على بطانيتي حين دعاني الجندي الحارس قائلا :

- لدي سؤال شرعي وأريد منك الجواب .
- ومن الذي اخبرك بأني قادر على الاجابة ؟
- رأيت والدك بالامس ، عندما جاء لمواجهتك . كان رجلا معمما . وهذا يعني ان بأمكانك ان تجيب .
- ماهو سؤالك يا خضر ؟
- اذا كان الصائم نائما في النهار واحتلم في نومه فهل يبطل صومه ؟ تهربت من الاجابة لأني لم اعرف ما تنص عليه احكام الشريعة الاسلامية . وتحت الحاحه قلت اخيرا ان الصوم يبطل في رأي البعض وبعكسه في رأي البعض الاخر .

ذات يوم فتح باب الزنزانة ودعاني عبدالمهيمن لمرافقته الى مكتبه . وجدت هناك شابا طويلا هادئا وعرفته ، رغم ان شاربيه كادا يوهمانني ـ كان مجيد عبدالرزاق ، الذي لم أره منذ شتاء 1950 . سألني آمر المعتقل :

- هل تعرف هذا الشاب الجالس هنا ؟
- كلا لست اعرفه .
- وهو يعرفك وتعرفه انت ايضا .
- قلت لا أعرفه ولم أره من قبل .

لم يسأل مجيد عما اذا كان يعرفني . ولم يتكلم الاخير من تلقاء نفسه بشئ . قدرت من ذلك انه انكر معرفته بي ، رغم انه شارك في وفد من السليمانية كان قد حمل عريضة الى البلاط الملكي مطالبة باطلاق سراحي . بعد ذلك بيومين تكرر استدعائي الى غرفة المدير . كان هناك شاب قصير القامة . رأيته لأول مرة ، وهو ركز بدوره النظر علي لسبب لم اعرفه أول الامر . سألني المحقق ، الذي كان قد رافقه الى هناك :

- هل تعرف هذا الشخص ؟
- كلا لا أعرفه ولم اره يوما في حياتي .
- انه يعرفك وتعرفه .. انه حسن سيخ سعيد ، الذي كان مراسلا حزبيا بينك وبين مجيد عبدالرزاق . اليس كذلك يا حسن ؟
- نعم اعرفه ويعرفني . وكنت مراسلا بينه وبين مجيد عبدالرزاق .

انتهى التحقيق الجديد الزائف ورجعت الى زنزانتي وانا افكر فيما حدث . ما هذا الذي يفبرك ؟ ما الغرض من الاتيان بشاب لا أعرفه فعلا ولا يعرفني شخصيا ، بينما يدعي العكس ؟ واستنتجت اخيرا انهم بحاجة الى شهود ضدي . ولما لم يجدوا ، لحسن حظي ، شيوعيا منهارا بين المعتقلين مستعدا للشهادة ضدي اتوا بهذا الشخص (وعلمت فيما بعد انه كان شيوعيا سابقا) ليتخذوا منه شاهدا ويثبتوا به اني سكرتير الحزب باسم . واجهت في معتقل معسكر الرشيد مشكلة الملابس . فقد تمزقت بجامتي القديمة التي كنت لابسها يوم كبسوا داري في الاعظمية ولم يسمحوا لي بأرتداء ملابس اخرى بدلها . ورقعتها اكثر من مرة وتمزقت من جديد . وبقيت البسها على هذه الشاكلة حتى خلال الجلسات الاولى من ايام المحاكمة . واخيرا ارسل الرفاق الموقوفون سروالا وقميصا فرميت البجامة الممزقة ولبست المرسلة الي سرا مع احد الحراس . لم يخبروني مسبقا بموعد المحاكمة ولا أتذكر أي يوم بدأت من حزيران 1953 . كل ما اتذكره هو ان الاحكام العرفية كانت قائمة وأنهم فاجأوني بأخذي الى المحاكمة . اخرجوني من زنزانتي وبعد قليل وجدت نفسي في زنزانة اخرى صغيرة داخل سيارة السجن المتجهة الى مكان ما داخل المعسكر . وبعد قليل وجدت الحراس ينزلون من السيارة ويسوقونني الى قاعة المحكمة .

كانت المرة الاولى في حياتي ادخل قاعة المحكمة . كانت محكمة عسكرية . رئيسها عميد دعي جميل عبدالمجيد . وجلس الى جانبه ضابط وقاضي مدني . وكانت احكامها غير قابلة للتمييز . كان كاتب المحكمة في لباس مدني . وكان الحراس جميعا عسكريين . ولم اشعر بشئ من الخوف او التحرج حين دخلت القاعة . كنت مستعدا نفسيا لأسوأ الاحتمالات ، لتلقي حكم الاعدام . ولم يكن لدي احساس بأني اهزم مهما كان الحكم الصادر بحقي . وأنتعشت اكثر حين وجدت هياة دفاع واسعة مؤلفة من 26 محاميا متخذين اماكنهم في القاعة للدفاع عنا ، نحن الاربعة . كان بين المحامين نواب في البرلمان ورجال لبراليون ومسؤولون في الاحزاب البرجوازية المعارضة ، امثال عبدالرزاق الشيخلي وحسين جميل ونجيب الصائغ .. الخ ، محامون شيوعيون ويساريون . كلهم كانوا متطوعين للدفاع عنا ، نحن الموقوفين الشيوعيين . ولم يدفع فلس واحد لأي منهم . بل لم اكن على علم بتطوعهم الا في قاعة المحكمة . فالقضية كانت قضية سياسية تهم هؤلاء جميعا . وكانت هذه الظاهرة تتناسب مع سعة نفوذ ح.ش.ع وشعبيته . وكان هناك نائب المدعي العام . وجلس بالقرب منه ممثل الامن العام عبداللطيف الوتار ، الذي كان قد حقق معي شخصيا . وكان صاحب الكلمة العليا في المحكمة ضابطا شابا مخلصا للنظام وملكيا اكثر من الملك نفسه مغرورا .

وقد وقفنا في قفص الاتهام نحن الشباب الاربعة والعجوز أم عثمان وحفيدتها الطفلة سعاد كريم . وبدأ الاستجواب معي اولا :

- اسمك واسم ابيك ؟
- بهاءالدين نوري .

- عمرك ؟
- 26 سنة .
- مهنتك ؟
- مناضل ضد الاستعمار .
- اقصد شغلك .. ماذا تشتغل ؟
- مناضل ضد الاستعمار .. تلك هي مهنتي .

تجهم وتوتر رئيس المحكمة ونظر في وجهي لحظات نظرة الغضب وكرر السؤال . وتلقى نفس الجواب . وجرى استجواب الاخرين وقلدوني في الاجابة باستثناء السامرائي ، الذي لم يعترف بانتمائه الحزبي . وعندما جرى استجواب العجوز أم عثمان سألها الحاكم :

- هل انت شيوعية وعضو في الحزب ؟
- كلا لست عضوا في الحزب .
- لكن بهاء يقول انك عضو في الحزب .
- كلا لم يقل بهاء شيأ من هذا القبيل .

وهي كانت صادقة بالطبع وأيدت كلامها فورا مكذبا الحاكم الذي افترى علي . في الواقع كنا نحن الشباب الاربعة متفقين فيما بيننا على جوهر الافادات . ولكننا لم نتفق على شئ بالنسبة الى العجوز التي كانت في السجن النسائي بعيدا عنا .

في اليوم التالي ، حين كنت لا أزال في سيارة السجن الواقفة امام مبنى المحكمة ، شاهدت حدثا طريفا . كنت انظر من ثقب صغير يكفي لأن اشهد منه ما يحدث امامي خارج السيارة . فرأيت ضابط الامن عبداللطيف الوتار واقفا تحت شجرة في الحديقة الفسيحة . ورأيته يشير بيده الى احدهم داعيا اياه لملاقاته . وبعد لحظات حضر لديه الشاب القصير ، الذي كنت قد رأيته في غرفة مدير المعتقل وادعى أنه كان مراسلا بيني وبين مجيد عبدالرزاق . لم اسمع مادار من حديث بينه وبين ضابط الامن العام ولكنني رايت الاخير وهو يخرج محفظة نقوده من جيبه . ودفع مبلغا من العملة الورقية ـ لم استطع تحديده ـ الى الشاب حسن شيخ سعيد . وأخذ منه التوقيع بالاستلام في دفتر صغير اعاده الى جيبه فيما وضع حسن المبلغ في جيب بنطاله الايسر وافترقا عن بعضهما . وكان يفترض ان يدلي حسن بشهادته ضدي في هذا اليوم امام المحكمة . بدأت الجلسة وادخلونا الى قفص الاتهام كالعادة واستدعي الشاهد المدعو ابراهيم رشيد ـ وهو من اهالي السليمانية ـ ليدلي بشهادته زاعما بأنه كان مراسلا بيني وبين شيوعيين آخرين . كان هو الاخر شاهدا اجيرا وتكلم بعيدا عن الحقيقة اذ لم يسبق لي ان اراه يوما ما طيلة ايام حياتي . وأخيرا وقف حسن ليدلي هو الاخر بشهادته الكاذبة . تركته ليكمل حديثه ويفرغ ما في جعبته ثم فاجأت المحكمة والمحامين بما كنت قد شاهدته :

- لم يعرفني هذا الشخص ابدا . وهو ادلى بشهادته كعميل اجير لقاء مبلغ استلمه نقدا قبل ساعة واحدة من ممثل الامن العام عبداللطيف الوتار الموجود هنا امامكم .

رويت الحادث وطلبت تفتيش الجيب الايسر لحسن بغية كبس المبلغ الذي دفع اليه من هذا الضابط وتفتيش دفتر الملاحظات الصغير الموجود في جيب الاخر للعثور على توقيع حسن باستلام المبلغ المشار اليه . فأصفر وجه حسن والوتار معا واصيبا بالذعر الشديد . واثار بعض المحامين الضجيج مطالبين بتفتيش الرجلين . وارتبك رئيس المحكمة نفسه لبعض الوقت ثم استعاد انفاسه وتدارك الوضع بأن امر الشاهد بالخروج دون ان يتيح للمحامين فرصة لمناقشته .

سألني رئيس المحكمة عما اذا كنت مؤيدا لجميع اهداف الحزب المدونة في برنامجه فاجبته : بالطبع ، أؤيد جميع اهداف الحزب المثبتة في برنامجه بصفتي عضوا فيه . كان يتردد في التفوه ، كجرد التفوه ، بشعارنا في اسقاط الملكية واقامة النظام الجمهوري . فصاغ سؤاله بشكل آخر حول ما اذا كنت اريد تغيير الهيأة الاجتماعية كما ورد في البرنامج . وأجبته :

- اعطني نسخة من برنامج ح.ش.ع لأشرح لكم مافيه من الاهداف .
- وهل تؤيد ما ورد فيه بشأن قلب نظام صاحب الجلالة ؟

قبل ان اجيب لاحظت ارتباك بعض المحامين . واشار الي احدهم بأن تأييد هذا الهدف يعطي ذريعة لاصدار عقوبة الاعدام بحقي . وكان علي اختيار احد الجوابين ـ نعم أو لا . ولكن هل لي ان اتنصل عن هدف صغته بنفسي قبل سنة واحدة وثقفت به رفاقي في الحزب ؟ كلا . فقلت :

- طبعا أؤيد ذلك وأؤيد كل هدف دون في وثيقة البرنامج .

استمرت المحاكمة عدة ايام ، كنا نقلبها في كثير من الاحيان الى محاكمة لنظام الحكم والاستعمار . كان صادق وباقر جريئين في المحكمة . فيما ثبت السامرائي على موقفه : انكار الانتساب الى ح.ش.ع . ولم يغب بعض المحامين ، كخالد عيسى طه وتوفيق منير وغيرها ، عن اي جلسة . وكان وجود داود الصائغ ضمن هيئة الدفاع بمثابة استفزاز شخصي لي في ذلك الحين ، رغم انني لم أره بالوجه قبلئذ ولم اكلمه حتى في المحكمة . كنت اكرهه كانتهازي منشق على ح.ش.ع ومخرب وقف ضد فهد في حينه .

قبيل انتهاء المحاكمة عرضت علينا المحكمة استلام القلم والورق لكي نكتب بانفسنا الدفاع ، ان كنا راغبين . واستلمت فورا وبدأت اكتب دفاعي بقسميه القانوني والسياسي . وقررت ان القي بنفسي امام المحكمة القسم السياسي واكتفي بتسليم القسم الاخر الى المحكمة . وفي ختام المحاكمة لبس المحامي الشيوعي الجرئ توفيق منير جبته التقليدية ووقف امام المحكمة لالقاء الدفاع بأسم (هيأة الدفاع) . كان خطيبا فصيحا وشجاعا ، رغم انه ركز كليا على الجوانب القانونية لقضية كانت سياسية في الجوهر . لكني لم أحذ حذوه عندما القيت بنفسي الدفاع الذي كتبته . فقد دافعت عما آمنت به وتهجمت بصراحة وعنف على النظام العراقي العميل وعلى عميد الرجعية نوري السعيد وعلى كل الانظمة الرجعية في العالم العربي . ولم أستثن حتى محمد نجيب وجماعته ممن كانوا يحكمون مصر باسلوب دكتاتوري عسكري واغرقوا اضراب عمال النسيج في مصر بالدماء .

بعد المحاكمة بيومين اعدنا من سجن المعسكر الى قاعة المحكمة كي نسمع قرار الحكم الصادر بحقنا . كنت اتوقع صدور حكم الاعدام بالنسبة الي وللفلاحي وباقر والسجن المؤبد الى السامرائي . انتظرنا اكثر من ساعتين ولم تعقد الجلسة . وتكرر ذلك في اليوم الثاني والثالث والرابع و ... الخ . نذهب ونعود ولاحكم . كان واضحا ان هناك خلافات بين الحكام ليس فقط على صعيد المحكمة العسكرية ، بل على صعيد السلطة الحاكمة كلها ، حول نوع العقوبة التي ينبغي اتخاذها . لو قارنت قضيتنا بقضية فهد ورفيقيه زكي بسيم والشبيبي ، حيث صدر الحكم على الاولين في 1947 ونفذ في ثلاثتهم حكم الاعدام في 1949 ، لكان من المتوقع ان يصدر وينفذ بحقنا حكم الاعدام فورا . ذلك لاننا كنا شيوعيين مثل هؤلاء زائدا رفع شعار اسقاط الملكية واقامة الجمهورية . غير ان الحملة الجماهيرية ، التي نظمها الحزب لانقاذ حياتنا ، داخليا وعربيا وعالميا ، قد اعطت ثمارها وأوجدت التردد والخلاف لدى الحكام .

كان خالد عيسى طه المحامي الذي لم يغب ابدا ولا لدقيقة عن قاعة المحكمة ، طيلة ايام المحاكمة وحتى في تلك الايام التي كنا نؤخذ الى قاعة المحكمة لسماع الحكم ثم نعاد دون سماعه . وقد سمع معنا صدور الحكم في 12 تموز : السجن المؤبد لي وللفلاحي ولباقر والسجن خمسة عشر عاما لكامل السامرائي ، مع مصادرة جميع الممتلكات الموجودة في البيت ، باستثناء ملابسنا الشخصية ، التي امرت المحكمة باعادتها الينا ، ولكنها لم تعد هي الاخرى الينا رغم قلتها وبساطتها .

كنت قد طلبت من زملائي الهتاف بحياة ح.ش.ع في حالة صدور حكم الاعدام بحقنا ، وليس صدور حكم بالسجن . غير ان باقر نسي الفرق بين الاعدام والسجن وهتف بحياة ح.ش.ع بصوت عال . فهجم عليه الجنود بالضرب امام الحاكم ، ولم يمنعوهم .

بعد صدور الحكم علينا نقلت وحدي الى احدى غرف المبنى ، بدلا من نقلي مباشرة الى سيارة السجن . ولم ادرك اول الامر أن ذلك قد جرى ليزورني العميد جميل عبدالمجيد ويسدي الي نصائحه او تحذيراته الاخيرة ، الى ان حضر . كنت جالسا على مصطبة ولم اقم حين وصوله . فاعتبر ذلك ضربا من الاهانة وأمر بعنهجيته العسكرية : ((قم!)) ثم توجه الي قائلا :

- منحناكم فرصة الحياة لهذه المرة . ولكننا سناتي بكم من السجون ونعدمكم فورا اذا ما قمتم باي نشاط حزبي هناك بين السجناء.

اجبته بهدوء وتحد غير متوقع من قبله :

- انا لست في حاجة الى نصائحكم .
- لست في حاجة ؟
- كلا .

فتركني عابسا متجهما . قدرت انه كان ضمن الذين اصروا على اصدار حكم الاعدام بحقنا ولكن السلطات العليا لم توافقهم ، فبدلت الاحكام الى السجن المؤبد . بعد صدور الحكم علي بيومين سمح لوالدي بزيارتي من جديد ولكن بالوقوف خارج السياج السلكي العالي للمعتقل . وقفنا متقابلين دون ان نستطيع لمس بعضنا وبكي والدي بكاءا مريرا وعميقا . قلت له :

- انتظرت منك الضحك فرحا يا زالدي لأني نجوت من الاعدام .
- ابكي بكاء الفرح يا ولدي! المهم انك نجوت مما كنت اخشاه . وستخرج من السجن . املي كبير بالا تبقى في السجن طويلا .

وآلمني ان لم اجد والدي في البيت حين عدت اليه بعد ثورة 14 تموز 1958 ليشاركنا الفرح بالخروج من السجن واللقاء الحار مع الاهل والاصدقاء . لم تدم المواجهة اكثر من خمس دقائق ، اذ سحبني عبدالمهيمن الى زنزانتي وغادر والدي فرحا قائلا انه ذاهب الان الى بيته في السليمانية معتزا مطمئنا .

بعد صدور الحكم علينا نقلنا الى سجن الموقف في بغداد لنبقى مؤقتا وتحت اشراف مدير السجن عبدالجبار ايوب الذي كان معروفا كموظف شرس وكجلاد للسجناء السياسيين ، خاصة من الشيوعيين . والتقينا نحن الاربعة مع بعضنا لأول مرة منذ اعتقالنا . وبعد ايام معدودة طلبنا نقلنا الى سجن اعتيادي بين الشيوعيين ، لكي متخلص من الجلاد ايوب . ولما رفض طلبنا اعلنا الاضراب عن الطعام . كان ذلك اول اضراب لي عن الطعام طيلة حياتي . أتانا المدير مع عدد من سجانيه واعتدوا علينا بالضرب العنيف وبالكلمات البذيئة على طريقة الشرقيين المتخلفين وحاولوا حملنا على كسر الاضراب . لكننا تحدينا وتمسكنا بمطلب النقل واصررنا على عدم عزلنا عن سائر رفاقنا السجناء حتى ارغمنا السلطة على الرضوخ لمطالبنا وتحديد الموعد لنقلنا الى احد السجون .

وضعنا في سيارات بوليسية مسلحة برفقة مفرزة كبيرة من الشرطة . وكان آمر المفرزة ضابط البوليس الذي رافق مفرزة المداهمة لبيتي في نيسان 1953 - ويدعى شاكر العاني . وكان شرطيا هادئا ومتفاهما ومرنا معنا . ولم نعرف اننا ننقل الى سجن نقرة سلمان الا بعد وصولنا الى السماوة ، حيث بتنا فيها ليلتنا الاولى . تابعنا السفر في اليوم التالي عبر طريق ترابي صحراوي كثير العجاج نحو سجننا النائي في عمق البادية الجنوبية .

****

بوصولنا الى سجن نقرة سلمان بدأت صفحة جديدة من حياتي . فأنا الان سجين بين السجناء السياسيين ، محاط باربعة جدران وبحراس يطوقون المبنى ليل نهار . والسجن قلعة عسكرية بدائية شيدها في حينه الضابط الانطليزي كلوب باشا الملقب ((ابو حنيك)) ليس كمبنى للسجن بل كمخفر عسكري حدودي لصد هجمات عشائر البدو من الاراضي السعودية ومن البادية الجنوبية . وفي وقت لاحق حولتها سلطات المظام الملكي الى سجن لمعارضي النظام من مختلف الاتجاهات . وبالاخص من الشيوعيين . وحتى السجناء العاديون ، الذين كانوا يعتبرون خطرين ، كانوا ينقلون الى هناك . ولم يكن في السجن لا الانارة الكهربائية ولا اسالة الماء ، ولا أي شئ من مستلزمات الحياة العصرية .

عند دخولنا السجن استقبلنا رفاقنا السجناء بحماس وحرارة منقطعين وعشنا بينهم كما يعيش الانسان بين ذويه ومحبيه الحقيقيين . وأبرز ما لاحظته ان جو الحياة اليومية بينهم كان مرحا والعلاقات الرفاقية كانت تشدهم الى بعضهم روحيا . وكانت حياتهم منظمة تنظيما جيدا من حيث الغذاء وتوزيع الاعمال اليومية .

كان في باحة السجن الصغيرة بئر للماء المر غير الصالح للشرب او لغسل الملابس . وكان السجناء يستلمون يوميا حصصهم من الماء العذب المنقول بسيارة التانكر بمعدل 9 -18 لترا لكل شخص . كانوا ينقلون الماء من السيارة بصفائح الى خزان الماء في السجن لغرض الشرب والطبخ والغسيل .. الخ . وكانوا يسمون عمر الياس (ابو باسم) وزيرا للري ، باعتباره مسؤولا عن تنظيم خفارات نقل الماء من السيارة الى السجن . وكان استعمال المياه مقننا للجميع ، معروفا لديهم . وكان خفر الحمام مسؤولا عن توزيع المياه عند تسخين الحمام اسبوعيا وعند غسل الملابس . كان وجود السجن في تلك الصحراء النائية الحارة ضمانا لعدم هروب السجناء اذ ان من يهرب انما يخاطر بحياته اللهم الا اذا كان من البدو المحليين . وكان هذا البعد عائقا امام الاكثار من مواجهات السجناء من قبل عوائلهم . فلم يكن بامكان اي عائلة ان تزور ابنها السجين شهريا . ولعن ذلك جعل منه السجن المفضل لدى السلطات في تلك الفترة .

دخلت السجن لأفاجأ بما لم اتوقعه ولم افكر فيه ابدا . فقد وجدت السجناء الشيوعيين ، الذين اصبحنا بينهم ، متمردين على ادارة السجن وعلى السلطات بوجه عام ، مشكلين لانفسهم جمهورية شعبية في قلعة ابي حنيك ، بالاحرى في النصف الشمالي منها . كانت لهم فرق مسلحة بسيوف شبيهة بسيوف حقيقية من تلك التي كانت تشكل اسلحة الجيوش المقاتلة في الماضي السحيق . صنعت هذه السيوف من البراميل الحديدية الموجودة في السجن . وكان السجين الشيوعي هادي هاشم الاعظمي المهندس والفني الرئيسي لصناعة السيوف وتجهيز السجناء بها . وكان هناك علم احمر على صارية عالية (انبوب حديدي طويل) يرفعه السجناء صباحا وهم ينشدون نشيد الجمهورية ، الذي قيل ان السجين الشيوعي حسين احمد الرضي قد نظمه وخلفه لهم هناك . وينزلونه مساءا بنفس النشيد . وهو يبدأ بمقطع :

ياجموع الشعب ! ياجيش الجياع ! قد سئمنا العيش في ظل الطغاة

هذه اخر ايام الصراع فاذالوا الموت كي نزهو الحياة

الى الكفاح ، الى الامام ، الى السلاح ، للانتقام .

وكانت هناك خطة مزعومة للهجوم على العدو وللتراجع في حالة نشوب المعركة مع العدو . وكان هناك توزيع للمهمات العسكرية . وكانت المهمة الموكولة الى كل من زكي خيري وعزيز الحاج - وقد التقيت بهما لأول مرة في ذلك السجن - هي الحراسة الفوقية ، أي مراقبة تحركات العدو عبر مزاغل القلعة الشمالية . ولم يعتبرا مؤهلين لحمل السيوف ، فسلمت الى كل منهما عصى قصيرة .

كانت هذه الجمهورية الشعبية ، بكل ما لها من جيوش ودوائر وجماهير ، قائمة داخل غرفة لم تزد مساحتها عن عشرات الامتار المربعة . وكان حميد عثمان المسؤول الحزبي الاول ورئيس الجمهورية الشعبية ومؤسسها ومنظرها ، معتبرا اياها نواة الجمهورية الشعبية اللاحقة في العراق كله. وكان حراس السجن موجودين باسلحتهم النارية حوله وفوق سطحه ، دون ان يحاولوا اقتحامه او التحرش بالنظام الجمهوري الشعبي القائم فيه . وكانت ادارة السجن تستقبل كل يوم ممثل الشيوعيين الضابط الشيوعي السجين مهدي حميد لتسليمه حصصهم من الارزاق ، كما كانت سيارة التانكر تستمر في تزويدهم بالمياه يوميا . بكلمة ، كان قطع الماء عنهم ليومين أو قطع الارزاق لاسبوع واحد ، دون اللجوء الى اي عنف ، كافيا لاسقاط وخنق هذه الجمهورية الشعبية . لكن ادارة السجن ، وبالاحرى ادارة شرطة البادية ، لم تلجأ الى فرض الحصار الاقتصادي على جمهورية السجناء .

كان في القامة الجنوبية من القلعة عدد اخر من السجناء الشيوعيين المحسوبين على تنظيم راية الشغيلة المنشق ، بينهم عزيز محمد ونافع يونس ويوسف حنا ، الذين رايتهم هناك لاول مرة . كما كان هناك عدد من السجناء العاديين ذوي الاحكام الثقيلة

المقولين الى هذا السجن بسبب مشاركتهم في اثارة القلاقل السجنية وخلق المتاعب لادارات السجون الاخرى . وكانت غالبيتهم مؤيدين للثورة وللجمهورية القائمة .
انا كنت بنفسي يساري المزاج قبل ان اسجن وبعده . غير اني لم استطع هضم ما وجدته في السجن من تطرف صبياني مضحك . وقد اصبحت المسؤول الأول لمنظمة السجن الحزبية بعد وصولي الى هناك ، حيث تنازل حميد عثمان عن المسؤولية دونما حماس للتنازل . وشعرت بان علي ان ادشن عهد مسؤوليتي في السجن بشئ يعالج هذا التطرف الصبياني . فجمعت اللجنة الحزبية ـ السجنية المسؤولة ، بضمنها هادي هاشم وزكي خيري وحميد عثمان وعمر الشيخ وغيرهم ، وعرضت عليهم ما ملخصه :
ـ اقامت السلطة الحاكمة مجزرتين رهيبتين في سجن بغداد والكوت واستشهد عدد كبير من رفاقنا او جرحوا . والاحكام العرفية لاتزال قائمة في البلاد . واذا لم نتصرف بصورة منطقية مرنة في سجننا هذا فان المجزرة الثالثة ستقع بيننا بالتأكيد . نحن لانملك بين هذه الجدران الاربعة مقومات التمرد على السلطة ولا أرى ما يبرر اعلان العصيان والجمهورية .. ان مجرد قطع الماء او الارزاق عنا يكفي لتدميرنا. لامناص من ابداء المرونة الضرورية والاستعداد للتفاهم مع ادارة السجن لكي نتجنب المجزرة . وليس من المعيب ان يتراجع الثوريون حين تتطلب الظروف مثل هذا التراجع .
لم يطل النقاش ، او لم يناقشوا ما طرحته . فالجميع كانوا مقتنعين بما عرضته باستثناء مسؤولهم حميد عثمان الذي التزم الصمت الغاضب اسفا على جمهوريته الشعبية . وأظن ان الكثيرين من اعضاء اللجنة لم يكونوا مع فكرة العصيان والجمهورية منذ البداية ولكنهم لم يملكوا ما يكفي من الجرأة لابداء المعارضة المكشوفة خوفا من اتهامهم بالجبن والتخاذل .
واذا لم تقم المجزرة في سجن نقرة سلمان قبل وصولنا اليه فان الكثير من الفضل يعود ـ حسب تصوري ـ الى مدير شرطة البادية جواد حسن ، الذي كان المرجع الرسمي الاعلى . وكان مقره قريبا من السجن . فهو كان رجلا مسنا وشرطيا مجربا وهادئا في طبعه . وكان يريد فعلا تلافي المشاكل وتجنب اراقة الدماء البريئة .
بعد استحصال موافقة الهياة الحزبية جلست مع ممثلنا لدى ادارة السجن مهدي حميد ، الذي كان متطرف المزاج وحاولت اقناعه بضرورة المرونة وبافهام ادارة السجن باننا لانريد العصيان بل نريد التفاهم وحل المشاكل ونريد ان نسمع ما تريده الادارة وتسمع بدورها ما يريده السحناء السياسيون .
في الوقت نفسه قمت بالغاء الجمهورية الشعبية ونزع اسلحتها ، اذ ترك العلم الاحمر جانبا وكف السجناء عن قراءة النشيد الجمهوري ووضعت السيوف في المشاجب الخلفية .. الخ .
وبموجرد المصادفة اقترن خروج مهدي لاستلام الارزاق ولتنفيذ المهمة التي كلفته بها بمجئ ضابط مقدم دعي جلال اسعد ، الذي كان احد مساعدي الحاكم العسكري عبدالمطلب الامين . واخذ مهدي الى مكتب مدير شرطة البادية ، حيث كان الضابط الموفد لأمر يتعلق بقضية السجناء بالذات . واستهدفت السلطة المحلية من هذا اللقاء بين مهدي وجلال احلال التفاهم، على اثر اختفاء العلم والسيوف لدى السجناء .
غير ان التقاء الضابطين الحكومي والشيوعي لم يؤد الى التفاهم انما انتهى بعراك عنيف استخدم فيه الجانبان الايدي والارجل في الضرب ولتاديب بعضهما . روى لي مهدي بعد عودته ما حدث . وجدت نفسي في موقف حرج وانتقدت مهدي كثيرا على ما فعل وطلبت منه العودة الى ادارة السجن ومحاولة التفاهم . واكدت له انهم كانوا يحتجزونه ويشبعونه ضربا ويقيدونه لولا مدير شرطة البادية الذي كان حريصا على تلافي المشاكل . كان المطلب الرئيسي لادارة السجن أو السلطة هو ان ينقلوا من السجناء السياسيين والعاديين من يريدون نقله ويبقوا فقط من يريدون ابقاءه . وكان حميد عثمان متعنتا يرفض اي نقل مالم يلغ سجن نقرة سلمان كليا . والحل الذي قدمته انا ، عن طريق مهدي ، هو اننا لانرفض النقل ولكننا نرجو ان يكون لنا رأي مسموع في تحديد وجبات السحناء لغرض النقل رغبة منا في نقل ذوي الاحكام الثقيلة اولا . وقد وافقت الادارة على طلبنا وقامت بخدعة اذ زورت كتابا رسميا مطبوعا بالالة الكاتبة اكد ان السحن يلغى وينقل جميع السجناء السياسيين والعاديين معا وأن السجناء يعطون الحرية في ارسال من يشاؤون في الوجبة الاولى الى سجون اخرى . انطلت هذه الخدعة علينا، وأظن انها كانت من تدبير جواد حسن . وهيأنا قائمة باسماء من نريد نقلهم كوجب اولى ، تضمنت ذوي الاحكام الثقيلة من رفاقنا ومن جماعة راية الشغيلة وكذلك من السجناء العاديين . وكنا نحن الاربعة الجدد شمن هذه القائمة لأن احكامنا كانت ثقيلة .
وجيئ بشاحنتين لنضع فيهما حاجاتنا ونجلس فوقها ، ترافقنا سيارات مسلحة تابعة لشرطة البادية . وعندما غادرت الشاحنتان السجن ، وسط توديع رفاقنا الحار الذين كانوا ينتظرون لقاءنا في سجن جديد بعد يوم او يومين ، ووصلنا الى سراي البادية جاءنا مفوض الشرطة وطلب باسلوب هادئ مؤدب نزول من في السيارتين من السجناء العاديين ـ وكلهم ذوو احكام ثقيلة ـ لوضع القيود في ايديهم وارجلهم خشية هروبهم في الطريق . انبرى حميد عثمان ، ولعله اراد ان يظهر بأنه اكثر الجميع ثورية ، وكان على نفس الشاحنة التي كنت فوقها . فقال :

- لن ينزل احد ولن نقبل وضع القيود في يدي او رجلي اي سجين هنا .
- نحن لانضع القيود في ايديكم وارجلكم ، انتم السياسيين ، انما في ايدي هؤلاء من السجناء العاديين .
- كلا ، لن نسمح ابدا ـ أكد حميد دون ان يأخذ رايي ، أنا المسؤول الاول ـ وقد التزمت من جانبي الصمت ولم اتدخل فيما جرى امامي

- وهذا ما استحق عليه اللوم والتعنيف .

كرر المفوض بأسلوبه الودي طلبه للسماح بوضع القيود في أرجل العاديين وهدد بأنهم سيفعلون ذلك عن طريق القوة اذا اصررنا على الرفض . فاجاب حميد :

- نحن لانخشى عنفكم ولا تهديداتكم . وورائنا الشعب العراقي وورائنا المعسكر الاشتراكي كله .

اصدر المفوض امره الى رجال الشرطة المصطفين حولنا او فوق سطح السراي بجانبنا .

- هيا اضربوا !

لم يحاول احد من الشرطة صعود الشاحنة ، حيث كنا جالسين . انما استخدموا كسور الحجارة ـ وهي كانت متوفرة بكثرة وحادة كالسكين ـ وغدونا نحن السجناء العزل في كلتا الشاحنين ، هدفا لقصف عنيف بالحجارة ، فيما اطلق الرجال الواقفون فوق السطح رصاص بنادقهم فوق رؤوسنا في الهواء . واصبحنا نحن في موقف حرج ، دون ان يتظاهر الشعب او يهب المعسكر الاشتراكي لنجدتنا . وقل بيننا من لم يصب في رأسه او وجهه بجروح . وكان البعض يتلقف الاحجار بيديه ليرميها بدوره على الشرطة . ورمى آرا خجدور (بستوطة) موجودة بجانبه على الشرطة . واتذكر جيدا منظر عمر الشيخ حيث كان الدم ينزف بغزارة على وجهه وهو ينشد نشيدنا السجني : (حرروا العراق واسحقوا الطغاة وانشروا الوفاق تبلغوا النجاة) . كانت معركة غير متكافئة واصبحنا ضحية التطرف الصبياني لحميد عثمان .

جاءت المبادرة من زكي خيري اذ ناداني ، وكان على نفس الشاحنة :

- كفى يا ابو سلام ! فلننزل .

وافقت فورا ونزلنا . وعلى الارض انهالت علينا الضربات بالعصي . وتلقى حميد حصة خصوصية ، عنيفة ووحشية ، من الضرب فتورم وجهه ونزف . كانوا يضربونه بحقد خاص . استسلمنا دون قيد او شرط واصبح في امكان الشرطة ان يتصرفوا بما يحلو لهم . ووضعت القيود في ارجل الجميع عاديين وسياسيين ثم فرق بيننا واخذنا نحن الاربعة الى غرفة خلفية معزولة في سراي البادية . ولم اعرف منذ تلك اللحظة ما جرى للرفاق الاخرين .

بعد يومين اعدنا نحن الاربعة الى قلعة ابي حنيك . علمنا هناك ان جميع السجناء ، السياسيين والعاديين معا ، قد نقلوا الى سجون اخرى ، باستثنائنا نحن والسجناء اليهود من الشيوعيين والعاديين ومن الصهاينة . اذن كان الهدف من عملية النقل عزلنا نحن الاربعة وعزل السجناء اليهود في هذا السجن الصحراوي النائي . ولم يطل بقائنا في قلعة كلوب باشا اذ كان مبنى السجن الجديد الملاصق للقلعة ، قد اكمل وهيئ لاستقبالنا نحن المقرر بقائنا .

مبنى السجن الجديد تكون من عشر قاعات كونكريتية فسيحة مبنية في مجموعتين متقابلتين تفصل بينهما مسافة سبعين مترا . ويحيط بالقاعات سور طويل يمتد لاكثر من 500 متر . ويبلغ طول كل قاعة 35 مترا وعرضها خمسة امتار . وفي السجن الجديد ايضا لم تفكر السلطة لا بتوفير اسالة الماء ولا الكهرباء ، بل ظللنا ننتظر سيارة التانكر المحملة بالمياه . الشئ الوحيد النظيف والجيد صحيا كان الهواء النقي الجاف والمنعش في ساعات الليل ، وبالاخص بعد منتصفه . بقيت مسؤول المنظمة الشيوعية المكونة من 27 رفيقا ، بضمنهم 23 شيوعيا يهوديا ، في السجن الجديد . وكان عدد السجناء الصهاينة اربعة اضعاف عددنا . ولم تكن حياتهم منظمة ومشتركة كما كنا نحن . وكان بينهم اثنان من مسؤولي الحركة الصهيونية في العراق ، هما رودني ـ اليهودي القادم من بريطانيا ـ الرجل الطويل الضخم الاشقر ، الذي كان اوروبي الشكل تماما ، وصالحون الذي كان قد اوفد من فلسطين الى بغداد ككادر صهيوني .

وكان من بين السجناء اليهود العاديين عزره ، اليهودي المعدم المسجون بتهمة السرقة . كان مسنا ومن زبائن السجن الدائميين . فهو خلق ـ على حد تعبيره ـ لكي يسرق ولكي يسجن وليس لشئ آخر . كان يسرق اساسا من اليهود وليس من المسلمين . وقد روى مرارا بعض القصص من سرقاته . ففي احدى المرات اراد ان يسرق دجاجة دون ان يطاردها ويتركها لتنقنق . فاتى بمصران وامسك باحد طرفيه ورمى الطرف الاخر لتبلعه الدجاجة . وبعد ان بلعت شبرا منه اخذ الرجل ينفخ فيه حتى انتفخ في حلق الدجاجة واصبحت هذه عاجزة عن النقنقة او الحركة فغدت صيدا سهلا . كان من مهمات عزره نزوح المراحيض ، تنفيذا لاوامر ادارة السجن . وكان يلقب المرحاض بالباشا نوري السعيد ، فيخاطبه عند النزوح قائلا :

افتح حلقك يا نوري باشا .

كان هناك سجين يهودي آخر مجنون او مفتعل الجنون دعوه اسحق . كان مناضلا شيوعيا في وقت مضى وسجن بسبب نشاطه السياسي. وتدهور في السجن . كان يعيش وحده وبطريقته الخاصة . فهو قذر اشد ما تكون القذارة ، مرتد ملابس رثة ممزقة ويسخم لباسه ووجهه ويديه بسخام القدر عن عمد ويجلس على بعض الخرق القذرة لساعات طويلة وكأنه انسان ماقبل آلاف السنين . قال البعض عنه انه يفتعل لنفسه هذا الوضع بأمل ان يعتبروه مجنونا ويطلقوا سراحه .

على ان شلومو كرادي كان السجين الاغرب في السجن كله . انه كان عالما خاصا قائما بذاته ، كان مجنونا حقيقيا من نوع خاص ونادر جدا . كان من عاداته ان يلبس ملابس رثة ممزقة ومتسخة وسعيش منفردا في ركن احدى القاعات . ويتمشى وحده احيانا ومع غيره احيانا اخرى. واذا اشتهى سيجارة ـ وهو مدخن مفلس لايملك شروى نقير ولايستطيع ابدا شراء سيجارة من جيبه ـ ذهب لاحد السجناء المدخنين ، بصرف النظر عما اذا كان شيوعيا ام صهيونيا ام غير ذلك ، وطلب منه السجارة . واذا رفض طلبه مد اصابعه لانفه وصفر كصافرة القطار تماما . كان قادرا على تمديد الصافرة والاستمرار عليها

مدة طويلة ، حتى يزعج الرجل ويرغمه على تلبية طلبه بتقديم السجارة المطلوبة . واذا سالته لماذا حكم عليك بالسجن المؤبد ـ اي عشرين عاما ـ أجابك فورا :

- الحاكم ماكان عنده خرده .
- حسنا ولماذا سجنوك يا شلومو ؟
- كنت لابسا شفقة واتمشى على الجسر .

كان شلومو يؤخذ مرة كل سنة الى مستشفى المجانين ـ الشماعية ـ ليبقى فيه بين الشهرين والثلاثة وليعاد بعدئذ الى السجن تحت ضغطه والحاحه الشديد . كان عدد السجناء الصهاينة اكبر بكثير من عددنا . ولم تكن هناك علاقة ما بيننا وبينهم . بالاحرى كانت هناك علاقة عداء وحسب . وذات يوم كدنا ندخل في عراك بالايدي معهم بسبب محاولة كل طرف الحصول على اسبقية الغسيل في الحمامات .

بقيت حياتنا منظمة كالسابق ـ هذا خباز وذلك طباخ وذلك يغسل الاواني او يهيئ الشاي او مكلف بغسل الثياب ... مطبخنا واحد وما تأتي به اية عائلة يوضع تحت تصرف المسؤول الاداري وياكله الجميع . في بعض الامسيات تكون هناك محاضرات حول قضايا نظرية او سياسية وفي الصبح نقوم برياضة جماعية او فردية وفي اوقات الفراغ نطالع كتابا او نناقش او نلعن الشطرنج .

كان رفاقنا اليهود اناسا طيبين لاأجد للان ما يمكن ان اميزهم به عن الشيوعيين المسلمين او المسيحيين . وقد انضمت الينا في السجن عائلة مكونة من اليهودي المسن بنيامين ولديه الشابين حسقيل واسحق وتعاملوا بيننا بمنتهى الطيبة والاخلاص واصبحوا حاقدين على الصهيونية حقدا شديدا . عرف بنيامين ذات يوم اننا في حاجة الى مبلغ من المال لتدبير امر ما . فجائني وقال :

- لدي مئة دينار ايها الرفيق ! اخفيتها ـ قبل ان اسجن ـ في كعب حذائي ولازلت محتفظا بها . وأود ان اقدمها لكم الان اذا كانت تسهل لكم الامر .
- شكرا يا ابو حسقيل . احتفظ بالمبلغ لنفسك فقد تحتاجه ذات يوم .

****

في 1954 فوجئت ذات يوم بأن هناك من قدم لمواجهتي . كنت اعرف ان استحصال موافقة السلطات على مواجهتي امر صعب للغاية . وحين خرجت من السجن وجدت ابوي في انتظاري . جلست معهما بضع ساعات واخبرني والدي بأنه لم يترك بابا الا وطرقه طيلة عام كامل حتى حصل على اذن بمواجهتي . كانت المواجهة اليتيمة لوالدي الى السجن اذ لم اره بعدها ابدا وحتى انني لم اسمع بموته في 1956 الا بعد مرور ستة اشهر . كانت عزلتنا مزعجة وكنا نريد نقلنا الى سجون اخرى تحشد فيها رفاقنا . ولهذا الغرض اضربنا عن الطعام اكثر من مرة . وقد خضت اطول اضراب في عمري خلال تلك الفترة اذ استمر اضرابنا سبعة وعشرين يوما ، كنا نشرب اثناءها الشاي فقط . وقد ضعفنا جميعا وتحولنا الى اشباح او الى جلد وعظم . وفي النهاية انهينا الاضراب فاشلين اذ لم نفز بمطالبنا . اظن اننا كنا مخطئين من الاساس اذ لم يكن الاضراب في اوانه ولم يكن بمستطاعنا تحريك الناس في العاصمة لدعمنا بوفود ومظاهرات . وبعد انهاء الاضراب لم نكن لنعرف الشبع خلال اكثر من اسبوع كامل . كان كل منا قادرا على ان يلتهم في كل وجبة طعاما يعادل عدة وجبات لما قبل الاضراب .

كنا نقيم في شتى المناسبات الوطنية والاممية حفلات نهيئ فيها افضل ما يمكن عن الطعام وتلقى كلمات وتؤدى اناشيد وأغان ثورية جماعية وفردية . ويعزف حسقيل قوجمان على عوده ، الذي صنعه له ـ على ما اتذكر ـ سجين آخر بينا . في الحفلات اقاموا ما يشبه المنضدة ليقف خلفها من يلقي خطابه ـ كما يحدث في بعض القاعات الحديثة . غير انني ، وكنت أول من يلقي خطابا ، لم اقف وراء المنضدة انما صعدتها لألقي كلمتي . واثبت بذلك انني لم ار في عمري وحتى ذلك اليوم حفلا اصوليا في احدى القاعات . كنت قد القيت الخطب مرارا ولكن في حشود شعبية داخل الساحات وشوارع المدن ، متخذا مانا لي فوق كرسي او في اي مكان عال . على ان وقوفي فوق المنضدة كان مدعاة لضحك زملائي وسخرية البعض كنهم ، رغم انهم لم يضحكوا اثناء القائي الكلمة احتراما لي .

وصلت بي الحماقة حد المشاركة في مسيرات مع رفاقي داخل السجن ، بمناسبة ما وطنية أو اممية ، لانشد معهم نشيدا يتضمن الاشادة بي وتقديسي ، بدلا من ان امنعهم من ذلك ، حيث كان احد مقاطعه : ((باسم اليه قادنا)) ، اي انني انا الذي قدتهم اليه . وعندما اتذكر اليوم فانني اضحك على نفسي وأحس بنوع من الخجل ازاء السلوك الصبياني البعيد عن التواضع . كانت عبادة الفرد وتقديس القائد هي الاسلوب السائد في الحركة الشيوعية آنئذ . وكان من المألوف ان اكون في تلك الايام ضمن القادة المعبودين أو الالهة المحليين للحركة الشيوعية . وطيلة سني وجودي في السجن لم استلم رسالة شخصية من اي كان سوى رسائل قليلة من زوجتي السجينة أم سلام . أوصل الي البربد ذات مرة رسالة من صديق طفولتي وابن عمتي محمد . وحين قرأتها عرفت ان وصولها الي كان بسبب ما حوته .. فقد طلب مني محمد في رسالته اليتيمة تلك التخلي عن الشيوعية وعن النشاط السياسي . وأجبته رافضا معنفا .

كانت حياتنا رتيبة هادئة خالية من الصخب الذي يلازم حياة اي حشد بشري كبير . فتسنى لي ان اتعلم قدرا لابأس به من اللغة الانطليزية. غير انه لم يتسن لي ، لا في السجن ولا بعد السجن ، ان اتعلم التكلم عن طريق الممارسة الاعتيادية . وظلت هذه مشكلتي وعقدة نفسية لدي على مر السنين .
في 1955 فوجئنا بعودة رفاقنا السجناء ، الذين كانوا قد نقلوا من نقرة سلمان بعد انهيار جمهورية حميد عثمان في 1953 . كان معهم بالطبع سجناء جدد . وكان بينهم الكوادر القديمة باستثناء حميد عثمان ، الذي تسنى له الهروب في 1954 وسلم اليه كريم احمد زمام قيادة الحزب اثر وصوله الى بغداد . وبعودة هؤلاء الرفاق ازدحم السجن وطرأ تغيير كبير على نمط حياتنا اليومية وغدت المواجهات الشهرية للسجن اكثر ازدحاما والحياة اليومية اكثر صخبا وبهجة . وقد خضت اول مسابقة شطرنجية في السجن (وكنت قد تعلمت لعبة الشطرنج في السجن) وفزت بالمكانة الاولى فيما فاز عزيز الحاج بالمرتبة الثانية . وفي توزيع العمل الجديد اصبحت واحدا من سجينين مكلفين بتهيأة الشاي يوميا . كنا نهيئ الشاي في قدر كبير ونصبه في اقداح لتوزع على الرفاق . وكان زكي خيري احد السجينين القائمين بتوزيع الشاي وجمع الاقداح الفارغة وغسلها . عثرت رجله ذات مرة ، وهو يحمل صينية مليئة بالاقداح ، فتكسرت الغالبية الساحقة منها. كان بين السجناء عدد كبير من رجال الادب والثقافة والفنون والرياضة وغيرها . كان محمد صالح بحرالعلوم ، الشاعر النجفي المعروف والمناضل الثوري ، على صلة بالحزب قبل سجنه وحين كنت اقود الحزب قبل اعتقالي . ولكني لم التق به مباشرة الا في سجن نقرة سلمان . كان بسيطا وبشوشا وعالي المعنوية وذا علاقة طيبة مع الجميع . كما كان حريصا دوما على حلاقة لحيته المبيضة وصبغ شاربه بأمل ان يخفي كبر سنه . وكان شغوفا بأن يلقي قصائد وابياتا من شعره في المناسبة وبدون المناسبة . وباستثناء الجانب التقدمي السياسي في انتاجه الشعري ، فان اشعاره كانت فقيرة على الدوام في فنها وجماليتها . وكان اشبه بشاعر فلاحي منه الى شاعر فنان .
وفي نقرة سلمان التقيت لأول مرة مع ابن مدينتي الشاعر الكردي المعروف عبداللة طوران . كان قد سجن بسبب نشاطه الشيوعي . كان لطيف المعشر ، وبسيطا في تصرفاته وحياته اليومية وقويا في معنويته وحريصا على ان يثبت روح التحدي لدى الاخرين ايضا . كنا نجلس للعب الداما وكنت اغلبه احيانا واخسر احيانا . وكنا نثرثر مع بعضنا اثناء اللعب حول مختلف الامور . وتميز بأنه حفظ عددا كبيرا من النكات المتنوعة ، بضمنها نكات تنسب الى جدي بابا علي .
والتقيت هناك ايضا مع السجين الشيوعي البغدادي ولاعب كرة القدم الافضل في العراق آنئذ هادي عباس ، الذي لم يشفع له كونه احسن لاعب في ابرز لعبة فلم ينج من السجن . ولم يترك هوايته الرياضية حتى في السجن ، فنظم لعب كرة القدم . كان عرض الساحة اقل من العرض القياسي . ولكن طولها كان قرابة 130 مترا . وشكل فرقتين تتباريان مساء اغلب الايام ، كان من اعضائها مهدي حميد وسليم اسماعيل وخضير عباس السماوي واسعد خضر وغيرهم .
وكان ضمن العائدين الينا عمر علي الشيخ ، المهندس الذي لم يمارس مهنته ابدا ولم يشبه في قيافته مهندسا . وقد سجن عام 1948 ، بعد اكماله الكلية . كان انسانا بسيطا متواضعا لطيف المعشر ، رغم انه كان ميالا الى الانعزال وقلة الكلام . وقد اصبح ، في اغلب اوقات سجنه ، طباخا لرفاقه السجناء . ولم اسمع يوما بأن يكون طرفا في اية مشكلة مع سجين آخر .
كان هناك ايضا عزيز الشيخ العاني ، عضو لجنة بغداد الحزبية في 1952 . وعلمت فيما بعد انه اصبح عضو اللجنة الحزبية السجنية ، الى جانب مهدي حميد وعمر الشيخ وزكي خيري وغيرهم . وكان سكرتير الجنة ، المعين من قبل حميد عثمان في سجن بعقوبة ، مهدي حميد ، الانسان الجهادي البسيط الطيب الذي لم يملك الحد الادنى من المؤهلات والتجارب السياسية او التنظيمية لكي يقود منظمة السجن . ربما كان كفوءا لقيادة فوج او لواء من الجنود ولكنه لم يكن كفوءا لقيادة النشاط السياسي والتنظيمي .
كانت المسؤوليات الحزبية توزيع عن طريق تعيينات فوقية ولم يكن هناك شئ من الانتخابات ولم يفكر احد في الانتخابات ـ تماما كما كانت الامور قبل اعتقالي ايضا .
وكان بين السجناء طالب عبدالجبار ، الرجل الاول او الثاني من حيث طوله في السجن والانسان البسيط المتحدر من عائلة فقيرة في بغداد ، والذي وهب نفسه كليا لقضية الثورة والشيوعية . واتذكر اننا كنا نتناقش ذات يوم حول اضرار الانحراف اليساري وضرورة التخلص من مخلفاته وعواقبه . وسأل احدهم :

- وما الضمان في ألا نقع في انحراف يميني اذا ما تخلصنا من الانحراف اليساري ؟
- نحن الضمان . فنحن خلقنا يساريين ولايسهل جرفنا نحو اليمين
- اجاب طالب .

لكن وقائع السنوات التالية قد اوضحت ان بالامكان ان يقع الحزب فب انحرافات يمينية ، رغم وجود طالب وأمثال طالب الذين لم يكونوا ابدا يمينيين . في احدى القاعات اقام حشد ضئيل من السجناء الشيوعيين المنشقين ـ جماعة راية الشغيلة ـ الذين ظل عزيز محمد مسؤولا عنهم . وكان لديهم عدد كبير من الدجاج وبنوا له صريفة او صرائف ، بجانب قاعتهم . وكان السجناء يسمون تلك الصرائف عاصمة الدجاج في نقرة سلمان .
كان من طرائف السجن حسين روضة ، الشاب النجفي الذي سجن في حينه بتهمة قتل مفوض للشرطة في احدى المظاهرات . وقد اصيب في السجن بنوع من الجنون أو تصنع الجنون . كان يعيش منفردا . وفي الصباح يلبس عباءته الريفية ، رغم انه

كان ابن المدينة . ويضع يشماخه وعقاله على رأسه ، ويحمل بندقيته ـ وهي خشبة عادية يزيد طولها عن المتر ـ ويشد على طرفيها حمالة من الخيط ويؤدي وسط ساحة السجن التمارين التدريبية لجندي مكلف ،وكأنه يقدم عرضا لمجموع السجناء ، ثم يضع البندقية جانبا وياتي بطائرته الورقية من النوع الذي يصنعه بعض الاطفال في المدن ، ويبدأ بفصل جديد من اللعب ماسكا براس الخيط الرفيع المشدود من طرفه الاخر الى الطائرة. كان سجننا يستقبل بين الفينة والفينة وجبات جديدة من المسجونين السياسيين الجدد من شتى المدن والمناطق . وجاءت احدى هذه الوجبات الينا من الجنود ، الذين اعتقلوا وحكم عليهم بسبب نشاطهم الشيوعي . وعاشوا بيننا معززين الى ان حدث ، بعد فترة ، مالم يسبق مثيله في السجن ـ على الاقل اثناء وجودي . فقد اتضح ان احدهم ، ولم يكن شيوعيا بل صديقا لبعضهم ، كان يتعاطى الجنس ويتساهل مع كل شخص يطلب منه ذلك . وقد انكشف امره لبعضهم بطريقة لا أعرفها . وحمل الحرمان الجنسي الطيول مناضلين جيدين على التورط في علاقات جنسية معه . وحين عرف ضابط الصف السجين كسار بذلك (ويبدو انه كان من ذوي العلاقة الجنسية معه قبل سجنهما ايضا وبقي كذلك بعد سجنهما) كشف امره للتنظيم اما بدافع الغيرة او لسبب آخر . واعترف على نفسه كأحد ممارسي الجنس معه . وحين جوبه الفاعلون الاخرون باعتراف كسار ونوري المفعول به نفسه اصبحوا في موقف حرج . اعترف الفلاحي وحده بجريرته في حين رفض كل من منصور عزيز وجاسم يحيى الاعتراف وتعقدا حتى تركا النشاط السياسي في وقت لاحق .

****

واجهت في حياتي الحزبية اول محاسبة واول عقوبة حزبية على اثر عودة السجناء الى نقرة سلمان . كان شيأ اعتياديا ، بالنسبة الي ، ان يكون غيري مسؤولا وأن اكون خارج الهيئة السجنية المسؤولة بصورة عادية تماما ودونما حساب . لكن ما حدث كان شيأ آخر . واتضح انه كان علي ان ادفع الحساب عن الماضي وخصوصا عن تلك التصرفات التي لم ترق لحميد عثمان عند بداية وصولي الى السجن . فاللجنة الحزبية المسؤولة ، التي عادت الى نقرة سلمان والتي كان على راسها مهدي حميد ، بدأت بمحاسبتي على الماضي ، على الفردية والبيروقراطية واليسارية واليمينية ، واحيانا على شئ لم اعرفه . ولم يكن ماضي الحزبي في واقعه خاليا من الفردية والبيروقراطية وبعض الاخطاء السياسية ... لكن الذين كانوا يحاسبونني لم يعترضوا في الماضي على شئ من هذه الاخطاء ولم يكونو انفسهم سوى كتلة من هذه الاخطاء . فالسبب الحقيقي لمحاسبتي ومعاقبتي كان موقفي من جمهورية السجن ومن شخص حميد عثمان . كان هذا الاخير قد اصبح المسؤول الاول عن الحزب وكان يرغب في ان ينتقم مني . والذين كانوا في اللجنة الحزبية وايدوا حميد عثمان يوم اسس جمهوريته في السجن واقام التمرد المسلح السيوف ، ثم ايدوني لالغاء الجمهورية حين اصبحت انا المسؤول ، هم انفسهم الذين ايدوا مرة اخرى حميد عثمان وانقلبوا ضدي حين اصبح حميد المسؤول الاول في الحزب. وهؤلاء هم زكي خيري ومهدي حميد وعمر الشيخ وهادي هاشم والاخرون . وباستثناء عزيز الشيخ ، الذي كان يعرفني خلال العمل الحزبي في فترة ماقبل السجن ، فان لذين حاسبوني وعاقبوني لم يعرفوا شيأ ملموسا عن وضعي ونشاطي الحزبي لسني ماقبل السجن وبالتالي لم يكونوا قادرين على تكوين فكرة موضوعية عني .. انما كانو مستعدين دوما لتأييد من يكون مسؤولا حزبيا فوقهم . وكان الجميع ميالين الى التشدد في محاسبتي ومعاقبتي باستثناء زكي خيري وعزيز الشيخ اللذين ارادا عقوبتي ولكن بصورة اخف .

كانت احدى التهم الموجهة الي هي انني وصلت حد العداء للاتحاد السوفيتي (وهذه التهمة كانت كافية آنئذ للطرد من الحزب ولاطلاق اسوأ النعوت على المرء) . وكان الشاهد على هذه التهمة هو صادق الفلاحي ، الذي روى لهؤلاء مايلي : سمعت من بهاء في عام 1953 ، حين انهى الوفد السوفيتي في هيأة الامم المتحدة مقاطعته لجلسات مجلس الامن ابان الحرب الكورية ، وهو يقول ان السوفيت احسوا الان بأن مقاطعتهم كانت خاطئة فتراجعوا عنها للمشاركة في الجلسات .

وكنت قد ابديت هذا الرأي فعلا امام الفلاحي وغيره في 1953 . ولكني لم اكن باي حال معاديا للسوفيت ، بل كنت صديقا ، وكنت مقتنعا بأنه حصن السلام والديمقراطية والاشتراكية . لكن ابداء مثل هذا الرأي كان يعتبر تجاوزا على الاممية وجريمة لاتغتفر . وقد تساهل المسؤولون تجاهي ففسروا ما بدر مني بانه تشكيك في سياسة الاتحاد السوفيتي ، لا اكثر!

على أي حال فان المحاسبة انتهت باقصائي من جميع المراكز والمسؤوليات الحزبية وابقائي مجرد عضو في الحزب . وكنت اخشى من ان تتطور الامور حتى الى طردي من صفوف التنظيم الحزبي ـ السجني . ولأدعي باني لم اكترث لذلك ولم انزعج .الا انني لم اعر المسألة اهتماما كبيرا ولم احاول اثارة الضجيج والمتاعب للجنة ، بل بقيت اعتياديا هادئا وتصرفت وكأن شيأ لم يحدث . واحتفظت بالعلاقات الودية الرفاقية مع الجميع ، بمن فيهم اللجنة الذين تولوا محاسبتي ومعاقبتي . وفي وقت لاحق وردتني رسالة من شبان شيوعيين في مدن جنوبية وفي بغداد ، وكان بينهم علي الشيخ حسين الساعدي ، تستنكر ما جرى بحقي وتبدي الاستعداد للدفاع عني ولتلقي التوجيهات مني انا الرفيق باسم السكرتير . وكان جوابي ان نصحت هؤلاء بالكف عن أي نشاط من هذا القبيل وبالالتفاف حول الحزب وحسب .

****

كنا لانزال في سجن نقرة سلمان حين وصلنا ان هناك مباحثات خارج السجن بين قيادة حشع وبين جماعة راية الشغيلة بهدف اعادة التوحيد . ومن وحي هذا الخبر جرت مناقشات بين كوادر السجن ، اشتركت فيها . كانت هناك آراء متباينة ، منها المتطرفة ومنها المعتدلة . كان رأي عزيز الحاج متطرفا لصالح جماعة الشغيلة ـ كما كان شأنه في الكثير من الاحيان . كان

يدعي ان جماعة الشغيلة هم الحزب الشيوعي وأن علينا ان نذهب ونندمج معهم ، في وقت كانت جماعة الشغيلة نفسها تعترف بانها هي المنشقة . وكان هناك ، بين الجانبين ، من يعارض اي اندماج تنظيمي . وقد قررت ان ادرج رايي في رسالة خاصة الى قيادة الحزب ـ وكان حسين احمد الرضي قد اصبح سكرتيرا للحزب في تلك الايام ، واقصى حميد عثمان . ذكرت في رسالتي ان كل جانب هو المسؤول عن تصرفاته واخطائه ولايصح القاء تبعة اخطاء احدهما على الاخر . وقلت ان الخطيئة الكبرى لهؤلاء هي انهم انشقوا .

في تلك الايام نفسها وردت رسالة من قيادة الحزب حول اخطاء وتصرفات السكرتير السابق (ص .) ـ حميد عثمان ـ وتصرفاته الفردية . ماكنت اعرف من هو البديل الذي حل محل حميد عثمان ، لكني كنت على قناعة بان هذا الاخير لايصلح لمنصب المسؤول الاول .

****

يمكن القول اني فكرت في كل شئ سوى ان تسقط عني الجنسية العراقية . ومع ذلك فانها اسقطت . كيف ولماذا ؟ ربما كأحدث اسلوب لتخويف الشيوعيين واضعاف معنوياتهم وبالتالي اضعاف الشيوعية . ولابد من الاشارة الى انني لم اكن الوحيد الذي اسقطت عنه الجنسية. فقد ابلغنا ، انا وزكي خيري وصادق الفلاحي واكرم حسين ، في سجن نقرة سلمان ، بأن السلطات العرقية قررت اسقاط الجنسية عنا نحن السجناء الاربعة وصممت على تسفيرنا الى بلد ما خارج العراق . وامرنا بالتهيؤ للسفر الى بغداد في صبيحة اليوم التالي . ولازلت اذكر بمرارة ان رفاقي السجناء لم يعفوني من خفارة تهيأة الشاي لهم حتى في صبيحة اليوم الذي حدد لسفرنا . فقد انتهيت من خفارة الشاي لابدأ مباشرة قبلات الوداع مع الرفاق ولنسافر تحت حراسة الشرطة الى سجن الموقف في بغداد . ولحسن الحظ لم يكن المدير السابق جبار ايوب هناك . وقد اخذت افاداتنا فردا فردا ولكننا كنا قد اتفقنا مسبقا على ما نقول . كانت خلاصة افاداتنا اننا مواطنون عراقيون متمسكون بموطننا ومصرون على ان نعيش في بلدنا ونموت فيه وندفن بين قبور اجدادنا ، واننا ترفض السفر الى اي بلد آخر ونستنكر قرار السلطات باسقاط الجنسية عنا ونعتبره قرارا مخالفا لجميع الشرايع الارضية والسماوية .

وكان قرار اسقاط الجنسية يشمل كذلك كلا من المحامي الشيوعي توفيق منير والمحامي الديمقراطي كامل قازانجي . ولكونهما غير سجينين فقد اعتقلا ووضعا في موقف آخر بعيدا عنا الى ان اخذت منهما الافادة ثم جلبا الينا . سألناهما عن افادتهما فقال القازانجي :

ـ اني تمسكت في الافادة ـ بمواطنتي العراقية وابديت عدم رغبتي في مغادرته والسفر الى اي بلد آخر . واذا تم تسفيري قسرا وبالرغم من ارادتي فأني افضل السفر الى اي بلد عربي . واذا لم يسمح لي بذلك فاني افضل بلدا محايدا .

وأما توفيق منير فانه حسم الامر بشكل مغاير اذ رفض ـ كما قال ـ اعطاء أية افادة وكتب في الورقة التي قدمت اليه لكتابة الافادة مايلي :

- اني ارفض الاعتراف بهذه الحكومة اصلا وبالتالي ارفض الاعتراف بأي قرار صادر عنها .
- ولماذا لم تعط افادتك بشكل افضل يا ابا موفق ؟ ـ سألناه .
- لم اعرف ماهو موقف الحزب وماذا ستكون افادتكم . فاعطيت هذه الافادة الموجزة خشية ان تكون افادتي ، فيما لو كانت بشكل آخر ، مخالفة لافاداتكم .

كان مدير سجن بغداد قد اوصى بتقديم وفر من اللحوم الينا يوميا لغرض ارضائنا وتلافي مشكلة الاضراب عن الطعام خلال وجودنا في سجنه. وجراء اكثاره من اكل اللحم اصيب توفيق منير بالاسهال الشديد . وأوصى الطبيب ، الذي زاره ، بـ (16) حبة سلفاطوانودين ليتناولها بوجبات خلال يومين . لكن الرجل القى بجميع الحبوب الى فمه دفعة واحدة وشرب عليها جرعة ماء . وتصور بعضنا بان ابا موفق قرر الانتحار . لكن النتيجة كانت ايقاف الاسهال سريعا . وذكر الرجل بأن هذه ليست المرة الاولى في تناول الحبوب على هذه الصورة .

بعد ايام اعدنا الى سجن نقرة سلمان ولم اسمع بعد ذلك شيأ عن اسقاط جنسيتي ، فكأن هذا القرار لم يكن اصلا . ولا أدري هل كانت العملية كلها تمثيلية استهدفت التخويف أم ان السلطة تراجعت عن قرارها .

كانت قراءة الاغاني والاناشيد الثورية من الممنوعات . وقد زيدت احكام السجناء الشيوعيين بعشرات او مئات السنين اجمالا كعقوبة على قراءة هذه الاناشيد . واذكر من بين السجناء د.حسن الوردي ، الذي حكم عليه اول الامر بالسجن سنة او سنتين ثم ازدادت سنوات الحكم الى اثني عشر عاما خلال عدة محاكمات جرت كلها بسبب قراءته الاناشيد الثورية .

ووقفت شخصيا امام قاض استقدم الى سجن نقرة سلمان ، بعد مرور سنة على وجودي في السجن ، ليحاكمني على جريمة ارتكبتها بقراءة نشيد موجه ضد نظام الحكم . وقد اعترفت بقراءتي النشيد وشجبت محاكمتي بهذه الذريعة . في الاخير اصدر القاضي حكمه بالسجن سنة واحدة اقضيها بالتداخل مع حكمي بالسجن المؤبد .

كانت السلطة تسعى لحمل الشيوعيين المسجونين على تقديم البراءة والتخلي عن عقيدة الشيوعية واعلان الاخلاص على قصاصة ورق للملك المعظم ولنظام الحكم .ووراء الحصول على هذه البراءة تعرض السجناء الشيوعيون طوال سنوات متعاقبة لالوان التعذيب والاضطهاد . وقد اشتهر ثلاثة من مدراء السجون السياسية بالوحشية والتعسف في تعاملهم مع الشيوعيين ومساعيهم لاسقاطهم سياسيا ولانتزاع البراءات منهم ـ هؤلاء هم جبار ايوب وعلي زين العابدين ومحمد سعيد

شهاب . وكان الاخير قد عين مديرا لسجن نقرة سلمان وجلب الينا بالارتباط مع مشروع هجوم جديد خططت له السلطة الحاكمة وحبكته دائرة الامن العام .
ذات يوم في 1956 طلب مدير السجن محمد سعيد شهاب ثمانية سجناء بالاسم بذريعة ان الطبيب القادم بنتظرهم ـ وكان الطبيب يزور السجن مرة في الشهر . كنا نعرف جيدا ان المدير نفسه الذي يريدنا وليس الطبيب ، الذي لم يطلب احدا قط بل جرت العادة ان يطلب السجين مواجهته . ولكن ما العمل ؟ لابد من ان يذهب السجناء المطلوبون ـ وأنا احدهم . وما ان وصلنا الى المدير شهاب حتى امر بوضع الخطام (وهو قضيب حديدي مشدود الى حلقتين يثبتان في ساقي السجين ويغدو من غير الممكن ان يبعد بين رجليه او يقرب بينهما اكثر من طول القضيب نفسه) في ارجلنا جميعا ، اضافة الى القيد رقم 2 ، اي القيد الذي يزن كيلوغرامين ، والذي كان في ارجل ذوي الاحكام الثقيلة منا بصورة دائمة . ورعاية لكبر سنه لم يقيد زكي خيري بالخطام ، بل قيد فقط بالسلسلة رقم (8) ـ اي 8 كغم . ومن ثم وضعت القيود (كلبضات) في ايدينا جميعا وأخذنا الى غرفة الحجز التي كان من المصطلح ان تسمى (غرفة الرياضة) . وربطت قيود ايدينا باقفال اضافية الى سلسلة حديدة مثبتة بوتد وسط الغرفة ويقارب طولها المتر الواحد . ودخل علينا المدير بعدئذ ، ووراءه سجان يحمل تنكة فارغة، ليقول لنا :

- هذه التنكة هي مرحاضكم هنا ، تتبولون وتتغوطون فيها ولن يسمح لأي منكم ابدا بالخروج من هذه الغرفة الى ان تموتوا جميعا.

قدمنا الاحتجاج الشديد وصرخنا في وجه المدير الوحشي وطالبناه بالمعاملة القانونية . لكنه استدار وخرج دون اكتراث . وبدأنا نحن نضحك على وضعنا واصطلحنا فيما بيننا على تسمية المدير بـ ((التنكة)) . وتكيفنا رغم انفنا للظروف المستجدة مستخدمين التنكة فعلا كمرحاض لنا . كل ما استطعنا عمله للتخفيف من اثر هذا المرحاض اللعين هو اننا غطيناها بيشماغ احدنا . وفي صبيحة اليوم الثالث نادى المدير علي وعلى مهدي حميد وكامل السامرائي . وأمام غرفة الحجز امر بضربي ـ 25 ضربة فلقة على كف رجلي . وحين انتهى السجان من كيل الضربات سألني المدير ، وأنا لازلت طريح الارض :

- لماذا لم تصح آخ ؟
- لن اصيح ابدا ـ اجبته بتحد .
- اذن اضربوه عشر ضربات اخرى .

وجاء دور مهدي حميد وضرب ايضا (25) ضربة فلقة ، ثم عشر ضربات اخرى لأنه لم يصح آخ . واكتفى المدير بتسديد 25 ضربة الى كامل السامرائي . ونقلونا بعدئذ الى غرفة حجز اخرى ووضعوا فيها تنكة ـ مرحاض لنا . وخلال الايام التالية اصبح كامل في وضع نفسي وصحي صعب . كان مريضا ظاهريا ولكني ومهدي اعتقدنا بأن السبب الحقيقي يعود الى ضعفه العصبي ـ المعنوي وتردده بين ان يصمد وأن يقدم البراءة ويخرج من السجن . وكنا ندرك بأن اعادته الى السجن ستغير وضعه كثيرا . واثبح همنا الاول (او مشكلتنا الملحة) ان ننقذه من الانهيار . وتذرعنا بمرضه للضغط على الادارة بغية اعادته الى السجن . وعلمنا ذات يوم ان الطبيب قد وصل في زياته الشهرية . فاقمنا الضجيج حتى ارغمنا الادارة على عرض كامل عليه كمريض ومن ثم عرضنا . شكونا حالنا الى الطبيب ـ وكان انسانا طيبا ـ وتساءلنا عما اذا كان من الانسانية ومن مراعاة الشروط الصحية في السجون ان توضع التنكة في غرفة صغيرة كمرحاض للسجناء . فاحتج الطبيب بقوة وطالب المدير بازالة التنكة واحلال الوضع الاعتيادي وهدده باتضاذ الاجراءات القانونية في الدوائر الصحية والقضائية ، كما كتب الادوية لغرض العلاج والرحة لكامل . بذلك حلت مشكلة كامل حيث اعيد الى السجن . وازيلت التنكة وحصلنا ، انا ومهدي وسائر رفاقنا في الغرفة الاخرى ، على ((مكسب عظيم)) ! اخذنا مرتين يوميا الى المراحيض .
كان عزلنا في غرفة الحجز الخارجية بداية هجوم بوليسي شامل على السجن كله بقاعاته العشر . فقد هيئ حشد كبير من السجانين البدو وشرطة البادية وقادهم المدير نفسه في عملية مداهمة وغزو ـ مقرونة بسلب الممتلكات الشخصية البسيطة للسجناء جميعا ، الذين شتتوا واخذ الكثيرون منهم الى غرف الحجز المتفرقة فيما قيد الكثيرون من ايديهم وربطوا الى قضبان الشبابيك داخل القاعات . وكان السجانون ورجال الشرطة يتسابقون ويتنافسون على سرقة ونهب حقائب السجناء وملابسهم وأدوات حلاقتهم واي شئ يقع تحت أيدي الفاتحين .
على ان الفصل المضحك من المأساة كان في عملية نهب الدجاج الموجود في السجن . فقد كان كبر مساحة السجن عاملا ملائما لتربية الدجاج . وكانت هذه ((المهنة)) تخلق فرصة امام بعض السجناء ، سيما من المتفرقة غير المنتسبين الى اي تنظيم ، لقضاء الوقت والانشغال بالدجاج والحصول على البيض . وكانت عاصمة الدجاج ـ كما اسبقت ـ لدى جماعة راية الشغيلة . وبعد اكمال عملية نهب القاعات العشر بدأت عملية النهب التكميلية ـ نهب الدجلج . وكانت الدجاجات كلها طليقة في تلك الساحة الفسيحة ، كما كانت نشطة ، من النواع المحلي وليس من دجاج حقول تربية الدواجن . كانت هناك مطاردة جماعية ، بالاحرى مسابقة جماعية ، بين رجال الشرطة والسجانين وبمشاركة عدد من السجناء الشيوعيين الذين بقوا طليقين لغرض تهيأة الطبخ والخبز وتقديم الخدمات للمحجوزين . اذا امسكت بدجاجة اصبحت ضمن ممتلكاتك . وعليك ان تحاول مسك اكبر عدد منها وأن تسرع في ذلك وتسرع في الركض لأن غيرك يسعى ايضا . عدد كبير من السجانين والشرطة ومن السجناء يركض ركضا سريعا وراء اعداد من الدجاجات والديكة . وهذه الاخيرة تأبى الاستسلام بسهولة وتصر على الركض وتطير بقدر ما تستطيع وتنقنق للاستغاثة . فتصور هذا المنظر المضحك المحزن .

وقد ذبح رفاقنا السجناء الطليقون جميع ما امكن لهم الحصول عليه من الدجاج . وكان يجب أكلها لكي لاتتلف . في مساء ذلك اليوم استلمنا ، نحن فريقا من السجناء المحجوزين خارج مبنى السجن ، دجاجات مقلية بمعدل دجاجة لكل شخص . كانت اكلة لذيذة .

عندما حدثت عملية ((الانفال)) السجنية كان السجين اليهودي المجنون شلومو كرادي في مستشفى المجانين ، بعيدا عن السجن . وحين رجع ورأى الوضع متغيرا كليا ، حيث شتت السجناء وقيد الكثيرون وربطوا الى قضبان الشبابيك ، ولم يبق شئ من المشاهد السابقة التي كان يراها قبل ذهابه ، مشاهد لعب كرة القدم والكرة الطائرة وتمشي السجناء الاعتيادي في الساحة وتدريبات حسين روضة مع بندقيته وطائرته الورقية .. الخ ، فعلق قائلا :

- ما أدري المدير ليحق لو الجماعة ليحقين ؟ (أي لا أعرف هل جن المدير أو الجماعة ؟) .

عند هجومه علينا لم يميز مدير السجن بين منتسبي ح.ش.ع ومنتسبي راية الشغيلة وحتى السجناء الذين لم تكن لهم اية علاقة بالشيوعية او بالسياسة . فالجميع نهبوا وعوملوا بقسوة متناهية . وفي غرف الحجز والتعذيب التقينا مع عناصر راية الشغيلة . في هذا الوقت كانت المفاوضات جارية خارج السجون لغرض الوحدة التنظيمية ، الامر الذي كسر الحاجز النفسي وساعد على تهيأة اجواء افضل للتوحيد العملي في السجن . في ايام الهجوم علينا تلك جلست لأول مرة مع عزيز محمد وآخرين من زملائه لنتعرف علي بعضنا ونتبادل الاحاديث والنكات . وترك الكثيرون منهم انطباعا حسنا لدي وغدوت انظر اليهم كرفاق لي وكشيوعيين وضعتهم الظروف في ذلك الموقف .

فشل الهجوم على السجناء في تحقيق هدفه بحملهم او حمل عدد منهم على الركوع وتقديم البراءة الى السلطات . لم يعد وضعنا كالسابق من حيث الهدوء النسبي وممارسة النشاط الثقافي والرياضي اليومي . لكنهم وعدونا بنقلنا من نقرة سليمان الى سجن آخر . وبعد ايام جرى النقل فعلا . اخذونا الى سجن بعقوبة ، الذي كان قد انشئ فيه جناح مكون من 32 غرفة على طريقة حديثة اذ كانت مساحة الغرفة تسعة امتار مربعة وفيها مرحاض ومغسل وشباك لاباس به مطل على ممر بين قسمين من البناء . كان هذا الجناح يعتبر سجنا حديثا ومريحا فيما لو جهز بالاسرة ومستلزمات الحياة الاعتيادية من كتب وصحف ومذياع وأدوات التسلية البريئة وفيما لو كانت ابواب الغرف مفتوحة ليل نهار والسجناء احرارا في التحرك داخل السجن والتزاور فيما بينهم واستقبال ذويهم في مواجهات اعتيادية . بكلمة اخرى فيما لو كان في العراق حد لاباس به من الديمقراطية ومن الحضارة ومراعات حقوق الانسان . غير ان مدير السجن علي زين العابدين ، الضابط الملازم المسؤول سابقا عن اسطبل للخيل والبغال قبل نقل خدماته الى السجون ، كان قد حول هذه الغرف الى جحيم حقيقي للسجناء السياسيين والى زنزانات انفرادية مغلقة الابواب ليل نهار مخصصة للتعذيب الجسدي والنفسي .

عند وصولنا الى السجن جمعونا ، نحن اغلب الكوادر والمسؤولين ، في قاعة متوسطة السعة للسجن القديم وعشانا لبعض الايام في شئ من الهدوء النسبي ، حيث لم يكن ضرب وتعذيب جسدي ، رغم ان حرماننا من رؤية الصحف والكتب والراديو ولعب الشطرنج وجميع اشكال التسلية البريئة قد استمر ، واننا بقينا في ملابس السجن الحقيرة مقيدين بالسلاسل الحديدية .. الخ . وقد ناقشنا وضعنا وبلورنا بعض المطالب التي لاغنى عنها حتى لحياة السجين الاعتيادي ، والتي تكون جزءا صغيرا مما يدخل ضمن حقوق الانسان . واتفقنا على ان نسعى من اجل فرض عمر الشيخ تدريجيا كممثل لنا لدى ادارة السجن ـ كما كانت العادة في السجون الاخرى . وذهب عمر فعلا لمواجهة المدير وعرض بهدوئه المعهود هذه المطالب الصغيرة واستمع اليه ولم نحصل على أي نتيجة .

بعد أيام استدعاني زين العابدين فجأة وأخذني احد السجانين الى غرفته . كان جالسا وراء مكتبه بعجرفة عجيبة . وطلب مني الوقوف في الغرفة اماه خشية ان اجلس من تلقاء نفسي . وبقي بعض الوقت يتفرس في وجهي كأنه يقرأ شيأ . ثم قال :

- ماهي مطالبكم ؟
- هي معروفة لديك اذ عرضها عمر الشيخ قبل أيام وليس لدي ما أضيفه .
- أريد ان اسمعها منك شخصيا .
- سيد ! استطيع ان اكرر ما ذكره عمر الشيخ .

نهض المدير من مكانه وتقدم خطوتين نحوي ، وهو يفتعل الغضب وكرشه يهتز . وقال :

- انا لست السيد المدير ، انما انا سعادة مدير سجن بعقوبة رغم انفك .
- خوش ! انت سعادة مدير السجن لكن كلمة السيد لاتحوي اساءة ولا تتعارض مع ذلك .
- لن اسمح لأي كان بأن يكون في حضوري غير مؤدب .. فهمت ؟

مع هذه الكلمة الاخيرة اشر بعينيه على رئيس عرفاء السجن ابو كمال ذي الشاربين الضخمين المفتولين الابيضين وذي الهندام النظيف المرتب كما لو كان احد جنرالات الجيش في الامبراطورية التركية . ونفذ ابو كمال ، مع سجان كان يقف خلفه متهيأ ، امر المدير المفهوم لديه جيدا . فانهال الوحسان علي بالضرب داخل مكتب الجلاد نفسه لبضع دقائق . ثم اخذت الى حيث وضع في رجلي الخطام ، فوق سلسلتي الاعتيادية ذات الكيلوغرامين ، ووضع القيد (الكلبجة) في يدي ونقلت الى احدى غرف السجن الانفرادي لاترك هناك على ارضها الكونكريتية ويقفل علي الباب . وبعد حوالي عشرين دقيقة فتح الباب ودخل العريف السجان الموصلي المنشأ والشرس جدا ابو غانم . سالني دون ان اعرف هدفه من سؤاله :

- لماذا ضربوك ولماذا اتوا بك الى هنا يا ولدي ؟ ماذا عملت هناك ؟
- لم اعمل شيأ ولا أعرف لماذا اتو بي ولماذا اعتدوا علي .
- اذن ابق هنا ولاتتحرك ابدا .
- زين .

مع تفوهي بكلمة زين انهال علي العريف بالضرب الوحشي بنفس الطريقة التي جرت في غرفة المدير . كان يضربني ويقول : ((لا تقل زين كلب ابن كلب ! قل مليح) . هناك ، في مكتب المدير ، ضربت لأني قلت ((سيد)) بدل سعادة المدير . وهنا ضربت لأني قلت ((زين)) بدل مليح. المسألة واضحة . المدير قرر الضرب والتعذيب الجسدي . والعريف الموصلي ارسل ليضربني من جديد وانا مقيد اليدين والرجلين في غرفة السجن الانفرادي . وليس من المهم أن يكون هناك سبب وجيه . فالذريعة تفتعل والجريمة تنفذ . وهذا هو المهم لدى هؤلاء .

بقيت وحيدا مقيدا من اليدين والرجلين في هذه الغرفة الانفرادية ، والباب مقفول علي ليل نهار لاربعة اشهر كاملات . وكان كل شئ ممنوعا هناك ، حتى ساعتي اليدوية اخذت مني لحوالي الشهر ويئست منها ولكنها اعيدت الي ذات يوم وفرحت بها كثيرا . كان لدي منديل من قماش منقط . وقد كررت عد النقاط الصغيرة مرارا وتكرارا لا لسبب سوى انه لم يكن هناك ما يشغلني . ولم يحدث ان يفتح علي الباب طيلة الاسابيع المتلاحقة الا مرة واحدة وليدخل الغرفة رجل لم اتوقعه ـ انه جميل عبدالمجيد ، رئيس المحكمة العسكرية التي حكمت علي بالسجن في 1953 . هذا الرجل يعرفني جيدا ، كما اعرفه انا . وهو يكن لي الحقد والكرهية . بالامس كان يحاكمني باسم حكومة صاحب الجلالة واليوم يعذبني في السجن بوصفه مدير السجن العام .

اظن ان المدير العام قد فوجئ بهذا اللقاء غير المتوقع في غرفة السجن الانفرادي . فتفرج علي بعض الوقت دون ان يتفوه بكلمة . وبادرت انا بالكلام ، وقد بقيت جالسا ، فقلت :

- انا احتج على هذه المعاملة اللاانسانية واطالب باسم القانون وباسم الانسانية بأن نعامل معاملة انسانية وأن ينتهي التعذيب الوحشي بحقنا .
- ابقوه هنا مقيدا ، ابقوه الى الابد .. ليكن هذا قبرا له ـ اجاب المدير العام ، وهو يوجه كلامه الى زين العابدين ـ فهو يستحق الموت هنا لأنه يريد قلب نظام صاحب الجلالة المعظم .. يريد جمهورية .

بعد هذه الكلمات خرج المدير العام واقفل علي الباب من جديد . وبقيت في غرفة السجن الانفرادي اربعة اشهر كاملات تركت اثرها على وضعي الصحي ، خصوصا بسبب القيود الثقيلة في يدي ورجلي . وبعدها جاء الفرج اذ رفعوا عني الخطام والكلبجة وجمعونا ، انا وزكي خيري وآرا خجدور ومهدي حميد ، في فة واحدة من نفس الطراز . كان ذلك تطورا هاما في حياتي اليومية اذ خرجت من عالم الصمت الدائم واصبحت بين اناس اعرفهم واستطيع التكلم معهم وتبادل الحديث والنكات والضحك . اعيد الي شئ من آدميتي التي افقدتني اياها الوحدة خلال الاشهر الاربعة المنصرمة . فاصبح الزمن اسرع والنهار اقصر . وغدت الزنزانة المكونة من تسعة امتار مربعة قاعة للمناقشات السياسية والنظرية ولاستعراض احداث تاريخية او حوادث سجنية وفي فترات غير قليلة للضحك والنكات . وبقينا سوية في هذه الزنزانة قرابة عام ولم يحررنا منها الا ثورة 14 تموز 1958 . وفي بعض الايام ، على ندرتها ، كانت ادارة السجن تسمح لنا بالخروج الى الشمس في ساحة صغيرة مابين قسمين من المباني ، فقط لمدة 45 دقيقة . وكان يقف علينا رئيس العرفاء السجان ابو اسماعيل ، الذي كان رجلا هادئا وحريصا على تجنب اي اهانة او اساءة الينا . شكا لنا ابو اسماعيل حاله في احد الايام . فقال انهم يعدوننا منذ مدة طويلة بمنحنا حق التقاعد ، وما من قبض . فاجاب مهدي :

- ابو اسماعيل ! من المؤكد انهم لن يعطوكم التقاعد .

انزعج الرجل من ذلك . واشرت على مهدي ان لاداعي لمثل هذا الازعاج . فقال فورا :

- ابو اسماعيل ! اكيد يعطوكم التقاعد .

ولم ارض عن هذه الاجابة ايضا . سألت عما اذا كان مهدي رئيس الدولة حتى يؤكد ان الراتب التقاعدي سيمنح للسجانين . فقال فورا :

- ابو اسماعيل ! لو يعطونكم لو مايعطونكم .

فضحك السجان وضحكنا معه وطيلة الاشهر اللاحقة .

روى لنا زكي خيري ذات يوم قصة خلف ابن امين ، الرجل البغدادي البسيط المغرم بالتظاهر الفارغ وبأن تنسب اليه اعمال غير اعتيادية من العراك والسرقة وماشابه دون ان يكون قد عمل شيأ . وبعد ذلك كنا ندعو مهدي حميد بـ ((ابو امين)) ثم عممنا الكنية على جميعنا كمزاح. واجرينا انتخابات لتحديد خلف رقم واحد ففاز مهدي وزكي بالمرتبة الاولى .

كانت غرف السجن الانفرادي حوالينا مليئة بالسجناء ، بمعدل اربعة اشخاص لكل زنزانة . وباستثناء غرفة واحدة كان فيها شبان اربعة بصريون ، بينهم شاكر محمود وهشام البعاج ، فان جميع الغرف كانت مسرحا للمماحكات والمشاكل اليومية بين ساكنيها . كان العديد من الرفاق يدخلون مع بعضهم في مشادات ومشاكل لأتفه الاسباب ، واحيانا من دون سبب . فالارهاق العصبي والقلق الدائم من مخاطر الاعتداءات والحرمان من نعمة الاختلاط مع الناس ومن التمتع بوسائل التسلية البريئة ، بل

الحرمان حتى من الشمس ومن الهواء الطلق ... كل هذه جعلت الشاب المسجون متوتر الاعصاب وقد ينفجر لسبب تافه . فاصبحت احدى المهمات الرئيسية لنا هي اصلاح ذات البين بالاسهام في حل او تخفيف المشاكل الناشئة في غرف اخرى . ولم يكن من الصعب ان نعرف هذه المشاكل . اصبح بامكاننا ان نعرفها عن طريق المراسلة او الرعض الشفهي المباشر في نوبة حراسة البعض من بين سجانين كانا بمثابة رفيقين حقيقيين لنا جديرين بالاعتماد عليهما .

كان اعقد المشاكل التي اشغلتنا اكثر من غيرها طوال اسابيع او اشهر هي مشكلة الشيوعي عزيز الحاج ، الذي كان نزيل احدى غرف السجن الانفرادي بصحبة عدنان البراك . كانت المشكلة ان عزيز بلغ درجة قصوى من الضعف واصيب بالانهيار المعنوي لدرجة لم يعد بمقدوره ان يخفي شيأ . كان من المحتمل ان يقدم البراءة في اي لحطة . وهذا ما كنا نخشاه ونحاول تلافيه آخذين بنظر الاعتبار ان الحاج كادر حزبي معروف . كان يبكي في ساعات طويلة من النهار والليل . كان مترددا ومتذبذبا بين ان يصمد ويبقى سجينا او يقدم البراءة ثمنا لاطلاق سراحه . وقد وجه بنفسه رسالة الينا (اطلع عليها كل كادر السجن ، بضمنهم عزيز محمد وعمر الشيخ ، اضافة الينا نحن الاربعة) ذكر فيها ما معناه انه غير قادر على الصمود والبقاء في السجن وهو يستطيع ان يكون اديبا ديمقراطيا وليس شيوعيا.كان عدنان البراك يخبرنا تفصيلا عن وضعه المتدهور ويسهم شخصيا اسهاما نشاطا في تشجيعه على الصمود . وقد امكن في النهاية التغلب على الازمة النفسية لعزيز الحاج ومساعدته على اجتياز الفترة الصعبة . بيد اننا قد اخطأنا في تقديراتنا ـ حسب تصوري ـ اذ ضغطنا على هذا الرجل ليحمل عبئا كان فوق طاقته . وكان الافضل والاصح ان يترك ليخرج من السجن عن طريق البراءة ويصبح اديبا ديمقراطيا كما كان يرغب .

كان بين نزلاء السجن الانفرادي حسن عوينه النجفي مع ثلاثة شبان في غرفته بينهم سعيد موسى ، وهو شاب طيب القلب وغبي اثول . في احدى الوجبات وزع المعكروني على السجناء وتمكن حسن من ايهام زميله سعيد ، الذي لم يسبق له تناول هذه الاكلة ، بأن ما ياكله هو مصارين الدجاج المجففة . وفي اليوم التالي سأل سعيد احد زملائه ، عند اللقاء خارج الغرفة ، عما اكله ظهيرة اليوم السابق . فاجاب السجين :

- اظن اننا اكلنا المعكروني .
- وماهو المعكروني ؟
- المعكروني هو المعكروني .
- لك الحق الا تعرف ما اكلت امس لأنه طعام الاكابر وليس طعاما لأمثالك .
- ماهو هذا الطعام ؟ ماذا اكلتم انتم ؟
- اكلنا جميعا مصارين الدجاج المجففة .

وهكذا باع سعيد موسى لغيره البضاعة المزيفة ، التي باعها اليه حسن عوينه

****

كان الشاعر عبداللة طوران بين نزلاء احدى غرف السجن الانفرادي . وابلغت ذات يوم بأن اللجنة الحزبية في السجن قد انزلت به عقوبة تجميد عضويته في الحزب . ولم اكن عضوا في اللجنة الحزبية ولم يكن بمقدوري عمل شئ في ذلك الوقت . لكنني لن انس القضية . ففي اليوم الاول من لقائي مع سلام عادل ، اثر خروجي من السجن في تموز 1958 ، عرضت عليه ما حدث لطوران وأبديت عدم رضاي وعدم صواب الاجراء المتخذ بحقه . فقال سلام عادل :

- اذن ابلغه بأن القرار المتخذ بعقوبته لم يحظ بموافقة الحزب وتقرر الغاءه ، وان طوران عضو في الحزب كما كان في السابق .

وقد ابلغت طوران بذلك في لقاء معه في اليوم التالي ، واوضحت له موقف السكرتير شخصيا . وفرح بذلك كثيرا .

****

حظت في سجن بعقوبة بزيارة عائلية واحدة حسب . اتتني امي والبعض من اخوتي واخواتي سوية بعد ان استحصلوا الموافقة الرسمية على الزيارة بصعوبة بالغة . اشرف المدير نفسه على اللقاء مباشرة وكلف بعض رجاله بالجلوس معنا وسماع احاديثنا العائلية . كانت المواجهة مفاجأة غير متوقعة بالنسبة الي . ولم اعرف بعضا من اخوتي الا بعد ان اخبروني . كنت قد تركتهم في حينه وهم صبية صغار . ورأيتهم في السجن وهم شبان ذوو شوارب ضخمة.

منع المدير دخول صبي صغير ، كان ابن اختي ، الى السجن ليرى خاله . ولم يكتف بذلك بل انتزع منه جهاز التصوير البسيط (الكاميرا) الذي كان يحمله بذريعة انه حاول اخذ صور للسجن او للسجناء . ولم تطل المواجهة اكثر من عشر دقائق . فقد انهاها المدير وصرف هؤلاء القادمين من السليمانية وأرجعني الى السجن الانفرادي .

حين اتحدث عن سجن بعقوبة فاني لا أستطيع عدم التحدث عن الصديقين او الرفيقين السجانين كاظم والسيد المتحدرين من الريف ، من بين الفلاحين الفقراء . الاول من ريف العمارة والثاني من ديالى . تعرفنا عليهما في السجن ، اثناء ساعات حراستهما . كانا رجلين طيبين أصلا . وازدادا طيبة بتأثير العلاقة معهما وتوعيتهما . وكان الحقد على الاقطاعيين ، خاصة لدى كاظم ، قد اوجد تربة خصبة للتفاهم معنا والتقرب الينا .

اثناء حراستهما كنا نتحدث الى بعضنا البعض في غرف السجن الانفرادي ، واقفين وراء الابواب الحديدية ، مقربين افواهنا من ثقوبها ، متجنبين ارتفاع الاصوات والصخب ومعتمدين على يقظة صديقنا الحارس ، الذي كان يطلق اشارة معروفة في حالة ظهور اخطار . وكان السجان السيد يجلب لنا بانتظام الرسائل والمطبوعات الحزبية من خارج السجن . وفي احدى هذه الرسائل اطلعت على مزيد المعلومات عن تصرفات حميد عثمان الصبيانية على اثر ازاحته من منصب السكرتير . وفي رسالة اخرى ـ اظن انها وردت الينا اواخر 1957 كتبت الينا القيادة تقول ان من المؤمل الا نبقى طويلا في السجن وان نسترجع حريتنا في وقت قريب ـ وكانت هذه اشارة الى توجه ح.ش.ع نحو تدبير انقلاب عسكري ، او ثورة يستخدم فيها الجيش ، للاطاحة بالنظام الملكي ولاطلاق سراح السجناء .. الخ .

علمنا ذات يوم ان فرحان طعمة ـ وكان احد الكوادر الحزبية ـ قد جلب الى احدى غرف السجن الانفرادي لدينا ، وانه منهار معترف . رأينا من المهم جدا ومن الضروري ايصال الخبر على جناح السرعة الى قيادة الحزب في بغداد لكي تحتاط ازاء ما لاتحمد عقباه من هذا الشيوعي المنهار . ولكن كيف يمكن ايصال الخبر وبسرعة ؟ دبرنا استدعاء صديقنا السجان كاظم ، رغم انه لم يكن في نوبة حراسته . وقلت له :

- لدينا رسالة مستعجلة جدا ، يا ابا جواد ، ونريد ايصالها الى بغداد دون اي تاخير . اظن انك تستطيع تدبير الامر وايصالها سريعا .
- المشكلة ان نوبة حراستي ستحل بعد ساعتين ونصف والحراسة نفسها تستغرق ساعتين بعد ذلك يمكنني اخذ الرسالة الى حيث تريدون .
- انها قضية مستعجلة يا ابو جواد .. حاول الاتفاق مع احدهم ليأخذ الحراسة بدلا منك ، لكي تسافر سريعا .

بعد نصف ساعة كان السجان كاظم قد اتخذ مكانا له في احدى سيارات الباص المتجهة الى بغداد ، وفي جيبه رسالو صغيرة . وبعد قرابة اربع ساعات عاد الينا ليخبرنا بأنه اوصل الرسالة الى العنوان المحدد في بغداد .

بعد خروجنا من السجن باكثر من ثلاثة اشهر اخبرني احدهم ، وكنت ساعتها في مقرنا شبه العلني ، بأن هناك شرطيا يريد اللقاء معك ، واسمه كاظم . عرضت عليه تقديم اي مساعدة في حدود امكاناتي الشخصية او الحزبية . فشكر وقال بإباء وعزة نفس :

- شكرا ! اتيت لزيارتكم كصديق .

من مشاهد سجن بعقوبة ، التي لايمكن نسيانها ، كانت زيارة وزير الداخلية سامي فتاح . لم يخبرنا احد بهذه الزيارة ولم نتوقعها . كل ما علمنا هو ان مدير السجن كان مرتبكا وقام بجولة خاطفة في السجن وخرج بسرعة . وبعده اتى احدهم واخرجنا ، نحن عددا من السجناء المسؤولين ، من غرفنا الى الممر الذي يحيط بالمبنى ، وأوقفنا في مكان ما دون أن نعرف سببا لذلك . كنا في حيرة من الامر وننظر الى وجوه بعضنا البعض والى السجان الواقف بجانبنا . بعد قليل اخذنا في جولة مستديرة داخل الممر المحيط بالمبنى ، ثم ادخلنا الى احدى القاعات داخل المبنى ومن هناك الى مكان آخر . يظهر ان العريف السجان ، الذي كلف بتنفيذ هذه اللعبة ، لم يتقنها . فاصطيد اخيرا . وجدنا انفسنا امام الزائر الوزير ، الذي اراد المدير اخفاءنا عنه خشية ان نشكو حالنا اليه . ارتبك المدير عندما فوجئ بهذه الحالة لكنه لم يكن قادرا على عمل شئ . وقف الوزير عندنا وقدمنا الاحتجاجات والشكاوي التقليدية ولكنه لم يعر الكثير من الانتباه . فقد كان على علم ودراية بما نحن فيه من وضع . وكان احد رجال السفارة البريطانية المعتمد عليهم . جاءنا وشاهد وخرج دون ان يترك اثرا على السجن ، وكأن شيأ لم يكن . وبقي ضابط البغال المتوحش والدودكي ـ حسب مزاعم البعض ـ يسرح ويبطش بالسجناء كما كان في السابق ولم يوقفه شئ عند حده سوى ثورة 14 تموز .

9

ثورة 14/ تموز 1958

منذ وقت مبكر من الصبح شعرنا ، ونحن في زنزانتنا داخل السجن الانفرادي ، بان هناك شيأ ما غير اعتيادي . ذلك لأن حركة غير اعتيادية دبت في ممرات السجن وان المدير تجول وتفقد الوضع في السجن . وكان يظهر مرتبكا . كانت جولته هذه مختلفة عن الجولات السابقة . في الماضي لم يحدث ان يتجول في مثل هذا الوقت ، بل كان يتجول ويفتح الابواب حوالي منتصف الليل او بعيده ، بعد ان يكون قد خرج من ناد للشرب والقمار . وكان يدخل غرف الانفرادي صارخا شاتما ضاربا . لكن جولته اليوم لم تقترن بشئ من العنتريات والاعتداءات . ما السر وراء ذلك ؟

نشأت حسحسة بين السجناء ايضا . وادعى البعض من ذوي السمع المرهف انه يسمع ضجيجا وهتافات خارج السجن ، في مدينة بعقوبة نفسها. كان هناك لغز بالنسبة الينا . ولم يحله لنا سوى صديقنا السجان السيد ، الذي وصلنا ليهمس من فتحة باب زنزانتنا قائلا :

- صارت الثورة وطار الملك ! صارت جمهورية !

اذن هي الثورة . فرحة كبرى تغمر القلب ولايجد المرء من الكلمات ما يعتبر بها عنها .. احاسيس لايمكن ان توصف . انها الثورة ، التي بها تغنينا ومن اجلها ناضلنا وضحينا .. من اجلها دخلنا السجن وصمدنا امام الارهاب والتنكيل وتحملنا العيش في جحيم جبار ايوب ومحمد سعيد شهاب وعلي زين العابدين .. فيا لها من بشرى عظيمة . السجين السياسي يحس الان ، في

هذه اللحظات التاريخية المباركة ، بما لم يتحسسه يوما . يحس بزهو لم يسبق مثيله . فقد اثمرت جهوده وجهود رفاقه ، الذين بشروا بالثورة وتنبأوا بحتمية حدوثها وناضلوا بجرأة ونكران ذات من اجل انتصارها . ربما شعر في يوم ما ، قبل هذا اليوم العظيم ، بالارهاق والانزعاج والارهاب جراء السجن والعذاب. جاء الحرمان من متع الحياة الاعتيادية بسبب حبسه وراء هذه القضبان الحديدية اللعينة . لكن كل احساس من هذا القبيل قد تبخر الان . فهو مسرور وفخور بنفسه . صمد وتمسك بقضية شهبه وبأمل الخروج من السجن في يوم ما مرفوع الرأس معتزا .

تواترت الاخبار تدريجيا وتكاثرت المعلومات حتى تكونت لدينا لوحة لما حدث في بغداد : ثورة قام بها الجيش وجمهورية ولدت في صبيحة هذا اليوم . الى جهنم وبأس المصير ايها النظام الملكي العميل ! لنا الفخر في اننا وضعنا امام الشعب مطلب اسقاطك منذ 1952 وناضلنا من اجل قيام الجمهورية ... مرحبا بك ايتها الجمهورية الفتية المنبثقة من ارادة الشعب ونصره المبين .

بقدر ما فرحنا نحن بالثورة حزن بها مدير السجن وامثاله من صغار اعوان النظام . هم كانوا يعرفون في الساعات الاولى اكثر مما عرفناه . عرفوا ان الوصي والملك قتلا . ولكنهم كانوا يعيشون في الامل بعودة نوري السعيد ، الذي افلت من قبضة الثوار ، الى الحكم واعادة المياه الى مجاريها . جاء المدير وقت الضحى وتجول من جديد في غرفنا ، وهو مرتبك ومذعور . وقال بلهجة من تهدده شر مستطير :

- لاتفرحوا كثيرا .. فالمسألة لم تنته بعد . غدا سيعود نوري السعيد على راس قوة عسكرية ويستعيد السلطة من جديد ـ لم نجبه ولم نناقشه لأننا لم نكن على معرفة دقيقة بما جرى ويجري في العاصمة وكل البلاد . فقط طالبناه بفتح ابواب الغرف والسماح لنا بالالتقاء والاختلاط مع بعضنا . ورفض طلبنا مدعيا ان للسجن نظاما تجب مراعاته .

انقضت ساعات النهار كلها ونحن في غمرة الفرح ونريد ان نعرف المزيد والمزيد من الاحداث . وحل الليل في صمت دون ان نحس به ، كما لو كان لصا ماهرا . صدقوني انني لم انم ولا لحظة واحدة في تلك الليلة . ظللنا نناقش ونحلل ونعلق ، انا وزكي وأرا ومهدي ، حتى الساعة الثانية بعد منصف الليل . ثم تمددنا بزعم اننا نريد ان ننام . لكن النوم اصبح من المستحيلات في تلك الليلة ، بالنسبة الى الكثيرين منا . الثورة الظافرة اراحت اعصابنا وعوضتنا عن تلك الراحة التي يحتاج اليها المرء ويكسبها جراء تخدر خلايا مخه ـ اي جراء النوم . اظن ان حالتي كانت حالة رفاقي الثلاثة في الزنزانة ، وكانت حالة الغالبية الساحقة من السجناء الشيوعيين في تلك الليلة .

لا أخفي اننا كنا قلقين ايضا من بقاء نوري السعيد حيا طليقا خارج قبضة الثوار . فهو كان عميد الرجعيين المعترف به محليا وخارجيا . ولكن الفرحة قد استكملت في اليوم التالي ، حين سمعنا ان نوري السعيد قد قتل على ايدي الجمهور النتظاهر في شوارع العاصمة الثائرة .

قامت الثورة وسقط النظام الملكي بضربة خاطفة وانتهى الوصي على العرش عبدالاله وعميد الرجعيين نوري السعيد دون ان يكون لهما دفن وقبر . سحلا في الشوارع ومزقا اربا ولم يبق منهما ما يمكن دفنه . هذا شئ غير اعتيادي ، غريب بالطبع ومخالف للتقاليد السائدة عبر القرون المتلاحقة .. ولكنه هو ما حدث . وقد عنه الكثير من جانب العراقيين وعرب واوروبيين ، كلهم استنكروا السحل وبكوا لهؤلاء والقوا التبعة على الشيوعيين ، واحيانا على الرعاع و ((الفوضويين الوحوش)) .. لكن احدا لم ينصف ، لا الشيوعيين ولا الشعب . فقد نظروا الى هذا الحادث وكأنه وقع في بلد تسوده الحضارة وحكم القانون ويتمسك فيه المواطنون جميعا بالقوانين . وتناسوا ان ما حدث من سحل وتمزيق للجثث لم يكن قرار اي حزب سياسي او مسؤول حزبي ، بل جاء بصورة عفوية وكرد فعل شعبي لما قام به هذان الشخصان ازاء شعبهما وبلدهما طوال عشرات السنين . انه كان لنفجارا لحقد الالوف من الناس في بلد متخلف محروم من الحقوق القانونية والحريات الديمقراطية ، بلد لم يحترم حكامه القانون يوما . لو حكم هذان الحاكمان وفق القانون ولو كانت هناك دولة القانون لامكن تلافي الانفجار الشعبي بهذه الشدة ، وجاز توجيه اللوم العنيف الى من قاموا بالسحل والتمزيق . ومن المعلوم ان الاوساط الغربية الحاكمة كانت تلتزم الصمت الدائم تجاه تجاوزات الحكم الملكي بحق الشعب العراقي ولم تتذكر ان السحل عمل وحشي الا بعد ان تعرض اعوانها للسحل . أنا لم اكن يوما من مؤيدي السحل ، ولكني افهم ، وأدعو غيري الى ان يفهم ، الاحداث التي شهدها العراق في تلك الفترة بالارتباط مع ظروفها الواقعية الملموسة ، ظروف التخلف الاجتماعي العام بلد مارس فيه هؤلاء شتى اشكال الظلم والارهاب بحق الشعب . فكيف لايتوقع المرء ان يثأر بسطاء الناس لأنفسهم ولأبناءهم وأقاربهم ؟ وما الذي يمكن توقعه غير السحل والتمزيق لجثة حاكم مثل صدام التكريتي ، فيما لو اسقط اليوم جراء انتفاضة شعبية او ماشابه ، وهو الدكتاتور الذي ارتكب كل هذه الجرائم بحق ابناء العراق ؟

بقيت في السجن اسبوعين كاملين بعد انتصار الثورة ، زارني خلالها رفاق واصدقاء ، بضمنهم ابناء القرى في منطقة قرةداغ ، الذين كانوا جميعا شيوعيين او متعاطفين مع ح.ش.ع . كانت هناك لجنة لدراسة قضايا السجناء السياسيين والافراج عنهم تباعا ، بوجبات . وقدر لي ان اكون ضمن وجبة 28 تموز 1958 . وقد خرجت مع صديقي الشاعر عبداللة طوران وأخذتنا سيارة احد الرفاق من باب السجن الى بغداد ، عاصمة الثورة والانطلاقة الشعبية الكبرى . اية مشاعر يمكن ان تنشأ وأية عواطف يمكن ان تجيش في صدر رجل كان بالامس محكوما عليه بالسجن المؤبد ، قابعا في زنزانة السجن الانفرادي وراء القضبان ، وها هو اليوم يسير بكامل حريته في بغداد ، المدينة التي كان يسير فيها مختفيا حذرا حتى قبل ان يسجن ؟

في بغداد كان سلام عادل (حسين احمد الرضي) في انتظاري وأخذني الى بيت حزبي في حي الصليخ كانت تسكنه عائلة الصفار المكونة من الشاب الشيوعي كاظم الصفار وأخيه الصبي واخواته الثلاث وأمهم العجوز الطيبة . كانت عائلة شيوعية ضحت وعانت واستشهد ابنها عواد في احدى النظاهرات السابقة . وأقام معها جمال الحيدري في النجف يوم كان مسؤول منظمة راية الشغيلة المنشقة .

خلال الايام الاربعة التي قضيتها في بغداد التقيت بالعديد من الرفاق والاصدقاء ، بضمنهم البعض من الاهل والاصدقاء في السليمانية . وأتي الي خالي المعمم مصطفى القرةداغي ببدلة ملابس كردية . وكنت التقي يوميا مع السكرتير سلام عادل ، الذي ابلغني منذ اول لقاء بأني اصبحت عضوا في المكتب السياسي . وقال في نفس اللقاء :

- كيف كانت علاقتكم مع رفاق تنظيم راية الشغلية المسجونين ؟
- دمجتنا ادارة السجن مع بعضنا قبل ان نقرر بأنفسنا الاندماج .
- ارتحت من موقفك حين كنا ناقش قضية التوحيد . اتخذت وحدك ، بين السجناء هناك ، الموقف الصحيح من قضية الانشقاق وسبل معالجتها .

في اول اجتماع حضرته للمكتب السياسي وجدت نفسي ازاء تركيبة لم تخل من الغرابة - بالنسبة الي . فهو يتكون من سلام عادل وجمال الحيدري وعامر عبدالله . كان هذا الاخير الى ماقبل خمس سنوات ، اي الى حين اعتقالي في 1953 ، مجرد صديق او مؤيد نشط للحزب ولم يكن عضوا ولم ينظم في اية خلية حزبية ولم يتعلم شيأ من امور الحزب الداخلية . وكان جمال الحيدري على رئس المنشقين في راية الشغيلة حتى 1956 ، فضلا عن انه كان من جماعة شورش - الحزب الشيوعي الكردي - بين 1945 - 1946 . مع ذلك التزمت الصمت ولم اثر شيأ ، خاصة بعد ان وجدت قدرا مناسبا من الانسجام داخل الهيأة في تلك الايام . والاهم من ذلك ان المد الثوري المتصاعد وضع الجميع وسط نشاط يومي كثيف لحد الاغراق .

عدت بعد بضعة ايام الى مدينتي الحبيبة السليمانية - التي خطوت فيها اولى خطوات النشاط السياسي . كنت في احدى السيارات وبرفقة عدد من السيارات التي وجد فيها رفاق وأقارب . ولم تكن لدي فكرة عن الاستقبال الذي سأحظى به ، انا والرفاق السجناء العائدين الى السليمانية ، الى ان وصلنا مدينة الدوز حيث وجدت عددا هائلا من السيارات القادمة من كركوك والسليمانية وقصبات عديدة لاستقبالنا . وفي كركوك الح علينا الشيخ علي الطالباني لكي ناخذ قسطا من الراحة وتناول الشاي والطعام عنده . استجبت وذهبنا الى (تكيته) التي كنت قد دخلتها ذات مرة سابقا ، ايام اختفائي في كركوك عام 1949 . وعندما غادرنا كركوك لاحظت ان عدد سيارات المستقبلين اخذ يزداد باطراد مع اقترابنا من السليمانية ، حتى غدا يعد بالمئات . وفي الطريق استوقفني آمر حامية السليمانية وجارنا في الحي منذ القديم العقيد نوري معروف وألح علي لكي انتقل الى سيارته العسكرية المكوشوفة وأقف الى جانبه خلال المدة المتبقية نحو المدينة . وعند الاقتراب من المدينة وبعد دخولها ، فوجئت مرة اخرى بما لم اتوقعه مسبقا . كان عدد المستقبلين المصطفين على جانبي الطريق اكثر بكثير من عدد سكان المدينة نفسها . كان هناك نهر بشري عظيم صاخب فائض كفيضان نهر في اسفل جبل قنديل عند ذوبان الثلوج في موسم الربيع . كان استقبالا فريدا من نوعه في تاريخ السليمانية ، اشترك فيه الى جانب سكان المدينة جمهور غفير من سكان سائر مدن وقصبات وقرى المحافظة . وقد شارك فيه منتسبو واصدقاء الثارتي وكذلك الناس الذين لم يرتبطوا يوما باي نشاط سياسي . وكنت اعرف ان هذا الاستقبال الكبير المتقد حماسا هو تعبير ، قبل كل شئ ، عن النفوذ الشعبي الكبير للحزب الذي تشرفت بالانتماء اليه ، وتعبير عن تقدير الجمهور لي شخصيا بوصفي مناضلا شيوعيا ثابتا وصامدا ومتمسكا بالاهداف والمثل العليا للجماهير نفسها .

تحت الحاح الرفاق والجمهور المحتشد القيت كلمة موجزة من شرفة فندق وسط المدينة ، قلت فيها :

- أنا ابن مدينتكم هذه فخور بكوني عضوا في ح.ش.ع وأجد في استقبالكم لي بهذه الصورة الحماسية تعبيرا عن حبكم وتقديركم للحزب الذي انتميت اليه واخلصت له . والذي استطيع ان اتعهد به امامكم هو انني سأبقى ابنا مخلصا الشعب ، للطبقة العاملة وكل الكادحين ، امينا لاهداف الحزب والشعب.

اقترح بعض الرفاق ان يرتبوا لي بيتا كبيرا مناسبا لاقيم فيه بعض الايام واستقبل الزوار المهنئين باطلاق سراحي . لكني اخذت بنصيحة احمد غفور ، الذي قال لي ان الافضل ان اقيم في شبه الكوخ الذي كنت اسكنها مع عائلتي قبل اختفائي ، ولاتزال العائلة تسكنها ، وان استقبل المهنئين في باحة الجامع الفسيحة الموجود بجوارنا .

خلال الايام الاربعة او الخمسة التي قضيتها في السليمانية ، زارني عدد هائل من الاصدقاء وأهالي المدن والقرى بضمنهم المعارف الذين فارقتهم منذ عشر سنوات او اكثر . لكن اغرب زيارة لي كانت زيارة منظمي الحزبي السابق حميد عثمان . فقد جاءني احد مسؤولي منظمتنا الشيوعية في السليمانية ليقول لي :

- يود احد مسؤولي الثاتي ان يزورك زيارة خاصة ويتحدث اليك في لقاء ثنائي بينكما .
- فليتفضل الي بعد الظهر ، وعلى الرحب والسعة . هاته الى البيت مباشرة .

اتاني الرجل في الموعد المحدد واذا به هو ابو خسرو - حميد عثمان - بلحمه ودمه . كان ظهوره على هذه الشاكلة مفاجاة لي . ولم يكن لديه شئ جدي ذو طابع مستعجل للتباحث بشأنه . ربما رغب في ان يعرف نفسه بي كاحد قادة الثاتي وحسب . وبالنسبة الي كان ذلك ثالث لقاء. او ثالث فترة من اللقاءات مع حميد عثمان . في الفترة الاولى ، اوائل 1949 ، كان هو

سكرتير منظمة السليمانية وكنت انا واحدا من كوادرها الفعالة . وفي الثانية التقينا في سجن نقرة سلمان عام 1953 ، يوم كان قد انشا جمهوريته الشعبية وأسس نواة قواته المسلحة من حملة السيوف السجناء . وها نلتقي من جديد ، بعد ثورة 14 تموز ، وهو يزورني بصفته احد قادة الثاتي وأنا احد مسؤولي ح.ش.ع .
قبل ان اتعرف على اوضاع المدينة والناس عن كثب وقبل ان تخف موجة الزيارات المكثفة الي تلقيت برقية من سلام عادل طلب مني العودة الفورية الى بغداد . فامتثلت للامر وغادرت السليمانية نحو العاصمة .

****

منذ استئناف نشاطي الحزبي ، اثر خروجي من السجن ، عهد الي بقيادة العمل التنظيمي في الحزب . وباقتراح من سلام عادل شكلنا في وقت لاحق ل ت م (لجنة التنظيم المركزية) التي كنت مسؤولا عنها منذ ايلول 1958 وحتى تشرين الاول عام 1960 ، اي لحين مغادرتي العراق . وقد استفدت في العمل التنظيمي من تجربتي السابقة ، بيد ان مستجدات الوضع حملت معها تعقيدات غير قليلة . ففي الماضي كنا نعمل في ظروف الارهاب الشديد والملاحقات المتواصلة . وفي الظروف المستجدة اصبح نشاطنا شبه علني في ظروف توقف الملاحقات على الاقل مؤقتا . في الماضي كان علينا ان ننظم العشرات او المئات في مدينة كبغداد .وفي الظروف المستجدة غدونا امام مهمة تنظيم الالوف وعشرات الالوف . فالاقبال على صفوف الحزب كان واسعا جدا في شتى الطبقات والمراتب الاجتماعية . ولم يكن من السهل استيعاب هذا العدد الكبير على اسس صحيحة . وكانت احدى المشاكل الجدية امامنا ، التي كشفت عنها ظروف وثبة كانون 1948 والمد الثوري الذي اعقبها، هي التعامل مع العدد الهائل من الوصوليين والنفعيين ذوي الطموحات الشخصية الذين كانوا يدقون ابواب الحزب ويلحون في الانضمام الى صفوفه ظنا منهم بأنه اصبح حزبا حاكما او على وشك ذلك وان الانضمام اليه طريق الى نيل مراميهم الخاصة في الحصول على المنصب والامتيازات الشخصية . كان هؤلاء شيوعيين اكثر من الشيوعيين السابقين !
كان لنا كادر محدود العدد والتجربة ، رغم ان انتصار الثورة وفر للحزب فرصة تاريخية فريدة لتجميع كوادره لأول مرة في تاريخه ، بضمنهم من كانوا في السجون والمنافي الداخلية والخارجية . كان كادرنا اقل بكثير من ان يستوعب المد المتصاعد وما ترتب عليه من مهمات سياسية وتنظيمية ، في وقت اصبح الحزب قائدا سياسيا معترفا به من لدن اغلبية الشعب . فكيف العمل من اجل حل مشكلة الكادر الحزبي؟ حاولت قدر المستطاع ان ابرمج العمل التنظيمي واضمن تطور التنظيم بشكل متناسق من الناحيتين العددية والنوعية . ومن هذا المنطلق تقرر :

1. منح العضوية لجميع الذين كانوا مرشحين للحزب قبل الثورة ، دون ان ننتظر انتهاء فترة الترشيح .
2. تحديد النسب المسموح بها للترشيحات والقبول في الحزب بشكل يضمن نسبا مئوية معقولة للعمال والفلاحين ويجنب الحزب من الاغراق بالعناصر المتحدرة من المثقفين وبعض الفئات الاجتماعية الاخرى .
3. اتخاذ الاجراءات المناسبة لغرض تطوير شبكة الكادر الحزبي وفق متطلبات الوضع المستجد . وقد اصدرنا رسائل ونشرات داخلية في خدمة هذه الوجهة . كما كنا نقيم دورات تثقيفية قصيرة او اجتماعات مطولة ندعو اليها المسؤولين المحليين من مختلف المدن والمحافظات بهدف التثقيف وتوضيح سياستنا كما كنا نقوم بزيارات اشراف واسعة زرت خلالها ، ولأول مرة تقريبا ، جميع مراكز المحافظات وعددا من الاقضية والقصبات .

اذكر بهذه المناسبة اول زيارة لي الى النجف لغرض الاشراف الحزبي ، حين وصلت البيت الذي اجتمعت فيه لجنة القضاء وأحصيت الحاضرين فوجدت ان احدهم متغيب عن الاجتماع . سألت عن سبب الغياب فاجابني سكرتير اللجنة :

- انه لم يدع الى الاجتماع بسبب كونه معاقبا .
- ولماذا عوقب ؟
- ارتكب مخالفة .
- هل لي لن اعرف نوع المخالفة التي ارتكبها ؟
- نعم بالطبع ! انه شرب مشروبات كحولية وسكر .
- وماذا شرب ؟
- شرب البيرة .
- وهل سكر من شرب البيرة ؟
- كلا ، لم يسكر في الواقع ولكنه كان واضحا انه شارب .

أبديت عدم ارتياحي من هذه العقوبة وتوسطت لديهم كي يلغوها . وقلت : لو عوقب كل من سمح لنفسه بشرب البيرة لكنت احد المعاقبين لأني شربت البيرة بل وأكثر من البيرة ، ايام مابعد خروجي من السجن . رغم اني لم اذق البيرة ولا العرق ابدا قبل دخولي السجن . وقد شربت مرتين او ثلاثا بعض النبيذ ، بناءا على توصية الطبيب عام 1951 ، حين كنت اعاني من فقر الدم والضعف بسبب مرض الدزانتري . لكني لم استطع الاستمرار عليه وكففت عن شربه فعلا . في الماضي كان للمجتمع راي سلبي تجاه من يتناول المشروبات الروحية .. لكن الوضع قد تغير وأصبح بالامكان ، في الظروف المستجدة ، تناول المشروبات ورفع الانخاب في بيوت عديدة ، بضمنها بيوت الشيوعيين من بعض سكان المدن .

في تلك الايام مارسنا نشاطا شبه علني تنظيميا واستخدمنا مكاتب البعض من رفاقنا المحامين والاطباء وغيرهم اشباه مقرات لتمشية امورنا الحزبية اليومية ولعقد اللقاءات والاجتماعات ، دون ان يكون لنا مقر حزبي رسمي . وظللنا نستخدم بيوتنا الحزبية لاجتماعات مع الرفاق المستقدمين من خارج بغداد وكذلك لمبيتهم واطعامهم . كنا نقوم بنشاط حزبي - سياسي مكثف . وكان يوم العمل يمتد عندي - شان رفاق آخرين - 16 ساعة او اكثر . ولم تكن لدينا تغذية جيدة ولا ظروف صحية مناسبة . ولكننا كنا في وضع نفسي جيد جدا .. اتذكر انني شعرت بالارهاق والوهن ووجدت من الضروري ان اراجع الطبيب . فذهبت الى عيادة الطبيب الشيوعي مهدي مرتضى وتعرفت عليه لأول مرة . كنت مصابا بالدزانتري المزمن . وخلال الفحص تبين او وزني لم يزد عن 53 كغم مع ان طولي كان 175 سم .

تأخر اطلاق سراح زوجتي مادلين لبعض الوقت . وبعد اخلاء سبيلها استأجرت دارا مناسبة في الكرادة الشرقية لقاء 16 دينارا في الشهر وابقيتها في وضع شبه سري لاسباب امنية ، لتلافي عصابات الاغتيال . واصبح ابني سلام مع والديه ، لأول مرة في عمره ، بعد ان كان سابقا مع والدته في السجن . ولسلام ، الطفل الذي ولد وتربى في السجن ، قصص لاتحدث الا لطفل في مثل ظروفه . فهو عاش السنوات الخمس الاولى في السجن النسائي تصور خلالها ان العالم كله عبارة عن مبنى السجن الصغير ذلك والجدران المحيطة به ، لأنه لم يشهد شيأ آخر من هذه الدنيا الفسيحة . في السجن رأى السجينات ومديرة السجن والسجانات وربما السجانين ايضا في بعض الاحوال . كما رأى الحمامات والقطط ولا شئ سواها . ولما شهد ذات يوم حمارا يدخل السجن حاملا بعض ما اشترته الادارة استغرب وصرخ :

- شوفو ، شوفو ، شلون بزونة كبيرة !
- مو بزونة يا سلومي ! - اجابت السجينات ، وهن يضحكن .
- لعد شنو ؟ حمامة ؟

غادر السجن لأول مرة بصحبة امرأة صديقة من المواجهات ، اخذته الى منزلها . لم يتصور الطفل ، وهو يدخل منزل المرأة ، الا الانتقال من سجن الى سجن آخر . فتجول في الغرف واستغرب من ان تكون كلها فارغة .

فما كان منه الا ان يسأل :

- خالة ! وين السجينات ؟ ليش القواويش كلها فارغات ؟

كان من الصعب على تلك المرأة ان تفهمه بأن هذا بيت وليس سجنا . وكان يجب الانتظار لكي تعلمه الايام . وعندما حل المساء اخذته المرأة الى قاعة احدى السينمات . هناك راى الازدحام فعلق قائلا :

- أيابا ! شلون مواجهة مزدحمة !

وحين مل الجلوس في السينما ولم تعجبه الصور المتلاحقة على الشاشة قال :

- وينها مديرة السجن ؟ خلي تجي تفض المواجهة .

كانت الدنيا كلها في نظر الطفل سلام بين سجين وسجان . ولم يكن هناك فريق ثالث .

****

رغم التضييق على قبول طلبات الانتماء فان تنظيمات الحزب كانت تنمو وتتسع بسرعة قياسية وشعلت جميع المدن والقصبات ونسبة كبيرة من المناطق الريفية ايضا . كان الحزب سيد الشارع غير المنازع . وكان بمستطاعنا ان نقيم تظاهرة جماهيرية كبرى خلال ساعة او ساعتين لتسير في بغداد وليزيد عدد المشاركين فيها عن المئة الف متظاهر . كان يكفي ان نخابر مسؤولي خطوطنا التنظيمية تلفونيا لكي نحشد جمهورا هائلا .

عقب انتصار ثورة تموز شكل عبدالكريم قاسم وزارة جديدة واشرك فيها ممثلي جميع الاحزاب المشتركة في جبهة الاتحاد الوطني ، باستثناء ح.ش.ع. كان هذا الاستثناء بالطبع موقفا متعمدا من قاسم . غير ان هذا الاجراء الخاطئ لم يقلل من شعبية حزبنا ، الذي ظل موضع الحسد من لدن الاحزاب البرجوازية ، التي لم تفلح في استمالة الجماهير الى جانبها . كان كل من حزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي مكتفيا بتوجيه الانتقادات المريرة ، بهذه الصورة او تلك ، الى الشيوعيين وأحيانا العمل على تحريض السلطة ضدهم ولتقليص نشاطهم . وحين منح امتياز اول جريدة قانونية لنا - بعد حوالي ستة اشهر من انتصار الثورة - وبعد صدور اولى اعدادها (واعني جريدة اتحاد الشعب) قرر وزير الاعلام حسين جميل ، وكان سكرتير الحزب الوطني الديمقراطي آنئذ ، غلقها دون اي مبرر منطقي وبالضد من كل القيم والمفاهيم الديمقراطية التي كان حزبه من حملة لوائها . وقد الغى القرار بتدخل مباشر من قاسم نفسه .

اما حزب البعث ، الذي كان عضوا في جبهة الاتحاد الوطني منذ تأسيسها في شباط 1957 وكان حليفا للشيوعيين حتى ثورة تموز 1958 ، فانه اختار طريقا مغايرا للتعامل مع ح.ش.ع - طريق الارهاب والاغتيالات الفردية . وأظن انه كان يعدل عن هذا الطريق فيما لو آمن بالديمقراطية او كان على ثقة بقدرته في التغلب على الشيوعيين خلال التنافس السلمي لكسب الجماهير . لقد اصبحت سياسة الاغتيالات الفردية ضد الشيوعيين هي السياسة الرسمية لحزب البعث . وكان من اوائل الضحايا لهذه السياسة الكادر الشيوعي التكريتي النشط الحاج سعدون ، الذي اغتيل على يد ابن خالته البعثي صدام حسين التكريتي . وانحازت عناصر كثيرة من اجهزة الحكم الموروثة من العهد الملكي والمتربية بروح العداء للشيوعية الى جانب البعثيين ودعمت نشاطهم في الارهاب والاغتيالات .

وفي وقت لاحق انحازت السلطة نفسها الى جانبهم واتخذت من اجهزة الشرطة اداة حماية وتشجيع للمعتدي وملاحقة للمعتدى عليه . وقد حدث عشرات المرات ان اعتقل المعتدى عليهم او المعرضون للاعتداءات فيما كان يترك الجناة والمعتدون دون اي ملاحقة . وارتكبنا خطأ فاحشا حيث كنا نكتفي بالرد الاعلامي على هذه الاعتداءات وبمطالبة السلطة ، المتواطئة مع المعتدين ، بأن يتخذ الاجراءات ، في وقت كان بامكاننا ومن حقنا الشرعي ان ندافع عن انفسنا على اساس المقابلة بالمثل . وكان لدينا من الحول والقوة ما يضمن تأديب المعتدين وردعهم . من المؤكد ان اللجوء الى الاغتيالات لم تكن دليل القوة ولم تكن اسلوبا صحيحا في الصراعات الحزبية ـ السياسية . وكان لابد من فضحه واستنكاره ـ وهذا ما فعلناه ـ ولكن مع ردع المعتدي وتأديبه بنفس الاسلوب الذي يلجأ اليه ، عندما لايجدي الاستنكار .

****

لعبت جبهة الاتحاد الوطني ، كتجسيد فعلي لتحالف الاحزاب والقوى السياسية المناوئة للاستعمار وللنظام الملكي ، دورا سياسيا اساسيا في النضال من اجل انتصار الثورة . لكن الجبهة قد تفككت عمليا ، دون اصدار اي قرار بالتفكيك بعد انتصار الثورة مباشرة . وفسرت هذه الظاهرة تفسيرات مختلفة باختلاف الاحزاب والاشخاص . والقى كل حزب تبعة تفكك التحالف على غيره ، وبالاخص على الشيوعيين الذين اتهموا باحتكار حق النشاط السياسي والنقابي لانفسهم وحرموا غيرهم من ذلك . ولابد من الاعتراف بأن نزعة الاحتكار كانت موجودة لدى الشيوعيين ، كما كانت موجودة لدى سائر الاحزاب دونما استثناء . غير ان السبب الحقيقي لتفكك التحالف ، في ظروف العراق الملموسة آنئذ ، انما يتمثل في حقيقة ان نقطة الاتفاق الرئيسية لقيام التحالف قد انتفت بعد ان تحقق الهدف الرئيسي للجبهة ـ اسقاط النظام الملكي ـ وازيل الخصم المشترك ، الامر الذي دفع نقاط الخلاف ـ التي كانت ثانوية قبل الثورة ـ الى المقدمة في علاقات تلك الاحزاب مع بعضها . فالبعثيون ماكانوا راضيين بأقل من ان يصبحوا على رأس السلطة ، رغم انهم كانوا حزب اقلية ضئيلة . وبعض الاحزاب البرجوازية اللبرالية لم يرد اكثر من توطيد وتحسين النظام الجديد ، مع التركيز على اضعاف نفوذ الشيوعيين . ح.ش.ع ، الذي كان ذا نفوذ شعبي واسع جدا ، ضل الطريق بين ماكان يرغب فيه باغلبيه الساحقة وبين ما ترضاه القيادة السوفيتية . وسط هذه التعقيدات كان من الصعب جدا بعث الحياة في جبهة الاتحاد الوطني . ولهذا انتهت المساعي بهذا الصدد الى الاخفاق التام ، بما في ذلك مساعي ح.ش.ع لاقامة جبهة يسارية راديكالية مغايرة للتحالف السابق من حيث التركيب التنظيمي والاهداف معا .

****

كان للثارتي وضع مغاير عن وضع الاحزاب السياسية الاخرى . فهو لم يقبل في حينه ـ رغم مطالبة ح.ش.ع بقبوله ـ في جبهة الاتحاد الوطني لان الاحزاب البرجوازية العربية كانت قد اتخذت تجاهه موقفا قوميا شوفينيا معتبرة اياه حزبا انفصاليا . كان هناك ما يشد ح.ش.ع والثارتي الى بعضهما ، رغم ان ذلك لم يستند الى اي تعاطف من لدن الثارتي مع الشيوعية كعقيدة او كحركة سياسية . من جهة اخرى كان التنظيم الوحيد المنافس للثارتي في ميدان نشاطه بين الجماهير الكردية هو ح.ش.ع . ولم يكن بمقدور اي من الاحزاب الاخرى ان يخوض منافسة حزبية ضد الثارتي في الوسط السياسي الكردي . وبالظر الى ان نفوذ ح.ش.ع كان اقوى بكثير من نفوذ الثارتي بين الجماهير الكردية ايضا فان هذا الاخير كان يجد نفسه في موقف حرج وصعب اذ كان يتذبذب بين الاخذ بالتعاون مع الشيوعيين ، من جهة ، والرغبة في معاداتهم وازاحتهم عن الساحة السياسية الكردية ، من جهة اخرى . وكانت نزعة العداء تتجلى في المطالبة بحل التنظيم الشيوعي في كردستان العراق .
اظن ان الخلافات في صفوف الثارتي ، خصوصا بعد ثورة تموز ، كانت قد زادت من صعوباته وأثر على مجرى علاقاته مع ح.ش.ع . واسفرت الخلافات داخل الثارتي نفسه عن تغيير في تركيب المكتب السياسي بشكل لم يضم في صفوفه ـ على ما اتصور ـ ايا من قادته التقليديين ومؤسسيه باستثناء حمزة عبداللة ، الذي ظل سكرتيرا له ، والذي اعتبر من العناصر اليسارية في القيادة . وقد دخل في تركيبة المكتب السياسي الجديد شييوعيون سابقون منضمون مؤخرا الى الثارتي كحميد عثمان ونجاة احمد وخسرو توفيق وصالح الحيدري .
في ظروف المد الثوري المتصاعد وتناومي نفوذ حشع اصبحت غالبية اعضاء قيادة الثارتي مقتنعة بضرورة وجود علاقة ودية قائمة على شكل ما من التعاون مع الشيوعيين ، فيما كنا نحن ايضا مستعدين لمثل هذا التعاون . فعقد لقاء لهذا الغرض بين وفدين من قيادة كلا الحزبين في مكتب عامر عبداللة بشارع النهر . حضر من جانبنا سلام عادل وجمال الحيدري وعامر عبداللة وأنا . ومنهم عدد من القياديين بينهم نوري شاويس وجلال الطالباني . وبدأ الحديث وتبادل الاراء بصورة اعتيادية وودية ، واحيانا مع العتاب المتبادل . وحين اخذ جلال الطالباني الحديث بدا عصبيا واحتد دون مبرر منطقي وتهجم على ح.ش.ع وشبهه بالصهيونية . كانت مفاجأة لنا ، اذ كيف يمكن اللجوء الى مثل هذا الاسلوب الاستفزازي ازاءنا في لقاء يستهدف عقد التعاون بين الحزبين . وأظن انها كانت مفاجأة لاعضاء وفد الثارتي ايضا . ولم نجد نحن تفسيرا لها سوى رغبة الطالباني في خلق جو يتعذر خلاله التقارب والتعاون بين الحزبين . فاحتد سلام علدل بدوره وضرب بكفه على المنضدة ، التي كنا جالسين حولها وقال بعصبية ((تأدب)) . وانسحبنا نحن جميعا من الاجتماع تاركين وفد الثارتي وحده .
في اليوم التالي قدمت قيادة الثارتي اعتذارا عن تصرفات عضو وفدها الطالباني وطلبت استئناف الحوار . واستجبنا للطلب واتخذت ترتيبات للحوار باسلوب جديد . جرى الحوار اللاحق بين ممثلين للحزبين ، بيني وبين ابراهيم احمد . وفي جلسات معدودات تم الاتفاق الثنائي على مسودة ميثاق للتعاون الثنائي بين الحزبين . وكنت قد هيات من جانبي المسودة واقترح

ابراهيم احمد تعديلات قليلة عليها . ثم عرضنا الوثيقة على قيادتي الحزبين و حظيت بالموافقة . وتجب الاشارة هنا الى انني وجدت اثناء لقاءاتي الثنائية مع ابراهيم احمد اللين والمرونة لديه اكثر مما كنت اتوقعه . وربما كان ذلك بسبب سعة نفوذ ح.ش.ع في تلك الظروف .
كانت هناك مشكلة جدية مزمنة تخلق المتاعب امام تحسن العلاقات وتطورها بين الحزبين طيلة اعوام متعاقبة - اعني مشكلة مطالبة الثارتي ، او مطالبة عدد من قادته ، بحل التنظيم الشيوعي في كردستان . كانت هذه المطالبة قديمة قدم الثارتي نفسه . وكانت بالطبع منافية للقيم والمبادئ الديموقراطية وتجسيدا لنزعة الاحتكار لحق النشاط السياسي وفرض نظام الحزب الواحد في كردستان . ولم يكن ذلك مستغربا في مجتمع متخلف كالمجتمع الكردي . غير ان ظروف مابعد انتصار ثورة تموز اعطت هذه المطالبة بعدا جديدا وزادت من سلبياتها ، خصوصا عندما كانت تتخذ شكل مناقشات حادة في بلد متخلف خال من التقاليد الديمقراطية ولايصعب تحول مثل النقاش فيه الى صراعات دموية تستخدم فيها الخناجر والمسدسات بين اعضاء ومؤيدي كلا الطرفين . وقد اختفت او خفت هذه المشكلة خلال السنة الاولى من ثورة تموز ، حيث كان النهوض الثوري العارم . ولكنها عادت الى الظهور وأخذت طريقها الى المناقشات الصحفية عند الطرفين ، بعد ان غير قاسم نهجه نحو اليمين . وساهمت بقسطي في هذه المناقشات الصحفية ، فكتبت مقالا نشر بحلقات في صحيفة الحزب الكردية (آزادي) ردا على الثارتي وموضحا ما يبرر وجود التنظيم الشيوعي وبطلان المطالبة بحله . وتساءلت في المقال ماذا سيكون موقف هؤلاء من الشيوعية والشيوعيين الاكراد اذا تسنى لهم الوصول الى الحكم مستقبلا ، وهم ينكرون علينا اليوم حق التواجد - مجرد التواجد كتنظيم سياسي في كردستان ؟
****

عندما كانت الباخرة السوفيتية في طريقها الى العراق ، وهي تنقل الملا مصطفى البارزاني ومن معه الى الوطن ، اوصينا رفاقنا في مدينة البصرة بالمشاركة في تنظيم استقبال جماهيري مناسب للقادمين ، الذين كانوا قد قضوا اثنتي عشر سنة من حياة المنفى في الخارج . وحين وصل الملا مصطفى نفسه الى بغداد ذهبت مع عدد من قادة ح.ش.ع الاخرين الى فندق سميراميس - محل اقامته المؤقتة - لزيارته والترحيب به . وكان ذلك اول لقاء بيني كسياسي شيوعي وبين الملا مصطفى .
بعد عودة البارزاني بحثنا في المكتب السياسي لحزبنا وضعه الشخصي والموقف منه واتفقنا بالاجماع ان الامر الافضل للجميع وللبارزاني شخصيا هو ان يبقى رجلا لاحزبيا وشخصية سياسية مستقلة بعيدا عن الانتماء الى اي حزب . وبدأنا ننشط بهذا الاتجاه - ولا أزال اعتقد انه كان صحيحا - في لقاءاتنا ودعايتنا الشفهية . لكننا اخفقنا في تحقيق ما أردنا لأن قادة الثارتي لم يوافقونا ، بل قاموا بنشاط مكثف لاقناع الملا مصطفى بأن يكون رئيسا لحزبهم . وكان الدافع الحقيقي وراء موقفهم هذا هو الشعور بضعف حزبهم والرغبة في استثمار شعبية البارزاني وسمعته الكبيرة لصالح عملهم الحزبي . ولايمكن اعتبار ذلك طموحا غير مشروع من الوجهة الحقوقية المجردة . الا انه كشف في الواقع عن قصر نظر سياسي . بل يمكن القول انه كان غلطة العمر بالنسبة لقيادة الثارتي . ذلك لأن البارزاني عاش وترعرع في اجواء قروية عشائرية ، رغم انه كان مناضلا سياسيا قوميا ، ولم يتسن له فهم شئ من الحياة الحزبية ، حتى بمفهومها العراقي ، ولم يكن مؤمنا بها . فالحزب ، بالنسبة اليه ، كان اشبه بفخذ من العشيرة أو ماشابه ، وليس شيأ آخر .
وقد ارتكب القادة التقليديون - القدامى - وفي مقدمتهم ابراهيم احمد خطأ جديدا فاحشا عندما استعانوا بنفوذ البارزاني وسلطانه عام 1960 للتخلص من سكرتير الثارتي حمزة عبداللة ومن معه ممن اعتبروا يساريين ، في ترتيب عملية شبه انقلابية اسفرت عن ازاحة فريق من المكتب السياسي واعادة فريق آخر اليه . ان هذا التصرف ، الذي وقف وراءه القادة القدامى ، اباح للبارزاني حقا ماكان من الصحيح ان يكون له ، وأن المبادئ الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية قد انتهكت وديست تحت الحذاء . وبالتالي فان من حل محل حمزة عبداللة سكرتيرا للثارتي كان معرضا لأن يلقى في وقت لاحق نفس المصير .
****

في ايلول 1958 شاركت في اول اجتماع للجنة المركزية بعد ثورة تموز . وبقرار من المكتب السياسي اشرك بعض الكوادر المتقدمة ، منهم زكي خيري و محمد حسين ابوالعيس . لم يكن هناك تقرير مكتوب امام الاجتماع . القى سلام عادل تقريرا شفهيا كنا قد اتفقنا على خطوطه العريضة وتضمن تحليلا لطبيعة الثورة - من وجهة نظرنا - باعتبارها ثورة برجوازية ديمقراطية . وأكد اننا ندعم الثورة والسلطة الجديدة ضد الدسائس الامبريالية - الرجعية . واشار الى ان ح.ش.ع كان اول من رفع في هذه البلاد شعار الجمهورية ، دون أن يشير الى ان هذا الشعار قد اختفى في عهد قيادته . كنت اسجل ملخصا بما يدور في الاجتماع . وكلفت بعدئذ بصياغة التقرير الذي صدر باسم الاجتماع . بعد ثورة تموز بدأنا نوسع قوام لجنة الحزب المركزية ومكتبها السياسي حتى بلغ العدد الاجمالي للاعضاء والمرشحين 33 شخصا - وكان ذلك رقما قياسيا في تاريخ ح.ش.ع وحتى ذلك الوقت . وكان زكي خيري وابوالعيس وعبدالقادر اسماعيل - الذي عاد من سوريا بعد ابعاد جاوز العشرين عاما - وعزيز محمد من اوائل من جرى ضمهم الى اللجنة المركزية . كما كان زكي وابوالعيس احدث من ضموا الى المكتب السياسي للحزب . وفي اجتماع اللجنة المركزية عام 1959 جرى ضم عزيز محمد ايضا الى المكتب السياسي . وكنت ضمن من صوتوا لصالحه في الاقتراع السري.

اذكر بهذه المناسبة ان عضو اللجنة المركزية كريم احمد الداوود قد غضب اشد ما يكون الغضب وقدم فورا رسالة قصيرة اعلن فيها استقالته من عضوية الحزب . اطلعنا سلام عادل على قصاصة الورق المتضمنة استقالته . وكان السبب واضحا لدينا : احتجاجا على ضم عزيز محمد، بدلا من ضمه هو كريم ، الى المكتب السياسي . كان يرى نفسه احق بعضوية المكتب السياسي وكان ياخذ على عزيز كونه على رأس انشقاق جماعة الشغيلة سابقا . ولم يهتم بمسألة ان الاخرين غير مقتنعين بادخاله الى المكتب السياسي . وكان سلام عادل مرنا وايجابيا معه وبذل جهودا مكثفة طيلة يومين كاملين حتى اقنعه في النهاية بسحب استقالته . وأظن ان موقف سلام عادل هذا كان خطأ ، رغم ان الدافع وراءه كان الحرص على مصلحة الحزب . وكان الافضل ان يترك كريم دون الضغط عليه والمساعي الكثيرة لاقناعه بالعدول عن رأيه ورغبته في الاستقالة .

في احد اجتماعات ل م عام 1959 طرح سلام عادل ترشيح عزيز الحاج الى عضويتها وبرر ذلك بما لدى الحاج من كفاءات صحفية . وكان لي ولعزيز محمد موقف واحد : رفضت انا ترشيحه وتحدثت بقدر من التفصيل عن تخاذله في سجن بعقوبة وعن معرفة رفاق كثيرين بهذه الحقيقة . وحين انتهيت من تقديم الايضاحات اعلن عزيز محمد قائلا :

- أؤيد جميع ما أورده ابو سلام واتفق مع رأيه ضد ترشيح عزيز الحاج .

ومع ذلك حصل سلام عادل على اغلبية ثلثي الاصوات لترشيح شخص لم يكن مؤهلا له ولم يمتلك اهم صفات القائد السياسي الثوري في بلد مثل العراق . ومن المؤكد ان عزيز الحاج كان يفيد الحزب بصورة افضل وأكثر فيمالو أبقى خارج قوام اللجنة المركزية .

****

بعد خروجي من السجن بأيام جلست من جديد وراء سكان السيارة . كنت اسوق لبعض الوقت سيارة كرسلر امريكية اوتوماتيكية الطير ، دون ان املك اجازة السوق . وسقت فترة قصيرة سيارة اوستن انطليزية اشتريت في حينه من ضابط انطليزي في الحبانية . وكان سكانه في الجهة اليمنى ـ كما هي العادة في بريطانيا . وعندما قدمت طلبا للحصول على اجازة السوق كنت قد حسنت سياقتي وكنت واثقا من انني سانجح دون اي واسطة ، بخلاف زميلي جورج تللو ، الذي كان قد تقدم هو الاخر بطلب الاجازة معتمدا كليا لا على مهارته في السياقة ، بل على رسالة من مدير شرطة بغداد طه الشيخلي الى ضابط في شرطة المرور . واذكر جيدا ان الضابط ، الذي كان يمتحن تللو ، قد سأله:

- لماذا تحتر ماكنة السيارة اكثر من الحد الاعتيادي ؟

اجابه تللو ، وهو يبتسم :

- طه الشيخلي يسلم عليك .
- ياله من جواب ميكانيكي رائع ! ـ علق الضابط باسما وسجل لجورج تللو درجة النجاح لأنه كان موصى به من مرجع اعلى .

****

ابان المد الثوري تعرفت على نوري شاويس ـ احد قادة الثارتي ـ وتوثقت علاقات الصداقة بيننا . كان رجلا طيبا خلوقا ومن القلة النزيهة بين رجال محيطه . وكان اشبه برجل شذ بين افراد عائلته ، الذين كانوا جميعا بين شيوعي وبين مؤيد لنا . وقد فاتحني في احد لقاءاتنا برغبته في الانتماء الى ح.ش.ع ... فسألته : وكيف مع الثارتي ؟ أجاب انه سيتصرف حسب ما نطلب منه ، بالبقاء في الثارتي او الخروج منه . امهلته لأعرض المسألة على سلام عادل . وفي حلقة ضيقة من اعضاء المكتب السياسي ، بضمنها سلام عادل وزكي خيري وابوالعيس ، ناقشنا القضية واتفقنا على ترشيحه لعضوية ح.ش.ع ، مع بقائه بصلة فردية والحفاظ على سرية علاقته معنا . وصادق المكتب السياسي للحزب على هذا القرار . وبعد مغادرتي للعراق في خريف 1960 انقطعت عن اخباره وعلاقته الفعلية بالحزب ولم اعرف شأأ الا في شباط 1979 ، حيث التقيت به في مدينة برلين الشرقية (وكان آخر لقاء لي معه) وقال :

- انا لازلت ذلك الذي كنته في عهد قاسم (قصد انتماءه الى الحزب) . نقلت هذا الخبر الى عزيز محمد اثناء لقائي معه اثر لقائي بشاويس .

يذكرني هذا بطلب مماثل قدمه رئيس نقابة المحامين السابق عبدالوهاب محمود لقبول انتسابه الى الحزب الشيوعي ولكي يذهب الى موسكو كسفير للعراق ـ معين من قبل قاسم ـ ويحمل صفة عضو الحزب . في حينه قبلنا انتماء عبدالوهاب ايضا ونظمت له صلة فردية خاصة . بهذه المناسبة اود التحدث ببعض الكلمات عن علاقة عبدالكريم قاسم مع ح.ش.ع . فقد اشيع ونشر الكثير عن انه كان شيوعيا وعضوا في الحزب تحت اسم مستعار هو (مطر) . وردد هذه الاشاعة رؤساء دول ومسؤولون حكوميون وغيرهم .. وهي اشاعة لم تمت الى الحقيقة بصلة . فهو كان ضابطا ووطنيا مستقلا وتزعم الجناح الرئيسي من حركة الضباط الاحرار المستقلين في الجيش العراقي . وحدثني سلام عادل بأن قاسم كان على صلة مع ح.ش.ع عن طريق صديقه الشخصي الطيب رشيد مطلك واحيانا عن طريق الضابط الشيوعي الملازم حامد مقصود .

كان لماجد محمد امين ، المدعي العام في محكمة الشعب التي ترأسها فاضل المهداوي ، صلة بالحزب على الاقل لفترة معينة ، حسب اعتقادي. لكن المهداوي لم ينتسب يوما الى ح.ش.ع ، شأنه وصغي طاهر الذي كان من اقارب زكي خيري ومن اصدقاء الشوعيين .

وبقدر ما يتعلق بجلسات محكمة الشعب واسلوب المهداوي في المحاكمة ـ وهذا ما كتب عنه الكثير وبصورة غير موضوعية في اغلب الاحيان ـ فاننا ، مسؤولي ح.ش.ع ، كنا بين مؤيد دون اي تحفظ وبين مؤيد متحفظ ومنتقد في نفس الوقت ـ وكنت شخصيا من هذا الرأي الاخير . فالعلنية في جلسات المحاكمة ونشر وقائعها كما هي على الرأي العام مباشرة عبر الراديو والتلفزيون كانت من صميم الديمقراطية اذ كان بمستطاع الناس من مؤيدي السلطة ومن خصومها على حد سواء ان يطلعوا مباشرة على تفاصيل ما يجري . ويعرف الرجل المنصف قدر العلنية في جلسات المحاكمة عندما يقارن ما كان يجري في تلك الايام بما اخذ يجري على ايدي الحكام البعثيين في السنوات الاخيرة حيث الاختطاف والاعتقال التعسفي والتعذيب الوحشي وقتل المئات والالوف تحت التعذيب وباساليب همجية حتى دون تسليم جثث القتلى لذويهم ودون اصدار كلمة واحدة عنهم . وفي عمليات الانفال ضد كردستان عام 1988 زاد عدد الذين قتلوا بصورة همجية ودون اي محاكمة عن المئة الف ، اغلبهم من النساء والاطفال . ان مسؤولي حزب البعث واعضاءه الذين قبض عليهم بتهمة التآمر او بسبب مشاركتهم في محاولة اغتيال قاسم عام 1960 قد حوكموا محاكمات علنية ، على مرأى من الجميع ، في محكمة المهداوي وتحت ظل حكومة قاسم . وكان لهم محامون يدافعون عنهم كما كان الناس يعلمون لماذا يدان هذا ويبرأ ذلك . في حين قتل رئيس الدولة قاسم ورئيس محكمته المهداوي والمدعي العام ماجد محمد الامين دون اي تحقيق او محاكمة وبأساليب همجية .
فيما لو جرى استفتاء حر في عراق تلك الايام لأيد اكثر من اربعة اخماس العراقيين محاكمات المهداوي . ولهذا فانها كانت محكمة الشعب بحق . غير ان المهداوي كان يلجأ احيانا الى اساليب غير مقبولة في المحاكمات ، اذا اعتمدنا المقاييس الحضارية في البلدان المتطورة ـ من قبيل تعليقاته الشخصية على اقوال المتهمين وماشاكل .
في احدى جلسات المحكمة ادلى المتهمون ـ وكانوا من مسؤولي حزب البعث ـ افادات ومعلومات منفية للحقائق التاريخية ، مستهدفين من ذلك نفي التهم الموجهة اليهم . ولما سمع عزيز الشيخ ذلك ، وهو جالس في منزله يتفرج على التلفزيون ، نهض غاضبا الى حيث سماعة التلفون وخابر محكمة الشعب مكذبا ماقال هؤلاء ومبديا استعداده للادلاء بشهادته امام المحكمة . وقد رحبوا به وطلبوا منه الحضور الفوري وسمعنا شهادته عبر التلفزيون . كانت مفاجأة لنا جميعا . وأثارت السخط والاستنكار بيننا اذ لك يكن من تقاليدنا ان نسئ بأي شكل ماضي هؤلاء في وقت كانوا في علاقة جبهوية معنا . كنا ننظر الى ماضي البعضيين بشكل مغاير لحاضرهم كما كنا حريصين ألا نكشف شيأ من اسرار المحالفات السابقة بشكل يتضمن الاساءة الى حلفائنا . وكان سلام عادل من المستنكرين الغاضبين على عزيز وتداول معنا عما يجب عمله . فاتفقنا على ان ننشر في صحيفتنا (اتحاد الشعب) شجبا لسلوك عزيز الشيخ واعتذارا عما حدث . واستنكره كذلك سائر اطراف جبهة الاتحاد الوطني وطالبنا البعض باجراءات اشد الا ان الجادرجي قال ان ما نشر في جريدتنا يفي بالغرض .
****
التقيت بكامل الجادرجي ، لأول مرة ، بعد ثورة تموز 1958 . زرته في منزله شبه الارستقراطي بحي (الكسرة) في بغداد زيارة تعارف ومجاملة . وجدته لطيف المعشر اريحيا ومهتما بمكتبته الكبيرة حريصا على اغنائها . وفي معرض الحديث حول الوضع السياسي وما كنا نفضله من التطورات اللاحقة علق الجادرجي على سياستنا راويا لنا القصة ـ او النكتة ـ المتداولة بين البغداديين (لو سكينة لو زب الملا) . وعندما اتى ابنه الشاب نصير ، وكان عضوا في ح..ع ، ليقدم لنا القهوة قال الجادرجي بين الهزل والجد :
- ارجو ان تنصحوا ابني نصير لكي يتعامل مع ابيه بشكل ودي ولايعتبره برجوازيا معاديا .

بالمناسبة كان وجود اولاد الرجال الوطنيين المناوئين للاستعمار ـ واحيانا اولاد الشخصيات غير الوطنية ايضا ـ الى يسار آبائهم سياسيا وانتساب الكثيرين منهم الى الحزب الشيوعي ظاهرة ملحوظة وعامة في عراق الاربعينات والخمسينات . ولم يندر ان ينتسب اولاد الارستقراطية ورجالات الطبقة الحاكمة وبعض الاقطاعيين الكبار ، من العرب والاكراد ، الى ح.ش.ع ، بالضد من ارادة ورغبات آبائهم . وأنا افسر تلك الظاهرة بشيئين : اشاعة الارهاب والكبت وحرمان الشعب من ممارسة حقوقه الديمقراطية ، من جهة وصواب سياسة ح.ش.ع واتساع شعبيته ، من جهة اخرى.
****
تبل ثورة تموز جمع العداء للاستعمار وللنظام الملكي بين الضابطين الوطنيين عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف في اطار حركة الضباط الاحرار . وأثناء تنفيذ الانقلاب ، الذي مثل عملية عسكرية جريئة ، عمل عارف تحت قيادة قاسم وبعد الانتصار اشغل عارف منصب المسؤول الثاني في الدولة . غير ان استلام السلطة سرعان ما انهى العلاقة الودية واحل محلها علاقة تصارع حاد بينهما كنتيجة لوجود خلافات فكرية ـ سياسية بينهما برزت الى الوجود بعد زوال النظام الملكي ـ وكان عارف الى يمين زميله قاسم سياسيا ـ من جهة والتطاحن على كرسي الزعامة من جهة ثانية . وفي مجرى هذا الصراع كان لابد من ان يبحث كل نهما عمن يستند اليه ويحظى بتأييده من الاوساط والقوى السياسية الجماهيرية . وبحكم نزعته القومية اليمينية توجه عارف ، بحثا عن سند له ، شطر الاوساط القومية اليمينية ، وبالاخص شطر حزب البعث . فيما توجه قاسم شطر القوى الديمقراطية اليسارية ، وخاصة شطر ح.ش.ع ذي النفوذ الشعبي الواسع ، الامر الذي ساعد على اقامة نوع من علاقات الود والتحالف ـ غير المكتوب ـ بين الجانبين ، قاسم والشيوعيين . وفي فترة تحالفهمع ح.ش.ع بالذات حقق قاسم اهم منجزاته لتعزيز الاستقلال الوطني سياسيا واجتماعيا اذ خرج من حلف بغداد ومن طوق الاسترليني وشرع قانون الاصلاح

الزراعي ، مما زاد كثيرا من شعبية نظامه . وعلى اثر اخفاق عارف في محاولاته الرامية الى تنظيم انقلاب عسكري جديد يضمن له الوصول الى كرسي الحكم الاعلى تدهورت العلاقات بينهما حتى انتهت بازاحة عارف وسجنه وتقديمه الى المحاكمة . وبتحقيق النصر ازداد غرور قاسم وتعززت لديه النزعة الدكتاتورية العسكرية ـ الفردية . ولم يلبث ان ادار ظهره لحلفائه الشيوعيين وخفف من عدائه لخصومه القوميين .

****

وقف عبدالناصر بقوة ضد ابرام حلف بغداد وانضمام النظام الملكي في العراق اليه . وخلال فترة معينة تزعم النضام القومي التحرري للامة العربية ضد الاستعمار واحلافه في المنطقة . ولهذا كان من الطبيعي ومن المهم ان يرحب ترحيبا حارا وقويا بثورة 14 تموز منذ ساعاتها الاولى . بيد ان الوقائع الاحقة اوضحت بأن ترحيبه هذا لم يكن بمعزل عن رغبته في ضم العراق الجديد المتحرر لتوه الى الجمهورية العربية المتحدة (المكونة آنئذ من مصر وسوريا) ضما فوريا ودون أي مراعاة للاسس الديمقراطية . وفي العراق نفسه رفع حزب البعث شعار الوحدة الفورية او الاندماج الفوري للوصول الى الحكم وليس للوصول الى الوحدة (فهو رفض اي وحدة فورية في فترات وجوده في الحكم) . ولم نقف نحن ضد الوحدة ولكننا صغنا شعارا افضل واكثر منطقية وتجاوبا مع متطلبات الظروف ـ شعار الاتحاد الفدرالي . وطالبنا بأن يقوم الاتحاد على اسس ديمقراطية ، مع مراعاة الخصائص التاريخية المحلية لكل قطر . وحظي موقفنا هذا بتأييد الغالبية الساحقة من الشعب العراقي وكذلك بتأييد نظام قاسم . ويمكن التاكيد على ان عبدالناصر قد ارتكب خطأ تاريخيا عندما اقدم على معاداة نظام قاسم و ح.ش.ع وأيد البعثيين وعبدالسلام وراهن على مطالبتهم بالاندماج الفوري . وحتى لو تسنى له دمج العراق في الجمهورية العربية المتحدة لكانت النتيجة في نهاية المطاف نفس ما حدث في سوريا عام 1960 .

****

اقام نادي الاكراد الفيلية في بغداد حفلا على شرف الملا مصطفى البارزاني اثر عودته من المنفى وعلى شرفنا نحن فريقا من الشيوعيين الذين خرجنا من السجون اثر الثورة . وكان بين المدعويين فاضل مهداوي وماجد الامين ووصفي طاهر . قدموا في الحفل اناشيد وأغان وطنية تخللتها هتافات ضد الاستعمار والرجعية . وعندما هتف الجمهور بحياة البارزاني هتافا حماسيا نهض الاخير وأسكت الحاضرين طالبا منهم ـ على طريقته الفلاحية البسيطة ـ الهتاف بحياة الزعيم عبدالكريم قاسم وليس بحياته هو البارزاني ، الذي يشرفه ـ على حد تعبيره ـ ان يكون مجرد قيطان لحذاء الزعيم عبدالكريم .

في هذا الحفل كانت لي مفاجأة صغيرة اذ اتاني رجل وتصافح معي بحرارة وسألني :

- هل تعرفني يا استاذ ؟
- كلا لم اعرفك . من هو حضرتك ؟
- انا المواطن باشا ، صاحب الدار الذي سجن وعذب شهرا كاملا في ايلول 1949 بسبب وجودكم في احدى غرف الدار بباب الشيخ . هل تذكر ؟ أخليتم الدار ثم دوهمت وقبض علي .

****

في شباط 1959 اصبحت لأول مرة حامل جواز سفر عراقي قانوني وسافرت ضمن وفد ، ترأسه سكرتير الحزب سلام عادل ، الى موسكو تلبية لدعوة الحزب الشيوعي السوفيتي ، كي نشارك كضيوف في مؤتمره الواحد والعشرين . غادرنا بغداد في طائرة كي ايل ام (KLM) ومكثنا في احد ارقى الفنادق بامستردام ـ على حساب الشركة التي اقلتنا ـ بانتظار وصول الطائرة السوفيتية التي كانت تنقلنا الى موسكو . اردنا ان نستثمر وجودنا في هولنده لزيارة تعارف الى مقر الحزب الشيوعي الهولندي . فركبنا سيارة باص وسألنا الجابي عن عنوان الحزب الشيوعي واهتم بالبحث عنه بعد ان عرف بأننا أجانب . وسألنا عن البلد الذي قدمنا منه وعبثا حاولنا افهامه اين هو العراق . انه لم يسمع قط باسم العراق ، رغم ان الثورة كانت قد وضعت اخبار العراق في المقدمة على الصعيد العالمي . هذا الجابي الهولندي كان بعيدا عن السياسة وحتى عن سماع اخبار الاذاعات والتلفزيون لدرجة لم يسمع باسم العراق وثورة 14 تموز . وحين اخبره عبدالرحيم شريف بأننا من بغداد مدينة الف ليلة وليلة أجاب الرجل :

- اعرف بغداد الف ليلة وليلة وقرأت قصصها مرارا . كل شئ واضح الان .

في مطار موسكو كان احد اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتيي بانتظارنا . ونقلنا الى الفيلا التي كانت مسكنا لستالين حتى يوم وفاته . كانت مبنى بسيطا فيه اثاث اعتيادية وأمام المبنى مسبح بسيط صيفي مكشوف وحدد عمقه بما تلائم مع قامة ستالين القصيرة. وكان هناك في ركن الحديقة خارج المبنى بعض اشجار الحمضيات التي قيل ان ستالين كان مولعا بمداراتها والسهر عليها في حينه . وتحيط بالمبنى غابة ـ ضمن غابات ضواحي موسكو ـ وعلى مسافة منه ، داخل الغابة ، مبنى آخر كان مقرا لفصيل الحماية سابقا وحول لاحقا الى مستشفى تابع للجنة المركزية .

كان وفدنا موضع رعاية خاصة بوصفه وفد واحد من الاحزاب الشيوعية الكبيرة في بلدان العالم الراسمالي . وكتقدير لدور ح.ش.ع ومكانته المتميزة ابلغنا السوفيت بأن وفدنا سيكون أول وفد بين الضيوف يلقي كلمته . واعتبرنا ذلك نوعا من الامتيازات الهامة التي تمنح لحزبنا . لكن الوضع قد تغير فجأة اذ حل الموعد المحدد لالقاء كلمتنا ، التي كنا قد هيأناها ، ودعي غيرنا لالقاء كلمته وجرى تجاهلنا نحن دون ان نعرف السبب . في اليوم التالي عرفنا السبب : ان خطابنا لم يتضمن

الاشادة بقاسم . وهذا مالم يرض عنه مسؤولو القسم الدولي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي . رجونا تضمينه هذه الاشادة . ما معنى ذلك ؟ معناه اننا لسنا احرارا في القاء كلمة باسم وفدنا وحول ظروف بلدنا الذي قدمنا منه . بل يجب ان تكون كلمتنا منسجمة مع رأي القيادة السوفيتية في شخص قاسم . بتعبير آخر فأن العلاقة بيننا وبين القيادة السوفيتية ليست قائمة على اساس المساواة العملية ، بل هي علاقة قائمة بين القائد والمقود .
استائنا ، كلنا او اغلبنا ، من هذا التصرف . ولكن رضخنا ولو على شئ من المضض وأدخلنا جملة ((ابن الشعب البار)) كاشادة بشخص قاسم . وبعد ذلك ، وبعد يومين من الموعد المحدد سمح لنا بالقاء الخطاب . ومن الواضح ان هذه الجملة كانت تعبيرا عن فكرة ادخلت في خطنا السياسي وكلفتنا غالبا خلال الفترة اللاحقة من حيث نهجنا السياسي تجاه السلطة . بتعبير آخر فان ذلك كان تعبيرا عن جوهر النهج الذي سمي فيما بعد بالتطور اللارأسمالي .
خلال اقامتنا في موسكو التقينا بقادة العديد من الاحزاب الشيوعية ، بينهم سكرتير الحزب الشيوعي الاندنوسي آيدت (أو عائد - كما اشار نفسه) الذي كان يقود آنئذ احد اكبر الاحزاب الشيوعية في العالم الرأسمالي . وقد استمع آيدت الى حديثنا حول ثورة 14 تموز ونفوذ حزبنا الكبير وامكاناته النضالية الهائلة . فعلق قائلا:

- مررنا بوضع مشابه في اندنوسيا وتصورنا ان الامور كلها اصبحت في ايدينا ثم اتضح اننا كنا متوهمين .

والشئ المؤسف هو ان آيدت ظل يعيش في الاوهام حتى بعد حديثه المشار اليه معنا والى ان تحطم الحزب الشيوعي الاندنوسي وقتل هو نفسه في 1965 .
بعد المؤتمر السوفيتي عاد اعضاء الوفد الى العراق وبقيت انا في موسكو لاعالج الدزانتري المزمن ، الذي كنت مصابا به منذ عشر سنوات . وقد حجزت شهرا في احد المستشفيات وعولج مرضي علاجا تاما . ثم نقلت الى مستشفى آخر حيث اجريت لنا ، انا وعلي الوتار وعبدالامير عباس ، عمليات جراحية في الانف خلال يوم واحد وبقينا هناك بضعة ايام . قامت خلالها الممرضة الروسية الشابة الحسناء نتاشا بخدمتنا الى درجة تصورنا انها موصى بها . لكننا لاحظنا ان هذا كان سلوكها مع جميع المرضى وان كل مريض كان ينظر اليها كصديقته الخاصة . وبعد ذلك بعشرين عاما وجدت هذه الممرضة واحدة من اساتذة جامعة موسكو .
كنت في المستشفى حين سمعت عن محاولة آمر موقع الموصل العقيد عبدالوهاب الشواف تنظيم انقلاب عسكري . كان هذا الخبر مقلقا للغاية وحملني على ان اسهر مع المذياع الصغير الذي كان في حوزتي طيلة الليل وحتى الصبح . في الضحى جاءنى المرافق الروسي الطبيب طارشين ليهنئني بفشل محاولة الانقلاب . ولم يتسن لي معرفة تفاصيل ما حدث في الموصل الا بعد عودتي الى بغداد اواخر نيسان 1959 . وقد وجدت ان المحاولة نظمت من الشواف وبعض العناصر الرجعية من العوائل الارستقراطية في الموصل ومن شيوخ العشائر . وان عبدالناصر كان مشاركا فعالا في هندسة وتنظيم العملية وكان مخطئا في حساباته . وكان عدد الضحايا من الشيوعيين وسائر مؤيدي السلطة قرابة مئة شخص مقابل 40 شخصا من ضحايا الطرف الاخر . وقد طغت نزعة الثأر على سلوك المسؤولين المحليين للحزب الشيوعي فقتلوا (17) شخصا - وهم ضمن الاربعين قتيلا - من ابرز الخصوم السياسيين المؤيدين لمحاولة الانقلاب ، في وقت كانت المحاولة قد قمعت .
وحين التقيت بعضو اللجنة المركزية لحزبنا المحامي حمزة سلمان ، الذي كان قد أوفد من بغداد الى الموصل كمشرف حزبي ابان الاحداث ، وجهت اليه اللوم بحضور ابوالعيس وزكي خيري وجورج تللو ، بسبب قتل هؤلاء السبعة عشر شخصا بعد ان كان التمرد قد اخمد . فمد يده الى جيب سترته وأخرج رسالة مقدما اياها الي وقال :

- كنت اتوقع مثل هذا اللوم منك ومن رفاق آخرين . ولهذا احتفظت بهذه الرسالة لأدافع بها عن نفسي . أرجو ان تقرأها الان وتعيدها الي .

قرأت الرسالة ، وكانت بخط جمال الحيدري ومرسلة بتوقيع المكتب السياسي . كانت التوجيهات المدونة متطرفة اذ امرت باستثمار الموقف لتصفية الرؤوس المعادية ولم اعرف ما اذا كان الحيدري قد كتب هذه الرسالة بالاتفاق مع سلام عادل ام مع غيره ايضا . ورغم هذا التطرف، ورغم وجوب شجب ما قام به رفاقنا هناك فان من الانصاف ان يشجب اولا سلوك وجرائم رؤوس التمرد العسكري الذين قتلوا ، خلال اليوم الاول من التمرد ، ستة اضعاف هذا العدد ، بينهم المحامي الديموقراطي البارز كامل القازانجي .

****

في طريق العودة من موسكو الى بغداد مررت بلبنان وقضيت فيه ثلاثة ايام شاهدت خلالها عاصمة البلد الجميل ومدن صيدا والجزين ودير القمر ومناطق اخرى . في مقهى بالجزين طلب مني بعض الجالسين السماح باطلاعهم على الصحف اليومية ، التي كنت قد اشتريتها في بيروت . وسألتهم عن الصحف المفضلة لديهم لقراءتها ، فاجابوا :

- اما النداء - وهي جريدة الحزب الشيوعي اللبناني - وأما الدستور وهي جريدة مسيحية يمينية متطرفة تقريبا .

وعند زيارتي لمكتب جريدة النداء في بيروت التقيت بعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني احمد غربية وقدمت نفسي بصفتي الحزبية . وبعكس ما كان لدينا من التقاليد في بغداد فانه لم يتفضل علي بقدح من الشاي ولا بسيجارة من علبته التي اخرجها ليدخن وليقدم سيجارة الى زميلة مصطفى العريس .

****

بعد ثورة تموز التقيت لأول مرة بسكرتير حزب توده الايراني رضا رادمنش ، الذي كان قد اتى من اوربا الى بغداد بأمل الاقتراب من ايران واجراء بعض الاتصالات مع بقايا رفاقه في ايران . اقام اياما في منزلي وبدا انسانا بسيطا وطيبا وخلوقا . ولم ادخل يوما في الحديث حول نشاطه الحزبي ونتاج عمله واوضاع حزبه البائسة . وقد علمت في وقت لاحق بانه اقام الصلات ، بمساعدة صالح دطلة في البصرة ، مع (عباس) الذي كان قد صور نفسه كاحد كوادر حزبه ، ثم اتضح ان عباس هذا لم يكن سوى احد عملاء الساواك (الامن العام) الايراني . وتمكن من تصفية بقايا التنظيمات التودوية هناك قبل ان يقتل من قبل جماعة فدائيي الشعب في وقت متأخر .

****

نظمنا مظاهرة الاول من آيار 1959 ابان النهوض الثوري المتصاعد الذي اعقب قمع تمرد الشواف في الموصل . وقد اوصينا تنظيماتنا في المدن غير البعيدة (كالنجف وكربلاء والحلة والفلوجة وديالى .. الخ) بارسال العمال والشباب للمشاركة فيها . وحددنا لها شعاراتها وقررنا ان يكون مهرجانا عماليا ـ شعبيا يعكس نفوذ الحزب وارادة الشعب ، كما قررنا ان تشارك قيادة ح.ش.ع نفسها في المظاهرة باسم (موكب جريدة اتحاد الشعب) . وحين بدأت المظاهرة في صبيحة الاول من آيار خرجنا نحن كأول موكب اخترق شارع الرشيد من الباب الشرقي لينتهي في باب المعظم . وقع حادث طريف لموكبنا ، وقد اقتربنا من باب المعظم : وقف جندي في زيه الرسمي وسط الشارع امام موكبنا وهتف بحماس كبير :

- تعيش اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بقيادة زعيمنا الاوحد عبدالكريم قاسم ... تا .

يبدو انه كان يتوقع تجاوبا حماسيا بمستوى حماسه هو . لكنه جوبه بالصمت من جانبنا فغادر الشارع وهو في حيرة من الامر .

استمرت المظاهرة من الصباح وحتى منتصف الليل وكشفت عن اكبر مهرجان عمالي ـ شعبي في تاريخ العراق وحملت بعض المفاجات السياسية، وبالاخص مفاجأة رفع شعار مشاركة ح.ش.ع في الحكم . لقد هتف اكثر من نصف مليون ، بل ما يقارب المليون ، من العمال والشباب وغيرهم ، في شارع الرشيد مطالبين قاسم باشتراك الشيوعيين في السلطة . علما اننا حددنا في المكتب السياسي جميع شعارات المظاهرة ولم ندخل فيها هذا الشعار ، الذي ولد بصيغة توفيقية شعبية هادفة الى دعم الشيوعيين مع تجنب اثارة قاسم : ((عاش زعيمي عبدالكريمي ـ حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي)) .

لم يشترك سلام عادل في موكب اتحاد الشعب . وبعد تفرق الموكب توزعنا ، نحن اعضاء المكتب السياسي ، على شارع الرشيد لنتفرج من بلكونات على المظاهرة ونراقب مدى تنظيمها . وكان ابوالعيس أول من لاحظ ظهتر ذلك الشعار غير المقرر . فذهب الى سلام عادل ، الذي كان موجودا في مكان قريب منه . وسأل عما اذا جاز السماح بطغيان شعار لم يقرر مسبقا ـ شعار مشاركة ح.ش.ع في الحكم . فاجابه سلام عادل :

- دعهم ليهتفوا كما يروق لهم ولاداعي للتدخل والتغيير .

في اليوم التالي اجتمعنا لدراسة وتقييم نتائج المظاهرة . وبعد نقاش ضاف قررنا في المكتب السياسي تبني شعار المشاركة في الحكم باعتباره تعبيرا عن ارادة العمال والجماهير ـ وكان كذلك فعلا . وقررنا القايم بحملة اعلامية ـ تثقيفية داخل تنظيماتنا وبين الجماهير لدعم هذا المطلب . وكلفني الاجتماع بنشر مقالات في جريدة اتحاد الشعب بنفس الهدف ، وقمت بنشرها . وكانت حملتنا مستمرة وسط حماس اعضاء الحزب ومؤيديه عندما تلقينا مذكرة من قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي ، وهي توجه لنا النقد على مطالبتنا بالمشاركة في الحكم وتعتبر موقفنا تطرفا يساريا وتؤكد ان من الضروري دعم سلطة قاسم ضد ما تتعرض له من دسائس ومؤامرات امبريالية هادفة الى اسقاطها .

قبل تلقي هذه المذكرة من القيادة السوفيتية كانت اغلبيتنا في قيادة ح.ش.ع ميالة الى استلام السلطة . وكنا ننظر الى شعار المشاركة في الحكم كخطوة نحو استلام السلطة . وكان طموحنا هذا مشروعا لأن ح.ش.ع كان اقوى حزب سياسي في البلاد وكان حزب الاغلبية الحقيقية من الشعب . فكان من حقه ، وفق جميع الاعراف والمعايير الديمقراطية ، ان يصبح الحزب الحاكم في البلاد . وأما مذكرة (أو رسالة) القيادة السوفيتية فانها لم تكن سوى تدخل اناس مغرورين كانوا يجهلون ظروف العراق الملموسة وكانوا يجلسون وراء مكاتبهم في موسكو على بعد آلاف الكيلومترات من بغداد ، ليسيؤوا الى علاقات التآخي الاممي بين الشيوعيين في شتى البلدان وليملوا علينا سياسة خاطئة غير منسجمة مع واقع العراق ، بدلا من ان يحاولوا تفهم وضع بلدنا منا نحن المناضلين من اهل هذا البلد والملمين بظروفه . وكنا من جانبنا اسرى التقاليد والتقديرات السائدة في نظام العلاقات داخل الحركة الشيوعية آنئذ . كنا دراويش للقيادة السوفيتية معتقدين بانها اكثر فهما لاوضاع بلدنا نحن الشيوعيين العراقيين . فامتثلنا للامر وتخلينا عن شعار المشاركة في الحكم وبالتالي تخلينا عن هدف الوصول الى السلطة طيلة عهد قاسم . اظن اننا كنا نرفض طلب السوفيت فيما لو كنا اكثر تجربة ونضجا . لكننا اضعنا فرصة العمر التاريخية في تحقيق الهدف المشروع الذي من اجله يتكون كل حزب سياسي ـ هدف الوصول الى السلطة لتحقيق البرنامج السياسي ـ الاقتصادي الذي يؤمن به ويقوم على اساسه .

منذ ان تخلينا عن محاولة الوصول الى السلطة في اواسط 1959 استقر خطنا السياسي العام على نهج يميني ذيلي ازاء نظام قاسم وازاء قضية السلطة بوجه عام . غير ان نشاطات وخطط الحزب بوجه عام ونشاطات بعض منظماته بوجه خاص لم تخل من التطرف اليساري والشطحات الصبيانية . كان المد الثوري المتعاظم وسعة الفعاليات الجماهيرية وسعة تنظيماتنا

الحزبية والنقابية ، في بلد شرقي متخلف وخاضع للكبت والارهاب طيلة عشرات السنين المنصرمة ، اوسع من ان يستطيع الحزب استيعابه . وكان بين كوادرنا القيادية ، وخاصة الوسطية ، أناس شديدو التطرف من امثال حسن الرطاع في المسيب وحميد بخش في البصرة .

تغيير نهج قاسم وانتكاسة ثورة 14 تموز

اظن ان مظاهرة الاول من آيار 1959 ارعبت عبدالكريم قاسم اذ كشفت له بأن ح.ش.ع ليس مجرد قوة سياسية داعمة له ضد خصومه من امثال عبدالسلام عارف والبعثيين ، بل يشكل خطرا عليه من حيث انه يملك نفوذا شعبيا هائلا ويفكر في ان يكون شريكا في الحكم ، وقد يزحف لاحقا على السلطة . من هنا بدأ التغيير في نهج قاسم السياسي ، مقرونا بحملة اعلامية نشطة من التشويه والافتراءات ضد الشيوعيين . وكما هي العادة الجارية في اغلب الاحيان فان الحملة وجهت اعلاميا (من الناحية الشكلية على الاقل) ضد اشخاص معينين ـ ضد سكرتير الحزب سلام عادل وعضوين في المكتب السياسي هما جمال الحيدري وعامر عبدالله ـ لاظهار المسألة كما لو كانت مسألة تصرفات اشخاص معينين وليست مسألة محاربة الحركة الشيوعية كلها . ربما يعود التركيز ضد هؤلاء الى كونهم بارزين على صعيد علاقات الحزب مع اوساط اخرى .

يجدر بالذكر ان الملا مصطفى البارزاني شارك بنشاط في هذه الحملة . ولكنه كان يركز بالدرجة الاساسية ضد شخص جمال الحيدري ـ ولا أدري ما اذا كان سبب ذلك هو ان الحيدري كان الشخص الكردي الوحيد بين هؤلاء الذين تعرضوا للحملة .

لم يكن هناك اساس واقعي لمخاوف قاسم وأوهامه ، بعد ان تخلينا عن شعار المشاركة في السلطة . ذلك لأننا اصبحنا مؤيدين لحكمه وجمدنا على السياسة التي رسمناها خلال الفترة الاولى من الثورة ، اعني سياسة التضامن معه والدفاع عن نظامه ضد أي محاولة لاسقاطه . ذلك في وقت كان قد غير سياسته جذريا من نهج التعاون معنا الى نهج محاربتنا بشتى الاساليب . وكان في البلاد اناس كثيرون ، بل طبقات اجتماعية ومنظمات سياسية ، من اعداء الشيوعية . وكانوا ضعافا في وجهنا قبل ان ينضم نظام قاسم اليهم بما في حوزته من اجهزة قمعية . بيد ان تغيير نهج قاسم غير توازن القوى على المسرح السياسي في البلاد وخلق جوا مؤاتيا لانتعاش النشاط المعادي للشيوعية وللديمقراطية ، ولقاسم نفسه بمعنى معين . وكان من الطبيعي ان تسارع الاوساط الامبريالية والرجعية العربية المجاورة ايضا الى السعي لاستثمار الوضع المستجد في صالحها ولاستعادة الامتيازات ، التي خسرتها في هذه البلاد على اثر انتصار ثورة 14 تموز .

****

لم يكن هناك شئ معلن عن الخلافات بين قيادتي الحزبين الشيوعيين الصيني والسوفيتي في 1959 ، عندما عاد ابوالعيس من زيارته ، التي استغرقت اكثر من شهر الى الصين ، حاملا الينا بعض الانباء عن هذه الخلافات . فقد قال ما اسمعه الصينيون بصورة رسمية :

- تحت القيادة الصينية ثلاثة من اعضاء مكتبها السياسي عن مراكزهم الحزبية بينهم ضوتي وثنط تي هوا الذي قاد العملية العسكرية لطرد القوات الامريكية من كوريا الشمالية عام 1953 ، بسبب انحرافهم الفكري .

لم يعرف ابوالعيس نفسه ولم نعرف نحن ماهو هذا الانحراف الفكري . لكن المسألة كانت تتعلق ، كما اتضح لاحقا ، بالموقف من الخلافات مع القيادة السوفيتية .

وظهرت هذه الخلافات بصورة اوضح في المقالات المعنونة (تحيا اللينينية) التي نشرتها القيادة الصينية في صحيفة (جين مين جيباو) كرد على الافكار والمفاهيم التي تبنتها القيادة السوفيتية في عهد خروشيوف . وحصلنا في بغداد على هذه المقالات مترجمة الى اللغة العربية لدى السفارة الصينية .

وعندما اطلع سلام عادل على هذه المقالات ، وهو لايعرف شيأ عن الغرض من نشرها ولا عن الخلافات المتزايدة بين القيادتين الصينية والسوفيتية ، اعجب بها ووجدها منسجمة مع تصوراته وتصورات ح.ش.ع عامة . فبادر الى مطالبة هيأة تحرير جريدتنا (اتحاد الشعب) بنشرها ـ وقد نشرت فعلا . معنى ذلك ان الاتجاه الفكري لسلام عادل وللغالبية الساحقة من قادة ح.ش.ع كان اقرب الى اتجاه القيادة الصينية ، الذي عبرت عنه تلك المقالات . غير ان الاخلاص للسوفيت كان فوق كل شئ ـ هكذا تربى الشيوعيين العراقيون ـ شأن معظم شيوعيي العالم في حقبة تاريخية معينة . فما ان كشفت عن الخلافات حتى اعلن سلام عادل الانحياز الصارخ اللاشرطي الى جانب السوفيت ضد القيادة الصينية . واعتبر كل شخص او حزب يطالب باتخاذ موقف مستقل غير متحيز وغير تابع الى أي جانب منحرفا ومعاديا للشيوعية . وكان ذلك ضربا من الجمود العقائدي ومعولا من معاول الهدم التي استخدمتها كلتا القيادتين ، السوفيتية والصينية معا ، لالحاق الاذى بالحركة الشيوعية العالمية وللنيل من سمعتها وهيبتها واثارة الشقاق في صفوفها في عشرات الاقطار والاحزاب . ففي الوقت الذي كان ماوتسيتون ، القائد الثوري العظيم والمفكر الصيني الكبير ، قد اخذ يغتر ويتغير ، بعد استلامه السلطة ، سائرا نحو الجمود والضلال والتدهور ، ارتكب خروشيوف بدوره اخطاء جسيمة . انه انتبه الى الخراب الناجم عن البيروقراطية الستالينية وأتى بافكار ومفاهيم جديدة وخطا خطوات معينة لمعالجة الوضع . لكنه لم يع ، ولم يكن من السهل ان يعي ، عمق المشاكل وابعادها ولم يتبع اساليب صحيحة في العلاج ، مما اتاح لانصار النهج الستاليني ذوي النفوذ السائد في الحزب السوفيتي ان يطيحوا به بسهولة ، وأن يحل محله زميله برجنيف الذي ورث من ستالين كل ما كان سيأ وزاده سوءا وخرابا طوال سني حكمه على رأس الحزب والدولة.

****

فيما كانت الحملة الدعائية مشتدة ضد ح.ش.ع ، عام 1960 ، امر الملا مصطفى البارزاني باقصاء حمزة عبداللة ومن معه من اعضاء المكتب السياسي للثارتي بصورة بيروقراطية شبه انقلابية ، تجاوزات على النظام الداخلي الذي كان يعطي المؤتمر واللجنة المركزية ممارسة حق كهذا . وعين مكتب سياسي جديد برئاسة ابراهيم احمد . ومن المؤكد ان هذا الاجراء اوجد التربة الخصبة لاشتداد الصراعات بين الشيوعيين والثارتيين في المجتمع الكردي المتخلف الذي سادته الامية والتقاليد العشائرية . وغالبا ما حل فيه الخنجر والبندقية حكما بين المتخالفين فكريا والمتصارعين سياسيا .
في تلك الايام سافرت الى مسقط رأسي ـ قرية تكيه ـ في زيارة عائلية . كنا جالسين فوق احد الاسطح في لقاء اعتيادي مع الفلاحين ، حين جاءنا الفلاح الفقير (حمه جمه) وهو يلهث ويحمل بندقيته . واضح ان وضعه غير اعتيادي . سأله احد الفلاحين :

- هل حدث لك مكروه يا حمه ؟
- نعم ! هناك في قرية مسويي (وهي قرية تبعد حوالي عشر كيلومترات) تعاركت مع بعضهم واضطررت الى الهروب منها ، بعد ان اعتدوا علي واطلقت بدوري النار على بعضهم .
- ولماذا العراك ؟
- لأنهم ثارتيون وشتموا الشيوعية وأنا لم استطع التزام الصمت ازاءهم .
- معناه انك شتمت بدورك الثارتي :
- بالطبع . وقد هجموا علي وضربوني قبل ان تصل يداي الى بندقيتي واصليهم بوابل من الرصاص . وبعد ذلك وجدت نفسي مضطرا الى ترك القرية والمجئ الى هنا .

ذلكم كان شكلا من الصراع الفكري ـ السياسي الدائر آنئذ ، خصوصا في القرى الكردية . ولسوء الحظ فان مستوى المسؤولين المحليين لكلا الحزبين في المناطق الريفية كان واطئا الى حد الانجرار وراء هذه الصراعات المأسوية الخاطئة ، بدلا من التنافس الحزبي السلمي الديمقراطي.
اثر عودتي من تكيه الى السليمانية ، وانا في طريقي الى بغداد ، تلقيت تبليغا رسميا بأن احضر لدى مدير شرطة المحافظة . كان واضحا انه مجرد تحرش وارهاب . فتجاهلت الطلب وعدت الى بغداد . وفي اجتماع المكتب السياسي تقرر ان نزور ، أنا وعزيز محمد ، الملا مصطفى البارزاني في منزله مجاملة ونعمل سعيا لابعاده عن المشاركة في حملة التشهير بالشيوعيين وتعميق الفرقة في الصف الوطني الممزق . وكان معنا ـ ان لم تخنني الذاكرة ـ عزيز شريف ايضا . وقد تحدثنا الى البارزاني بلهجة ودية ورجوناه استخدام نفوذه لرأب الصدع واشاعة الوفاق بين القوى الوطنية . غير اننا لم نفشل فقط في تحقيق ما ذهبنا من اجله ، بل تأتى علينا ايضا ان نسمع ونبتلع على مضض الكثير من السب والتنديد بالشيوعيين العراقيين عامة وببعض الاشخاص منهم بصورة خاصة . وقد تركت البيت نادما على هذه الزيارة .
وحين وصل الشيخ احمد البارزاني الى بغداد زرناه ايضا في منزل اخيه الملا مصطفى . كان الشيخ الرئيس المعترف به بين البارزانيين ومن قبل الملا مصطفى نفسه كرئيس للعشيرة . وكان رجلا متوسط القامة بسيطا بساطة الفلاح البارزاني وطيبا وقليل الكلام . ولم يكن لديه اي طموح في ان يكون زعيما سياسيا قوميا خارج نطاق عشيرته . كما لم يكن هناك من يتحدى زعامته لابناء عشيرته . وقد رحبنا بالشيخ وشكونا له اخاه الملا مصطفى بسبب مشاركة هذا الاخير النشطة في الحملة الدعائية ضد ح.ش.ع . وكنا جالسين بجانب الشيخ المسن في صدر الغرفة . وحين دخل الملا مصطفى نهضنا ووقفنا احتراما له وافرغنا له مكان الجلوس بجانب اخيه الاكبر . لكن الملا ظل واقفا دون حراك في اسفل الغرفة واضعا يده على صدره ، منتظرا صدور الايعاز اليه من الشيخ احمد ـ حسب التقاليد العشائرية لدى البارزانيين . ولم يجلس الا بعد ان اذن له الشيخ :

- مستو روونه ! (اجلس يا مصطفى) .

وردا على الشكوى التي قدمناها اليه ضد الملا مصطفى قال الشيخ بلهجته الريفية البسيطة :

- عندما ذهب رجالنا الى روسيا فانهم لم يملكوا شيأ سوى الملابس التي كانوا يرتدونها . وحين عادوا من هناك كانوا يحملون حقائب مليئة بالاشياء الثمينة وساعات في ايديهم .. فيجب ان نكون اوفياء لروسيا وللشيوعية ممتنين لهم على الدوام .

واضاف الى ذلك :

- حين لحقت الاذى بنا لحقت بالشيوعيين ايضا .

واختتم كلامه بتوجيه النقد الى الملا مصطفى . ولم يكن بمقدور الاخير ان يعترض او يناقش ما يتفوه به الاخ الاكبر . لكن شيأ من سلوكه لم يتغير بعد عودة الشيخ الى منطقته .

****

في سنة 1960 اصدر قاسم تشريعا حول تشكيل الاحزاب القانونية . وكان على كل فريق يريد الحصول على ترخيص قانوني ان يتقدم بطلب يحمل 50 توقيعا لاناس تتوفر فيهم الشروط القانونية . وقد قدمت طلبات ، كان بينها طلبنا الذي وقع زكي خيري على الطابع فيه ، في حين استثني اسم سلام عادل لتلافي اعتراض السلطة بذريعة عدم توفر الشروط القانونية فيه . والى جانب طلبنا كان هناك طلب آخر بنفس الاسم (ح.ش.ع) قدمه عميل السلطة داوود الصائغ ، الذي كان يتلقى التوجيهات

من رجل شبه امي تافه اسمه (جبار حمزة) ، الذي قدر له ان يكون من معارف قاسم ومن المرتبطين به مباشرة . (وأشيع انه رئيس استخبارات الحق) . كان واحا ان الهدف من هذا الطلب المفتعل ايجاد ذريعة صورية لرفض طلبنا بحجة عدم جواز وجود حزبين بنفس الاسم . واحتطنا لهذه المفاجأة بتهيأة ما ينزع الصفة القانونية عن طلب الصائغ . وقد كلفت شخصيا بالاشراف على هذه العملية واتخذت من المهندس الشيوعي عيسى العزاوي مساعدا لي كما اتصلت بالشيوعية النشطة آنئذ بشرى برتو . واستفدنا كثيرا من (عدنان) الذي كان في تشكيلة الصائغ وكان على ارتباط سري معنا .
كانت حصيلة نشاطنا ان غدت الغالبية الساحقة بين الموقعين على طلب الصائغ من رفاقنا المرسلين اليه ، بضمنهم الطالبة الجامعية الشيوعية ليلى الرومي ـ العنصر النسائي الوحيد بينهم . وكان الصائغ غبيا ومعزولا وعاجزا عن تجميع العدد المطلوب قانونا . وعند اقتراب الموعد القانوني الذي كان يجب على السلطة ان تجيب الطلب سلبا او ايجابا نظمنا استقالة جماعية شملت اكثر من ثمانية اعشار الموقعين على طلبه التاسيسي . ابقينا من رفاقنا شخصا واحدا لغرض الاستطلاع . وبذلك نسفنا الاساس القانوني لطلب الحزب المفتعل . غير ان السلطة اتاحت للصائغ فرصة اعادة تشكيل هيئته المؤسسة بضم عناصر جديدة بدل المستقيلين . وللمرة الثانية ارسلنا وجبة جديدة من رفاقنا الى هذا الغبي الذي ضمهم الى هيئته المؤسسة . وللمرة الثانية نظمنا ، في الوقت المناسب ، استقالة شبه جماعية جديدة بين الموقعين على طلبه ناسفين من جديد الاساس القانوني للطلب .
ورغم كل ذلك وجهت السلطة كتابا جوابيا الينا زعمت فيه انه لايجوز ترخيص حزبين بنفس الاسم . ولهذا ترفض طلبنا . معنى ذلك انها افتعلت طلب الصائغ لترفض طلبنا . وقد اجازت الحزب الشيوعي الكارتوني ، رغم انتفاء اسسه القانونية ، الامر الذي اكد ان قانون الاحزاب لم يكن اكثر من مهزلة ديموقراطية . في هذه الحالة ايضا بقينا مرنين وقررنا نسف حجج قاسم لرفض طلبنا . عقدنا اجتماعا طارئا للجنة الحزب المركزية واتفقنا خلاله بالاجماع على تغيير اسم حزبنا من ح.ش.ع الى (حزب اتحاد الشعب) وتقديم الطلب على هذا الاساس . كان قرارنا بتبديل اسم الحزب قرارا مفهوما لجميع رفاقنا واصدقائنا ومنسجما مع متطلبات الوضع المستجد . لكنه لم يكن مفهوما لدى القيادة السوفيتية التى رأت فيه ما يستوجب الدخل والاعتراض الفوري على ما فعلنا وكأننا ارتكبنا خطأ مبدئيا جسيما . فقد ذهبنا ، انا وزكي خيري ، الى الملحقية التجارية السوفيتية في الكرادة الشرقية ببغداد ، تلبية لدعوة السفير السوفيتي زايتسيف ، الذي اراد اللقاء معنا كي يقرأ لنا رسالة موجهة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي الى لجنة حزبنا المركزية ومترجمة الى اللغة العربية . وخلاصتها توجيه النقد الشديد لما كنا قد فعلنا (طبعا دون استشارة السوفيت) من تغيير في اسم الحزب . والاغرب من ذلك انهم نصحونا بالتفاهم مع داود الصائغ وادخال اسمه ضمن هيئتنا المؤسسة لغرض استحصال الاجازة القانونية . ناقشنا ما في الرسالة كما ناقشنا السفير نفسه ، الذي كان يؤيد الرسالة بحماس . ودافعنا عن قرار لجنتنا المركزية باعتباره الموقف الصحيح في الظروف الملموسة. وابلغنا زايتسيف ان بسطاء الناس حوالينا فهموا واستحسنوا ما فعلنا كي نحرج نظام قاسم ونثبت للجميع انه ليس جادا في الادعاء بحرية العمل الحزبي . كما رفضنا بقوة ضم شخص من قبيل الصائغ الى هيئتنا المؤسسة المقدمة الى السلطة والى الرأي العام معا .
كانت النتيجة رفض طلبنا بصيغته الجديدة ايضا . ذلكم كان قرار قاسم شخصيا . وتحت اشراف جبار حمزة خصص مبنى ليكون مقر حزب الصائغ المزعوم .
بهذه المناسبة اروي حادثا طريفا وقع لزعامة الحزب الكرتوني بعيد اجازته . دعتهم السفارة السودانية في بغداد لحضور حفل اقامته بمناسبة عيد استقلال السودان . وهناك افرط ((الزعماء)) في شرب الخمرة وسكروا واثاروا فيها بينهم ضجيجا حول كيفية توزيع الفي دينار كان الصائغ قد استلمه من جبار حمزة لتمشية امورهم الحزبية المزعومة . واضطر موظفو السفارة على طردهم من الحفل الدبلوماسي . فانتقلوا ونقلوا معهم نزاعهم الى مقرهم ، الذي كان حارسه الوحيد احد رجال الامن العام . احتدم النزاع داخل المقر بين الصائغ من جهة وبين زميليه جميل محمد علي وآخر لاأذكر اسمه ، من جهة اخرى . وكان معهم عدنان ، الشاب المتعاون معنا سرا ، الذي سكب النفط على نار النزاع حتى وصل الامر بينهم حد الضرب بالايدي والارجل ، اضافة الى الصراخ والشتائم المتبادلة . كان زميلا الصائغ يطلبنا حصتهما من المبلغ فيما كان الصائغ نفسه يرفض الطلب مدعيا انه هو المؤتمن من قبل الزعيم قاسم كي ينفق المبلغ . اخيرا لجأ حارس المبنى الى اطفاء الضوء وغلق الابواب على الزعماء المتقاتلين مهددا اياهم باستدعاء جبار حمزة . وبعد اقل من نصف ساعة ، وفيما بقي هؤلاء موقوفين في الظلام ، حضر جبار حمزة وعنف القادة وحل النزاع باسترجاع المبلغ كله من الصائغ وبارسالهم كل الى مسكنه الشخصي . وعندما قدم الصائغ المبلغ الى جبار حمزة قال له :

- تفضل خذ ! انا اقدم المبلغ برحابة الصدر الى ممثل الزعيم .

****

كانت علاقات ح.ش.ع متأزمة الى حد مع قاسم عندما اصيب بجراح اثناء محاولة اغتياله من قبل البعثيين . وزرناه ، انا وزكي خيري ، في المستشفى الذي كان يعالج فيه واستقبلنا بقدر من الترحيب وهنأناه باسم ح.ش.ع على سلامته ونجاته من الموت واستنكرنا الاعتداء عليه . كان متمددا في سريره ، وبجانبه ملابسه الملطخة بالدماء . قلت له مجاملة :

- محاولة اغتيالك كانت انتقاما منك لانك كنت على رأس ثورة 14 تموز .

- لو لم اكن أنا ولو لم اقم بهذه الثورة لبقي الشعب العراقي خمسمئة سنة اخرى تحت رحمة الاستعمار والنظام الملكي العميل
- قال ذلك بتباه وسجذاجة فلاح مغرور .

لم يكن بمقدورنا ان نقول له ((كلا يا سيادة الزعيم)) واكتفيت بالقاء نظرة فاحصة على وجهه . لقد كان كتلة من الغرور والاعتداد بالنفس . كان ينظر الى نفسه وكأنه المهدي المنتظر . وأظن انه لم يستنتج اي درس من محاولة اغتياله . وعبثا انتظر البعض بيننا ان يعيد النظر في موقفه من ح.ش.ع . وظهر ان الاعتداء عليه زاد من جنوحه نحو اليمين كما ان الوضع كان يتجه نحو الافضل فيما لو انتهت المحاولة باغتياله .

****

كانت العلاقات بيننا وبين قاسم تسير نحو مزيد من التدهور والتعقيد رغم جمودنا على سياستنا في الدفاع عن نظامه ضد أي محاولة رامية الى اسقاطه . وكان البعض من المسؤولين في حزبنا يحلم بتجاوز هذه الصعوبات واعادة العلاقة الى عهدها الذهبي السابق ، حيث كان الوئام والتعاون . وكسبيل الى تحسين العلاقة ـ حسب تصوري ـ اقترح عضو المكتب السياسي عزيز محمد ، في 1960 ، حل تنظيماتنا الحزبية داخل الجيش بهدف بعث الطمأنينة لدى شخص قاسم واستعادة ثقته بنا على اساس من اقناعه بان ح.ش.ع لايضمر اية نوايا انقلابية ضد حكمه .

يجدر بالذكر ان نفوذ الحزب في الجيش كان كبيرا وتنظيماته واسعة وقوية ضمت الالوف من الضباط وضباط الصف والجنود ، خصوصا خلال السنة الاولى من ثورة تموز . وكان الضباط الشيوعين يشغلون عددا من المراكز الهامة في القوات المسلحة ، امثال قائد القوة الجوية جلال الاوقاتي وقائد الفرقة الثانية داود الجنابي ومدير الحركات العسكرية طه الشيخ احمد وقادة وحدات مدرعة من قبيل سلمان الحصان وخزعل السعدي وضباط متنفذون امثال هاشم عبدالجبار في وحدات المشاة وغيرها . وكانت تحركات سلام عادل بين الضباط ، واحيانا التقاط الصور له معهم في لقاءاته ، مبعث القلق لدى قاسم . ولم يندر من يوصل اخبار هذه التحركات وتلك الصور الى قاسم لاثارة المزيد من مخاوفه ازاء النشاط الشيوعي المتنامي في الجيش .

بدلا من التفكير في الاستفادة من هذه الامكانات لغرض الوصل الى السلطة كان بيننا من فكر بمحوها وازالتها من الوجود ارضاءا لقاسم . وحين اقترح عزيز محمد حل تنظيماتنا في الجيش فانه كان على علم بوجود آخرين من مؤيدي رأيه داخل المكتب السياسي . وقد جرت مناقشات طويلة حول هذه المسألة استغرقت اياما دون ان نتوصل الى الحسم ، اذ كان البعض يتذبذب ويفضل التروي واتفقنا بالاجماع على ان نستتشير قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي باعتبارها صاحبة تجربة اوسع بهذا الصدد . وكلف ممثل الحزب في العلاقات مع السفارات جورج تللو بعرض المسألة على الممثل الحزبي في السفارة السوفيتية ببغداد . فيما واصلنا بيننا مناقشة القضية . وقبل ان نتلقى اي جواب من السوفيت توصلنا في بغداد الى اتخاذ قرار بالاغلبية ، رفض اقتراح عزيز محمد . صوتنا ضد الاقتراح أنا وسلام عادل وابوالعيس وزكي خيري . وصوت الى جانبه عزيز محمد وجورج تللو وهادي هاشم . ولم يشترك في هذا النقاش اثنان من اعضاء المكتب السياسي بسبب وجودهما في خارج البلاد ، هما جمال الحيدري وعامر عبداللة . واعتقد ان النتيجة تبقى هي في حالة وجودهما بيننا اذ كان الحيدري يصوت معنا ضد الاقتراح ، فيما كان عامر عبداللة يصوت الى جانب الاقتراح .

في وقت لاحق استلمنا جواب القيادة السوفيتية . وكان منسجما مع رأي الاغلبية بوجوب استمرار النشاط الحزبي والسهر على تنظيماتنا في الجيش . غير ان مشكلة جدية اخرى قد ظهرت بعد ان صوتت الاغلبية ضد حل تنظيماتنا في الجيش . فقد اتضح ان هادي هاشم ، الذي كان مشرفا آنئذ على تنظيماتنا العسكرية وجورج تللو قد نفذا عمليا الرأي الداعي الى الحل وابلغ الكادر الحزبي العامل في اللجنة القيادية المسؤولة ولجان ادنى منها بذلك . وتأتى على الرفاق فيما بعد القيام بجهد مكثف لازالة آثار هذا الاجراء ولاعادة بناء هيأتنا الحزبية ـ العسكرية في الجيش .

ومهما يكن الامر فان الاقتراح كان ايغالا في الذيلية ومتناغما مع سياسة مراضاة قاسم بأي ثمن كان . كان ذلك تعبيرا واضحا عن وجود تيار يميني ذيلي في الحزب فكريا على الاقل . غير ان العقلية اليمينية لم تكن هي السائدة حتى ذلك الوقت بين قيادة وكوادر ح.ش.ع . وكان اتباع الخط السياسي اليميني الذيلي ناتجا عن تأثير القيادة السوفيتية وليس عن قناعة ذاتية لدى الشيوعيين العراقيين انفسهم.

****

كان ابوالعيس يردد اكثر من غيره التساؤل عن آفاق تطور الوضع . ولم نرسم لنا في الواقع آفاقا مستقبلية ـ ستراتيجية ـ بعد ان ربطنا مصيرنا بمصير قاسم . الا ان محاولة اغتيال قاسم طرحت امامنا بقوة السؤال التالي : مالذي نعمله في حالة اغتيال قاسم او حدوث انقلاب عسكري ؟ ودون ان نجري تغييرا جذريا على سياستنا اتفقنا على ما سميناه خطة الطوارئ ، اي التحوط للحالات الطارئة التي قد تحدث . وقد عهد الي ـ عام 1960 ـ بالاشراف على الخطة ، او قسم كبير منها ، من حيث تهيأة تنظيماتنا الحزبية ـ المدنية . فيما عهد بمهمة التهيأة والتنفيذ ، بقدر ما يتعلق بدور العسكريين الشيوعيين في الجيش ، الى اللجنة الحزبية المسؤولة في القوات المسلحة . عقدت اجتماعات عديدة مع الكوادر الحزبية وبحثنا عن قطع الاسلحة الخفيفة (مسدسات ، غدارات ، ... الخ) الموجودة في حوزة رفاقنا وعما يمكن شراءه منها . وشكلنا فرقا صدامية صغيرة وعينا لها

مسؤولين ورسمنا خطة للتحرك عند الضرورة ... كل ذلك كمجرد تدبير احتياطي يوضع موضع التنفيذ في حالة اغتيال او سقوط قاسم . وكان الجانب الاهم من الخطة هو تحرك رفاقنا العسكريين في الجيش .
تركت العراق قبل ان تحل ظروف نجرب فيها هذه الخطة . غير انها كانت خطة فاشلة ، حسب تصوري ، لانها كانت مرتبطة بخط ستراتيجي خاطئ وفاشل من الاساس . كانت قائمة على افتراض ان قاسم سيضرب ويسقط على ايدي غيرنا وعندئذ سننهض ونحسم الوضع في صالح الحزب والشعب . ومع مرور الوقت كانت فاعلية هذه الخطة تتقلص وتضمحل تدريجيا بسبب التدهور المستمر في سياسة قاسم وهبوط شعبيته المستمر . وحين تنفيذ انقلاب 1963 حلت اللحظة الحاسمة لوضع تلك الخطة موضع التنفيذ وثبت ان الاوان قد فات وان النظام فقد تأييده ولم تعد الجماهير ، حتى ولا العسكريون الشيوعيون ، على حماسها السابق في الدفاع عنه والتصدي لخصومه . وكان ذلك طبيعيا ونتيجة منطقية لذات السياسة التي سار عليها قاسم في سني حكمه ، حيث فقد تأييد الشعب الكردي بسبب حربه العدوانية ضد كردستان وفقد الكثير من تأييد الفلاحين العراقيين بسبب التلكؤ والتراجع في تنفيذ قانون الاصلاح الزراعي وفقد تأييد العمال بسبب تزييفه لحقهم في التنظيم النقابي وتحيزه الى مستغليهم ، كما فقد تأييد جمهرة غفيرة من الطلاب والشباب والمثقفين وغيرهم بسبب معاداته للديمقراطية وتشبثه باساليب الحكم الدكتاتورية .
****
في 1960 عقد اجتماع عاصف للجنة المركزية ، استغرق اربعة ايام بلياليها لم نغادر خلالها الدار التي تجمعنا فيها بحي السعدون . كان جو الاجتماع متوترا ومشحونا ، اولا بسبب الجو السياسي العام المتدهور في البلاد ، وثانيا بسبب تورط الحزب في سياسة خاطئة ومفروضة عليه ، وثالثا بسبب اشتداد الصراعات بين مسؤولي الحزب وكوادره انفسهم .
دلت الوقائع على ان التجرية الغزيرة ، التي تراكمت لدى ح.ش.ع في الكفاح ضد الاستعمار وضد النظام العراقي الموالي للاستعمار عبر ربع قرن من النضال لم تفدنا كثيرا في الظروف المستجدة ، عندما طرأ تغير سياسي جذري على وضع البلاد وحل نظام جديد من حيث تركيبه ومحتواه الطبقي . الاجتماعي محل النظام القديم المنهار في تموز 1958 . وقد لعبت القيادة السوفيتية دورا حاسما في تضليلنا وتحويلنا الى ذيل لنظام قاسم من حيث الجوهر . وكما هو المنتظر في اغلب الاحيان فان التخبط السياسي في مسار الحزب المقرون بتزايد الارهاب والقمع ضد الشيوعيين وضد المنظمات والحركات الجماهيرية قد ادى - وكان لابد من ان يؤدي - الى نشوء ونمو نوع من التوتر والتأزم في العلاقات داخل ح.ش.ع ، وبالاخص داخل قيادته . وتجلى ذلك في مجرى مناقشات واعمال الاجتماع الكامل الذي عقدته اللجنة المركزية .
قبل هذا الاجتماع كنا نشعر بالصعوبات الكبيرة التي تواجه مسيرة الحزب النضالية . وكنا نبحث عن مخرج من المأزق الحقيقي . لم نعرف السبب الحقيقي للمازق . لم ندرك ان نهجنا السياسي الخاطئ - الذي فرضه علينا السوفيت بمعنى معين - هو الذي اوجد هذا المأزق . وكنا نبحث عن السبب في اخطاء اخرى ، سياسية وتنظيمية ، يمكن ان تكون قد وقعت . واعتقد البعض بيننا بأن السبب يعود الى بعض مواقف التطرف اليساري لدينا او لدى بعض منظماتنا ومسؤولينا . قال البعض - على سبيل المثال - ان لقاءات سلام عادل العلنية او شبه العلنية مع الضباط ، واحيانا في داخل الثكنات العسكرية ، كان السبب الرئيسي لتخويف قاسم وحمله على تغيير نهجه ، وبالتالي فان سلام عادل يتحمل المسؤولية عن تأزم العلاقات مع قاسم وتغير نهجه . ولم يفطن احد منا الى ان تغيير نهج قاسم وبالتالي توتر العلاقة بين القوتين الرئيسيتين على المسرح السياسي - بين قاسم وبين ح.ش.ع - كان اقرب الى ظاهرة طبيعية متوقعة ، وأن السبيل الصحيح الى حل هذه المشكلة انما كان في اعادة صياغة سياستنا على اساس التوجه الى استلام السلطة كحق مشروع للشيوعيين . واعتقد ان انتهاج مثل هذه السياسة كان يؤدي الى تعزيز الانسجام داخل قيادة ح.ش.ع وتجنيبنا المشاكل التي تحدث لنا .
اعتقدنا ، نحن غالبية اعضاء المكتب السياسي - أنا وابوالعيس وزكي خيري وعامر عبداللة وجورج تللو ، وجزئيا بعض الاخرين ايضا - بأن سلام عادل غير كفوء للقيادة وأنه السبب فيما يواجه الحزب من مشاكل . ورأينا ان العلاج يكمن في استبداله بشخص آخر . لكنا لم نبشر بهذه الفكرة - ربما باستثناء عامر عبداللة - خارج قوام المكتب السياسي ولم نكاشف حتى اعضاء اللجنة المركزية بالامر . كنا نرى في ان الفردية والبيروقراطية لدى سلام عادل هي سبب الاخطاء والمشاكل . وأود ان اقول الان بأن هذه المشكلة كانت تقع في تلك الظروف بالارتباط مع النهج الذي اتبعناه ، ايا كان السكرتير بدلا من سلام عادل . فالذنب لم يكن ذنبه رغم ما اتصف به من الفردية والبيروقراطية . وهو لم يكن يتحمل المسؤولية اكثر من غيره بين العناصر الرئيسية التي كانت ترسم سياسة الحزب .
لقد فوجئت اللجنة المركزية بما طرحنا عليها في الاجتماع وما عرضنا من مطلب اقصاء سلام عادل . وبعد مناقشات طويلة ومريرة توصل الاجتماع الى حل وسط : بقاء سلام عادل سكرتيرا كالسابق ، مع تشكيل هيأة سكرتارية يضم اليها - بالاضافة الى سلام عادل - كل من بهاء وهادي هاشم . وهذا الاجراء لم ينه التصارع الداخلي في القيادة . كما ان سلام عادل لم يغفر لمن طالبوا باقصائه من منصبه .
ينبغي علي ان اعترف الان بأني كنت احد العناصر الرئيسية المقررة لسياسة الحزب وبالتالي فاني كنت احد المسؤولين الرئيسيين عن تلك السياسة الخاطئة التي انتهجها ح.ش.ع في 1959 - 1960 . ولم ادرك ، شأني شأنالاخرين في القيادة ، بأن السبب الرئيسي لفقدان الانسجام واشتداد الصراعات في القيادة انما يعود الى فقدان استقلاليتنا الفكرية وتخلينا عن حقنا في ان

نكون اصحاب القرار فيما يتعلق برسم سياستنا العراقية الخاصة . لقد ارتضينا عن قناعة ودون وعي سليم بالسير على خط سياسي لم يرق لنا ، بل راق لغيرنا ، ازاء نظام قاسم . وكانت النتيجة ان وجهنا الاتهامات لبعضنا البعض ودخلنا في صراعات فكرية الحقت اضرارا جسيمة بحزبنا وبمجمل الحركة الوطنية الديمقراطية في العراق . ولا أريد ان يفهم القارئ مما اسبقت بأنه لم تكن هناك اخطاء ولا اغراض شخصية وصولية لدى البعض ابان تلك الصراعات . فقد كان بيننا اناس موسميون وذوو ماض نضالي هزيل وبالتالي ذوو ارتباط روحي ضعيف بقضية الشيوعية والشعب. كما كان بيننا اناس غير كفوءين بالمرة للمراكز الحزبية التي اشغلوها .

بقدر ما يتعلق الامر بسلام عادل ، الذي تسلم منصب المسؤول الاول في الحزب عام 1955 ، فانه كان مناضلا شيوعيا مخلصا وشجاعا وجديا في عمله الحزبي . وكان احد الاشخاص الرئيسيين في التشكيلة القيادية . واحرز ح.ش.ع تحت قيادته نجاحات كبيرة حتى انتصار ثورة 14 تموز . وهو كان قائدا شعبيا متحدرا من عائلة شعبية بسيطة . غير انه لم يكن بالقائد المتميز من حيث ثقافته وتجربته وكفاءته ـ كما كان فهد في سني قيادته ـ بين الرفاق المحيطين به في التشكيلة القيادية . ولم يكن له تاريخ نضالي متميز . بل كان واحدا بين عدد من ذوي المستويات والكفاءات المتقاربة . وكانت له نقاط ضعفه من قبيل نزعته الفردية والتسلطية وتسلكاته البيروقراطية (وكانت هذه ظاهرة عامة في القيادات الشيوعية خلال تلك الفترة) وميله الى التشدد لحد الافراط تجاه كل رفيق يتجرأ على انتقاده شخصيا او يعارض سياسته وبعض تصرفاته . وكانت قدرته على الكتابة السياسية ضعيفة ، مما كان ينعكس على كفاءته القيادية . ولو سألوني اليوم من كان افضل منه لمنصب المسؤول الاول في تلك الفترة لأجبت دون تردد ان ابوالعيس كان الافضل والاجدر .

****

بعد اجتماع اللجنة المركزية عدت الى بيتي في عرصات بحوشي مرهق الاعصاب بعد اربعة ايام من المناقشات الجدية والمتوترة احيانا. وقررت ان امنح عقلي اجازة قصيرة ، على الاقل لتلك الليلة بالكف عن اي تفكير في القضايا السياسية والحزبية . فارسلت سعيد موسى ليشتري لي بعض المشروبات ولأشرب ثم انام متخدرا تحت تأثير الكحول . مع حلول الظلام وقبل ان اشرب شيأ رن جرس البيت ودخل زكي خيري . وقبل ان يجلس بجانبي اعلن قائلا :

- انا متعب الاعصاب جدا وقررت ان ابتعد عن اجواء المناقشات السياسية وان اشرب وارتاح .. ولهذا جئت الى هنا .

رحبت به وابلغته انني قررت نفس الشئ . بعد بضع دقائق رن الجرس من جديد ودخل محمد حسين ابوالعيس وقال ما ذكره زكي . وعلى اثر الرنين الثالث دخل جورج تللو واعلن الشئ نفسه . فرتبت لنا ام سلام المائدة ووضعت قنينة الويسكي مع قناني البيرة وبدأنا نشرب ونبادل النكات العادية . وكلنا مصممون على تجنب المناقشات السياسية . وقبل ان يصل المشروب الى نصفه بدأ النقاش السياسي وعدنا الى ما جرى في الاجتماع . وحين كانت قنينة الويسكي وقناني البيرة الاربع والعشرون قد فرغت تماما ، بعد منتصف الليل ، كان النقاش بيننا لايزال محتدما . تذكرت تلك النكتة الشائعة بين العراقيين في موسكو : لماذا تكون غرفة القسم الداخلي في جامعة موسكو مضاءة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ؟ الجواب : هناك طلبة عراقيون يناقشون في السياسة او فيتناميون يتعلمون اللغة الروسية او كوبيون يرقصون .

****

في خريف 1960 اصبت بمرض فجائي ، آلام في كلتا الرجلين اثناء المشي ومصدرها الفقرات . ولازلت اعتقد انه نجم عن الافراط في استعمال الانتي بيوتيك ، حسب توصية الطبيب الجراح اسماعيل جاسم ، لغرض التخلص من دنبلة دونما حاجة الى عملية جراحية بسيطة. ولما كان ح.ش.ع مدعوا الى المشاركة في الاجتماع العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية ، الذي كان من المقرر عقده في موسكو تشرين الثاني 1960 ، فانني اخترت للمشاركة في هذا الاجتماع رئيسا للوفد ، ولكي اعالج المرض في الوقت نفسه . ولم يخطر ببالي آنئذ ان يستهدف البعض من ارسالي الى موسكو تحقيق شكل من النفي ، لكي ابتعد عن المشاركة في العمل القيادي .

عقد الاجتماع العالمي في احدى قاعات الكرملينوسط الخلافات المحتدمة ،التي كانت قد خرجت الى العلن بين الاحزاب الشيوعية، وبالاخص بين الحزبين السوفيتي والصيني . كان في القاعة عدد من ابرز رجال الحركة الشيوعية العالمية الذين رايت اغلبهم لأول مرة ، امثال موريس توريز وبالميرو توغلياتي وخروشيوف وليوشاوشي وهوشي منه وغيرهم . وكانت الغالبية الساحقة من الاحزاب الشيوعية تقف وراء الحزب السوفيتي . فيما وقف الحزب الشيوعي الالباني الى جانب الحزب الصيني ، والكوري بين بين . وبالنسبة الى ح.ش.ع كان منحازا انحيازا تاما غير مشروط الى السوفيت ضد الصينيين ، الامر الذي زاد من تعقيدات مهمتي كرئيس لوفد الحزب .

كان خطاب القيادة السوفيتية ، الذي القاه خروشيوف ، طويلا وهادئا نسبيا وحظي بتأييد الكثيرين من مندوبي الاحزاب الشيوعية . وكان بين الخطباء المتحيزين الى السوفيت ملكيون اكثر من الملك نفسه ـ امثال خالد بكداش ومحمد حرمل .. وعلى العكس من ذلك كان خطاب الوفد الصيني ، الذي القاه ليان بياو ، حادا ومليئا بالاراجيز وحاويا على اتهامات واثارات مكشوفة ضد القيادة السوفيتية ودفاعا مكشوفا عن النهج الستاليني التقليدي ، الذي كان خروشيوف قد ادانه منذ المؤتمر العشرين للحزب السوفيتي في 1956 . وجاء خطاب انور خوجة (الالباني) اشد واكثر اثارة . وكان للوفد الايطالي موقفه المستقل المتميز اذ لم ينحز الى أي طرف ضد الاخر .

أظن ان خطاب وفدنا ، الذي كنت قد كتبته بنفسي والقيته في المؤتمر ، كان هادئا نسبيا وانعكس فيه قدر معين من الاستقلالية في الرأي . ولهذا السبب قبل به اعضاء وفدنا دون أي حماس ، بل على مضض ، ورفضه الحيدري . وفي كلمة فرعية لاحقة القيت باسم وفدنا ، داخل اجتماع لجنة مكونة لتحرير الوثيقة المفترض صدورها باسم الاجتماع ، القاها الحيدري في غيابي بسبب المرض ، شن هجوم عنيف على اصين وجميع منتقدي السوفيت مقرونا بالولاء اللاشرطي للقيادة السوفيتية المؤلهة .
وفي اليوم التالي اطلعت على هذه الكلمة وانتقدتها . فأجابني الحيدري بحضور الاخرين من اعضاء الوفد قائلا :

- نحن وجدناك متهاونا تجاه الصينيين وغير جاد في التعبير عن اتجاه حزبنا فاستثمرنا فرصة غيابك امس لنقول باسم وفدنا ما يعبر عن وجهة نظر الحزب وما يجب ان يسمعه الجميع في هذا الاجتماع .

كنا في لقاءات يومية مستمرة مع السوفيت . لكننا لم نلتق ولا مرة مع الوفد الصيني أو أي وفد مشابه . وقد ابديت رغبتي في عقد لقاء مع الصينيين لمناقشة وجهات نظرهم التي لم اكن في الواقع متحيزا اليها . لكن رفاقي في الوفد عارضوني بشدة . فلم يتم اللقاء .

****

وحين عرضت الوثيقة الختامية على المجتمعين فانني لم ار موقفا اسوأ من موقف الوفد الكوري الشمالي ، الذي كان يعارض صراحة أي نقد او ادانة لظاهرة عبادة الفرد مدعيا ان ذلك ينطوي على الاساءة الى قيادة الحزب الكوري ، وأن لكوريا الشمالية ظروفها الخاصة . ولم تكن هذه الظروف سوى رغبة كيم ايل سنط في ان يظل الاله المعصوم في ذلك البلد وألا يتجرأ احد على توجيه النقد اليه . وباستثناء تحفظ الوفد الكوري فان جميع الوفود قد وقعت الوثيقة الختامية التي صدرت من الاجتماع .
كان الاجتماع منتهيا وكان جميع الوفد مجتمعة في حفل استقبال اقامته القيادة السوفيتية على شرف الضيوف في الكرملين . اتفت خروشيوف وتوريز وتوغلياتي ضد ميكويان الارمني الجالس جنبهم . فبدأوا يروون النكات والاقاويل التي تنسب الى الارمن والى راديو يريفان . وقال ميكويان :

- أريد ان يجيبني نيكيتا خروشيوف : هل الكونياك الفرنسي افضل من الكونياك الارمني السوفيتي ، كما يدعي الرفيق توريز ؟
- اذن نجح ميكويات في اثارة الخلاف بيننا ـ علق توريز .

قدمت في الحفل اغان وعروض فنية اعجبتني منها رقصة روسية قديمة شارك فيها ستة فتيان وخمس فتيات . كان احد الفتيان يطمح الى ان يصادق في آن واحد عدة فتيات . فكان يترك هذه ليلتحق بتلك ويترك الثانية لينضم الى الثالثة . وفي الاخير اتفق الفتيان الاخرون مع الفتيات الخمس وبقي هو وحيدا دون أي صديقة .

****

بعد انتهاء الاجتماع دخلت مستشفى اللجنة المركزية بموسكو فيما عاد اعضاء الوفد الى بغداد . وعلمت في وقت لاحق انهم ذكروا في تقريرهم الى المكتب السياسي باني خالفت سياسة الحزب وتوجيهاته اذ لم انحز بالقدر الكافي الى جانب السوفيت اثناء الاجتماع . وكلفتني هذه الغلطة المزعومة ثمنا غاليا اذ اثيرت في وقت لاحق ضدي واعتبرت سببا من الاسباب الرئيسية لتبرير معاقبتي بتنحيتي من القيادة وتجميد عضويتي في الحزب .
بعد خروجي من المستشفى طلبت من فاليوشن ـ عضو لجنة الشرق الاوسط التابعة للجنة المركزية في الحزب السوفيتي ـ بطاقة السفر كي اعود الى بغداد . وفي اليوم التالي جاءني الى الفندق ليقول :

- استلمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي برقية من المكتب السياسي لحزبكم مفادها ان قيادتكم قررت بقاءك في موسكو والتحاقك بالمدرسة الحزبية العليا .

لم اكن راغبا في البقاء ولم اطلب الدراسة الحزبية . فكررت الطلبات لاعود الى بغداد ، ولم اتلق سوى التأكيد على الرفض ووجوب بقائي للدراسة . ولم افكر بتحدي القرار والعودة رغم انف المكتب السياسي . ولكنني اقتنعت جيدا بأن بقائي في موسكو ليس الا شكلا من العقوبة والابعاد عن العراق وعن المساهمة في نشاط الحزب القيادي . فانا لم اكن العضو القيادي الاكثر حاجة الى دراسة القضايا النظرية في الفلسفة والاقتصاد السياسي وبناء الحزب وما شاكل . لكني كنت العضو القيادي غير المرغوب فيه من لدن السكرتير . ولهذا ينبغي ان ادرس ، احتجت ام لم احتج وشئت ام أبيت . وهذا ما اقنعني بأن من يعمل مع سلام عادل يجب ان يكون مسايرا ويتجنب توجيه اي نقد جدي اليه . وتذكرت لقائي الثنائي معه عقب اجتماع اللجنة المركزية العاصف في 1960 ، حيث ناقشته بمنتهى الهدوء على بعض تصرفاته وتطور وضع الحزب ونصحته بأن يتنحى عن منصب السكرتير ويبقى عضوا في المكتب السياسي . فاجابني قائلا :

- عندما ترى العقرب ان النيران قد طوقتها من كل الجهات تبادر الى لدغ نفسها وتنتحر .

خرجت من ذلك اللقاء وأنا على قناعة بأن سلام عادل لن يفكر ابدا بالتخلي عن منصبه كسكرتير للحزب . وها أنا ارغم بطريقة بيروقراطية على ان اتخلى فعليا عن مركزي كعضو في المكتب السياسي وفي سكرتارية اللجنة المركزية لاقيم في شبه منفى،بعيدا عن العراق. ولم يلبث ان التحق بنا في هذا المنفى غير الرسمي كل من عضو م س (المكتب السياسي) عامر

عبداللة وعضو اللجنة المركزية ثابت حبيب العاني . كنت اعلم ان عامر هو الاخر مغضوب عليه لأنه كان بين المطالبين باقضاء سلام عادل عن منصب السكرتير . لكني لم اعرف ان العاني مغضوب عليه ايضا الا في وقت لاحق .

****

بين ايلول 1961 ـ ايلول 1963 بقيت في المدرسة الحزبية العليا بموسكو ، ضمن فريقنا الدراسي الذي كان يتألف ، اضافة الى المنفيين المشار اليهم ، من هادي هاشم وسلام الناصري وجمال الحيدري ونزيهة الدليمي وعادل حبة ومهدي عبدالكريم وثمينة ناجي (زوجة سلام عادل) وكذلك ـ في وقت لاحق ـ آرا خجدور وحسين سلطان . كان برنامجنا الدراسي يشمل مواضيع الفلسفة والاقتصاد السياسي وقضايا بناء الحزب وتاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي والحركة العمالية والتحررية العالمية والقانون الدولي والجغرافيا الاقتصادية ، اضافة الى اللغة الروسية . وقد درست بجد ولم يحدث ابدا استلم في اي امتحان اقل من (5) وهي اعلى درجة .

كان هادي هاشم اضعف الجميع في الدراسة ، رغم انه كان عضو المكتب السياسي والسكرتارية . وقد اعتاد التهرب من اداء الامتحانات في العديد من الحالات لأنه لم يكن قادرا على الاجابة ولم يرد مجابهة الفشل والرسوب . ورغم طول بقائه فانه لم يتعلم شيأ جديا من اللغة الروسية سوى اسماء ما كان يحتاج لصنع ما كان مولعابه من الطرشي والطبخات المعقدة كالكبة بشتى انواعها والدولمة وما شابه . وكان يعرف جميع المخازن والدكاكين التي تباع فيها تلك المواد . وينبغي الاعتراف بأنه كان خلوقا لطيف المعشر مع زملائه في الفريق الدراسي وكان على علاقة جيدة معهم ومهتما بهم . لكنه لم يهتم بنفسه ولا بغيره في القضية الاساسية الموفد من اجلها ، قضية الدراسة . ويبدو انه كان في طريق التدهور ـ كما هي العادة بالنسبة لبعض الناس ـ وكان يفتقر الى سمات القائد السياسي .

اظن ان الجميع تعلموا قدرا لابأس به من اللغة الروسية باستثناء هادي هاشم وحسين سلطان وثابت العاني . وكان هذا الاخير يتعب نفسه لتعلم اللغة ، ولكن دون جدوى .

اضاعت نزيهة الدليمي ذات صباح ساعتها اليدوية . وعبثا فتشت عنها في كل مكان . وحين التقيت بها بعد الظهر سألتها :

- هل وجدت ساعتك ؟
- كلا لم اعثر عليها .
- المصيبة ليست بكبيرة مادمت تملكين ساعة احتياطية ـ قلت لها ذلك بعد ان رأيت في يدها ساعة حقيقية .
- كلا لاأملك أي ساعة احتياطية .. كانت هي الساعة الوحيدة .
- ولمن هذه الساعة الموجودة في يدك ؟

نظرت الى يدها وصرخت باستغراب ودهشة من يفاجأ بشئ عجيب :

- هذه هي ساعتي التي ظننت انها ضاعت وغدوت افتش عنها منذ الصباح وحتى الان !

واتفق عامر عبداللة مع ثابت العاني على اقامة كومونه ثنائية لهما بتوحيد الاكل صرفا وعملا . ولم يلبث ان انهار الاتفاق . ولما سألت ثابت العاني عن السبب اجاب :

- كان علي ان انفق من جيبي واهئ بنفسي الطعام والشاي ، وكان على عامر ان يحضر فقط لتناول الطعام والشاي . ولهذا انهارت الكومونه .

ذهب عادل حبة ذات يوم الى مطعم المدرسة دون ان يجد من يترجم له . فعين باشارة من اصابعه الى قائمة الطعام ثلاثة انواع من الاكل ودفع الثمن . وحين استلمها تبين انه كان قد عين ثلاثة انواع من السوب لاغير .

وفي سفرة مدرسية نظمت لنا الى مدينة كيف ، وكنا مقيمين في مبنى القسم الداخلي من المدرسة الحزبية هناك ، كان علينا ان نحدد كل يوم ما نختار من الطعام في اليوم التالي . في ظهيرة اليوم التالي لم يأتوا بالاكلة الرئيسية الى سلام الناصري . وعندما طلبها اجابوه انه لم يسجل شيأ . فاصر على انه سجل وطلب القائمة . وحين اتوا بها اشار الى كلمة (المدير) المذيلة بها القائمة . بعد دقيقة واحدة حضر المدير امامه . وبعدئذ اتضح ان الناصري كان قد اشار في القائمة الى كلمة المدير زعما بأنها اكلة شبيهة بالاكلات العراقية .

****

احببت موسكو بعد ان عشت فيها واختلطت بأهلها وتعلمت لغتهم وعاداتهم . لقد وجدتها مدينة الامان والطمانينة والطيبة والمرح والمسارح الكثيرة والحدائق الجميلة . لم اشهد ولم اسمع بما يعكر صفو احد من فريقنا الدراسي ، رغم اننا كنا نسير في الغابات وفي الشوارع الفارغة بعد منتصف الليل . واحيانا نظل في الحدائق العامة ليلا ونتجول في كل مكان . وقع حادث فقط : عاد الشيوعي السوداني (وأظن انه كان يدعي معاوية ومن العناصر القيادية في الحزب الشيوعي السوداني آنئذ) الطالب في المدرسة ساعة متأخرة بعد متصف الليل ، وكان قد سكر ، ومعه جهاز تسجيل عادي . فانزله سائق التكسي وسرق منه المسجل . ونحن لم ننزعج كثيرا لأن هذا الشاب السوداني كان سئ الاخلاق ومكروها بيننا .

وجدت الشعب الروسي بسيطا طيبا حسن السلوك والتربية . وأجزم قطعا ، اذا سمحت لنفسي ان اقارن بين الشعوب التي قدر لي ان اعيش معها واتعرف على عاداتها ونفسيتها ، ان الشعب الروسي هي الطف واروع ما رأيت من الشعوب . اكتب هذه

الكلمات الان ، اواخر 1991 ، وأنا اعرف جيدا الكثير مما حدث وتغير هناك في موسكو . ولكن ما اكتبه هو قناعتي التامة عن روسيا 1961 - 1963 .
رأيت سواحل البحر الاسود كلها ، باستثناء اوديسا . وعشت كضيف في فنادق اللجنة المركزية وكسائح اعتيادي غير رسمي .
زرت مصح سوجي مرارا ، وهربت منه في المرة الاولى - عام 1959 - بعد بضعة ايام ، حيث لم اكن اعرف اللغة الروسية .
واقتنعت لاحقا بأن التمتع بالعطل والراحة يحتاج كذلك الى نوع من التجربة والكفاءة . وكان آخر سفرة للراحة والاستجمام على البحر الاسود و - قليلا - على بحر بلطيق في عام 1974 ، حيث سافرت من بغداد بصحبة زوجتي عايدة ياسين .
****
في شتاء 1962 وصلنا سلام عادل رئيسا لوفد ح.ش.ع الى مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي . بعد المؤتمر وردته برقية لكي يلتحق بالمدرسة الحزبية ، اي انه عومل كما عمل معي . بتعبير آخر كان قد وقع في نفس البئر الذي اوقع فيه غيره . وأظن ان زكي خيري هو الذي تمكن من اقناع سائر اعضاء المكتب السياسي بايفاد سلام عادل للدراسة في الاتحاد السوفيتي كسبيل لابعاده عن القيادة . وقد عاش مع زوجته وطفلتيه في شقة خارج مبنى المدرسة . ولا أدري ما اذا استفاد من الدراسة الحزبية أم لا ، لكن الجميع كانوا على علم بأنه غير راغب في البقاء وأنه يبحث عن أي فرصة لقطع الدراسة وللعودة الى العراق .
قررت ان اكذب كذبة الاول من نيسان 1962 مع رفاق الفريق الدراسي ، بضمنهم سلام عادل . فخابرت احدهم مدعيا ان انقلابا عسكريا قد وقع في بغداد وأن عبدالكريم قاسم قد قتل على ايدي الانقلابيين . وبمجرد الصدفة رتب رفيق سوري نفس الاكذوبة وخابر بعض العراقيين. فصدقوا بعد ان تعددت المصادر . وخابرني سلام عادل - وهذا ما كنت انتظره - مستفسرا عما حدث . فاجبت مؤكدا الخبر نفسه . وانغمر رفاق فريقنا كلهم في التحليلات والتعليقات قرابة ساعتين ودون ان يفطن اي منهم الى انه الاول من نيسان . واخيرا قلت لهم :

- مصدر الخبر هو مراسل راديو ارمينيا بمناسبة الاول من نيسان
- وكان من المعتاد في موسكو ان تنسب الاكاذيب والنكات الى راديو يريفان .

اثناء وجود سلام عادل في موسكو كانت الحرب الاهلية دائرة في كردستان العراق . وكان سلام عادل قلقا بشأن موقف قيادة الحزب اللاأبالي ازاء المشكلة الكردية . كان يؤكد ضرورة الاهتمام بالمسالة وتبني مطلب الحكم الذاتي وليس فقط معارضة الكفاح المسلح من قبل القوميين الاكراد ضد نظام قاسم . انا كنت في تلك الفترة مبعدا مجمدا عمليا ولم اعرف بالملموس موقف هذا الشخص او ذاك من اعضاء القيادة ازاء بدء وتطور الكفاح المسلح في كردستان . كنت اطلع فقط على النشرات الحزبية العامة . وكنت اعرف ان ح.ش.ع يطالب البارتي بالقاء السلاح والبحث عن الحل السلمي للمشكلة . لكن ما ذكره سلام عادل - واسبقته - دل على وجود خلاف في وجهات النظر داخل القيادة . واعتقد ان زكي خيري هو الذي كان يطالب بالقاء السلاح دون تبني مطلب الحكم الذاتي ، لأنه كان القائم بالاعمال بعد ابعاد سلام عادل نفسه الى موسكو . وكان موقف سلام عادل اسلم وأقرب الى الصواب .
خابرني احدهم ذات مساء قائلا :

- سيسافر سلام عادل غدا الى الوطن . وبهذه المناسبة فانك مدعو معنا مساءا الى بيته لكي نودعه ونتعشى ونشرب معه .

لم اكن متحمسا للمشاركة في هذا الحفل ولكنني لم أر من اللياقة ان ارفض ، خاصة وانهعائد الى العراق . فذهبت وشاركت . وتحت تأثير الوضع النفسي الصعب اكثرت من الشرب حتى وصلت الوضع الذي استوجب العودة الى غرفتي في المدرسة ، نمساعدة احدهم . كانت المرة الوحيدة في حياتي التي افرطت فيها في الشرب حتى فقدت وعي . ولم يتكرر ذلك ابدا .
****
في سنة 1962 نفسها عاد سلام عادل الى العراق . وانتضح بعد فترة ان القضية الرئيسية ، التي اخذت منه جل اهتمامه انما كانت قضية توطيد سلطانه القيادي في الحزب واقصاء العناصر التي هددت قبلئذ هذا السلطان . وهكذا اثير ما عرف بقشية الكتلة الرباعية ، اي التكتل المنسوب الى اربعة من اعضاء مس . وطرح الامر على اجتماع اللجنة المركزية ، وانتزع قرارا من الاجتماع مفاده ان تكتلا قد حدث وأن اللجنة المركزية تدينه بوصفه تجسيدا لاتجاه يميني ذيلي تصفوي . جرت المناقشات والمحاسبات داخل الاجتماع في غيابي أنا وعامر ، اللذين اعتبرا قطبي الكتلة الرباعية ، وغياب ثابت العاني الذي كان العضو الوحيد في اللجنة المركزية المرتبط بالكتلة (عن طريق علاقته مع عامر عبداللة) . ولم يطلب منا حتى تقديم رسائل حول المسألة ، قبل ان يتخذ الاجتماع قرارات العقوبة القاضية بما يلي :

1. تنحية كل من بهاء وعامر من جميع مراكزهما الحزبية وتجميد عضويتهما في الحزب بانتظار معرفة ما سيتخذانه من موقف ازاء قرار المعاقبة ، لكي يتقرر فيما بعد بقاءهما عضوين أم لا ، وتنحية ثابت العاني ايضا من جميع مراكزه الحزبية .
2. تنحية كل من زكي خيري ومحمد حسين ابوالعيس من المكتب السياسي واللجنة المركزية ، وجعلهما بمستوى عضو اللجنة المنطقية .

اتخذت هذه الاجراءات كلها دون ان اسمع عنها شيأ ، كما لوكانت القضية غير ذات علاقة بي ، الى ان فوجئت ذات يوم ، وانا في المدرسة الحزبية ، باستدعائي الى احدى الغرف لاطلع على وثائق اجتماع اللجنة المركزية . كان هناك المسؤول الحزبي للفريق سلام الناصري مع عضوي اللجنة المركزية آرا خجدور وحسين سلطان . كان بين الوثائق ثلاث رسائل من زكي خيري . يعترف في احداها بوجود التكتل ومشاركته فيه . وفي رسالة ثانية كتبها حسب طلب سلام عادل يعمق الاعتراف بالتكتل . وفي رسالته الثالثة يعمق الاعتراف اكثر ويبذل الجهد لترضية من بيده الحل والربط . وقد اثارت رسائل زكي خيري الثلاث اشمئزازي الشديد ودفعتني الى اعادة النظر في تقييمي لشخصيته اذ أظهر نوعا من الذل والخنوع . وأظن انه استهدف من هذا الموقف المتخاذل انقاذ نفسه من العقوبات او تلقي عقوبة اخف . وعند مطالعتي لرسالة ابوالعيس الملحقة ايضا بالوثائق وجدت ان الرجل انكر بادئ الامر وجود اي تكتل ولكنه اعترف اخيرا تحت الضغط . فهو يقول في رسالته انه استفسر من الرفيق السكرتير كيف يمكن تسمية ما حدث بالتكتل في وقت لم يكن هناك برنامج عمل للكتلة ولا اجتماعات منتظمة ولا ما شاكل .. فاوضح له السكرتير ـ الكلام لأبوالعيس ـ انه لايشترط في التكتل وجود شئ من البرامج والاجتماعات . فاكتفى ابوالعيس بهذا الايضاح ووافق على انه كان هناك تكتل .

وقد سمعت لاحقا من ىرا وسلطان بأن عامر اعترف هو الاخر في الرسالة التي قدمها على غرار ما فعل زكي ، وارسل جوابه هذا الى العراق . ولم ادر ماذا كتب ثابت العاني في رسالته . لكنني اعرف جيدا ان مشاركة ثابت في التكتل المزعوم لم يتجاوز تبادل الاحاديث و ((الثرثرة الرفاقية)) بينه وبين عامر شخصيا حتى دون ان نسمع نحن شيأ حول المسألة .

ان قصة التكتل قد فبركت او لفقت من الاساس لتتخذ منها ذريعة لاقصاء العناصر القيادية التي كانت تستطيع التحدث بحرية داخل اجتماعات المكتب السياسي واللجنة المركزية ، بما في ذلك توجيه النقد الى شخص السكرتير والتصرف تجاهه من موقع الند للند . ان الاستقلالية في الرأي وعدم التخوف من عرض اي رأي يقتنع به حامله ـ ذلكم ما لم يرق لسلام عادل . وأما تهمة اليمينية والذيلية والتصفوية ، التي الصقت بالكتلة المزعومة ، فانها لم تقم على اسس منطقية . وذلك :

1. لان الخط السياسي اليميني المتبع تجاه نظام قاسم لم يكن خط عناصر الكتلة المزعومة وحدها ، انما كان خط الحزب او القيادة باسرها ، بما في ذلك سلام عادل ومن وقف معه . وقد لعب السوفيت دورا رئيسيا في فرض هذا الخط على ح.ش.ع ـ كما اسبقت .
2. لأن الاجراءات التي اتخذت ضد المتهمين بالتكتل لم تقترن بأي تعديل في ذلك الخط . فلم يرفع شعار اسقاط النظام ولم يعد النظر في الموقف من الفئات المعارضة لقاسم ولم ترسم خطط لايصال الحزب الى السلطة ... الخ .
3. وفي قضية هامة من قبيل ممارسة النشاط الحزبي في الجيش او عدم ممارسته فان من وصفوا بالتصفوية واليمينية ـ وهم بهاء وزكي وابوالعيس ـ هم انفسهم الذين وقفوا مع سلام عادل عام 1960 ضد حل التنظيم الحزبي في الجيش . في حين بقي معه المطالبون بالحل ـ بعد اثارة قضية التكتل اليميني التصفوي ـ وهم هادي هاشم وعزيز محمد وجورج تللو .

وأود الاشارة الى ان هؤلاء الذين وقفوا مع سلام عادل ضد الكتلة اليمينية التصفوية المزعومة هم انفسهم الذين رسموا للحزب السياسات اليمينية الذيلية في 1964 وخاصة في سنوات التحالف الذيلي مع النظام البعثي (1972 ـ 1979) .

11

انقلاب شباط / 1963

كنت في السنة الثانية من الدراسة عندما حملت وكالات الانباء نبأ انقلاب الثامن من شباط 1963 ، الذي جاء حصيلة جهد مشترك بين الاوساط الغربية وحكام القاهرة واطراف عربية اخرى ، اضافة الى حزب البعث العراقي وفئة من العسكريين الرجعيين واليمينيين في الجيش . اصبحنا نحن العراقيين في المدرسة الحزبية بموسكو في وضع نفسي صعب للغاية ، دون ان يكون بمقدورنا عمل شئ سوى متابعة الاخبار من بعيد . وقد راق لنا موقف القيادة السوفيتية ، التي كان على رأسها خروشيوف ، في ادانة الانقلاب بحزم وفضع جرائمه التي فاقت جميع ما شهدته ارض العراق من جرائم حتى ذلك الحين . وكانت الحملة الاعلامية السوفيتية جزءا اساسيا من حملة عالمية اربكت صفوف الانقلابيين وزادت من تناقضاتهم وقصرت من عمر الحكم البعثي.

وكجزء من الدعم الاعلامي لنا ضد الانقلابيين ظهرت ، بعيد الانقلاب ، اذاعة صوت الشعب العراقي التي كانت تبث من بلغاريا . وكانت المبادرة ، اول الامر ، من التودويين الايرانيين ، الذين كانوا يديرون اذاعة ثيك ايران السرية هناك ، وخصوصا من التودوي الكردي حسن القزلجي ، الذي كان يعرف قدرا من اللغة العرابية . وبدأ يذيع الاخبار والتعليقات بلغته العربية المخربطة قبل ان يتخذ الشيوعيين العراقيون مكانهم في الاذاعة .. وكان القزلجي قد تعلم العربية خلال دراسته للعلوم الدينية في الجوامع . وطورها خلال ما يقارب عشرين عاما قضاها في العراق ، والبعض منها في بغداد ، هاربا من نظام الشاه ، متشردا ومتنقلا بين عامل زراعي في القرى وعامل بناء في المدن .. كان نموذج المناضل الثوري الصلب الذي لم تلن له قناة . ووصل اخيرا الى بلغاريا عن طريق ارتباطه بحزب توده ليعمل هناك في القسم الكردي من ثيك ايران.

بعد انقلاب شباط ساعد السوفيت على ابراز سلام الناصري ـ او انور مصطفى ـ الذي كان عضوا مرشحا للمكتب السياسي ومسؤولا حزبيا عن فريقنا الدراسي . فنشروا له تصريحات وبيانات واتاحوا له فرص توجيه رسائل ومذكرات الى الاحزاب الشيوعية والاوساط الخارجية . وكان الناصري نفسه متحمسا لاداء هذه المهمة ، رغم افتقاره الى الكفاءة المطلوبة اذ لم يكن قادرا على كتابة مقال او تصريح سياسي معقول . بعد الانقلاب بمدة نقل مهدي عبدالكريم من فريقنا الدراسي في موسكو الى بلغاريا للعمل في اذاعة صوت الشعب العراقي . ولم يعرض علينا ، أنا وعامر عبداللة ، الانتقال الى هناك رغم اننا كنا اكثر الجميع في الفريق قدرة على الكتابة والعمل الصحفي . كان انور مصطفى لايزال غاضبا علينا بسبب وجود اسماءنا في القائمة السوداء نتيجة اتهامنا بالتكتل . على انني بادرت الى كتابة تعليقات وكلمات للاذاعة ، بينها كلمة مكرسة للاشادة بسلام عادل بعد ان استشهد تحت التعذيب.

بعد الانقلاب قدمت رسالة الى سلام الناصري ميديا فيها استعدادي للعودة سرا الى العراق من اجل المشاركة في اعادة بناء الحزب . واجبت بأن انهي السنة الدراسية واستعد بعدئذ للعودة . وقد انهيت السنة الثانية وشاركت في سفرة الطلاب الصيفية (المسماة بالتطبيق) ضمن فريق ضم عراقيين وسوريين ولبنانيين واردنيين وكوبيين وأيطاليين ، الى جورجيا السوفيتية في القفقاس . في العاصمة تبليسي زرنا معملا لانتاج المشروبات الروحية . وحين خرجنا كان البعض يترنح تحت تأثير الخمرة . وفي المساء سمعت أن شابا كوبيا واستاذة روسية من فريقنا قد ضربا ونهبا في ضاحية المدينة حيث كانا يتمشيان . وكان من السهل ان يلاحظ المرء بين الجورجيين وجودا واسعا نسبيا للافكار والنزعات القومية . وفي جمهورية ابخازيا ذات الحكم الذاتي ـ وهي قسم من جورجيا ـ فرح الكولخوزيون الجورجيون المسلمون بزيارتنا لهم . وكانت اسماءهم عربية عامة مثل محمد وعمر وعلي وحسن .. الخ . وفي احدى المناطق الريفية زرنا معملا للنبيذ يتبعه نفق اصطناعي تحت الجبل يبلغ طوله (13) كيلومترا ويتسع لثمانين مليون لتر من النبيذ . واستمتعنا بوليمة تحت اشجار شاهقات وعلى نبع بديع في سفح احد جبال القفقاس . وقد انطلق احد الفلاحين الجورجيين ، بعد ان سكر ، يهتف بحياة ستالين ـ المتوفي قبل ذلك بعشر سنوات ـ مبديا انزعاجه من اجراءات خروشيوف ضد ابن جورجيا الشيوعي الذي حكم الاتحاد السوفيتي ثلاثين عاما ـ ستالين . وكان من التقاليد الجورجية في حفلات الشرب والسهر ان يتصدر الوليمة رجل يدعونه (تمدان) وتكون اوامره مطاعة طيلة وقت الوليمة.

كان اوائل تموز 1963 عندما نهضنا صبيحة احد الايام لأسمع من مهدي عبدالكريم وهو يعلن:

- ان شيأ مهما قد حدث في العراق اليوم.
- وكيف علمت يا بو كسرى ؟ هل حلمت ؟ ـ سألته.
- نعم حلمت ، وسترون..

كان بيننا من سخر من حلمه ومن كل الاحلام . وفي مساء نفس اليوم سمعنا من اذاعة بغداد بيانا رسميا حول محاولة الانقلاب العسكري الشييوعي المعروفة بحركة نائب العريف حسن سريع ، التي قامت في معسكر الرشيد وكادت تحرز النصر الحاسم . وحين قلت لمهدي انه لم يحلم عبثا ولم ينطق عن الهوى روى لي قصة اخرى وصدقته ، دون ان اؤ من بالخرافات والغيبيات . وقال مهدي:

- كنت طالبا في دار المعلمين العالية (كلية التربية) وكانت ثروتي النقدية عبارة عن نصف دينار لاعيش بها خلال الخمسة عشر يوما المتبقية من الشهر في العاصمة . وقد فقدت المبلغ اثناء جولة بشارع الرشيد . وجلست مهموما حزينا في غرفتي بالقسم الداخلي واغمضت عيني وأنا افكر فيما يجب عمله لتدبير امري . ورأيت فجأة قطعة النقد الورقية ملقاة جنب برميل للقمامة في زقاق بـ (رأس القرية) . لبست حذائي وغادرت القسم الداخلي متوجها الى نفس الزقاق الذي كان يبعد قرابة عشرين دقيقة . وقد وجدت المبلغ بنفس الصورة التي تراءت لي سابقا وعدت به فرحا كطفل اشتروا له لعبته المفضلة.

****

في ايلول 1963 غادرت موسكو ، بصحبة عادل حبة ، لنستقر في ضيكوسلوفاكيا ونتهيأ للعودة الى العراق بصورة سرية . وكنا قد قطعنا الدراسة الحزبية قبل بدء سنتها الثالثة والاخيرة . وفي ضيكوسلوفاكيا اقمنا في فيلا ريفية وسط الغابة على بعد ثمانين كيلومترا من براغ . والتحق بنا فرج محمود . وكان مسؤولنا العراقي حسين سلطان . وكنا في ضيافة جهاز امني خاص مكلف بمساعدة الشيوعيين العراقيين الراغبين في العودة الى بلدهم سرا لمواصلة النضال الثوري . كانت تدفئتنا تعتمد على الفحم الحجري . وكانت الغابة المحيطة بنا غنية بالفطر من النوع الجيد . ارسل الينا جندي مكلف كطباخ جيكي وتعلم الكثير ، خلال فترة بقائه عندنا ، من فنون الطبخ الشرقي لدى فرج محمود .وفرح بذلك قائلا انه سيصبح طباخا من الدرجة الاولى بعد انهاء الخدمة العسكرية . وارسل الينا رجل جيكي ليلقي علينا محاضرات حول العمل السري . وقد وجدته في حاجة حقيقية الى ان يسمع محاضرات منا حول العمل السري .

في فترة بقائنا في ضيكوسلوفاكيا التقيت عدة مرات مع (ميلان) ، رجل الامن المسؤول عن قضايا تسفيرنا نحن العراقيين . بدا لي رجلا معقولا وجديا في عمله ونزيها . واسمعني ذات يوم نقدا عنيفا لقادة حزب توده بسبب تشبثهم بالبقاء في الخارج بعيدا عن ساحة النضال الساخن في بلادهم . وانتقد ذات مرة سلام الناصري على تردده وتخوفه من العودة وقال عنه:

- من الصعب جدا ان اتصور عودة الناصري الى العراق مختفيا . فهو ليس رجل الصعوبات.

****
قضيت اشهرا في براغ قبل ان اعود الى العراق . وقد اقمت فترة في احد الفنادق . وكان علي ان اعيش بمبلغ (1500) كرونا شهريا . فكنت في ضائقة معاشية حقيقية الى ان تحولت الى مجلة قضايا السلم والاشتراكية ، حيث اشتغلت كواحد من شغيلتها براتب قدره (3500) كرونا.
براغ هي (متحف اوروبا) كما يسميها الكثيرون من الاوروبيون . فهي مدينة جميلة بتلالها وبالنهر الذي يخترقها وبآثارها التاريخية البديعة وبفتياتها الجميلات .. لكن طقطقات الترام المستمرة على الشوارع المبلطة بالطابق والدخان الذي يتصاعد من المعامل ليفسد الجو الرطب ـ ذلكم يقلل من جمال المدينة وبداعتها . واذا شربت قدحا من بيرة ثلزن درجة اولى فانك تقتنع بأنها ملكة البيرة في العالم . واذا كنت سائحا اجنبيا وأردت سريرا في الفنادق فان عليك ان تقدم الرشوة الى مدير الفندق او شخص ما هناك . واذا حاولت التكلم مع الضيكيين باللغة الروسية فانك لن تجد الترحيب الحار بك بين اغلب الذين يعرفون قدرا من اللغة الروسية . فهم يكرهون الروس رغم ان الجميع سلافيون . احتككت في براغ بالمجتمع العراقي الصغير ، وغالبيته الساحقة من الشيوعيين العراقيين . كان بينهم عزيز الحاج ونوري عبدالرزاق وماجد عبدالرضا ومهدي الحافظ وموسى اسد وبهنام بطرس وقادر ديلان وغيرهم . وقد التقيت ، لأول مرة ، مع الشخصية الديمقراطية العراقي عبدالفتاح ابراهيم في احد فنادق براغ ، وكان قادما كسائح . والتقيت بالشاعر الكبير محمد مهدي الجواهيري ودعوته ذات مساء الى شقتي . وعندما لعبت الخمرة بعض الشئ برأسه نهض ليتمشى في الصالة وليضحك مرحا ويردد المرة تلو المرة نكتة بغدادية معروفة كنت قد رويتها له وخلاصتها ان رجلا ـ افنديا ـ بين البغداديين الذين تظاهروا ضد المعاهدة العراقية ـ البريطانية عام 1926 استدعي للقاء الملك فيصل بغية عرض مطالب المظاهرة . فقال للملك:

- اسجنه واعدمه يا صاحب الجلالة!
- من الذي تريدون سجنه وقتله ؟ ـ سأل الملك.
- منصور ابو العرط.
- ولماذا تريدون سجنه وقتله ؟
- لأنه يغش العرق باضافة الماء اليه ثم يبيعه غاليا.

كان موسى اسد معروفا بين العراقيين بأنه فضولي من الدرجة الاولى وانه يعرف جميع ما يحدث بينهم . وخرجنا ذات يوم ، مع نوري عبدالرزاق وماجد ومهدي وآخرين ، في نزهة الى خارج براغ . وقررنا ألا يعرف موسى اسد بسفرتنا ولايشاركنا . وعلى بعد ثلاثين كيلومترا من براغ جلسنا في فندق سياحي لنشرب البيرة . وقال احدهم : لن يكشف موسى مكاننا ولن يصل الينا . ولم تنقض على ذلك دقائق حتى فتحت الابواب وداهمنا موسى اسد !
كان عزيز الحاج ممثل ح.ش.ع في هيأة تحرير مجلة قضايا السلم والاشتراكية ويقبض اعلى راتب بين الشيوعيين العراقيين في ضيكوسلوفاكيا . وكان معروفا بينهم بانه اكثر الجميع بخلا . وقد زارني عدة مرات في الفندق الذي سكنته . في احدى المرات ابلغته ، في مجرى الحديث بيننا، باني توصلت الى حل مشكلة فكرية بالنسبة الي شخصيا ، بعد ان ظلت موضع النقاش لسنوات طويلة . تلك هي مسألة ما اذا كان الاكراد يشكلون امة ام لا . اوضحت ان الشعب الكردي يشكل امة لم تستكمل بعد مقوماتها كاملة ، بل توفر البعض منها ، وبالاخص ما يتعلق بالشعور القومي المشترك ، والبعض الاخر في طريق التكوين . وبعد بضعة ايام نشر في مجلة (الغد) مقال بقلم عزيز الحاج تحت عنوان (هل الشعب الكردي يشكل امة ؟) . ولم يشر الحاج بكلمة واحدة الى انه سمع هذه الفكرة من غيره وصاغها في مقال.
****
في حزيران 1964 سافرت من براغ الى موسكو كي اشارك ، لأول مرة بعد تجميد عضويتي في 1962 ، في اجتماع حزبي للكوادر حضره اعضاء اللجنة المركزية الموجودون في الخارج وكوادر اخرى امثال نوري عبدالرزاق وماجد ومهدي وثمينة ناجي وأنا وعامر عبداللة .. قاد الاجتماع سلام الناصري وأراد منه تبني نهج معين ، يميني ذيلي . وكان نفسه يميني المزاج على الدوام . كما كان السوفيت ـ بالاخص القسم الدولي لدى اللجنة المركزية ـ يباركون له مثل هذا النهج.
غادرنا مطار موسكو ونحن في طريقنا الى موسكو حين اخبرنا مرافقنا السوفيتي بأن خروشيوف قد اقصي من منصبه كسكرتير اول للجنة المركزية . وسمعت في وقت لاحق انه ازيح بعملية تامرية او شبه تامرية قادها بريجنيف ، الذي تسلم بعده الزعامة واعاد في سني حكمه النهج الستاليني على اقبح ما يكون.
اعود الى اجتماعنا . جرى نقاش حيوي واسع وعارض البعض الافكار المطروحة من قبل الناصري . لكن الاغلبية ـ وكنت ضمنها ـ اقرتها . وجوهر هذه الافكار هو ان انظمة برجوازية صغيره ـ من قبيل نظام عبدالناصر ومن على شاكلته ـ يمكن ان تتحول ،تحت تأثير النظام الاشتراكي العالمي ، الى انظمة اشتراكية . وزعمنا ان نظام عبدالسلام عارف هو من تلك الانظمة . كانت تلك هي ذات الافكار التي سميت فيمابعد نهج التطور اللارأسمالي . كان هذا الاجتماع خطوة من الخطوات التمهيدية الرامية الى انجاح اجتماع اللجنة المركزية المرتقب.
****

بعد حوالي الشهرين من اجتماع الكادر في موسكو عقد اجتماع اللجنة المركزية للحزب في براغ . وأثناء جلسات الاجتماع ابلغنا ، أنا وعامر وثابت ، بالحضور لأن العقوبات المتخذة بحقنا في اجتماع 1962 قد الغيت وبالتالي فاننا اعدنا الى مراكزنا كأعضاء في اللجنة المركزية للحزب . والذين كانوا قد وقعوا على قرارات العقوبة عام 1962 اقتنعوا في آب 1964 بأن لم يكن هناك أي تكتل اصلا وأن العقوبات كانت جائرة وباطلة.
غير ان اجتماع آب ابقى على عقوبة واحدة ، مع تخفيفها، بالنسبة الي شخصيا - وهي عقوبة الانذار الموجهة الي بسبب موقفي الذي لم يرق لهم ابان الاجتماع العالمي للاحزاب الشيوعية عام 1960 - وهذا ما تطرقت اليه سابقا.
كانت القضية الرئيسية في جدول العمل امام الاجتماع هي التقرير السياسي الذي حدد وجهة العمل اللاحق . وقد وقعت اللجنة المركزي - وأنا ضمنها - في خطأ جسيم اذ اقرت خطا سياسيا ذيليا مبنيا على الامل في ان يتطور نظام عبدالسلام عارف الدكتاتوري العسكري الى نظام تقدمي سائر نحو الآشتراكية ، شأن نظام عبدالناصر في مصر . هذا ، مع العلم ان عبدالسلام كان شريك البعثيين في ردة 8 شباط الفائية الدموية وانه اعدم خلال سنة اعقبت انقلاب تشرين على شركائه أربعين شيوعيا .
وقد اقر الاجتماع هذا الخط السياسي اليميني الذيلي باغلبية (12) صوتا من مجموع (14) . وصوت ضده فقط العضو المرشح للجنة المركزية عزيز الحاج ، وتحفظ آرا متذبذبا بين مؤيد ومعارض . كان الوضع القيادي - التنظيمي للحزب مختلا بعد حملة النظام الفاشي البوليسية التي أدت الى اختطاف وتصفية تسعة من اعضاء اللجنة المركزية ، بضمنهم سكرتير الحزب سلام عادل وعدد من اعضاء المكتب السياسي والسكرتارية ، وانهيار عدد آخر بضمنهم عضو المكتب السياسي والسكرتارية هادي هاشم الاعظمي ، الذي سلم سلام عادل وغيره ممن عرفهم . فكان لابد من اعادة الوضع التنظيمي الطبيعي الى الحزب بانتخاب السكرتير والمكتب السياسي . من ينتخب سكرتيرا ؟ كان هناك شخصان فقط لتوجه الانظار اليهما - عزيز محمد ، الذي كان عضو المكتب السياسي وسكرتير منظمة اقليم كردستان قبل ردة شباط . وسلام الناصري الذي كان عضوا مرشحا للمكتب السياسي مقيما في الخارج ضمن الفريق الدراسي . وقد اعتذر هذا الاخير عن ترشيح نفسه ، فضلا عن انه لم يكن بالشخص المناسب من حيث مجمل وضعه . وبقي عزيز محمد وحده الشخص المقبول في ذلك الوضع الملموس . وجرى انتخاب المكتب السياسي . وانتخبنا أنا وعامر ، اضافة الى باقر ابراهيم وعمر الشيخ وعزيز محمد وسلام الناصري .
ولم ينتخب زكي خيري الى المكتب السياسي لأن رسائله التي عمق فيها اعترافه بالتكتل المزعوم قد تركت اثرا سيأ لدى الجميع . وكان لابد من فترة انتقالية - على حد تعبير عزيز محمد - قبل ان يعاد الى المكتب السياسي . لكن زكي نفسه لم يكن من النوع الذي يغفر للاخرين موقفهم تجاهه لأن مسالة الزعامة ، بالنسبة اليه ، كانت تاتي في المرتبة الاولى وكل المسائل الاخرى في المرتبة الثانية . ولهذا اقترن وصوله الى براغ ، بعد انتهاء الاجتماع (الذي تغيب عنه) باعلان حملة من التهجم على نتائج الاجتماع وبالتعاون الوثيق مع عزيز الحاج ضد خط آب.
كان احد قرارات الاجتماع ان يعود من الخارج الى العراق اعضاء اللجنة المركزية وكل الكوادر الموجودين قبلئذ خارج الوطن وأن يخرج من البلد من كانوا فيه قبل انقلاب شباط . كان ذلك قرارا رائعا واستمرارا للتقاليد الكفاحية المترسخة في ح.ش. ع منذ السابق . وقد ارسل عزيز محمد وباقر ابراهيم وكريم احمد الى الدراسة الحزبية في موسكو وابقي زكي خيري ممثلا لنا في مجلة قضايا السلم والاشتراكية . فيما بدأنا نحن بالعودة تباعا الى العراق ، باستثناء عزيز الحاج الذي تأخر عن العودة حتى اوائل 1967 بسبب جبنه.
****
حين حكم علي بالبقاء في موسكو للدراسة الحزبية بقيت زوجتي واطفالي الثلاثة الصغار في بغداد . وكان ذلك ظلما صارخا بحقهم خاصة . وفي 1963 اعتقلوا جميعا . وبعد اشهر عديدة تمكنت امي العجوز من الوصول الى بغداد واستلام الاطفال من السجن لتنقلهم الى السليمانية . وفي 1964 قررت حكومة عبدالسلام اسقاط الجنسية عن زوجتي وعن عمومة مصري ونفيهما الى خارج العراق بذريعة انهما يهوديتان . وقد التقيت مع ام سلام في براغ وعشنا سوية لبضعة اشهر حياة عائلية طبيعية وهادئة ساكنين في شقة حصلنا عليها من مجلة قضايا السلم والاشتراكية التي كنت احد شغيلتها المحررين.
اثناء عملي في المجلة نشرت ، وفق تكليف من المكتب السياسي ، مقالا فيها مذيلا باسم (منير احمد) مكرسا لتوضيح الخط السياسي الذي اقره اجتماع آب . وقد كان المقال خاطئا وسيئا في منطلقاته - شأن الخط السياسي المتبع . لكن المحرر الروسي ، الذي كان يترجمه ويعيد صياغته ، قد زاده سوءا وأدخل فيه بعض ما لم اكتبه انا ولم اعرف به الا بعد النشر في المجلة.
وخلال الايام التي قضيتها في براغ بعد الاجتماع تأتى علينا ان نعير قسطا غير قليل من الانتباه الى نشاطات عزيز الحاج ، الذي قال كلمة الحق - بالنسبة لخط آب - وأراد بها الباطل . وكان يتعاون معه ، على ما ظهر ، كل من زكي خيري وآرا خجدور ونوري عبدالرزاق وماجد عبدالرضا ومهدي الحافظ . وقد وزعت كراسة صغيرة في براغ مذيلة بتوقيع ((لفيف من الشيوعيين)) ومكرسة لنقد سياسة ح.ش.ع والتهجم على خط آب . وانكر عزيز الحاج علاقته بها . ولكن هشام البعاج ، الذي كنت قد تعرفت عليه لأول مرة في سجن بعقوبة الانفرادي عام 1957 ، اعترف امامي اثناء لقائنا الثنائي بأن عزيز وراء النشرة.

وفي وقت لاحق ، وكنت قد رجعت الى العراق ، اصدر عزيز الحاج وزكي خيري سوية كراسة مكرسة لتقييم سياسة الحزب بين 1958 - 1964 ، ووزعاها في البلدان الاوروبية وحيثما امكن لهما.

12
في بغداد من جديد

في تشرين الثاني 1964 غادرت براغ بصحبة مهدي الحافظ عائدين الى بغداد بجوازي سفر مزورين . كانت محطتنا الاولى روما ، التي رايتها لأول مرة . ومكثنا فيها 24 ساعة ، كنا نسير في شوارع العاصمة الايطالية ونشاهد تكرارا قطعة تحمل الكلمة نفسها ـ سثاكيتي ـ على ابواب العديد من الحوانيت والمطاعم الصغيرة . فدخلنا واحدا منها لنجرب هذا الطعام الايطالي الشائع واذا بالمعكروني يوضع امامنا مع قنينة من البيرة المثلجة . وعند مغادرتنا لروما اشتريت في سوق المطار الحرة قنينة نبيذ ، وهي كل ما اشتريته في ايطاليا . وتخلصت منها بصعوبة في مطار الكويت ، حيث نزلنا من الطائرة ، تلافيا للمتاعب التي كان يمكن ان تنجم عن حيازتي لها في بلد اسلامي حرمت فيه المشروبات الروحية .
نزلنا في احد فنادق الكويت وتجولنا في شوارع المدينة واسواقها العامرة بالسلع المتنوعة . والتقينا برفاق عراقيين هاربين من النظام الدكتاتوري . النفط هنا صنع الاعاجيب ـ حول بلاد البدو المتخلفين ، الذين كانوا يعيشون الى ماقبل سنوات عيشة القرون الغابرة ، الى بلاد السيارات الفخمة والرفاه الواسع . لكن هذه التغيرات لم تشمل عادات وتقاليد الناس الابشكل ضئيل .
بعد يومين وصلنا مدينة البصرة وافترقنا لنلتقي مرة اخرى في بغداد . وقد وصلت بغداد في ساعة متأخرة من الليل واخفقت في العثور على العنوان الذي كنت احمله . فاضطررت الى البقاء في سيارة التكسي لقاء خمسة دنانير اضافية . وعند فتح اول مطعم للثاجة في شارع الكفاح فجرا دخلنا وجلسنا . وظهر بغداديون آخرون وبدأوا يتحدثون الى بعضهم بلغتهم الشعبية البسيطة . قال احدهم لزميله الجالس قبالته وراء منضدة صغيرة:

- آه لو كان لي قضيب بطول متر.
- ولك ليش كل هالطول ؟ ـ سأله زميله.
- ولك ذيض الحلوة تحب الطويل.

في الصباح الباكر وجدت العنوان واستقبلني بحرارة . وكان مقدما في الجيش متقاعدا . وعنده التقينا مع مهدي وذهبنا الى العنوان الثاني حيث التقينا بالشيوعية المعروفة زكية خليفة ، التي كانت مسؤولة عن استقبال العائدين من الخارج وتدبير امورهم ريثما يستقرون . اخذتنا الى بيتها ، وهناك التقيت بشابة رشيقة طويلة واسعة العينين ، كانت تسعى لتبادل الحديث معي وللاستفسار عن بعض الامور . ولم يخطر ببالي انها ستصبح بعد حوالي السنتين شريكة حياتي الجديدة.
وعن طريق زكية التقيت بعمر الشيخ ، الذي كان يضطلع بدور المسؤول الاول بالوكالة والذي بقي في البلاد ، بخلاف المسؤولين الاخرين الذين خرجوا منها . والتقيت كذلك بناصر عبود الذي سبقني في العودة من اوروبا الى الوطن ، وبصالح دطلة الذي اعتقل في 1963 وهرب من السجن وخروج من العراق ثم عاد اليه بعد اجتماع آب . وقد اعتقله البوليس المصري في مطار القاهرة ، وهو في طريق العودة الى بغداد ثم اخلي سبيله مع التأكيد له بأنه يحمل جواز سفر مزور.
بدأت اتعرف تدريجيا على ظروف البلد ، الذي كنت قد غادرته قبل سنوات اربع ، وعلى مزاج الجماهير ومزاج رفاقي الشيوعيين انفسهم . وجدت نفسي غريبا بعض الشئ عن الاجواء الجديدة التي عدت اليها . لا شئ هنا ، في هذه البلاد ، شبيه باوروبا التي جئت منها . غير انه لم يكن من الصعب ان افهم ، منذ الايام الاولى ، بأن السياسة التي صغناها في براغ آب 1964 ، على بعد آلاف الكيلومترات من بغداد ، ليست مقبولة لدى الشيوعيين والجمهور المتعاطف معهم هنا داخل البلد .
في اواخر كانون الاول 1964 قبضت السلطة على عمر علي الشيخ عندما كان يسير مشيا في ساحة التحرير ببغداد . ومن المفارقات ان باقر جعفر ، الشيوعي السابق الذي قبض عليه معي عام 1953 وحكم عليه بالسجن المؤبد ثم انهار في السجن وتحول الى عميل للامن العام ، هو الذي شاهد عمر وقبض عليه . وعلى اثر هذا الحادث اصبحت أنا المسؤول الاول بالوكالة داخل العراق حتى ربيع 1966 . وعشت فترة مع عائلة الكادر الشيوعي زين العابدين رشيد من الدوز ، الذي ذهب للدراسة الحزبية في موسكو ، مناضلا ثوريا . ومدد هناك دراسته ـ بدعم من كريم احمد ـ الى سنتين وعاد بعدها متدهورا فاسدا.
توفرت الان لدي امكانية حقيقية ، وأنا المسؤول الاول للحزب وكالة لكي اعمل من اجل تعديل السياسة الخاطئة ، التي كنت قد ساهمت في رسمها . فكيف البدء ؟ وما العمل ؟
أول ما قمت به لتقليص الاثر السلبي لسياستنا الذيلية الخاطئة كان اصدار عدد من المنشورات التي كانت تضع النقاط على الحروف وتفضح بصورة واقعية جريئة جرائم حكم عارف الدكتاتوري بحق الجماهير الشعبية وبحق الشيوعيين انفسهم . في الوقت نفسه اعيد نشاط الهيأة القيادية ـ كهيأة مؤلفة من اعضاء اللجنة المركزية الموجودين داخل البلد . كنا نعقد اجتماعات منتظمة ونبحث الامور المختلفة الحزبية والسياسية.
وخلال الاشهر الاولى من عام 1965 عاد الى البلد عضوا المكتب السياسي عامر عبداللة وسلام الناصري . وبدأنا نعقد اجتماعات للمكتب السياسي كهيأة.

وقد اعاد عامر النظر في تقديراته وموقفه من خط آب 1964 ايضا ، وانتهج طريق الطفرات وليس التحول التدريجي ، حيث قدم بعد اربعة ايام من عودته رسالة بخطه الجميل شكلا ، والذي لم اتعلم قراءته بسهولة طيلة عشرات السنين من مصاحبتنا لبعضنا ، انقلب فيها على اتجاهه الفكري ـ السياسي السابق على 180 درجة وعرض خطة لتجميع الضباط ، بصرف النظر عن انتمائهم الحزبي ، للقيام بانقلاب عسكري فوري. قدم هذا الاقتراح قبل ان يتسنى له الاحتكاك بمنظماتنا الحزبية نفسها .
في شباط 1965 اقر المركز القيادي للحزب (ولم نسمه آنئذ اللجنة المركزية) ، باقتراح مني ، اعادة النظر في سياسة الحزب التي رسمها اجتماع آب 1964 . وحدد الشكل الملموس لتنفيذ الاقتراح : كتابة صيغة اولية لوثيقة جديدة تتضمن السياسة الجديدة المعدلة ثم عرضها على المركز القيادي ليناقشها ويعرضها بعدئذ على الكوادر الحزبية كي تناقشها بدورها وتبدي الملاحظات بشأنها . ثم تشكل لجنة لدراسة جميع الملاحظات الواردة من الكوادر ولاعادة صياغة الوثيقة على ضوئها ، تمهيدا لعرضها على اجتماع للجنة المركزية نعقدها في بغداد وننجز خلاله مهمة تعديل سياسة الحزب .
عمم مشروع الوثيقة على كوادر الحزب وشارك في مناقشتها قرابة (150) كادرا وانجزت اللجنة المكلفة بدراسة ملاحظات الكوادر مهمتها . وفي 18 نيسان 1965 ترأست اول اجتماع للجنة المركزية في بغداد ، بعد انقلاب شباط 1963 ، عقد في حي جميلة بدار مستأجرة خصيصا لهذا الغرض . شارك في الاجتماع جميع اعضاء ومرشحي ل م العشرة الموجودين في الوطن ، وهم كل من الناصري وعامر وناصر عبود وآرا وحسين سلطان وصالح دطلة وتوفيق احمد وصالح الرازقي .. الخ . واستمر النقاش اربعة ايام لم يسمح لأحد خلالها بالخروج من البيت . واصررت على ان تقر الوثيقة بصيغتها النهائية ، بشكل لاتمس ولايمكن اجراء أي تعديل عليها بعد الاجتماع ، تلافيا للتقليد السئ الموروث الذي يترك للمكتب السياسي ان يقوم ، بعد اجتماع اللجنة المركزية ، بصياغة تقرير يصدر فيما بعد باسم ذلك الاجتماع.
لم نختلف في الاجتماع حول تحديد الطبيعة الدكتاتورية العسكرية لسلطة عارف وفضح جرائمها . ودار النقاش بصورة رئيسية حول نقطتين :
1. هل نرفع فورا وعلنا شعار اسقاط السلطة ، ام نكتفي بطرح البديل فنرفع شعار حكومة ائتلاف وطني ديمقراطي ؟ وكنت من الرأي الاخير لكي تتاح لنا فرصة اعادة بناء الحزب وتقويته.
2. هل هناك قوى سياسية ـ اجتماعية اخرى يمكن ان تؤيد الاشتراكية ، ام ان الشيوعيين وحدهم المؤيدون ؟ كنت مع الرأي القائل بوجود قوى اخرى يمكن ان تؤيد الاشتراكية. وقد طال النقاش حول هذه المسألة ، فيما كان الرازقي مستغقا في النوم ، وهو جالس، كعادته دوما . وبعد ان ادلى الجميع بآرائهم عدا الرازقي ضغطت باصابعي على كتفه وناديته:

- ابومهدي! ابومهدي! وما رأيك في هذه المسألة ؟
- اية مسألة ؟ ـ استيقظ وتساءل.
- مسألة الاشتراكية.
- ضا منو ماير يد الاشتراكية.

عند انتهاء الاجتماع ابقيت الحاضرين ، رغم اعتراض الكثيرين منهم . ووزعت عليهم صفحات الوثيقة المقرة لكي يقوموا كل باستنساخ قسم منها ولكي تتوفر نسخة ثانية احتياطية لدي . واعطيت الرازقي النسخة الاولى كي يأخذها الى مطبعتنا السرية ، التي يشرف عليها ، وتطبع في عدد خاص من جريدتنا السرية (اتحاد الشعب) . ومع انتهاء الاجتماع وتفرق الرفاق نقلت الاثاث وافرغ المبنى كتدبير احتياطي للصيانة.
****
كان قد انقضى يومان على انتهاء الاجتماع حين ذهبت بصحبة دطلة الى منزل الرازقي في بغداد الجديدة لمعرفة ما اذا تم طبع الجريدة ام لا. ابلغتنا زوجته بانه خرج من البيت صباحا ولم يعد ، رغم انه وعد بالعودة ظهرا لتناول الغداء سوية . سألتها:

- هل اخلف الميعاد في الايام السابقة ايضا ، ام هذه المرة الاولى ؟
- من عادته ان يخلف الميعاد.

انتظرنا بحذر حتى التاسعة مساءا ثم دقت اجراس الخطر وغادرنا البيت واتخذنا بعض التدابير الاحتياطية ، منها ابلاغ الرفاق ذوي الصلات مع الرازقي . واتفقنا على اللقاء مع زوجة الرازقي خارج بيتها لمتابعة ما يحدث . ولم يلبث ان سمعنا ان بيت مطبعتنا السرية قد كبس واعتقل فيه الطباعان سليم اسماعيل البصري ورفيق آثوري ، كما اعتقل صالح الرازقي . وهكذا فقدت الوثيقة الصادرة عن اجتماع اللجنة المركزية قبل ان ترى النور.
لم يعترف الرازقي على بيته ـ ربما كان ذلك من اجل زوجته الشابة التي كان قد تزوجها حديثا ـ ولكنه اعترف على بيت عضو اللجنة المركزية توفيق احمد ، الذي كان يعيش مختفيا في حي المشتل . وقد اعتقل توفيق دون ان نعرف بذلك . مررت مساءا بسيارتي ومعي زوجة الرازقي امام داره ـ اعني توفيق ـ ووجدت الضوء مشعلا فقط في احدى غرف الطابق الثاني . فازدادت شكوكي حولسلامة البيت . وذهبت فورا لتحذير حميد الدجيلي العضو المرشح للجنة المركزية ، الذي كان على موعد ـ كما علمت صدفة ـ مع توفيق في الشارع .

اتضح في اليوم التالي ان حميد لم ياخذ التحذير مأخذ الجد ، فذهب الى بيت توفيق على اثر غياب الاخير في موعد الشارع . وعندما دق الباب خرج اليه رجال الكمين الموجود هناك فركض ولاحقوه واطلقوا عليه نيران مسدساتهم . اصيب واستشهد فورا . وبذلك خسرنا كادرا حزبيا رائعا وشجاعا عظيم الجهادية جيد الاخلاق . وخسرنا معه امكانية الارتباط اللاسلكي الذي كان لنا مع رفاقنا في براغ . وكان فنينا الوحيد لتدبير الامر هو حميد.

عندما عرفت بكبس الطبعة اسرعت الى طباعنا السري الاحتياط (عزيز بقبقي) الذي كان في بيته جهاز رونيو وطابعة . قدمت اليه النسخة الاحتياطية من الوثيقة . وفي صبيحة اليوم التالي اخرجت من منزله مئتا نسخة مطبوعة منها لتوزع بين المنظمات الحزبية . وبذلك تلافينا خطر ضياع الوثيقة ، التي بذلنا جهودا كبيرة في صياغتها . ولا أكتم اني كنت معتزا بهذه الوثيقة ، شديد الحرص عليها ، لأنه كان لي شرف المشاركة الفعالة في العمل على اخراجها كأعلان عن تعديل جذري لخط آب 1964 ، وقد تركت الوثيقة تأثيرها الجيد على الشيوعيين والجماهير المتعاطفة معهم واعادت الاعتبار الى الحزب واعادت الى صفوفه قدرا من التماسك.

****

على اثر اتباع سياسة آب 1964 شاع التذمر بين بقايا التنظيمات الحزبية وترك الكثيرون صفوف الحزب . وتجمع البعض من المنسحبين في تكتل خاص بهم سمي ((الثوريون)) . لكن هذه الكتلة لم تفلح في استقطاب الكثيرين ولم تجد من الكوادر الكفوءة من ينضم اليها ويقودها . وظهر ان الاجهزة القمعية تمكنت من شراء عناصر فيها أو دس بعض العملاء الى صفوفها واصطياد العناصر النظيفة النشطة فيها . وفي وقت لاحق ، في عهد عبدالرحمن عارف ، اصبح سليم الفخري احد ضحايا هذه المصيدة اذ اتصلوا به ، وهو مقيم في كردستان ، وابلغوه بانهم اختاروه زعيما لهم وانهم هيأوا كل شئ للقيام بثورة (او انقلاب عسكري) وهم في انتظاره ليقود الثورة ويحرر البيان الاول . ورغم انه كان شيوعيا قديما ومجربا فانه انخدع بهم واستجاب لهم وتوجه الى بغداد . وقيل انهم نظموا له لقاءات مع مسؤولي تنظيماتهم العسكرية المزعومة واظهروا امامه استعداد قطعاتهم العسكرية لتنفيذ الامر الصادر اليها بالثورة . وبناءا على طلبهم حدد موعد الثورة وحرر سليم البيان الاول ليذاع من محطة بغداد في فجر اليوم المعين . وبعد منتصف الليل دوهم المنزل من قبل رجال الامن وقبض على سليم الفخري واخرج من جيبه البيان الاول .. ثم اتضح ان جميع ما جرى ، بدءا بجلبه من كردستان الى بغداد ومرورا بلقاءاته مع مسؤولي خط التنظيم العسكري المزعوم وانتهاءا بتحديد موعد الثورة وتهيأة البيان الاول ... الخ ، انما كان من صنع الاجهزة الامنية . ولحسن حظه فان الحكم كان في يد عبدالرحمن عارف وليس في ايدي صدام ووحوش البعث . فاكتفى بسجنه ولم يقتل.

****

منذ اوائل 1965 جلبت اطفالي الثلاثة سلام واختيه من السليمانية الى بغداد بأمل تسفيرهم الى الخارج حيث لم تكن ظروفي مساعدة لابقائهم عندي في حياة الاختفاء الصعبة . واضطررت الى اعادة البنت الصغرى ثري مع والدتي العجوز الى السليمانية ، بسبب تعلقهما الشديد ببعضهما . وكانت ابنتي حياة البالغة ست سنوات قد نسيت اللغة العربية كليا وتعلمت اللغة الكردية بصورة جيدة ، شأن أي طفل كردي . وفي غضون شهرين استعادت لغتها العربية ونست اللغة الكردية . وبعد اكثر من سنة امكن لي تسفيرهما مع زكية خليفة التي سافرت بجواز سفر مزور بأمل ان تصل الى زوجها عبدالرزاق الصافي بعد انقطاع دام عدة اعوام . وقد التحق سلام وحياة بمدرسة تابعة للصليب الاحمر السوفيتي بمدينة ايفانوفا على بعد (300) كم من موسكو . وبعد حوالي تسع سنوات ارسلت ثري لتلتحق بدورها بنفس المدرسة . كما التحق بها ابني الاصغر علي في 1980 . وهكذا فان اطفالي الاربعة كبروا ودرسوا وتربوا في ظروف صعبة محرومين من رعاية ابيهم ومن الحياة الطبيعية التي عاش فيها الاطفال الاخرون في هذه البلاد . ويجب الاقرار بأن ام سلام لم تدخر جهدا في خدمتهم ورعايتهم . لكنهم كانوا يذهبون اليها في موسكو فقط ايام العطل الدراسية . وهي كانت محدودة الامكانات ماديا وغير قادرة على دعمهم ماليا كما ان تمكناتي لتقديم العون المالي اليهم كانت شحيحة عموما . وفي بعض الاحيان كنت احصل على شئ من المال لدى اقاربي لارسله اليهم.

****

بعد انقلاب شباط 1963 انقطعت العلاقات مع السفارة السوفيتية في بغداد . وقد جلب احد رفاقنا العائدين من الخارج موعدا كي اعيد العلاقة . كان اللقاء الاول في الشارع والتقيت بسكرتير السفارة المسؤول عن العلاقات الحزبية . وطوال الفترة اللاحقة وحتى ربيع 1966 استمرت علاقتي المباشرة . وقد بدا لي الرجل هادئا طيبا وحريصا على التضامن الاخوي قالاممي . وكان متفهما الى حد للوضع السياسي المعقد في العراق . وناقشته ذات يوم حول موقف الحكومة السوفيتية من تشديد الغارات الهمجية ، البحرية والبرية والجوية ، على فيتنام الديمقراطية . وسلمته لاحقا رسالة باسم قيادة ح.ش.ع وبنفس المضمون ليرسلها الى قيادة حزبه . ولم اتلق أي جواب عليها . وأود التأكيد على انني لم استشر السوفيت ولا مرة حول قضايا حزبنا وبلدنا طيلة الفترة التي بقيت خلالها طرفا في العلاقة وكانت علاقتنا محصورة بهذا السوفيتي ولم تكن لنا صلات باية سفارة اخرى.

****

كان العضو المرشح للجنتنا المركزية عزيز شريف قد انقطع عن الحزب وضاع له كل اثر منذ انقلاب شباط 1963 . وبمساعدة الصديق السوفيتي المشار اليه آنفا امكن لي العثور عليه واخبرني انه ظل مختفيا في احدى السفارات طيلة تلك الفترة . اسكنته في احد بيوتنا الحزبية مؤقتا وتباحثت معه حول وضعه وما يقترح لنفسه من المهمات الحزبية . كما اشركناه ، بوصفه مرشحا لعضوية اللجنة المركزية ، في بعض اجتماعات مركزنا القيادي . وهو كان رجلا طيبا وهادئا ومؤدبا .. غير انه لم يكن رجل التحرك والتحدي في ظروف الاختفاء الصعبة . وقد وافق على الاقتراح الذي قدمته اليه شخصيا ، قبل ان اقدمه الى رفاق الهيأة القيادية . وفحواه ان يذهب الى كردستان ويقيم سفيرا غير رسمي لنا عند الملا مصطفى البارزاني ـ طبعا مع اخفاء صفته الحزبية ـ ويمارس نفوذه كصديق قديم للبارزاني من اجل خير الحركة التحررية الكردية وكل الحركة الوطنية العراقية . وسفرناه بعدئذ الى هناك ورحب به البارزاني واستضافه طيلة بقائه هناك.

****

كنا ، أنا ودطلة، نائمين في منزل الرازقي حين رن جرس الباب في الساعة الثانية بعد منتصف الليل . نظرنا من الشباك واذا بالشرطة واقفون جنب سيارتهم ويلحون على فتح الباب . أيقنا انهم آتون لكبس الدار وللقبض علينا ، نحن المختفين المطاردين . اسرعنا في حرق الرسائل وبعض المستمسكات الحزبية داخل الحمام قبل أن نجيب بشئ . بعدها نادتهم زوجة الرازقي ، وهي مرتبكة ومذعورة ، وسألت عما يريدون . فاجاب احدهم:

- نحن شرطة النجدة وجئنا بناءا على مخابرتكم لنا تلفونيا.
- اننا لم نخابر ولانملك التلفون.
- لكن هذا هو عنوان الدار التي اعطيتموها بالتلفون.

اخيرا اتضح لنا ان احد الناس في بيت قريب قد خابرهم فعلا بعد ان شاهد لصا او تراءى له بأنه شاهده . وأن العنوان اعطي بصورة خاطئة . وكان هذا الخطأسببا لهذه المشكلة التي سبق ذكرها.

****

بعد تعديل خط آب 1964 أخذ التيار الفكري اليساري ينمو ويصارع في سبيل فرض نفسه على خط الحزب السياسي ، مستفيدا من ردالفعل الواسع في الحزب ضد اليمين ومن الفرص المتاحة عام 1965 لخوض الصراعات الفكرية . وكان عامر عبداللة وماجد عبدالرضا ومهدي الحافظ وكاظم الصفار وحسين جواد القمر وكاظم فرهود وغيرهم من الكوادر دعاة نشطين للتطرف . واستجابة لرغبة الكادر وحرصا على تسيير الصراع الفكري باسلوب ديمقراطي بادرت الى اقتراح عقد اجتماع حزبي موسع لدراسة الوضع واتخاذ القرارات المناسبة بشأنه . وحظي الاقتراح بموافقة المركز القيادي واتجهنا للتنفيذ.

****

مع اتخاذ قرار الاجتماع الموسع كلفت زين العابدين رشيد بالبحث عن دار لنا مناسبة تستاجر لهذا الغرض . ووجدها في اسفل حي جميلة بالقرب من العلوة .. لم يكن فيها اسالة الماء . فاشترى 120 مترا من الصوندة لسحب الماء من مسكن جار كان عريفا في البوليس السري . واوصيته ، بعيد الانتقال الى الدار ، بذبح خروف وتوزيع لحمه على الجيران كنذر للمولود الجديد الذي رزقت به العائلة . وعند حلول موعد الاجتماع كلف دطلة وحده بنقل المشاركين الى بيت الاجتماع شرط ان يكون تحت جنح الظلام وأن يسير سيارته في دروب ملتوية لكي لايعرف أي منهم المبنى . وحرم على الجميع الخروج من الدار والرجوع اليه قبل نهاية الاجتماع . ولسوء الحظ حدث ما أدى الى أن يشذ عن هذه القاعدة مسؤول منظمة الفرات الاوسط آنئذ حمداللة مرتضى.

وقع حادث طريف لصالح دطلة ، وهو يقود سيارة البكاب خارجا من البيت بعد ان جلب اليه احدهم . خرج ويل سيارته في شارع القناة ، في وقت كان رئيس الجمهورية عبدالسلام عارف سائرا وراءه . فوقف عارف وأمر مرافقيه بمساعدة سائق البكاب وتفقده بنفسه وسأله عن سلامته وعرض عليه اي خدمة يحتاج اليها . وبديهي ان الرئيس عارف فكر في كل شئ سوى ان يكون هذا الشخص احد اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ومكلفا بنقل رفاقه الى بيت سري لعقد اجتماع حزبي سري سيرفع شعار اسقاط السلطة.

شارك في الاجتماع خمسة وعشرون شخصا ، بينهم سبعة من اعضاء اللجنة المركزية (أنا والناصري وعامر وناصر عبود و دطله وحسين سلطان) . وكان اغلب الكوادر الحزبية من منظمة بغداد . وكان المفروض ان يكون عدد المشاركين اكثر من ذلك . لكن مندوبي منظمة الاقليم لم يصلوا (وكانت كبرى منظمات الحزب آنئذ) . وقد ناضلت بقوة من اجل تأجيل الاجتماع لحين حضورهم لكن الاخرين لم يستجيبوا لطلبي وأصروا على عقد الاجتماع.

كانت غالبية المشاركين من ذوي الاتجاه اليساري المتطرف ، الذي كان يعبر في الواقع عن ردفعل عنيف ضد النهج اليميني الذي ساد سياسة الحزب لسنوات سابقة . كانت المناقشات حيوية وحادة، رغم ان الاتجاه الفكري اليميني كان ضعيفا ومتمثلا بالدرجة الاساسية في سلام الناصري ولدرجة اقل حسين سلطان، وكان الموضوع الرئيسي، الذي دار حوله معظم النقاش، هو الخط السياسي اللاحق للحزب. كان القسم الاكبر يطالب بتبني خط سياسي اطلق عليه اسم ((العمل الحاسم)) أي الاستيلاء السريع على السلطة عن طريق انقلاب عسكري فوري . وكان الناصري من الرافضين لهذا الخط اصلا . فيما كنت اقف بين الرأيين اذ كنت من مؤيدي اللجوء الى الجيش من قبل الشيوعيين ايضا ، شأنهم شأن الاوساط الاخرى ، كسبيل للوصول الى

السلطة في بلد تنعدم فيه الديمقراطية وتظل لغة العنف هيالسائدة وهي الحكم الفاضل . وبهذا المعنى كنت مع تكتيك العمل الحاسم. غير انني لم اكن على قناعة بأن الحديث عن ((العمل الحاسم)) في تلك الظروف الصعبة، التي اعقبت نكسة 1963 الكبرى كما اعقبت انحراف 1964 اليميني، يحمل شيأ من الجد حيث لم يكن لدى ح.ش.ع ـ الذي كنت على رأسه آنئذ، في غياب السكرتير ـ اي تنظيم حزبي في الجيش مؤهل للاضطلاع بمثل هذه المهمة. كنت أرى في اصرار هؤلاء على العمل الحاسم بتلك الكيفية ضربا من الصبيانية . وكنت اقول ان من يريد الوصول الى السلطة عن طريق انقلاب عسكري لايقدم على اثارة الضجيج حول العمل الحاسم ، بل يعمل بهدوء تام وبمنتهى الكتمان لكي ينتهز الفرصة المواتية من أجل توجيه ضربته الحاسمة . ورغم كل ذلك فان الاجتماع اقر بأغلبية ساحقة خطة العمل الحاسم ، كما اقر ما اعتبر دعما لهذه الخطة بتشكيل ما سمي ((خط حسين)) ـ أي تشكيلات مسلحة بين الشيوعيين المدنيين لدعم أي عمل انقلابي يقوم به العسكريون الشيوعيون في الجيش.

وبعد مناقشات طويلة اتخذ قرار بتخطأة وادانة خط آب 1964 ، لكي ينتقل الاجتماع بعد ذلك الى المسألة الاخيرة والمعقدة في جدول العمل ـ اعادة بناء الهيأة الحزبية القيادية . كانت هذه مشكلة حقيقية لأن القيادة كانت قد فقدت ثقة معظم الكوادر جراء الاخطاء السابقة، وكنت امام احد خيارين: التشبث بالنظام الداخلي، الذي كان يبيح لي رفض الانتخابات والحيلولة دون معرفة ما اذا كانت العناصر القيادية ، سيما الموجودة داخل الاجتماع، تفوز بثقة من كنا نقودهم ، أم المبادرة الى اجراء الانتخابات لاعادة بناء المركز القيادي ولابعاد من لايفوز بالثقة . وقد اخترت ، بوصفي المسؤول الاول وكالة ، قبول التحدي والخروج من الهيأة القيادة في حالة عدم فوزي بثقة من كنت اقودهم. واقترحت على الاجتماع ما يلي:

- اخضاع جميع اعضاء اللجنة المركزية الموجودين في الاجتماع لاخبار الثقة واخراج من لايحصل على اغلبية الاصوات المطلقة في الانتخابات من قوام الهيأة القيادية.
- استثناء غير الموجودين من اعضاء القيادة من هذا الاختيار، وعدم المساس بمراكزهم الحزبية.
- تجديد دم اللجنة المركزية عن طريق اضافة اعضاء جدد اليها من بين الحاضرين الذين سيفوزون في الانتخابات الحزبية.

حظيت مقترحاتي بالموافقة الاجتماعية ووجد الاجتماع امام مهمة تنفيذها وسط صراعات عنيفة . ارادوا ان تكون هناك قائمة باسماء المرشحين اضافة الى حق الترشيحات الفردية . وطلبوا مني المشاركة في اختيار هذه القائمة. اعتذرت عن ذلك ورفضت المشاركة الشخصية في مثل هذه القائمة وفي الهيأة القيادية المقبلة كما رفضت تسلم المسؤولية الاولى بالوكالة على الشاكلة التي كانت سابقا. وبررت هذا الرفض بأني لست موافقا على آراء وتقديرات غالبية المشاركين في الاجتماع وبالتالي لا أريد تحمل مسؤولية العمل التنفيذ قرارات لست مقتنعا بها . وقدم الناصري الاعتذار عن ترشيح نفسه ايضا. وطوال اكثر من ساعتين الح المجتمعون على ان ابقى واقبل البقاء كمسؤول اول بالوكالة . فرضخت آخذا بنظر الاعتبار انها مهمة مؤقتة . وقدمنا قائمة للمرشحين من (16) اسما على ان ينتخب (12) اسما فقط . كانت النتيجة انتخاب ستة بين سبعة اعضاء للجنة المركزية الموجودين، مع انتخاب ستة جدد هم كل من شاكر محمود وكاظم الصفار وكاظم فرهود وكاظم جواد وماجد عبدالرضا وابراهيم الياس . وهكذا اتسعت الهيأة القيادية الميدانية الى 12 رفيقا . واخرج من قوام الهيأة العامل البصري والشيوعي القديم ناصر عبود ، الذي كان في واقعه افضل من الكثيرين منهم.

انتهى الاجتماع . وفي صبيحة اليوم التالي نقلنا آثاث البيت الى مسكن جديد مهيأ مسبقا في حي علي الصالح ، كتدبير احتياطي من تدابير الصيانة . وفي اليوم نفسه قبض على مسؤول منظمتنا في الفرات الاوسط حمداللة مرتضى عند عودته الى مدينته . ويبدو انه انها فور وقوعه في قبضة البوليس واعترف بكافة الاسرار التي كان يعرفها ، بما في ذلك اسرار الاجتماع. وسار امام رجال الامن العام ليبحث عن الدار التي عقد فيها الاجتماع . لم يعثر على الدار بسهولة بل تأتى عليه التجول مع البوليس السري طيلة يومين ـ كما قيل في حينه ـ الى ان عثر عليها . وحين كبسوها وجدوها فارغة. سألوا الجيران ، بضمنهم عريف الامن حسن ، عمن كانوا في البيت وعن المكان الذي ذهبوا اليه. فاجابهم حسن:

- كانت هنا عائلة طيبة.
- وكيف علمت انها كانت عائلة طيبة؟
- بعد مجيئهم بأيام قليلة ذبحوا خروفا ووزعوا لحمه على الجيران كنذر.
- انهم ضحكوا عليك وعلى امثالك ايها الرجل المغفل! انهم كانوا شيوعيين.

تمكن رجال الامن من العثور على رقم سيارة البكاب، التي كنا قد استخدمناها في نقل الاثاث، والقوا القبض على صاحبها المعمار طارش، الذي كان من اصدقاء ابو باسل . وسجنوه شهرا كاملا وعذبوه بوحشية . ولم يكن لديه ما يعترف به لهم شيأ مفيدا . اوصلنا مئة دينار الى عائلته كمصرف لها ايام اعتقاله.

اسفر الاجتماع عن تحويل آراء وتطلعات التيار اليساري المتطرف في الحزب الى سياسة رسمية له وأوجد لدى البعض الحماس الثوري فيما عزز الاوهام لدى البعض الاخر . ونشر المتطرفون المتحمسون وعودا للناس بقرب حسم الوضع واستلام السلطة السياسية . واندفع البعض يبحث هنا وهناك عن قطع الاسلحة الصغيرة واحيانا الصدءة والفاسدة ، لتجهيز خط حسين. كان كاظم فرهود في مقدمة الباحثين عن الاسلحة والمبشرين بأن الثورة على وشك الانتصار عن طريق العنف

والانقلاب العسكري. وقد ابلغني ماجد عبدالرضا ذات يوم ، حين كنت اقود سيارتي بشارع القناة وبجانبي كل منه ومن دطلة، باننا قادرون على اخذ السلطة بدباية واحدة تهاجم القصر الجمهوري. اعترضت على هذا التقدير اللاواقعي وسألت:

 وماذا ستفعل بعد ان ينفذ عتاد دبابتك الوحيدة وتتحول الى حديدة ملقاة على قارعة الطريق وانت لم تستول بعد على شئ؟

 اذا فلتكن دبابتان ـ قال ماجد.

هكذا اختزل العمل الحاسم الى حيازة دبابة واحدة منعزلة وقادرة على التحول الى (سوبرمان) . وفي وقت لاحق كان دطلة يسوق سيارته، وهو في الشارع المار امام القصر الجمهوري، ليحصي الدبابات الموجودة هناك . واذا به يصطدم بمظلة الحرس وسط الشارع . ولم ينج من الاعتقال والتحقيق الا بصعوبة بالغة.

وبعد حين قام رئيس الوزراء الضابط عارف عبدالرزاق، الذي كان معروفا بميوله الناصرية، بمحاولة انقلابية واستخدم قطعات عسكرية، بما فيها قطعات من الدروع . وخاض معركة حقيقية ساخنة، للاستيلاء على السلطة .. ولكنه اخفق وسحقت محاولته واعتقل.

****

غادرت منزل احد الاصدقاء في حي البياع متجها الى منزلي في حي الشرطة. لاحظت ان حركة السير في الشوارع تكاد تكون معدومة. ولم اعرف السبب حتى استوقفني في احد الشوارع سيارة من سيارات البوليس وسألني مفوض الشرطة:

 هل لديك ورقة السماح بالتجول؟

 كلا ليست لدي ... وهل لايسمح بالتجول؟

 الم تسمع الاذاعة؟ ألا تعرف ان منع التجول قد اعلن في بغداد منذ صباح اليوم؟

 لا لم اعرف شيأ ولم افتح الراديو.

نظر الى هويتي ـ وكانت بالطبع مزورة ـ ثم قال:

 اصدقك بأنك لم تسمع عن منع التجول واسمح لك بمتابعة السير الى بيتك شرط ان تعطينا جك سيارتك لبعض الدقائق كي نبدل اطار سيارتنا هذه.

بدأنا نتبادل اطراف الحديث مع الشرطة، فيما انصرف البعض الى تبديل الاطار . قلت ان كثيرين من الناس لم يسمعوا بمنع التجول . ولهذا ينبغي التسامح وعدم التشديد. فاجاب المفوض قائلا:

 نحن لسنا بالحرس القومي ـ البعثي ولا نريد الحاق الاذى بأحد .

 شكرا لكم .. ولكني اخشى ان اتعرض لمضايقات غيركم، وأنا في طريقي الى البيت.

 نحن نأتي بسيارتنا معك حتى نوصلك.

بعد اصلاح سيارتهم رافقوني فعلا ولم اتعرض لشئ. دعوتهم الى تناول الشاي في بيتي واعتذروا.

كان اعلان منع التجول الفجائي في ذلك الصباح الباكر من نيسان 1966 بسبب موت رئيس الجمهورية عبدالسلام عارف جراء سقوط طائرته العمودية اثناء جولة الى جنوب العراق . ولا أملك معلومات عن سبب سقوط الطائرة ولكني ارجح انه كان شيأ مدبرا . وقد نافس رئيس الوزراء عبدالرحمن البزاز المدني شقيق عبدالسلام (أي عبدالرحمن) على منصب الرئاسة. لكن كفة الاخير رجحت بسبب دعم الضباط الكبار له.

التقيت بوالدتي بعد هذا الحادث بأيام فوجدتها فرحة اشد ما يكون الفرح . كانت تؤكد بشكل قاطع ان موته بهذه الصورة كان بسبب دعائها .

فهي توسلت الى اللة لكي يقضي عليه حرقا ويحوله الى كتلة فحم . فاستجاب تعالى وحوله فعلا الى الفحم.

13

عودة السكرتير وانتقالي الى كردستان

في آذار أو نيسان 1966 عاد سكرتير الحزب عزيز محمد من موسكو الى البلاد، بعد اكمال الدورة الدراسية الحزبية . واستلم مهماته كسكرتير للحزب . وبعد اسابيع قليلة تهيأت لأسافر الى اقليم كردستان كي اكون سكرتيرا للمنظمة الحزبية ، التي كانت تعاني منذ امد من ازمة قيادية حادة . وكان ستار خضير قد اصبح سكرتيرا لها عن طريق الحصول على ثلاثة اصوات فقط من اصل عشرة اصوات او اكثر . ولم يحصل اي من المرشحين الاخرين حتى على الثلاثة.

في آيار 1966 وصلت السليمانية لأسافر من هناك ، بصحبة الشاب الشيوعي جلال ابو شوارب ، الى مقر قيادة الاقليم في قرية (كليته) بسفح جبل كاروخ . كان هناك كونفرنس حزبي لمنظمة الاقليم وكان المفترض ان اشارك فيه . وقد استعجلت في السفر ولكني لم اصل الا في اليوم الاخير ومع اختتام اعمال الكونفرنس.

كان عدد المشاركين فيه (26) مندوبا . وقد وجدت ان ليس هناك ما يصدر من الكونفرنس كبلاغ او وثيقة سياسية . ومعنى ذلك ان يكون ما حدث اشبه باجتماع حزبي مغلق لا شأن له بالجماهير وبمشاكلها السياسية والقومية المحتدمة . فاقترحت اصدار بيان باسم الكونفرنس يتناول الوضع السياسي السائد ويوجه النقد الى قيادة الحركة الكردية المسلحة ويقدم مقترحات

وحلولا لمعالجة بعض المشاكل ولتحويل الهيآت الصورية الى هيآت حقيقية ذات صلاحية في الثورة الكردية .. الخ . وضعت بنفسي مشروع البيان وأقره المندوبون بالاجماع.

****

قدر لي ان اكون في قرية كليته ، بالقرب من جبل هندرين العملاق ، يوم معركة هندرين التاريخية ، التي كانت اكبر معركة عسكرية وأبرز نصر تحرزه الفصائل المسلحة في كردستان العراق حتى ذلك اليوم . وقد بدأت المعركة في الثاني من آيار 1966 ، عندما تسللت تحت جنح الظلام وحدات من الجيش بمساعدة ومشاركة الجحوش الاكراد الى مرتفعات فوق الجبل واتخذت لنفسها مواقع قبالة فصيل الحراسة الشيوعي الصغير . وعندما نقل المسلحون الشيوعيون من مقرهم في قرية برسرين ومن سفوح هندرين بعض التعزيزات الى فصيل الحراسة الامامية كان الجيش قد اقام لنفسه العديد من الربايا والتحصينات العسكرية والمدافع الخفيفة . وقد اثار البعض من خصومنا ضجة كبيرة ضد رفاقنا الفدائيين متهمين اياهم بالتواطؤ مع السلطة وببيع هندرين لها . كان لابد من عمل كبير يعيد المياه الى مجاريها.

كان المسؤول العسكري لوحدتنا المسلحة كمال نعمان ، النقيب الشيوعي العربي من اهالي ديالى ، الذي كان قد هرب من الجيش اثر انقلاب 1963 . كان كمال رجلا هادئا خلوقا ومحترما بين الفدائيين . وقد تأثر بما حدث في هندرين شديد التأثر ليس فقط كمسألة سياسية وعسكرية ، بل كذلك كمسألة شخصية مسته بوصفه قائد الفصائل الفدائية المناطة بها حراسة هندرين . فسهر على وضع خطة لشن هجوم مضاد يؤدي الى استعادة الجبل . وكان عليه تدبير الامر في ظروف عدم تكافؤ القوى العسكرية عددا وتكنيكيا . فقد كانت في حوزته قرابة (250) مسلحا باسلحة بدائية بسيطة افضل ما فيها بندقية سمينوف ، اضافة الى مدفعي هاون عقدة (3) ، في حين قدرت قوات السلطة بما يزيد عن الفي جندي مع تجهيزات جيدة ومع دعم قوى بالمدفعية والطيران.

هنا اتذكر احدى الطرائف . كان عريف الشرطة السابق شبه الأمي عبداللة تشدري آمرا لهيز (أو قوات) منطقة بالك . وكانت وحدة الفدائيين الشيوعيين ، التي يقودها كمال نعمان ، جزءا من هذه القوات خاضعا لعبداللة . وفي احدى الليالي ظهر هذا الاخير في زيارة عمل الى كمال نعمان . جلس الاثنان في شبه كهف تحت صخرة كبيرة . وطلب بمر الهيز عرض خطة الهجوم التي رسمها كمال ليطلع عن كثب عليها . فاستجاب كمال وعرض الخريطة على ضوء اللوكس المشعول ، وهو يشرح ما قرر مع رفاقه . اقترب عبداللة من الخريطة وقرب اللوكس اليها . ولم يكتف باللوكس بل اخرج من جيبه المصباح الكهربائي اليدوي وشعله فوق الخريطة . ثم لبس نظاراته المكبرة واخذ يتفحص الخريطة . وبعد دقيقتين أو ثلاثة من النظر بغباء انسحب الى الوراء ـ والكلام لكمال نعمان ـ دون ان يفهم شيئا من الخطة او الخريطة.

في صبيحة 12 آيار وبعد اطلاق القذيفة الثالثة من مدفع الهاون الصغير صدر الامر الى الفدائيين ، بضمنهم قسم من مسلحي عزت سليمان بط القريب منا سياسيا ، بالهجوم .وفي معركة عسكرية خاطفة الحقوا الهزيمة الكاسحة بالعدو ولاحقوه حتى اقتربوا من معسكر رواندوز. استشهد اربعة من فدائيينا ، بضمنهم الفدائي الشجاع عريف يزنس ، الذي كان آمر فصيل الحراسة حين تسلل الجيش الى الجبل . وحسب المعلومات التي ارسلها رفاق منظمتنا في رواندوز بلغ عدد قتلى العدو 75 قتيلا اضافة الى حوالي 250 جريحا ، اصيبت غالبيتهم جراء سقوطهم في الارض الجبلية الوعرة.

كنت لأزال في (كليته) حين اتى الينا مراسلنا السريع مشيا (عريف نوري) حاملا الينا نبأ الانتصار المفرح فوق الجبل . بادرت الى ارسال جميع مندوبي الكونفرنس ومن حوالينا شطر هندرين كي يشاركوا في جمع ونقل ما يمكن الحصول عليه من الغنائم المفيدة لنا من سلاح وعتاد واجهزة لاسلكية وغيرها . ذهبوا جميعا ، وسبقهم رؤوف قادر ثم عاد نحوهم قبل ان يصعدوا الجبل واخبرهم بأن ليس هناك ما يمكن جلبه ولا داعي لمواصلة السير . فرجعوا ادراجهم دون ان يجلبوا شيئا . وفي وقت لاحق حصلنا فقط على عدد من اجهزة اللاسلكي ، التي جلبها لنا فدائيونا المشاركون في المعركة . واشيع على نطاق واسع بأن الشيوعيين اخذوا واخفوا اسلحة كثيرة لوكان حجم الانتصار الكبير يساعد على خلق وتصديق مثل هذه الاشاعة . وارسلت قيادة الحركة المسلحة الى رفاقنا من طلب منهم عددا من الغدارات بذريعة انها بحاجة اليها كي ترسلها الى الفدائيين المكلفين بالعمليات العسكرية في المدن.

بعد خسران معركة هندرين لجأت حكومة عبدالرحمن عارف الى السلاح الجوي بتكثيف القصف المتواصل . كانت طائرات (هنتر) الانطليزية الصنع ، التي صممت اصلا لاستخدامها في حرب العصابات ضد الفدائيين المااليزيين ، اخطر ما في الجو اذ كانت تطير على ارتفاع منخفض وتسير بسرعة قليلة تجعله قادرة على قصف الهدف فور مشاهدته ودون اية مناورة . وقد قتلت هذه الطائرات خاصة والطائرات الحربية عامة عددا كبيرا من الاغنام والابقار والبغال والكلاب في منطقة بالك وفرضت عمليا منع التجول على البشر وعلى المواشي طيلة ساعات النهار . وكان احد فدائيينا ، ودعي عدنان ـ وهو من بغداد ـ قد خرج من مخبأه للحظات فيما مرت في الجو طائرة هنتر وجعلت منه احد ضحايا هذه الغارات.

وكانت الطائرات السوفيتية الصنع ـ كالميك والباجر ـ تستخدم في الغارات ايضا ، ولكنها كانت اقل قدرة على الحاق الاذى بالفدائيين في هذه الغابات الكثيفة ـ الجبلية ، ربما لانها كانت مصممة للحرب النظامية وحسب . وكانت القاصفات الثقيلة تقوم يوميا برحلة النهار والليل وتلقي بقنابلها كيفما اتفق لتعود بعدئذ ادراجها . ولم اسمع ان تلقى على اية قرية في المنطقة.

كنت جالسا عند الطبيب العربي الشيوعي المجند والهارب من الجيش منذ 1963 د. حسن في مستشفى (ناوثردان) حين جلبت اليه امرأة جريحة . كان منظرا ماسويا مرعبا : امرأة شابة انزلها زوجها من ظهر البغل وطرحها امام الطبيب وهي مغمى عليها ، ويداها مقطوعتان برصاصات المدفع الرشاش من احدى الطائرات . لم يتأثر د. حسن قدر تأثري بالمشهد لأن هذه المشاهد اصبحت يومية بالنسبة اليه . وقد عاد الى الجريحة وعيها للحظات فصرخت بين الهذيان والكلام الطبيعي:

- طيارة . طيارة . جائت الطيارة.

ثم عادت الى الاغمائة . ويظهر ان نزفا كثيرا قد زاد من انهاكها . سألت زوجها ، الذي جلبها وكان اكبر منها بحوالي 20-25 سنة:

- كيف اصبحت على هذه الشاكلة؟
- عندما ظهرت احدى الطائرات كان ابنها الصغير فوق البغل . فركضت اليه ومدت يديها لعلها تنزله من البغل قبل ان ترميه الطائرة . وجاءت رشقة رصاص من الجو اصابت يديها على هذه الصورة.

فكرت مع نفسي قليلا : اية ماساة هذه الحرب وكم من الضحايا الابرياء امثال هذه الأم الريفية المسكينة ! وأين هم الان أولئك المجرمون الذين في ايديهم الامر والنهي ويصدرون الى الطيارين الاوامر بقتل الابرياء.

وكان الزوج المسكين شديد التاثر . وكان اصعب ما يفكر فيه هو أن تعيش زوجته من دون اليدين ـ كما افصح . اذا بقيت بلا يدين فانها سوف لن تستطيع الاسهام في تدبير امور المواشي والبيت ، بل تحتاج دوما الى من يساعدها في الاكل والشرب وفي كل شئ.

شهدت منظرا مأسويا آخر في كهف باسفل قرية (درطلة) . كانت امرأة من تلك القرية قد لجأت مع ابنتها الشابة وطفليها الصغيرين الى ذلك الكهف هربا من الطائرات . والقت طائرة هنتر قذيفة صاروخية الى داخل الكهف فحولت هؤلاء الاربعة الى كدس من اللحم المثروم.

وفي رايات جلس جمع من الفجر داخل احد البساتين تحت الاشجار . وتصاعد الدخان من نار اشعلوها لتهيأة الشاي . فالقت احدى الطائرات صاروخا على البقعة التي يتصاعد منها الدخان . وكان عدد الضحايا 26 شخصا من اطفال ونساء ورجال.

كانت لمعركة هندرين طرائفها ايضا . وقد كلفت قيادة منظمة الاقليم . الدكتور عزالدين مصطفى ، الذي كان موجودا هناك بتحقيق صحفي شامل وكتابة كراسة حول المعركة . وهو قام بذلك فعلا ، ولكن حصيلة عمله لم تطبع مع الاسف . ومن اطرف ما فعله الفدائي العريف عثمان . فقد دخل ، خلال الدقائق الاولى من الهجوم ، خيمة ضباط كانوا قد هربوا تاركين قنينة العرق فوق منضدة صغيرة قبل ان يكملوا الشرب . اخذ عثمان القنينة المليئة حتى منتصفها وجلس هناك وسط المعركة الساخنة ، متكئا على صخرة كبيرة . وبدأ يشرب العرق من القنينة مباشرة وبشكل مثير للفضول . سأله احد المقاتلين:

- ماذا تفعل يا عثمان ؟ هل هو وقت الشرب الان ؟
- دعني لأشرب كل ما في هذه القنينة حتى اغدو حمارا ولا اتراجع الى ان اصل ثكنة رواندوز.

وعثر في نفس خيمة الضابط تلك على رسالة ضابط شاب موجه الى خطيبته او صديقته في بغداد . بعد ابداء سروره العظيم بما نال منها في آخر لقاء بينهما يدعو اللة تعالى الى ان ينهي الحرب ويفرجها عليه وعلى الجنود وعلى العصاة معا.

وكانت لمعركة هندرين نتائجها السياسية الهامة ايضا . قبل المعركة كانت الكلمة الحاسمة لكبار الضباط ، الذين كانوا يتشبثون بالحل العسكري للمشكلة . وعبثا حاول رئيس الوزراء آنئذ عبدالرحمن البزاز تحقيق هدنة والدخول في مفاوضات مع الملا مصطفى البارزاني . وبعد هزيمة الجيش الشنيعة وتحت تأثيرها عادت الكلمة الحاسمة الى رجال السياسة المدنيين فقبل البزاز باتفاق 29 حزيران 1966 واصدرت السلطة بيانا تضمن مطالب للاكراد اقل من الحكم الذاتي . لكن البارزاني قبل بها لأنه كان يرغب في ايقاف القتال مع الحكومة والتفرغ لضرب الجناح المتمرد عليه والمتعاون مع السلطة منذ اوائل صيف 1966 ، واعني جناح ابراهيم احمد ـ جلال الطالباني ومن كان معهم من اعضاء المكتب السياسي السابق للثارتي ، الذين كانوا قد عادوا من همدان في 1965 على اثر المصالحة مع البارزاني . ورغم ان الهدنة المذكورة خففت من المشاكل والمآسي بعض الشئ الا انها لم تضع حدا للحرب الاهلية ، بل تحولت الحرب الى مقاتلة الاكراد بالاكراد.

لم يستشرنا احد ، ولم اسمع ان يستشار غيرنا في ابرام هدنة 29 حزيران . وقد كتبت مقالا نشر في جريدتنا الاقليمية (ريطاى كردستان) وكرس لمناقشة الاتفاق . انتقدت نقاط الضعف في الاتفاق وتنبأت بأن الهدنة لن تقود الى حل وطيد للمشكلة الكردية ولن تدوم طويلا ، بل سيتجدد القتال ، خاصة في ظروف غياب الديمقراطية في البلاد واستمرار الحكم العسكري والاوضاع الاستثنائسة . وهكذا سارت الامور عمليا.

طيلة ايام القصف الجوي المكثف بقي الكهف الحصين خلف قرية كليته مقرا لنا . كان البعوض يزعجنا ويؤذينا في الليل وحتى في النهار عندما نكون خارج الكهف . لكن البعوض لم يدخل الكهف ابدا ، لا في الليل ولا النهار ، لسبب لم اعرفه . ولازلت اتذكر بأي تلهف سمعت ذات ليلة صوت أم كلثوم البديع في اغنية (بعيد عنك) . وكنت احس بوطأة البعد عن الفتاة التي بادلتها الحب في بغداد.

بعد بيان 29 حزيران انتقلنا من الكهف الى قرية درطلة واتخذنا من مدرسة القرية مقرا لنا . وربطت بيني وبين آغا القرية المسن سليمان بط ، الذي لم يكن ثريا ، علاقة ودية . وكان هذا الاغا من مرافقي البارزاني في تمرده على السلطة وذهابه الى

مهاباد ، اثناء قيام جمهوريتها ، ثم الى الاتحاد السوفيتي كلاجئين . وهو كان شيخا طيب القلب وسخيا ومنكتا . وعندما كان يجري النقاش حول ما يمكن ان يسفر اتفاق 29 حزيران ، روى سليمان بط لنا النكتة التالية : عاد صبي الى بيته شديد التألم حزينا . فاستفسرت منه امه عن السبب . قال:

- ان احد الاطفال شتمني شتما غريبا.
- وما هو هذا الشتم الغريب ؟
- حول الشاتم قضيبه الى مابين فرج أمي ودبرها . وهذا سبب لي الحزن العميق.
- لاتحزن ولاتهتم بالامر يا ولدي ! فالقضيب لن يستقر بين الاثنين ولابد ان ينزلق الى احدهما.

والوضع بعد هذا البيان ـ علق سليمان بط ـ لن يظل معلقا حتى زمن طويل ، بل لابد من ان يستقر في احدى الحالتين .
كانت هناك حفلة عرس في القرية . واحتشد القرويون والفدائيون في دبكات وأغان بساحة المدرسة . وكما هي العادة في الريف جرني سليمان بط معه للمشاركة في الدبكة . وتحمس عضو مكتب الاقليم احمد بانيخيلاني فاخرج مسدسه وبدأ يضرب الرصاص في الهواء . لم يلبث ان ارتفع الصراخ في الجانب الاعلى من القرية وانقلب العرس بكاء . كانت زوجة زرار سليمان بط ، وهي شابة سوفيتية تزوجها اثناء وجوده مع والده هناك ، قد اصيبت في عضدها بطلق ناري من مسدس بانيخيلاني . وحين عرف سليمان بط بذلك علق على الحادث فقال:

- شكرا للة على ان المصابة كانت من عائلتنا ، رغم ان ابني زرار لن يرضى باربع نساء منكم كبديلة عن زوجته هذه فيما لو توفت.

****

بعد وصولي بأيام الى قرية كليته اصبت بعرق النسا واصبحت اسير كتكئا على العصى . ورغم ذلك قررت زيارة الملا مصطفى البارزاني والمكتب التنفيذي للثورة الكردية . وجوابا على طلبي حدد البارزاني موعد لقائي به في نادي الموظفين السابق بقرية طلالة في المساء . وفيما كنا جالسين هناك ظهرت طائرة باجر وهرب الناس مذعورين الى خارج القرية فيما بقينا ، البارزاني وأنا ، دون حراك . وقد القت الطائرة قنبلتها الضخمة على بعد مئات الامتار من القرية وعادت ادراجها .
كانت زيارتي للمجاملة فقط ، بعد ان اصبحت سكرتيرا لمنظمة ح.ش.ع في الاقليم . وأبرز ما لاحظته خلال الحديث هو ان البارزاني كان مهتما بمسألة الحصول على المساعدة السوفيتية . وقد كاشفني بذلك وطلب منا ، نحن مسؤولي ح.ش.ع ان نبذل الجهد لتحقيق ذلك . وكتبت بهذا الصدد في حينه الى قيادة الحزب.
وتوجهنا فيما بعد ، أنا واحمد بانيخيلاني وعادل سليم ، الى مقر المكتب التنفيذي للثورة الكردية ، الموجود في قرية بسفح قنديل . وفي طريقنا زرنا نوري شاويس وعلي عبداللة ، عضوي المكتب السياسي السابق في الثارتي ، اللذين كانا يقيمان في قرية (ولزي) ورفضا الانضمام الى التمرد الذي قاده ابراهيم احمد . وقد باركت لهما هذا الموقف وحثثتهما على الثبات فيه .
وفي المساء انتقلنا الى قرية اخرى لنبيت ليلا عند رفيقنا عامل الطباعة ابو شامل ، الشاب الشيوعي الكلداني الذي كنا قد وضعنا خدماته تحت تصرف الثارتي لطبع جريدته (خبات. (
زارنا لدى ابو شامل منظمي الحزبي السابق حميد عثمان ، الذي كنت قد التقيت به لاخر مرة في ايلول 1958 ، يوم كان عضوا في المكتب السياسي للثارتي ، سألته عما اذا كان قد عاد الى الثارتي . فاجاب:

- كلا لم اعد الى الثارتي ، بل انا مجرد ممثل شخصي للبارزاني.
- لكنك تعمل الان ، كما سمعت ، في جريدة (خبات) الناطقة بلسان الثارتي.
- نعم رئيس تحريرها.
- وكيف يمكن ان يكون رجل لا حزبي رئيسا لتحرير جريدة حزبية مركزية.
- في حزب كالثارتي تسير الامور على هذا المنوال.

كانت هذه مسألة غريبة بالنسبة الي اذ كيف يستطيع شخص لا حزبي التعبير عن سياسة وافكار حزب ما ؟ لكنه شأن خاص بالاخرين . بادلت الحديث مع حميد عثمان حول الوضع السياسي في العراق عامة والثورة الكردية على وجه الخصوص .
وفي مجرى الحديث ادلى حميد بمقولتين طالما رويتهما في شتى المناسبات.
في مقولته الاولى اورد المثل الشعبي الكردي : ((في يدي عصى مخري بها من الرأسين)) وأضاف : ان العصى الموجودة في ايدينا مخري بها من وسطها ايضا.
وفي مقولته الثانية قال ((انه لرائع ان يخرج المرء من هذه الثورة ـ الثورة الكردية ـ ويقول عنه الناس انه لايزال وطنيا)) .
وكنت متفقا في اعماقي مع كلتا المقولتين.
في اليوم التالي وصلنا المكتب التنفيذي ، بدا لي هيأة صورية هزيلة لا حول لها ولا قوة . كان المسؤول عن المكتب التنفيذي علي سنجاري ، ومعه رجلان اميان سياسيا وغير محسودين على مستواهما ـ نافذ جلال ومحمد امين . وقد اثار احدهما ضجيجا اخجلنا نحن الضيوف ، لا لسبب سوى ان الغداء قد تأخر قرابة نصف ساعة ، ونهض وابتعد خطوات محتجا . وعندما قيل له ان الدجاجة لم تستو بعد ابتسم ورجع ليجلس في مكانه اشبه بطفل استجيب لطلبه . ووجدت نفسي مرغما على ان اتساءل مع نفسي : أي مكتب تنفيذي للثورة وأي نجاح يمكن انتظاره لثورة يكون تنظيمها على هذه الشاكلة.

****

كان مكتب الاقليم يتكون مني ومن احمد بانيخيلاني وعادل سليم ويوسف حنا القس ، فيما كان اعضاء لجنة الاقليم الاخرون موزعين على تنظيماتنا في المحافظات . وقد عقدنا أول اجتماع للجنة الاقليم ـ اثناء وجودي هناك ـ في صيف 1966 وكنت قد هيات التقرير الذي اقره المكتب ليعرض على الاجتماع . النقطة الجديدة التي خرجت بها على التقاليد السائدة في اجتماعاتنا الحزبية كانت تتعلق بتقييم مكرس لشخص الملا مصطفى البارزاني من حيث وضعه الفكري وانتماءه الطبقي وكفاءاته .. الخ . وبموجب هذا التقييم وضعنا البارزاني ضمن ممثلي الطبقة البرجوازية الكردية من الجناح الذي يحمل خليطا من العقليات الفلاحية ـ العشائرية ومن عقلية مثقفي العصر الماضي ، ويعتمد في عمله الاساليب العشائرية . وأكد التقييم انه زعيم وطني وقومي يخدم شعبه . واخطأنا في التقييم بالنسبة لموقف البارزاني من الشيوعية اذ ذكر التقييم انه لن يكون ابدا من المعادين للشيوعية . وقد عممنا الفقرة الخاصة بتقييم البارزاني فقط على لجان المحافظات طالبين عدم نشرها والاحتفاظ بها كوثيقة سرية . وظهر ان فاخر مرطةسوري خرق هذا القرار في وقت لاحق وربما اوصلها الى عائلة البارزاني ايضا لتأكيد ولائه الشخصي لها.

****

حين توليت قيادة اقليم كردستان كانت منظمتنا الحزبية في الموصل منقسمة على نفسها ، يسير قسم منها وراء مصلح الجلالي ، الذي كان عضوا في لجنة الاقليم ، والقسم الاخر ـ واغلبيته من الشيوعيين الكلدان والاثوريين ـ وراء توما توماس . وبعد التحقيق والتدقيق توصلنا الى قناعة تامة بأن مصلح ، الذي اوفر سابقا لقيادة المنظمة الحزبية في تلك المحافظة ، لم يكن عنصر انسجام ابدا ـ طبعا دون ان ابرئ سلوك توما من التقصير . وقد اوفدنا علي البرزنجي ليحل محل مصلح الجلالي وتمكن من رأب الصدع واعادة توحيد المنظمة.

وبحكم القرب من سوريا كلفت علي بزيارة دمشق لغرض فتح الطريق امام السفر ذهابا وايابا ولاقامة الصلة مع الحزب الشيوعي السوري . وبمجرد الصدفة وجد رسولنا البرزنجي عزيز الحاج ، الذي كان قد وصل من براغ الى الشام اوائل 1967 . وقيل انه كان شديد التردد في المجئ الى العراق ، بل كان قد قرر العودة الى اوربا لولا نقد خالد بكداش له ووصول البرزنجي اليه في الوقت المناسب . وقد نقله هذا الاخير ، عند عودته ، الى مدينة الموصل ليسفر من هناك الى بغداد في وقت كنت موجودا هناك للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية شباط 1967 . اوصلت عزيز الحاج الى الكادر الحزبي عزت ، الذي كان يسكن وكرا حزبيا سريا ، ليقيم عنده بعض الايام . بعد 3-4 أيام أتاني عزت ليقول لي:

- انا لا أعرف ، ولاأريد ان اعرف ، من هو ذلك الرفيق الذي جلبته للسكن معنا . لكني اجزم انه جبان للغاية واذا وقع في قبضة السلطة لاأتوقع فيه الصمود ، بل سينهار فورا ويقدم كل ما لديه من معلومات.

حاولت تبرير موقف الحاج بذريعة انه لم يتعود بعد العيش في مثل هذه الظروف . لكنني لم اكن بنفسي مقتنعا بالاراء التي قدمتها بهذا الصدد.

****

استلمنا ذات يوم محضر اجتماع لجنة المحافظة ، التي كان يقودها فاتح رسول وفو جئنا بمناقشة غير اعتيادية وغير متوقعة في تلك الظروف على الاقل . فالمحضر يعرض رأي فاتح او اقتراحه الى اللجنة ، بحل تنظيميات ح.ش.ع في اقليم كردستان وانضمام الشيوعيين الى الثارتيين لتكوين حزب ديمقراطي . وقد وقف ضد الاقتراح اغلبية اعضاء لجنة المحافظة . وذكر البعض بيننا بما حدث في 1957 من حدث مشابه في منطقة كردستان وأدى الى خروج بعض الكوادر من صفوف ح.ش.ع وانضمامهم الى الثارتي.

وقفت من جانبي ضد أي عقوبة او اجراء انضباطي ازاء فاتح رسول بسبب تبنيه هذه الفكرة وعرضها على لجنة المحافظة . واكتفينا بارسال جواب رفضنا فيه الفكرة وأوردنا مبررات الرفض وانتقدنا فاتح نفسه . وقد عممنا الجواب على لجان المحافظات الاخرى لغرض الاطلاع والتثقيف.

****

في آب 1966 صعدت برفقة زرار سليمان وبضعة فدائيين جبل كاروخ الشاهق الذي لاأستبعد ان يكون اسمه آشوريا قديما . اقمنا هناك بجانب حفرة مليئة بالثلوج الابدية وكنا نخرج الثلج لنذيبه من اجل الشرب والطبخ والغسل . في الليل تفرجت من هناك على نيران النفط في كركوك . وفي النهار تفرجت على منطقة بالك . هي منطقة عجيبة وبديعة ، تشبه مشتلا حقيقيا للجبال اوجدته الطبيعة في وقت ما من عمر هذا الكوكب . تشكل سلسلة جبال كاروخ وهندرين وزوزك وقمة (حسن بط) وجبل (حساروست) في الجنوب والغرب حزاما جبليا لها فيما تشكل سلسلة قنديل ـ حاجي عمران حزامها الشمالي . وفي هذه المنطقة بالذات ، وفوق جبل حساروست انتصبت قمة (هلطورد) التي تشكل اعلى بقعة جبلية في العراق . وفي سفوح حساروست وجدت قرية روست ـ طرتك ، البديعة بمناظرها الجميلة والغنية ببساتينها ذات الفواكه المتنوعة . وقد انمحت هذه القرية كليا في السبعينات على يد صدام

يدخل شارع ، مبلط ومنحوت في العديد من اماكنه نحتا ، الى منطقة بالك قادما من اربيل واصلا الى ايران . اهتم الانطليز في وقت مضى بانشاء هذا الشارع ليس بمعزل عن الاغراض العسكرية . واقرب نقطة من الشارع الى مقرنا تدعى (حافيز) وهي تحوير لكلمة (اوفس) الانطليزية ومن مخلفات الايام التي اشرف خلالها الانطليز على انشاء الشارع .
وفي قمة موضعية (أو شتلة من الشتلات الجبلية) تدعى (مامه روته) يبحث الفلاحون حتى الان عن مخلفات الجنود الروس ، الذين وصلوا الى هنا ابان الحرب العالمية الاولى ، في طريقهم الى رواندوز . ويقال ان البعض حصل على خوذ وبنادق روسية قديمة.
ان سفوح كاروخ المطلة على منطقة بالك ستصبح ذات يوم من اجمل المصايف ان لم تكن اجملها اطلاقا ، في هذا البلد . فالجو معتدل أو بارد والمناظر خلابة والمجال فسيح لانشاء الشوارع والحدائق والفنادق وبيوت الاستراحة وخطوط التل فريك ومختلف منشآت الاستجمام والرياضة.
وبعد سفرة كاروخ بأيام ذهبت مع عزت سليمان الى جبل حساروست وصعدنا قمة (هلطرد) . كنت جالسا مع الشاعر احمد دلزار في 10 أيلول 1966 ، نتفرج من قمة الجبل على احواض ماء بديعة وكأنها من صنع الانسان وسط الجبل . تجمعت الغيوم وسقطت ثلوج - وهي المرة الاولى والاخيرة التي شاهدت فيها سقوط الثلوج في مثل هذا الوقت المبكر . في المساء نزل زملائي الى شبه كهف يبعد عن القمة فقط 300-400 متر . في حين اصررت على ان انام فوق اعلى نقطة لاكون اعلى من جميع العراقيين في تلك الليلة . كنت املك كيس نوم من الريش يقي من البرد . وبقي معي فدائي واحد من اهالي خانقين اسمر كبير الشاربين ، كنا ندعوه (ضاثاييف) . شربنا قنينة البيرة اليتيمة وشربنا القهوة قبل غروب الشمس . وبعد 45 دقيقة أردنا تسخين بقايا القهوة فوجدناها متجمدة تماما.
كنا متغطين ونحن نتحدث الى بعضنا . سألت ضاثاييف:
 ماذا يعجبك الان ؟ قل دون تحرج او خجل.
فاجاب الفدائي ذو المنشأ الريفي:
 تمنيت لو اكون خيالا في الليل واقترب من بيت الشعر ، الذي تقيم فيه حبيبتي . وعندئذ اربط حصاني على بعد 5-6 دقائق واذهب مشيا واتسلل الى بيت الشعر من احدى زواياه . واحضن حسنائي ، فيسقط رزاز المطر عبر ثقوب البيت الشعري على وجهي وانا أقبل وجه الحبيبة.
صعدت جبل هندرين ايا . كنت بصحبة آمر احدى السرايا من فدائيينا العم صديق ديوانه ، الذي كان يحمل بندقية برنو وكان يعتبرها اجمل وأفضل بندقية في العالم . وكان معنا شاب صغير من شغيلة المقر وابن حائك من جيراننا القدامى في مدينة السليمانية . تفرجت هناك على معظم الربايا الست والثلاثين ، التي اقامها الجيش خلال الايام العشرة من تواجده هناك في آيار 1966 . وصعدنا قمة (كثكمو) التي هي اعلى قمة فوق الجبل . وقبل ان نعود افلح العم صديق في قتل معزة جبلية حملناها الى مقرنا في درطلة واكلنا منها اكثر من ثلاثين كغم من اطيب اللحوم.
يوم جلست فوق قمة هلطورد ، وأنا في اواخر العقد الرابع من عمري ، ذكرت عائدة ، الفتاة الشيوعية التي بادلتها الحب . في شبابي لم ابادل آي فتاة الحب . كانت عائدة أول فتاة احببتها . وقد كاشفتني هي في آذار 1966 بأنها تحبني . وبعد سفري الى كردستان كنت اتلقى منها الرسائل الغرامية الحارة وأجيبها بمثلها . ومن فوق قمة هلطورد كتبت اليها رسالة حب ساخنة اعترفت لاحقا بأنها اجمل وأحر رسالة غرامية تلقتها مني . في تلك الايام كنت اسمع كثيرا اغنية ام كلثوم (بعيد عنك) وكأنها مغناة خصيصا لأمثالي . وكتبت الي عائدة في احدى رسائلها بأنها تستمع بشغف الى اغنية (أنا بستناك) لنجاة الصغيرة.
****
منذ انقلاب شباط 1963 بدأ الشيوعيون بالمساهمة في الكفاح المسلح القائم في كردستان . في مناطق سيطرت المكتب السياسي للثارتي لم يسمح للشيوعيين بحيازة وحمل الاسلحة . هو جموا وجردوا من اسلحتهم في اكثر من مكان . وسمعت ان سكرتير للثارتي ابراهيم احمد كان قد عمم بعيد الانقلاب برقية على تشكيلات حزبه طلب فيها المزيد من مضايقة الشيوعيين وبهذلتهم . وقد قتل عدد من الشيوعيين في منطقة (بمو) على ايدي الفدائيين الثارتيين . وكان اسوأ ما في الحادث ان قتل علي العسكري بمسدسه الشخصي اثنين من الشيوعيين الذين وقعوا في اسره بعد معركة بمو . على ان بعض الشيوعيين ، خصوصا من الضباط العرب الذين وصلوا الى كردستان ، وجدوا في مناطق سيطرة المكتب السياسي ايضا الملجأ الامين . وقد نقل البعض منهم من بغداد الى كردستان من قبل مسؤولي الثارتي امثال جلال الطالباني مباشرة.
وفي مناطق سيطرة البارزاني اختلف الوضع ولم يجرد أي شيوعي من سلاحه بل وفر لهم مكان للتجمع والاقامة واستفيد من كفاءاتهم . وحين اصبحت سكرتيرا للاقليم كانت لنا سرايا فدائية مسلحة تابعة عسكريا لقيادة البارزاني في مناطق بالك وقرةداغ وطرميان وبتوين وبهدينان . واستفاد البارزاني من كوادر شيوعية في مجالات الطبابة والتكنيك . وكان احد هؤلاء الكوادر الملازم الشيوعي الاشوري يوسف ، الذي اصبح مديرا لمعمل فني صغير للانتاج الحربي.
طلبنا من الملازم يوسف صنع قنابل لنا لنزود بها فدائيينا ، خاصة في بعض المدن . فطلب بدوره شراء بعض المواد التي تدخل في صنع هذه القنابل . وكان ضمن طلباته قنينة عرق . لم اعرف ما اذا كان يريدها لنفسه أم كجزء من المواد لتصنيع القنابل . واشترى مسؤولنا المالي عادل سليم المواد المطلوبة وأوصى بنقلها من برسرين الى المعمل مباشرة . وبعد ايام اثير

ضجيج بين بعض الفدائيين حول تناول المشروبات في مقر قيادة الاقليم ، وكان ذلك خلاف الحقيقة . فاجرينا تحقيقا في الامر واتضح أن بعض فدائيينا ـ بينهم تحسين محمد خليل ـ كانوا قد سرقوا قنينة العرق بين المواد المشتراة للملازم يوسف ، وشربوه ثم اثاروا هذا الضجيج ضدنا.
وفي واقع الحال لم يكن بيننا من يبحث عن المشروبات الروحية . نادرا ما كنا نشرب . وكنت شخصيا اكره العرق العراقي بوجه عام . وكان بين فدائيينا عدد قليل من الراغبين في الشرب الكثير . وتحت الحاح وتحريض هؤلاء قررنا شراء قناني من العرق المحلي ، الذي كان يصصنع في بعض بيوت الاثوريين بقرية ديانا ، ليقدم في حفل بمناسبة ذكرى ثورة اكتوبر ، على الا يكون هناك افراط وسكر . ولما قدمت اقداح المشروب الى المحتفلين ليرفعوا انخاب اكتوبر اعتذر طباخ المقر عبدالله ـ وهو رجل قصير القامة هادئ وكهل من اهالي السليمانية ـ عن اخذ القدح مدعيا انه لايتعاطى الشرب . فألح عليه الساقي وناوله قدح العرق . ومع اول جرعة انكشف امر الطباخ كخبير بالمشروبات اذ قال فورا : ((انه عرق ديانا القواد! ((
****
كان الضابط البغدادي المقدم سعيد مطر ، الشيوعي الهارب من بغداد منذ 1963 ، أمرا لسريتنا الفدائية في قرداغ . وكان محترما و محبوبا كثيرا بين فدائييه الاكراد و الناس حواليه في المنطقة . وكان هناك الكثيرون من الراغبين في الانضمام الى سريته . لكن شحتة السلاح كان عائقا . فقرر التوجه بنفسه الى مقر البارزاني و طلب البنادق و المال. وحين وصلنا في درطلة كان متفائلا ، معتقدا ان طلباته ستستجاب اخذا بنظر الاعتبار انه ضابط عربي وضع خدماته تحت تصرف الحركة الكردية المسلحة . وبعد 3-4 أيام عاد مطر من مقر البارزاني الينا متكدر المزاج وحلف أمامنا بأنه لن يحمل السلاح مرة اخرى في كردستان وفي ظل الوضع السائد . وحين سألنا عن السبب أجاب:
- شرحت حاجتنا الماسة الى المال و السلاح ولم احصل هناك على شئ سوى (120) دينارا ، وعدت بخفي حنين . وجاء الى هناك اقطاعي من اغوات ثشدر يدعى علي آغا ، وهو الذي انتقل اكثر من مرة بين الثورة وبين السلطة ، فحصل على عشرين بندقية وأربعة آلاف دينار.
وقد نفذ سعيد مطر ما قال اذ لم يعد الى سريته ، بل اقام في مكان ما قريبا منا.
****
لم نتردد في ادانة التمرد الذي اعلنه فريق منشق من الثارتي ، بزعامة ابراهيم احمد ، ضد البارزاني . وجدنا في هذا التمرد رضوخا للسلطة وسميناه في أول بيان صادر من قيادة منظمة الاقليم موقفا خيانيا . واوصينا مسلحينا بالمشاركة في مقاتلتهم . وقاتلوهم فعلا في منطقة قرةداغ . الا اننا ظللنا ننظر الى الجناح المتمرد كمنظمة سياسية قومية سائرة على نهج خاطئ وحتى خياني وقابلة لأن تغير هذا النهج وتعود الى المعسكر الاخر . ومن هنا اختلف موقفنا عن موقف الثارتي والبارزاني ازاء المتمردين . وقد تعرضنا لضغط شديد كي نتخذ موقفا مماثلا لموقف الثارتي ونسمي المتمردين جحوشا خونة . وخلق ذلك متاعب جدية لنا واصبحنا أمام الاختبار الفعلي لمعرفة ما اذا كنا نحتفظ باستقلالية الموقف أم نكون تابعين لغيرنا . وشارك الكادر الشيوعي الفدائي فاخر ميطة سوري ـ وهو ابن خال الملا مصطفى نفسه ـ في ممارسة الضغط علينا لحملنا على اتخاذ الموقف الذي يرضي الثارتيين . تضح لاحقا أن موقف فاخر هذا لم يكن بمعزل عن صفقة سرية كان قد ابرمها مع عائلة البارزاني.
كنت حريصا على ان تبقى العلاقة الطبيعية والودية بيننا كشيوعيين وبين الملا مصطفى البارزاني . وبهذا الدافع ذهبت بصحبة احمد بانيخيلاني والملازم نعمان التميمي ، الذي كان قد اصبح قائدا لفدائيينا في بالك بعد كمال نعمان ، لزيارة البارزاني ، الذي كان لايزال مقيما في مقره الصيفي بالحاج عمران خلال الشهر العاشر من 1966 . اردنا تهدأته وتجنب انفجار غضبه بسبب تباين مواقفنا ازاء تمرد المنشقين عليه . كان له مضيف عام وآخر خاص واحيانا مضيف أخص . كنا جالسين مع جمع من الضيوف في حضور البارزاني نفسه حين اعلن قائلا:
 سلمت 16 ألف دينار الى آمر هيز بالك عبداللة آغا لينفقها على الثيشمرطة ولكنه سرق المبلغ ولم ينفق حتى ألفي دينار على الثيشمرطة.
تراءى لي أن آمر الهيز ، هذا الحرامي الكبير ، سيسجن أو يعدم على اثر هذه الادانة الصريحة . وبعد عشر دقائق قدم عبداللة نفسه وجلس بيننا في المضيف . وقدم كذلك آمر البتليون البهديني علي هالو شاكيا على سائق احدى السيارات لأنه رفض نقله من دربند رايات الى حاج عمران. بعد اخذ ورد طويل جرت تسوية مشكلة علي هالو بعد ان تدخل البارزاني وأمر بجلب السائق وضربه وتجريده من السلاح وسجنه . لكن السارق الكبير عبداللة آغا لم يمس بسوء على جريمة، بل بقي في مركزه العسكري كآمر هيز لسنوات اعقبت ذلك التارخ ايضا.
وفر البارزاني فرصة اللقاء معه على بعض الصخور في الهواء الطلق . تبادلنا اطراف الحديث في جو ودي . وأظن انه لم يضمر شيأ ضدنا في تلك اللحظات . غير انه كان هناك من يحرض ضدنا ويصب النفط على اللهيب.
بعد ذلك اللقاء بحوالي الشهرين ، أي في كانون الاول 1966 ، توجهت بصحبة عضوي مكتب الاقليم احمد بانيخيلاني وعادل سليم الى قرية ديلمان في سفح قنديل ، حيث كان المقر الشتوي للبارزاني ، تلبية لطلب منه . في الساعة العاشرة مساءا دخلنا

المضيف الخاص ، وكان يجلس هناك شاب في زيه الكردي التقليدي . وأخبرني احمد بانيخيلاني أنه بايز ابن عباس مامند رئيس عشيرة آكو . وتراءى لي ان احضاره هناك ليسمع هذا الحديث الخاص كان شيأ مقصودا من البارزاني.

 جئناكم بناءا على طلبكم ـ قلت للبارزاني ـ ولسماع ما تتفضلون به.

 اريد منكم ان تقتلوا هؤلاء الكلاب.

 ومن هم هؤلاء المطلوب منا قتلهم ؟

 اقصد جله وبله (أي جلال الطالباني وابراهيم احمد. (

قررت فورا ان احاول اقناعه بالكف عن هذا الطلب ، فقلت له :

 لكن هؤلاء في بغداد وتحميهم مفارز مسلحة من رجالهم ومن رجال السلطة في حين لانستطيع نحن التواجد الا في وضع الاختفاء . فكيف يمكن لنا قتل هؤلاء ؟

 ان تقتلوهم هناك اسهل من ان يأخذ عادل نفسا من سجارته (وكان عادل مدخنا وفي يده سجارة. (

سكت قليلا ثم استأنف الحديث فقال بلهجة لم تخل من التهديد:

 انا املك حوالي هذا البيت مئتي مسلح ... ان تقتلوهم في بغداد اسهل من اقتلكم هنا .

اطلنا النقاش والمحاججة واستخدمنا كل قدراتنا لاقناعه برأينا ولكي يعفينا بنفسه عن هذه المهمة دون ان يغضب علينا . لكنه اصر بثبات وحزم على وجوب قيامنا بهذه المهمة . واخيرا وجدت نفسي مضطرا على ان اغير لهجتي في الحديث ، فقلت له بالقلم العريض:

 لك حزبك ـ الثارتي وتحت تصرفك الفدائيون والمال والسلاح ، ةبامكانك ان تكلف رجالك بهذه المهمة ونحن نبقى حزبا صديقا مستعدا للتعاون معكم فقط ضد السلطة.

 اريد منكم قتلهم ، ولا اطلب ذلك من غيركم.

 اود ان احيطكم علما بان القيام بمهمة كهذه لاينسجم مع اخلاقنا ومبادئنا . نحن لم نقدم على قتل شيوعيين خانونا وسلموا للعدو اسرارنا . نحن اصدقاء كم ومستعدون لمقاتلة السلطة كحلفاء لكم . لكننا لسنا مستعدين لقتل اناس امثال هؤلاء .. كلف من تشاء من رجالك ولاتنتظر منا مثل هذا العمل.

نظر الي والى رفيقي نظرة مليئة بالغضب وقال بلهجة حازمة:

 اذا لم تقتلوهم فاني ساصدر الامر بتدمير ما يسمى بفرع كردستان للحزب الشيوعي وبقتل وملاحقة الشيوعيين في جميع انحاء كردستان.

 في مناطق سيطرة الحكومة عملنا طيلة عمرنا في ظروف العمل السري . ولانزال مختفين في تلك المناطق . وسنعمل مختفين في مناطق سيطرتكم ايضا.

 اعطيكم مهلة شهر واحد .. اذا لم تنفذوا ما طلبت فسأصدر الاوامر ضدكم واجعلكم تندمون.

 لن يتغير موقفنا ولن تنفذ مثل هذا الطلب.

توقف عن الكلام قليلا ثم قال:

 انه الشتاء . ولهذا امهلكم حتى نهاية شهر شباط . وبعدئذ سأصدر الاوامر ضدكم.

نحن ثبتنا على موقفنا ولم نتزحزح قيد شعرة . كان بايز يسمع بنوع من الاستغراب ما يدور من حديث . واظن ان موقف التحدي الذي جابهنا به البارزاني اثار اعجاب هذا الشاب الاقطاعي وعزز فيه الروح المعنوية . وقد غادرنا ديلمان ونحن متفقون على ان نمارس الضغوط الممكنة على البارزاني لحمله على التراجع وعدم تنفيذ تهديداته . ولم ينفذ فعلا تلك التهديدات ولكني ادخلت منذ ذلك اليوم ضمن قائمة المغضوب عليهم بالنسبة اليه.

****

كان فاخر ميرطة سوري لايزال على صلة حزبية ، وان غدت واهية ، معنا حين تلقيت منه رسالة ـ وأظن انها كانت في شباط 1967 ـ مفاذها ((ان حكم الثورة قد نفذ في الخائن جلال الطالباني ، فاعدم رميا بالرصاص)) . تصورت للوهلة الاولى وكأن الطالباني قد اختطف وجلب الى منطقة بالك وقتل . وسرعان ما اتضح ان الامر ليس على هذه الصورة.

فكتبت بدوري رسالة مستعجلة الى فاخر اوردت فيها استفسارات وطلبت من الجواب الفوري مع المراسل . تهرب فاخر من الاجابة طيلة يومين. ثم اجابني بشكل اوجد لدي الشكوك ليس فقط حول صحة الخبر ، بل كذلك حول علاقته الشخصية بما كتب عنه الينا . وبعد ايام استعدعيته وحققت معه واحرجته باسئلة معينة . فاعترف امامي بانه اتفق مع بعض ابناء البارزاني على تدبير قتل الطالباني . واتضح انه كان قد استلم لهذا الغرض الاسلحة والنقود وتعهد بالتنفيذ.

أما كيف نفذ حكم الاعدام المزعوم ، فاليك ما ذكره فاخر بنفسه امامنا:

 سلمت مبلغا من المال الى عميل للامن العام كردي مقيم في اربيل يدعى عبدالوهاب ، لقاء مشاركته في تدبير اغتيال جلال الطالباني . وبعد ايام كتب الي عبدالوهاب يخبرني انه اتفق مع عميلين بعثيين للامن العام في بغداد لكي يقوما بالاغتيال . وقال هذان لعبدالوهاب بانهما سنفذان المهمة في الساعة كذا من يوم كذا ، كما اخبرني هو . وفي الموعد المحدد ، وقبل التوثق من صحة ما سيكون ، اخبرت البارزاني برسالة مستعجلة بأن حكم الاعدام قد نفذ في الخائن الطالباني.

هكذا تورط فاخر نتيجة تصديق ما قاله بعض الجواسيس . وورط البارزاني معه وعمم الاخير خلاصة الخبر في برقية الى مقرات الثيشمرطة ، كما اخبر في نفس اليوم وزير الدفاع شاكر محمود ، الذي التقى به في برسرين ، بان الطالباني قد صفي . فاجاب الوزير انه لم يسمع شيأ من هذا القبيل.
ويبدو ان المكتب السياسي للثارتي صدق الخبر في بادئ الامر ، ولكنه اخذ يشك بعدئذ . وقد سال احدهم رفيقا لنا عن معلوماتنا بهذا الصدد فاجابه:
 لم نعرف مدى صحة هذه الاشاعة . لكن من المؤكد ان الخبر لم يات من اربيل الى هنا بل نقل من هنا الى اربيل.
انهينا العلاقة الحزبية مع فاخر بعد ان اتضح لنا ، على اثر الحادث المذكور ، انه نقل خدماته فعلا الى جهة اخرى ، واعتبرناه منضما الى الثارتي . وفي آخر لقاء معه ابلغته بمايلي:
 انهم سيرفعونك ويضعونك في طوابق عليا من المبنى ثم يلقون بك من هناك الى الارض ويهشمون رأسك تهشيما.
وآخر شئ اكتشفناه لدى فاخر ، قبل تصفية علاقته معنا تصفية تامة ، هو انه كان منشغلا بتكوين منظمة جديدة باسم (ثاراستن) ـ منظمة استخبارية تابعة لقيادة البارزاني والثارتي في تلك الفترة ـ وقد تلقينا اكثر من رسالة من شيوعيين سابقين ، وحتى من اناس لم يقطعوا العلاقة الحزبية معنا ، ذكروا فيها ان فاخر اتصل بهم وطلب منهم التعاون في تكوين هذه المؤسسة ، التي اقصي نفسه عنها لاحقا وانيطت مسؤوليتها بمسعود البارزاني.
****
اضئ مقرنا ، لاول مرة ، بالانارة الكهربائية بعد ان شغل نافع المولد الصغير الذي اشتريناه . وكان حدثا هاما أن شعلت لمبة كهربائية في مضيف سليمان بط.
في تلك الفترة استقبل مقرنا ضيفين لايمكن نسيانهما . احدهما عزيز عقراوي ، الذي كان آمر هيز هيران في الحركة المسلحة وجاء ليبقى عندنا ليلة واحدة ولكن الثلوج اضطرته الى البقاء اياما . كان رجلا غريب الاطوار ، ضابطا هرب من الجيش والتحق بالحركة المسلحة وبقي من القلائل الذين لم يغرهم المال ولم يسوء سلوكهم . على ان الاعجب هو انه كان يحمل معه كدسا كبيرا من الاوراق وكان منشغلا بتأليف قاموس كردي . وكان جديا في عمله . وسمعت في وقت لاحق انه انجز قدرا من عمله وطبعه.
ضيفنا الثاني ، الذي قدم في آب 1966 ، كان الشيخ لطيف الحفيد ، الذي كان يبحث على الدوام عن النكات والطرائف المضحكة . وفي مجلس عام سأل سليمان بط عن عدد النساء اللائي تزوجهن شيخ قرية ماوليان في زمانه فاجاب الاخير:
 انه تزوج من اثنتين واربعين امرأة.
 انني احسدة على ذلك وافتدي قضيبه المبارك.
وقد سألته عن رأيه في الوضع السياسي بعد اتفاق 29 حزيران 1966 ، فاجاب:
 يمكن تلخيص الوضع في كلمتين ـ الذين كانوا حتى 29 حزيران في خنادق القتال الامامية اصبحوا اليوم في الخط الخلفي . والذين كانوا بالامس في الخط الخلفي ، ووغف الصابون على ارجلهم تحت الدوش ، يجلسون اليوم في الخط الامامي.
****
اراد المكتب السياسي الجديد للثارتي ، وكان على رأسه حبيب محمد كريم ، اجراء بعض الاصلاحات لكسب ثقة الناس ـ كما حدثني بانيخيلاني ـ ولهذا الغرض قرر تشكيل لجنة لتجري التحقيق مع الكوادر والمسؤولين المحليين على اساس ((من اين لك هذا؟)). واقترح بعضهم ادخال عناصر لاحزبية الى هذه اللجنة لتلافي الطعن في اجراءاتها . ولما استحسن هذا الاقتراح ذهب احدهم الى نوري احمد طه ، الضابط الكردي القومي المفصول من الجيش والمقيم في المنطقة الكردية المحررة آنئذ ، وطلب منه الانضمام الى اللجنة . وبعد ان تفهم نوري الموضوع بصورة جيدة خاطب الرجل المكلف بمفاتحته قائلا:
 هل انت جدي فيما تقول ؟
 ولم لا ؟
 لاتكونوا سذجا الى هذه الدرجة .. اذا كنتم جديين فشكلوا لجنة تحقيقية لكي تحقق مع الكوادر والمسؤولين الذين بقوا بعيدين عن السرقة والكسب غير المشروع ـ وعددهم لايزيد عن 3-4 بين كوادركم . حققوا معهم واسألوهم : لماذا لم يسرقوا؟ لماذا شذوا عن الجميع ؟
****
في شباط 1967 كنت قد توجهت من درطله الى بغداد للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية . بتنا الليل في قرية ورتي (وهي قرية كردية تحمل اسما آشوريا قديما وتقع في سفح كاروخ) وخرجنا منذ الفجر في طريق غطته الثلوج . وتحت شمس ساطعة وفي طقس شديد البرودة هيأنا الشاي في (دولة رةقة) ـ وكان الذ شاي شربته ، وربما شربه من كان معي ، طيلة العمر . في المساء توقفنا في مقر سريتنا الفدائية بقرية سروضاوة . في اليوم التالي رافقنا آمر السرية احمد الجبوري في نزهة صدنا فيها بقنبلة واحدة قرابة مئتي كغم من السمك . وفي المساء حدث نزاع حاد بين بعض فدائيينا الفلاحين ليس على شئ سوى السمك

! احتج البعض لأن الاسماك الكبيرة لم تكن من نصيبه . في اليوم التالي وصلت كويسنجق وبت في منزل الشاب الشيوعي حسن كاكه وسافرت في اليوم التالي بصحبة عائلته الى بغداد.
ساهمت في اجتماعات المكتب السياسي قبل أن نعقد اجتماع اللجنة المركزية . كان الوضع داخل الحزب ، وبالاخص في بغداد ، متوترا الى حد اذ كان التيار اليساري المتطرف يواصل نشاطه من اجل ((العمل الحاسم)) ومن اجل التسلط على الحزب . وكان سكرتير الحزب عزيز محمد يعتمد على المناورات والمراضاة التوفيقية اكثر من اعتماده على المجابهة الصريحة والدفاع المبدئي المكشوف عما يؤمن به . وقد استفاد التيار اليساري المتطرف من سلوك السكرتير ليعزز مواقعه داخل منظمة العاصمة بوجه خاص.
انعقد اجتماع اللجنة المركزية وسط هذه الصراعات وبمشاركة العناصر الجديدة التي صعدت الى القيادة في تشرين 1965 . كان شيأ متوقعا ان تحمل القرارات المتخذة طابعا توفيقيا . غير ان السكرتير ادخل التوفيقية الى الانتخابات ايضا اذ اراد ترضية اليسار المتطرف بادخال بعض من يرضيهم الى قوام المكتب السياسي . وهكذا فسح المجال امام عزيز الحاج ليدخل الى المكتب السياسي بالحصول على اصوات عزيز محمد ومن سايره في اللجنة المركزية ، اضافة الى اصوات العناصر المتطرفة . وقد نسي عزيز انه وقف في حينه ضد ترشيح الحاج الى اللجنة المركزية بسبب من جبنه وعدم انضباطه . وحصلنا أنا وعامر عبدالله على عدد متساو من الاصوات عند انتخاب م س ، مما استوجب اعادة التصويت ثانية ، اصبح فيه عامر خارج قوام المكتب السياسي.
وبأنضمام الحاج الى المكتب السياسي اختل فيه الوضع كليا ، واخذ الحاج يتاجر ، بين العناصر اليسارية المتطرفة ، بما يحصل عليه من معلومات اثناء الاجتماعات ، ويحاول كسب ودهم . ولم يعد هناك ما يمكن اعتباره سرا لدى القيادة . ولما كان الحاج الشخص الوحيد الميال الى اليسار المتطرف في القيادة فان العناصر اليسارية المتطرفة التفت حوله واتخذت منه زعيما لها.
****
في سفرتي الى بغداد اتفقت مع عائدة على الزواج . وقبل الاتفاق النهائي وضعت امامها التفكير في فارق العمر حيث كنت اكبرها بسبعة عشر عاما . فاجابت انها تعرف ذلك ولاتجد فيه ما يمنع . وعرضت عليها كذلك النقاط الثلاث التالية:
1. أنا رجل سياسي وثوري واضع قضية العمل الحزبي ـ السياسي فوق أي اعتبار آخر . واضرب عرض الحائط كل ما يعترض طريق نشاطي الحزبي.
2. انا لست ثريا ولاأملك في هذه الدنيا شيأ سوى ملابسي الشخصية ، ولن املكه في المستقبل ايضا . واذا كانت تريد الرفاه والرغد والثياب الفاخرة فان عليها التزوج من رجل ثري وليس من شخص مثلي.
3. انا معارض لنظام الحكم القائم ، مما يجعلني معرضا دوما للملاحقة والسجن والقتل وقد نتزوج اليوم وتخسرينني غدا .
بعد صمت قليل اجابتني:
□ الست مثلك في هذه الامور ؟ ومن يدري اني لن اسجن او اقتل قبلك ؟ بمناسبة الزواج اخذت من الحزب فقط اربعين دينارا ، انفقت 4.5 دينار على شراء حلقتين وستة دنانير على شراء زوج من الحذاء وثوب لنوم الليل لها . كما انفقت (15) دينارا على حفل الزواج العائلي ، الذي حضره عزيز محمد والصديق الذي ارسلته الى البصرة ليخطب لي عائدة ، كما حضره شقيقها واثنتان من اخواتها . ولم اشتر شيأ من الاثاث البيتية او غيرها . وكان شهر العسل عبارة عن السفر الى السليمانية سوية وفي ظروف الاختفاء لاتركها هانك بعد ثلاثة ايام ولمدة ثلاثة اسابيع ، التحقت بعدها بي وقضينا اياما جميلة من ربيع درطلة في سفح جبل هندرين . كان لدي من الوقت ما يكفي للجميع بين اداء مهماتي الحزبية وبين التمشي معها ، هي الفتاة البصرية التي لم تكن قادرة على ان تباريني في السير والتسلق في تلك المنطقة الجبلية الخضراء . وقد تعلمت قليلا من اللغة الكردية لكنها لم تتعلم التمييز بين الحصن والبغال.
****
أوفد عضو المكتب السياسي كريم احمد الى كردستان ، فيما كنا نهيئ لاجتماع جديد للجنة الاقليم . وظهر ان هذا الايفاد كان تمهيدا لسحبي من الاقليم . ولم يكن عقد اجتماع لجنة الاقليم من الامور السهلة في تلك الفترة ، حيث كان يتأتى على من يأتي من المحافظات الينا لحضور الاجتماع ان يقطع مسافات طويلة مشيا على الاقدام او كوبا على الخيل والبغال في مسيرة تستغرق اياما عديدة وتمر بطرق خطرة ووعرة . وكان لمصلح الجلالي ، الذي كان من اضعف اعضاء لجنة الاقليم ، حصانه الذي كان يحظى على الدوام بعناية خاصة منه . وبعكس ما كان الفدائيون يوجهون دوما من نقد وعتاب الى هذا الرجل بسبب اهتمامه الدائم بحصانه ، فاني كنت ارى في ذلك شيأ حسنا وايجابيا .
خلال وجودي في الاقليم ، اي خلال اجتماعي لجنة الاقليم ، جعلت من مسألة تجديد انتخابات السكرتير والمكتب نقطة ثابتة في جدول العمل . وقد نافسني كريم احمد على منصب سكرتير الاقليم في آخر اجتماع وفؤت باغلبية ضئيلة.
في آيار 1967 ، وأنا في درطله ، التقيت لاخر مرة بالملا مصطفى البارزاني . كان اللقاء اشبه بصدفة اذ وصل البارزاني عصر احد الايام بصورة فجائية الى القربة . وقد ذهبنا ، نحن اعضاء مكتب الاقليم ، مسافة مئتي متر ـ تلبية لرغبة صديقنا

سليمان بط ـ لاستقباله وللترحيب بمقدمه . لكنه أجاب على تحياتنا ببرود ، بل كاد يتجاهلنا وبقى فوق البغل الذي كان يركبه ممتنعا عن مصافحتنا وكان سبب هذا التجاهل واضحا ـ رفضنا لقتل ابراهيم احمد وجلال الطالباني . وتحت الحاج سليمان بط ذهبنا في المساء الى مضيفه لتناول العشاء . وضعت امام البارزاني صينية خاصة فوقها دجاجة مقلية ، دون أي طعام آخر . وقد أكلها كلها تقريبا . وبعد العشاء حاولنا التحدث اليه كمجاملة . واعتقدت ان الحديث حول سفرته الى جبل كاروخ قد يبعث على السرور عنده . فقلت له:

- سمعت ان سيادتك ذاهب للبحث عن اشياء تحل بها المشكلة المالية للثورة ، ونأمل لكم التوفيق في تحقيق ما تصبون اليه.
- اذا وفقنا اللة فسنحل مشكلتنا دون ان نمد ايدينا الى احد.
- وهل دلت الابحاث عن وجود الماس في هذا الجبل ؟
- من المؤكد ان هناك الماس.
- وهل الماس غال لدرجة كبيرة ؟

قبل ان يجيب مد يده الى كيس من القماش موجود بجانبه وأخرج منه صخرة صغيرة يقارب وزنها النصف كغم ليعرضها علي وليقول:

- في هذه الصخرة مادة الكرستال ، التي تشكل جزءا من عشرة الاف جزء في صناعة زجاج السيارات الغالي . وأما الماس فان قطعة كهذه تباع بمليوني دينار .
- عظيم ! اتمنى لكم العثور على الكثير من قطع الماس ـ قلت ذلك وانا اضحك في سري.

لم احاول مرة اخرى اللقاء مع البارزاني . ولكنني كنت اتابع من بعيد اخباره لحين رحيله في 1979 . وهنا لابد من التأكيد مرة اخرى على انه كان زعيما قوميا من الطراز القديم ، زعيما مقبولا بين الجماهير الفلاحية الامية التي كانت تشكل الغالبية الساحقة للمجتمع الكردي حتى النصف الاول من هذا القرن.

****

في وقت مبكر من صبيحة احد الايام ايقظني الحارس في مقرنا بدرطلة ليخبرني بأن ضيفا يسأل عني ويريدني . فنهضت ووجدت فائق (سليمان معيني) المسؤول عن الحزب الديمقراطي الكردي في ايران جالسا في انتظاري . كان في الزيارة امر غريب لأنها لم تكن في موعد اعتيادي للزيارة . وجوابا على سؤالي عن سبب مجيئه قال:

- جئت استشيركم في أمر ما . طلبني البارزاني ولا أدري هل اذهب اليه أم لا . اريد رأيكم بهذا الخصوص.
- ولماذا تريد رأينا في مسألة كهذه.
- اخشى من ان يسلموني الى ايران . واذا كان بمستطاعكم الحيلولة دون تسليمي الى ايران فاني اذهب الى حيث يريدني وأرضى بأن يدخلوني السجن هنا في كردستان العراق.
- اذن اعطنا مهلة قليلة لنتداول في مكتب الاقليم ثم نجيبك بما نتفق عليه.

جمعت مكتب الاقليم وتداولنا فيما بيننا واتفقنا على ما نجيب به . ثم جلسنا مع الضيف وقلنا له:

- يؤسفني ان ابلغك باننا لانستطيع تقديم أي ضمان لك بالحيلولة دون تسليمك الى ايران ولا بالحيلولة دون سجنك هنا . وعليه نترك لك البت في القرار الذي يتعلق بمصيرك . ولا ننصحك بالطبع بتعريض نفسك للاعتقال ولمخاطر التسليم الى ايران . اذا كنت تجد خطورة هنا فيمكنك البحث عن مكان اكثر امانا لك .

تفهم فايق ما قصدنا وعاد الى مقره في (نوري) . وعلمنا بعد ذلك انه لم يذهب الى مقر البارزاني ، بل ترك المنطقة واختفى في مكان آخر بعيدا عن متناول أيدي البارزاني . ومرت سنوات على ذلك حين سمعت بأنه اعتقل من قبل (قادر تطراني) وسلم الى مقر الملا مصطفى البارزاني . حيث قتل وسلمت جثته الى سلطات الشاه لتعرض هناك قتيلا . وهذه خطيئة من الخطايا التي لاتغتفر.

العودة الى بغداد

عدت الى بغداد بطلب من المكتب السياسي للمساهمة في بعض اجتماعاته ـ كما ورد في رسالة الاستدعاء . وقد صاحبتني زوجتي في العودة . كان المسؤول الاول بالوكالة زكي خيري اذ كان السكرتير عزيز محمد قد سافر الى الخارج . وحين هممت بالعودة الى كردستان اعترض زكي وترجى بقائي معه وترك قيادة كردستان الى كريم احمد . كان اصرار زكي على بقائي يعود الى سببين ، اولهما رغبة اعضاء م س جميعهم تقريبا في ابعادي عن كردستان ترضية للبارزاني ، الذي كان غاضبا علي . والثاني كان يخص زكي وحده اذ كان يدرك بأنه لايستطيع اداء مهماته كمسؤول أول وكالة في مثل تلك الظروف المعقدة من دون الاستناد الى تأييد ودعم شخص مثلي . كان زكي يحب كرسي المسؤولية والزعامة ولكنه لم يكن قادرا على الاضطلاع بها اعتمادا على كفاءته الشخصية ، لا من حيث المقدرة التوجيهية ولا التنظيمية . كان الشخص الاخر معه عزيز الحاج ، الذي لم يعد بمستطاع زكي ان يعتمد عليه من أي ناحية ، فيما كان النشاط التكتلي في منظمة العاصمة ينمو ويتسع باستمرار.

****
قدر لي ان اكون ، اثناء حرب الخامس من حزيران 1967 ، في بغداد . اجتمع المكتب السياسي المؤلف في ذلك اليوم مني ومن زكي وعزيز الحاج ، وحدد الموقف من الحرب : ادانة الصهيونية المعتدية والدعوة الى الكفاح العربي الموحد ضدها وضد سندها الاستعمار . وعلى صعيد العراق رفعنا شعار (حكومة دفاع وطني) ، الذي كان مبادرة من زكي ، كبديل عن حكومة عبدالرحمن عارف ولكي يمكن للعراق الاضطلاع بدور فعال في الكفاح السياسي والعسكري ضد اسرائيل . اصدرنا بيانا حول الحرب . وفي وقت لاحق نشرت جريدتنا السرية مقالا طويلا كتبه عامر عبداللة واجرينا عليه تعديلات شاملة كي يصلح للنشر ، للتأكيد على ان من خسر الحرب ليس الشعب العربي المغلوب على امره والمحروم من ابسط حقوقه الديمقراطية ، بل هو النظام المصري تحت زعامة جمال عبدالناصر وسائر الانظمة العربية المناوئة للديمقراطية.
وقد اعجبني من عبدالناصر أن حمل نفسه المسؤولية عن هزيمة حزيران وقدم استقالته . كان ذلك صحوة ضمير حضارية منه ، بعكس ما فعله حاكم بغداد صدام التكريتي بعد ذلك باربع وعشرين عاما ، حيث تشبث بالبقاء على كرسيه رغم هزيمته الشنيعة واذلاله المهين جراء حرب الخليج.
ورغم ان حكومة عبدالرحمن عارف كانت هزيلة وغير قادرة على الاسهام في الحرب ضد اسرائيل ، فان موقفها في الحرب لم يكن سيأ . وقدم دعما عسكريا وسياسيا ملموسا الى مصر وسوريا.
****
لم تفلح محاولات عزيز محمد في التغلب على اليسار عن طريق المناورات ومراضاة البعض . فسافر الى اوروبا مخلفا وراءه هذه المشكلة لمن بقوا في ساحة العمل الساخن . والعناصر الشيوعية ذات الاتجاه المتطرف ، التي وجدت لنفسها مواقع في القيادة منذ اجتماع تشرين 1965، تمكنت من توطيد اقدامها ، خاصة في منظمة العاصمة ، خلال 1966 ، واقامت صلات مع بعض العناصر بين المسؤولين المحليين في المناطق والمحافظات ايضا . وحين انضم عزيز الحاج الى هذه العناصر ، بعد ان دخل الى قوام المكتب السياسي ، اعطى دفعة جديدة للنشاط التكتلي اليساري المتطرف اذ اصبح مصدرا لحصولها على كل ما يدور في اجتماعات القيادة والحزب كله . وقد بايعت تلك العناصر الحاج كزعيم لها ، رغم معرفة البعض منها بحقيقته ، بسبب من عدم حصولها على شخص آخر مستعد للتعاون معها بين اعضاء المكتب السياسي أو اللجنة المركزية.

14
انشقاق ايلول/ 1967

في صيف 1967 كان اعضاء المكتب السياسي للحزب الموجودين في العاصمة عبارة عنا نحن الثلاثة ـ أنا وزكي وعزيز الحاج . كنا نجتمع اسبوعيا لبحث الامور الجارية . لاحظنا ان الحاج يأتي دوما الى اجتماعاتنا التي كانت تعقد في بيت زكي خيري بحي علي الصالح ، ويتهرب من أن نتعرف على بيته ونجتمع فيه . فقررنا في المكتب السياسي ، وبموافقة الحاج شخصيا ، ان تكون اجتماعاتنا اللاحقة في بيوتنا الثلاثة بالتناوب.
وحين حل موعد الاجتماع في بيت الحاج ، اوائل ايلول 1967 ، وافترض ان ياخذنا معه الى هناك لأننا لم نعرفه مسبقا ، تغيب عن الحضور وانقطع بعض الايام انقطاعا كليا ، مما اثار قلقنا عليه . واستلمنا بعدئذ رسالة منه زعم فيها انه سافر الى زرباطية بأمل الحصول على قطع من الاسلحة لما سمي ((خط حسين)) . لم نصدقه في ذلك ، لا أنا ولا زكي . وكنا نشك في تصرفاته ولكننا لم نعرف بالضبط اين ذهب وماذا فعل . وضعنا احتمال ان يكون قد لفق هذه الكذبة لأنه لم يرد ـ بسبب من جبنه ـ ان نتعرف نحن على مسكنه.
كان المكتب السياسي قد قرر اصدار بيان بمناسبة حلول الذكرى السنوية التاسعة لصدور قانون الاصلاح الزراعي مكرسا لفضح انحراف السلطة وتملصها من مواصلة تطبيق القانون ، ولدعم مطالب الفلاحين . في صبيحة 17 ايلول 1967 خرجت بصحبة زوجتي عائدة ياسين من الدار التي كنا قد استأجرناها في حي القادسية مقابل جامع أم الطبول ببغداد . سقت سيارة الفوكس واطن ، التي كانت من ممتلكات الحزب ، متجها الى شارع القناة ، حيث مطبعتنا السرية . ونزلت عائدة قرب شارع الرشيد لتذهب الى اداء مهماتها الحزبية في خط التنظيم الحزبي ـ النسائس . واتفقنا على العودة الى البيت لتناول الغداء سوية .
وقبل ان اصل بيت المطبعة بحثت في جيبي عن نسخة البيان المراد طبعه فلم اعثر عليه . رجعت الى البيت لاخذه . اوقفت السيارة في الشارع الفرعي امام الباب ودخلت البيت لأخذ ما كنت قد نسيت . وبعد حوالي الخمس دقائق خرجت من البيت ووجدت شبانا أربعة تأبط احدهم دفترا كبيرا ، وهم مقتربون من باب الدار الخارجي . ساورني بعض القلق خوفا من ان يكونوا مفرزة للمراقبة . لكني واصلت مسيري نحو الباب . وقبل ان اخرج من حديقة المبنى اعترضوني وقال احدهم:
- تخمين ضريبة.
- من المحتمل ان تكونوا قد اخطأتم في تشخيص الدار.
- كلا لم نخطئ ، هذه هي الدار الموجود رقمها في السجل.

وحين هممت باجتياز الباب ارتفعت اربعة مسدسات في آن واحد ومن نوع واحد . اقترنت هذه الحركة البوليسية بجملة واحدة مختصرة:
- لاتتحرك ! أمن!

ايقنت تماما انهم رجال البوليس السري وانهم عثروا على بيتي بطريقة ما وداهموني بهذه الصورة . القيت نظرة سريعة على ما حوالي لعلني اجد مخرجا أو مهربا . لم يكن معي في تلك الساعة مسدسي ، الذي غالبا ما كنت احمله في تلك الفترة . وقال احدهم ، وكأنه قرأ ماجال بخاطري:

□ البيت مطوق ولا مجال للهروب.

دخل الشبان الاربعة باحة الطراج وامسكوا بتلابيبي ودفعوني عنوة نحو الباب الداخلي . صرخت في وجوههم بصوت عال:

□ هاتوا هوياتكم لاثبات انكم من رجال الامن . ـ قلت ذلك وانا على ثقة تامة بأنهم من رجال الامن ، غير انني قصدت اثارة الضجيج حول كبسهم لداري ، كي يعرف الناس حوالينا بأنهم كبسوا وكرا حزبيا فينتشر الخبر في المدينة ولا يأتي احد من رفاقي ليقع في الكمين الذي لابد من ان ينصب لاصطياد الاخرين ـ وهم زكي والحاج وسلام الناصري.

استمرت المشادة الكلامية بيني وبين الجواسيس الاربعة . وقد دفعوني بالعنف شطر طرمة الدار وسدد بعضهم لكمات الي طالبين مني فتح الباب ودخول المبنى معهم . رفضت الاستجابة لطلبهم وبقيت مصرا على ان ارى هوياتهم . لاحظت ان افراد عائلة الدار المقابلة لنا قد خرجوا من الغرف ووقفوا في الطرمة متفرجين من بعيد على هذا المشهد غير المألوف . كانت تلك عائلة كبيرة خرج معيلها الضابط ، المفصول بتهمة الشيوعية من الجيش ، من السجن قبل اشهر . ذهب نحوهم احد رجال المفرزة المداهمة وقال لهم مهددا :

□ نحن رجال الامن وسنؤذيكم اذا لم تدخلوا بيتكم فورا.

كان ذلك تهديدا خطيرا فدخلوا المبنى وربما ظلوا ينظرون من وراء الشبابيك المسدودة الى ما يجرى في طرمة دارنا . وقد ظللت ارفض تسليم المفتاح لهم فاخرج احدهم سكينة (ام الياي) وسدد لي ضربتين ، احداهما في كفي الايمن والاخرى في ظهر اليد . نزف من يدي الدم بغزارة وارتخت حتى امكن لهم اخذ المفتاح وفتح الباب . سحبوني معهم الى صالة الدار واسرعوا يشدون فمي كي لا أصرخ في وجوههم ويشدون يدي من الخلف كي لا أقاوم . أمر احدهم بتفتيش المنزل ، فيما كنت اواصل شتمهم واسميهم انذالا وفاشستا وجرمين . تلطخت ثيابي كلها بالدم واحسست بالانهاك جراء النزف ووجدت نفسي مضطرا على الجلوس في الصالة . سألني احدهم ، وهو الذي كان يتظاهر بأنه آمر المفرزة:

□ كم عدد الساكنين في هذه الدار ؟

□ لا شأن لك بذلك .. سأجيب امام حاكم التحقيق.

تقديم شخص آخر نحو الشاب السائل وقال له:

□ سيدي ! يسكن هنا شخصان فقط بدليل انهما شربا الشاي صباحا في قدحين وتركاهما في المطبخ من دون الغسل.

رغم احتجاجاتي على اجراءاتهم اللاقانونية ورغم مطالبتي المستمرة بالتفتيش وفق القانون فانهم اسرعوا الى اخذي بسيارتي نفسها . فسرت عدم المجئ بأي سيارة من عندهم بأنه محاولة لتغطية عملية المداهمة كي يتخذوا من المبنى كمينا لايقاع الاخرين . وعندما اخذوني في السيارة ، وهم اربعة مسلحين بالمسدسات وأنا لاأزال مشدود الفم واليدين ، قررت ان اصرخ ملء شدقي حين تمر السيارة بساحة التحرير ، معلنا انني بهاءالدين نوري وطالبا اخبار ح ش ع بأن رجال الامن العام قد قبضوا علي . ولسوء الحظ انحرفت السيارة قرب مطار المثنى شطر اليسار وسارت في شارع (14 تموز) باتجاه حي علي الصالح ، حيث توجد الدار التي يسكنها زكي خيري وهنا اظلمت الدنيا امامي وارتفع نبض قلبي ، ظنا بأنهم ذاهبون لمداهمة بيت زكي خيري ، وهم يريدون اظهاري وكأني الشخص المنهار الذي ارشدهم الى هناك ليقبضوا على زكي . هذه المصيبة الجديدة انستني مصيبتي الخاصة . ان يقبض علي البوليس السري وأن اتعرض للتعذيب وحتى للقتل فان هذه مشكلة قد تهون . أما أن اكون في نظر رفاقي وسائر الناس خائنا ومنهارا فان لمصيبة كبرى.

غمرتني الفرحة عندما انحرفت السيارة باتجاه جسر العيواضية الحديدي ، بالضد من اتجاه منزل زكي خيري ، وعبرت فوق دجلة نحو الوزيرية فالقناة ثم نحو حي الحبيبية . اوقفوا السيارة في شارع لا مساكن حوله ، بين القناة والحبيبية ، ونزل منها آمر المفرزة مع شاب آخر وابتعدا بعض الخطوات وتهامسا مع بعضهما . ثم عادا الي وقال احدهما مخاطبا اياي:

□ أنت تعتبرنا الان من رجال الامن . ولكننا لسنا من رجال الامن بل من رفاقك.

□ هذا شئ مستحيل ـ قلت ذلك بقناعة تامة.

□ ولماذا مستحيل ؟ احلف لك اننا من رفاقك.

□ كلا لايمكن لرفاقي أن يتصرفوا على هذا المنوال.

□ نحن نخبرك بحقيقة اننا من رفاقك كي تساعدنا على انقاذ بيتك من ايدي الامن الحقيقي.

□ انتم الامن الحقيقي ولاشئ آخر.

□ سأذكر لك دليلا على اننا لسنا من رجال الامن ـ قال احدهما ـ فان اسمي الحزبي (سعد) وانا سكرتير اللجنة الحزبية في الرصافة.

□ يمكن لأي رجل في الامن ان يقول ما تقوله.

□ وأنا عضو في اللجنة الحزبية للكرادة الشرقية واسمي الحزبي ثائر

□ قال آمر المفرزة.

□ يمكن لأي رجل من الامن ان يقول ما تقوله انت.
الى هنا وأنا لازلت معتقدا من الاعماق بأنهم رجال أمن ومتصورا بأنهم اخذوني باتجاه الحبيبية كي يحجزوني في احد بيوتهم السرية تلافيا لانتشار خبر اعتقالي ولممارسة التعذيب بحقي في سجن منعزل . لكن الشاب الذي ادعى انه سكرتير لجنة الرصافة اثار لدي الشكوك عندما قال بلهجة هادئة:
- ((سآتي لك بدليل اقوى : قبل حوالي عشرة ايام ارسلت الى المكتب السياسي رسالة ذكرت فيها ان هناك اناسا ينوون القيام باعتقال اعضاء اللجنة المركزية والتسلط على الحزب عن طريق انقلابي ((.
تذكرت اني قد قرأت فعلا مثل هذه الرسالة وأننا لم نأخذها مأخذ الجد اذ ان المجانين وحدهم يمكن ان يقدموا ، في حزب سري مطارد من قبل السلطة ، على محاولة الانقلاب العسكري . فأجبت الشاب بصورة لا ارادية:
□ اذن انت الذي كتب تلك الرسالة ، وها أنت الذي تنفذ الخطة اليوم.
□ قد يكون تقديم تلك الرسالة جزءا من الخطة المرسومة.
عدت الى نفس الكلام ، رغم تغير ما في اعماقي من تصورات . فقلت:
□ يمكن لأي رجل في الامن اي يقول ما تقوله.
وعاد آمر المفرزة الى الكلام . فاخرج من جيبه صورة فوتوغرافية وعرضها امامي وتساءل:
□ ألست شبيها بصاحب هذه الصورة ، الذي تعرفه جيدا ؟ انه اخي وانا اشبهه.
كنت اعرف صاحب الصورة جيدا . انه الكادر الشيوعي المسيحي حازم جميل عضو لجنة الاقليم للحزب . زاد ذلك من شكوكي في ان يكونوا رجال الامن . ومع ذلك كررت قولي:
□ بامكان كل رجل من الامن ان يقول ما تقوله.
□ هل ستصدقنا اذا اخذناك لتقابل حسين القمر ؟
الامر بحاجة الى بعض التفكير . حسين جواد القمر من المولعين بمثل هذه الاعمال الارسين لوبية ولابد من ان يكون ضمن مدبري خطط المداهمة والاعتقال . ولكنه ليس اكبر المسؤولين في العملية .. اذا يجب ، أولا ، معرفة الشخص الاكبر منهم . فقلت:
□ كلا لن اصدقكم.
□ واذا اخذناك لتقابل عزيز الحاج ؟
مر شريط خاطف من الذكريات بذهني واصبحت الامور كلها واضحة بالنسبة الي . تذكرت تغيب الحاج عنا عدة ايام وتذكرت تهربه من عقد اجتماع المكتب السياسي في منزله . وتذكرت رسالته التي زعم فيها بأنه يكتب من زرباطية وانه سافر الى هناك للحصول على قطع من الاسلحة .. أفلم تكن المسدسات ، التي رايتها في ايدي الشباب الاربعة الذين داهموا بيتي واعتقلوني ، هي الاسلحة التي حصل عليها الحاج لاستخدامها في هذه العملية البوليسية بالذات ؟ نشأت لدي شكوك خاطفة بأنه حصل على هذه المسدسات من سكرتير الثارتي آنئذ حبيب محمد كريم أو مصدر آخر مشابه . وعلى أي حال فان المسؤول الاول وراء هذه العملية الانقسامية - الانقلابية - الصبيانية هو الحاج نفسه وليس غيره . ولهذا وافقت على ان التقي مع الحاج . فقلت:
□ نعم اريد ان ارى الحاج.
□ حسنا . سنصل خلال دقائق الى بيت تقابله فيه.
استدارت السيارة الصغيرة ، التي يشبهها العراقيون بالسلحفاة . واتجهت الى شارع الصناعة في تل محمد . هناك دخلت طراجا في احد البيوت . اخرجوني منها وأخذوني الى احدى غرف الدار . وأنا لاأزال مشدود الفم واليدين . هناك أزالوا شدة اللفاف وعرضوا علي اسعاف الجرح وتبديل ملابسي الملطخة بالدماء . رفضت ذلك بحزم . لم يلبث ان حضر فخري (وهو عامل من اهالي زاخو يدعى خضر سليمان ، وعضو في لجنة بغداد العمالية وأحد قادة الانشقاق) وجلس جلوس زعيم منتصر في القتال وحاول جري الى النقاش معه . قال:
□ سمعت عن موقفك الصلب حين مداهمة بيتك . وكنت تحسب رفاقنا من رجال الامن . انا فخور بموقفك في هذا اليوم . وانت لاتزال رفيقا لنا رغم كل اخطائك.
ناقشته على مجمل العملية وعلى موقفه شخصيا وادنت بقوة العملية الصبيانية ولكنه كان على قناعة بصواب ما فعلوا . وغادرني ، دون ان نتفق ، ليخلي المكان الى زميله حسين القمر ، الذي دخل الغرفة ليكشر عن ابتسامة متآمر منتصر . رفضت التحدث اليه بكلمة واحدة وطردته من الغرفة مهانا . وظهر بعده ثيتر يوسف ، الذي كان قد انضم الى المنشقين في الايام الاخيرة من نشاطهم . وكان شيوعيا روتينيا بليدا لم يسبق لي ان اراه ينتقد او يعارض اي موقف سياسي.
وبقي قليلا ليذهب ويخلي مكانه لزعيمهم عزيز الحاج ، الذي جاء مزهوا بالنصر ومغرورا بما حقق . اسمعته من الحديث ما أزعجه وابلغته ان بامكانه ومن معه ان يقتلوا شخصا ما كما تفعل عصابات التآمر والاغتيال ، ولكنهم ليسوا قادرين على سجن احد في ظروف العمل السري لحزب مطارد من السلطة . قال بنبرة الغرور الصبياني:
□ اننا اعتقلنا جميع اعضاء اللجنة المركزية وسنجعلكم مع بعضكم في الليل.

□ لن تستطيعوا سجن احد .. واذا صرخت الان من هذه الغرفة معلنا بأني معتقل لدى هؤلاء ، فانك ستكون اول من يلوذ بالفرار.
كرر تهديداته كما يفعل مراهق طائش . فأجبته:
□ اذا كان لديك ذرة من الاخلاص للشيوعية فاني اطالبك باسم الحرص على مصلحة الحركة الشيوعية بالكف عن هذه الاساليب الصبيانية وترك الصراعات الحزبية الداخلية لتسير في طريقها المألوف.
لم تجد محاولاتي لحمله على العدول عن موقفه . لكني بقيت على ثقة بان الامور لن تسير على هواه . وحين حل الظلام ، وأنا لازلت في غرفتي سجينا . أتى بعضهم طالبين مني مصاحبتهم الى منزل آخر اكثر امانا . امتنعت عن ذلك الى ان اكد ثيتر يوسف بانهم سيأخذونني الى بيت سلام الناصري في حي المنصور لاكون مع سائر اعضاء اللجنة المركزية المحتجزين . وعندئذ وافقت من منطلق ان من المحتمل ان يسهل ذلك هروبنا الجماعي من هناك . ولما وصلنا حي المنصور وجدنا الاضوية مطفأة والدار مغلقة ومهجورة ، بخلاف ما زعم عزيز الحاج وثيتر يوسف . وأخذت في نفس الساعة الى بيت ثيتر يوسف في حي الكرادة الشرقية لاسجن هناك . في الصباح الباكر من اليوم التالي تمكنت من الهروب وركبت سيارة تكسي حتى وصلت منزل فاروق الطائي في عرصات بحوشي . وافلحت في ألا اسمح للسائق برؤية ملابسي المدممة.
فتح اطفال فاروق الباب وقالوا ردا على سؤال مني:
□ الوالد مسافر الى اوروبا.
□ والوالدة ؟
□ لاتزال نائمة في غرفتها ونذهب فورا لايقاظها.
نزلت الام عائدة عسيران واصيبت بذعر شديد حين رأتني . وكانت قد سمعت في اليوم السابق بان سلطات الامن هي التي اعتقلتني .. اصبحت في شبه غيبوبة أو كادت ، ظنا منها باني حضرت برفقة البوليس لمداهمة دارها . فهدأتها وذكرت لها حاجتي الى ملابس عادية ارتديها بدلا من ملابسي المدممة وحذاء بدل النعال . لم تكن ملابس زوجها القصير النحيف صالحة لي . لكنها تذكرت ان هناك ، لحسن الحظ ، قميصا وبنطالا لعامر عبداللة . فلبستهما وغادرت بيت فاروق متجها الى بيت ثابت العاني ، عضو اللجنة المركزية للحزب ، الذي كان قريبا من هناك.
ذكرت لثابت بايجاز ما حدث واتفقت معه على عقد اجتماع طارئ للجنة الحزب المركزية في اليوم التالي . وقسمت معه العمل لابلاغ الرفاق بموعد ومكان الاجتماع . وقد تأتى علي ذلك اليوم ، 18 ايلول 1967 ، ركوب سيارات التكسي 18 مرة لضمان ابلاغ الجميع بالموعد.
حدث لي ما اسبقت ولم اعرف ما جرى لمسؤول الحزب الاول بالوكالة زكي خيري الا بعد ان هربت من قبضة المنشقين . كانوا قد اعتقلوه في نفس اليوم الذي اعتقلوني . فترأست بنفسي الاجتماع الطارئ للجنة المركزية المنعقد في 1967/9/19 . وأقر بالاجماع بيان موجز تضمن ادانة الانشقاق وشجب الاسلوب البوليسي المقترن به وطرد رؤوس الفريق المنشق من الحزب ، وعلى رأسهم عزيز الحاج ، الذي كان ملقبا برمزي . كانت هذه ضربة قوية موجهة الى المنشقين وبداية نضال متنام ضدهم . وقد اذيع نص البيان بعد بضعة ايام من راديو صوت الشعب العراقي في بلغاريا ، مما زاد من تأثيره ومن احراج الفئة المنشقة .
في اليوم الثالث من هروبي التقيت بزوجتي عائدة ياسين ، ووجدتها كتلة من النشاط والحماس ضد المنشقين . وقد روت القصة التالية:
□ في ظهيرة 17 ايلول عدت الى البيت فوجدت ارض الصالة والطرمة مغطاة مما جعلني في قلق وحيرة . قفلت الباب وتوجهت الى بيت زكي خيري واخبرته بما شاهدت . قال زكي ان الحادث قد يكون نتيجة دعم للسيارة . لو كان هناك كبس ومداهمة من قبل الامن العام لكان هناك كمين في البيت . ونصحني بأن اعود من جديد الى البيت وأسأل الجيران . وعدت وسألت البيت المجاور واجابوني ان الامن هو الذي داهم البيت واعتقل زوجي . عدت الى زكي واخبرته بما سمعت . وفيما كنت جالسة هناك مع ارملة الشهيد رضا جليل حضر عزيز الحاج بصحبة ثيتر يوسف وقال لزكي ان الامن العام تمكنرصباح اليوم من القاء القبض على بهاء . وبما هذا الاخير يعرف بيتك هذا فان من الضروري ان تتركه . وجئنا لنقلك الى مكان آخر اكثر امانا . وقد اجابهم زكي بأنه يفضل البقاء ولا خوف من اعتراف بهاء . لكنهما ضغطا عليه حتى اخذاه معهما كتدبير احتياطي . وكان حسين القمر ينتظرهم في سيارته على بعد مئتي متر ، فأخذ زكي الى بيته ، الذي اتخذوا منه سجنا له مدة عشرين يوما.
في اليوم التالي التقيت بقادر رشيد ، وهو كادر حزبي كنا نستفيد منه في قضايا فنية ، وروى لي ما يلي:
□ كنا مع عائدة وسلام الناصري في سيارة هذا الاخير . فاعترضتنا سيارة فيها ثيتر يوسف وحسين القمر في شارع فلسطين . صعد ثيتر سيارتنا وجلس جنب الناصري آمرا اياه بالتوجه الى حيث يعتقل تنفيذا لقرار قيادة المنشقين ، فيما نزلت عائدة من السيارة وتوجهت الى القمر محتجة مطالبة بزوجها المخطوف . بكي الناصري منهارا وطلب تركه وتعهد بان يترك العمل الحزبي كليا ، فيما امسكت بثيتر من الخلف وامرت الناصري بالتحرك لنعتقل هذا الرجل لحين اطلاق سراح بهاءالدين نوري . فهرب ثيتر من السيارة مرعوبا وذهب الناصري تاركا عائدة في الشارع .

وقد التقيت بالناصري شخصيا ، وهو شديد الرعب والارتباك . وقال ان القمر و ثيتر صادفاه مرة اخرى في الشارع وارادا اعتقاله ولم ينج منهما الا بشق الانفس . وقد ترك سيارته السكودا في شارع فرعي بحي السعدون . ذهبت بنفسي وبحثت طويلا عن السيارة حتى وجدتها وارجعتها اليه .

****

كان للانشقاق نقاط قوته اذ حدث في ظروف رد فعل عنيف حزبيا وجماهيريا ضد الاخطاء والانحرافات اليمينية السابقة . وانجرف وراءه الغالبية الساحقة من اعضاء منظمة العاصمة وكوادرها الوسطية ، كما انضم اليه العديد من العناصر الحزبية النشطة في بعض المحافظات ، خاصة في محافظة السليمانية . بيد انه كانت له نقاط ضعفه المميتة ايضا ـ منها انهم اعتمدوا منذ البداية الاساليب البوليسية ـ الانقلابية المستنكرة اجتماعيا والمحكوم عليها بالفشل الاكيد . يضاف الى ذلك ان المنشقين استخدموا الجملة الثورية الفارغة دون ان يكون لهم سند فكري صحيح . ويضاف الى ذلك ان زعيم العملية الانشقاقية عزيز الحاج كان رجلا ضعيفا وغير مؤهل اصلا لقيادة أي تنظيم سياسي علني ، ناهيك عن تنظيم سري في ظروف ارهاب بوليسي عنيف .ولم ينجرف مع الانشقاق أي من اعضاء اللجنة المركزية ـ عدا الحاج نفسه . ومن بين 14 شخصا كانوا يشكلون لجنة منطقة بغداد لم يذهب مع المنشقين سوى أربعة اشخاص . ولهذا لم يدم عرس الجماعة المنشقة طويلا . فقد بدأت تنحسر وتضعف بعد وقت قصير ليس فقط بسبب تنشيط النضال ضدها ، بل كذلك بسبب اخطائها الفادحة ونقاط ضعفها الفكرية والسياسية والتنظيمية معا .

أنا خضت نضالا مكثفا ضد المنشقين ، دون ان انجرف الى اساليبهم البوليسية . ولست نادما على فعلت ، حيث قدت النضال في فترة حرجة . وأظن انني ابليت فيه بلاءا حسنا .

****

حضر اجتماع اللجنة المركزية الطارئ في 19 ايلول فقط اعضاءها الموجودون في بغداد . وكان لابد من عقد اجتماع يشترك فيه اعضاء الهيأة الموجودون خارج العاصمة ايضا . وقد انعقد هذا الاجتماع في 3 تشرين الاول داخل وكر حزبي في حي الزوية ـ الكرادة الشرقية ـ في وقت كان السكرتير عزيز محمد في الخارج وكان المسؤول الاول بالوكالة زكي خيري معتقلا لدى المنشقين . وقبل افتتاح الاجتماع اصيب عضو اللجنة المركزية وسكرتير منظمة الفرات الاوسط جاسم الحلوائي بصدمة عصبية عنيفة سببت له جنونا حقيقيا طوال الاسابيع اللاحقة . وقد بقي في المنزل وقت الاجتماع ، وهو لايعي شيا . كان يتحرك ويتمشى دوما وياتي الينا بين الفينة والفينة ليضرب بكفه على الطاولة ، التي اجتمعنا حولها ، ليهتف بصوت عال:

- وجت الحل لدى لينين ! وجدت الحل في نقض النقيض.

وقبل ان ينهي المجتمعون ضحكتهم كان يبتعد دون أن يعي ما يقوم به .

بدأنا الاجتماع في ظروف بلبلة فكرية واسعة في الحزب وتوتر عصبي شديد لدى الكثيرين من الكوادر وانهيار معنوي شديد لدى غالبية المجتمعين . منذ الجلسة الاولى اقترح عضو القيادة منذ تشرين 1965 والكادر البغدادي كاظم جواد حل اللجنة المركزية وتشكيل لجنة ثلاثية يدخل فيها عزيز الحاج وينضم اليها اثنان من الكوادر خارج اللجنة المركزية بغية استعادة وحدة الحزب . وسرعان ما حظي هذا الاقتراح الانهزامي بتأييد الكثيرين . ولفسح المجال امام هذا الاقتراح استقال الكثيرون طوعا من عضوية اللجنة المركزية ، امثال عامر عبداللة وسلام الناصري وباقر ابراهيم وصالح دطلة وستار خضير وكاظم جواد ... الخ.

تعرضت لضغط شديد من قبل المنهارين والمستقيلين في الاجتماع كي استقيل بدوري ، وأفسح المجال لتنفيذ مشروعهم . رفضت بحزم هذا الحل ، الذي اعتبرته استسلاميا ، وابلغتهم انني لن استقيل ولن اسلم مصير ح ش ع الى اناس امثال عزيز الحاج . ودعمني في موقفي هذا ثلاثة من المشاركين في الاجتماع ـ كريم احمد وثابت العاني وآرا خجدور ، مما قطع الطريق على طالبي استقالتي واضطر الاخرون على التراجع تدريجيا . وانتهى الاجتماع بما يزيد من تماسك الحزب وتنشيط الكفاح ضد المنشقين . وكان ضمن قرارات الاجتماع التحضير لكونفرنس حزبي جديد مكرس لدراسة الاوضاع المستجدة في الحزب ، على ان يعقد في اقرب وقت ممكن.

****

كنت اعرف ان عزيز الحاج يسكن في بيت استأجره شوكت خزندار مع عائلته . لكني لم اعرف اين هو البيت . وعن طريق عضو الحزب غني الحاج احمد ، الذي كان يلتقي احيانا مع خزندار ، افلحت في اقامة علاقة سرية مع هذا الاخير . التقيت به ووضع نفسه تحت تصرف الحزب . وكلفته فقط بمتابعة اوضاع المنشقين ومحاولة التعرف على بيت مطبعتهم السرية التي كانت قبل الانشقاق مطبعة منظمة بغداد وهيئت لتكون في خدمة الفريق المنشق ، فيما كانت مطبعة الحزب المركزية تحت اشرافي المباشر.

اخبرني خزندار ذات يوم بأن لفخري والقمر لقاءا جنب طراج مصلحة نقل الركاب في تل محمد الساعة السابعة مساءا . قررت الذهاب الى هناك لاسترجاع السيارة التي كانوا قد استولوا عليها يوم اعتقالي . وقف بالقرب مني كل من قادر رشيد ومصطفى ظاهر الناصري واحمد علي ، لكي يهبوا الى نجدتي عند الحاجة . عندما ظهر القمر في سيارة الفولكس واطن سبقته بسيارة الشوفرليت القديمة وحجزت عليه الطريق قرب الطراج . لم يكن له مجال السير الى الامام ولا العودة الى الوراء

. لكنه لم يستسلم ، بل عبر بسيارته الحاجز الكونكريتي الذي قسم به الشارع الى سايدين وساق بعكس الاتجاه حتى وصل فلكة تل محمد واستدار من هناك الى اليسار . كانت هذه حركة شبيهة تماما بتلك الحركات التي تشاهد في افلام الكاوبوي . ولم ار من المعقول ان اغامر مثله فتركته واستولينا مع رفاقي الشبان على سيارة (أنطليا) التي كان يسوقها فخري وهرب الاخير نفسه ركضا . كانت غنائمنا هذه السيارة مع طابعة وبعض وثائق المنشقين .
وفيما كان عزيز الحاج تحت مراقبتنا التامة كان قادر رشيد قد عثر بشكل من الاشكال على الدار التي اختفى فيها حسين القمر مع عائلته في حي الداخلية . وقد اقترح قادر مداهمتها في وقت مناسب لاستعادة السيارة ، لكننا لم نداهمها . ولما طال اعتقال زكي خيري لدى المنشقين قررت ان امارس الضغط عليهم بهدف حملهم على اخلاء سبيله . فاخذت في سيارتي الشيوعية النشطة وابلة الشيخ ، ارملة نافع يونس وعضو لجنة منطقة بغداد . واوضحت لها ما يجب ان تقول في بيت القمر الذي اوصلتها اليه . وقد اخترت هذه الفتاة لاداء المهمة المعينة لتلافي احتمالات العراك . دخلت وابلة من الباب الخارجي دون الاستئذان وضغطت على جرس الباب الداخلي . فابت ناهدة العبايضي ـ زوجة القمر ـ ان تفتح لها الباب وحدثتها من الشباك .
اوصلت وابلة الرسالة الشفهية وحذرت من مغبة ابقاء زكي معتقلا لمدة اطول وانسحبت دون ان تعرف هي او نعرف نحن ان سكرتيرنا بالوكالة زكي معتقل في هذه الدار بالدات وعلى بعد 3-4 امتار من رسولتنا وانه يسمع جيدا كل كلمة من الحديث الدائر بين الامرأتين ، في وقت كانت ناهدة هي الحارس الوحيد في تلك اللحظة على سجينها.
كان من السهل بالطبع ان يخرج زكي من الباب ببساطة قبل وصول وابلة الى هناك . كما كان من السهل ان ينهض في تلك اللحظات ليكشف نفسه لوابلة ويتكلم معها وليفتح الباب ويعود معها الينا او يخبرها على الاقل بوجوده هو هناك . أما لماذا لم يكشف نفسه ولم يتحد ناهدة ، الامرأة البسيطة العزلاء ، فان علم ذلك عند اللة.
بعد انسحاب وابلة مباشرة خابرت ناهدة بعضهم فانبأتهم بما جرى وطلبت الحضور مع السيارة دون تأخير لنقل الرهينة السجين الى بيت آخر قبل ان يصل ((اليمين)) ويطلق سراحه عنوة . وبعد قليل وصل شخصان من كوادر المنشقين وأخرجا زكي من البيت لنقله في سيارتهما الى بيت آخر . في آخر لحظة استعاد زكي شيأ من جرئته فعصى عليهما وابى ان يرافقهما وبدلا من دخول السيارة دخل دكانا قريبا واستنجد بصاحبه ليحميه منهما . حاولا اخراجه عنوة ووضعه في السيارة بذريعة انه ((حرامي)) وخاطب زكي صاحب الدكان راجيا مساعدته له:
- قل لي بربك هل ان شكلي شكل حرامي ؟
انسحب الشخصان ، ربما تحت تأثير الخوف من حضور عناصر اليمين ـ على حد تعبيرهم ـ وعاد زكي هو الاخر الى احد بيوتنا بعد حجز دام عشرين يوما وبشكل لم يكن للفريق المنشق قرار بشأنه أو فضل عليه . وبذلك انتهت هذه الصفحة الاخرى من المهزلة الصبيانية ـ الارسين لوبية ، التي قادها الحاج ، المتظاهر بالثورية والطامح الى ان يصبح زعيما للحركة الشيوعية العراقية ، وربما للبلاد كلها .
كان اول ما قام به زكي من نشاط ضد المنشقين ، بعد استعادة حريته ، توجيه رسالة باسمه الى جميع اعضاء الحزب عرى فيها العملية الانشقاقية ـ البوليسية وادانها وفضح الحاج نفسه ـ وقد كان لهذه الرسالة تأثيرها . وظل زكي نشطا في محاربة المنشقين ، الا ان نقطة ضعفه البارزة كمنت في علاقاته السابقة مع الحاج ، التي وصلت حد اصدار كراسة التقييم من قبلهما سوية ودون علم وموافقة الحزب في 1965.
طلب مني زكي ذات مساء اخذه في سيارتي الى شارع فلسطين لحضور موعد اللقاء مع الشيوعي السوري المعروف رمو ـ ابو جنطو ـ فاخذته ولم نجد في الموعد احدا . في طريق العودة شاهدنا الحاج وشاهدنا بدوره واصيب بذعر شديد ظنا منه بأننا نبحث عنه . كان قد قرر قبلئذ ، كما اخبرنا احدهم ، قتل البعض منا . وربما كان يتصور اننا نفكر غلى نفس المنوال ونبحث عن فرصة لقتله . ولم يكن يعرف بأن الشخص الذي يعيش معه في بيته اصبح على صلة معنا واننا لسنا بحاجة الى البحث عنه في الشوارع اذا اردنا ان نغتاله.
****
سجل اليوم التاسع والثلاثون من الانشقاق مفاجأة كبرى بالنسبة الى عزيز الحاج ، ففي عصر ذلك اليوم وصلني خبر مستعجل مفاده ان خزندار يريدني بمهمة ملحة جدا ، والتقيت به فاتضح انها قضية عزيز نفسه . قال خزندار:
- انكشف امري منذ مساء الامس اذ عاد الحاج الى البيت وشتم وارعد قائلا لي : ((انك يا شوكت بعت نفسك لليمين .. انت عميل بهاء . ((
- وماذا فعلت من جانبك ؟
- وما الذي استطيع عمله سوى اعتقاله ؟ حين انفجر وشتم مساء امس عاتبته زوجتي وطلبت منه الكف عن الصراخ فضربها دون حياء ، مما اضطرني الى ضربه بدوري وابلاغه بأنه معتقل هنا في البيت ريثما يقرر الحزب مصيره . ومنذ صباح هذا اليوم تركته في غرفة مقفلة وابلغته ان زوجتي تقف امام الباب وفي يدها سكينة لتمنعه من اي محاولة هروب ـ واضاف خزندار ـ ان سجيننا يبكي كثيرا ويتوسل الينا لكي لانسلمه الى بهاء . وهو يصرخ مستنجدا بالجيران ليخبروا الشرطة بأنه معتقل هنا وسيقتل . وقد كتب رسالة ورماها شطر الدار المجاورة لكنها وقعت في باحة دارنا . وها هي في جيبي (اخرج

الرسالة وسلمها الي) وجائتنا ربة البيت المجاور تسأل زوجتي عن هذا الصراخ والعويل . فاخبرتها الاخيرة بانه شقيقها الذي يصبح احيانا في حالة من الجنون . قالت الجارة انها عرفت فورا بأن هذه تصرفات رجل مجنون .
بعد سماع ما روى شوكت تذكرت كذلك زكي خيري وسجنه في بيت القمر تحت حراسة ناهدة وحدها . وتذكرت جمهورية سجن نقرة سلمان في 1953 ووقوف زكي وعزيز ، وفي يد كل منهما عصى قصيرة ، في القلعة الشمالية لتنحصر مهماتهما القتالية على مراقبة العدو عبر المزاغل. قلت لخزندار:
- عد الى بيتك وانتظر هناك جوابنا بعد سويعات .
وذهبت الى زكي ورويت له ما حدث للحاج . ضحك ، رغم انه كان قليل الضحك دوما ، وتساءل:
- ماالذي يجب عمله الان ؟
- ينبغي اخلاء سبيله فورا ودون قيد او شرط . اذا رغب البقاء طوعا فاننا نعده بارساله الى بلد اشتراكي او الى المناطق المحررة في كردستان . واذا لم يرغب فليذهب الى حيث يشاء ويعمل ما يروق له.
وافق زكي على هذا الرأي وبقي ان ننفذه . ذهبت الى مهدي الحافظ آخذا بنظر الاعتبار انه صديق قريب الى الحاج وأن علاقته ودية معه . وأبلغته بما تقرر وارسلته الى بيت خزندار ليعرض على السجين ما اوحته . ابلغ مهدي بدوره القرار غير المتوقع الى الحاج . استنجد الاخير بخزندار ليوصله الى الشارع ويستأجر له تكسي . وبعد انتظار قصير في الشارع عاد ليبيت عنده في تلك الليلة ايضا وليقضي ليلة بين البكاء والضحك الهستيري . فس صبيحة اليوم التالي اوصله خزندار الى احد بيوتهم وسلمه الى القمر وفخري قائلا:
- اليكم زعيمكم ! اريد منكم وصلا باستلامه بالكمال وبالتمام.
- واين كنت ؟ ـ سألا زعيمهما.
- كنت سجينا لدى اليمين.
وقد واصل الحاج نشاطه بعد هذا الحادث ايضا . ولكنه اصبح ضعيف المعنوية والهمة ، كما هبطت ثقة رفاقه وشكهم في قدرته القيادية.

Fn5.5;j
الكونفرنس الحزبي الثالث
في اولخر كانون الاول 1967 اخذ المندوبون يتقاطرون على قرية (داربسر) قرب بلدة (كوي سنجق) ، حيث كان من المقرر عقد الكونفرنس الثالث للحزب في المنزل القروي البسيط للفلاح الشيوعي عضو لجنة محافظة اربيل علي مولود . قام قادر رشيد ، كعادته في مثل هذه الحالات ، بدور نشط في عملية النقل السرية لمندوبين مختفين جميعا عن انظار الشرطة . حضر الكونفرنس 57 مندوبا . كان المكان امينا وملائما لأن تطول الجلسات عدة ايام .
كنا قد اخبرنا سكرتير الحزب عزيز محمد بموعد الكونفرنس . وعاد الى البلاد قبيل انعقاده ، دون ان يكون قد ساهم بشئ في التحضير له . كما عاد رحيم عجينة ايضا عن طريق سوريا ـ بهدينان لحضور الجلسات مباشرة.
وقع العبء الرئيسي في التحضير للكونفرنس علينا ، انا وزكي ، مع مساهمة رفاق آخرين . وكان جدول العمل كالتالي:
1. قضية الانشقاق وسبل الكفاح ضده ولاستعادة وحدة الحزب وقوته.
2. تقييم سياسة الحزب السابقة وكذلك تقييم قضايا الحزب الداخلية وتحديد المسؤوليات الشخصية عن اخطاء الماضي ، وبالاخص اخطاء آب 1964.
عند دراسة التقرير الحزبي الداخلي اتضح ان جميع اعضاء اللجنة المركزية ، باستثناء عزيز الحاج وجزئيا آرا ، ساهموا في صياغة خط آب ويتحملون جماعيا وشخصيا مسؤوليته . ومع ذلك تركزت دعاية المنشقين والمتعاطفين مع افكارهم ضد اشخاص اربعة باعتبارهم مسؤولين اساسيين عن خط آب 1964 ـ هم بهاء والناصري وعامر وباقر ابراهيم.
وقد اعيد انتخاب عزيز محمد الى اللجنة المركزية فالى منصب السكرتير فائزا باغلبية ساحقة من الاصوات ، ساعيا الى وضع نفسه خارج الصراعات المحتدمة في الحزب ، فيما سقطت عضوية الناصري وعامر ودطلة . وفزت انا باغلبية نسبية ضئيلة كمرشح لعضوية اللجنة المركزية . ووجد باقر ابراهيم طريقا للتفاهم وعقد الصفقات مع معارضيه السابقين . ففاز باصوات 36 مندوبا ـ وهو ما تنبأ به قبل الانتخابات ـ وعاد الى اللجنة المركزية ثم الى المكتب السياسي.
ومن المفارقات الغريبة ان الذين رفضوا انتخابنا ، انا وعامر والناصري ودطلة هم انفسهم الذين دعموا ترشيح جاسم الحلوائي ، قبل ان يفيق من نوبة الجنون الذي عرفوا به جميعا ، وانتخبوه عضوا في اللجنة المركزية . وقد استشارني الحلوائي ، قبل الانتخابات الحزبية ، حول ما اذا كان من المناسب ان يقبل ترشيحه الى اللجنة المركزية فنصحته برفض الترشيح على الاقل في الكونفرنس الجاري ولكنه لم يأخذ بنصيحتي.
كان الكونفرنس في واقعه اقرب الى مؤتمر حزبي طارئ . وهو ادى كامل مهمات المؤتمر فعلا في مسائل هامة لكننا فضلنا تسميته كونفرنسا. بعد الكونفرنس ارتأينا العودة عن طريق اربيل ـ الموصل ـ بغداد . ومرت سيارتنا لاندروفر بطريق وعمر كادت تنقلب لولا مهارة سائقنا قادر رشيد . وفي سيطرة اسكي كلك اجتازت سيارتنا نقطة السيطرة دون الوقوف بسبب عدم

انتباهنا . في الجسر التالي اوقفنا مفرزة من البوليس ونظروا الى هوياتنا ـ وكنا انا وكريم احمد وعزيز محمد وعائدة وعامر عبداللة وزكي خيري . وقد اجروا تفتيشا دقيقا في السيارة . وكانوا شرطة الطمارك وكان في سيارتنا مخبأ سري خفت جديا من ان يعثروا عليه وعلى وثائق الكونفرنس المخفية فيه . لكنهم لم يعثروا اخيرا ونجونا بمعجزة.

****

دخلت الكونفرنس الثالث عضوا في المكتب السياسي وخرجت منه مرشحا للجنة المركزية . وعند توزيع العمل انيطت بي مهمات العمل التنظيمي ، الذي كدست بشأنه خبرة مناسبة في سني نشاطي الحزبي . وخلال العمل سافرت مرتين او ثلاثا الى ريف قضاء الحي ، الذي شاهدته لأول مرة وتعرفت فيه على اوضاع وتقاليد الفلاحين . مررت ، غير بعيد عن مدينة الحي ، امام قصر كبير بنته قبل ثورة 14 تموز 1958 عائلة آل بلاسم الاقطاعية التي كانت تملك اراضي قضاء الحي كلها وكانت تستغل وتضطهد الفلاحين مباشرة او عن طريق السلطات المحلية . لكن ثورة تموز نزعت عنها تلك السلطة وها هو قصر مهجور . وفي مدينة الحي نفسها مررت بالمكان الذي اعدم فيه المناضلان الشيوعيان الباسلان علي الشيخ حمود وعطا الدباس اثر انتفاضة الحي عام 1956.

كانت قيادة المنظمة الحزبية في المحافظة مقيمة في ريف الحي ، وثيقة الصلة بالجماهير الفلاحية . التقيت هناك لأول مرة مع سكرتير المنظمة (ابو عليوي) الذي كان قد كسب شعبية واسعة ، ومع عضو مكتب لجنة المحافظة صالح الحاج احمد ، الكادر الحزبي اللامع الموصلي ، الذي كان قد هرب من السجن البعثي في وقت سابق وعاش فترة مع البدو راعيا لهم الى ان عثر على من اوصله الى الشيوعيين في المنطقة ، حيث وضع كامل طاقاته النضالية في خدمة العمل الحزبي حتى تمكن جلادو البعث الحاكم من اغتياله اواخر الستينات.

كان ابو عليوي يتجول خيالا . وعندما سألت عما اذا امكن استخدام الدراجات الهوائية كواسطة نقل مناسبة اجابوا ان من يركب هنا الدراجة الهوائية انما يجلب على نفسه العار . غير ان المفاجأة الكبرى بالنسبة الي كانت في التقاليد الموروثة بشأن السرقة . كانت ممارسة السرقة ضربا من الرجولة وكان لكل رجل ان يسرق دون ان يلام على ذلك . يسرقون بعضهم البعض ومن يتجنب السرقة يعتبر جبانا . سألت عضو لجنة القضاء الكادر الوسطي ابو حميد ، وهو جالس بيننا وعلى فخذه بندقيته :

- وهل تسرق ايضا ، وانت كادر شيوعي ؟
- انا امارس السرقة ، ايها الرفيق ، فقط عشرين يوما في السنة ... وافعل ذلك بموافقة الحزب.

في زيارتي الاولى دخلت بيتا ريفيا قرب طريق الحي ـ الناصرية واستقبلني شاب شيوعي متحمس يدعى كاظم عطية . استضافني في منزله ثم رافقني الى حيث وجدت سكرتير المحافظة ابو عليوي ، الذي اشاد بكاظم كعضو قضاء نشط واكمل الدراسة المتوسطة . وعند زيارتي الثانية ، بعد اشهر ، استقبلني شغيدل شقيق كاظم ولم اجد الاخير . وفيما كنت جالسا فس احدى غرف البيت كنت اسمع بكاءا نسائيا من الاعماق . واعترف بأن هذا النوع من البكاء ـ خصوصا عندما تكون المراة الباكية ذات صوت وخيم وتتسمن نغم البيات الحزين ـ يؤثر علي شديد التأثير وقد يحملني على ان ابكي بدوري . سألت عن سبب البكاء الذي اسمعه في البيت . فاجابني شغيدل:

- انها امي ، تبكي لأخي كاظم.
- وماذا حدث لكاظم ؟ ـ سألت صاحب البيت .
- قتل قبل شهرين.
- كيف ؟ لماذا ؟
- ذهب في الليل ليسرق فقتل.

سكت بعد كلمات التعازي التقليدية وفكرت مع نفسي : اي تاثير لقوة العادات والتقاليد الموروثة ! وتساءلت عما اذا امكن العثور على علاج لهذه المشكلة الاجتماعية . واجبت نفسي سلبا سوى الانتظار المقرون بالتثقيف وبتغيير الوضع الاقتصادي ـ الحضاري .

في اجتماع احدى اللجان التقيت بأبو قاطع ـ شمران الياسري ـ الذي كان يحرر ((بصراحة ابو طاطع)) في جريدة الحزب المركزية العلنية . كان عضو لجنة قضاء الحي وكان يعيش بشكل بسيط متواضع . لكن مزاجه العام بدا لي متكدرا.

كانت عضوية الحزب في المحافظة تزيد عن الالفين ، غالبيتها الساحقة من الفلاحين الفقراء . وكان ابو عليوي معروفا ومحبوبا بينهم ، يتوجه اليه الكثيرون ليعرضوا عليه مشاكلهم ويسمعوا نصائحه او ليطلبوا الانتماء الى الحزب . وكان طالب الانتماء في ريف الحي ـ فقط في ريف الحي بين جميع ارياف البلاد ـ ملزما بتقديم ربع دينار الى الحزب كدخولية . كان لدى الفلاحين شعور راسخ بأن الحزب الشيوعي يدافع باخلاص عن مصالحهم ويريد لهم الخير والرفاه . ولم يكن لديهم فكرة عن القضايا النظرية والفلسفية لدى الحركة الشيوعية . وكان البعض منهم يخرج من البيت ، بعد انتهاء الاجتماع الحزبي لخليته ، ليتجه الى الضريح المحلي المقدس (عطار) الذي نسجت حوله قصص كثيرة.

وزرت ريف الحلة ايضا ، حيث عقد اجتماع حزبي ـ او كونفرنس محلي ـ في بيت فلاح شيوعي . ذهبت بصحبة جاسم الحلوائي وسامي عبدالرزاق وحميد البياتي وغيرهم من الكوادر المحلية ، ونحن راكبو دراجات هوائية . هنا ، بخلاف ريف الحي ، تستطيع استخدام الدراجة دون ان يكون ذلك سببا للعار والاحتقار . وقد اصيب صاحب البيت الفلاح بصدمة نفسية

عندما اصيبت ، وانا واقف ، الهدف ـ قنينة زجاجية ـ بأول طلقة من بندقية تابعة له حين لم يتمكن هو من اصابته بعدة طلقات وقوفا . وتأتى علية الجلوس وتثبيت البندقية لكي يصيبه . وخففت من صدمته حين اخبرته باني ابن الريف ايضا.

15

انقلاب تموز 1968

كان لدينا قدر غير قليل من المعلومات عن ضعف فلول البعثيين ، بعد ان اصيبوا بهزيمة ساحقة فكريا وسياسيا عقب ازاحتهم عن السلطة من قبل شريكهم في الحكم عبدالسلام في تشرين 1963 . كانوا مصابين بنكسة حقيقية كبرى ولم يكن في حوزتهم شئ يذكر ، لا في الجيش ولا بين الجماهير . ولهذا كانت عودتهم الى الحكم في تموز 1968 مفاجأة حقيقية لنا وللناس حتى لاغلب مؤيديهم . وهم انفسهم كانوا يدركون ضعفهم وعزلتهم وكره الشعب لهم . ومن هذا المنطلق حرصوا شديد الحرص على اخفاء طابع الانقلاب في تموز 1968 وهوية السلطة الجديدة ومشاركتهم المباشرة فيها.

كان الوضع السياسي في تلك الايام حاملا بمخاطر التوتر والانفجار . فالارهاب البوليسي كان قد خف بعض الشئ في عهد عبدالرحمن عارف والقوى القومية اليمينية كانت مصابة بالهزيمة ، فيما كانت القوى الديمقراطية اليسارية قد حققت بعض الانتعاش ـ كما اتضح ذلك في انتصار الشيوعيين و والتقدميين عند انتخابات اتحاد الطلبة في المعاهد والكليات عام 1967 ـ 1968 . وكان الخطر ، بالنسبة للاوساط الرجعية العراقية والاوساط الاجنبية المهتمة بوضع العراق ، يكمن في تطور القدر الضئيل من الليبرالية التي توفرت في عهد عبدالرحمن.

من هنا ولدت فكرة ، او طبخة ، انقلاب تموز 1968 . وحسب تصوري فانها ولدت في خارج العراق او في اروقة بعض السفارات الغربية ببغداد . وكان المنفذون ، على الاقل في بداية الامر ، مجرد بيادق وأدوات في ايدي تلك الاوساط لتنفيذ ما ارادت هي . كانت تلك الاوساط تخشى من استيلاء القوى اليسارية على السلطة وقطعت الطريق على ذلك باعادة البعثيين ، الذين عرفتهم جيدا في 1963 ، الى الحكم لكي يبطشوا بالشعب وبكل القوى التقدمية . ولما كان البعث نفسه عاجزا عن عمل شئ للعودة الى السلطة بالاستناد الى قوته فان هؤلاء سخروا عملاءهم في الجيش لتنفيذ الانقلاب ولتسليم السلطة الى البعث اوالى بكر وصدام . ويبدو ان مدير الاستخبارات العسكرية عبدالرزاق النايف كان رجل المخابرات الانطليزية ، الذي نسق مع رجل المخابرات الامريكية وآمر لواء الحرس الجمهوري ابراهيم الداوود . فالانقلاب العسكري الابيض ، الذي لم تسفك فيه قطرة من الدماء في 17 تموز ، انما كان حصيلة اتفاق هذين الضابطين وتنسيق العمل بينهما وفق توجيه جهة اعلى خارج العراق .

وفي مجرى العمل على طبخة الانقلاب زار المبعوث الامريكي (راونتري) العراق في 1968 اكثر من مرة والتقى بأحمد حسن البكر دون ان يكون لهذا الاخير اي صفة رسمية او مبرو منطقي لهذه اللقاءات . ومن المؤكد ان المظاهرة التي نظمها البعثيون في بغداد بتشجيع وحماية جهاز الاستخبارات العسكرية ، والتي خطب فيها البكر ، كانت تستهدف افهام المخابرات الامريكية بأن للبكر نفوذه وشعبيته وأنه مؤهل لأن يتولى الحكم اذا دعمه الامريكيون . ويجدر بالذكر ان البكر كان قد قدم 1963 البراءة وتعهد ايام عبدالسلام عارف بعدم الاشتغال بالسياسة لحساب حزب البعث.

وأغلب الظن ان تسلل النفوذ الامريكي ـ الانطليزية الى الجيش العراقي وشراء الضباط الكبار في اخطر المراكز لم يتم خلال حكم عبدالرحمن عارف ، الضابط المسالم نسبيا والمسكين الذي لم يوصله الى قمة الحكم سوى اخوته لعبدالسلام عارف .

وأظن ان المخابرات الانطلو ـ امريكية كانت على صلات مع ضباط في الجيش العراقي في عهد النظام الملكي والعهود اللاحقة ايضا.

ومن المؤكد ان تنفيذ الانقلاب كان صعبا وكان يصطدم بعقبات جدية ، حتى فيما لو كانت لدى البعثيين قطعات عسكرية خارج لواء الحرس الجمهوري وبمزل عن جهاز الاستخبارات العسكرية . على ان الاحداث كشفت انعدام نفوذ للبعثيين في الجيش . فالضباط البعثيون ، او التكارتة من امثال حردان التكريتي الذي لم يكن بعثيا ، كانوا متقاعدين وعادوا الى الجيش واخذوا المواقع الهامة بالارتباط مع عملية الانقلاب او فيما بعدها.

اما لماذا حرصت الاوساط الحاكمة في لندن وواشنطن على اعادة البعثيين ، وبالاحرى اعادة زمرة البكر ـ صدام ، الى الحكم فاغلب الظن ان ذلك يعود الى السبب التالي : رغم ان عبدالرحمن عارف كان ضابطا بيروقراطيا ودكتاتورا عسكريا الا انه لم يكن مرتبطا بتلك الاوساط كعميل (بعكس ما كان عليه البكر وصدام) . يضاف الى ذلك انه لم يكن عنيفا ودمويا قدر ما كان اخوه عبدالسلام او القادة البعثيون ، بل خفف من الارهاب بعض الشئ وكان يحتمل ان يقود الى نوع من النظام اللبرالي . هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى فان نشاط ح ش ع ذا الماضي المخيف بالنسبة للاوساط الغربية ، والذي اقر التوجه علنا نحو القيام بانقلاب عسكري لانتزاع السلطة السياسية في هذا البلد النفطي الهام ، كان مبعث القلق لتلك الاوساط ، الامر الذي حملها على استخدام عملاءها من اجل اخذ السبق لازاحة عبدالرحمن ولتسليم زمام السلطة الى يد حديدية قادرة على التصدي للحركة الشيوعية والديمقراطية اليسارية . ولم يكن هناك ما هو افضل على تنفيذ هذه المهمة الاجرامية القذرة من الزمرة البعثية.

واظن ان النايف والداوود نفذا الانقلاب العسكري ليس فقط تنفيذا لأوامر صدرت اليهما ، بل كذلك بدافع من الطموحات الشخصية ولكي يكونا شركاء في الحكم وربما ليكونا القوة الرئيسية فيه . لكن حلفائهما البعثيين غدروا بهما في 30 تموز

1968 . واغلب الظن هذا الغدر قد تم بعلم وموافقة المخابرات الامركية ومثل صفحة من الناقض بين مصالح واشنطن ولندن ، وربما جرى في غفلة من لندن . ويتراءى لي ان السياسة التي اتبعها البعثيون بعد عودتهم الى السلطة ، والتي انطوت على عناصر المناورة والخداع تجاه الجماهير وتجاه الاحزاب السياسية ، لم تكن ايضا بمعزل عن نصائح وتوجيهات خبراء غربيين متمرسين في النشاطات التأمرية ـ السياسية.

كما يتر ى لي ان هذه الاحداث قد جرت في العراق والمخابرات السوفيتية كانت في سبات تام ولم يكن هناك ما يشير الى انها كانت على علم بما يجري.

بعد استيلائهم على السلطة ناور الحكام البعثيون منذ البداية ساعين الى عرض نظامهم في ثوب جديد مغاير لما رآه العراقيون عام 1963 . واتخذوا اجراءات في مجرى هذه المناورات التضليلية فاطلقوا سراح السجناء السياسيين والغوا سجن نقرة سلمان سيئ الصين واعادوا المفصولين الى اعمالهم ـ باستثناء المفصولين العسكريين ، الذين اعادوهم الى دوائر مدنية بدلا من الجيش .. الخ وبذلوا الجهود لكسب ود ح ش ع بهدف كسب الوقت كي يوطدوا سلطانهم . وهم فعلوا ذلك لانهم لم يكونوا على ثقة من قدرتهم على البقاء في الحكم . بيد ان كل المناورات التي قاموا بها كانت محدودة ولم يعطوا اي قدر من الحقوق والحريات الديمقراطية الى الشعب ولم يقوموا بما يشير الى ان في نيتهم التخلي عن الاجهزة القمعية وعن اساليب الارهاب البوليسي في التعامل مع الشعب . على العكس من ذلك ، فان صدام بادر شخصيا ، منذ الايام الاولى ، الى تأسيس جهاز قمعي جديد بموازاة الاجهزة القمعية التقليدية ، ووضع على رأسه احد جلادي ردة شباط 1963 ـ هو ناظم طزار ـ واشرف بنفسه على نشاطه وخصص له الاموال الضرورية . كان اول مصدر لتمويل هذا الجهاز القمعي الجديد ولتطمين بعض احتياجات صدام الشخصية هو الوارد الاسبوعي لسباق الخيل (الريسز) الذي وضع عليه اليد . وكان يقارب 35 الف دينار اسبوعيا . وكان هناك تنافس وصراع حقيقي حاد بين جهاز صدام ـ طزار الجديد وبين جهاز الامن التقليدي الذي لم يكن خاضعا لصدام خلال السنوات القليلة الاولى بعد الانقلاب.

كان في قيادة ح ش ع وبين كوادره رأيان ازاء سلطة البعث ـ احداهما يقوم على اساس رفض الثقة بحزب البعث وسلطته ويعارض الانخداع بوعوده والتعاون معه . والثاني يدعو الى التريث ويمهد السبيل للتفاهم والتعاون مع السلطة الجديدة . وقد جرت مناقشات ، واحيانا حادة في القيادة وبين بعض الكوادر . واتضح ان تناسب القوى بين انصار الرأيين كان يفرض ، في فترة معينة ، حلولا توفيقية ـ وسطية اذ لم يكن بامكان اي طرف فرض رأيه على الطرف الاخر.

خلال الاشهر الاولى من عهد البكر ـ صدام وقع حادثان مهمان كان ينبغي ان تتعظ بهما قيادة ح ش ع وتستنتج منهما الدروس الضرورية لمعرفة جوهر السلطة الجديدة . ففي ساحة السباع غقد الشيوعيون اجتماعا شعبيا سليما بمناسبة حلول الذكرى الواحدة والخمسين لثورة اكتوبر الاشتراكية . لم يكن في شعارات الاجتماع او كلمات الخطباء ما يكون موجها ضد السلطة او مخلا بالامن او خروجا عن الطابع السلمي . ومع ذلك عامله صدام بالنار والحديد واغرقه في الدماء . والحادث الثاني كان في معمل الزيوت عندما اضرب عماله عن العمل في بغداد من اجل مطالب نقابية بسيطة ، في مقدمتها زيادة الاجور وتحسين شروط العمل . كان ذلك اول اضراب عمالي في عهد السلطة البعثية وكان اختبارا لمعرفة طبيعة النظام ، الذي لم يتردد في قمعه بالنار والحديد وقتل اثنين من المضربين.

****

كان الفريق المنشق بقيادة عزيز الحاج في وضع صعب وبدأ نفوذه ينحسر في عهد السلطة الجديدة البعثية . وكان يمكن ان ينتهي بصورة اسرع ، بسبب اخطائها واخفاق خططها والتصارع بين قادتها ، لولا الدعم الجزئي الذي تلقاه بانضمام فريق آخر صغير من بعض مثقفي بغداد ، الذين كانوا قد شكلوا لأنفسهم كتلة خاصة بهم تزعمها ابراهيم علاوي وخالد احمد زكي . وأظن ان عضو اللجنة المركزية للحزب آرا خجدور كان على علاقة مع هذه الكتلة وكان يقدم لها سرا النصح والتشجيع . كنت اعرف بعض الشئ عن وجود هذا الفريق ايضا قبل انشقاق عزيز الحاج . لكني لم اكن على علم بعلاقة خالد ـ الطالب العراقي في لندن والشاب الشيوعي النشيط ـ معها . في فورة الغضب على عزيز الحاج وكتلته طردنا من الحزب اعضاء هذه الكتلة ايضا قبل ان تكون قد بادرت الى عمل شئ ملموس . وبعد اندماج الكتلتين ، وبعد ان تقرر عندهم خوض حرب العصابات في اهوار الجنوب تطوع خالد وذهب بحماس كبير الى منطقة الاهوار وناضل حتى استشهد مثبتا انه كان صادقا مع نفسه ومع رفاقه ، جامعا بين الاقوال والاعمال ، على عكس ما فعل عزيز الحاج ، الذي كان بكتاباته ومظاهره ثوريا متقدا ، ولم يكن راضيا باقل من اقامة الجمهورية الشعبية ودكتاتورية البروليتاريا .. الخ ، غير انه انهار فور وقوعه في قبضة البوليس وانقلب الى مداح رخيص لنظام البعث الدكتاتوري الدموي.

وقد عرضته السلطة من شاشة تلفزيون بغداد ليعلن على الملأ ولاءه لها وندمه على كل ما فعل من الخير وتبرأ من تاريخه النضالي . وسمعت في حينه ان حميد عثمان ، الذي كان في ذلك الوقت على علاقة مع السلطة ، قد نصح الاخيرة بعدم عرض الحاج على شاشة التلفزيون لكي يبقى في يد الحكام ورقة لعب مناسبة قد يستفيدون منها لاغراض اخرى . ولحسن الحظ لم تأخذ السلطات بهذه النصيحة فاحرقت هذه الورقة شر احراق وادخلته ضمن الاعداء المكشوفين للشيوعية واقلامهم الاجيرة . وحذا حذوه آخرون من قادة منظمته امثال ثيتر يوسف وحميد الصافي ومالك منصور ، فيما وقف آخرون من الموقوفين ذوي

المواقف الضعيفة عند حد معين ولم ينزلقوا الى قعر الهاوية ، وفيما اثبت البعض الاخر ـ امثال احمد محمود وهاشم الالوسي .. ـ انهم كانوا مخلصين للقضية التي تبنوها ودافعوا عنها وانهم صمدوا امام الجلادين حتى الموت كالابطال.
منذ الاسابيع الاولى من الانشقاق ترك صفوف الفريق المنشق بعض الكوادر ـ المنجرفة وراءهم امثال عبدالوهاب طاهر وكاظم فرهود . وفي وقت لاحق تركهم حسين القمر وقدم الينا رسالة تفصيلية عن وضعهم المأسوي . واشتدت بعد ذلك الخلافات والصراعات اللامبدئية ـ الدموية بينهم . وقتل على ايدي بعضهم احد قادتهم ـ خضر سلمان ـ بسبب خلافه معهم في الرأي وتصميمه على ترك صفوفهم . وانسحب مصلح الجلالي من صفوفهم ليبايع ، فيما بعد ، السلطة الفاشية ويضع نفسه في خدمتها . ووصل بهم التخلف الهمجي الى حد قتل احد زملائهم رجما بالحجارة كاسلوب لتنفيذ حكم الاعدام فيه . وسمعت من عضو المكتب السياسي للثارتي آنئذ د. محمود عثمان ان شابا من الكتلة الانشقاقية ذهب شاكيا الى مقر قيادة الثارتي وعرض هناك قضيبه المقطوع على ايدي زملائه كعقوبة له على تحرشه بآخر جنسيا.
لقد كان الوضع الذي انتهى اليه الفريق المنشق نتيجة طبيعية لاخطائه المتلاحقة بدءا من اللجوء الى اسلوب العنف البوليسي ـ الصبياني ومرورا بالشعارات اليسارية المتطرفة وانتهاءا بالصراعات اللامبدئية ـ الدموية بين اقطابه وكوادره . وكان لابد من ان ينتهي الى مثل هذه النتيجة.
****
كان مسؤولي الحزبي لبعض الوقت ستار خضير . وجاءني بيتي في حي الزوية ـ الكرادة الشرقية ـ ذات مساء . وبعد تبادل الاراء حول بعض الامور رجاني كي اوصله بسيارتي الى جامعة المستنصرية ، حيث يريد اللقاء مع عبدالرحمن السامرائي ، الكادر الشيوعي المقيم هناك ، قرب الجامعة . اوصلته وقفلت راجعا الى منزلي . في صباح اليوم التالي علمت بأنه كان قد اغتيل هناك بعد افتراقنا بوقت قصير . وقد اكدت تحقيقاتي اللاحقة على ما يلي : في بيت عبدالرحمن السامرائي العامل في المجال الحزبي ـ العسكري ، تعرف زوج شقيقته المدعو ابو جلال ، البعثي الصحفي المرتبط بجهاز امن صدام ، على ستار خضير . وجرت احاديث بين الشخصين أكثر من مرة . وعرف البعثيون ان ستار يشتغل مسؤولا في خط التنظيم الحزبي ـ العسكري ـ واغلب الظن ان ذلك حدث بسبب قلة يقظة كل من ستار وعبدالرحمن . ذلكم ما اخبرني به ستار نفسه ، قبل اغتياله . وفي لقائنا المشار آنفا اخبرني كذلك ان مسؤولين بعثيين (ابو جلال او غيره) اوصلوا خبرا مستعجلا الى عبدالرحمن مفاده أن هناك رجلا شيوعيا من الصابئة يدعى خيري يوسف قد اعترف . عند القبض عليه من قبل السلطة ، بأنه شيوعي وفي الوقت نفسه عميل في المخابرات الامريكية.
طلب من عبدالرحمن ايصال هذا الخبر على جناح السرعة الى ستار خضير . وقيل له ان لدى صديقه ابو جلال معلومات اخرى يود ابلاغها اياه مباشرة . وقد ذهب ستار برجليه الى هناك ووقع في الفخ البعثي . اتضح بعد اغتياله ان قصة خيري يوسف كانت مختلقة اصلا بهدف استقدام ستار الى الكمين المنصوب له . وقيل ان ثلاثة من افراد جهاز صدام ـ طزار طلبوا من ستار ، عندما اعترضوا سبيله في الشارع الفرعي هناك ، مرافقتهم الى حيث يريدون . فرفض ذلك وقتلوه في الشارع على بعد 150 مترا من الدار التي خرج منها.
وقد خلد الشيوعيون في العديد من الاناشيد والاغاني الثورية اسم الشهيد ستار خضير ولكن قيادة حشع لم توجه الاتهام مباشرة الى القتلة ، وعلى رأسهم صدام ، رغم ان الامور كانت واضحة تماما.
في تلك السنة نفسها ـ 1969 ـ اغتال البعثيون عددا آخر من الكوادر الشيوعية اللامعة بينها عضو اللجنة المنطقية العامل الشيوعي عبدالامير سعيد ، الذي كان يعمل في جهاز المراسلة الحزبية وتحت تصرفه سيارة حزبية . وكنت مرجعه الحزبي المباشر . كما كنت اتردد على البيت الذي سكنه في حي جميلة ببغداد . كان في منزله مسدس وجهاز اذاعة مزعوم صنعه احد الشيوعيين الكهربائيين في العاصمة . وكان من المقرر ان اكون الحزبي الوحيد الذي يعرف بيته ، ولم اجز له تعريف غيري به . ولم اعرف كيف امكن للاعداء العثور على هذا البيت السري .ولكن عبدالامير لم يكن شديد الانضباط على اي حال.
****
كان جهاز الامن الخاص بصدام ـ طزار هو الذي داهم بيت عبدالامير سعيد ، ونصب فيه كمينا . وكان يفترض ان اكون من يقع في هذا الكمين لولا صدفة عجيبة انقذتني . هذه الصدفة هي ان عبدالامير عرف ، دون علمي وموافقتي ، العجوز الشيوعية صبرية مريوش على بيته قبل ان يكبس باسبوع . وبعد كبسه ذهبت صبرية الى هناك ووقعت في الفخ . وأوقفت داخل الدار مدة 24 ساعة . وفي غفلة من الحراس تمكنت من الافلات عبر الباب الخلفي للدار وتسلق سياج الحديقة . وهي بذلت المستحيل من اجل ايصال الخبر الي وتحذيري من الكمين المنصوب لي في البيت المداهم . وقد التقيت بها واوضحت لي ما شاهدت . فنجوت من الكمين ، الذي نصبه جهاز صدام طزار ، الذي كان يؤدي الى الموت المحقق . غير انني وقعت في كمين آخر عجيب.
كنت اريد اللقاء مع ام كريم ـ زوجة عبدالامير سعيد ـ لأعرف المزيد مما حدث ولأقرر ما يجب عمله . وكنت اعرف ان بيت جدة كريم موجود قرب الفلكة (55) في مدينة الثورة . فذهبت بصحبة قادر رشيد الى هناك . سألت نداقا ، وهو في دكانه ، عما اذا كان يعرف بيت ام كريم ـ فاجاب:
- بيتها هو الشقة الموجودة فوق دكاني.

ضغطت على زر الجرس الكهربائي عند الباب الاسفل للشقة ، فتح الباب الاعلى في نهاية الدرج وظهرت امرأة شابة لتنادي:

- ماذا تريد ؟
- اريد ام كريم رجاءا ، هل هي موجودة ؟
- نعم موجودة.

لم يخطر ببالي في تلك اللحظة ان من المؤكد ان توجد هنا وهناك امرأة اخرى باسم (ام كريم) . فصعدت خطوات لأزور ام كريم المنشودة واذا بالمرأة الشابة ، التي كانت نفسها ام كريم اخرى ، تصرخ في وجهي صرخة شبه ريفية مرعبة . عدت في اعقابها الى اسفل الدرج . ونزلت هي بدورها ، وهي تصرخ وتشتم . وقفت امام دكان النداف لكي يشهد لي بأني لم اكن سوى باحث عن بيت ، والمرأة تواصل الشتم . وظهر هناك الطفل كريم وحضنني امام النداف والمرأة . سالته:

- اين هو بيتكم ؟
- ذاك هو بيتنا ـ اشار بيده الى مبنى لايبعد من الدكان اكثر من 30 ـ 40 مترا . رافقت الطفل الى بيت جدته واعتبرت المشكلة مع صاحبة الشقة منتهية بعد ان رأتني اذهب مع الطفل كريم . وقد وجدت في البيت جدة كريم العجوز ولم احد امه ، التي تركت بيتها بعد اعتقال زوجها وهروب صبرية من الكمين . واخبرت العجوز باني سأعود الى البيت في الظهر وذهبت الى حيث ينتظرني قادر رشيد مع السيارة.

في الظهر عدت الى بيت العجوز ولم يخطر ببالي ان يكون القدر قد خبأ لي مفاجأة عجيبة . قبل ان ادخل المنزل الصغير هوجمت من عدة اشخاص كانوا قد كمنوا حوالي . لم يكن بامكاني ان اتصور شيأ سوى انني وقعت في كمين لرجال الامن . حاولت الهرب واتضح ان الطوق محكم . وقبضوا علي ، وهم حوالي عشرة رجال . اخرجوني من بيت العجوز بعد ان رفضت الاخيرة ان تشهد بأني جئت الى بيتها وهي تعرفني . اوصلوني الى حيث النداف ، فيما احتشد عدد كبير من المتفرجين حوالينا . وفي مجرى الحديث مع بعضهم ومعي اتضح لي انهم لم يكونوا رجال امن ولا علاقة لهم بالسلطة ، بل هم ابناء العشائر ، التي لاتزال تعيش مع عاداتها وتقاليدها العشائرية رغم مرور سنوات عديدة على اقامتها في بغداد . ولم اكن انا الا ضحية العداء المستحكم بين عشيرتين من هذه العشائر اذ شكت بي صاحبة الشقة واخبرت العشيرة التي تنتمي اليها ونصب ابناءها هذا الكمين لي باعتباري عدوا يضمر الشر ازاءهم .

عندما تفهمت الامر جاهرت القابضين علي بحقيقة امري وقلت صراحة:

- انا شيوعي واتيت لأعرف من العائلة الفلانية اخبار زوجها المدعو عبدالامير والمعتقل قبل ثلاثة أيام.
- انت شيوعي ام حرامي ومجرم ؟
- لست حراميا ولا من اهل مدينة الثورة .. انا سياسي وشيوعي .

اصبحوا في حيرة من الامر . واختلفوا فيما بينهم . صدقني البعض وطالبوا باخلاء سبيلي . واعترض البعض الاخر وقالوا انه كذاب ـ لو لم يقع الحادث في الشارع العام لنجوت منهم بالتأكيد . لكن الازدحام في الشارع حوالينا اثار انتباه شرطة النجدة الموجودين هناك ، فأخذوني في سيارتهم الى مركز شرطة الثورة القريب منهم . وبعد التفتيش الاولي لجيوبي عثروا على مسدسي وبعض الرسائل الحزبية . فاخذني ضابطان شابان من ضباط الامن العام الى مديرية ناحية الثورة ومن هناك الى مديرية امن العاصمة ، وادخلاني معهما الى مكتب مدير امن بغداد احمد الرفاعي . جرى معي تحقيق اولي واعطيت الاسم الموجود في الهوية المزورة التي كنت احملها . لم يصدقوا بذلك . امر المدير بايداعي التوقيف ، فيما كان الدوام على وشك الانتهاء . عندئذ طلبت من المدير اخراج الضابطين للانفراد به والتحدث حول بعض الامور . فاستجاب وامرهما بالخروج . قلت له:

- اذا كنتم مصرين على توقيفي فارجو ان توقفوني باسمي الصريح وليس الاسم المدون في هذه الهوية المزورة ـ أنا بهاءالدين نوري.
- نعم استاذ ! وكان عليك ان تذكر ذلك منذ البداية ـ تفضل اجلس وامهلني قليلا لأخابر المدير العام.

تحولت من متهم اعتيادي الى شخصية سياسية وجلست بجانبه . ادار قرص التلفون واخبر مدير الامن العام حامد العاني ، الذي كان ضابط بوليس مخضرم ، واحاطه علما بأمري . استمهله العاني ليخابر بدوره وزير الداخلية صالح مهدي عماش ، الذي اجاب فورا . ورن تلفون احمد الرفاعي وبعد اقل من دقيقة واحذة خاطبني الاخير:

- تفضل يا استاذ لنذهب سوية في سيارتي.

ذهبنا سوية . بعد قليل وجدت نفسي في مكتب المدير العام العاني ، الذي استقبلني واعتذر عما حدث لي من المزعجات . اعيد الي كاملا جميع ما اخذ مني من الاوراق والمسدس . واشار المدير الى ان الوزير عماش آسف لما حدث . فهمت . دون ان اسمع شيأ ، كل شيء . فأنا قد وقعت ، لحسن حظي ، في قبضة الامن العام الذي كان لايزال مرتبطا بوزارة الداخلية ، والذي كان في صراع حاد مع جهاز الامن الاخير التابع لصدام ـ طزار . في واقع الحال لم يكن هذا الجهاز ، الموروث من العهود السابقة ، كجهاز صدام ، لا من حيث الشراسة ، ولا من حيث التركيب . كما لم يكن عماش نفسه شرسا بقدر صدام . فالجهاز الذي اسسه صدام كان دمويا وفاشيا اكثر من جهاز اس اس الهتلري.

عرضوا على ايصالي الى حيث اشاء . واوصلني سائق مدير امن بغداد . كنت اعرج . واخذت فيما بعد سيارة تكسي للوصول الى بيتي في الكرادة الشرقية . كانت شقيقة زوجتي الصبية هناء ، التي ارتعبت وتمرضت لاحقا واضاعت سنة دراسية كاملة . وحين عادت عائدة الى البيت وافقتني الى عيادة منقذ الجيبجي وكشف الفحص الشعاعي عن كسر في عظام المشط برجلي . وعشت عشرين يوما مجبس الرجل.

****

كانت هناك ، في 1969 ، مناقشات في الحزب حول المسألة الكردية وموقف حزب البعث منها . ساهمت في النقاش وكتبت كراسة صغيرة مكرسة للموضوع نفسه استعرضت فيها طبيعة حزب البعث القومية ـ الشوفينية ـ الدموية واستنتجت بأن هذا الحزب لن يريد ولن يستطيع ايجاد حل سلمي ديمقراطي راسخ للمشكلة الكردية في العراق . بعد الاخذ والرد وافق المكتب السياسي للحزب على هذا التقدير ، المثبت في الكراسة ، وبالتالي وافق على طبعها وتوزيعها . وكان الطبع قد اكمل وأولي النسخ قد وزعت على المنظمات عندما اعلن عن اتفاق الحادي عشر من آذار 1970 . فقرر المكتب السياسي سحب نسخ المطبوع على جناح السرعة واتلافها ، زعما بأن الحياة قد اثبتت العكس . وتعاقبت الاعوام واكدت الوقائع ان الاستنتاج كان صحيحا وان حزب البعث لم يكن قادرا على حل المشكلة الكردية ، بل كان قادرا فقط على تعقيدها اكثر فاكثر وعلى اشاعة الموت والدمار الشامل في ربوع كردستان العراق.

****

في يوم من ايام كانون الثاني 1970 قدمت الينا السفارة السوفيتية في بغداد معلومات تفصيلية حول خطة محكمة للقيام بانقلاب عسكري . وسينطلق اللواء العاشر المدرع من ثكنة عسكرية كانت في الماضي ميدانا لسباق الخيل بجانب حي المشتل . وكان الضابط المتقاعد عبدالغني الراوي ، المشارك النشط في انقلاب 1963 والذي دخل بعدئذ في خلافات حادة مع البعثيين ، من انشط المساهمين في الطبخة الانقلابية الجديدة ايضا.

ارسل مكرم الطالباني موفدا من قيادة ح ش ع الى رئيس الدولة احمد حسن البكر حاملا اليه الخبر بتفاصيله ، التي كانت تقضي باحتلال مبنى الاذاعة والتلفزة والقصر الجمهوري تحت جنح الظلام . ويبدو ان الحكام البعثيين لم يصدقوا تصديقا تاما ، في بادئ الامر . لكنهم اتخذوا التدابير الفورية من باب الاحتياط . وفي ساعة الصفر المحددة بدأ التمرد من الثكنة المشار اليها وجرت مصادمات واحبطت المحاولة الانقلابية لانها كانت قد فقدت عنصر الكتمان والمباغتة . ويتراءى لي ان الانقلاب كان مضمونا لو لم يحط البعثيون علما بالامر قبل وقوعه.

في اليوم التالي لاحباط المحاولة الانقلابية استدعى البكر الطالباني الى القصر الجمهوري من جديد وشكر ح ش ع ، وقال له ما معناه:

 لن انسى ما حييت هذا الجميل . لقد انقذتانا ح ش ع من السقوط الموشك . لن تكون هذه شوارب رجل ـ وقد مد اصابعه لشواربه ـ ولن يكون لي شرف عسكري اذا قبلت بعد اليوم باي اضطهاد للشيوعيين في ظل نظامنا هذا .

قطع الرئيس البكر هذه التعهدات على نفسه في كانون الثاني . وبعد ذلك بشهرين صدر بيان الحادي عشر من آذار واقترن مباشرة ببدء الهجوم على الشيوعيين واغتيال المناضل الشيوعي البارز محمد الخضري . وهكذا ثبت في غضون بضعة اسابيع بان ((الاب القائد)) ـ كما كان البكر يلقب في تلك الايام ـ لم يكن صاحب كلمته ولم يكن له اي شرف عسكري .

بهذه المناسبة شوه مدير المخابرات الاسبق وشقيق صدام ، برزان التكريتي هذا الحادث حين عرضه على غير حقيقته في كتيب اصدره تحت عنوان .. (محاولات اغتيال السيد الرئيس. (

****

هنا لابد من التطرق الى بيان 11 آذار 1970 . كان افضل وثيقة رسمية صادرة ، حتى ذلك الحين ، عن السلطة الحاكمة في بغداد ومعترفة بقدر لابأس به من الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي في كردستان العراق . كان ذلك نصرا كبيرا للملا مصطفى البارزاني والحركة القومية التحررية المسلحة في كردستان . قدرت الجماهير الكردية عاليا هذا الحدث واستقبلته بسرور عظيم واقامت له المهرجانات الكبيرة في شتى المدن والقصبات .

رغم ترحيب ح ش ع بأي اتفاق معقول بين الجانبين الحكومي والكردي ، ورغم رغبة الثارتي في اشراك الشيوعيين في المفاوضات الدائرة بين الطرفين ، فان قيادة حزب البعث ، وبالاحرى صدام التكريتي شخصيا ، قد استبعد اشراك ح ش ع في التفاوض والاتفاق . وكان سبب هذا الرفض واضحا بالنسبة للسلطة : الرغبة في اقران الاتفاق بحملة من المضايقات ضد الشيوعيين ، فضلا عن الحيلولة دون ان يستفيد ح. ش. ع شيأ من ابرام الاتفاق.

كنت جالسا في سيارة متجهة من كربلاء الى بغداد ، بعد اشراف حزبي هناك ، عندما سمعت راديو بغداد وهو يذيع برقية التأييد المرسلة من سكرتيرنا عزيز محمد الى رئيس الجمهورية احمد حسن البكر . كان الشيوعيون العراقيون فرحين بابرام الاتفاق ومؤيدين له ، رغم عدم اشراكهم في المفاوضات . ومن الواضح ان عدم مشاركتهم عاد بالضرر على الحركة الكردية المسلحة وعلى ح ش ع نفسه.

كان لصدام التكريتي حساباته الخاصة عندما وافق على عقد الاتفاق . انه كان كذابا عندما ادعى بأنه ابرم الاتفاق بسبب نفاذ العتاد او ما شابه . وظهر ان ابرام الاتفاق يعود الى الاسباب التالية :

1. كان يائسا من التغلب عسكريا على الفصائل الكردية المسلحة . وكان قد تخيل تكتيكا جديدا مفاده البحث عن سبل واساليب جديدة تآمرية لسحق الحركة الكردية المسلحة.
2. استثمار الهدنة ، التي تعقب الاتفاق ، مع الثارتي لتوجيه ضربات الى ح ش ع بهدف انهاكه وتقليم اظافره على الاقل .

اذا كانت الاحداث قد كشفت عن هدف صدام الاول المشار اليه هنا بعد مضي 18 شهرا على اتفاق آذار ، فان ثاني يوم بعد الاتفاق اوضح ما اضمره النظام البعثي للشيوعيين . ففي المظاهرة الجماهيرية ، التي اقيمت بمبادرة السلطة نفسها والثارتي معا ، تاييدا للاتفاق المبرم ، حضر الشيوعيون للمشاركة والتعبير عن التأييد . لكن نظام البعث استكثر عليهم ذلك وارسل ازلام الاجهزة القمعية لتغريقهم بالهراوات والاعتداءات . وكان زكي خيري احد المشاركين المعتدى عليهم .

وكان الاجراء العدواني الاشد ، الذي نفذه صدام ضد الشيوعيين ابان الاحتفالات بمناسبة عقدالاتفاق ، كان اغتيال الكادر الشيوعي اللامع عضو لجنة منطقة بغداد محمد الخضري . وقد تم اختطافه في وضح النهار ، وهه في طريقه الى طازينو صدر القناة لحضور حفل النظام البعثي نفسه بمناسبة صدور بيان آذار ، وكان الخضري المدعويين رسميا لحضور الحفل . وبعد يومين من اختطافه وجدت جثته ملقاة بجانب الطريق قرب مدينة السلمراء ، على مسافة (150) كيلومترا عن بغداد . وحتى الحمقى لم يستطيعوا الادعاء بأن هناك جهة اخرى ، غير السلطة الحاكمة مسؤولة عن هذه الجريمة.

دلت هذه الاعتداءات على الشيوعيين على ان صدام لم يرد يوما الوئام مع طرفين سوية من الاطراف السياسية . كان من عاداته الثابتة ان يقرن اي هدنة او تعاون مع احدى الجهات بالهجوم على جهة اخرى . ومن البديهي ان تلقى مسؤولية الاعتداءات على الشيوعيين في تلك الايام على النظام البعثي . غير ان الثارتي استحق اللوم لأنه لم يشارك مشاركة فعالة في ادانة تلك الجرائم البعثية.

****

شهدت مناطق واسعة من كردستان العراق ، خلال فترات متعددة من سني مابعد بدء الحركة الكردية المسلحة في ايلول 1961 وجود السلطة المزدوجة او تقاسم الحكم بين البارزاني والحركة الكردية المسلحة ، من جهة ، وبين حكام بغداد ، من اخرى . كانت هذه الظاهرة موجودة قبل اتفاق آذار . ووسعها هذا الاتفاق بصورة رسمية حتى شملت المدن الكردية ايضا على اساس من الاعتراف المتبادل بين الطرفين . وانضم الى الحركة الكردية المسلحة عدد كبير من الانتهازيين والنفعيين ، لغرض الحصول على الامتيازات المادية او مراكز المسؤولية واتسعت هذه الظاهرة اكثر من ذي قبل عند ابرام اتفاق آذار.

بهذه المناسبة اتذكر حادثا طريفا وقع بعد الاتفاق مباشرة ـ اقصد ما حدث لدارا توفيق الشيوعي السابق الذي انضم منذ 1963 الى الحركة الكردية المسلحة دون ان ينتسب الى الثارتي . حدثني دارا ان قيادة الثارتي طلبت منه مرارا الانتماء الى الحزب لكنه رفض مؤكدا انه يبقى لاحزبيا ومجرد ممثل شخصي للبارزاني ، وانه ـ لو مارس الحياة الحزبية ـ لن يختار الا الحزب الشيوعي . وما ان ابرم اتفاق آذار حتى قدم طلبا عاجلا الى المكتب السياسي للثارتي لكي يقبل انتسابه ورفض المكتب السياسي طلبه قائلين له:

- عرضناعليك مرارا في السنوات الماضية الانتماء الى حزبنا ورفضت .. وتطلب الانتماء الان بدافع المصالح الشخصية ـ الانتهازية .. وعليه نرفض قبول انتسابك.

قيل في حينه ان دارا شكا لدى البارزاني فوعده الاخير بأن يقبل ليس فقط عضوا عاديا بل عضوا في اللجنة المركزية.

****

تعرفت علىالشاب الشيوعي سعيد موسى ـ وهو من مدينة السماوة ـ في سجن بعقوبة واخترته كعرافق شخصي لي كي اكلفه ببعض الامور وشراء الصحف والحاجات في 1959- 1960 . وبعد انقطاع استمر عشر سنوات التقيت من جديد بهذا الشاب . وكان عامل افران وعرفته انسانا امينا صادقا . في مجرى الحديث بيننا قدم لي مشروعا ماليا مربحا (شراء فرن) حسب ادعاءه . صدقته وغامرت بتسليمه خمسة الاف دينار ، وهو رأسمال المشروع ، من اموال الحزب . وكشفت الايام لاحقا بأن ثقتي لم تكن في مكانها اذ ضاع المبلغ كله دون انشاء اي مشروع ـ ادعى سعيد بأن البعض قد سرق منه المال ولم يتسن لي التوثق من صدق ادعائه او ما اذا كان نفسه السارق . وقد سبب هذا الحادث اذية نفسية شديدة لي شخصيا . حتى انني لجأت ذات مساء الى تناول الخمر لأخفف عن نفسي . وكان يزيد من اذاي ان اتصور بان بعض الرفاق لايصدقونني فيما اقول.

المؤتمر الثاني للحزب

في ايلول 1970 عقدنا مؤتمر الحزب الثاني في سفح جبل كاروخ بمنطقة بالك . انشئت مسبقا (كبرات) داخل غابة كثيفة ، بعيدا عن متناول ايدي السلطة ، لاقامة المندوبين فيها ولعقد جلسات المؤتمر . كان المنظر العام اشبه بمخيم سياحي سيار لفريق من هواة الرياضة . وقد قام بهذه الاعمال التحضيرية فصيل من الفداءيين الشيوعيين ، كما قام باعمال الحراسة ايضا ايام المؤتمر.

كان جدول العمل المطروح يتضمن عديا : اجراء تعديلات على وثائق الحزب الاساسية ـ البرنامج والنظام الداخلي ـ ورسم الخط السياسي العام للحزب وانتخاب اللجنة المركزية . وكان هناك نوع من التوازن القلق من حيث الوضع الفكري داخل الحزب ، بين التيارات اليمينية واليسارية.
ساهم قادر رشيد كعادته في نقل المندوبين الى المؤتمر ثم اعادتهم الى بغداد مساهمة فعالة . الا انه كاد يسبب لنا مشكلة خطيرة عندما كان يسوق السيارة التي حملتنا ، انا وزوجتي عائدة وسكرتير الحزب عزيز محمد وزكي خيري وباقر ابراهيم ، فيما كانت تتبعنا سيارة اخرى تحمل نوري عبدالرزاق وماجد عبدالرضا ومهدي الحافظ وآخرين . تحركنا في اول الليل ، فأوقفنا كمين سيارة في الشارع على مسافة عشرين كيلومترا من بغداد . كان واضحا انه كمين مفرزة من رجال الامن العام ، وبالاحرى رجال الامن الخاص بصدام ـ طزار . فتحوا في وجوهنا اللايت اليدوي ـ الكهربائي وفحصوا هوياتنا . كانت في حوزتهم قائمة بالاسماء التي يبحثون عنها . ولم نكن ضمن تلك الاسماء بالطبع لكن الخطر كان يمكن ان يأتي من مسدس حمله قادر رشيد ، بالضد من التوجيهات والتأكيدات القاطعة التي اعطيتها اياه بعد حمل اي سلاح اثناء نقل المندوبين ، عند توقف سيارتنا ، باشارة من مفرزة الكمين ، ناول قادر المسدس الى زوجتي عائدة باعتبار انها اقل تعرضا للتفتيش . ولاريب في ان العثور على ذلك المسدس كان يكفي لايصالنا جميعا الى اقبية الامن التابع لصدام ـ طزار . لكن التفتيش لم يجر لحسن الحظ . وقد امتلأت غضبا لدرجة لم يعد من السهل ان اسيطر على اعصابي ازاء هذا الطيش واللاالتزام من لدن قادر ، الذي فعل ما فعل بدافع الحماقة.
في مناقشات المؤتمر تجلى الصراع بين الاتجاهين اليميني واليساري . فاليسار كان يرفض التعاون مع حزب البعث الحاكم لما كان له من تاريخ الخيانة والاجرام ولعدم صواب الاطمئنان الى وعوده . فيما كان اليمين يطالب بالعكس من ذلك ويمهد لاتباع سياسة ذيلية . وقد خرجت القرارات بصيغ توفيقية جمعت بين رغبات كلا الجانبين : التعاون مع النظام او مع حزب البعث جائز ولكن بشروط وعلى اسس معقولة ، او وفق ضوابط منطقية.
اظن ان النقطة المتعلقة بالمسألة الكردية في برنامج الحزب قد عدلت بحذف جملة (بما في ذلك حق الانفصال) والابقاء فقط على صيغة (حق تقرير المصير. (
في الانتخابات الحزبية فزت بأكثر من ثلثي الاصوات ، رغم ان بعض المسؤولين والمثقفين لم يصوتوا لي ولم يريدوا عودتي الى قوام اللجنة المركزية كعضو ، بعد ان اصبحت مرشحا فيها منذ الكونفرنس الثالث . وقد حصل عامر عبدالله على خمسة اصوات ـ رغم انه كان ضمن قائمة المرشحين المطروحة من المكتب السياسي ، وبقي ، كما كان ، خارج قوام اللجنة المركزية . لكن تدخل عزيز محمد ومناشدته ، عن طريق توفيق احمد ، للمندوبين الاكراد ضمن ايصال عامر ، ابان الجولة الانتخابية الثانية ، الى صف المرشحين لعضوية اللجنة المركزية.
****
لم اجد في تصرفات صدام قط الحنكة السياسية وبعد النظر ، بعكس مازعم الكثيرون حين قالوا ان نجاحاته المتعاقبة تثبت براعته السياسية . وقد تعلم العديد من غير المتضلعين في السياسة فنون العمل السياسي في مجرى بقائهم على دست الحكم لسنوات متعاقبة . غير ان صدام التكريتي لم يكن من هؤلاء . فالشئ الذي اتخذه مدخلا الى النشاط السياسي ، منذ عهد قاسم ، واكتسب فيه قدرا من الخبرة هو الدس والتآمر والاغتيالات والتعذيب الوحشي لانتزاع الاعترافات . وغدا من بديهيات نشاطه ان يهادن احدى الجهات ليسلط القمع الدموي على جهة اخرى وأن يكون البون شاسعا بين اقواله وبين افعاله . هكذا كان عند توقيع اتفاق الحادي عشر من آذار 1970 اذ اقرن الاتفاق مع البارزاني بتشديد الارهاب والتنكيل الدموي بحق الشيوعيين ، الذين كانوا يشكلون احدى القوى الرئيسية في الساحة السياسية .كانت الحملة البوليسية ، التي بدات منذ مطلع 1971 ، اوسع واعنف حملة ارهابية حتى ذلك الوقت ضد ح ش ع . وشملت جميع او معظم التنظيمات الحزبية ، وسحقت منظمة الحزب في العاصمة سحقا كاملا . في مجرى هذه الحملة اعتقل وقتل تحت التعذيب عضو اللجنة المركزية والمناضل الشيوعي الباسل على حسين البرزنجي ، الذي اعتقل في مدينة كركوك . وكان علي من اصدقائي الشخصيين منذ الاربعينات كما مارسنا النشاط الحزبي سوية في فترات معينة . وقيل في حينه ـ ولست واثقا ـ بأن الكادر الشيوعي حسين نادر هو الذي سبب اعتقاله . وفي بغداد اعتقل عضو اللجنة المركزية ، عامل النفط النقابي توفيق احمد الذي لم يستطع الصمود امام التعذيب فاسقط سياسيا ، كما اعتقل واسقط عدد غير قليل من الكوادر الحزبية في شتى الانحاء.
ولم يكن لدى النظام البعثي اي ذريعة ، ولو كانت صورية ، لتدبير هذه الحملة ، ولم يكن لها سبب سوى الاصرار على تمسك الحكام بالنهج الدكتاتوري ـ الفاشي في الحكم والتمسك بفكرتهم القائلة ان من ليس معك فهو عدوك .
****
كان دفاع ح ش ع عن نفسه تجاه حملة 1971 ضعيفا ، خاصة بسبب روح التردد والمهادنة لدى قيادته ، او معظم عناصر القيادة . وقد ارسل الحزب عددا من كوادره القيادية والوسطية الى المنطقة الكردية المحررة ، غير الخاضعة لسيطرة الحكم البعثي ، كتدبير صياني . وكنا ، انا وزوجتي عائدة وكريم احمد ومهدي عبدالكريم وجاسم الحلوائي وشاكر محمود ، ضمن المرسلين الى منطقة بالك ، حيث كانت لنا قاعدة عسكرية صغيرة يقودها الملازم البغدادي الهارب منذ 1963 نعمان التميمي ، المعروف هناك باسم ملازم خضر ، والذي له قصة طويلة من الصمود والشجاعة والجهادية العالية والتمسك بالمثل

الشيوعية ومن الغرور والبروقراطية والفردية وحب الزعامة . وحسب تعبير جاسم الحلوائي فان الملازم خضر كان يضع التسلسل التنظيمي في الحركة الشيوعية العراقية على الوجه التالي:
الملازم نفسه اولا وعزيز محمد ثانيا واللجنة المركزية ثالثا.
اقمنا نحن الكوادر القيادية في قرية (برسرين) واقام الكادر الوسطي في سفوح جبل هندرين . وقد انيطت المسؤولية الحزبية بالحلوائي ، في حين كان كريم احمد يتصرف كمشرف اعلى . وكان كريم عنيفا ، احد مني بكثير ، في موقفه من السلطة . فهو كان يتكلم في كل مكان ويبشر برأيه معتبرا السلطة فاشية دموية . وباستثناء الذين كانوا يعرفونه جيدا ، لم يكن بمستطاع احد ان يحزر انه سينقلب بعد اشهر معدودة على 180 درجة.
في برسرين كانت حياتنا رتيبة ، ولم تكن لي ولا لزوجتي مهمات حزبية ، سياسية او تنظيمية . فحصلت على بندقية صيد من احد الاصدقاء واستمتعت بهواية صيدالقبج اكثر من اي وقت آخر في عمري . وقلما كنت لرجع الى البيت بيدين فارغتين . وقد اصبح الصيد المصدر الرئيسي للحومنا ، انا وعائدة ، في تلك الفترة . كما كنا نشتري ايضا السمك النهري الرائع والرخيص آنئذ ، حيث لم يكن الاكراد متعودين بعد على تناول لحم السمك الا بصورة محدودة . واتذكر انني كنت اشتري الخيار من تاجر صغير كان يجلبه من اربيل او مكان آخر . لاحظت ان هناك كثرة من الخيارات الصغيرة الطرية وعلمت السر في ذلك . فالقرويون ، بضمنهم فدائيونا ، ينتقون الخيارات الكبيرة معتقدين انها هي الافضل للاكل.
قمت بسفرة صيد الى جبل هندرين ممتعة جدا . اخذت معي نبيذا جيدا كنت قد صنعته بنفسي . وصدنا فوق الجبل القبج باعداد كبيرة . الجميع يأكلون اللحم . لكن النبيذ كان ، بالدرجة الاساسية ، من حصتنا انا والفدائي الشيوعي الكلداني ثولص . البعض الاخر يمتنع عن تناول النبيذ لأن الاسلام حرمه . وقد التقينا فوق الجبل بفريق من بنات قرية (ماوليان) الواقعة في سفحه وهن يقطفن نباتات برية تؤكل او تطبخ في بيوتهم وقضينا معهن بعض الوقت من تبادل النكات والضحك . وسألهن احد رجالنا اذا رغبن في ممارسة لعبتهن المفضلة في الجبال اثناء هذا الموسم . فأجابت احداهن:
- عددكم كبير ولا يسهل التقلب عليكم.
لم اعرف ماهي هذه اللعبة المفضلة . فسألت وقال احد زملائي : اذا ظفر فريق من البنات هنا برجل منفرد هجمن عليه وطرحنه ارضا ونتفن شعر عانته ولعبن بقضيبه .. ولايتركنه الا بعد انهاكه والضحك عليه طويلا .
ذات يوم كنت في السفوح العالية لكاروخ وكدت اضع رجلي على حية (صل) متمددة على الارض الصخرية . انتبهت في اللحظة الاخيرة ورجعت خطوة واحدة قبل ان اطأها . وحين وقفت انطلق القبج يفرد بصوته العالي الجميل . ولفت انتباهي ان الحية لم تتحرك ابدا ، مما اثار فضولي ودفعني الى ان اطقطق بالاحجار على مسافة نصف متر منها ، ولم تتحرك . صرخت بصوت عال ولم تتحرك . شئ عجيب ! مسكت بحجازة وهويت بها على رأسها في ضربة قاتلة . عندئذ فقط اخذت تتمرغ كدجاجة مذبوحة لتوها . وعندئذ تأكدت ان الغالبية الساحقة من ضحايا لدغ الافاعي في العراق انما كانوا يلدغون من هذا النوع بالذات ـ اقصد الصل ـ في هذه البلاد .
في ربيع 1971 اقامت قيادة فدائيينا بالتعاون مع قيادة المنظمة الحزبية المحلية مهرجانا بمناسبة عيد نوروز حضرته عدة الوف قادمين من مدن اربيل وشقلاوة وراوندوز وقصبات وقرى اخرى . استمرت الدبكات والموسيقي والاغاني الشعبية في الهواء الطلق وسط الاعشاب الخضراء وزهور الربيع وتحت شمس ساطعة دافئة . كان في الحفل عدد من الفتيات ، اللائي شاركنى في الدبكات واثرن حماس الفتيان ، تفرجنا ، مع زوجتي ، على الدبكات . وهي لم تعرف ولم تحاول تعلمها . وكان مثل هذا المهرجان يتكرر هناك في كل سنة.
والحفل الصاخب الاخر الذي شهدناه هناك في تلك الفترة كان بمناسبة زواج آمر قاعدتنا الفدائية نعمان التميمي من احدى قريباته التي جلبت له من بغداد ، واستثمر الكادر الحزبي حاجي سليمان ، الذي لم يكن بمقدوره اقامة حفل من هذا النوع ، نفس المناسبة للزواج . فاتوا بعروسه من كويسنجق اليه في نفس اليوم.
في آب 1971 اتفقنا ، انا ومهدي عبدالكريم وشاكر محمود ، مع زوجاتنا الثلاث ، على الذهاب من برسرين الى الحاج عمران لغرض الاصطياف بضعة ايام . اقمنا هناك قرب نبع الماء العذب ، المعروف بأنه يساعد كثيرا على الهضم ويفتح الشهية على المزيدمن الطعام . ذات يوم عادات الينا زوجاتنا بعد نزهة قصيرة ، وكن مبهورات بجمال فتاة رأينها هناك . في اليوم التالي أمطرت السماء مطرا غزيرا واشتد البرد وغدونا في محنة حقيقية الى أن أتانا الرجل المدعو تمر وهو احد فدائيي الثارتي ومن أقارب جيهان جياووك زوجة مهدي عبدالكريم الكردية . فأخذنا الى بيت أحد معارفه قرية الحاج عمران . واذا نحن أمام الحسناء ذاتها ، التي اعجبت بها زوجاتنا . وهي كانت فعلا من ذوات الجمال النادر . واتضح انها كانت ابنة فدائي كردي كان من مرافقي البارزاني عند اللجوء الى الاتحاد السوفيتي عام 1946 وتزوج هناك من امرأة سوفيتية أنجبت له هذه الحسناء.
****
في 1971 زارنا في برسرين جلال الطالباني بصحبة بعض زملائه . وقد التقيت به هناك لأول مرة ، بعد اللقاء الذي اسبقت الاشارة اليه في 1958 . وكان مقيما في منطقة بالك بعد أن غير اتفاق 11 آذار 1970 مجمل الوضع السياسي في كردستان العراق ، بما في ذلك وضع الفريق الكردي المتعاون مع السلطة 1966 وحتى 1970 . في مجرى المناقشات حول الوضع السياسي لاحظت أنه يشدد في انتقاد سياسة ح ش ع تجاه النظام البعثي معتبرا اياها سياسة (لينة) اكثر من اللازم وقائلا ان

البعث غير جديد بالثقة ولايصح التهاون تجاهه ، بل ينبغي الوقوف ضده بحزم . كان النظام البعثي قد عقد الاتفاق مع البارزاني بشكل أدى الى وقوع جناح ابراهيم احمد ـ جلال الطالباني في موقف صعب اضطر معه الى اعلان الولاء مرة اخرى وعلى مضض للبارزاني والثارتي . وفي تشكيكه بالبعث كان الطالباني يعكس خيبة أمله هذا . وكنت في قرارة نفسي متفقا مع آرائه في خطأ الثقة بالبعث ونظامه . لكني لم استطع السكوت خاصة بعد أن التزم زملائي الصمت امامه ، بل أعطيت الرد المناسب وذكرته بموقفهم من السلطة البعثية حتى صدور بيان الحادي عشر من آذار ، الامر الذي دل على عدم الاصالة في انتقاداته لسياستنا ـ السياسة التي كنت بنفسي غير راض عنها.
كانت عائدة تسافر احيانا الى بغداد كمراسلة حزبية تحمل بريد الحلوائي الى المركز . وفي آخر سفرة لها أوائل صيف 1971 بقيت هناك للاسهام في العمل الحزبي وسط أنقاض المنظمة . واعترف بأن فراقها كان صعبا وسبب لي الاذى النفسي والملل . وأصبحت الايام والليالي اطول من ذي قبل بالنسبة الي ، أنا المتبقي وحيدا في برسرين طوال ألاشهر التي سبقت عودتي الى بغداد . وتحت تأثير هذا الفرق القاسي ، من جهة ، وتأثير الوضع النفسي الصعب الناجم عن الحملة البوليسية العنيفة على ح ش ع ، من جهة أخرى ، نظمت احدى قصائدي المعدودة.

****

في أيلول 1971 اصبحت منطقة بالك ، وانا لم أزال مقيما فيها ، مسرحا لحدث مثير وهام وفريد من نوعه في العراق . وكان هذا الحدث نتاج جهد طويل مكثف لصدام وجهازه القمعي طوال أكثر من عام . فقد هيأ وفدا من رجال الدين ليرسلهم الى مقر البارزاني باسم التباحث معه لمعالجة المشاكل وازالة التوتر بينه وبين السلطة . في الواقع كان هناك توتر في العلاقة ناجم عن تلكوء الجانب الحكومي ، الذي كان في يده مفتاح الحل ، في تنفيذ بنود اتفاق آذار . غير أن الغرض الحقيقي من الوفد كان شيأ آخر لاشأن له بازالة التوتر . فقد رتب صدام بصورة دقيقة ومتقنة سفر الوفد الى مقر البارزاني بغية اغتيال هذا الاخير . وكانت الطريقة المدبرة لتنفيذ الجريمة على الوجه التالي : شد المتفجرت بمقدار واف على بطن احد رجال الوفد المعممين ، مع ضمان التحكم بها من بعيد بهدف تفجيرها في اللحظة التي يجري فيها التوثق من أن حامل حزام المتفجرات جالس بجانب البارزاني . وابلغ رجل الدين المسكين المحمل بالمتفجرات بان ما يحمله تحت ملابسه من حزام ثقيل ليس سوى جهاز لتسجيل الحديث الدائر بين الوفد وبين البارزاني ، وان القيادة السياسية ترغب في دراسة ما يقوله الجانب الاخير بعناية فائقة . وكان هذا الغبي المضلل مقتنعا بما قيل له ومنتظرا قبض مبلغ كبير جراء هذه الخدمة الانسانية التي يؤديها.
كان مفتاح التحكم بالمتفجرات في احدى السيارتين اللتين حملتا الوفد الى مقر البارزاني ورابطتا أمامه بانتظار اللقاء . وكان سائقا السيارتين ضابطين مدربين من ضباط الامن العام . ولم يضغطا على زر التفجير الا بعد تأكدهما من أن رجال الوفد الديني جالسون مع البارزاني وداخلون في لحديث معه . مع الانفجار الشديد تمزق حامل الحزام المتفجر وجرح أو قتل زملاءه الباقون كما قتل فورا موزع الشاي ، الذي وقف صدفة في تلك اللحظة بين حامل المتفجرات وبين البارزاني . وقيل في حينه ان ضابطي الامن اطلقا ، خلال لحظة الانفجار ، صواريخ كانت معهما على بيت البارزاني وحاولا الهروب ولكن دون جدوى.
نجا البارزاني بمجرد الصدفة . ولم ينج احد من رجال الوفد المرسلين اليه . ولو ابقى على البعض أحياءا ، وخاصة ضابطي الامن السائقين ، لأمكن العثور على معلومات تكشف المزيد من تفاصيل الجريمة . وقد أدت هذه المحاولة الصدامية الفاشلة لأغتيال البارزاني الى نسف جسور الثقة بين الجانبين الكردي والحكومي وكشفت عن أن قيادة البعث الحاكم لم توقع اتفاق 11 آذار بنية صافية ، بل وقعته كي تتخذ منه طريقا الى قمع الحركة الكردية التحررية المسلحة عن طريق التآمر والغدر ، بعد أن عجزت عن قمعها عن طريق المصادمات العسكرية المباشرة . ومن المؤكد أن حسابات صدام كانت خاطئة من الناحية السياسية لأن الحركة التحررية الكردية كانت تعبر عن تطلعات شعب تواق الى نيل حقوقه القومية المشروعة . وقد أكدت الوقائع المتعاقبة هذه الحقيقة اذ لم يبق البارزاني حيا ، ولم يبق صدام على قرية كردية ولم يتورع في التقتيل والابادة الجماعية بالاسلحة الكيمياوية ومختلف الاسلحة الفتاكة .. الخ ، لكنه لم ينجح في قمع نضال الشعب الكردي وتصفية قضيته ـ كما يرى القاصي والداني اليوم.

****

كان المبنى الريفي المشيد بجانب قرية درطلة ، لكي يكون مدرسة حزبية يديرها يوسف حنا ، قد أكمل لتوه حين عقد فيه اجتماع اللجنة المركزية للحزب في تشرين الثاني 1971 . كان الاجتماع يعقد في أعقاب تعرض ح ش ع لتلك الحملة العنيفة ، التي أشرت اليها سابقا والتي أدت الى استشهاد عضو في هذه اللجنة واسقاط عضو آخر . كان الحكم الدكتاتوري البعثي قد قضى حتى هذا الوقت على كوكبة لامعة من أفضل الكوادر الشيوعية ، بينهم ستار خضير وعبدالامير سعيد والكادر الفلاحي الرائع عضو لجنة الفرات الاوسط كاظم الجاسم والشاب الشيوعي الباسل الذي كان يعمل في ميدان التنظيم الحزبي ـ العسكري عزيز حميد ومحمد الخضري وصالح الحاج أحمد ، الذي تولى مسؤولية منظمة الكوت بعد أبو عليوي وعلي البرزنجي وجواد عطية وكثيرون غيرهم....

كانت المهمة الملحة أمام اجتماع اللجنة المركزية هي البحث عن سبل مناسبة لاعادة بناء الحزب ، تنظيميا ، واعادة النظر في الموقف من السلطة وتقييم سياستها خلال السنوات الثلاث التي اعقبت انقلاب تموز 1968 سياسيا . كان التحليل المنطقي السليم للوضع يقود الى المزيد من نزع الثقة عن السلطة والمزيد من وضع القيود أمام التعاون معها ، والى البحث عن حلفاء بين معارضيها . غير أن العناصر اليمينية الذيلية وجدت في ايقاف أو تخفيف حملة التنكيل بالشيوعيين ما يكفي لاتخاذ موقف لين من شأنه تمهيد السبيل أمام التفاهم والتقارب مع السلطة . وكانت القيادة البعثية الحاكمة نفسها ترغب في اعادة النظر بموقفها من ح ش ع لسببين :

أولهما أن العلاقات تتوتر أكثر فاكثر بينها وبين البارزاني ، خاصة بعد المحاولة الفاشلة لاغتيال هذا الاخير.

وثانيهما أن الحملة البوليسية ضد ح ش ع قد حققت غرضها ، لدرجة كبيرة أذ أدت الى تحطيم معظم تنظيمات الحزب الحزب في البلاد.

ومن المفارقات العجيبة في اجتماع اللجنة المركزية هذا هو أن ما شغل بال البعض من أعضاء الهيأة المجتمعين لم يكن اعادة النظر في خط الحزب السياسي ولا اعادة بناء تنظيماته المحطمة ، بل كان اعادة النظر في التركيب القومي لقيادة الحزب . فقد طرح عامر عبدالله وآخرون ضرورة معالجة أزمة القيادة ـ حسب تعبيرهم ـ وكانوا يقصدون من ذلك هيمنة العناصر الكردية على قيادة الحزب . وفي الحقيقة كانت هذه مشكلة مزعومة ومثارة بدوافع قومية ـ شوفينية عربية . كان انصار هذه الفكرة يرون أن أعلى المناصب في الحزب ينبغي أن يعطى للشيوعيين من العرب ، ان لم يكونوا من السنة العرب.

لقد ظهرت هذه الفكرة أيام قيادة فهد في الاربعينات حين طالب ذوالنون ايوب وغيره بازاحة فهد من السكرتارية لكونه كلدانيا ومسيحيا ، ليتولى عربي مسلم منصب السكرتير العام . الا أن الشيوعيين العراقيين نبذوها وبنوا علاقاتهم الحزبية مع بعضهم على أساس انساني وأممي حقيقي . ولم ح ش ع في صفوفه ابناء جميع القوميات والاقليات القومية والدينية والطائفية دونما تمييز بينهم وحظي سكرتيرهم المسيحي فهد باحترام وثقة الجميع.

ولم تبعث هذه الفكرة الغريبة عن الشيوعية وعن الديمقراطية الا بالارتباط الوثيق مع سلسلة الاخطاء والانحرافات التي وقع فيها الحزب خلال السنوات الاخيرة ، وبالاخص سنوات قيادة عزيز محمد . وقد نشأت في هذه السنوات عنعنات قومية عربية ـ كردية ومسيحية ـ اسلامية . وذهب البعض الى حد تفسير الاخطاء والنكسات بأنها ناجمة عن سيطرة اليهود ـ لفتر ـ والاكراد بعدئذ على الحزب . ووجد من طعن في سلام عادل ايضا لأنه نجفي من أصل ايراني.

هناك حقيقة وجود نسبة من العناصر الكردية في القيادة ، وبالاحرى في المكتب السياسي ، اكبر من نسبة الاكراد الى مجموع سكان العراق . وهذه لم تكن ظاهرة مفتعلة ، بل كانت نتيجة تحطيم العناصر القيادية الرئيسية من العرب خاصة في ردة 1963 . في حين بقيت العناصر القيادية الكردية (كعزيز محمد وكريم أحمد وعمر الشيخ وبهاء...) بعيدا عن متناول أيدي الجندرمة الفاشية . وهناك حقيقة أخرى ايضا وهي أن كردستان العراق كان قلعة للحركة الشيوعية في العراق طوال سنوات كثيرة وحتى سنة 1983 ، حيث ارتكبت قيادة ح ش ع خطأ زج الشيوعيين في اقتتال المنظمات الكردستانية.

وبدلا من أن يتصدى عزيز محمد ، بوصفه سكرتير الحزب ، لهذه الفكرة اللاشيوعية ـ اللاديمقراطية ، القومية الداعية الى تسلط أناس معينين على ح ش ع على أساس قومي وليس على أساس الكفاءة والانتخاب الديمقراطي ، فانه استسلم لدعاتها بخنوع . ففي اجتماع اللجنة المركزية عام 1971 لم يكن رد فعله على عامر عبدالله سوى مناشدة اعضاء اللجنة المركزية لكي يصوتوا لتثبيت عضوية عامر في اللجنة المركزية . وأمام طغيان الفكر القومي العربي المطالب بالتسلط على قيادة ح ش ع رضخ عزيز ووافق ، في اجتماع اللجنة المركزية ربيع 1990 ، على ما سمي ((مراعاة التركيب القومي)) لسكان العراق في اختيار السكرتير والقيادة . وبذلك اصبح من حق الشيوعيين العرب ، بموجب قرار حزبي رسمي ، أن يهيمنوا على قيادة ح ش ع . وفي ذلك نجد أحد الاسباب لحمل الشيوعيين في كردستان على التوجه الى انشاء حزب شيوعي خاص بهم وغير خاضع للحزب الشيوعي العراقي.

****

بعد اجتماع اللجنة المركزية مباشرة طلب مني المكتب السياسي العودة الى بغداد للعمل من أجل اعادة بناء المنظمة الحزبية . لم أرفض الطلب لكنني رفضت جانبا منه ، رفضت أن أكون المسؤول الاول عن منظمة بغداد . وبررت الرفض باني لم أكن متفقا معهم على خطهم السياسي العام ولم أرد تحمل المسؤولية عن تنفيذ سياسة لست مقتنعا بها . عندئذ عين عمر الشيخ مسؤولا أول ووافقت أن أكون مساعدا له . وكنت أعرف عمر كمناضل مخلص متفان عالي الجهادية وكانسان خلوق جدير بالثقة والاحترام . وقد انتقلنا فورا الى العاصمة للمباشرة بالمهمة الحزبية الجديدة.

حين بدأنا العمل الحزبي في بغداد فأننا لم نجد من المنظمة الحزبية سوى أنقاضها . فالحملة البعثية البوليسية كانت قد حطمتها تحطيما تاما . وجدنا في حالة سل²耀ة فقط بضع خلايا حزبية مرتبطة بلجنة قاعدية في الكرخ ينظمها العامل الشيوعي علي عرمش ، وبلغت عضويتها 16 شخصا . وكانت هناك بقايا لخط التنظيم الطلابي عبارة عن صلات فردية لا لجنة فيها ولا خلية . وكان ينظمها حميد البياتي . وكان خط التنظيم النسائي عبارة عن زكية خليفة وزوجتي عائدة التي عادت الى بغداد قبلي باشهر ، ترتبط بهما بضع فتيات.

كان أخطر ما يواجهنا هو الاندساس المحتمل في أنقاض المنظمة . فالاجهزة القمعية قد استغلت الحملة البوليسية ليس فقط لتحطيم المنظمة ، بل كذلك لدس عملائها في بقايا التنظيمات ، بأمل أن تستفيد منهم وتدفع البعض منهم الى مراكز المسؤولية بين الكوادر الوسطية . وضعنا ، أنا وعمر الشيخ ، خطة لجرد بقايا المنظمة ، والتحقيق الدقيق في وضع من يطلب اعادة الصلة بالحزب . كنا نريد اعادة بناء المنظمة فقط ممن نستطيع التوثق منهم . كتبنا اسئلة عديدة نوجهها الى كل شخص ، سواء كان مستمرا في صلاته ام مقطوعا ويطلب الاتصال . وكنا ندرس الاجوبة بدقة ونجري التحقيق فيما يتطلب المزيد من التحقيق . كان عملنا يسير ببطء بسبب صعوبة العمل السري والخوف من القمع . وقد كشفنا عددا من الجواسيس والمندسين ، بينهم مفوض في الامن العام (كان يدعى سعد) تمكن من ادخال عناصر جاسوسية أخرى في صفوف تنظيماتنا . وقد قطعنا العلاقة كليا مع المرتبطين بالخط التنظيمي الذي أمكن للمندسين التسلل اليه.

انضم الينا في العمل الحزبي تدريجيا رفاق آخرون ساهموا بقسط هام في العمل ، بينهم شاكر محمود ونزيهة الدليمي وصاحب الحكيم (وهو شيوعي نجفي من عائلة الحكيم المعروفة ، التي كانت منقسمة على نفسها بين الاتجاهين الشيوعي والديني) وابو جميل وغيرهم.

في تلك الايام من 1972 ، وقد بلغت الخامسة والاربعين من عمري ، لاحظت أثناء قراءة الرسائل وكتابتها صعوبة لم ألحظها في السابق . فراجعت طبيبا اخصائيا وقال لي:

 لاتنزعج يا صاحبي ! انها ضريبة العمر الاعتيادية . فقد اصبحت في حاجة الى المناظر لكي تقرأ وتكتب ، شأن كل انسان ذي عينين طبيعيتين.

****

كانت رائحة الشم أو الحساسية قوية لدى عزيز محمد ليس فقط تجاه مخاطر الهجوم والحملات البوليسية ضد الحزب ، بل كذلك ازاء أي بادرة تراجع أو مرونة في سياسة السلطة البعثية نحو الشيوعيين . ففي ظروف اشتداد التوتر بين السلطة وبين البارزاني والحركة الكردية المسلحة ، وفيما كان ح ش ع ينزف من آثار الحملة البوليسية أواخر 1971 ، اصبح البعث الحاكم في حاجة الى مهادنة الشيوعيين وأخذ ينشر التصريحات والدعوات لعقد جبهة وطنية مع سائر الاحزاب الوطنية . وفي احدى الصحف البيروتية اعطى عزيز محمد الضوء الاخضر عن استعداد ح ش ع للتباحث حول الجبهة . وبدأت مشاريع البرامج الجبهوية تعرض من البعث الحاكم ومن أوساط اخرى ، منها المشروع الذي قدمته قيادة ح ش ع .

كانت الخطوة الرئيسية التالية في طريق التقارب والتعاون مع البعث الحاكم استجابة قيادة ح ش ع لطلب قيادة البعث بالمشاركة في السلطة عن طريق ادخال كل من عضو اللجنة المركزية عامر عبدالله والمرشح لعضوية اللجنة المركزية (منذ 1976) مكرم الطالباني الى الوزارة . على انها كانت مشاركة صورية ولم يصبحا وزيرين حقيقيين طيلة سبع سنوات من وجودهما على كرسي الوزارة . ولم يكن لأي منهما يوما صلاحية حقيقية بقدر صلاحية ضابط أمن صغير . في الواقع لم يكن هناك وزراء بمعنى الكلمة الحقيقي حتى بين البعثيين أنفسهم . ولم يكن مجلس وزراء حتى من قبيل ذلك المجلس الذي كان موجودا في العراق خلال العهد الملكي . كان يمكن ان تتخذ المشاركة في الوزارة شكلا مغايرا فيما لو احتفظ ح ش ع وممثلاه في السلطة بالاستقلالية السياسية في الرأي وفي التصرف بدلا من أن يصبحا ذيلا بائسا لقيادة البعث . وتمنيت لو لم يرتضيا شخصيا بهذا الكرسي الوزاري البائس ولم يقبلا بان يؤديا فقط مهمات روتينية بسيطة بدلا من مهمات وزير يمثل حزبا سياسيا عريقا وذا أمجاد نضالية كبرى ، في حين تلاحق السلطة ، التي استوزرتهما ، رفاق حزبهما وتعذبهم وتقتلهم . يجب الاقرار بأني لا اتحمل شيأ من هذا القبيل حتى لو ادى الامر الى استقالتي من الحزب أو طردي من صفوفه . فالانتساب الى حزب ما لا يجوز أن يقترن بقبول الاهانات والدوس على الكرامة الشخصية والسياسية للانسان .

كانت المشاركة في الوزارة خطوة عملية ملموسة نحو اقامة التحالف الذيلي الذي حولته قيادة ح ش ع الى زواج كاثوليكي مع القيادة البعثسة ـ التكريتية . وكما اسبقت فان الخول في الوزارة جرى في ظروف اشتداد التوتر مع البارزاني ، بما كان يحتم على السلطة تخفيف الارهاب والملاحقات بحق الشيوعيين . وهذا ما اوجد لنا وضعا افضل نسبيا في عملنا على اعادة بناء المنظمة . وعندما اوصلنا عدد اعضاء المنظمة الى 300 - 400 شخص كنا نعتبر ذلك نجاحا هاما لنا في عملنا الحزبي.

والى جانب العمل على اعادة بناء المنظمة بشكل اعتيادي كنا قد أسسنا منذ البداية خطا تنظيميا خاصا منفصلا عن الخطوط التنظيمية الاخرى ، وغير معروف حتى لدى الكثيرين من مسؤولي منظمة بغداد ، وسميناه خط ((فوضك)) . كنا نسعى الى ضم العناصر الموثوقة وغير المكشوفة الى صفوفه . وكنا نبحث بين الشيوعيين المنقولين من خارج العاصمة اليها عن تلك العناصر . استهدفنا من انشاء هذا الخط ايجاد تنظيم احتياطي أقل عرضة للضربات في حالة شن الحملات البوليسية الجديدة .

في وقت لاحق ، بعد انتقالنا انا وعمر الشيخ الى مهمات حزبية أخرى ، ألغي هذا الخط من قبل سكرتير المنظمة الجديد مهدي عبدالكريم ، مع الاستهزاء والسخرية مما كنا قد فعلناه . وصادق المكتب السياسي على هذا الالغاء دون مناقشة . كان ذلك بعد توقيع اتفاق التحالف الذيلي مع البعث وضمن حسن الظن به والتوجه الى كشف كل شئ له.

****

في ايلول 1972 طلبت مني عائدة الموافقة على سفرها الى موسكو للدراسة الحزبية لمدة سنتين . ورغم انني كنت املك آنئذ تجربة وفيرة عن الدراسة الحزبية في الاتحاد السوفيتي ونتائجها بالنسبة الى الشيوعيين العراقيين ، خاصة لذوي الدورات

الدراسية الطويلة ـ لسنتين او أكثر ـ فانني لم أرد أن أكون نموذج الزوج الشرقي المتسلط ، الذي يدعو بالكلام الى حرية المرأة ومساواتها بالرجل ويقف عمليا بالضد من ذلك . فتركت لها الخيار مع اسداء النصح بأن تدرس لمدة عام واحد كاقصى حد .
سافرت عائدة للدراسة بصحبة رجاء كمال الدين ، الفتاة الشيوعية التي نجت من الموت بمجرد الصدفة حين أقام والدها المختل عصبيا مذبحة رهيبة في البيت أودت بحياة الوالدة وسائر الاطفال ، ساعة كانت رجاء خارج المنزل .
بعد انقضاء فترة اقتنعت عائدة ، وهي في موسكو ، بأن لا جدوى من البقاء سنتين للدراسة . فأختصرت المدة الى 15 شهرا وعادت الي أوائل 1974 ، فيما كنت قد انتقلت الى كركوك للعمل في منظمة اقليم كردستان.
****
منذ أوائل 1972 طرحت مشاريع أو برامج مختلفة من قبل ح ش ع وجناح من الحركة القومية الناصرية (عبدالاله النصراوي) واخيرا من حزب البعث الحاكم ، كبرامج للتحالف المقترح . وبعد أكثر من سنة من المناقشات ، التي دارت بالاساس حول الوقيقة البعثية ، تمت الموافقة بين ح ش ع وبين حزب البعث على المشروع البعثي ، بعد اجراء تعديلات طفيفة عليها لم تمس القضايا الجوهرية . فالامور ظلت مطروحة في صيغ عمومية وبشكل أراجيز فارغة غير مفهومة من الجماهير . على أن اسوأ ما في الوقيقة (التي سميت ميثاقا وطنيا) كان اقرار قيادة ح ش ع بالدور المتميز لحزب البعث ، اي دوره القيادي في التحالف ، وباحتكاره لحق العمل لنفسه في القوات المسلحة . كان ذلك شكلا من اشكل التأكيد على نظام الحزب الواحد ، مع اعطاء حق الوجود لأحزاب أخرى شريطة أن تكون تابعة للحزب الحاكم وحتى لسياسته.
والاسوأ من اقرار هذا الميثاق هو ما قام به عزيز محمد منفردا من اتفاق مع صدام التكريتي على اتخاذ القرارات في الجبهة بأغلبية الاصوات ، في حين كانت هذه الاغلبية مضمونة عادة للحزب الحاكم . معنى ذلك الزام ح ش ع بتنفيذ أي قرار يتخذه البعثيون وحلفائهم باسم الجبهة الوطنية . بتعبير آخر فان عقد الجبهة على هذا الاساس اقترن منذ البداية بضياع الاستقلالية السياسية ، بالنسبة الى ح ش ع.
كان التحالف قد عقد عمليا منذ أيار 1972 ، حين وافقت قيادة ح ش ع على المشاركة في الوزارة . غير أن اسباغ الصفة الرسمية ـ القانونية ـ على التحالف ، الذي عقد باسم ((الجبهة الوطنية والقومية التقدمية)) ، جرى في اجتماع طارئ للجنة المركزية في تموز 1973 ، أعقبه التوقيع الرسمي على الميثاق امام مشاهدي تلفزيون بغداد ، يوم ظهر أحمد حسن البكر وعزيز محمد ليوقعا على عقد التحالف.
جرى نقاش حاد في اللجنة المركزية ، التي كانت منقسمة على نفسها حول عقد التحالف بين رأي مؤيد وآخر معارض . وعندما عرض سكرتير الحزب عزيز قضية الانضمام الى الجبهة مع البعث لم يصوت الى جانبه سوى سبعة أصوات بين الحاضرين ، في حين صوت ضده ثمانية اشخاص (كان بين المصوتين للجبهة عزيز محمد وكريم أحمد وباقر ابراهيم وعبدالرزاق الصافي ، وبين المصوتين ضدها زكي خيري ومهدي عبدالكريم وعدنان عباس وسليمان أسطيفان وانا) . وهكذا لم تأت نتيجة التصويت لصالح عزيز محمد . وكان يفترض وفق التقاليد الديمقراطية ـ الحضارية ، ان ينتهي الاجتماع وان يبلغ البعثيون بأن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لم تؤيد عقد الجبهة على أساس البرنامج والشروط المطروحة . لكن الديمقراطية هنا ، عتى في قيادة ح ش ع ، لم تتحول الى تقاليد راسخة في العمل السياسي ، بل هي تنيذ عندما تتعارض مع رغبات قائد الدولة او الحزب الحاكم أو أي حزب سياسي ، ولو كان وطنيا وتقدميا ومن معارضي السلطة . فالسكرتير لم يستسلم للأمر الواقع ، بعد رفض الجبهة باغلبية الاصوات ، بل استأنف النقاش وناشد المشاركين سفي الاجتماع كي لا يضيعوا هذه الفرصة التاريخية في عقد التحالف ولا يخاطروا بمصير الحزب والوطن . وبعد المناقشات الجديدة تم له ما اراد اذ انتقل ـ في التصويت للمرة الثانية ـ عضو اللجنة المركزية احمد بانيخيلاني من صف معارضي الجبهة الى صف مؤيديها . فاصبحوا هم ثمانية وبقينا نحن المعارضين سبعة . وبهذه الاغلبية الهزيلة مرر عزيز محمد هذه القضية المصيرية الخطيرة.
لقد أصر عزيز محمد ومعه مسؤولون آخرون في قيادة ح ش ع على عقد هذا التحالف وراهنوا عليه ، باعتباره طريقا لتطور اللارأسمالي مؤديا في نهاية المطاف الى عراق اشتراكي . وبعد سنوات اجابت الحياة نفسها على كل القضايا المرتبطة بهذا التحالف ـ كما هو معروف.
لابد من الاشارة الى أن ح ش ع بذل مساع لضم الثارتي الى الجبهة . ولم يستجب هذا الاخير لأنه كان قد وقع تحت ضغوط نظام الشاه والاوساط الغربية . وأعتقد ان انضمام الثارتي كان يخلق الاساس المادي لمعادلة سياسة جديدة اذ كان اتفاق الشيوعيين والثارتيين على المسرح السياسي كفيلا بنجاح التصدي لطغيان الحكم البعثي ولفرض بعض الاصلاحات . ولم يكن البديل الذي اختاره الثارتي برفض الجبهة وبتجديد القتال في كردستان بالشئ الافضل . فاذا كان الشيوعيون قد أخطأوا في عقد هذا التحالف الثنائي غير المتوازن مع البعث الحاكم ، فان الثارتيين هم الاخرون قد أخطأوا في الاعتماد على نظام الشاه والاوساط الامبريالية الغربية والانصياع لها في تجديد القتال الذي عاد بضرر جسيم على الشعب الكردي خاصة وكل العراق عامة.
وحتى اذا قبل ح ش ع بابرام التحالف مع البعث الحاكم فان النتائج لم تكن لتنتهي الى هذه المأساة المريرة فيما لو تمسك ح ش ع باستقلاليته السياسية بدلا من أن يجعل من الجبهة تبريرا لانتهاج سياسة التبعية وراء البعث.

أن المعارضة القوية داخل القيادة عام 1973 لعقد التحالف مع البعث الحاكم أخذ يخف تدريجيا خلال السنتين التاليتين حتى اصبح من صوتوا أول الامر ضد التحالف ملكيين اكثر من الملك نفسه ـ جبهويين أكثر من عزيز محمد ـ كما تجلى في مواقف زكي خيري وعدنان عباس ومهدي عبدالكريم وغيرهم.

****

كنت مقيما في بيت حزبي سري بالكرادة الشرقية عندما فوجئت منذ الصباح الباكر باعلان منع التجول في العاصمة كلها لسبب لم أعرفه .ساورتني مخاوف حقيقية وغدوت في موقف حرج حين دخلت مفرزة التفتيش المنزل وحققت في هويات الموجودين . كان ذلك اجراءا ارهابيا من اجراءات السلطة وجهاز القمع الصدامي ، خلافا لجميع الاعراف والقوانين . عرضت هويتي الحقيقية وذكرت أني صحفي أعمل في صحيفة الفكر الجديد العلنية . وابتسم مسؤول المفرزة المفتشة بعد ان عرف أني مع عائلة آثورية . ولم يتصور أبدا أن يكون هذا بيتا حزبيا سريا . بعد يومين من هذا الحادث ذهبت بصبة أحمد بانيخيلاني الى نفس البيت للمبيت ليلا . وفي منتصف الليل أتى عدد من فتيان الحي البعثيين ليدقوا الباب ويحرجونا كما يحرج من يمسك متلبسا بجريمة مضاجعة غير شرعية لامرأة ما . رفضنا فتح الباب لهم وهددناهم بالشكوى عليهم . وفي اليوم التالي تركنا البيت نهائيا ، كما انتقلت العائلة ايضا . كان ذلك أخف ما عمله البعثيون من أعمال الارهاب ، لأنهم لم ينظروا الى ما في البيت الا من الزاوية الاخلاقية.

16

توتر العلاقة مع البارزاني

تجدد القتال في كردستان

بعد توقيع ح ش ع على ميثاق التحالف مع حزب البعث الحاكم أخذ التوتر يزداد في علاقاتنا مع الملا مصطفى البارزاني والحركة الكردية المسلحة . وكما هي العادة الجارية في هذه المجتمعات الشرقية المتخلفة فان البارزاني لم يكن من النوع الذي يقبل بسهولة عدم اذعان الشيوعيين له من حيث الموقف من سلطة البعث الحاكم . كان من المالوف أن يمارس الضغط علينا وان يحول هذا الضغط الى حملة من الاجراءات العملية ضد ح ش ع . ولأن كلا الطرفين كانا يملكان صحفا علنية يومية فان الخلافات المشوبة بالتوتر سرعان ما تحولت الى حرب صحفية مكشوفة وحادة يجري فيها تبادل الاتهامات . وكانت القيادة التكريتية تتفرج بسرور على ما يجري ، انطلاقا من فكرة أن اضعاف اي من هذين الطرفين يعود بالفائدة عليها هي . واستغلت جريدتنا الجريمة النكراء التي ارتكبها الطرف الاخر بقتل اثني عشر شيوعيا كانوا قد عادوا من موسكو ـ بعد انتهاء دورة دراسية حزبية ـ الى سوريا فالى العراق بصورة سرية . وقيل أن عيسى سوار ، الذي كان آمر هيز لدى البارزاني ، كان قد اعتقلهم ، بعد عبورهم الحدود الى المنطقة الكردية ، وقتلهم دون تحقيق أو محاكمة ولمجرد كونهم شيوعيين . وكان بينهم نجم الدين عثمان ، الذي ربطت بينه وبيني علاقة حزبية سابقة وصداقة شخصية.

استمر التوتر يشتد بين الطرفين الى أن وصل حد الايعاز من قبل البارزاني بنزع أسلحة الفصائل الفدائية الشيوعية ـ وكانت قوة مسلحة صغيرة وموجودة في عدة أماكن وتابعة عسكريا لقيادة البارزاني ، قبل أن تصل العلاقات الى هذه الازمة ـ واعتقال وقتل من يعصي الاوامر . كان من ضحايانا ، الذين قتلوا بغدر ، الشيوعي الكلداني (بيه صليوه) ، الذي طوق المسلحون الثارتيون داره في شقلاوة فرفض الاستسلام واتخذ موقفا صلبا وبطوليا في الدفاع عن نفسه حتى قتل . والضحية البارزة الاخرى ، الذي لم يكن ضمن الفصائل الشيوعية المسلحة ، بل كان كادرا فلاحيا نشطا وعضو لجنة محافظة أربيل للحزب الشيوعي ، علي مولود (وهو نفسه الذي عقدنا الكونفرنس الثالث للحزب بداره في قرية داربسر أواخر (1967) الذي اعتقل وتعرض للتعذيب ثم استشهد في قصف جوي قامت به الطائرات العراقية ضد فصائل الثيشمرطة.

في منطقة بالك نزعت أسلحة فدائيينا بسهولة ولم يكن بمستطاعهم أن يقاوموا . الا أن الفدائيين الشيوعيين في قرةداغ وبهدينان رفضوا تسليم السلاح الى جماعة البارزاني . فبدأت الاشتباكات المسلحة بين الطرفين في مسعى لسحق الفصائل الشيوعية . اشتغلت وساطات البعض ودبرت زيارات وفود واشخاص الى البارزاني دون جدوى . وكانت المعارك غير متكافئة ، اذ كان لدى البارزاني عشرات اضعاف ما لدى الشيوعيين من الرجال والعتاد . وبعد ايام من القتال اضطر الشيوعيون الى ترك مناطقهم الريفية والتراج شطر المراكز الحكومية المحمية بوحدات عسكرية . جرى كل ذلك قبل أن يتجدد القتال بين البارزاني وبين النظام البعثي . ورغم أن الفصائل الشيوعية المسلحة في كردستان 1973 كانت قوة صغيرة لاتقارن بما كان في حوزة البارزاني ، فان وقوفها الى جانب السلطة الحاكمة ضد الحركة المسلحة بقيادة البارزاني كان كبير التأثير للغاية على المعادلة السياسية والعسكرية في الساحة العراقية آنئذ.

في مطلع 1974 كان التوتر بين النظام البعثي من جهة وبين الحركة القومية الكردية المسلحة من جهة أخرى قد بلغ أوجه . وكان الصدام المسلح وشيكا لو لم تحدث معجزة.

****

عند بدء المصادمات المسلحة بين فدائيينا وبين فدائيي البارزاني في خريف 1973 انتقلت حسب رغبتي وبموافقة المكتب السياسي الى منظمة اقليم كردستان للعمل فيها . ولأنني لم أكن عضوا في المكتب السياسي للحزب فان مكاني كان في مكتب الاقليم وليس منصب سكرتيره . انتقلت الى كردستان وكنت على قناعة تامة بأن الملا مصطفى قد فقد استقلاليته السياسية

وسلم زمامه الى شاه ايران والى المخابرات الامريكية وانه يحدد موقفه من قضية الحرب والسلم في كردستان وفقق ما يمليه عليه هؤلاء ، الذين لا ينطلقون الامن مصالحهم الخاصة . هذا من جهة ، ومن الجهة الثانية كنت ، شأن فريق آخر من رفاقي ، أطمح الى أن نصبح نحن الشيوعيين أصحاب قوة مسلحة قادرة ليس فقط على التصدي لأي حزب أو زعيم كردي عندما يعتدي علينا ، بل كذلك لسلطة البعث الحاكم اذا ما تحرشت بنا . بعد انتقالي الى كردستان اقمت فترة في كركوك . في كانون الثاني 1974 سافرت الى بغداد لاستقبل في المطار زوجتي عائدة وأصطحبها الى كركوك . وكانت المرة الثانية في حياتي الحزبية من الاقامة في مدينة الذهب الاسود.

كركوك 1974 كانت أكبر بأضعاف من كركوك 1949 . وكان يلاحظ فيها تغير ملموس من حيث التركيب القومي لسكان المدينة . كانت السياسة الرسمية للنظام البعثي هو تهجير العرب الى كركوك وأعطاء من ينتقل منهم اليها امتيازات مادية . وقد استأجرت دارا صاحبها شاب عربي من عشيرة العبيد . ولم ألمس لديه روح العداء ازاء غير العرب . وكانت نسبة الاكراد في النمو ايضا بسبب الهجرة من القرى الى المدينة . لكن نسبة التركمان كانت في هبوط الى مجموع قاطني المدينة . ورغم ان كركوك ظلت مشتهرة بين أهالي السليمانية بالسلق والفجل الجيدين فأني وجدتها تتميز بلحم الخروف الذي أكاد أجزم أنه أفضل ما أكلته من اللحوم الحيوانية.

****

في آذار 1974 سافرت الى مدينة السليمانية بمهمة حزبية . قدر لي أن أكون هناك حين هجرت الغالبية الساحقة من الرجال شبانا وكهولا المدينة ليلتحقوا بالحركة الكردية المسلحة تحت قيادة الملا مصطفى البارزاني ، الذي بلغت شعبيته في تلك الفترة ذروتها والتف حوله أكثر من تسعة أعشار الجماهير الكردية . كانت ظاهرة الانسحاب من المدينة لغرض الالتحاق بالحركة المسلحة ظاهرة شعبية مألوفة . حتى النساء كن ينتقدن علنا في الشوارع والازقة من لم يلتحق من الرجل ، وكن يسخرن منه . كنت أحس بأننا ، نحن الشيوعيين ، غدونا في عزلة حقيقية عن الشعب الكردي . وقد التحق الكثيرون من مؤيدينا ورفاقنا السابقين بالحركة القومية المسلحة . بيد أن العدد القليل من الناس ، سيما أعضاء الحزب ، الذين ظلوا معنا ، كانوا عقائديين أو من أبناء العوائل الشيوعية ـ وكانت هذه نقطة القوة لنا . وعلى العكس من ذلك ، فان مغادرة الكثيرين من الاكراد للمدن بغية الانضمام الى الحركة المسلحة كانت تشكل نقطة ضعف لتلك الحركة كما تشكل عبئا ثقيلا على البارزاني والثارتي.

وقد عقدنا اجتماعا شعبيا امام مقرنا الحزبي دعونا لحضوره الرفاق والاصدقاء ولم يحضره سوى ما يقارب (600) شخص . وتكلمت فيه فقلت انه لشئ مؤسف ان يحدث ما نراه من تشتيت الصف واثارة النزاع بين القوى الوطنية وهجرة هذا العدد الكبير من الناس لبيوتهم وعوائلهم . وتنبأت بأنهم سيعودون زرافات ووحدانا الى المدينة لأن اوساطا أجنبية غير مهتمة بمصالح الشعب الكردي هي الممسكة الان بزمام الامور في الحركة الكردية المسلحة.

كانت التشكيلات المسلحة لدى البارزاني كبيرة جدا ، رغم انه لم أجد احصاءا مضبوطا . وقد قيل انه كان أكثر من (150) ألف مسلح . وهم سيطروا على جميع الاماكن في مناطق كردستان الجبلية وفي الكثير من السهول أيضا . ولم يبق في ايدي السلطة سوى المدن . وتأتى على القوات الحكومية أن تسترجع الطرق الرئيسية بقتال عنيف كلفها تضحيات غير قليلة . وقد بقيت في مدينة السليمانية اضطرارا لأن القوات الكردية التابعة للبارزاني كانت مسيطرة على طريق السليمانية ـ كركوك.

خلال الايام التي قضيتها في السليمانية كنا مضطرين الى تنظيم الحراسة المسلحة في البيت الذي كنا نبيت فيه ليلا . وفي معظم الليالي كنا نبقى في منزل عضو لجنة المحافظة د. طاهر بابان ، بصحبة سكرتير المحافظة نائب عبداللة وعضو اللجنة نوروز شاويس وغيرهما . كانت في المنزل ارملة كردية ريفية الاصل تدعى (عائشة) . وهي تحتك بنا وتخدمنا واحيانا تجلس بيننا . وبعد اكثر من اسبوعين سألت ذات مساء عما اذا كنا جميعا ، بمن فيهم طاهر بابان نفسه ، من الشيوعيين أم من الثارتيين ! وكنت ذات مساء في بيت الكادر الشيوعي أحمد حامد . وذكرتني زوجته بأنها تلك الصبية التي حملت الي رغيفا حارا يوم التجأت الى هناك بعد تفرق احدى مظاهراتنا في شتاء 1949 . ولم أتمالك نفسي من التفكير فيما كنا عليه عام 1949 ، حين كانت جماهير السليمانية معنا ، وما أصبحنا عليه في 1974 ، حيث لم يبق معنا سوى أقلية ضئيلة من سكان المدينة.

وقبل أن تستعيد السلطة سيطرتها على طريق السليمانية ـ كركوك عدت الى كركوك في طائرة عمودية عسكرية . وعرضت على الضابط ، الذي كان في الطائرة هويتي المزورة . وقد اخذوا مني مسدسي حتى النزول من الطائرة . وكان العسكريون فيها ، وهم اربعة او خمسة ، يتجنبون الاحتكاك معنا وتبادل الحديث ربما خوفا من أحد رجال الاستخبارات بينهم.

****

أتاحت لي ظروف العمل الحزبي في 1974 الفرص لمشاهدة أنحاء جديدة ، لأول مرة ، في كردستان العراق . زرت مقرات فدائيينا في القرى اليزيدية الكردية والتقيت هناك بكوادر ريفية نشطة امثال علي خليل . وزرت قرية (خدر ولي) بالقرب من مدينة الدوز أثر كارثة مريرة أنزلت بوحدة مسلحة من فدائيينا ، حيث شن مسلحو الثارتي هجوما عليهم وقتلوا منهم (11) فدائيا . ولم يحدث ذلك بمعزل عن قلة اليقظة والغباء لدى مسؤول قوتنا هناك ، اذ نبه الى ظهور حشد من الناس ـ كان الهجوم في وضح النهار ـ بعيدا متجها الى القرية فقرر أن هذا الحشد ليس سوى قطيع من الاغنام ! وقد انهارت معنوية وحدتنا ، التي تكبدت تلك الخسارة . ولم تعد قادرة على خوض القتال حتى أمد طويل.

وزرت كذلك قرية (نبي آوا) على بعد 35 كم من كركوك ، حيث تعرضت وحدتنا الفدائية لهجوم ليلي عنيف من قوة فدائية كبيرة تابعة للبارزاني . وقد ترك ملا شكر المسؤول السياسي لوحدتنا القرية منذ بداية الهجوم المعادي ولم يتوقف عن السير في تلك الليلة الا في مدينة كركوك ، زاعما بأن فدائيينا قد ابيدوا كليا جراء هجوم القوة المعادية .
وعندما وصلنا نبي آوا وجدنا العكس حيث كان نفر قليل من سريتنا الفدائية قد صمد ، تحت قيادة آمر السرية الفدائي الشيوعي المحنك بكر تلاني ، ودحر المهاجمين والحق بهم خسائر فادحة.
وزرت دربنديخان حين كانت قوتنا الفدائية في منطقة قرةداغ قد حشدت هناك بقيادة الفدائي المخضرم ملا علي (عبداللة ملا فرج) وكانت أكبر وحدة مسلحة لنا في ذلك اليوم . ومن الطرائف العالقة بذهني عن تلك الزيارة هو ما روى لي ملا علي من حادث تحقيق مع رجل اعتقلوه وعثروا في جيبه على رسالة موجهة الى أحد فدائيينا لتحريضه ضد الشيوعيين . أنكر الرجل المتهم ، رغم أنه عذب قليلا ، كل علاقة له بالرسالة طيلة يومين كاملين . وعندما أخذه أحد فدائيينا الفلاحين الى احمد الغرف وخيره بين الاعتراف بالحقيقة وبين تقبل الاعتداء الجنسي عليه أسرع المتهم الى الاعتراف بكل شئ . لقد لمت ملا علي على هذا النمط من التحقيق . وبرر الامر بأنه كان اقتراحا من احمدهم ولغرض التخويف فقط .
وزرت كذلك مدينة سيد صادق ، حيث تكونت وحدة فدائية لنا من شيوعيي حلبجة وشهرزور ، تحت قيادة الشاب الشيوعي المتحمس ابراهيم صوفي محمود .
وقد نقلنا مقر قيادة منظمة اقليم كردستان للحزب الى مدينة أربيل حيث كان لنا مجال افضل للتحرك . واستأجرت هناك دارا ملكها المعلم الشيوعي أحمد شيخو . وجدت في حديقة الدار ، لأول مرة في حياتي ، نبتات النرجس وهي محتفظة بنشاطها وتزهر طيلة السنة تقريبا . وازهارها عبقة اكثر من ازهار النرجس البري الذي يقتصر نشاطه وازهاره على موسم الربيع وحسب.
****
شرع قانون الحكم الذاتي للمنطقة الكردية في وقت كان البارزاني قد حسم موقفه برفض الانضمام الى التحالف الجبهوي ورفض التفاهم والتعاون مع السلطة . ورغم ادعاء قيادة ح ش ع بان القانون شرع بمشاركتها في صياغتها ، فان تاثيرها في المسألة كان محدودا جدا . على أن المشكلة الرئيسية لم تكن في نواقص القانون نفسه ، انما كانت في حقيقة أن الطرف الامر الناهي كان الحكم البعثي وحده وان ح ش ع ارتضى لنفسه الدور الذيلي . وقد اوجدت السلطة هوة عميقة بين القانون وبين تطبيق بنوده . كان القانون ينص ، على سبيل المثال ، على اجراء انتخابات للمجلس التشريعي .... لكن اجراء انتخابات حرة كان من رابع المستحيلات في ظل سلطة صدام ـ البكر . فالجهة التي أمسكت بزمام الامور في كردستان ـ شأن العراق كله ـ كانت دائرة الامن العام وحسب . وأكرر هنا أن الوضع كان يمكن ان يسير على منوال آخر فيما لو وقف البارزاني والشيوعيون موقفا موحدا ، سواء ضمن التحالف الجبهوي مع السلطة أو ضمن معارضي السلطة .
بموجب اتفاق ابرم مع قيادة البعث الحاكم خصصت لنا (13) مقعدا في المجلس التشريعي المزعوم و (3) مقاعد في المجلس التنفيذي المزعةم . وكنت أخشى أن يطلب مني الدخول في المجلس التنفيذي بعد أن طرق سمعي بعض التلميحات . فاتحت عمر الشيخ وقلت له لن اقبل ذلك مهما يكن الامر ، وقال من جانبه أنه لن يقبلها حتى ولو أدى الى استقالته من الحزب . كان المسؤول الحزبي عن كتلتنا البرلمانية يوسف حنا . وكان بين أعضائها سامية الضاوشلي وأحمد دلزار الشاعر ونجم الدين مامو وقادر رشيد وابراهيم صوفي محمود وخيري القاضي . وكانت مهمة ممثلينا صعبة للغاية لأن السلطة كلها كانت في أيدي الاجهزة القمعية المرتبطة بصدام مباشرة ولأن الحكم الذاتي كان مزيفا كليا . وفيما كان هذا الحكم الذاتي الصوري قد وضع موضع التنفيذ كانت الحزب في كردستان جارية على قدم وساق.
****
في صيف 1974 حصلنا ، أنا وزوجتي ، على مقعدين للراحة في الاتحاد السوفيتي . وغادرت العراق لأول مرة منذ أن عدت اليه في 1964 . كان سوجي مكاني المفضل للراحة . وتمتعنا باستراحة جيدة في مصح اللجنة المركزية هناك . حسنت عائدة سباحتها . كنا نجالس ونحادث هناك كوادر حزبية من الروس خاصة . ولأول مرة سمعت بعضهم ينتقدون صراحة قيادة بريجنيف . ورسخت قناعتي ، الموجودة قبلئذ ، بأن هناك سخطا على النهج الذي كان يسير عليه بريجنيف وزملاءه في القيادة . وتفرجنا في موسكو ، ربما للمرة الخامسة بالنسبة الي شخصيا ، على رقصة البالي ((بحيرة البجع)) تؤديها الراقصات السوفيتيات بمنتهى البراعة . وبقينا يومين في فندق فخم على بحر البلطيق بلاتغيا . كان مرافقنا اللاتيفي يكثر من الشرب ويستغل وجودنا لطلب المشروب حتى في الصبح ، أثناء الفطور . وتركنا الاتحاد السوفيتي لنبقى ضيوفا على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الضيكوسلوفاكي بعض الايام ولنسافر من هناك بالقطار وعلى حسابنا الخاص الى ألمانيا الشرقية ضيوفا على صديقة زوجتي الفتاة البصرية هناء أدور بوشه التي كانت ممثلة العراق في الاتحاد النسائي العالمي . وحين عدنا الى العراق كان قد انقضى على سفرنا اكثر من شهر ونصف . وحاول فاتح رسول وضعي موضع المحاسبة الحزبية بحجة انني جاوزت المدة المحددة لأجاز تنا.
عند العودة الى العراق وجدت ما لم يكن من تقاليد الشيوعيين العراقيين سابقا ، واعني تقديم التهاني والهدايا من المنظمات الحزبية ، بضمنها منظمة اقليم كردستان ، ووفودها الى سكرتير الحزب عزيز محمد بمناسبة بلوغه السن الخمسين في

1974/7/1 (وهذا التاريخ لميلاد العراقيين يدل على أن ليس من المعروف متى ولدوا) . ولعل هذه الظاهرة كانت نقلا حرفيا لما كان يجري في الاتحاد السوفيتي وبعض بلدان أوربا الشرقية ، حيث كانت الحفلات الكثيرة تقام بمناسبة أعياد ميلاد بعض القادة كجزء من مراسيم عبادة الفرد . وقد قررت منذ ذلك الوقت الا أحتفل أبدا بعيد ميلادي . ولم أحتفل به فعلا طيلة عمري رغم أنني اعرف تاريخ ولادتي الحقيقية ، منذ اكثر من ثلاثين عاما . ولم اتلق بهذه المناسبة شيأ سوى رباط اشترته لي عائدة ذات مرة.

****

لم تكن تشكيلاتنا المسلحة قوة تذكر بالمقارنة مع قوات البارزاني في 1974 . فقد كان جميع ما لدينا بضعة الوف من المسلحين أو أقل مقابل أكثر من مئة ألف مسلح لدى الطرف الاخر . يضاف الى ذلك أن تشكيلاتنا كانت قوة عسكرية غير مستقلة ـ شأنها في السابق ايضا ، يوم كانت تابعة للبارزاني ـ بل تابعة عمليا لقوات السلطة البعثية ومعتمدة عليها من حيث التموين والتسليح والعتاد (وكان الطرف الاخر معتمدا هو الاخر ، من حيث التسليح والتمويل ، على نظام الشاه ، والمخابرات الامركية ـ الاسرائيلية) . بيد أن تشكيلاتنا كانت متماسكة فكريا لدرجة كبيرة وذات معنوية جيدة عموما وكانت من أبناء المنطقة الكردية نفسها.

ورغم أن ح ش ع كان في تحالف ستراتيجي ومصيري مع النظام البعثي ورغم أن مسلحينا كانوا يلعبون احيانا دورا حاسما في بعض المعارك ، فان قيادة السلطة لم تستشر يوما قيادة ح ش ع ولم تشركها في مناقشة واتخاذ قرار متعلق بمجرى الحرب . كانت تبعية التشكيلات الشيوعية المسلحة أمرا مفروضا علينا في طروف تناسب القوى التي كانت لغير صالحنا . لكن الطامة الكبرى هي أن قيادة ح ش ع اقرنت التبعية بالتبعية السياسية أيضا وراء القيادة التكريتية.

****

أثناء تجوالي في كردستان عام 1974 سنحت لي الفرصة لمشاهدة آثار نمرود ، الملك الاشوري الذي نصب نفسه الها فوق الارض واورد القرآن أسمه . وكانت هي المنطقة الاثرية الوحيدة بين المناطق الرئيسية ، التي لم اشاهدها قبلئذ . لفت انتباهي اختلاف الفن المعماري في قصر نمرود عما في بابل وحتى الحضر القريب من الموصل . وتفرجت على صورة منحوتة لنمرود بالحجم الطبيعي تقريبا على لوحة صخرية كانت تشكل في وقت ما جدارا لاحدى الغرف في القصر . واشد ما أثار انتباهي هو لحيته السوداء ، بل شديدة السواد ، التي لاتزال محتفظة بذلك الصبغ الذي اصطبغت به قبل أكثر من ألفي سنة . أي صبغ كان هذا ؟ لم أجد بين الاثار ذلك الطابوق الذي يشاهده المرء في قصر بابل ولا ذلك الشكل من الصخور التي أنشئ بها قصر الحضر.

بهذه المناسبة أود الاشارة الى انني تجولت في معظم مناطق كردستان (في العراق وايران وتركيا وسوريا) ووجدت في كلها تقريبا كثرة من الاسماء الاشورية (أو السريانية) لقرى وللجبال وللاثار والمعابد القديمة وغيرها . ومن المؤكد أن هذه الاسماء ما كانت لتظهر لولا وجود فلاحين آشوريين عاشوا في هذه القرى لحقبة زمنية طويلة . فهل عاش الاكراد والاشوريون وقتا ما في وطن مشترك أم أن هذه اتلظاهرة تعود الى عهود تسلط الامبراطورية الاشورية أم غير ذلك ؟

تسنى لي أن أزور المتاحف الاثرية في ألمانيا وبريطانيا ايضا . ووجدت هناك من الاثار الاشورية اكثر مما وجدت في العراق نفسه . وأظن أن تلك الاثار لابد أن تعود ذات يوم الى اماكنها الاصلية وأن يزورها الالمان والانطليز وسائر الاوروبيين ، الراغبين في مشاهدتها ، في هذه الاماكن نفسها.

17

انهيار الحركة الكردية المسلحة

كانت الحركة الكردية في أوج قوتها . وكان الأمر يبدو لمن ينظر اليه من بعيد وكأن القتال يستمر الى ما لا نهاية ، دون أن تستطيع السلطة احراز نصر حاسم . لكن الجميع فوجئوا بصورة غير متوقعة ، في آذار 1975 ، بانهيار هذه الحركة كما ينهار قصر مشيد من الرمال . كان امرا غريبا بالطبع ان تنهار بين عشية وضحاها حركة جماهيرية مسلحة التفت حولها الغالبية الساحقة من شعب كردستان العراق ، وملكت في أيديها اكثر من مئة ألف مسلح وكميات هائلة من السلاح والعتاد والمال وغير ذلك.

كانت الجماهير الكردية محقة حين اطلقت على هذا الانهيار تسمية (آشبتال) ـ وهي مصطلح كردي تعني الانهيار التام الشامل . فالانهيار كان تاما في الميدان العسكري والسياسي والمعنوي معا . وبدأ الناس يعودون من الجبال جماعات ووحدانا الى المدن ليسلموا انفسهم واسلحتهم مكرهين الى السلطات . وهبطت اسعار الاسلحة حيث اصبح بالامكان شراء بندقية الكلاشنكوف ببضعة دنانير أو الحصول عليها مجانا.

اما كيف استقبل النظام البعثي هذه الحشود البشرية المنهارة معنويا والمستسلمة بخنوع فان كل ذلك كان على الطريقة العجيبة التي لايمكن تسميتها الا ب ((الطريقة البعثية ـ الصدامية)) . فالسلطة منعت حلفائها الشيوعيين من أي تدخل في امور الاكراد العائدين وحصرت حق التعامل معهم في اجهزتها القمعية وحدها ، واخذت تعتقل وتقتل وتبعد عشرات الألوف الى المناطق العربية النائية . ان الاكراد العائدين عوملوا بطريقة همجية بعيد عن التعامل القانوني ـ الحضاري بعد السماء عن الارض.

أما سبب هذا الانهيار الفجائي الشامل ، فان ذلك مايمكن أن تختلف حوله الآراء . لكن مالا يقبل الجدل هو أن الانهيار اقترن مباشرة بعقد اتفاق الجزائر بين صدام وبين شاه ايران ، بل انه كان النتيجة المباشرة لهذا الاتفاق . وبديهي ان الاتفاق كان صفقة مساومة بين الطرفين ، حصل من ورائه صدام على النصر الحاسم ـ على الاقل في تلك الفترة ـ وحصل شاه ايران على مالم يحصل عليه لا في العهد الملكي ولا في عهد قاسم ولا في عهد آل عارف ـ حصل على ما اراد في شط العرب واراضي حدودية اخرى واسعة.
برر صدام في وقت لاحق صفقة المساومة هذه مع الشاه بالادعاء ان الجيش كان يفتقر الى السلاح والعتاد وكان عاجزا عن مواصلة القتال ضد المتمردين الاكراد . واظن ان هذا مجرد ادعاء كاذب ، استهدف من ورائه تبرير صفقة المساومة مع حاكم كالشاه . فالسبب الحقيقي ، وربما الوحيد ، وراء هذه المساومة هو حمل الشاه على قطع العون عن البارزاني.
ومن المؤكد أن هذا الاتفاق ، الذي أدى الى انهيار الحركة الكردية المسلحة ، لم يعقد بمعزل عن موافقة ومباركة الاوساط الأمريكية الحاكمة ، التي لم تشعر بأنها تخسر شيئا اذا انهارت الحركة المسلحة في العراق ، في وقت كان نظام الحكم في كلا البلدين ، ايران و العراق ، مواليا لها ومؤتمرا بأمرها.
كان للملا مصطفى البارزاني شخصيا ، بوصفه الزعيم الاوحد للحركة الكردية المسلحة آنئذ ، دوره الخاص ومسؤوليته الشخصية المتميزة ، بل الاساسية ، بقدر مايتعلق بتحديد موقف الجانب الكردي ازاء ماحدث . فهو كان صاحب الكلمة الحاسمة وكان في مركز يؤهله لان يقبل أو يرفض ما طبخ ضد الشعب الكردي . وقد قبل ، مع شديد الأسف ، الاستسلام المذل . فاصبح ـ شاء ذلك أم أبى ـ جزءا من الصفقة المبرمة التي عززت نظام البعث العفلقي . ذلك لأنه أوقف القتال فور اعلان الاتفاق ونفذ رغبة الشاه وشجع اتباعه على الاستسلام للسلطة ، في وقت كان بمستطاعه أن يواصل القتال بما كان في حوزته من رجال ومال وسلاح عتاد ومن تأييد شعبي كبير . من المؤكد ان عدد مساحيه كان يتقلص لدرجة كبيرة وان صعوبات جدية كانت تعترض طريق النضال القومي التحرري للشعب الكردي . غير أن النتيجة كانت تنتهي الى وضع افضل والى تضحيات اقل بالنسبة للجماهير الكردية . وحتى اذا كان يجد نفسه متعبا وعاجزا عن مواصلة الكفاح المسلح ، بسبب كبر السن والوضع الصحي ، فانه كان قادرا أن يوجه بيانا الى الشعب الكردي يستنكر فيه موقف نظام الشاه ويدعو ابناء الشعب الى تدارس الوضع ومواصلة الكفاح ويعلن أنه مضطر الى ترك الساحة الساخنة لاسباب اضطرارية . فالانصياع لمشيئة الشاه وللاوساط الغربية في آذار 1975 كان اكبر خطأ سياسي وعسكري ارتكبه البارزاني طيلة عمره . وكان خطأ جسيما لقادة الثارتي وكل الحركة القومية الكردية ان التزموا الصمت تجاه ماحدث وخضعوا جميعا لما قرره او اوصى به البارزاني .
وقد ادرك الكثيرون من هؤلاء خطأهم هذا ، ولكن بعد فوات الأوان ، بعد مرور سنة أو اكثر على النكسة.
****
وماذا يمكن ان يقال عن موقف ح ش ع من نكسة 1975 ؟
كان هناك اجماع في الراي لدينا ضد مسار البارزاني والثارتي في الاعتماد على شاه ايران والأوساط الغربية . غير ان الاهداف من وراء ذلك كانت متباينة . فالبعض اتخذ هذا الموقف لكي يؤمن مسيرة ((التطور اللارأسمالي)) وتحول صدام التكريتى الى ((كاسترو العراق)) فيما استهدف فريق آخر تعزيز الدور المستقل للحزب وتنمية قدراته النضالية وتوثيق صلاته بالشعب الكردي.
ومنذ انتكاسة الحركة الكردية المسلحة في ربيع 1975 تبلورت وجهتا نظر مختلفتان في الحزب:
الأولى ـ كانت ترى في هذه الانتكاسة اندحارا لـ ((الجيب العميل)) ـ على حد تعبيرهم ـ وانتصارا تأريخيا للحكم الوطني التقدمي السائر صوب الاشتراكية . كانت هذه وجهة النظر الرسمية لقيادة الحزب ، أو غالبيتها . ورغم اني لااميل الى الاقتباسات ، فانني انقل هنا فقرات موجزة من تقرير قدمته القيادة باسم اللجنة المركزية الى المؤتمر الثالث :
))ويقف في مقدمة منجزات الجبهة وضع قانون الحكم الذاتي لمنطقة كردستان وتصفية التمرد اليميني الرجعي فيها)) (من تقرير ل . م . ألقاه عزيز محمد أمام المؤتمر الثالث) . وكذلك : ((ان انهيار التمرد الرجعي المسلح خلق امكانية موضعية أفضل لتطبيق الحل السلمي ـ الديموقراطي للمسألة الكردية)) (نفس المصدر. (
الثانية كانت وجهة نظر الغالبية الساحقة من مسؤولي وكوادر منظمة اقليم كردستان للحزب . وخلاصتها أن انتكاسة الحركة الكردية المسلحة ستتحول الى انتكاسة للحركة الشيوعية ولكل الحركة الوطنية ايضا اذا لم يبادر ح ش ع الى اتخاذ موقف سياسي سليم تجاه الوضع المستجد في كردستان ـ المستجد بسبب الانتكاسة .
بعد انهيار الحركة الكردية توفرت فرص حقيقية أمام الشيوعيين للخروج من عزلتهم الشديدة في كردستان عن طريق استمالة الجماهير الكردية وأستعادة ثقتها . كان ذلك ممكنا وسهلا الى حد لأن الجماهير قد يئست من القيادة التقليدية البرجوازية ـ العشائرية وكانت تبحث عن قيادة جديدة تدافع عن حقوقها ومصالحها . يضاف الى ذلك ان الجماهير الكردية اصبحت في محنة عميقة ومريرة بسبب البطش والتنكيل الدموي البعثي . فكان الدفاع عنها واجبا انسانيا و وطنيا وطبقيا معا . وقد انتبهت قيادة منظمة الاقليم ، وكنت احد اعضاء مكتبها ، الى هذه الحقيقة وطالبت بالتحرك وفق متطلبات الظروف المستجدة . لكن القيادة المركزية ، وبالاخص الشخصيات الرئيسية ذات القول الفصل أمثال عزيز محمد وزكي خيري وباقر ابراهيم ، لم

تدرك شيئا من ذلك . بل كانت تعيش في أوهام التطور اللارأسمالي والسير صوب الاشتراكية . منذ اولى ايام النكسة اجرينا نحن في الاقليم مداولات وعقدنا اجتماعا ثبتنا فيه صيغة التوجيهات والقرارات ، التي كانت تتلخص فيما يلي:

- انهيار الحركة الكردية المسلحة يزيد من غرور النظام البعثي ويدفعه نحو تغيير العلاقات مع ح ش ع ايضا . فالنظام سيجعل من الشيوعيين هدفا للضربة التالية بعد أن افلح في توجيه ضربة قاتلة الى الحركة الكردية المسلحة.
- في اجواء الغرور ونشوة النصر ستتمادى القيادة البعثية في البطش والتنكيل بالجماهير الكردية ، بدلا من الاستجابة لمطالبها المشروعة وتطمين ممارستها للحكم الذاتي الحقيقي.
- ولهذا يتحتم تجدد القتال في كردستان العراق.
- يجب أن نرسم ، نحن الشيوعيين ، خططنا وشعاراتنا اللاحقة على ضوء الحقائق المار ذكرها وان ندافع بجرأة عن اهداف وأماني الشعب الكردي كي نستعيد ثقته بنا ونعزز بجميع السبل والاساليب المناسبة ، بما في ذلك استخدام العنف ضد السلطة ، نضاله التحرري العادل .

قررنا عقد اجتماع طارئ للجنة الاقليم كي نناقش هذه التوجيهات المقترحة زنحدد موقفا ملموسا . وحضر (21) شخصا في الاجتماع وجرى نقاش مستفيض صوتت على أثره اللجنة بأغلبية (18) شخصا على مقترحات مكتب الاقليم المشار اليها آنفا . وعارضها بالكامل عضو مكتب الاقليم يوسف حنا القس وفاتح رسول وتذبذب بين الرايين عادل سليم وحده . وبعد انتهاء الاجتماع اسرعنا في ارسال المحضر الى المكتب السياسي للحزب ، وطالبنا بدراسة مستعجلة لمقترحاتنا وبعقد اجتماع طارئ للجنة المركزية لدراسة القضية بمجملها.

كنا نبحث فيما بيننا احتمالات اللجوء الى السلاح ضد السلطة . وكنا نزعم بأن المكتب السياسي سيستجيب لطلبنا . وانطلاقا من ذلك اتفقت مع القائم باعمال شكرتير الاقليم سليمان اسطيفان (أبو عامل) ـ في ظروف غياب سكرتيرنا عمر الشيخ ـ على استثمار فرصة هبوط اسعار الاسلحة لشراء بضع مئات من الكلاشنكوفات الجديدة . وابلغنا عضو مكتب محافظة اربيل ملا بكر لكي يتهيأ للسفر الى منطقة راوندوز بهدف شراء هذه البنادق وخزنها في مكان مناسب . واستعد الرجل للتنفيذ عند أول ايعاز منا.

ذلكم كان نهجنا في التفكير الساسي ، حيث كنا قد شاركنا في القتال ضد البارزاني لا لنكون أداة مسخرة للنظام البعثي ضد الشعب الكردي ، انما لعدم موافقتنا على ما جرى من تسليم مصير الحركة القومية المسلحة الى الشاه والأوساط الامريكية ـ الاسرائيلية . كنا ضد الخضوع لتلك الاوساط وضد الاعتماد الكلي عليها .. في الوقت نفسه لم تكن لنا ثقة بنظام البعث ولم نرد تحويل نكسة الحركة القومية الكردية الى عامل انتصار واستقرار لهذا النظام . بل أردنا ان نستثمر الوضع المستجد لنصبح اصحاب قوة مسلحة في كردستان قادرين على ان نتصدى لتجاوزات الحكم البعثي وايقافه عند حده.

اعترف باني كنت في وهم بالنسبة الى ما يمكن أن يكون موقف المكتب السياسي من مقترحاتنا . كنت اتصور ان توجهاتنا وقراراتنا ستكون مفهومة ومقبولة لدى المكتب السياسي ايضا . الا انه سرعان ما اتضح وجود فرق جوهري بين تفكير وتصورات الطرفين . فعلى العكس مما سكنا نفكر ، كان اعضاء المكتب السياسي ـ مع بعض الفارق بين هذا وذاك منهم ـ فرحين بانتصار السلطة وغاضبين علينا ، معتبرين انتصار النظام عسكريا على التمرد الكردي انتصارا للشيوعيين ايضا . والشئ الذي لم يفكروا فيه ابدا هو احتمال التصادم مع السلطة وتفكك العلاقات الجبهوية . فالطريق الجبهوي ، الذي اختطوه ، كان فوق كل شئ لأنه كان طريق الوصول الى الاشتراكية ! والحرص على صيانة هذه المسيرة كان أهم قضية بالنسبة اليهم . وأظن أن هذا النمط من التفكير عندهم لم ينشأ بمعزل عن الحياة الهادئة الهانئة ـ بالنسبة اليهم ـ التي تحققت نتيجة قبولهم للتحالف الذيلي.

جاءنا الجواب على محضر اجتماع لجنة الاقليم الطارئ سريعا . قال لنا المكتب السياسي ((عرب وين وطنبوره وين)) . نقلوني برقيا ومن دون أي لقاء اؤ تباحث معي الى المدرسة الحزبية في بغداد لاكون هناك مجرد محاضر ، ربما لانهم اعتبروني المسؤول الأول عما جرى في الاقليم . ونقلوا احمد بانيخيلاني الى بغداد ليقضي شهرا في ((امرة الادارة)) بالمقر العام . وبدأوا يرسلون هذا وذلك الى أربيل للاجتماع باعضاء المكتب ولجنة الاقليم لغسل ادمغتهم ((المتخلفة)) . ولما كانت السلطة الحزبية العليا في أيدي المكتب السياسي ، الذي وضع نفسه دوما فوق اللجنة المركزية للحزب ، فان آراء لجنة الاقليم قد قمعت بقدر من السرعة وبقيت آراء المكتب الساسي تشكل السياسة الرسمية للحزب . ورضي المكتب السياسي بما قررته قيادة البعث من عدم السماح للشيوعيين بالالتقاء مع الاكراد العائدين ويتجاهل دور ح ش ع ودور وزيريه اللذين ظهرا على المسرح السياسي كخراعتي خضرة وحسب.

وأما تشديد القمع والارهاب الدموي بحق الجماهير الكردية ، وأما هدم مئات القرى الكردية وتهجير سكانها الى المنافي خارج كردستان ، وأما ازهاق أرواح اعداد كبيرة من الاكراد الأبرياء غير المسلحين ، وأما ... وأما ... الخ : فان المكتب السياسي التزم الصمت التام تجاه كل ذلك ، أو اكتفى ـ بعد اشهر من المناقشات ـ بهمسات أو تقديم رسالة سرية الى صدام لتذكره بأن ما يجري تنفيذه بحق الشعب الكردي لاينسجم مع مصالح الحكم الوطني التقدمي ! في تموز 1973 ، يوم ابرم ميثاق الجبهة ، كنا نحن المعارضين للتحالف الذيلي نسبة كبيرة من اعضاء القيادة مما اسبقت . لكن عددنا استمر ينخفض تدريجيا وباطراد . وكان منا من عارض أول الأمر ثم غدا ملكيا اكثر من الملك نفسه ـ كما اسبقت.

****

بانتقالي الى المدرسة الحزبية في بغداد انقطعت عن متابعة النهج المتبع من قبل قيادة الحزب في كردستان . وكان الجميع على علم بأني غير موافق على مايجري هناك وعلى خط الحزب السياسي العام . وكان مدير المدرسة خضضير عباس السماوي ، الذي تعرفت عليه في سجن نقرة سلمان عام 1955 ، وكان من لاعبي الفريق الأول في السجن ، كما كان قد اعتقل اثناء انقلاب 1963 الفاشي ، وقيل انه وقف موقفا ضعيفا . وهو لم يكن انسانا سيئا على أية حال ، رغم انه لم يكن قادرا على القاء المحاضرات حول أي من المواضيع الرئيسية في المدرسة.

ابديت استعدادي لتدريس المادة التي تعهد الى بين المواد الاساسية رغم انني اعتبرت نفسي دوما ملما بقضايا التنظيم وبناء الحزب اكثر من غيرها . فعهد الي بمادة تأريخ الحركة العمالية والشيوعية العالمية ، مع محاضرات معدودة حول بناء الحزب . وكان زملائي في التدريس الشيوعي الكلداني طورطيس المحاضر في الاقتصاد السياسي ، الذي رضي عن اسلوبه الطلاب ، وحامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة نمير العاني الذي لم يرض عن اسلوبه الطلاب أبدا . وكان يستقدم آخرون لالقاء محاضرات حول قضايا معينة سياسية أو اقتصادية أو غيرها .

قبلت على مضض ان اكون محاضرا في المدرسة ولم اكن راغبا في تسلم أية مهمة حزبية ـ بسبب عدم موافقتي على خط الحزب السياسي المتبع ـ كما لم ترغب القيادة في اسناد أي مهمة اخرى الي . لكنني اعترف ، والوم نفسي على ذلك ، لانني لم افكر في تلك الفترة في الانفصال عن تلك القيادة ولم انتبه الى انه يجب أن انفصل منذ ذلك الحين عن ذلك الحزب أو عن تلك القيادة . كنت اسيرالنصية والجمود العقائدي والتقاليد الخاطئة ، التي تربينا عليها في ح ش ع لفترة طويلة ـ وهي ان المشاكل يجب أن تحل داخل الحزب نفسه ولا يجوز ايصال الصراعات الى حد الانشقاق .

****

بعكس ما فكرنا نحن في منظمة الاقليم حين قررنا استغلال هبوط اسعار الاسلحة لشراء المزيد منها ، فان المكتب السياسي كان قد قرر في 1975 ليس فقط اعادة الاسلحة المستلمة من السلطة نفسها ، بل كذلك تسليم قطع الاسلحة الخاصة بالحزب والتي غنمت بدماء شهدائنا وبنضال مقاتلينا . وقد سلمت هذه الاخيرة فعلا رغم معارضة الجميع أو الغالبية الساحقة من الكوادر . وقام عضو المكتب السياسي كريم احمد (الذي أصبح في عهد التحالف مع البعث ملكيا اكثر من الملك) بجولات وعقد لقاءات مع الكوادر الحزبية والعسكرية للتأكيد على وجوب تنفيذ قرار المكتب السياسي بتسليم الاسلحة كاملة ودون اخفاء اي شئ منها . وقال بلهجة حازمة امام مسؤولي قاعدتنا في قرةداغ:

- يجب تسليم كل شئ ولانقبل اخفاء طلقة واحدة . وسوف لن ندافع عن أي شيوعي اذا سجن واعدم بسبب عثور السلطات على طلقة واحدة عنده . هذا هو قرار الحزب.

كان تسليم الاسلحة الى السلطة البعثية قائما على افتراض ان التحالف مع البعث ستراتيجي ومصيري وأبدي وعلي استبعاد اي تغيير في سياسة ح ش ع واي افتراق عن حليفه البعثي . وكان هذا الافتراض قائما على الاوهام بعيدا عن اي نظرة علمية وتأريخية الى الاحداث.

****

في أيار 1975 غادرت بغداد بصحبة صديقي عبدالكريم الى بلدة دربنديخان كي نذهب من هناك ، بصحبة بمر تشكيلتنا المسلحة في قاطع دربنديخان ملا علي والفلاح الفدائي الشيوعي قادر الحاج محمد والفدائي المولع بالصيد كريم عبةرِيَوى وآخرين الى قوبي قرةداغ . كان الربيع رائعا وتمتعنا بنزهة بديعة خلال الايام الاربعة التي قضيناها في قوبي . قبل دخولنا قوبي انزلقت رجل صديقي البغدادي مما سبب لها الفسخ وخلق له ولنا متاعب في السفرة . في اليوم التالي عالجه فلاح مستطرق بطريقة بدائية ناجحة : حفرة صغيرة وضع فيها الرجل المفسوخة بالشكل المناسب وسدد لها ضربة خاطفة من رجله اعادت العظم المنحرف الى مكانه . ولم يلبث ان استعاد نشاطه الطبيعي.

كان ملا علي ، المولع بالشرب لحد الافراط ، رغم انه لايسكر ، يرتب الوليمة مساء كل يوم ويضع قنينة العراق فوق السفرة ويصب القدح الأول لقادر . وما أن يتناوله الاخير حتى يسكر ويفقد ثلثي وعيه ويبدأ باعادة سرد قصة حياته ، بالأحرى سرد الاحداث الغريبة ـ العجيبة وغير الطبيعية في حياته ، بما في ذلك مغامراته الجنسية مع بعض الفلاحات ومع ضابط سئ الاخلاق في الجيش حين كان هو جنديا مكلفا ، ومغامراته في السرقة ـ قبل ان يصبح شيوعيا ـ بما في ذلك سرقة لوكس مشعول في الليل أحاط به عدد من الرجال . وكانت مشكلة قادر ، بعد خطفه لللوكس والانطلاق هاربا ، وقد لاحقه اصحابه ، انه لم يعرف اطفاءه . كنت اشارك في هذه الامسيات ، بما فيها من ضحك ومرح ، دون أن اشارك في تناول المشروبات . وسجلت ذات مساء جميع ما تفوه به قادر ، وهو مخمور ، على شريط الكاسيت . واسمعته اياه في اليوم التالي ، حين كان صاحيا اعتياديا .

وزعمت بأن ذلك قد يحمله على الكف عن الشرب وترديد هذه الاحاديث . لكن محاولتي باءت بالفشل الذريع اذ قال قادر:

- اني بحت بكل هذه الاسرار ألف مرة وليس لدي ماأضيفه اليها .. فلماذا الخوف اذن ، ومم احذر ؟ لماذا احرم نفسي من هذا المشروب البديع ؟

في نزهتنا تلك لم نشبع فقط من اللحوم ، بل كذلك من الفطر البري اللذيذ ، الذي كان شبابنا يجمعونه في الغابة يوميا . وكنا نشويه على جمرات اشجار البلوط التي خلقها اللة كأفضل ما يشوى عليها اللحم والفطر.

****

قبل انتقالي من أربيل الى بغداد كنت اسافر احيانا بصحبة سليمان لسطيفان وكانت مسألة السرعة في سياقة السيارة نقطة خلاف دائمية بيننا اذ كان من انصار المزيد من السرعة ، بعكسي انا ، حيث كنت اعارضه وأرى في تصعيد السرعة مصدرا للبلايا . وانتهيت الى قرار بتجنب السفر في السيارة التي يسوقها هو . وحين كنت محاضرا في المدرسة الحزبية في بغداد وصلني ذات يوم خبر مؤسف مفاده ان احدى سيارات لجنة الاقليم قد اصطدمت قرب الداقوق بسيارة اخرى وتوفى على اثر ذلك سائقنا الشيوعي صابر وزوجة سليمان فيما انكسرت عظام فخذ الأخير نفسه ونقل الى المستشفى ، وحين زرته في مستشفى مدينة الطب ببغداد تذكر مناقشاتنا السابقة المتكررة وحاول تبرير موقفه قائلا:

- لم اكن أنا السائق في السيارة يا أبا سلام.

لم اجد من المناسب أن اقول له ، وهو في تلك المحنة ، بأنه كان يشجع السائق دوما على المزيد من السرعة ، وبالتالي فانه يتحمل جزءا كبيرا من مسؤولية هذا الحادث المأساوي.

****

عندما تزوجت عائدة ياسين في 1967 لم املك ولم اشتر أي شئ من آثاث البيت . وبقينا على هذه الحالة حتى 75-1976 ، حيث أصبحت لأول مرة في حياتي صاحب مبلغ يمكنني من شراء الآثاث ، بعد أن طبعت كتابي (أيام صعبة) و (على ضفاف الهور) اللذين حصات منهما على مبلغ جيد من النقود اذ بيع من كل منهما (15) ألف نسخة ـ وهو رقم قياسي لمبيعات الكتاب العراقي حتى ذلك الحين . وقد ناولت زوجتي الف دينار لأعوض لها ماحرمت منها عند زواجنا من الآثاث . وقلت لها بحنان :

- خذي يا حبيبتي واذهبي الى السوق واشتري كل ما تريدين من الآثاث البيتية.

ذهبت واشترت ثلاجة ومجمدة وغسالة وتلفزيون وسجادتين ومروحة جيدة .. الخ ، كما اشترينا ايضا سيارة أوثل قديمة موديل 957 بمبلغ (600) دينار ثم بدلناها بسيارة (فوكس واكن) بمبلغ اكبر . وهكذا اصبحت ، لأول مرة في حياتي ، صاحب سيارة شخصية . واتاح لي الفرصة لاشباع هوايتي بزيارة مالم أره سابقا من الآثار والاماكن السياحية . زرت قصر الأخيضر في (عين تمر) كما زرت بحيرة الرزازة والحبانية والثرثار وآثار عقرقوف . وزرت كذلك المبنى الذي كان قد انشئ في حينه للملا مصطفى البارزاني في قرية (ديلمان) بسفح جبل قنديل (او سكرى سكران . (

على ان احدى هذه الزيارات لبحيرة الثرثار كلفتنا غاليا جدا . فقد ذهبنا نحن مع فراس الحمداني وعائلته ، في نزهة عائلية الى البحيرة . كانت معنا اخت زوجتي انعام ياسين البالغة من العمر 18 سنة . فور وصولنا الى هناك فرضوا علينا استئجار كابينة سياحية لم يتوفر فيها شئ من الخدمات ، لا الماء ولا الكهرباء ولا التبريد .. الخ . كما لم يوفروا شيئا من الخدمات العامة ومن وسائل الصيانة والانقاذ من الغرق للزوار والسواح . وفيما كنت ذاهبا ، بعد وصولنا بدقائق ، للتفرج على قسم آخر مجاور من ساحل البحيرة والكابينات جاءني ابني الطفل علاوي راكضا باكيا ليقول:

- بابا ! غرقت خالتي انعام.

عدت راكضا ووصلت متأخرا . كانت الفتاة قد لقيت حتفها ، وهي ممدودة على أرض الساحل جثة هامدة ، يحيط بها جمع من الناس ويحاول احدهم اسعافها بالتنفس الاصطناعي وبامتصاص الماء من بطنها . لم يكن هناك أي أمل باستعادة الحياة اليها . وكانت زميلتها ، ابنة فراس البالغة من العمر 16 سنة ، قد غرقت وغطست الى قعر المياه ولم يعثر بعد على جثتها . واثار حنقي ان غرقت الفتاتان على مرأى من عشرات المتفرجين وبصورة تدريجية ، بسبب تدفق الهواء من مطاط منفوخ امسكت به احدهما . وقد صرخت عائدة وزوجة فراس نوال ناجي يوسف صرخة الاستنجاد بالناس حواليهما . ولم يكن هناك من مستجيب . أخذت عائدة جثة اختها الى المدينة فيما بقيت انا منتظرا اكثر من ساعتين حتى طفت جثة الغريقة الثانية على الماء بعيدا عن الضفة بحوالي (300) متر نتيجة الدفع من الامواج القوية . سبحت نحوها وجلبتها ليستلمها مني على الساحل الشاب ابو حسن صديق فراس . وقد ترك هذا الحادث تأثيره الشديد علي ولم استطع بعدئذ زيارة تلك البحيرة اللعينة . ورافقت لأول مرة في حياتي ، جنازة الى النجف لتدفن هناك وفق المراسيم الجعفرية المألوفة التي تسبب متاعب كثيرة ومصروفات مادية كبيرة لمن يموت له شخص.

****

رغبت في أن اشاهد ولو لمرة المواكب في أربعينية الحسين ، التي على احد الاسطح وتفرجت على المواكب المتعاقبة من أولها الى آخرها . كان موكب عزاء العباسيات ، الذي عرف بأنه موكب الشيوعيين في كربلاء ، اكبر مواكب العزاء واحسنها تنظيما . وكان اللطم ، الذي بدا لي سخيفا ، هو السائد في جميع المواكب . تساءلت عما اذا كان هناك داع ومبرر معقول لمثل هذا اللطم الجماهيري الواسع بعد انقضاء مايقارب (1400) سنة على مقتل الحسين ، ام ان ذلك شئ أوجده ويشجعه بعض رجال الدين الجعفريين من اجل تطمين مصالحهم الخاصة ، ام انها مناسبة يعبر فيها بسطاء الناس المضطهدون عما في اعماقهم من آلام مكبوتة بسبب الظلم السياسي ـ الاجتماعي الواقع عليهم .. الخ ؟

في اليوم التالي تفرجت في الكوفة على التمثيلية التقليدية التي تسمى ((تشابيه)) وهي تصور جانبا من المعركة التي قتل فيها حسين اثناء القتال مع مسلحي يزيد ابن معاوية.
عندما عدت الى بيتي في بغداد رويت مشاهداتي تلك لزوجتي الجعفرية عائدة وشعرت انها تستمع بقدر من اتعاطف مع حسين ، رغم انها كانت شيوعية متقدمة ومتحررة من الآوهام والخرافات . كنا في تلك الأيام ساكنين في منزل الشيوعيين المتقدمين هادي حسن وزوجته ، اللتين ربطتنا بهما علاقات حزبية وشخصية وثيقة .
مؤتمر الحزب الثالث
كانت المؤتمرات قليلة أو نادرة في حياة ح ش ع . ولهذا كان المؤتمر على الدوام حدثا هاما بالنسبة للشيوعيين العراقيين . وقد عقد المؤتمر الثالث للحزب ، وهو في السنة الثانية والاربعين من عمره . وتميز هذا المؤتمر بأنه كان أول مؤتمر علني للحزب وعقد في مقر الحزب العام ببغداد . كما انه كان اكبر مؤتمر له من حيث عدد المندوبين الحاضرين (320 مندوبا ، حضر منهم 300) . وعقد تحت خيمة كبيرة نصبت لهاذا الغر في ساحة المقر العام للحزب بحي المسبح .
افتتح زكي خيري بوصفه اكبر المندوبين سنا المؤتمر وشخصت هيأة الرئاسة وبدأت اعمال المؤتمر تحت شعار (من اجل توطيد وتعيق المسيرة الثورية وتوجه العراق نحو الاشتراكية) . وكان جدول العمل المطروح عليه عاديا ، أي تناول الخط العام للحزب ، وتعديل وثائقه الاساسية وانتخاب اللجنة المركزية . تليت في المؤتمر ، وسط حماس اعضاء المكتب السياسي وبعض اعضاء اللجنة المركزية ، رسالة التهنأة المرسلة من قيادة حزب البعث ، وصفق لها طويلا في وقت كانت الاجهزة القمعية منهمكة منذ أيام في نصب أجهزة التصنت حوالي مبنى المقر - حيث المؤتمر - لتسجيل مايجري من القاء الكلمات والمناقشات . وتليت كذلك رسالة التحية من قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي ، التي كانت تبارك وتدعم بقوة سياسية ح ش ع الذيلية المتبعة تجاه سلطة البعث العفلقي .
بالنسبة للخط العام للحزب ، لم يعقد المؤتمر لكي يناقش مثل هذا الخط وينتهي الى قرار باقراره أو رفضه . انما عقد ليكسبه الصفة الشرعية ومزيدا من القوة . ذلك لأن هذا الخط ، الذي يتخلص في اقامة تحالف ستراتيجي - مصيري مع البعث الحاكم للسير في طريق التطور اللارأسمالي صوب الاشتراكية ، كان قد رسم واتبع منذ 72-973 ، يوم دخلت قيادة الحزب في الوزارة ويوم وقعت التحالف الجبهوي مع حزب البعث والسلطة بصورة مخالفة لقرارات المؤتمر الثاني للحزب . فالنخبة البيروقراطية القائدة في الحزب كانت تضع نفسها دوما فوق المؤتمر وفوق اللجنة المركزية ، وكانت تريد من الاجتماعات والمؤتمرات اقرار ماترغب فيه . وكانت تحضر لهذه المؤتمرات بشكل يضمن لها ما أرادت .
وبالنسبة الى برنامج الحزب ، الذي عدل في هذا المؤتمر ، فانه كان اسوأ وثيقة برنامجية صادرة من ح ش ع طيلة تأريخه . فهو جسد الذيلية وصيغ على اساس بناء الآمال على تطور نظام برجوازي دكتاتوري فاشي - كما كان نظام البعث الصدامي - الى نظام اشتراكي ، وتحول جلاد فاشستي أرعن الى ((كاسترو العراق)) وبالتالي اندماج الحزبين الشيوعي والبعث في حزب سياسي موحد . وكان الطريق الى تحقيق هذه الاهداف هو تعزيز التحالف المعقود مع البعث الحاكم . فالمؤتمر الثالث كان ، قبل كل شئ ، مؤتمر الجبهة الوطنية . وكان قد ثبت في التقرير الذي القاه عزيز محمد باسم اللجنة المركزية وفي صلب البرنامج والنظام الداخلي للحزب مهمة العمل من اجل تعزيز التحالف الجبهوي باعتبارها المهمة المركزية للحزب والحلقة الرئيسية بين مهماته المرحلية.
ويجدر بالذكر ان هذا المؤتمر لم يعقد في بداية العهد الجبهوي مع البعث الحاكم . اقصد انه لم يعقد في الوقت الذي كان يصعب معه التنبؤ بما سيؤول اليه مصير التحالف الجبهوي المبرم ، انما انعقد بعد انقضاء سنوات ثلاث على عقد الجبهة وفي وقت كانت القيادة البعثية قد اعطت الأدلة القاطعة على انها لم تكن جدية ابدا في التحالف الستراتيجي المزعوم ولم تستهدف من عقد الجبهة سوى توطيد اقدامها وتهيأة مقومات الانفراد بالحكم والتخلص في اللحظة المناسبة من الشيوعيين ايضا - كما تخلصت من قبل ، من الحركة الكردية المسلحة.
وحتى في النظام الداخلي للحزب حشرت مرارا وتكرارا كلمات ((الجبهة الوطنية والقومية التقدمية)) للتأكيد على أن ح ش ع حريص على التحالف ومهتم بتعزيزه.
القيت امام المؤتمر خطابا موجزا وشاملا كنت قد هيأته بعناية رفضت في هذا الخطاب فكرة التطور اللارأسمالي ، التي بني عليها كامل الخط الستراتيجي للحزب . ورفضت فكرة ان تكون مهمة تعزيز التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم هي المهمة المركزية من مهام الحزب السياسية ، وطالبت بأن تكون المهمة المركزية هي النضال من اجل الديمقراطية السياسية بدل الجبهة . واخيرا اشرت بوضوح الى الخلل الجدي في حياة الحزب الداخلية ، واعني انعدام الديمقراطية الداخلية في الحزب.
نهض زكي خيري ، الذي كان قد صوت ضد الجبهة في 1973 ثم انقلب على 180 درجة ، ليرد على خطابي . ودافع بحماس عن السياسة الذيلية المرسومة وتهجم على معارضيها وبالتالي اشاد ، شاء أم أبى ، بالنظام البعثي السائر في ((الطريق اللارأسمالي)) . رغبت في الرد عليه ومناقشته ومغالطته وطلبت اعطائي فرصة للتكلم . ومورست ضغوط علي لكي امتنع عن الرد حرصا على تجنب ما يشدد من الصراعات داخل المؤتمر .
كان الكثير من المندوبين تحت تلك الخيمة يحملون تحفظات جدية بصدد الوثائق الاساسية والشعارات الستراتيجية المعروضة على المؤتمر .. الا انهم التزموا الصمت واتخذوا موقفا لايجمعه جامع مع الحرص على مصلحة الحزب والحركة الثورية ولا

مع التمسك بالاستقلالية الفكرية .. تصرفوا جميعا بما يرضي القيادة البيروقراطية بأستثناء مندوبين شذا وتكلما بما لم يرق للنخبة . كان أولهما واجرأهما احد مندوبي منظمة العاصمة الشاب الشيوعي نزار ناجي يوسف ، الذي رفض من الاساس الطروحات السياسية اليمينية الذيلية سواء في البرنامج أم في الخط السياسي العام . وكان الثاني سكرتير لجنة المنطقة الوسطى حاجي سليمان (ابو سيروان) الذي اعلن انه يؤدي الأمانة الحزبية المعهودة اليه من كوادر التنظيمات التي يقودها بنقد ورفض الخط السياسي العام المطروح على المؤتمر . ولم اعرف ما اذا كان ابو سيروان نفسه متفقا مع تلك الكوادر في الرفض أم لا.
كانت النقطة الأخيرة في جدول عمل المؤتمر انتخاب لجنة الحزب المركزية . هيأ المكتب السياسي قائمة باسماء المرشحين ليعرضها أولا على اللجنة المركزية المنتهي عهدها ولتعرض بعدئذ على المؤتمر لغرض التصويت . لوحظ أن اسمي كان مشطوبا من قائمة المرشحين لعرضها على المؤتمر ، في وقت قد اضيف اسم كل من مكرم الطالباني وفخري كريم وبشرى ثرتو وآخرين ليدخلوا في قوام اللجنة المركزية الجديدة . اعترض البعض على شطب اسمي وجرى النقاش . ودافع باقر ابراهيم عن قرار المكتب السياسي بأبعادي عن القائمة ، فقال:
 ابو سلام غير موافق على خط الحزب السياسي وستراتيجيته . ولهذا لايصلح لأن يكون عضوا في الهيأة القيادية المسؤولة عن تنفيذ هذه السياسة.
وأيده كريم احمد ايضا غير أنه دافع عن الفكرة باسلوبه الخاص الذي خدمني به من حيث لم يدر فقال مخاطبا الحاضرين:
 الحلقة المركزية بين مهمات الحزب هي الدفاع عن التحالف الجبهوي مع البعث ومن اجل تعزيزه ، في حين يعارض أبو سلام ذلك ويريد أن تكون المهمة المركزية في سياستنا هي الدفاع عن الديمقراطية.
لو اجمع اعضاء المكتب السياسي على ابعادي من القائمة لتم لهم ذلك . لكن عمر الشيخ وسليمان اسطيفان لم يصوتا لصالح اقتراح المكتب السياسي . فرفض باغلبية ضئيلة وظللت ضمن القائمة . واخبرني بعض المندوبين بأن يقا من المسؤولين والمثقفين داخل المؤتمر ينشطون في الاتصالات والمحاولات الرامية الى حمل الاخرين على عدم التصويت لي . ونجحت هذه المحاولات جزئيا اذ حصلت فقط على ثلثي اصوات المندوبين في الانتخاب.
كان علي حيدر ـ وهو من كادر الشبيبة ـ ضمن قائمة مرشحي اللجنة المركزية ليكون عضوا احتياطا . ورغم انه لم يكن عنصرا سيئا ، بقدر معلوماتي عنه ، فان رأيا عاما قد تكون ضده بين مندوبي منظمة العاصمة واجمع عدد من المندوبين على ترشيح الكادر المسن عمر الياس كبديل عن علي حيدر . وعند فرز الاصوات اخفق علي وانتخب عمر عضوا احتياطا ، رغم انه كان نموذجا للجمود والتحجر العقائدي والبيروقراطية ولم تكن لديه مايمكن اعتباره ايجابيا سوى صموده الطويل في النضال الحزبي ـ السياسي.
عندما طرحت القائمة المهيأة من المكتب السياسي أمام اللجنة المركزية وجدنا فيها اسماء اناس من المثقفين ذوي العيون والنواقص الجدية امثال مكرم الطالباني وفخري كريم وبشرى برتو ، الذين كانو اشبه بشيوعي الصالونات ـ على حد تعبير فهد . فتصدينا ، انا ورفاقا آخرين ، لهذا النمط من تجديد قوام اللجنة المركزية وناضلنا لادخال عناصر حزبية جهادية من جنود النضال المجهولين . ووقف الى جانبنا زكي خيري في هذه المسالة . وامكن التوصل الى حل توفيقي فأبقي من اضافهم المكتب السياسي سابقا في القائمة واضيف اليهم العامل عبدالامير عباس وزوجتي عائدة وابو زيتون من البصرة واسعد خضر . وقد انتخبت لجنة مركزية مكونة من (44) عضوا وعضوا احتياطا ـ وهذا اكبر عدد لهذه الهيأة في تأريخ ح ش ع كله .
واعتقد ان الكثرة العددية كانت على حساب النوعية وان عناصر هزيلة وغير جديرة بعضوية هذه الهيأة قد ادخلت اليها كما ان البعض من اعضاءها القدامى ، الذين فقدوا الاهلية للبقاء فيها ، قد ابقي عليهم . والمسؤولون الرئيسيون في الحزب لم يفكروا في تشكيل لجنة مركزية قادرة على مواصلة النضال الحزبي في ظل الارهاب والصراعات المتوقعة داخل العراق ، انما شكلوا لجنة مركزية تناسب سياسة التحالف الذيلي مع البعث وتجنب الصراعات و ((أوجاع الرأس. ((
بالنسبة الي شخصيا فاني كنت محاضرا قبل انعقاد المؤتمر وبقيت محاضرا بعده . ولم يكن لي عمل آخر سوى المشاركة في اجتماعات اللجنة المركزية .
****
كانت اجتماعات اللجنة المركزية ، قبل المؤتمر وبعده ، تعقد دوما في احدى غرف المقر العام للحزب . وكان الجميع ، بمن فيهم اعضاء المكتب السياسي للحزب ، على علم بأن اجهزة السلطة الحليفة نصبت اجهزة للتصنت حوالي المقر (وكذلك حوالي مقر منظمة بغداد) وحاولت ادخال بعض الاجهزة الى سماعات التلفون في غرف المقر . وكان الأمن العام قد حصل على مبان أو شقق مجاورة للمقرين بغية تدبير التصنت وتصوير الخارجين والداخلين . وكان الانطباع السائد بيننا هو أن ((الحليف البعثي)) يسمع ويسجل الكثير من الاحاديث والمناقشات الدائرة داخل غرف المقر . وقد رسخ هذا الانطباع ماقاله نعيم حداد ذات مرة ودون مناسبة في لقاء مع رفاقنا:
 لن يفيدكم ان تضعوا الراديوات بجانب تلفوناتكم الموجودة في غرف المقر.
معنى هذا الكلام أن سماعات التلفون في غرفنا قد حوت مرسلات صغيرة مخفية لنقل مايدور من الحديث في الغرفة ، وان وضع الترانسسترات وتشغيلها بجانب تلك السماعات كان يفسد على هؤلاء خطتهم في التصنت .

ولتجنب وصول الاحاديث والمناقشات الى السلطة البعثية ، عن طريق اجهزة التنصت هذه ، تكررت المطالبة بعقد اجتماعات اللجنة المركزية في بيوت بعض الرفاق بعيدا عن المقر العام . غير ان المكتب السياسي كان يرفض هذه المطالبة ويصر على عقد الاجتماعات في مبنى المقر العام وحده . وفي احدى الاجتماعات انطلق عضو اللجنة المركزية سليم اسماعيل يسترسل في الحديث عن تصرفات السلطات البعثية وجرائمها بحق الشعب والشيوعيين . فاسكته عزيز محمد وقال له:
- ان للحائط أذنا.

وكان يقصد بذلك ان البعثيين يسمعون ما تقول.
كانت هناك حرية الاشادة بالتحالف الجبهوي ، ولم تكن حرية النقد والفضح لجرائم النظام حتى ولو كان داخل اجتماعات اللجنة المركزية.
****
كانت سياسة التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم سياسة سلسلة من التنازلات امتدت لسبع سنوات وانتهت بكارثة حقيقية للحزب الشيوعي . وكان من العلامات البارزة في هذه التنازلات ان قرر المكتب السياسي ، بعيد انهيار الحركة الكردية المسلحة ، تحريم النشاط الشيوعي في صفوف القوات المسلحة . وقد صيغ هذا القرار وطبع لترسل النسخة الأولى منها الى صدام التكريتي تأكيدا له على ان ح ش ع يعمل كل ما يرضيه لوضع القرار فور صدوره قيد التنفيذ . وبذلك تخلى ح ش ع عن اي تفكير ـ مجرد التفكير ـ في اللجوء الى العنف ضد نظام دكتاتوري فاشي معتمد كليا على العنف.
هناك أجدني مضطرا الى التذكير بالماضي ، بعام 1960 ، يوم كان عزيز محمد في المكتب السياسي واقترح حل تنظيمات ح ش ع في الجيش بهدف ترضية عبدالكريم قاسم ـ اسبقت الحديث عن ذلك . وها هو اليوم قد طبق ، بعد أن اصبح سكرتيرا للحزب ، مالم يتسن له تطبيقه ايام عبدالكريم قاسم.
والتنازل الآخر الاكثر خطورة كان اقدام المكتب السياسي على تجميد ـ عمليا حل ـ المنظمات الديمقراطية الجماهيرية (اتحاد الطلبة الرعاقي العام واتحاد الشبيبة الديمقراطية العراقي ورابطة المرأة) والتخلي عن مقاعدها في المنظمات الدولية لحساب المنظمات التابعة للبعث الحاكم . وكانت هذه المنظمات جماهيرية وذات تأريخ نضالي مجيد وتقاليد عريقة . وفشلت محاولات السلطة كلها في القضاء عليها عن طريق الارهاب والقمع . لكن قيادة ح ش ع حققت بجرة قلم مالم يتحقق للسلطة بأساليب أخرى . ويجدر بالذكر أن قرار التجميد (أو الحل) اتخذ ونفذ دونما اي اعتبار لارادة ورغبات الشبيبة ، التي كانت تؤلف عضوية هذه المنظمات . وبحل هذه المنظمات جردت القيادة ح ش ع من اهم جسور الصلة مع الجماهير . وقد اجاد زكي خيري حين قال ، في احد اجتماعات اللجنة العليا للجبهة ، أو في مناسبة أخرى:
- نحن حرقنا الجسور واصبحنا مثل طارق ابن زياد ، ولا رجعة لنا عن التحالف الجبهوي.

****
في صيف 1977 منحت لنا ، انا وعائدة ، للمرة الثانية في حياتنا الزجية فرصة السفر الى بولونيا لغرض الراحة ، كنا ضيوفا على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولوني وعشنا بين ضويف فرنسيين وطليان وكوبيين وفنلنديين وغيرهم . قضينا أياما في مكان بديع بجبال تاترا وزرنا معسكر اعتقال رهيب كان الهتلريون قد اقاموه هناك خلال الحرب العالمية الثانية . راينا في ركن من احدى القاعات اكداسا ضخمة من شعر واحذية الضحايا ، من النساء والاطفال . وزرنا قرية اثرية حولت الى متحف يعود تأريخها الى ماقبل (350) سنة . بقيت الابنية الخشبية والآثاث البيتية على حالها الاصلي ـ أواني طينية وخزفية كانت هي المستعملة في حينه . وزرنا كنيسة في وارشو ساعة الصلاة وساعة عقد قران فتاة على فتى في يوم الاحد . وقد لاحظت النفوذ الكبير للكنيسة والاقبال الشعبي عليها.
وبناءا على طلبي نظموا لي زيارة الى المدرسة الحزبية التابعة للجنة المركزية في وارشو . كان مدير المدرسة عضوا في اللجنة المركزية وكانت اللغة المشتركة بيننا هي اللغة الروسية ، ولم نكن في حاجة الى المترجم . بوصفي محاضرا في مدرستنا الحزبية ببغداد استفسرت عن وضع المدرسة وبرامجها وسبل التدريس . ثم تطرقت الى وضع الحزب الشيوعي البولوني ، الحزب الحاكم المنتفخ الهش . وقد سألته عن عدد اعضاء الحزب فاجاب:
- للحزب 2.6 مليون عضو.
- وهل هذا العدد الضخم يقترن بنوعية جيدة ؟
- لا اظن ذلك.
- الم يكن من الافضل ان يكون لحزبكم فقط (600) الف عضو ولكن على اساس نوعي جيد ؟

لم يجب الرجل بلسانه انما نهض من مقعده واقترب مني وصافحني بحرارة مشيرا الى ان ماذكرته هو الصواب بعينه . بدا لي وكأنه غير راض عن وضع حزبه وقيادته وغير قادر على عمل شئ لرصلاح ، وجدت وضعه في الحزب الشيوعي الثولوني شبيها بوضعي في الحزب الشيوعي العراقي.
في واقع الحال كان الحزب الشيوعي الثولوني حزبا سياسيا هشا هزيلا بعيدا عن ان يستحق تسمية حزب الطبقة العاملة . واكثر من ذلك ، فانه تحول الى ماهو اشبه بحزب الفساد والسرقة والنهب . وقال بعضهم أن طومولكا كان رجلا نظيفا وكان الشيوعي الوحيد الذي تزعم الحزب والدولة في تلك البلاد طوال عشرات السنين الأخيرة . ولم يندر ان يكون الشخص الأول

في الحزب والدولة انسانا سيئا ومرتشيا وغير مهتم بمشاكل الناس كما كان طيريك . ولهذا تعاقبت الازمات والانتفاضات العماليةوالجماهيرية ضد سلطة الحزب الشيوعي بالذات.

****

كان الوضع السياسي في العراق يزداد تعقيدا وتأزما وكان الحكم البعثي يواصل الارهاب ضد الشيوعيين ايضا . وكان الافق امام التحالف الجبهوي يضيق ويظلم اكثر فاكثر . فطلبت من سكرتير الحزب عزيز محمد مغادرة الغرفة التي كنا جالسين فيها داخل المقر العام لكي نتمشى قليلا في ساحة المقر بعيدا عن اجهزة التصنت المحتملة في الغرفة . ومن دون مقدمات طويلة قلت له ان هجوم النظام البعثي على ح ش ع أمر متوقع والهدف تحطيم الحزب ، وان المسألة هي مسألة الوقت وحسب . وان علينا أن نتهيأ منذ اليوم وقبل فوات الأوان لمواجهة مثل هذا الهجوم والذود عن الحزب . وكجزء من التدابير الاحتياطية لمجابهة الهجمة المرتقبة قدمت الاقتراح التالي : ان نؤسس في كردستان فصائل مسلحة خاصة بنا كوسيلة للدفاع عن النفس وكملجأ يتوجه اليه اعضاء وكوادر الحزب في حالة تعرضهم لهجوم السلطة.

واشرت في سياق العرض الى أن الكفاح المسلح قد تجدد في كردستان وان هناك فصائل الاتحاد الوطني الكردستاني والثارتي ، وان هؤلاء سيرحبون باية فصيلة شيوعية مسلحة ستظهر على الساحة الكردستانية . وكانت امكانات ح ش ع في تلك الايام اكثر باضعاف مضاعفة من امكانات تلك الفصائل مجتمعة ، حيث كانت قد خرجت من نكسة 1975 ضعيفة شحيحة الامكانات .

سألني عزيز محمد : كيف يمكن تشكيل الفصائل المسلحة في كردستان وضد السلطة ، ونحن الان في تحالف جبهوي معها ؟ فأجبت موضحا ان بالامكان أن نشكلها دون أن يتحمل الحزب مسؤولية مايحدث . يمكن ان يستقيل من الحزب أربعة من المسؤولين والكوادر الحزبية ويقوموا بهذه المهمة ، وتنظم الصلات بين الحزب وبين هؤلاء المستقيلين بصورة سرية ودقيقة ، فيما يقوم الحزب بأدانتهم علنا لغرض ابعاد الشكوك عن نفسه . واضاف عزيز محمد قائلا : ان بالامكان ان يكون مركز الصلة أو حلقة الوصل في مكان ما خارج العراق.

وأبديت استعدادي لكي اكون شخصيا واحدا من هؤلاء الذين تناط بهم هذه المهمة . الا انني عبثا حاولت اقناع السكرتير بتبني هذه الفكرة. ذلك لان خشيته من أن ينكشف الأمر ويسئ الى التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم اقوى من أي شئ . انه لم يكن يتحسس الخطر مثل ماكنت أنا وامثالي . ولم يملك الجرأة للاقدام على عمل من هذا القبيل . بل كان اسير فكرة التطور اللاراسمالي وكان يحسن الظن بالطاغية التكريتي . ولعل بعض ماورد في محضر اللجنة العليا للجبهة المزعومة كان يكشف بجلاء عما كان يشغل باله ، هو سكرتير ح ش ع ، في تلك الايام . فقد قال ـ كما قرأت في المحضر ـ مخاطبا صدام : اننا نتطلع الى تضييق الخلافات والفوارق بين الحزبين ، البعث والشيوعي ، الى حد الاندماج.

وعلى اثر صدور هذا المحضر تشجع الوزير الشيوعي عامر عبداللة على تقديم اقتراح الى حزب البعث بتشكيل لجنة مشتركة لتوحيد الحزبين ، في حين لم يجر بحث شئ من هذا القبيل في اي اجتماع من اجتماعات اللجنة المركزية.

****

في خريف 1977 ازددت تشاؤما مع وضع الحزب ومسلك القيادة ونشأت لدي ، لأول مرة ، القناعة بالبحث عن مخرج من المأزق من دون شق صفوف الحزب . فاتحت عضواللحنة المركزية آرا خجدور ، الذي كان سيشاطرني العديد من آرائي وتصوراتي ، بالموضوع وناقشنا . وباقتراح منه اشركنا في النقاش صالح دطلة ، الذي كان قد ترك الحزب وانضم الى صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة جورج حبش . وكان يقيم في بيروت ويعود احيانا الى بغداد بوصفه احد فدائيي تلك المنظمة . وبعد مداولات مستفيضة استغرقت أياما أو اسابيع استقر رأينا ، في شتاء 1978 ، على ان نؤسس منظمة سياسية جديدة بأسم (حزب العمل العراقي) لاتحمل اسم الشيوعية ولا تتبنى برنامج ح ش ع ولا تربط نفسها باي علاقة مع البعث الحاكم ، بل تولد منذ البداية كفصيلة من فصائل المعارضة الموجهة ضد النظام الدكتاتوري الفاشي وتتبنى اسلوب الكفاح المسلح وتقيم علاقات مع الفصائل المسلحة في كردستان العراق . ولكي لاينكشف امرنا قبل الأوان ولا نتعرض للاجراءات الحزبية من قبل المكتب السياسي للحزب اتفقنا على نشر البيان التأسيسي ـ الذي كنت قد كتبته وناقشناه سوية ـ في الصحافة البيروتية أولا ، مستفيدين من وجود دطلة هناك.

قام دطلة بنشر البيان في بيروت ووصلت نسخة الى قيادة ح ش ع في بغداد وقرأها اعضاء اللجنة المركزية دون أن ينتبه اي منهم الى وجود علاقة ما لي ولآرا بها . وتجاهلت صحافة الحزب الحدث وكأن شيئا لم يكن .

كنا متفقين على كسب حلقة ضيقة من الكوادر الحزبية المتجانسة معنا فكريا والقادرة على المشاركة في الكفاح المسلح بأمل نقلها لاحقا الى كردستان . وكان الشيوعي الاثوري لازار أول من اقتنع بالعمل معنا فقدم الاستقالة من الحزب تمهيدا للخطوة التالية . وكان من المفترض أن يدبر دطلة في لبنان مستلزمات البدء بتشكيل اولى الفصاءل المسلحة .

على ان التطورات السريعة في العراق ، وبالاخص تدهور العلاقة بين ح ش ع وبين البعث الحاكم ، حملتنا على اعادة النظر فيما كنا قد خططنا له .. ذلك لن الهجوم البوليسي الواسع على الحزب جعل من انتقال الشييوعيين باسرهم الى جبهة المعارضة امرا وشيكا.

****

منذ 1977 وأوائل 1978 اتسعت الحملة البوليسية تدريجيا ضد ح ش ع الى درجة لم يعد بامكان القيادة أن تتجاهله اذ كانت القاعدة الحزبية ساخطة جدا . وفي اجتماع اللجنة المركزية ، الذي عقد في آذار 1978 ، ثبتت انتقادات موجهة الى سياسة السلطة واجراءتها القمعية الجارية ، طبعا مع ابداء الحرص الشديد على صيانة المكسب الرئيسي ـ التحالف ـ والاصرار على ان المهمة المركزية لاتزال هي هي ، اي العمل على تعزيز التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم . لم يكن هناك اي توجه لدى قيادة ح ش ع لاعادة النظر في جوهر الخط السياسي.

وقد استاء المسؤولون البعثيون من نشر هذه الانتقادات في الوثيقة الصادرة عن اجتماع اللجنة المركزية ، لأنهم كانوا معتادين من قيادة ح ش ع فقط على الصمت تجاه مايفعلون من تجاوزات أو على بعض الهمسات في آذانهم دون ان يسمع الناس شيئا مما حدث . وفي اكثر من لقاء طلب نعيم حداد من ممثل ح ش ع سحب هذه الوثيقة أو ما فيها من انتقادات . غير ان مطالبة الجانب البعثي بسحب هذه الانتقادات لم تقترن قط بالتخفيف من الارهاب والقمع المسلط على الناس عامة ، بمن فيهم الحلفاء الشيوعيين . بل على العكس من ذلك ، كانت وتيرة القمع الدموي في تصاعد مستمر حتى وصلت الى نهايتها المنطقية في عام 1978 فتحولت الى هجوم شامل هادف الى التحطيم التام للحزب الشيوعي .

18

الهجوم على الحزب الشيوعي العراقي وتفكك الجبهة

في آيار 1978 نفذت السلطة البعثية دفعة واحدة حكم الاعدام في (31) شخصا من الشيوعيين أو المتعاطفين معهم حدث ذلك في وقت كان ح ش ع لايزال طرفا في التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم . والاغرب من ذلك ان هذه المجزرة الرهيبة ارتكبت دون ان يكون البلد قد شاهد أي محاولة انقلابية وأي اضراب أو مظاهرة أو قلاقل ، ودون أن يكون هناك شئ من التغير في سياسة ح ش ع الجبهوية ودون ان يكون هناك محاكمة قانونية لأي من هؤلاء المعدمين . زعم البعث الحاكم انه اعدمهم بسبب نشاطهم الرامي الى تنظيم انقلاب . ولم يقدم اتفه دليل عل ذلك ، بل كان يعرف ان ح ش ع قد اوقف كل نشاط حزبي في صفوف القوات المسلحة قبل هذه الاعدامات باكثر من سنتين.

اذن لماذا ارتكاب هذه المجزرة ضد الشيوعيين المرتبطين بالبعث الحاكم في تحالف جبهوي ((ستراتيجي)) والذين كانوا يسيرون وراء النظام البعثي مئة سنة ـ على حد تعبير الاخ الفلسطيني أبو علي مصطفى ـ لو تركهم النظام على ما كانوا عليه ؟.

بديهي ان القضية الرئيسية ، التي من اجلها قبلت قيادة ح ش ع بالعديد من الامور غير المنطقية وقدمت التنازل تلو التنازل ، كانت قضية التحالف الجبهوي مع حزب البعث الحاكم . والطرف الرئيسي الآخر في هذا التحالف كان القيادة البعثية نفسها . ولهذا أتطرق بايجاز الى تينك القضيتين ـ التحالف وحزب البعث.

الجبهة الوطنية والقومية التقدمية ـ ماذا كانت حصيلتها بعد انقضاء سنوات على عقدها ؟

ولدت الجبهة منذ البداية كسيحة وظلت طيلة عمرها كسيحة . ولم ينشأ لها وجد حقيقي جماهيريا ولم تقدم للشعب والوطن مايمكن اعتباره مكسبا حقيقيا سياسيا أو اقتصاديا ـ فالحريات السياسية لم توفر للناس وللاحزاب ، بما في ذلك ح ش ع نفسه ، والارهاب البوليسي لم ينقطع والسلطة البعثية لم تكف عن نهج احتكار كل شئ لنفسه .. ولم يحدث من التطورات الاقتصادية في البلاد ومن معيشة ابناء الشعب مايمكن القول أنه كان نتاج عمل الجبهة . انما نظر اليها كواجهة للدعاية ولتزيين الوجه القبيح للنظام ، خصوصا خارج العراق ، وكغطاء لستر الارهاب والاجرام بحق الجماهير.

أما بالنسبة الى قياد ح ش ع فان التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم اصبح هو الوسيلة وهو الغاية . فالقضية المركزية في سياسة ح ش ع ، بقيادة عزيز محمد وبعض زملائه ، كانت قضية الحفاظ على التحالف وتعزيزه وحسب . وهذه المهمة كانت مسستحيلة المنال لات الكرة كانت في ملعب الطرف الآخر غير المكترث اصلا للجبهة . كانت القيادة البعثية تتجاهل الجبهة والشيوعيين فتقرر دوما مايحلو لها . وفي بعض الأحيان كانت تتجال الشيوعيين وتستخدم اسم الجبهة فتصدر هي نفسها البيانات والبرقيات المذيلة بتوقيع لجنة الجبهة في المحافظة الفلانية لتأييد النظام او بعض اجراءته . وكانت قيادة ح ش ع تكتفي بعدم نشر تلك البيانات والبرقيات في صحافة الحزب . وغالبا ما كانت القضية الرئيسية لدى ح ش ع في العمل الجبهوي ، سواء على الصعيد القيادي أو على صعيد المناطق والمحافظات هي قضية اقناع اللجنة العليا أو لجنة المحافظة الفلانية . كانت قيادة ح ش ع تعتبر عقد اي اجتماع للجنة الجبهة (مجرد اجتماع) انتصارا للعمل الجبهوي وحدثا هاما تبرزه صحيفة ح ش ع . هذا ، مع العلم ان نقاط البحث في معظم هذه الاجتماعات كانت عبارة عن سلسلة طويلة من الشكاوي المريرة يقدمها ممثلو ح ش ع الى حليفهم البعثي حول اعتقال السلطات لهذا الرفيق الشيوعي والتنكيل بذلك وفصل ذاك .. وكانت النتيجة ، بعد تقديم الشكاوي ، تصاعد وتيرة الملاحقات.

هكذا كانت حصيلة العمل الجبهوي بالنسبة الينا ، نحن الشيوعيين ، خلال سنى 1973- 1978 . وهكذا كانت بالنسبة الى الجماهير الشعبية . فلماذا رضيت قيادة ح ش ع بهذا النمط ممن التحالف الجبهوي المزعوم ؟ ولماذا اعتبرت العمل على تعزيزها مهمة مركزية في سياستها حتى بعد اعدام 31 شيوعيا وديمقراطيا ؟

أنا أرفض تفسير هذه الظاهرة بمجرد وجود عقلية يمينية ذيلية ، بمعزل عن المور أو الامتيازات الشخصية . فالرهان على هذه الجبهة الكسيحة والاصرار على الارتباط بها كزواج كاثوليكي لم يكن مجرد تقديرات سياسية خائة الأمور ، بل كان وراءها ايضا الحرص على تلك الحياة الهادئة الهانئة ، التي حصل عليها البعض من وراء هذاالتحالف . ساوضح اكثر:
****

لم يشهد العراق قط فترة من حياة الحرية والديمقراطية والاستقرار . فهو كان بلاد العنف والصراعات الدموية منذ عهد نبوخذ نصر ومرورا بقتل ابن بنت النبي (حسين) وبطفيان حجاج الثقفي وبهولاكو وجلادي الامبراطورية العثمانية وبامثال نوري السعيد .. الخ ، ومنذ نشوء ح ش ع في الثلاثينات نشأ معه قانون مكافحة الشيوعية واستمرت الملاحقات بحق الشيوعيين العراقيين اكثر من غيرهم . في العهد الملكي ركز الارهاب بالدرجة الاساسية ضد قادة الحزب وكوادره . ففي عام 1947 كان سكرتير الحزب يوسف سلمان (فهد) أول شيوعي عراقي يصدر بحقه حكم بالاعدام في هذا البلد ـ ثم استبدل بالسجن المؤبد . وفي 1949 كان أبرز قادة الحزب فهد وزكي بسيم وحسين الشبيبي اول كوكبة شيوعية اعدمها النظام الملكي . وفي 1963 ركز الحكم البعثي الفاشي حملة الابادة ضد قادة وكوادر ح ش ع بالدرجة الاساسية . فاعدم وقتل سكرتيره سلام عادل ونخبة واسعة من قادته وكوادره امثال ابو العيس والعبللي والحيدري و عبدالرحيم شريف ونافع يونس وصبيح سباهي وحسن عوينه والياس حنا وعلي الوتار .. الخ.
أما في ظل السياسة الجديدة ، الجبهوية، لقيادة البعث الصدامي تجاه الشيوعيين فان طاحونة الارهاب كانت تطحن ـ على الاقل في فترة التحالف الجبهوي ـ اعضاء الحزب وكوادره الوسطية . في حين ترك القادة ليعيشوا في نوع من الهدوء والاستقرار في بيوتهم ولينتقلوا بين دورهم وبين المقرات العلنية وبيوت الاصدقاء بقدر من الحرية وليملكوا جوازات سفر قانونية ـ بدلا من الجوازات المزورة والسفرات السرية ، كما كان في السابق ـ ويسافروا من مطار بغداد مرة الى أوربا واخرى الى منطقة اخرى ، وليقيموا الحفلات والأمسيات في العقرات يتخلها الشرب والرقص والغناء .. وبالتالي ليعتادوا على تمشية الامور الحزبية ، في عراق الارهاب والتنكيل الدموي ، جالسين وراء المكاتب ومستعملين التلفونات .. الخ.
طبعا هذه الامتيازات المشار اليها لاتشكل شيئا بالمقارنة مع امتيازات البعثيين انفسهم ، وهي ليست سوى أمور اعتيادية بسيطة ومشروعة بالنسبة لكل امرئ سياسيا كان أم غير سياسي ، في بلدان تسودها الديمقراطية والحضارة . لكن الحديث هنا يدور حول العراق ، هذا البلد المتخلف المبتلى بتسلط دكتاتور فاشي لم يشهد اي بلد آخر مثيله من حيث الهمجية والبطش . ان هذه الرشاوى التافهة ، المقرونة بتشديد الارهاب ضد القاعدة الحزبية والكوادر الوسطية مع ترك القادة احرارا ، قدمت وفق تخطيط مدروس ولاغراض محددة . وقد كان لها ثمن غال في سنوات 72- 1979: احساس القادة بأن التمسك بالتحالف الذيلي معناه الحفاظ على امتيازاتهم الشخصية ، وترويضهم لكي يتقبلوا الاذلال السياسي ويلتزموا بالصمت ازاء التنكيل برفاقهم وبسائر معارضي النظام ... فالتحالف يظل بخير مادامت الحياة الهانئة للنخبة القائدة بخير وهدوء..
وحول حزب البعث العربي الاشتراكي ، الذي ابتلى به العراق لسنوات طويلة ، لابد أن أقول شيئا . حمل هذا الحزب منذ ان شكله ميشيل عفلق في سوريا عام 1947 امراضا خطيرة . واصيب التنظيم البعثي العراقي ، الذي ظهر في الخمسينات ، بنفس تلك الامراض . بيد أن بعث العهد الملكي ، على أي حال ، غير بعث السبعينات والثمانينات . يتراءى لي ان سلسلة من التغيرات طرأت على هذا الحزب من حيث نهجه الفكري ـ السياسي وتركيبه التنظيمي خلال سني وجوده في العراق.
ففي العهد الملكي كان حزبا عراقيا من حيث نهجه الفكري ـ السياسي اذ كان يستهدف القضاء على السيطرة الاستعمارية في البلاد ، شأنه كسائر الاحزاب الوطنية . وكذلك من حيث تركيبه التنظيمي العام . وتجلى ذلك في كون سكرتيره جعفريا من محافظة الناصرية وكوادره من شتى المدن العراقية . وقد وجد لنفسه مكانا في صفوف جبهة الاتحاد الوطني التي شكلت في شباط 1957.
وبعد انتصار ثورة تموز 1958 ، حيث استولت فئات جديدة من البرجوازية الوطنية على السلطة ، غير حزب البعث نهجه السياسي وأصبح يعتمد على المؤامرات والدسائس كوسيلة للوصول الى الحكم . ولما كانت السلطة في العراق وقفا على الطائفة السنية العربية ، بالدرجة الأولى ، خلال العهد الملكي وبعده ، فان حزب البعث سار خطوة في تغيير تركيبه التنظيمي ، سيما على الصعيد القيادي ، لكي يصبح تحت سيطرة فئة قومية من السنة العرب . وعند نجاح ردة شباط 1963 الغاشية ، حيث أصبح البعث القوة الرئيسية في السلطة ، بقي زمام الحكم في ايدي السنة ، الذين يشكلون اقلية من سكان العراق ، وكذلك اقلية من الشعب العربي في العراق .
وفي اعقاب عودة هذا الحزب الى الحكم في تموز 1968 انتقل الى مرحلة جديدة من حيث نهجه الفكري ـ السياسي والتنظيمي . ذلك لأنه لم يعد مجرد حزب قومي خاضع لسيطرة العناصر السنية من العرب ، بل أخذ يتحول بخطوات مطردة الى حزب خاضع لسيطرة طائفية ـ عشائرية ، حزب عشيرة تكريتية صغيرة . ولم يكن من قبيل الصدف أن تخلص صدام تدريجيا من جميع الشخصيات السياسية في القيادة ، ولو كانوا من اسنة (أمثال عبدالكريم الشيخلي وعبدالخالق السامرائي وعبداللة سلوم وصالح مهدي عماش ... الخ) ولم يبق في مراكز الدولة الحساسة سوى اقاربه التكارتة ونفر قليل من الامعيين الخونة امثال الانتهازي الكلداني طارق عزيز والانتهازي الكردي طه الجزراوي والمرتزق الكردي صباح ميرزا.. الخ.

ان البنية الفكرية لحزب البعث لاتتعارض مع انتهاج السياسات الشوفينية والعنصرية والفاشية . وحين تحول الى حزب طائفي ـ عشائري أصبح من الطبيعي تماما أن يلجأ الى اسلوب احكم العنصري والفاشي لأنه كان من غير الممكن أن تفلح فئة ضئيلة من التكارتة في الاحتفاظ بالسلطة قرابة ربع قرن مالم تستند الى اساليب الارهاب الفاشي والدكتاتورية السافرة ، فضلا عن الاستناد الى الدعم الامبريالي.

وهكذا نرى أن حزب البعث تغير ، بعد ثورة 1958 ، نحو الاسوأ وتغير مرة اخرى ، بعد عودته الى الحكم في تموز 1968 ، نحو الاسوأ فالاسوأ حتى أصبح حزبا ليس للقوميين العرب ولا للقوميين السنة بل نخبة من العشيرة التكريتية وبالتالي لشخص دكتاتور بغداد.

****

لم تكن مجزرة اعدام 31 شخصا في أيار 1978 سوى البداية لحملة جديدة واسعة خطط لها صدام بهدف القضاء التام على ح ش ع أو تحويله الى حزب كارتوني شبيه بحزب هاشم عقراوي . وقد اقترنت الحملة البوليسية المشددة بحملة اعلامية عنيفة ضد الشيوعية كايديولوجية وكتنظيم سياسي . وبدلا من تنظيم حملة مضادة من قبل ح ش ع وصحيفته طريق الشعب فان هذه الصحيفة التزمت الصمت أو كانت تشير بكلمات خجولة الى الضحايا دون أن تشير الى مصدر الجريمة ومنفذي الاعدامات . وفي معرض تقييم الجريدة ، في احد اجتماعات اللجنة المركزية ، قلت لرئيس تحريرها عبدالرزاق الصافي:

 ان جريدتنا طريق الشعب ليست معادية للشيوعية.

في أيار 1978 عقد اجتماع طارئ للجنة المركزية ترأسه زكي خيري ، في غياب عزيز محمد الذي كان قد سافر الى اثينا قبيل تنفيذ الاعدامات كي يحضر مؤتمر الحزب الشيوعي اليوناني . ظهر في الاجتماع رايان متباينان احدهما يطالب بالاستعداد لمواجهة اسوأ الاحتمالات وبالرد على الحملة الصحفية الحكومية . ويطالب الرأي الثاني بتأكيد الحرص على العلاقات الجبهوية وتجنب ما يثير البعث الحاكم ويزيد من حنقه . وكانت المناقشات حادة ولم يمكن التوصل الى اتخاذ قرارات ملموسة وحازمة.

وفي حزيران 1978 عقد ثاني اجتماع طارئ للجنة المركزية ، في غياب السكرتير ايضا . وكان النقاش حادا والجو متوترا . طالبنا ، نحن فريقا من المشاركين في الاجتماع ، بالاسراع في اتخاذ التدابير الضرورية والفورية لضمان استمرار النشاط الحزبي ، التنظيمي والاعلامي وبتهياة البيوت السرية لاخفاء الكادر واجهزة الطباعة السرية ، كما طالبنا بالرد على حملة البعث الاعلامية . وارتفع الصوت المقابل ، الذي رأى المسألة الرئيسية فقط في العمل على صيانة التحالف الجبهوي . ووقف العضوان الاحتياطان للجنة المركزية مكرم الطالباني الذي كان لايزال وزيرا ، وبشرى برتو الموقف الاكثر تخاذلا . قالت بشرى:

 كيف نرد على حملة البعثيين ونحن لانعرف ماذا يريد هؤلاء ؟

وقال الطالباني مؤيدا لبشرى:

 نحن الذين بدانا وانتقدنا النظام في التقرير الصادر عن اجتماع اللجنة المركزية آذار الماضي .. وهم الآن يردون علينا ويجب اعتبار المسألة منتهية.

وطالب كل من باقر ابراهيم وزكي خيري بتركيز الجهود من اجل ايقاف تدهور العلاقات مع البعث الحاكم والسعي لاعادة المياه الى مجاريها.

في كلا اجتماعي اللجنة المركزية ـ أيار وحزيران ـ اتخذت قرارات توفيقية : بذل قصارى الجهد لايقاف تدهور العلاقة مع البعث ولاعادة المياه الى مجاريها الجبهوية ، من جهة ، والاستعداد لمواجهة اسوأ الاحتمالات والرد على الحلة الصفية . وبعد الاجتماع لم ينفذ شئ لوضع القسم الثاني من القرار ـ الاستعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات ـ موضع التنفيذ . فلم يتخذ أي اجراء جدي لتحويل التنظيم الحزبي الى العمل السري ولا لتوفير أدوات الطباعة السرية ولا للرد على حملة البعث الاعلامية .. وركز الجهد على محاولات يائسة لاستعادة العلاقة الودية مع البعث ولصيانة التحالف الذيلي . وفي تموز 1978 نشر في جريدة الحزب مقال لباقر ابراهيم يشيد بمآمثر حزب البعث الحاكم ويناشده الحفاظ على الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.

في الوقت نفسه استمرت القيادة البعثية في تنفيذ مخططها لتحطيم ح ش ع وركزت الحملة البوليسية على قاعدة الحزب وكادره الوسطي دونما تعرض ـ في تلك الايام ـ لأي من اعضاء اللجنة المركزية . كانت فكرة صدام هي تحطيم الحزب مع الابقاء على جنرالات بلا عساكر من بين القادة الخانعين المستعدين للتحول الى أداة مطواعة . وتركت قيادة ح ش ع تنظيمات الحزب تحت رحمة الارهاب الفاشي المتصاعد . وترك اعضاء الحزب وكوادره ليظلوا في حيرة ومتاهة حقيقيتين وليتصرف كل بما يحلو له ، ودون أن يكون هناك توجيه حزبي حول ما يجب عمله . ولم تفكر القيادة بوضع الخطة حتى بعد أسابيع وأشهر من بدء الحملة البوليسية . كان التفكير كله منصبا على ايقاف التدهور وابقاء التحالف الذيلي ، فيما كانت طاحونة الارهاب تطحن الشيوعيين بلا رحمة.

ان قيادة ح ش ع في 78 ـ 1979 لم تدس فقط على القيم والاخلاق السياسية الثورية ، بل داست حتى على القيم والاخلاق الشخصية والكرامة الانسانية عندما تشبثت بذيول الحكم الفاشي وبالتحالف الذيلي معه ، فابقت الوزيرين الشيوعيين عامر ومكرم ضمن الوزراء كما ابقت ممثلي الحزب في المجلسين التشريعي والتنفيذي لكردستان في مناصبهم ، وهو يتفرجون

على سحق تنظيمات حزبهم من قبل السلطة التي يمثلون حزبهم فيها . كما بقيت جريدة الحزب الشرعية (طريق الشعب) تواصل الصدور يوميا لتكتب عن كل شئ سوى مأساة الحزب وحملة البطش ضده والدفاع عن ضحاياه . وبقي الحزب رسميا في الجبهة الذيلية دون اتخاذ اي قرار بالخروج منها . ومن المؤكد ان الشيوعيين العراقيين كانوا قادرين على عمل الكثير في الدفاع عن حزبهم فيما لو وجد من يقود ويوجه نشاطهم بصورة صحيحة ، بدلا من ترك الأمور لتسير بشكل عفوي ـ كما كان في ظل قيادة عزيز محمد.
حتى اذا ما افترضنا أن التحالف مع البعث كان مبررا وصحيحا (وأنا لست مع مثل هذا الافتراض) قبل شن هذه الحملة البوليسية على ح ش ع فان الوضع قد تغير كليا حين شن الحملة وأصبح من الضروري ان يعيد ح ش ع النظر في سياسته ويغير خطه وفق متطلبات الظروف المستجد. غير ان شيئا من ذلك لم يحدث الا بعد مرور (15) شهرا على استمرار الحملة المتصاعدة . وطوال تلك الاشهر ال (15) سادت الحيرة والارتباك والبلبلة الفكرية ـ السياسية صفوف الشيوعيين ، فيما ظل بعض قادة الحزب متشبثا بآمال اعادة مياه التحالف الى مجاريها . وقد قال حميد الخاقاني ـ وهو احد محرري جريدة طريق الشعب في ذلك الوقت ـ اثناء وصوله الى صوفيا في شباط 1979 ولقائه مع نعمان التميمي أو شخص آخر:
- أوصاني ماجد عبدالرضا بألا ابتعد كثيرا اذ ستعود الأمور الى مجاريها السابقة وستتحسن العلاقة من جديد مع حزب البعث . وعلينا أن نعود عندئذ الى بغداد لمواصلة اصدار الجريدة.
****

في حزيران 1978 تناقشنا ، أنا وسليمان اسطيفان ، كثيرا حول بعض الامور الحزبية ـ السياسية ، وقبل كل شئ حول ما ينتظر حدوثه جراء تطور حملة البعث البوليسية المشتدة وما يجب عمله لمجابهتها . استمر النقاش اسابيع ولم نتفق . كان يرى ان نظل في العراق ، وفي بالذات ، لنكون مهيأين لمجابهة ما يستجد في الوضع وضمان مواصلة العمل الحزبي . وكنت أرى ان البقاء في بغداد خاطئ ولا نملك فيها مقومات الصيانة ، ولا مناص من السفر الى كردستان أو الى خارج العراق ، قبل أن تطحننا الحملة . وكنت أفضل الانتقال الى كردستان لكن المكتب السياسي لم يكن يسمح بذلك خشية ان نتصل بالجماعات الكردية المسلحة . وابلغت صديقي سليمان أن بامكاننا ان نخرج من الباب لنعود بعدئذ من الشباك.
قررت مغادرة بغداد ، وتداولت مع زوجتي ، التي فضلت سفري السريع وبقائها هي مؤقتا . وعبثا حاولت استحصال الموافقة للسفر الى كردستان رغم انني كنت املك هناك امكانات لاخفاء نفسي وغيري . كانت القيادة تخشى ان يسبب سفري الى المنطقة الكردية احراجا لها وخطرا على تحالفها الجبهوي مع البعث الحاكم . بقي الخيار الوحيد أن اذهب للخارج . ذهبت الى زكي خيري ، وكان يقوم باعمال المسؤول الأول وكالة في غياب عزيز محمد ، وطلبت الموافقة على سفري . رفض طلبي قائلا:
- انت تريد السفر الى الخارج لكي تتصل بالطالباني والبارزاني وتسئ الى علاقاتنا مع البعث وتحرجنا هنا.
تراكم في اعماقي الغضب لكني سيطرت على اعصابي وتجنبت الانفجار . فهذا الرجل ، الذي كان من مؤسسي أولى الحلقات الماركسية في أوائل الثلاثينات واشترك في أول اجتماع عقد لتأسيس ح ش ع آذار 1934 والذي صوت معي في تموز 1973 ضد التحالف الذيلي البائس ، يحرص الآن كل هذا الحرص على صيانة هذا التحالف مع الجلادين من امثال البكر وصدام اكثر من حرصه على الحركة الشيوعية في هذه البلاد وعلى كوادرها . وتساءلت مع نفسي عما اذا كان هناك شئ من الاصالة في ثورية ((وشيوعية)) امثال هذا القائد . لكنني حاججته بهدوء وتركته دون ان اصر على استحصال موافقته . وقررت مفاتحة آخرين في المكتب السياسي لاستحصال الموافقة على السفر . واستحصلتها فعلا كما تم استحصال موافقة السلطات لتمديد جواز السفر.
رافقتني زوجتي الى مطار بغداد الدولي . وكانت شديدة القلق خوفا من اعتقالي في المطار . وطمأنتها قائلا:
- اني سأطير بسلام لأني عضو في اللجنة المركزية ولأن السلطة لاتتحرش بالقيادة حاليا.
في 21 تموز ، وفيما كانت الحملة البوليسية تتصاعد ضد الحزب ، غادرت الطائرة بسلام لتهبط في مطار صوفيا ، حيث كان في استقبالي رجل بلغاري مع حميد البياتي . واقمت في احدى غرف الفندق التابع للمدرسة الحزبية ببلغاريا منذ تموز 1978 وحتى أوائل آذار 1979 . كنت خلالها طالبا في المدرسة من الناحية الشكلية ومسؤولا عن الفريق العراقي الشيوعي في المدرسة من الناحية العملية ، رغم ان القيادة في بغداد رفضت اناطة المسؤولية بي ، وعينت شخصا آخر من غير اعضاء اللجنة المركزية مسؤولا حزبيا.
التقيت بعميد المدرسة وتبادلنا اطراف الحديث وطلب مني اللقاء مع اي استاذ اشاء لترتيب امور الدراسة الحزبية على الوجه الذي ارتأي . التقيت بعدئذ مع مسؤول قسم الحركة العمالية سموئيلوف وزوجته الاستاذة ايضا ، وهما شيوعيان يهوديان طيبان ومعاديان بثبات للصهيونية . بعد تناول وضع العراق بايجاز سألاني عما أود اختياره موضوعا لدراستي . فأجبت :
- اخبرت العميد أيضا باني لاأريد أن اخدعكم . فأنا لم أجئ لأدرس ، انما جئتكم اشبه بلاجئ في هذه المدرسة بانتظار أن تسنح لي فرصة العودة الى بلادي لاواصل هناك نشاطي الحزبي . وفي مدة بقائي هنا اظل في حاجة الى مساعدتكم لتأمين السكن والمعيشة على حساب المدرسة.

□ هذا شئ مفهوم ونعتبره مشروعا . مع ذلك نفضل ان تدرس مدة بقاءك هنا ولك ان تختار ماتشاء من المواضيع . وبامكانك تقديم اطروحة لكي تنال شهادة الدكتوراه.
□ ساكتب عن تأريخ الحركة الشيوعية في العراق . لكني غير مؤهل لنيل شهادة الدكتوراه لاني لااحمل شهادة اي كلية حتى ولا شهادة الاعدادية.
□ بالنسبة للعلوم الاجتماعية فاننا لانشترط حيازة اي شهادة لمن يقدم الاطروحة.
رأيت في رأيهم الوجاهة اذ ما قيمة شهادة الكلية ولماذا يجب تقديمها بالنسبة لشخص سهر على تثقيف نفسه واصبح قادرا على ان يقدم اطروحة الدكتوراه . في موضوع تاريخي أو فلسفي أو اقتصادي ؟ ومع ذلك لم يتغير شئ في رأيي . فانا عراقي وفكري منشغل كليا بامور بلدي وحزبي وخرجت من الباب كي اعود اليه من الشباك . لم اتزحزح من موقفي . مع ذلك الحت علي الاستاذة سموئيلوفا لاكتب مخططا أوليا لموضوع الدراسة . واتيح لهافرصة الاطلاع عليه . فعلت ماطلبت مني وانتهت مهمتي الدراسية عند ذلك . كنت متهيا نفسيا للعودة ولكن صحتي كانت سيئة وكان علي ان اهئ نفسي جسميا ايضا . فاكثرت من التردد على جبال (فيتوشا) و(ضرنى فرخ) في ضواحي صوفيا.
في ضرنى فرج تعرفنا ، أنا وعدد من العراقيين ، على عائلة بلغارية ودعتنا الى تناول العشاء في شقتها . حين ذهبنا اليها وجدنا وليمة جيدة اشبه بالولائم الشرقية ، مع كمية وافرة من المشروبات الروحية . في مجرى الحديث حول الوضع في بلغاريا انتقدت ربة البيت بمرارة ، وكانت نفسها شيوعية ، حكومة جفكوف قائلة:
□ انا امرأة مقدونية ، وعند تسجيل النفوس تغرض علي الحكومة البلغارية لكي اسجل انني من القومية البلغارية ولست من القومية المقدونية.
تصادقت في المدرسة الحزبية مع شابين مترجمين الى اللغة العربية . كانا يترددان علي احيانا في غرفتي . احدهما فلوديا ، وهو بلغاري مرح ، قال لي في احدى زياراته:
□ قادتنا يعلموننا ان نكره البرجوازية ونكافح ضدها ونتضامن مع الشيوعيين ومع الطبقة العاملة . لكن انفسهم يعملون العكس . ففي الغرفة التي تقع تحت غرفتك في هذا الفندق يسكن الآن بعثي عراقي ـ ذكر اسمه ـ ويبدو انه احد كوادر البعث . يأتي الى هنا احيانا ويقيم في العراق اغلب الأحيان . سيحصل على شهادة الدكتوراه ويعود الى بلده حاملا هذه الشهادة ، التي لايستحقها . والاسوأ من ذلك انه معاد للشيوعية . كل ما هنالك انه ياتي بهدايا الى بعضهم فتتاح له الفرصة.
أما المترجم الآخر المدعو شكري ، وكان تركيا ، فانه كان يقدم شديد الاستياء ويشكو بمرارة من تصرفات الحكومة البلغارية ازاء الاتراك . وقال:
□ حكومتنا الاشتراكية تفرض علينا تبديل الاسماء التركية لاطفالنا باسماء بلغارية وتسمية اطفالنا باسماء سلافية .. اهكذا يجب ان تكون ؟ هل هذه هي الأممية ؟
كنت أعرف مسبقا ماذكره شكري . مع ذلك امتلأت غضبا وكأني سمعته لأول مرة .. تراءى لي جفكوف ، المتربع على عرش الزعامة في الدولة البلغارية ، كما لو كان صدام التركريتي ، وتذكرت كيف تصرف هذا الفلاح البلغاري ، الذي كان ثوريا ومضحيا ذات يوم ثم افسدته ممارسة الحكم لفترة طويلة ، عندما زار العراق وزار بابل بصحبة صدام . كم هو جميل مافي بعض الدساتير من انه لايحق لامرئ ما ان يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية اكثر من دورتين.
البلغار طيبون ، ويسميهم الأوروبيون الغربيون بفلاحي أوربا ـ وهذا ينطوي على قدر من الصواب . وهو مديح ـ حسب رايي ـ لهم معناه ان البرجوازية لم تفلح في اشاعة ذلك الفساد الذي اشاعته في بعض البلدان الأوربية الاخرى . كان ديمتروف ابن هذه الطيبة العمالية البلغارية . لكن جفكوف تحول تدريجيا الى ابن الفساد وافسد في سني حكمه الطويل الكثير من أبناء شعبه ايضا.
اكلت أفضل لبن رائب في بعض المناطق بكردستان العراق ، سيما أواخر موسم الصيف ، وكذلك في بلغاريا ، بضواحي صوفيا حيث كان هناك مطعم يقدم الاسماك الحية واللبن الرائب المختر في أوان خزفية قديمة على النمط الكلاسيكي . وكان بالمستطاع طلب النبيذ أو الكونياك البلغاري الجيد ايضا مع هذا اللبن.
كانت علاقتي جيد مع المسؤول عن شؤون العراق في جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الحاكم . وهو كان رجلا طيبا ، غير انه كان يتقبل الهدايا بلهفة . وقد ساعدنا في العمل على قبول المزيد من رفاقنا في الفريق الدراسي بالمدرسة الحزبية حتى ازداد عدد المقبولين من 20 شخصا ـ وهذا ما خصص لنا اصلا ـ الى خمسين شخصا وعلى اقامة دورة دراسية خاصة برفاقنا الهاربين من العراق ضمت (150) شخصا على ان تستمر لمدة ستة اشهر . وفي جامعة صوفيا ايضا ضوعفت لنا المقاعد الدراسية التي كانت مخصصة اصلا.
بسبب تصاعد الحملة البوليسية ضد ح ش ع في العراق وفي ظروف انعدام خطة للعمل وانعدام ملجأ للمطاردين في كردستان كان يصل صوفيا كل يوم عدد كبير من الهاربين من جحيم الارهاب البعثي . وكان علينا ، نحن في المدرسة الحزبية ، ان نستقبل من يمكن استقبالهم من هؤلاء ونساعدهم على تدبير امورهم . ولازلت احس بالامتنان العميق للشيوعيين البلغار الذين ساعدونا ابان تلك المحنة على حل مشكلة حوالي (300) شيوعي ملاحق ، ولو حلا مؤقتا ، في تلك الايام . ولم نكن ، نحن فريقا من الشيوعيين العراقيين (انا وحسين سلطان ونعمان التميمي وغضبان السعد وحميد البياتي .. الخ) سوى جزء من هذه

المشكلة . وقد فوجئت ذات يوم ، قبيل مغادرتي لبلغاريا الى كردستان ، بوصول اخت زوجتي هناء ياسين ، التي كانت قد اعتقلت في البصرة من قبل وعذبت في دائرة الأمن لدرجة الاقتراب من الموت دون أن يفلح الجلادون في انتزاع الاعترافات منها . ثم اخلي سبيلها وساعدتها عائدة في تدبير السفر هربا من الارهاب البعثي.

كنت ابادل الزيارات في صوفيا مع الكرديين الايرانيين المقيمين في بلغاريا ، كل من التودي حسن قزلجي والأمين العام المساعد آنذاك للحزب الديمقراطي الكردستاني في ايران كريم حسامي . وقد انتقدت ذات مساء ، وانا عند قزلجي ، قيادة حزب توده انتقادا لاذعا بسبب تركهم ساحة النضال الساخن منذ انقلاب زاهدي في 1953 واساءتهم الى الحركة الثورية في ايران زاعمين انهم قادرون على قيادتها من بعد الآف الكيلومترات . فاعجبني جواب الرجل ، وهو يتكلم بهدوء:

- بني حزبكم رجل اعتيادي من ابناء الشعب وعامل كسب الرزق بجهده وهو فهد .. فهو انشأ حزبا على شاكلته شخصيا . وأما حزب توده في ايران فأن استاذا في الجامعة هو الذي اسسه ـ وهو تقي آراني ، الذي انشأ هو الآخر حزبا على شاكلته الشخصية وليس على شاكلة فهد.

كان قزلجي محقا بكل تأكيد . لكنه كان يجهل شيئا واحدا هو أن ح ش ع قد تحول لاحقا ، في عهد عزيز محمد ، الى حزب شبيه بذلك الحزب الذي اسسه تقي آراني.

كان كريم حسامي ، رغم انتسابه الى حزب قومي كردي ، يعتبر نفسه ماركسيا. وكانت العلاقة الودية الوثيقة بيننا تحمله على مفاتحتي أو استشارتي حول بعض الأمور الخاصة ايضا . وقد استدعي ذات مرة من قبل زملائه للسفر الى بغداد لمناقشة الأوضاع الصعبة التي يمر بها حزبهم ، الذي تحول الى شبيه بحزب توده من حيث اقامة قادته خارج بلدهم وانعزالهم عن شعبهم . وبعد عودته علمت منه ان سكرتير الحزب عبدالرحمن قاسلمو كان قد جمده مسبقا ، في غيابه ، ودون محاسبة حزبية وجاهية . ولم استغرب من أن يحدث شئ من هذا القبيل في حزب من هذا النوع . فأنا واجهت بنفسي مثل هذه الحالة في حياتي الحزبية.

اردت زيارة موسكو للا لتقاء مع عزيز محمد ، الذي كان مقيما هناك، ولرؤية اطفالي الذين كانوا يدرسون هناك . كان الحصول على الفيزة السوفيتية من اصعب المور ولسبب لم اعرفه . وعبثا حاولت الحصول عليها اثناء لقاءاتي الخاصة ومحاولاتي الشخصية في السفارة السوفيتية بصوفيا . اخيرا تدخل عزيز محمد ومنحت الفيزة وسافرت الى هناك . فاتحته بقضية عودتي الى كردستان وتشكيل مفارز مسلحة . وافق على ذلك . وفي وقت لاحق قدم لي عشرين ألف دولار (حوالي سبعة الآف دينار) لانفاقها على هذا الغرض.

تكررت زياراتي لموسكو في 979 و 980 ايضا والتقيت هناك بابني سلام وابنتي حياة وثري . وسألتني حياة في لقاء ثنائي:

- هل توافق ، ياوالدي ، على أن أتزوج من فتى أمريكي لاتيني ؟

كنت اعرف انها معرضة لمضايقات من والدتها وبعض الاقارب والاصدقاء ، طالبين منها التصرف كما لو كانت تعيش داخل العراق . علما أنها عاشت في الاتحاد السوفيتي منذ السابعة من عمرها . فاجبتها على سؤالها:

- لك كامل الحق في أن تعيشي ، يابنيتي ، كفتاة عائشة هنا من كل النواحي ، وان تتزوجي ممن تشأين ، ايا كانت قوميته وبلاده . الا انني افضل ان تتزوجي من فتى عراقي.

طرت من بلغاريا الى برلين الشرقية مرتين بهدف اللقاء مع نوري شاوةيس الذي كان مقيما في بريطانيا . في المرة الاولى لم يتمكن هو من الحضور . وفي المرة الثانية التقينا وبقينا سوية مدة يومين في شقة استأجرها لنا جوهر شاويس الذي كان مقيما آنئذ مقيما في ألمانيا . ابلغت نوري بأني هيات نفسي للسفر الى كردستان والاسهام في الكفاح المسلح . وطلبت منه تقديم العون الينا عن طريق (القيادة المؤقتة) للثارتي الى ان نبني انفسنا . فرحب بالطلب وذكرني بأنه لايزال ذلك الشيوعي الذي كان من قبل . وزودني برسالة (مفتوحة) الى سكرتير القيادة المؤقتة سامي عبدالرحمن ، الذي كان المسؤول عن الفصائل المسلحة للثارتي . وقد احتفظت بالرسالة فترة طويلة واضطررت الى اتلافها قبل ان التقي بسامي في نيسان 1979.

التقيت في صوفيا بصديقي القديم قادر رشيد عضو المجلس التشريعي المزعوم في كردستان ، طرت من بلغاريا الى برلين الشرقية مرتين بهدف اللقاء مع نوري شاوةيس الذي كان مقيما في بريطانيا . في المرة الاولى لم يتمكن هو من الحضور . وفي المرة الثانية التقينا وبقينا سوية مدة يومين في شقة استأجرها لنا جوهر شاويس الذي كان مقيما مقيما في ألمانيا . ابلغت نوري باني هيأت نفسي للسفر الى كردستان والاسهام في الكفاح المسلح . وطلبت منه تقديم العون الينا عن طريق (تاقيادة المؤقتة) للثارتي الى ان نبني انفسنا . فرحب بالطلب وذكرني بانه لايزال ذلك الشيوعي الذي كان من قبل . وزودني برسالة (مفتوحة) الى سكرتير القيادة المؤقتة سامي عبدالرحمن ، الذي كان المسؤول عن الفصائل المسلحة للثارتي . وقد احتفظت بالرسالة فترة طويلة واضطررت الى اتلافها قبل ان التقي بسامي في نيسان 1979.

التقيت في صوفيا بصديقي القديم قادر رشيد عضو المجلس التشريعي المزعوم في كردستان ، الذي كان قد قدم الى بلغاريا في سيارته الخاصة . وسافرنا سوية الى مدينة ثلوفديف لمشاهدة المعرض السنوي الدولي . وفي الطريق بكيت من الاعماق حين سمعت ، لأول مرة ، صوت (حمه جزا) وهو يغني بنغم البيات قصيدة للشاعر الكردي الايراني هيمن (ئةطةرضى شةودرةنطة..) . لم يكن بكائي بمعزل عن وضعي النفسي السيئ المرتبط باشتداد الحملة الارهابية ضد الحزب وبالانباء السيئة التي نقلها قادر الي حول الحملة .

كنت اراسل من صوفيا زوجتي عائدة في بغداد . وبعثت اليها بآخر رسالة من بلغاريا مع قادر . كنت احس ، من ثنيا كلماتها في تلك الرسائل ، التي ارسلها الي ، بأن المحنة جعلتنا اقرب واكثر تطقا ببعضنا . كانت رسائلها طافحة بالآلام والمرارة لما آل اليه وضع الحزب جراء الحملة . وكانت نفسها تعبر عن روح الاقدام والجرأة لديها في متابعة النضال . وذكرت في اكثر من رسالة بأن ما كنت اتنبأ به واتخوف ، فيما يتعلق بآفاق العلاقة مع البعث الحاكم ، قد تحقق . واحتفظت برسائلها كوثائق عزيزة علي : اودعتها لدى اختها هناء ، حين غادرت بلغاريا، معتبرا اياها اكثر الجميع حرصا على صيانتها . لكنها اضاعتها في وقت لاحق ، حين تعرضت للاحتجاز والمضايقة في دمشق.

****

في صوفيا عقدنا آخر اجتماعات حزب العمل العراقي . وقد احتجز دطلة في مطار صوفيا لبعض الوقت حين مجيئه من بيروت لحضور الاجتماع . وضعنا مشروعا كأساس فكري او برنامج مقترح لتعاون قوى المعارضة . وتقرر اصدار عدد من الجريدة الناطقة بلسانه في بيروت. ولكن الاتجاه الرئيسي لدينا لم يكن تنشيط هذه المنظمة ، بل تجميدها طالما انتقل ح ش ع كله الى معسكر المعارضة . وقد اعطيت في وقت متأخر تلميحات الى عزيز محمد حول هذا التنظيم ولا أدري ما اذا كان آرا قد اعطاه سابقا المزيد من المعلومات أم لا . لكن من المؤكد ان البعض من المسؤولين اخذوا المسالة مأخذ الجد وكانوا يحاسبوننا ويعاقبوننا بشدة فيما لو جرى كل ذلك في وضع آخر . ويبدو ان احدى رسائل آرا قد كبست وكشفت للقيادة بعض جوانب عملنا . ووضعت أنا تحت المراقبة الشديدة من بعض الرفاق العراقيين في المدرسة الحزبية بصوفيا، دون ان اكون على علم بشئ . وقد جاءني من وارشو صديقي ابو ذكرى ، الذى كانت تربطني معه علاقة وثيقة ، وبقي عندي ليلة واحدة دون ان اخرج معه من الغرفة . وبعد عودته الى ثولونيا استدعي الى براغ فورا وحوسب بشدة من قبل عادل مصري بسبب زيارته الي ، مما اكد فعلا وجود تلك المراقبة علي وعلى من يزورني ، في وقت كنت عضو اللجنة المركزية للحزب وكنت المسؤول الفعلي عن الشيوعيين العراقيين في بلغاريا . على ان هذه المزعجات لم تغير من تصميمي في ان اعود الى العراق ، او الى كردستان وابذل قصارى الجهد لتأسيس فصائل فدائية مسلحة من الشيوعيين العراقيين.

19

العودة الى كردستان

أولى الفصائل الشيوعية المسلحة

كنت قد اخترت ثلاثة رفاق ليعودوا معي الى كردستان العراق: الثيشمرطة المخضرم ملا علي ـ الذي كان يدرس في المدرسة الحزبية بألمانيا الشرقية ـ والشاعر رفيق صابر وعامل الميكانيك السماوي ابو حاتم . وقد فاتحتهم ووافقوا بحماس . غادرنا نحن الاربعة مع كريم حسامي مطار صوفيا في 10 آذار 1979 متوجهين الى بيروت ، حيث كان هناك من ينتظرنا في المطار لتدبير الفيز ولادخالنا المدينة التي مزقتها الحرب الاهلية . كنا ضيوفا على صلاح الدين الذي دبر لنا جوازات سفر فلسطينية جديدة مع الفيز الايرانية . في اليوم التالي لوصولنا خرجنا لنتمشى في شارع كورنيش المزرعة فسمعنا صوت طلقة واحدة وسقط احد المارة على مسافة 40- 50 مترا امامنا . فقفلنا راجعين الى شقتنا في حي الفاكهاني . وبعد الظهيرة ذهبنا الى الروشة وتفرجنا على مياه البحر الزرقاء الصافية البديعة . رغم برودة الماء وعدم وجود المايو لدي فاني القيت بنفسي في البحر وتمتعت بسباحة منعشة لاكثر من ساعة في مياه راكدة لم تحركها الامواج.

في طريقنا الى طهران بقينا يومين في العاصمة اليونانية وتفرجنا هناك على بعض الآثار الاغريقية . وعندما هبطت الطائرة في العاصمة الايرانية الثائرة ، التي كانت قد شهدت تحطيم عرش الشاه قبل ذلك بشهر واحد ، وجدنا ـ بصفتنا فلسطينيين ـ الترحيب والتسهيلات من مسؤولي المطار الجديد . واعلمونا بأن سفارة اسرائيل في عهد الشاه قد حولت ، في العهد الجديد ، الى سفارة فلسطينية . وصرفت بضع دولارات في مصرف المطار مقابل سبعة تومانات للدولار ، وخارج المصرف مقابل 9 تومانات .

كانت طهران الثائرة قد ارتدت حلة النصر العظيم وكانت الشوارع كلها طافحة بالبهجة والاعتزاز وكانت الوجوه كلها تضحك صحكة الفرح والشموخ وكانت الجماهير في كل مكان تلعن الشاه ونظامه المقبور . ذكرني كل ذلك بما كان في بغداد أيام مابعد ثورة 14 تموز 1958 . مررنا امام الجامعة وشاهدنا حلقات النقاش الحربين الشبان ، وشاهدنا اللافتات في كل شارع ، كل يبشر بافكاره ويعرض جانبا من برنامجه على الجمهور. لم يكن هناك بعد من هو مسيطر على الوضع سيطرة كاملة ، رغم ان التيار الديني ـ السياسي بزعامة الخميني كان اقوى من اي تنظيم ىخر منفردا . وكان هناك أناس عادوا من امريكا واوربا ونشطوا في الميدان السياسي مراهنين على علاقتهم مع الخميني . كان جمهور طهران في حركة دائبة كالنحل في يوم ربيعي مشمس دافئ . وكانت حركة السيارات كثيفة لدرجة يصبح معها الوصول الى مكان ما سيرا على الاقدام اسرع من الوصول عن طريق السيارة . كانت فترة فريدة من نوعها في تأريخ طهران وكانت حصيلة ثورة شعبية عظيمة وفريدة من نوعها خلال النصف الثاني من هذا القرن.

في طهران زرت مقر توده والتقيت بمسؤول حزبي يدعى علي عموئي كان قد قضى قرابة 30 عاما في سجون نظام الشاه وحررته الثورة ليبدأ مع زملائه باعادة بناء حزب توده ، قبل ان يعود الى هناك اي من زعمائه المتبحجين المقيمين في أوربا .

تراءى لي عموئي رجلا بسيطا متواضعا وثوريا حنكته الصعوبات ، قبل أن يعود كيانوري واضرابه من القادة الذين افسدوا النشاط الهادف الى اعادة بناء حزب توده.
وزرت مقر منظمة فدائيي الشعب اليسارية ، التي تكونت في عهد الشاه كمنظمة اغتيالات ضد حماة ذلك النظام ، وليست كمنظمة للنضال السياسي الجماهيري . ولم يكن من السهل عليها ان تتحول فجأة الى تنظيم سياسي يلائم الاوضاع المستجدة .
وقد التقيت بشاب هادئ ومتواضع ظاهريا ، قيل لي لاحقا انه فروخ نطهدار . وحاولت ان اعرض أمامه شيئا من تجربتنا العراقية لما بعد ثورة تموز 1958 . وكنت مترددا في أن ازور منظمة مجاهدي خلق . وفي الأخير قررت عدم زيارتها.
بعد قضاء يومين في طهران توجهنا بصحبة كريم حسامي وجليل طاداني الى مدينة مهاباد . في الطريق علمنا ان هناك اضطرابات ومصادمات دموية في مدينة سنندج ، وخصوصا حول الثكنة العسكرية . عجيب ! لم يمض على الثورة وسقوط الشاه اكثر من شهر ، وها هي المشكلة القومية الكردية تتأزم وتتحول الى مصادمات دموية . دخلنا مدينة سقز ومن ثم بوكان اللتين لم يكن للسلطة المركزية وجود فيهما . وكانت فرحة كبيرة ان التقيت في مهاباد بأحمد بانيخيلاني وآخرين من رفاقي ، الذين كانوا قد وصلوا الى منطقة نيوزنط (أو ماسمي لاحقا بوادي الاحزاب) في شهر شباط 1979 واقاموا نواة أولى التشكيلات الفدائية المسلحة كانوا يفتقرون الى السلاح والعتاد . وكانوا لايزالون اشبه بتجمع صغير من اللاجئين في هذا الوادي الصغير المحرر من سيطرة النظام البعثي . وقد زودهم جلال الطالباني ببضع بنادق ليستفيدوا منها في الحراسة الليلية .
سافرت من مهاباد الى وادي نيوزنك ، حيث التقيت بالرفاق الهاربين من ((وجه العدالة)) البعثية . كان هناك توما توماس وفاتح رسول وعدد من الكوادر الوسطية والاعضاء الاعتياديين . وكانوا في وضع صعب معاشيا ونفسيا . كان توما يحظى بقدر اكبر من الاحترام بينهم ، بعكس فاتح الذي ترك انطباعا سيئا بينهم لدرجة لقبوه ب ((الرفيق الجلالي. ((
وزرت في نيوزنك جلال الطالباني . كان مقيما في غرفة طينية مشيدة كأي مبنى ريفي بسيط . كان اللقاء الثالث لي معه في حياتي . لم يكن لدي الكثير مما اتحدث عنه في ذلك اللقاء . وقد لاحظت انه كان فرحا وكان ينتظر خيرا من انتقال ح ش ع الى صف معارضي النظام البعثي.
عند العودة من نيوزنك الى مهاباد كان يجب الوصول الى سردشت مشيا أو على الحيوان . وقد نزلت من الكديش في مكان شديد الانحدار خشية السقوط . وبعد دقيقة واحدة هوى الكديش نحو الوادي مسافة عشرات الامتار . ظننت انه تحطم وقضى نحبه . لكني وصاحبه فوجئنا بأن نهض وسار اعتياديا وعاد الى الطريق.
اقمت في مدينة مهاباد بصحبة احمد بانيخيلاني وسعيد البرزنجي وآخرين في دار استأجروها لهذا الغرض . كانت مهاباد تتمتع ، لأول مرة بعد سقوط جمهوريتها الفتية في 1946 ، بالحرية الحقيقية وكانت خلوا من نفوذ السلطة المركزية . كان التنظيم السياسي الحاكم هو الحزب الديمقراطي الكردي بزعامة عبدالرحمن قاسملو . وكان لرجل الدين عزالدين الحسيني نفوذه الشعبي غير القليل ، خصوصا بين سكان الارياف في المنطقة . ولاحظت ان لمنظمة فدائيي الشعب نفوذه بين الشبان ايضا . وكان تنظيم حزب توده اصغر وافقر الجميع ، رغم كثرة الشبان من ذوي الميول والامزجة الماركسية . وكان السبب في ضعف او انعدام التنظيم التودوي يعود الى أن قيادة حزب توده رفضت منذ القديم والى ذلك الحين العمل على اقامة تنظيمات تودوية خاصة بها وراهنت على تحويل الحزب الديمقراطي الكردي الى فرع له في كردستان ايران . تمسكت قيادة حزب توده بهذه الفكرة السخيفة التي لم تمت الى الماركسية ولا الى الديمقراطية ولا الى أي منطق سليم ، انما عبرت عن الرغبة في التسلط القومي الفارسي على شتى نواحي الحياة السياسية في كردستان ايران.
في مهاباد زرنا ، أنا وبانيخيلاني ، د. قاسملو . ولم نتخرجمن طلب مساعدته لنا ببعض الاسلحة ، بعد أن كانوا قد استولوا على ثكنة المدينة بكل مافيها من تجهيزات . وقد وعدنا خيرا واستلمنا عددا قليلا من بنادق ذ/3 ايرانية الصنع أو التجميع ـ ولم تكن جيدة باي حال ، رغم انها كانت بندقية جيش الشاه . وبناءا على طلب قاسملو ، الذي كان يفتقر في تلك الايام الى الكادر السياسي والعسكري معا ، وضعنا خدمات ابراهيم صوفي تحت تصرفهم . وأظن انه افادهم لفترة معينة فعلا . ولكنه تحول فيما بعد الى عب ء عليهم واتهمه البعض بأنه تعلم النهب والسرقة ، حتى اصيب بجرح في ساقه اثناء القتال في مدينة سنندج بين الثيشمرطة الاكراد وبين السلطة المركزية.
كنتيجة لجهودنا ، أنا وبانيخيلاني ، في مهاباد حصلنا على عدد من الدوشكات والمدافع والبنادق وارسلناها الى فدائيينا في نيوزنك وفي منطقة هورامان الحدودية قرب حلبجة ، حيث تكون حشد جديد من رجالنا . وبفضل جهود الشيوعي الكلداني النشيط وجندي اللاسلكي السابق في الجيش أبو شاخوان حصلنا على عدد من اجهزة اللاسلكي ، التي كانت ملقاة بين الانقاض في ثكنة مهاباد . وكنا أول جماعة استفادت من هذه الأجهزة لاقامة الصلات بين مقراتها من اقصى كردستان الى اقصاها.
فكرنا في اقامة قواعد لنا على حدود (شارباذير) وطرميان ، وقمنا ـ مع بانيخيلاني ـ بزيارة بانه والحدود القريبة منها وبزيارة جبل (بمو) . كما قمت بزيارة قاعدتنا في قرية (بلبزان) ، حيث كان ملا علي مسؤولا عنها.
حين وصولي الى كردستان في آذار 1979 اعتقدت أن من الطبيعي ان اكون المسؤول الحزبي الأول في المنطقة ، وأردت أن اكون كذلك فعلا . غير أن بانيخيلاني ، الذي كان قد وصل قبلي ـ وكان هو الآخر عضوا في اللجنة المركزية مثلي ـ تمسك

بمركزه كمسؤول أول اما لأنه لم يشعر بأنه غير آهل لأن يشغل هذا المركز أو لأن المكتب السياسي أوصاه بأن يكون المسؤول الأول أو لكلا السببين . ولم اجعل من ذلك مشكلة بل تعاونت معه وعملنا بانسجام فترة بقائي هناك.
كان فاتح رسول عنصر الضعف لتهربه من تنفيذ المهمات الحزبية التي او كلت اليه في أربيل ـ حسب ماذكر كل من بانيخيلاني ويوسف حنا وغيرهما . ولهذا اقترحت من جانبي تجميد مسؤولياته الحزبية بقرار منا الى اشعار آخر ، مع عرض الامر على المكتب السياسي ، الذي كان خارج البلاد . وقد أقرت ((هندرين)) (هكذا سمينا الهيأة الحزبية القيادية في كردستان آنئذ) هذا الاقتراح . وحظي لاحقا بمصادقة المكتب السياسي . واعلمنا المكتب السياسي ايضا انه قرر تجميد مسؤوليات آخرين ايضا بسبب جبنهم وعدم وفائهم بالتزاماتهم الحزبية ـ وهم كل من رحيم عجينه وزوجته بشرى برتو وعادل حبه وماجد عبدالرضا . الا ان قرار التجميد هذا قد ألغي في وقت لاحق ، حيث اشتدت الصراعات الفكرية في القيادة وأصبح المكتب السياسي في حاجة الى اصوات هؤلاء لاقرار القرارات المطلوبة . كان ماجد الشخص الوحيد ، الذي حوسب وعوقب . وكانت عقوبته هي تنزيله من عضو في اللجنة المركزية الى عضو احتياط بسبب رضوخه لمشيئة مدير الأمن العام فاضل البراك ، الذي طلب منه في 979 نشر مقال باسمه في جريدة طريق الشعب للاستدلال على انه لم يعتقل.
في نيسان سافرنا ، انا وبانيخيلاني ، الى قرية راذان ـ قرب مدينة أورميه ـ لزيارة مسعود البارزاني وسامي عبدالرحمن في مقرهما بايران لتبادل الآراء حول الوضع . دار الحديث حول احداث (حكارى) المأساوية السابقة وذكرا ان لديهما وثائق دامغة تدين جلال الطالباني وتثبت مسؤوليته عما جرى هناك . وأبديا الاستعداد التام للتعاون معنا ولمساعدتنا قدر الامكان في كل نريد . وكان الطلب الملموس لنا هو أن يساعدونا وقتيا على فتح الطريق الى سوريا واقامة قواعد صغيرة لنا في الطريق لنقل الاشخاص وقطع الاسلحة من هناك الى كردستان . وقد اتفقنا على ارسال مفرزة من رفاقنا بمساعدتهم في الأيام القريبة القادمة . وفي حديث جانبي بيني وبين سامي حول ما اذا كان يرضى بالعودة الى نهج الثارتي القديم قال:
 لن اقبل قطعا بالعودة الى ذلك النهج وسأنسحب منهم ، اذا اعيد النهج السابق ، حتى وان اضطررت الى العيش على بيع السلق في السوق كمصدر للعيش.
مررنا بطريق العودة بمدينة شنو . وأغرب ما رأيته هناك أن فلاحا كرديا كان قد عرض للبيع مدفعا ثقيلا تجره عربة جيب عسكرية . عاملته على سعر المدفع فقال:
 ابيعه لك فقط بمبلغ ستين الف تومان.
 انه ثمن غال، خاصة وان المدفع ثقيل جدا ولا يفيدنا كفدائيين لأنه لايمكن سحبه خارج الشارع.
 وأنا لم احسب شيئا للمدفع .. اقبض فقط ثمن السيارة.
بعد العودة الى مهاباد أردنا ارسال مفرزة من عشرة فدائيين بهدينانيين الى منطقة دهوك / زاخو واقامة نواة أول قاعدة عسكرية لنا ، مستفيدين من مساعدات مسعود وسامي . ارسلنا رسالة الى توما توماس في نيوزنك كي يرسل لنا رجال المفرزة المطلوبة . فرد علينا غاضبا ، واشرك فاتح رسول في الرد ، رافضا بصورة قطعية ارسال أي كان بذريعة أن مثل هذا الاجراء سيؤزم علاقاتنا مع جلال الطالباني ، الذي كان على علاقة متوترة وسيئة مع الثارتي . وقد فسرت رأي توما بأن على الشيوعيين ان يكونوا في حالة التبعية لاحدى الجهات وحالة التخندق لجهة اخرى . ولم نستطع ، أنا وبانيخيلاني ، عمل شئ سوى ان ارسلنا قادر رشيد وحده ، بمساعدة الثارتي ، الى سوريا . وقد ذهب بحماس وعاد الينا . في تلك الايام التي أردنا فيها ارسال مفرزة الى بهدينان وفتح الطريق الى سوريا كان عضو المكتب السياسي كريم احمد قد وصلنا ، قادما من سوريا . حدثناه ، أنا وبانيخيلاني ، حول اهمية ارسال هذه المفرزة وخطألموقف اللامسؤول لتوما توماس . وافق كريم على رأينا موافقة حماسية واكد أنه سيدبر المسألة عند سفره الى نيوزنك . وأنا لم افرح بذلك كثيرا لأني كنت اعرف كريم جيدا . وقد ذهب الى هناك وعاد الينا منقلبا على 180 درجة ، كما هي عادته في الكثير من الحالات . وتذكرت حكاية رددها زكي خيري اكثر من مرة حول هذا الرجل ، حيث قال:
 عندما تثار قضية ما للنقاش بيننا فانني استطيع ان اعرف مسبقا رأي كل رفيق من الموجودين حول المسألة . ولكني لم احزر مسبقا ولا مرة واحدة مايقوله كريم ـ (قصد زكي ان كريم ليس ثابتا على أي رأي أو اتجاه ولا يميز بين اليمين واليسار. (
كان جلال دباغ ميالا للسفر الى بغداد . وشجعنا ، أنا وبانيخيلاني ، بأمل الاستفادة من سفرته للحصول على البنادق والمسدسات المستلمة من النظام البعثي والموجودة في المقر العام ومقر بغداد الموشكين على الاغلاق . كتبنا رسالة الى المكتب السياسي ، الذي كان بعض اعضائه باقيا هناك ، أوضحنا فيها أننا في امس الحاجة الى هذه الاسلحة وأن لدينا وسيلة النقل الأمينة من بغداد الى كردستان . وأوصينا الدباغ بالالحاح على طلب الجواب وعدم العودة مالم يحصل عليه . وعاد بعد أيام ليخبرنا:
 رفض المكتب السياسي طلبنا وجمع الاسلحة كلها في احدى غرف المقر العام زكتب في ورقة متروكة مع الاسلحة العبارة التالية: ((هذه اسلحة السلطة وتعاد اليها.((
هذا مع العلم ان المكتب السياسي كان على علم بوجود حشودنا في نيوزنك وفي مناطق اخرى وبحاجتنا الماسة الى البندقية الواحدة.

كان الاطرف من كل شئ مجئ اعضاء المجلس التشريعي لمنطقة الحكم الذاتي ، وبالاحرى مجئ يوسف حنا الينا. كان هذا الرجل مسؤولا حزبيا عن كتلتنا البرلمانية المزعومة، التي قلصها البعث الحاكم ، في المجلس التشريعي بكردستان. وكان يعرف جيدا وضعنا وحاجتنا الى الاطلاقة الواحدة لاولئك الذين كان يسهم في ارسالهم الينا. وعندما تقرر ان يستقيل هو وزملاءه ـ ولو بعد فوات الاوان ـ من المجلس التشريعي والتنفيذي ليلتحقوا بالجبل ، أي بصفوف فصائلنا المسلحة ، طبقا لتوجيه الحزب ، نفذ القرار على الوجه التالي : استقال بنفسه من عضوية المجلس التشريعي واعاد الى السلطات البندقية والمسدس اللذين كانا في حوزته ، وأوصى زملائه في التشريعي الشاعر دلزار وسامية الضاوشلي وخيري القاضي وعضوي المجلس التنفيذي شيروان علي أمين واحمد حامد بأن يحذوا حذوه ، بالاستقالة وتسليم الاسلحة ، واضاف الى ذلك بالنسبة لعضوي المجلس التنفيذي ، ان يبقيا في مكاتبهما ، حتى بعد تقديم الاستقالة ، لحين اتمام الدور والتسليم كي لا يتهما لاحقا بالسرقة . وقد نفذ الرجلان ما أوصى به اذ استقالا وبقيا ينتظران الدور والتسليم حتى اعتقلتهما السلطات القمعية ووضعتهما تحت التهديد والتعذيب واسقطتهما سياسيا .

هكذا كان موقف عبدالرزاقالصافي وباقر ابراهيم وغير هما من اعضاء المكتب السياسي الذين كانوا باقين في بغداد حتى نيسان 1979 . وهكذا جاءنا يوسف حنا ليساهم ، كعضو اللجنة المركزية ، في قيادة الكفاح المسلح ضد الحكم البعثي.

****

في حزيران 1979 سافرت مع جلال الدباغ من مهاباد الى طهران بهدف تدبير السفر من هناك الى سوريا ، تنفيذا لقرار هيئتنا الحزبية (هندرين) . وقع الاختيار علي لاني كنت املك جواز السفر ودخلت ايران بصورة شرعية . وكانت مهمتي أن اعرض على المكتب السياسي أوضاعنا واحتياجاتنا الى المال والسلاح.

التقينا في طهران مع عضو اللجنة المركزية عادل حبه ، الذي كان يتقن اللغة الفارسية . وقد اعتقل في 1964 داخل ايران ، حيث كان في طريق العودة من أوربا الى العراق . وحكم عليه بالسجن بتهمة التجسس وقضى سبع سنوات هناك . وعاد الى العراق بعد ذلك . وهاهو في طهران من جديد . ساعدنا في اسكاننا داخل شقة عائلة تودوية مكونة من مهندس شاب وزوجته الطالبة الجامعية . كان في هذا المهندس جهاز فوتو ستنسل مع رونيو . وجوابا على سؤال مني قال:

- املك هذه الاجهزة منذ اكثر من سنتين وجلبتها من تركيا واستخدمها في اعادة طبع المنشورات التودوية التي أوزعها من جديد.

عندئذ فكرت من جديد فيما كان عليه قادة حزب توده من أوهام حول استحالة تخفي الكادر الحزبي القيادي وبقائه في ايران لمواصلة النشاط الحزبي.

خلال وجودي في طهران زرت مرة اخرى مقر حزب توده وعقدت لقاءاً مع سكرتيره نورالدين كيانوري ، الذي كان قد شغل منصب المسؤول الأول قبل وقت غير بعيد. رغبت في التحدثاليه عن نقطة واحدة: التأكيد على ضرورة بناء تنظيمات حزبية خاصة بتوده في كردستان ايران. واوضحت لكيانوري اننا وجدنا هناك شبانا كثيرين يبحثون عن تنظيم ماركسي لينضموا اليه، وان تجربتنا في كردستان العراق تثبت ضرورة وأهمية حيازة مثل هذا التنظيم . وتساءلت عما اذا كان هناك ما يبرر الامتناع عن تشكيل مثل هذا التنظيم الحزبي . نظر الي كيانوري بشئ من الغضب وأجاب:

- ارجو ألا تتدخلوا في شؤوننا الداخلية الخاصة بنا.

واتضح لاحقا ان قيادة توده كانت على صلة سرية مع عضو المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردي في ايران غني بلوريان ، الذي كان قد قضى اكثر من 25سنة في السجن وخرج بعد سقوط الشاه متمتعا بسمعة جيدة . وكانت المراهنة على هذه الصلة ، التي انتهت آخر الأمر الى شق صفوف الحزب واتباع قسم قليل من كوادره واعضائه لغني ومن معه من بعض الكوادر القيادية.

لقد بدا لي كيانوري ، حين التقينا لآخر مرة ، كرجل مغرور لدرجة خيالية . ومن ناحية اخرى بدا لي قوميا شوفينيا اذ كان يطمح الى تحويل الحزب الديمقراطي الكردي الى فرع لحزبه في حين كان يرفض اقرار الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي في ايران.

كان لابد من تمديد فيزنا لكي نسافر بشكل طبيعي ودون وضع العراقيل امامنا . وعندنا عادل حبه بالتمديد عن طريق الفلسطينيين واخفق . فذهبنا الى الشرطة وقدمنا طلبا واحلنا الى المحكمة بسبب بقائنا اشهرا بدون الفيز . غرمنا مئة تومان لكل شخص ومددت الفيز واصبح بامكاننا السفر بشكل نظامي.

20

خارج البلاد من جديد

وصلنا العاصمة السورية واقمت في شقة مع عضوي اللجنة المركزية مهدي عبدالركريم وسليمان اسطيفان . وكان يتردد علينا كريم احمد . وعلمت بأن مهدي عين من قبل المكتب السياسي مسؤولا عن قضايا التنظيم الحزبي في العراق ، في حين كان باقر ابراهيم حتى وقت لاحق مشرفا اعلى على هذه المسائل . وكانت قيادة الحزب موزعة على عدة بلدان أوربية وعربية . وكان الموقف السياسي لايزال مرتبكا وغامضا اذ لم يكن هناك تغيير في الخط السياسي المتبع رسميا ، كما لم يكن هناك مايمكن اعتباره تمسكا بالخط الجبهوي الذي تخلى عنه صدام قبل سنة . وكان الشيوعيون الهاربون الى خارج البلاد في حيرة

من امرهم . في حين كان الشيوعيون الملتجأون الى المناطق الجبلية في كردستان يعيشون مع بعض الأمل في أن يتطور نشاطهم المسلح ويصبح حزبهم قوة فعالة في الساحة السياسية.
بعد انقضاء اكثر من عام على اجتماعي اللجنة المركزية الطارئين ، اللذين عقدا في مقر الحزب العام ببغداد ولم تنفذ قراراتهما ، هيأ عزيز محمد لاجتماع جديد للجنة المركزية في المهجر - في براغ ، ضيوفا على الحزب الشيوعي الجيكوسلوفاكي الحاكم . كان على هذا الاجتماع ان يعطي عملية انتقال الشيوعيين الى المعارضة طابعا رسميا ، ولو جاء ذلك متأخرا . وقد سافرنا نحن من الشام في حين قدم الآخرون من بلدان اخرى الى مكان الاجتماع . ودار النقاش في جو لم يزل فيه البعض يأمل أو يتمنى رأب الصدع وعودة العلاقات الجبهوية الى سابق عهدها . وبين مطالبة البعض برفع شعار اسقاط الحكم الدكتاتوري ورغبة البعض الآخر في استعادة العلاقة الجبهوية السابقة ، توصل الاجتماع الى حل توفيقي : رفع شعار انهاء الدكتاتورية بدلا من شعار اسقاط النظام الدكتاتوري . على ان الاجتماع سجل تحولا في سياسة الحزب واعطى الرد الرسمي الحاسم على مساعي صدام الهادفة الى تحطيم ح ش ع عمليا دون الاعلان عن ذلك رسميا . وغادرت براغ عائدا الى سوريا بقوة معنوية افضل.
بشئ من الصعوبة استحصلت في دمشق الموافقة الحزبية على القيام بسفرة الى كردستان تركيا بهدف دراسة الامكانات لاقامة قاعدة عسكرية داخل كردستان العراق في منطقة بهدينان . واخترت لمرافقتي كادرين شابين احدهما احمد كريم - من أربيل - والثاني عادل علي (أبو حسن من خانقين) وهما بمستوى عضو لجنة المحافظة ، بأمل الاستفادة منهما لانجاز المهمة المعنية .
اجتزنا الحدود من مدينة القامشلي الى بلدة نصيبين الكردية في تركيا ، حيث اتصلنا هناك مع مسؤول منظمة (كوك) ولقينا منه الترحيب الحار . ومن هناك أوفدت احمد كريم ، بمساعدة كوك ، الى القاعدة الفدائية للثارتي على مصب الخابور داخل الحدود العراقية . وبعثت معه برسالة الى مسؤول الثارتي - وأظن انه كان جوهر نامق ، الذي رحب بطلبنا لاقامة القاعدة هناك ، وترك الأمر لمن ناب عنه ، لأنه كان متهيأ للسفر الى مؤتمر الثارتي . وسافرت بنفسي مع ابو حسن وبرفقة دليل من (كوك) نحو الحدود الايرانية - التركية . كانت فرصة جيدة أن أرى في طريقي المدن الرئيسية في كردستان تركيا، اولاها ماردين وهي مدينة صغيرة تقع في سفوح تلة كبيرة أو جبل صغير . ويشكل العرب نسبة كبيرة من سكانها ، رغم ان القرى المحيطة بها كردية تماما . ويبدو أن هؤلاء العرب وصلوا الى هناك ايام الامبراطورية العثمانية كي يشكلوا حامية عسكرية أو قوة قمعية مسلحة في يد السلطة ضد السكان المحليين.
بقيت ثلاثة ايام في دياربكر ، وهي المدينة الرئيسية ومركز النشاط القومي التحرري في كردستان تركيا . التقيت هناك بثلاثة من مسؤولي كوك . لاحظت انهم يتكلمون فيما بينهم باللغة التركية . وحين سألت عن سبب ذلك ، مع انهم اكراد ، أجابوا :
 هذا الرفيق يتكلم بلهجة (زازا) ولهذا لانفهم بعضنا ونضطر الى التكلم باللغة التركية . في تلك الايام كان اجاويد رئيس الوزراء . وكان هناك شئ من الحريات . وكنا نسير في احد الشوارع عندما اشر مرافقي الى سيارة مغطاة بتلة من القاذورات أمام مبنى بلدية المدينة . فسألت:
 ولماذا القى بهذه القاذورات على السيارة ؟
 احتجاجا من العمال المضربين على عدم دفع رواتبهم منذ شهرين.
اذن كان عمال البلدية مضربين عن العمل . ومطلبهم الوحيد هو ان تدفع اليهم رواتبهم . وفي اليوم التالي مررنا بنفس الشارع وكان المنظر متغيرا: الساحة منظفة والسيارة كذلك . وهناك غناء راقص ودبكة جماعية .
 انهم عمال البلدية ، يدبكون بمناسبة تحقيق النصر.. اخذوا الرواتب وانهوا الاضراب.
نمت ليلا في منزل رجل كهل مالك لحانوت الحلويات . كانت هناك صورة مؤطرة للملا مصطفى البارزاني . وقد قال الرجل ، وهو يراني اتفرج على الصورة ، ((انه أب الجميع.((
في اليوم التالي التقيت ، في مدينة باتمان ، بشاب قصير القامة وقدم الي كسكرتير لمنظمة كوك - يدعى حسن مصطفى . كان هناك ، في تلك المدينة البترولية التي تنتج مايسد ثلث احتياجات تركيا من الوقود ، لكي يتابع معركة الانتخابات النقابية لعمال النفط . وكانت هناك 4-3 قوائم عمالية ، احداها قائمة كوك ، التي لم يكن لها حظ كبير - حسب تصوري - من النجاح . ومهما يكن فان المعركة الانتخابية كانت تعكس من ديمقراطية اللبرالية ، التي لم ترتح لها الاوساط الاكثر رجعية . وفي منتصف الليل أعلن الحاكم العرفي العسكري عن تأجيل الانتخابات النقابية الى اشعار آخر . وفي صبيحة اليوم التالي ودعني مصطفى لأبقى ليلة في مدينة بتليس بضيافة الشاب الذي كان مسؤولا محليا عن كوك . تفرجت قليلا على القلعة الأثرية وعلى المدينة التي انجبت المؤرخ الكردي العظيم شرفخان البتليسي . وحين انجهت الى مدينة وان تأتى علينا قطع مسافة طويلة في سيارة الاجرة على الساحل الجنوبي لبحيرة وان الجميلة المحاطة من جميع الاطراف بحزام جبلي بديع . ان هذه البحيرة جديدة بأن تكون المنطقة السياحية الأولى في الجمهورية الكردية الموحدة ، التي ستولد ذات يوم . وتقع مدينة وان على الطرف الشرقي من البحيرة ، في بقعة مسطحة خلفها الجبال والمرتفعات وامامها المياه.
وبعد يومين غادرنا وان اتجهنا الى بلدة طفر (أو طاور) . وأظن ان الاسم كردي اطلق على هذه البلدة يوم كان يسكنها الأشوريون أو فيها معبد اشوري قديم في محافظة حكاري . لكن الجندرمة التركية أرجعتنا من منتصف الطريق بسبب اعلان منع التجول هناك ، في البلدة ، على أثر قتل حارسين ليليين من قبل بعض الشبان الاكراد في الليلة السابقة.

في جولتي عبر هذه المدن في كردستان تركيا لاحظت نهوضا قوميا عارما بين الجماهير وكرها شديدا للحكم التركي . كما لاحظت فقرا شديداطالة واسعة وجنوحا عاما نحو اليسار . كان يتعذر علي فهم اللهجة الكردية المحلية هناك ، في جميع المدن التي زرتها مع بعض الفارق بين هذه المدينة وتلك . وهم من جانبهم لم يكن من السهل عليهم فهم لهجتي الكردي السورانية.
عدت في نهاية الجولة الى نصيبين . وتفرجت مساء على حفلة عرس كردية تقليدية في فسحة صغيرة أمام احد المباني . كان جماعة كوك قد استغلوا الحفلة ، وسط حماس المشاركين ، لاطلاق الهتافات السياسية ولتنمية الروح الكفاحية بين الشبيبة.
وجدت في نصيبين احمد كريم ، وقد انجز مهمته وعاد من الخابور . فقررت بدء العمل من ذلك اليوم لانشاء قاعدة عسكرية لنا جنب قاعدة الثارتي . ووزعت العمل بين الرفيقين ، معطيا لأبو حسن المهمة الاقل خطورة (وهي البقاء في الخابور داخل الارض العراقية ، لاستقبال من يصل اليه من فدائيينا) ولأحمد كريم المهمة الاكثر خطورة (وهي الاقامة في نصيبين لاستقبال الوجبات التي سترسل من قبلنا وتسفيرهم ن بمساعدة كوك ، الى القاعدة. (
ابدى احمد كريم الاستعداد دون تردد وبقي في نصيبين لتنفيذ المهمات الموكلة اليه . وقد اقام في منزل احد الاصدقاء من كوك . لكن ابو حسن اعتذر عن البقاء دون ذكر السبب . حاججته ، وحاول كثيرا التملص من تبيان السبب . لكني لم اتركه الا بعد أن ابان واعترف قائلا:
 انى اخاف ولا استطيع اداء هذه المهمة.
اصبحت واثقا من ان السبب الوحيد لتهربه من هذه المهمة هو الجبن وحسب . فتخليت عن فكرة ابقائه لقناعتي بأن رجلا جبانا لايصلح لاداء مهمة من هذا القبيل . وابلغته بان يستعد للعودة معي الى الشام ، وان يتحمل النتيجة المترتبة على موقفه هذا .
وعندما وصلنا الى دمشق لم اتركه دون حساب واستحصلت الموافقة الحزبية على قرار يقضي باقصائه عن مركزه الحزبي وابقائه فقط عضوا في الحزب . وقد انضم بعد ذلك الى بطانة فخري كريم ، الذي كان مقيما في بيروت كمسؤول حزبي وكسفير كطلق الصلاحية ، لعل ذلك يساعده كي يستعيد له مركزه الحزبي . ولم يلبث ان استعاده فعلا عن طريق حيلة رخيصة اذ سألوني عما اذا كان بالامكان رفع العقوبة عنه في حالة ندمه عن موقفه السابق وسفره الى كردستان للانضمام الى صفوف الفصائل المسلحة . وأفتيت بجواز ذلك . وعلى اثر ذلك قدم أبو حسن رسالة الى مرجعه الحزبي مبديا فيها الرغبة في تصحيح خطأه السابق واستعداده للسفر الى كردستان . واعتبرت هذه الرسالة سببا كافيا لرفع العقوبة مع ابلاغه ـ وهذا ما كان متفقا عليه مسبقا ـ بان الحزب في حاجة الى خدماته ببيروت ولهذا يطلب منه البقاء ، مع تقدير موقفه الجيد.
ذكرت ذلك لأضيف بان هذا المناضل المزعوم قد ارسل في وقت لاحق ليقيم في القامشلي ويدخل في بطانة جلال الدباغ مدة طويلة مشاركا في تسفير الفدائيين الى كردستان . لم يكن على استعداد للاقامة في الخابور حين طلب منه ذلك كي يستقبل الفدائيين المرسلين اليه . ولكنه قبل البقاء في القامشلي قرابة عامين ليسفر من هناك الفدائيين الى الخابور . قبل ذلك لانه لم تكن هناك مخاطر عليه ، بل الامتيازات غير المشروعة في معيشته . ولم يكترث ، لا هو ولا الدباغ ولا المكتب السياسي أو السكرتير ، لانتقادات واحتجاجات العشرات والمئات من الشيوعيين الذين مروا من هناك وابدوا عدم الرضا والسخط على سلوكه وسلوك الدباغ.
حين عدت من تركيا الى الشام في 18 أيلول 1979 ابلغت كريم احمد وغيره بنتائج زيارتي الى هناك وترتيب الأمور للبدء فورا بارسال الشاب وانشاء أول قاعدة عسكرية لنا في منطقة بهدينان . استحصلت الموافقة على بدء العمل وسافرت الى بيروت (وكنت املك هوية الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين) حيث كان فدائيونا المدربون في قواعد تابعة للجبهة الديمقراطية بلبنان . وهيأت الوجبة الاولى المؤلفة من خمسة رفاق أو ستة بينهم نعمان التميمي ، الذي افترض ان يذهب ويكون المسؤول العسكري عن القاعدة الجديدة . وكانت الخطة التي رسمتها للمرحلة الأولى من العمل كالتالي:
 ارسال 30 ـ 40 شخصا لانشاء قاعدة الخابور بصورة مبدئية.
 ارسال 40 ـ 50 فدائيا لانشاء قاعدتين اخريين صغيرتين بين الخابور وبين منطقة بالك ، بغية تكوين جسر للعبور من الخارج الى كردستان عبر خط الحدود العراقية ـ التركية.
 توزيع مايرسل من رجال وسلاح بعد ذلك بصورة عقلانية على جميع المناطق لتواجد فدائيينا وتحشداتنا المسلحة في كردستان.
وقد رفض نعمان السفر قبل وصول زوجته ، التي كانت في العراق آنئذ . واضطررت في اللحظة الاخيرة الى ارسال قادر رشيد ، الذي قبل المهمة بدون تردد ، ليكون له شرف المشاركة في انشاء القاعدة ولو لمدة اسبوعين . كنت اسفر وجبة واحدة كل اسبوع . وسفرت مع الوجبة الثالثة الضابط السابق احمد الجبوري ليحل محل قادر رشيد الذي ل يكن صالحا لقيادة اي قاعدة عسكرية .
كانت الوجبات الاولى تذهب الى هناك لكي تبني البيوت وتسهم في انشاء القاعدة وسط صعوبات جدية ماليا ومعنويا . لم نملك هناك ولا سلاح ولم يكن بالامكان اخذ الاسلحة مع رجالنا حين يذهبون . وقد اختير لبناء القاعدة نفس المكان الذي بنى فيه الثارتي قبلنا قاعدته.
مع مواصلة ارسال الرجل حاولت تدبير ارسال السلاح ايضا . أبدى صالح دطلة استعداده للتعاون معي في هذا الميدان وسهل لي لقاء مع الرجل الثاني في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ابو علي مصطفى الذي ابدى بدوره الاستعداد لمساعدتنا بالسلاح

وغيره . وقد نقل دطلة نفسه أول وجبة من السلاح الدي أخذ من جماعة ابو علي مصطفى ، الى كردستان تركيا ليؤخذ من هناك الى رفاقنا . وبسبب خطأ فني في تدبير الأمور كان السلاح المنقول ست غدارات ايطالية الصنع بدلا من ستة كلاشنكوفات سوفيتية . كان ذلك مبعث الفرح والاسف معا ـ أن يصل اليهم السلاح فان ذلك شئ رائع . اما ان يكون هذا السلاح غدارات ، فان ذلك لشئ مؤسف . ومع حلول السنة الجديدة 1980 امكن ارسال أول وجبة من الكلاشنكوفات ذات الاخمص الحديدي . وجعل ذلك من عيد راس السنة عيدين لدى رفاقنا الفدائيين في القاعدة .
انجزت بنجاح المهمة التي بادرت بنفسي اليها في أواخر 1979 وتابعتها خلال الفترة الاولى من العمل : مهمة ارسال الفدائيين من الخارج الى كردستان وانشاء قواعد فدائية تابعة لنا في منطقة بهدينان واقامة جسر يوصل الى قواعدنا في منطقة سوران ـ وهي ذات المهمة التي أردنا البدء بتنفيذها من تيوزنك في نيسان 1979 وعرقلها توما توماس ، كما اسبقت . وعندما كانت الخطوات الصعبة الأولى قد انجزت اتى كريم احمد ، عضو المكتب السياسي المقيم في سوريا ، لينحيني وليتولى بنفسه المسؤولية ، وهو غير قادر على متابعتها بصورة مناسبة . وقد ارسل نعمان التميمي الى القاعدة ، بعد انشائها ، واصبح نفسه الكل في الكل ، باسم المكتب السياسي ، من الشام ، ومنح نفس الصلاحية الى التميمي هناك . والغى البرنامج الذي كنت قد وضعته للعمل وابلغت به احمد الجبوري في حينه . وبالتالي عرقل تطور العمل هناك .
ساهمت فترة محدودة في تهريب السلاح من بيروت الى كوردستان ولم أنجح في تحقيق الكثير من النجاحات . وقد سرقت مني ـ في احد شوارع بيروت ـ سيارة مرسيدس مهيأة لهذه المهمة . وكانت مشتراة بمبلغ (15) ألف ليرة لبنانية واستعنت بشخص من جماعة صلاح بدرالدين في بيروت . وابلغني بعد السفرة الاولى أو الثانية ان السيارة قد كبست في الطريق بما حملته من البنادق وانه تمكن من الهروب مع السائق بصعوبة . ولم اكن في وضع يمكنني من التوثق عما اذا كان هذا الرجل صادقا أم سارقا مخادعا . وقطعت معه الصلة كليا وعاتبت صلاح ايضا . وعلى اثر ذلك تخليت عن المشاركة في تهريب السلاح.
اقمت فترة في حي الفكهاني ببيروت الممزقة المضطربة . كانت المدينة مقسمة . فيها حكومتان رئيسيتان هما حكومة ياسر عرفات وسائر المنظمات الفلسطينية ، من جهة ، وحكومة الميليشيات المارونية ، من اخرى . وكان للحكومة اللبنانية وجود صوري والحق في توفير بعض الخدمات العامة ودفع الرواتب وحسب . وباستثناء الحزب الشيوعي اللبناني فان جميع المنظمات السياسية والعسكرية في بيروت وفي لبنان كلها كانت قائمة على اساس ديني أو طائفي . وحتى الأكراد الموجودين هناك ـ وهم افقر الفئات ، واغلبهم لم يملكوا الجنسية اللبنانية ، كانت لهم احزابهم وتشكيلاتهم المسلحة ـ وهي كانت بوجه عام احزابا كارتونية وتشكيلات مسلحة من المرتزقة . وكانت الصدامات المسلحة تحدث بصورة مستمرة تارة بين القطاعين الاسلامي والمسيحي واخرى بين هذه وتلك داخل احد القطاعين . وفي وقت متأخر من احدى الليالي اخترقت الرصاصات شبابيك شقتنا ، التي كانت في الطابق السابع من احدى العمارات . كان القتال بين جماعتين ناصريتين ولم يهدأ الا بعد أن تدخلت منظمة فتح ودعت الطرفين في مكبرة متحركة الى الكف عن الاشتباكات.
كنت اتفرج مرارا على الطائرات الاسرائيلية من طراز ايف 15 و 16 ، وهي تطير فوق بيروت وتطلق في الجو البالونات الحرارية لتضليل الصواريخ المحتمل اطلاقها نحوها . وهي لم تقصف اهدافا معينة في تلك الايام ، انما كانت تحلق للاستطلاع والتخويف ولاظهار التفوق الاسرائيلي . وكانت تواجه نيران المضادات الجوية غير الفعالة.
في كثير من الأيام كنت اجد فرصة لممارسة هوايتي المحببة في السباحة داخل مياه البحر . وكنت اكثر من أكل البرتقال صغير الحجم ، الذي كان يباع الكيلوغرام الواحد منه بنصف ليرة (وكنت أبدل الدينار العراقي بحوالي 9 ليرات لبنانية) في حين كان ثمن كغم واحد من البرتقالات الكبيرة ب 3 ـ 4 ليرات . وقد سكنت فترة في شقة تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، دبرها لي دطلة الذي كان على صلة وثيقة مع قيادة تلك المنظمة . وتركتها بعد أن تبين ان جاري كان عراقيا من أزلام المخابرات البعثية وانه كان يراقبني بعد أن علم بأني اتكلم اللهجة العراقية.
كانت بيروت ، رغم الحرب الاهلية والدمار الشامل ، مدينة العجايب والغرايب . وفيها اناس من شتى الاقطار والاقوام والاجناس . وتكيف السكان مع ظروف الحرب وسفك الدماء . في هذا الشارع تجد الصدامات الدموية العنيفة وفي ذلك تجد مجالس الفاتحة وبينهما الناس يدخلون السينمات والبارات المزدحمة والموسيقى تصدح والشبان يرقصون وكأن شيئا لم يكن .
ورغم السنوات المتعاقبة من استمرار الحرب الاهلية فان وضع البلاد الاقتصادي كان جيدا والانتاج الصناعي ـ الزراعي كان مستمرا والليرة اللبنانية كانت قوية (حوالي ثلاث ليرات بدولار واحد) .. الخ . ومن المؤكد ان وجود المنظمات الفلسطينية وانفاق ما كانت تأتي به من الدولارات كان في مقدمة الاسباب لمتانة الوضع الاقتصادي وقوة العملة ، بدليل ان الوضع تغير كليا بعد الغزو الاسرائيلي وإخراج الفلسطينيين عام 1982.
كان بمستطاع الانسان ان يحصل في اسواق بيروت على كل السلع وعلى العجائب والغرائب . وكان من المضحكات أن وجدت في حانوت مصلح الأحذية (الاسكافي) ليس فقط مكينة التصليح الصغيرة التي يستخدمها لاصلاح حذائك بل كذلك الفواكه المعروضة على ارض الحانوت امامك للبيع وانواع السجائر الاجنبية على احد الرفوف وانواع المشروبات الروحية على رف آخر.

كانت هناك ، في بيروت ، جالية كردية ـ وهي افقر خلق لله هناك ـ قدمت اصلا من كردستان تركيا هربا من الجوع أو من ظلم الاقطاع . وغالبية اطفالها اميون يمنعون من دخول المدارس . وهي تعيش في اكواخ حقيرة مشيدة من الصفائح في بعض انحاء بيروت.
رغم جميع متاعب الحرب الاهلية فان بيروت كانت ملجأ لأعداد كبيرة من العراقيين الهاربين من وجه العدالة البعثية . وكذلك من عملاء النظام البعثي الذي كانوا يمارسون الاغتيالات الاجرامية ضد خصوم النظام العراقي . وكان الشاب العراقي تحسين الشيخلي ، المسؤول عن جماعة صغيرة من العراقيين الذين عرفوا في 1964 - 1965 بالثوريين ، قد اغتيل هناك على ايدي ازلام السلطة العراقية . وسمعت لاحقا أن احد عملاء المخابرات العراقية كان مندسا بينهم وتواطأ لاغتياله.
كان عدد الشيوعيين الهاربين الى لبنان كبيرا ايضا . وكانت المنظمات الفلسطينية الرئيسية تساعدهم بأشكال شتى . غير ان الجبهة الديمقراطية بقيادة نايف حواتمه كانت الجهة الرئيسية التي تبنت تقديم المساعدات واقامة معسكرات التريب لشبابنا . وكان الكثيرون من الشيوعيين العراقيين هناك ساخطين على العضو الاحتياط في اللجنة المركزية فخري كريم زنطنة معتبرين اياه امبراطورا صغيرا . وكان فخري قد اصبح مسؤولا عن الشيوعيين العراقيين هناك ، واقام صلات واسعة مع الفلسطينين واستغل مركزه الحزبي والامكانات المتوفرة بين يديه لكسب هذا وترضية ذاك ، رغم ان سمعته كانت سيئة بين العراقيين.
كان لي في بيروت وقت الفراغ الذي استثمرته للكتابة . فطبعت كتاب (الراية ترفرف) الذي كان حلقة جديدة من (ذكريات شيوعي من العراق) . وكنت قد كتبتها سابقا وقدمتها الى الرقابة المركزية في بغداد عام 1976 ولم احصل على ترخيص للطبع . وكتبت وطبعت في بيروت حلقة ثالثة بعنوان (اعصار في الخريف) ـ وكانت مكرسة لانتفاضة تشرين 1952 . وقد ساعد في الاشراف على طبعهما حسين جواد القمر . وتركتهما هناك بعد انجاز الطبع وقبل تسديد كامل ثمن الطباعة . وخسرت من وراء هما مبلغا . ووقعت عقدا مع محمد كشكول لطبع كتاب (ايام صعبة) في دار ابن خلدون ، على أن اتقاضى 15% من ثمن الكتاب . ولم أدر بعد ذلك ما جرى ولم اقبض شيئا ولم أدفع شيئا.
****
استلمت برقية من الشام ، وانا في بيروت ، تخبرني بوصول ابني الصغير علي البالغ من العمر (12) عاما والذي كان قد قضى ستة اشهر بين فدائيينا في قاعدة نيوزنك قبل ان يمكن تسفيره من ايران الى سوريا . فسافرت اليه . وفي اول لقاء معه بدمشق سألته عما يحتاج . أجاب فوراً:
- أريد مسدسا.
- أتريد مسدسا حقيقيا ؟
- لا .. أريد مسدس أطفال شبيه بالحقيقي وينبعث من اطلاقاته صوت قوي.
- أين هو موجود هدا المسدس ؟
- هنا في دمشق .. رايته امس في السوق.

بعد وصولنا الى بيروت ، اشتريته له فعلا . ثم كررت السؤال عليه:
- وماذا تحتاج ، بعد أن اصبحت صاحب مسدسك ؟
- احتاج مئتي اطلاقة اضافية.
- سأشتريها لك . وهل تحتاج شيئا آخر ؟
- احتاج فقط حزاما جلديا وغلافا للمسدس.
- سأشتريهما لك ايضا .. وهل تحتاج شيئا آخر ؟
- كلا ، لست بحاجة الى شئ آخر.

وهكذا حققت امنية الطفل علي ، الذي كان قادما من اجواء الكفاح المسلح ، فحصل على مسدسه المفضل . ولم يطلب شيئا آخر سواه رغم أنه كان في حاجة الى الحذاء والملابس وغيرها . وهو لم ينعم بمسدسه طويلا اذ أخذه منه ضابط سوري أرعن في مطار دمشق ، حين أخذته خالته الى خناك لتودعه الى الاتحاد السوفيتي حيث كان قد قبل في مدرسة الصليب الاحمر السوفيتي بمدينة ايفانوفا . وقد اخبرتني هناء بأن الدموع ترقرقت من عيني الطفل حين انتزع وصودر مسدسه المزعوم.
****
في مطلع 1980 قدمت في بيروت رسالة الى المكتب السياسي مبديا فيها استعدادي للعودة الى العراق بهدف مواصلة العمل الحزبي السري والمشاركة في اعادة بناء التنظيم . وقوبل طلبي بالصمت ولم اتلق الجواب يوما .
وفي ربيع 1980 كنت قد انجزت كتابة القسم الأساسي من تقييم سياسة ح ش ع لفترة النظام البعثي (فترة 968 - 1979) وارسلت نسخة منه الى المكتب السياسي . وكانت مطالبي الاساسية ، التي قدمتها ولم اتزحزح عنها منذ 1979 ، هي:
1. اصدار وثيقة لتقييم سياسة الحزب السابقة.
2. عودة القيادة من خارج البلاد الى كردستان.
3. عقد مؤتمر جديد للحزب.

وكنت آمل أن يؤدي التقييم والمؤتمر الى حل مشاكل الحزب الداخلية المتأزمة جراء اخطاء الماضي المتعاقبة.
وكان الاجتماع الوشيك للجنة المركزية فرصة جديدة لعرض ومناقشة هذه الامور . ورسا طير السعد في هذه المرة على العاصمة الألمانية برلين مكانا للاجتماع . كانت المناقشات في هذا الاجتماع احد مما في اجتماع السنة السابقة . وكان عدد من اعضاء اللجنة المركزية مصرين على أن يدفع المكتب السياسي الحساب عن اخطائه ، فيما كان سكرتير الحزب مصراً على العكس . وقد طالب اكثر من نصف الحاضرين من اعضاء اللجنة المركزية بتجديد انتخاب المكتب السياسي . غير ان عزيز محمد رفض باصرار . وكان السبب واضحا : ان اجراء الانتخابات كان قد يؤدي الى تغيير تركيبة المكتب السياسي بابعاد بعض اعضاءه وادخال بدائل غير مرغوب فيها . فقلت لعزيز:
 لو طالبني ربع اعضاء اللجنة المركزية بمثل هذا الانتخاب ، وانا سكرتير للحزب ، لاستجبت لهم فورا وأجريت الانتخاب.
فهم عزيز جيدا ما أقوله وخشي من ان يزداد الضغط عليه ويضطر الى اجراء الانتخابات . فانفجر ، على خلاف عادته ، سعيا لحسم الموقف على الوجه الذي راق له . وتم له ما أراد اذ انتهى الاجتماع دون أي انتخاب . تأجل الانتخاب الى مابعد اكثر من سنة . ومن الناحية السياسية لم يأت الاجتماع بشئ جديد . بل اكد على نفس النهج الذي رسمه اجتماع السنة السابقة . والجديد الوحيد ، الذي ثبت فيه الاجتماع رايه كان قضية المباحثات الجارية في دمشق لعقد تحالف وطني ضد النظام الدكتاتوري القاشي . فقد قرر الاجتماع دخول الحزب في هذا التحالف . ولكنه رفض الموافقة على ان تكون قرارات الجبهة بأغلبية الاصوات عند التصويت ، بعكس ما كان ممثلو الحزب قد وافقوا عليه في دمشق.
كانت الاطراف المشاركة في الاجتماعات هي ح ش ع والاتحاد الوطني الكردستاني و ث د ك و ح س ك و حزب البعث العراقي الهارب من نظام صدام والحركة الاشتراكية العربية.. الخ . وكانت نقطة الضعف الرئيسية في هذه المباحثات هي أنها جارية في المهجر ، بعيدا عن الجماهير العراقية . فضلا عن أن بعض اطرافها كان اقرب الى التنظيمات الكرتونية واكثر استعداداً للتأثر بالضغوط الخارجية.
كان آخر لقاء لي مع خالد بكداش في منزله بحي ركن الدين في دمشق ، قبل مغادرة سوريا . كان بكداش قد دعانا ، نحن فريقا من مسؤولي ح ش ع ، لى بيته لتناول العشاء . وأود الاشارة الى ان بكداش كان رجلا مضيافا وافر الكرم ، بعكس البعض الآخر من قادة الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان . ولم يكن هناك شئ محدد للتباحث بشأنه . ضمن التطرق الى امور مختلفة سألت بكداش عن تفسير لموقف حزبه في تجاهل الحقوق القومية للاكراد في سوريا . فاجاب بقدر من الغضب واللهجة البيروقراطية:
 انت يساري طيلة عمرك ، وستظل كذلك يا بهاء !
أحسست من رده ، الذي لاشأن له بسوألي ، أنه يتحرج من مناقشة كان يتأتى عليه الدفاع عن سياسة خاطئة ومنافية ليس فقط للمبادئ الأممية في المساواة بين الاقوام والاجناس ، بل كذلك للمبادئ الديمقراطية في حقوق البشر عامة . وفي الواقع كان موقف بكداش وحزبه من هذه المسألة خطأ جزئيا صغيرا وقليل الاهمية اذا قورن بخطه السياسي العام الخاطئ من اساسه منذ أمد طويل . وقد كففت عن مناقشة بكداش وتمنيت مع نفسي مرة اخرى لو أن هذا الزعيم التأريخي للحركة الشيوعية في سوريا ، الذي لعب دورا نضاليا مجيدا في فترة مضت ، قد تخلى عن الزعامة وجلس في منزله معززا مكرما قبل ان يتحول الى عرقلة كبيرة لتطور هذه الحركة في بلاده .
****
كنت على وشك مغادرة دمشق عندما تلقيت خبرا هزني من الاعماق واصابني بصدمة عنيفة ـ خبر اعتقال زوجتي عائدة ياسين من قبل سلطات النظام الفاشي في بغداد . كان الخبر الخبر موثوقا جلبه شخص موثوق واخبرني انها اعتقلت مساء 15 تموز 1980 ، قبل حوالي عشر ساعات من موعد سفرها المقرر الى كردستان ، فالى الجبل . نشأ لدي اعتقاد راسخ بأنها ضحية الاندساس في بقايا التنظيمات الحزبية ، التي كانت تقودها منذ اكثر من سنة . اصبحت صورة عائدة شريكة حياتي ورفيقة نضالي ، ماثلة في ذهني على الدوام ولم يعد بامكاني ان افارقها لحظة . غدوت اتذكر مختلف احداث الماضي في حياتنا ، قبل وبعد زواجنا ، ورسائلها الي بعد فراقنا . ترسخت لدي القناعة بأنه الفراق الأبدي ، بأني فقدتها الى الأبد . وتذكرت كلامها يوم اتفقنا على الزاج في بغداد قبل اعتقالها باكثر من 13 سنة ، حين قالت: ((ومن يقول انك لاتخسرني قبل أن أخسرك ؟)) اعطيت لاعلام الحزب صورتنا المشتركة ، التي أخذناها في بغداد مع صغيرنا علاوي قبل سفري الى بلغاريا عام 1978 ، وهي الصورة التي دخلت في ثوستر نشر خلال حملة المطالبة باطلاق سراحها.
في بيروت ودعت شقيقة زوجتيهناء ، وهي تذهب الى احد معسكرات التدريب الفدائية بلبنان . ولم يكن في جيبي ما اقدمه لها من نقود . فقدمت اليها محبسي الذهبي ، الذي كنت احمله لابيعه عند الحاجة . وغادرت دمشق بصحبة توما توماس وسليم اسماعيل متجهين الى قاعدتنا الفدائية على مصب الخابور في كردستان العراق . كان جواز سفري يمنيا صادرا في عدن استحصله لي الاخوان في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . وقد اتصلنا في نصيبين بالاصدقاء في كوك ووصلنا برفقة احدهم لنا في سيارة اجرة الى النقطة التي نزلنا عندها ، قرب بلدة (أولوه دره) ، لنسير مشيا أو ركوبا على البغال نحو القاعدة .

وصلنا قاعدة الخابور ورايتها لأول مرة، وهي التي اعتبر نفسي المؤسس الأول لها . وبقيت فيها اسبوعا كاملا . وقد تداخلت مقراتنا مع مقرات الثارتي ، حيث كان موضع قيادتهم في بهدينان . وكان بيننا وبين أرض كردستان تركيا نهير صغير في تلك ونهر الخابور فيما بعد . وقداستمتعت بالسباحة في احواض عميقة ورائعة . وشهدت صداما مسلحا استمر لبضع ساعات بين مفرزة من القوات العسكرية التركية وبين فريق صغير من مهربي المواشي عبر الحدود الى العراق . ولم يتدخل الفدائيون في الأمر ، لا رفاقنا ولا الثارتيون . وانتهت المعركة بهزيمة المهربين ، بعد ان افلحوا في تهريب قسم من مواشيهم الى داخل الاراضي العراقية . وبعد انتهاء المعركة زارنا عقيد من الجيش التركي وشرب عند توما الشاي وترك لفدائيينا أربعة خرفان ليذبحوها لانفسهم.

قمت بجولة استطلاعية حول القاعدة ولاحظت ان المنطقة غنية باشجار الجوز ولكنها لم تحمل ثمرا في ذلك الموسم . ولما سألت عن السبب قيل لي أن موجة برد شديدة في نيسان كانت السبب لهذه الظاهرة . وكانت هناك قرية صغيرة تسمى (يكماله) وهي ثالث قرية كردية دخلتها وحملت نفس الاسم . وفي القاعدة نفسها لاحظت وجود نسبة كبيرة من الرفاق العرب ، بضمنهم فصيل من الفدائيات الشيوعيات . بهذه المناسبة اتذكر عملية عسكرية قام بها فدائيو تلك القاعدة ضد المرتزقة (الجحوش) في المنطقة . فقدطوقت مفرزة فدائية مؤلفة من الفتيان والفتيات ـ كما روى احدهم لنا لاحقا ـ عددا من الجحوش ودخلت فتاة فدائية احد البيوت المطوقة ، حيث كان يوجد احد الجحوش . استسلم الجحش وسلم بندقيته وبقيت المشكلة الرئيسية لديه هو أن من داهمه وارغمه على الاستسلام كان امرأة . لو كان رجلا لهانت المصيبة! اما ان تأسره امرأة فانها لمصيبة كبرى وعار لايمسح !

تركت القاعدة بصحبة شاب من اهالي زاخو مشيا ووصلنا (اولودره) . كنت اعرف قبلئذ ان هناك نوعين من اشجار البلوط احدهما هو البلوط الاعتيادي الذي يشكل تسعة اعشار الغابات في منطقة قرەداغ والثاني هو البلوط العفس الذي يثمر البلوط والعفس معا . وفي طريقي الى أولودره رايت نوعا ثالثا منها يسمونه هناك (يلو) ويتميز بأن ثمرته من البلوط غليظ وقصير ، بخلاف البلوط الاعتيادي.

ركبنا من اولودره سيارة اجرة وبت في تلك الليلة ببلدة (جزيره) في ضيافة كردي كان سابقا من فدائيي الثارتي واصبح لاحقا من مؤيدي كوك . وقد مررت من جديد ، بصحبة رفيقي العراقي وشاب من كوك ، بتلك المدن التي مررت فيها أيلول 1979 ، حتى وصلنا مدينة وان . وفي اليوم التالي سافرنا الى قصبة (باشقلعه) القريبة من الحدود التركية ـ الايرانية بأمل تدبير اجتياز الحدود تهريبا . ومن هناك ركبنا سيارة بمصاحبة صديق آخر من اكراد المنطقة ووصلنا بيت الشعر لغنام كردي قر الحدود ، حيث استضافونا واطعمونا . وحين سألنا صاحب البيت عما اذا كان بالمستطاع مساعدتنا لاجتياز الحدود ليلا اجاب الرجل ـ وهو طويل القامة ويقارب الستين من عمره ولكنه قوي كالحصان:

- ولماذا تريدون أن تجتازوا ليلا ؟ لماذا لاتذهبون في النهار ؟
- وهل يمكن الاجتياز نهارا ؟
- انه سهل .. تدفعون مبلغا زهيدا وتعبرون الحدود في وضح النهار وبدون خوف .
- اذن دبروا لنا الأمر وسنكون ممتنين.

ارسل الرجل ابنه الشاب فورا الى حارس الحدود التركي ، الذي كان يبعد عن البيت حوالي كيلومترين . وحين عاد الشاب اعلن لنا:

- اتفقت معه على ذهابكما في الساعة الواحدة بعد الظهر لقاء دفع مايعادل دينارا ونصف دينار لكل شخص ، اي اقل من تسعة دولارات لكليكما.

اجتزنا الحدود بامان في الموعد المحدد ودفعنا المبلغ . وكان ابن الغنام في وداعنا . وحين اقتربنا من الجندي الحارس كشف هذا الأخير من مراقبته بالناظور للاماكن المجاورة . فعلق مرافقنا الشاب:

- انه ينظر حواليه خشية أن يكون هناك حارس آخر يراه من بعيد ثم يقسم معه هذا المبلغ .

بعد اجتياز خط الحدود ، الذي كان محروثا بعرض متر واحد ، اصبحنا نسير في منطقة شكاك من كردستان ايران التي كان يسيطر عليها الحزب الديمقراطي الكردي . وبعد دقائق صادفنا سيارة جيب ايرانية تسير في طريق شديد الوعورة والانحدار . ونزلنا في أول قرية صادفناها بعد أن قيل لنا ان فيها مقرا لفدائيي الحزب المذكور . والتقينا بمسؤولهم المدعو ملا عارف ، الذي انصرف بجل اهتمامه الى مرافقي الشاب الذي كان جميلا . وعلى أي حال فان الملا ساعدنا للوصول في احدى السيارات الى مقر (سنار آغا) الشكاكي الذي كان مسؤول جماعة القاسملو عسكريا في المنطقة . وكان سنار هذا احد الاغوات الملاكين . وكان لاجئا في كردستان العراق لسنوات أيام حكم الشاه . وكنت قد التقيت به هناك في منطقة بالك سابقا . فعرفني حين وصلناه ورحب بنا ، واصر على بقائنا عنده لليلتين على الأقل . كان يقيم معه في نفس (الكبره) طبيب كردي قادم من فرنسا متطوعا لخدمة الحركة التحررية الكردية في ايران . وكان سنار يتعامل مع هذا الطبيب ببساطة واحترام ، بعكس تعامله الذي يتخذ طابعا اقطاعيا تقليديا مع المسلحين الموجودين حواليه.

في اليوم التالي غادرنا مقر سنار في سيارة جيب لنتوقف في مقر قيادة الثارتي ، في ضيافة سكرتيره علي عبداللة الذي استقبلنا بحفاوة. التقيت وتباحثت معه ومع رئيس الحزب مسعود البارزاني وناقشنا الأوضاع السائدة واتفقنا على صيغة بيان

مشترك موجز ، على ان يحظى بقبول هيئتنا القيادية (هندرين) قبل ان يعتبر منتهيا وقابلا للنشر ، آخذا بنظر الاعتبار انني غير مخول باصدار مثل هذا البيان . كان مقرنا القيادي في نيوزنك ، بجوار مقرات أ. و .ك و ح . س .ك ، بعيدا عن مقر قيادة الثارتي . وكنت على قناعة راسخة بأن علينا ، نحن الشيوعيين ، ان نقيم علاقات متوازنة مع هذه الاطراف كلها وان نتصرف بما يؤكد صداقتنا للجميع وعدم اقحام انفسنا في المشاكل والصراعات الموجودة بينهم . من هذا المنطلق أردت اصدار البيان المشترك الموجز بيننا وبين الثارتي.

أوصلتني سيارة الثارتي الى قرية (درمان آوا) القريبة من نيوزنك ، حيث انقطع طريق السيارات . وأثارانتباهي ، وأنا جالس على نبع ماء بارد ، وجود شجرة صفصاف ضخمة هي اضخم شجرة رأيتها من هذا النوع طيلة عمري . أبديت تعجبي منها . وقال قروي مسن جالس هناك:

- هذا الصفصاف زرع من قبل صوفي عبداللة قبل اكثر من سبعين عاما.
- رحمك اللة يا صوفي عبداللة .
- انه لايزال حيا وبصحة جيدة وعمره اكثر من مئة سنة .

تابعنا السير ، انا ومرافقاي الشابان من الثارتي ، نزولا وصعودا ، متجهين الى بقعة جبلية عالية خلف (توذلة) تدعى (كاني بوق) . كان رفاقنا قد اختاروا مقرا صيفيا لهم تعذر كشفها من قبل الطيران الحربي العراقي . هنا كان مقر هيئتنا القيادية (هندرين) سكرتيرها عمر الشيخ واعضاءها هم احمد بانيخيلاني ويوسف حنا وفاتح رسول . انضممت اليهم من جديد . كان المقر يعتمد على نبع شحيح الماء ولم يمكن البقاء معه طويلا ، بل اضطررنا بعد أيام للنزول الى نبع أوفر ماءا.

كان أول ماعرضته على هندرين صيغة البيان المشترك المقترح اصداره باسمنا والثارتي ـ كما اسبقت الاشارة اليه . ورغم انهم لم يجدوا في محتوى البيان شيئا يعترضون عليه ، فانهم رفضوا الموافقة على نشره ، دون أن يذكروا سببا للرفض ، اللهم الا تجنب ما لم يكن أ. و .ك يرتاح اليه .

بعد وصولي الى القاعدة علمت بقصة شاب شيوعي مسجون متهم بالتجسس . قيل لي انه كان حزبيا نشطا وعضوا في لجنة مدينة الثورة ببغداد . ولم يشك به احد في العاصمة . ولكن شيوعيا يدعى (ع . ع .) كان قد سجن في بغداد ثم اخلي سبيله وتمكن من مغادرة العراق ، قدم رسالة الى قيادة الحزب في الخارج مفاده ان هذا الشاب باع نفسه للسلطة . وارسلت هذه المعلومات الى عائدة ياسين التي كانت المسؤول الحزبي الأول في البلاد . وطلب منها ارساله بحيلة ما الى نيوزنك . فارسلته بحجة أنه يذهب للمشاركة في كونفرانس حزبي بكردستان . انطلت هذه الخدعة على الشاب المباع وذهب برجليه الى حيث وقع في الفخ . احتجز في القاعدة فترة وجرى التحقيق الأولي معه وانكر التهمة . بقي مدة تحت الاقامة الجبرية حتى تمكن ذات يوم من الهرب . لكنه لم يفلت بل وقع في قبضة مفرزة من فدائيي أ .و.ك . ، الذين اعادوه فيما بعد الى مقر الحزب الشيوعي بعد أن ذكر أنه شيوعي . عندئذ تم سجنه وتعززت حوله الشكوك . وبعد اسابيع قدم بنفسه رسالة اعترف فيها بأنه مندس ومتواطئ . وذكر ان احدى سيارات الأمن اخذته من الشارع ذات يوم الى احد اقسامه وعرض عليها التعاون مع السلطة سرا أو التعرض للتعذيب حتى الموت . فرضخ وربط بصلة سرية خاصة وابلغ بابداء نشاط حزبي جيد كي يكسب ثقة رفاقه . وتوجه الى كردستان بتكليف من الحزب وبموافقة الأمن العام للتعرف على المزيد من الكوادر والمعلومات . وحين عرف ان استقدامه كان بسبب الشك فيه حاول الهرب ولم يفلح.

ما العمل مع هذا الجاسوس ؟ هل يجوز الابقاء على حياته ؟ كم من المناضلين سلم الى السلطة الفاشية وسبب لهم التعذيب والموت ؟ درسنا أمره في هندرين وتقرر تشكيل محكمة موسعة من مسؤولين حزبيين وعسكريين في القاعدة لاجراء المحاكمة له ولاصدار الحكم عليه . وقد أصدرت المحكمة حكما باعدامه رميا بالرصاص ونفذ فيه.

****

رغم ان تنظيماتنا في كردستان تعرضت لدرجة اقل نسبيا للضربات البوليسية خلال الحملة التي اشتدت منذ 1978 ، فان الشلل اصاب لجنة الاقليم ولجان المحافظات في المنطقة الكردية ايضا . وكانت الضربة في مدينة كركوك أعنف وكان الانهيار المعنوي لدى العديد من كوادر المنظمة اعمق . وكان اسوأ ماحدث موقف قيادة منظمة الحزب اذ ذهب سكرتيرها عبدالخالق ، بصحبة اعضاء مكتبها أبو آزاد وطوران ومنصور (وكلهم من اعضاء لجنة الاقليم ايضا) الى دائرة الامن العام ليبلغوا الجهاز القمعي بأنهم قرروا التخلي عن النشاط الحزبي ـ السياسي ، وانهم ((مواطنون صالحون)) من اليوم . وبامكان المرء أن يتصور أية ضربة تكون حين يصل الانهيار المعنوي لدى القادة الى هذا الحد . لم يبق وجود لأية لجنة حزبية من لجان المناطق والمحافظات ، اثر هجمة 78 ـ 1979 ، باستثناء لجنة اقليم كردستان وبعض لجان المحافظات الكردية . غير أن هذه ، التي بقيت لها ملاكات من الكوادر ، قد جمدت فعلا ولم تمارس نشاطها كلجان لفترة طويلة . شمل التجميد العملي لجنة اقليم كردستان مدة عامين كاملين الى أن قررت هندرين ، بأقتراح مني ، اعادة نشاطها . وعقد أول اجتماع لها في كانون الثاني 1978 . وقد اقترن قرار بعث النشاط في اللجنة باناطة مسؤولية منظمة الاقليم بي شخصيا . وتأتى علي الانصراف الى التحضير لعقد اجتماع اللجنة . وتصادف موعد الاجتماع مع حضور سكرتير الحزب عزيز محمد في أول زيارة له الى كردستان استغرقت حوالي ثلاثة اسابيع ، عاد بعدها الى سوريا . وقد حضر الاجتماع ، الذي عقد في وادي نيوزنك ، واسفر عن اعادة بناء لجنة الاقليم.

كان عدد فدائيينا في نمو تدريجي كما كانت الاسلحة تصل تدريجيا عبر كردستان تركيا ، رغم ان مسؤولنا في بهدينان كان يسعى على الدوام لابقاء حصة الاسد من الشباب القادمين والاسلحة الواردة في حوزته . ومع تنامي امكاناتنا كنا نحاول اقامة قواعد جديدة لنا . وضمن هذا التوجه تقرر انشاء قاعدة فدائية جديدة لنا في بيتوش (منطقة الآن) وانيطت بي مهمة الاشراف عليها . فذهبنا الى هناك مع حواي (40) فدائيا لنبدأ ببناء المقرات : غرف من الحجارة والطين والاخشاب ، على طريقة البناء التقليدية في القرى الكردية ، في ضواحي قرية بيتوش . أخذنا موافقة صاحب الأرض العم قادر ، الفلاح المسن الذي بلغ السبعين من عمره . وقد سألته ذات مرة عما اذا رأى في حياته أية مدينة . فاجاب:

 وكيف لم أر المدن ؟ انني ذهبت الى كل من سردشت وقلعهدزه وكدت اذهب في وقت ما الى السليمانية ولكن اللة لم يمهلني لاذهب اذ أصابني المرض.

 ومتى ذهبت الى سردشت وقلعه دزه ياعم ؟

 قبل عشرين أو ثلاثين عاما . (يقينا ان تينك البلدتين لم تكونا ، حين زيارة قادر لهما ، سوى بلدتين ريفيقيتين صغيرتين. ().

ولفت انتباهي شيوع الشتائم بين الناس في قرى الآن ، وحتى داخل العائلة الواحدة ، بشكل لم أر مثله في المناطق الكردية الاخرى . من الاعتيادي تماما ان يسب العم قادر بنته لأتفه سبب أو حتى بدون سبب محيلا قضيبيه الى دبرها كما يسب بنفس الاسلوب بغله أو حماره وكما تسب أمرأة ما بنفس الصيغة بنتا لها أو بغلا .

ولاحظت هناك وجود كثرة من الاسماء الاشورية (أو السريانية) للقرى والجبال وما شابه . هناك بيتوش ووبيذوى ومزرا وأشكان (وهي قرى) ونورى (وهو جبل) .. الخ.

وكانت هناك مقرات لفدائيي الاتحاد الوطني الكردستاني . بالأحرى مقرات الاغوات التابعين للاتحاد الوطني ، منها مقر الشيخ صدرالدين ، الرجل الذي لم يكف يوما عن تعامله مع الفلاحين بالاسلوب الاقطاعي المتوارث . وقيل انه غضب ذات مرة على فلاح في احدى قراه فقطع انفه وأذنه كعقوبة له وكعبرة للآخرين . ومنها مقر كل من قادر آغا وهومر أغا ، اللذين لم يكونا سيئي السمعة بقدر الشيخ . وقد قتل البعض من رجال هذين الفدائي الشيوعي الشاب خليل رضا كبابضي ، وهو في طريقه من بيتوش الى نيوزنك ـ كما قيل لي.

ازداد عددنا شتاءا واشتدت أزمة السكن عندنا وكان علينا أن نبني قاعة جديدة . ولكن كيف يمكن البناء بالطين والحجارة وتحت الامطار الغزيرة ؟ ثبتنا اعمدة خشبية وبنينا فوقها السقف والسطح كاملا . ثم بدأنا ببناء الجدران تحت السقف دون أن نخشى المطر . وبعد اسابيع وقع لنا في هذه القاعدة بالذات حادث مأساوي . ففي اعقاب شجار بين فدائيين نهارا استثمر احدهما ليلا فرصة حراسته ليقتل غريمه باطلاق الرصاص عليه والهرب بعيدا.

كنت اتنقل من بيتوش الى نيوزنك مشيا على الاقدام وبسرعة قياسية . ورجعت ذات مرة الى بيتوش برفقة جهاز للاذاعة السرية ، التي كانت قد وصلتنا قبل ايام على ظهر البغال من الحدود السورية وعبر كردستان تركيا الى منطقة دهوك فالى نيوزنك فبيتوش . قررنا في اجتماع هندرين نصب الاذاعة في آلان . واخترنا لها قمة جبل نوري الواقعة جنوب بيتوش . ولم يكن من الهين انجاز البناء الضروري للاذاعة وفق مواصفات غير سهلة ولفصيل الحراسة فوق قمة عالية لا ماء فيها ولا اخشاب للبناء . ولكن همم الرجال تقلع الجبال ـ كما قيل قديما . فقد اندفع الفدائيون وانا معهم بحماس كبير لنقل الاخشاب على اكتافهم الى مكان البناء ، الذي حفر حتى استوى سطح الغرفة مع الارض حواليه كي لاتكشفه الطائرات المعادية . وبقي على الحرأس هناك ان ينقلوا مياه الشرب والطبخ لانفسهم بواسطة البغال من نبع لم يكن قريبا . كان فني الاذاعة عادل مخلص متحمسا ومستعدا للعمل ليل نهار . ولكن معارفه العملية ـ التكنيكية كانت قليلة على ما أعتقد . وكان بين فدائيي الفصيل المهندس الكردي (هيوا) مع كلبه الذي كان مبعث الانزعاج الشديد لفدائيينا القرويين . كان هيوا من مثقفي المدينة وعاش في أوربا ولم يكن بمقدوره أن يفهم ضرورة مراعادة تقاليد الفلاحين الاكراد ومعتقداتهم الدينية بشأن الكلاب . فكان يتعامل مع كلبه على الطريقة الأوربية مثيرا بذلك حنق الفلاحين . وكان من غرائب كلبه أنه يركض باقصى سرعته ، كلما سمع هدير محرك الطائرة ، الى مقر الفصيل ليستقر على فراش صاحبه بالذات الى أن يختفي الهدير .

استمتعت في بيتوش باجازة اربعة ايام لصيد القبج وذهبت بصحبة سعيد البرزنجي ورفيق آخر الى داخل الأرض العراقية الحدودية ، التي هدم نظام صدام قراها منذ 1975 . تفرجنا هناك على اطلال بعض القرى وعلى بساتين العنب المهجورة . في 1981/5/2 ، أي في موسم الربيع والأمطار ، صدنا ستة فراخ صغيرة للقبج ـ وكان هذا شيئا جديدا وغريبا الى حد بالنسبة الي لأنه كان في وقت مبكر جدا . وكان من المشاهد المثيرة والمألوفة عبور نهر الزاب الصغير حيث الاطفال والشبان والحمير والخرفان وسروج الخيل واكياس الحبوب وغيرها تعبر من جهة لاخرى معلقة بسلك حديدي متين مشدود الى مرتكزين في ضفتي النهو . فيما كانت البغال والخيول تعبر سباحة من جهة الى أخرى . وكانت العملية تجرى لقاء اجور يقبضها اصحاب هذه الجسور المتحركة.

عندما عدت من الصيد وجدت فدائيينا وقد قبضوا في بيتوش على رجل ايراني كرر المرور هناك بين ايران وقلعةدزة ، فاثار الشكوك حول نفسه . قال البعض انه ايراني هارب من الثورة ويتجسس لحساب النظام العراقي . وعند التحقيق معه اعترف انه كان من رجال الجندرمة في عهد الشاه ، وانه طرد أو ترك الوظيفة بعد الثورة . ولكنه انكر ان يكون جاسوسا لحساب أي

كان . وكان من رأي اغلبية كوادرنا ان يعذب لكي يعترف بالحقيقة . وكنت ضد التعذيب وتساءلت عن الفرق بيننا وبين نظام البعث اذا مارسنا نفس الاساليب البعثية في تعذيب الموقوفين . هذه كانت مشكلة تواجهني وكان علي أن ادخل في صراع مع رفاقي كلما اعتقل شخص في القاطع الذي اكون مسؤولا عنه . وكان يندر ان اجد بين الرفاق من يقف صراحة وبحزم ضد ممارسة التعذيب بحق المعتقلين المشكوك في امرهم ، من الآخرين كانوا أم من رفاقنا الشيوعيين . وقد اطلق سراح الرجل الايراني بعد ممارسة التهديد بقتله ، بدلا من التعذيب الفعلي . لكن مشكلة التعذيب لم تنته بالنسبة للشيوعيين أيضا . ذلك لانهم كانوا ((شنطة من نفس العجينة)) الاجتماعية في هذا البلد المتخلف.

اكملنا انشاء الاذاعة وشغلنا المولد الكهربائي وتوفر جميع المستلزمات . ومع ذلك تأخر البث الاذاعي لسبب لم نعرفه نحن ولا الفني عادل مخلص . ومضت اسابيع واشهر قبل أن يسمع المذيع وهو يعلن بصوت جهوري : ((هنا اذاعة صوت الشعب العراقي. ((

كان مبعث سرورنا الكبير أن سمعنا أول بث اذاعي من قمة جبل (نوري) . وقد سميناها بنفس الاسم الذي ظهرت به في 1963 ، يوم كان البث من بلغاريا . وكانت هي المرة الأولى ان يملك ح. ش.ع محطة اذاعة خاصة به . وكانت هيأة تحرير البرامج اخبارا وتعليقات مؤلفة من أربعة اشخاص موقتا ـ مني ومن افراسياب شاويس وعواد ناصر وتحسين محمد خليل . كنا قليلي التجربة ولم تكن لدينا شبكة مراسلين ومعلقين مقتدرين . وكانت الاجهزة كلها من الانواع القديمة . كما كان جهاز البث الرئيسي قديما صالحا لبعض المتاحف . رغم كل شئ فان تشغيل الاذاعة كان حدثا بالغ الاهمية بالنسبة للشيوعيين وكل المتعاطفين معهم.

أتانا ذات يوم فريق من فنانينا بآلاتهم الموسيقية وامكاناتهم الشحيحة . كان بينهم الفدائي الفنان أبو الصوف ، الذي كان يملك قدرات في فنون التمثيل . كان قادرا على ان يتكلم بنبرة خيراللة طلفاح وبصوت شبيه تماما بصوته . فنظمنا مقابلة اذاعية معه ، باعتباره خيراللة ، تعلق جل الاسئلة بموضوع كتيب صغير كان خيراللة قد اصدره في تلك الأيام بعنوان عجيب لم يسبق مثيله أبدا : ((ان اللة اخطأ في خلق ثلاثة اشياء ـ الفرس والذباب واليهود)) . وحين اذيع هذا البرنامج تراءى للعديد من المستمعين وكأنه طلفاح الحقيقي الذي يجيب .

نقلت الاذاعة في وقت لاحق الى منطقة نيوزنك ، في سفح جبل يدخل ضمن الحدود الايرانية . وانيطت مسؤولية رئاسة تحرير البرامج بعضو اللجنة المركزية مهدي عبدالكريم ، الذي كانت له خبرة العمل في اداعة صوت الشعب العراقي القديمة .

****

تنفيذا لقرار هندرين توجهت قواتنا الفدائية ـ وهي القوة الرئيسية لنا في قاطع السليمانية وكركوك ـ من قاطع هورامان الى قاطع آلان . كان ملا علي مسؤولا عسكريا للقوة فيما كان حاجي سليمان مسؤولها الحزبي (أو مستشارها السياسي) وكانت العلاقة بينهما سيئة ومتوترة ، ربما لأن كلا منهما يريد أن يكون نفسه صاحب الكلمة العليا . وكان شغف ملا علي بالمشروبات ، حتى في المقرات الفدائية ، يستغل من قبل البعض ضده ، في حين كان هو الآخر يستغل ضد حاجي سليمان لجاجته وكسله في بعض الامور . وكان ضمن القوة أناس طيبون من العجزة والمسنين وانصاف المجانين والمجانين ، الذين لم يصلحوا يوما للانخراط في صفوف الحركة الفدائية التي تتطلب حماس وحيوية الشباب والقدرة على الكر والفر . وكان اغرب مافي هذه التشكيلة هو الفدائي المجنون حميد ، الذي لقبناه بالجنرال . وقد كان حارسا في المقر العام ببغداد قبل الحملة البوليسية . وأصيب جراء تعذيبه لاحقا في الأمن العام بصدمة عصبية انتهت بتجننه . وهو بقي معنا لسنوات رغم هذا الجنون .

كان هذا الجنرال وسيلة تسلية للفدائيين . كان يبدأ الحديث كرجل سياسي متزن وهادئ . ولا تمضي دقيقتان حتى يتغير كل شئ في حديثه وسلوكه فيدعي فجأة بأنه كان في السجن وعرض عليه منصب رئيس الجمهورية الا أنه رفض ذلك لأنه لم يتوثق آنئذ من أن بريجنيف موافق على ذلك . واحيانا كان يهدد النظام العراقي بأنه سيبرق الى آية اللة خميني طالبا منه ارسال مئة ألف جندي الى المنطقة لاسقاط صدام . وسخر ذات مرة من عقول جميع الفدائيين اثناء قبض مخصصاتهم الشهرية ـ خمسة دنانير لكل شخص ـ مخاطبا اياهم:

- لماذا انتم حمقى لهذه الدرجة ؟ لماذا لاتجمعون رواتبكم جميعا لتشتروا بها طائرة عمودية تطير الى بغداد وتقصف قصر صدام وتقتله ؟

وقد صنع له الخياط الفدائي (نبز) رتبة الجنرال على بيريه . ففرح حميد من الاعماق وظل يدعي أن هذه الرتبة العسكرية منحت له من حلف وارشو منذ سنتين . وهو لم يحملها سابقا لاسباب شخصية . (بالمناسبة كانت لدى بريجنيف ايضا رتبة المارشال ، لكن هذه الرتبة منحت له من نفسه وليس من حلف وارشو. (.

دأب جنرالنا على مخابرة بريجنيف مرة أو مرتين في اليوم لاسلكيا ليسأل عن بعض الامور أو يخبره ببعض الاحداث . وكان جهاز اللاسلكي لديه عبارة عن ترانستر عادي صغير . وكسر مذياعه اكثر من مرة لأنه كان يذيع تعليقات من صوت امريكا معادية للسوفيت . وقد اتهمني ذات مرة بالعمالة لامريكا لانه طلب مني مذياعا صغيرا (بعد ان تعطل مذياعه الشخصي عن العمل) ولم اعطه اياه ، وبذلك عرقلت اتصالاته مع بريجنيف . وادعى في يوم آخر أم ممثل ح . ش .ع . الملا حسن كان

مشاركا في الصفقة التي أبرمت بين خميني والحكومة الامريكية لاطلاق سراح الرهائن الامريكيين وانه قبض حصته من الدولارات (وشهد حميد بنفسه دولارا واحدا لدى الملا حسن.) . ولهذا قرر الجنرال الاستقالة من عضوية ح . ش . ع . على ألا يؤثر ذلك على علاقاته الأممية!
وقد حاولنا كثيرا ارسال هذا الرجل الى الخارج لغرض المعالجة . ولكنه كان يرفض باستمرار مدعيا انه اتصل مع بريجنيف وان هذا الاخير لم يؤيد ذهابه الى الخارج لأن الوضع في البلاد يتطلب بقائه فيها.

****

كنت في وادي نيوزنك حين سمعنا نبأ الاعلان عن تأسيس جوقد (الجبهة الوطنية والديمقراطية القومية) في دمشق بين اطراف المعارضة العراقية . كان حزبنا ممثلا في الجبهة ومشاركا فيها . لكن مالفت انتباهنا جميعا كان غياب الثارتي ، الذي كان يشكل احدى القوى ارلئيسية في الساحة الكردستانية . ولم يكن سبب هذا الغياب موقف الثارتي نفسه وعدم رغبته في المشاركة ، انما كان الموقف الخاطئ لقيادة أ . و . ك ، التي كانت ترفض أي لقاء أو تعاون مع الثارتي ، بل كانت تعتبره العدو رقم (1) . وقد حاول ح.ش.ع ادخال الثارتي الى الجبهة الجديدة لكن أ.و.ك أصر على الرفض ودعمه في ذلك عبدالجبار الكبيسي ، الذي كان مسؤول القيادة القطرية للبعث العراقي في سوريا آنئذ.
كانت سياستنا في الساحة الكردستانية هي اقامة العلاقات الودية والمتوازنة مع جميع الاطراف ، دون الانضمام الى أي طرف ضد طرف آخر . وقد رأينا في ابعاد الثارتي عن تحالف نكون احد اطرافه اخلالا بسياستنا هذه . فقررنا استكمال هذا التحالف (أي جوقد) باقامة تحالف آخر يضم الثارتي ايضا . ومن هنا بادرنا ، نحن في هندرين ، الى المباحثات التي اسفرت عن قيام جود على اساس برنامج ديمقراطي معقول يضع امام الاطراف المشاركة فيه مهمة الجمع بين جوقد وبين جود ومهمة تعزيز التعاون بين جميع الاطراف للمعارضة العراقية . وكان يفترض ان ترحب جوقد بهذا التحالف الجبهوي ، الذي جر الثارتي ايضا الى طريق التعاون مع بعض اطراف الجانب الاخر . غير ان الامور سارت على منوال آخر ، اذ اشتد الغضب ببعض اطراف جوقد ، وبوجه خاص بالسكرتير العام للاتحاد الوطني الكردستاني جلال الطالباني ، الذي يتحمل المسؤولية الاولى ـ حسب اعتقادي ـ عما حدث من شل جوقد والحيلولة دون تجميع المعارضة العراقية في تحالف جبهوي .
لقد جابه بعض اطراف جوقد قيام جود باجراء تعسفي بعيد عن الديمقراطية في العلاقات بين الاحزاب السياسية اذ قرر هذا البعض:

1. شجب قيام جود واعلان موقف عدائي منها ، بزعم انها تمثل محورا ضد جوقد.
2. تجميد عضوية كل من ح.ش.ع و ح.س.ك (بالاحرى طردهما) من جوقد.

وبهذا الاجراء الخاطئ حكمت قيادة جوقد على تحالفها بالشلل العملي لان أ.و.ك بقيت القوة الوحيدة فيها التي كان لها وجود فعلي في الساحة النضالية داخل العراق . وكانت الاطراف الاخرى موجودة فقط في الشام . في حين كان لاطراف جود الثلاثة (ح.ش.ع + الثارتي +ح.س.ك) وجود فعلي داخل البلاد . وكان أي تحالف جبهوي فعال يتطلب تعاون هذه الاطراف و أ.و.ك بالدرجة الاساسية.
ان الموقف الخاطئ من جود ساعد على استمرار الاجواء ، التي كانت موجودة في السابق ، للصراعات الخاطئة ولاقتتال الاخرة بين المنظمات الكردستانية.

****

في 1981 قمت بأول زيارة شخصية الى نوشيروان مصطفى ، الذي كان الرجل الثاني في أ.و.ك ، وتحادثنا في غرفته ، التي كان قد زرع امامها بعض الخضروات المغطاة بالنيلون وقاية من البرد . لم يكن لدي موضوع محدد لأبحثه . كان الحديث مفتوحا حول مختلف الامور . وفي معرض الحديث عن وضع طبيعة (كومله) ـ وهي الجناح الرئيسي في أ.و.ك ، الذي كان نوشيروان سكرتيرا له ـ قلت له ان هذه المنظمة شبيهة بلقلق الكنيسة ، الذي تصور القس انه مسيحي ثم اتضح انه لم يكن مسيحيا ولا مسلما ولا يهوديا .
ولم يمض وقت طويل بعد هذا اللقاء حين زارنا احد مسؤولي أ.و.ك (د.كمال خوشناو) ذات يوم ليخبرنا بأن مسلحي ح.س.ك ، بالاخص محمد الحاج محمود ، قد اعتقلوا نوشيروان ، الذي كان في جولة بمنطقة شهرزور . وكان في ذلك الوقت المسؤول الاول لأوك ، في غياب جلال الطالباني المسافر الى الخارج مؤقتا . طلب منا التدخل والوساطة من اجل اطلاق سراحه . توسطنا وكررنا اللقاءات والمراسلات مع سكرتير ح.س.ك رسول مامند ومكتبه السياسي في "دولتو" . طالبنا باطلاق سراحه فورا ودون شروط واستنكرنا اتباع مثل هذا الاسلوب في تعامل المنظمات السياسية الوطنية مع بعضها . كان رد قيادة ح.س.ك بأن البادئ باستخدام مثل هذه الاساليب في الاعتقال والقتل ازاء الاخرين هو قيادة أ.و.ك ، "والبادئ اظلم" . وقدمت الينا قائمة طويلة عن حوادث القتل والاعتقال والتجريد من السلاح ، التي قام بها أ.و.ك ضد فدائيي ح.س.ك . وعرضت اطلاق سراح نوشيروان بشروط . فرفضنا ـ بصفتنا وسطاء ـ أي شرط وأصررنا على اطلاق سراحه بدون قيد أو شرط . وأبلغنا قيادة ح.س.ك صراحة بان الاصدار على اعتقاله سيحملنا على الكف عن هذه الوساطة وقطع الصلات بين ح.ش.ع وبين ح.س.ك.
أخيرا ابلغتنا قيادة ح.س.ك بموافقتها على اطلاق سراحه بدون شروط وارسلت الينا رسالة موجهة منها الى مسؤولي منظمتها في جبال هورامان ، على ان يأخذها احد رفاقنا الى هناك . في الوقت نفسه كانت قيادة أ.و.ك قد رجتنا كي نطلب من ح.س.ك

نقل نوشيروان الى سجن تابع لنا حرصا على سلامته وخشية ان يقتل بهذه الصورة أو تلك . فاستحصلنا موافقة قيادة ح.س.ك على هذا الطلب وتم نقل نوشيروان الى مقرنا في سورين وليس الى أي سجن . في الوقت نفسه توجه قادر رشيد من رفاقنا بصحبة جمال حكيم من كوادر أ.و.ك حاملين معهما رسالة قيادة ح.س.ك الى محمد الحاج محمود وطاهر علي والي لغرض اطلاق سراح نوشيروان ومرافقته في العودة.
سمعنا ذلت يوم في نيوزنك اصوات الطلقات بغزارة ولمدة طويلة . وحين ارسلنا بعض الرفاق للاستفسار عن السبب قيل لنا ان فدائيي أ.و.ك هم الذين يطلقون الرصاص تعبيرا عن سرورهم بهروب نوشيروان . واتضح لاحقا انه كان قد هرب من مقرنا ، الذي نقل اليه ، في ساعة متأخرة من الليل ، قبل ان يصل الى هناك قادر رشيد وجمال حكيم . وقيل ان كاوه الحفيد كان قد ساعده على الهروب . وتعرضنا نحن الى العتاب الشديد من الاخوة في ح.س.ك وأظن ان الهروب لم يكن مبررا ، بعد ان نقل الى مقرنا هناك ، كما ان الاعتقال لم يكن مبررا اصلا.
بالمناسبة فان تلك الفترة شهدت احد فصول التوتر الشديد والمصادمات العنيفة بين أ.و.ك وبين ح.س.ك ، خاصة في قاطع اربيل . وقد قاد عضو المكتب السياسي لـ ح.س.ك سيد كاكه قوة من ح.س.ك ولاحق وصفى ـ مؤقتا ـ قوات أ.و.ك في قاطع اربيل . وجاءنا د.كمال خوشناو شاكيا وقال:
□ أترون كيف يلعب سيد كاكه بجماعتنا الطوبة في اربيل ؟
فاجبنا ان هذه هي احدى صفحات اقتتال الاخوة المأساوية ، التي لايمكن تبرأة ذمة أ.و.ك عنها.
****
جاءت المفاجأة الجديدة من ظهور قوة كبيرة من فدائيي الثارتي ، وعلى رأسهم رئيس الحزب مسعود البارزاني ، في تلال (دولكوطا) و (دولتو) المشرفة على وادي نيوزنك . جاءت هذه القوة لتهديد أ.و.ك وليس لتهديدنا لأننا كنا على علاقات اعتيادية ، بل ودية الى حد ، مع الثارتي . ولكننا كنا معنيين بالأمر ، شئنا أم أبينا ، ليس فقط لأن مقراتنا كانت متداخلة مع مقرات أ.و.ك ولأن كل قصف لهم كان يصيبنا ايضا ، بل لأن الاقتتال الداخلي بين المنظمات الكردستانية كان يعود بافدح الاضرار علينا وباكبر الفوائد على عدونا المشترك ـ النظام الفاشي . ولهذا تحركنا وتوجه وفد منا ـ وأنا ضمن اعضائه ـ الى مسعود البارزاني لابداء معارضتنا لما ينوي الاقدام عليه . قال لنا مسعود:
□ الاتحاد الوطني يتحرش بثيشمرطتنا في كل مكان . والاقتتال يجري هنا وهناك . والابرياء يقتلون في مجرى هذه الاشتباكات ، التي لاتنتهي . ولهذا جئنا ونريد ان يكون القتال بيننا على الصعيد القيادي العام وليس بين الصغار والبسطاء من اتباع الطرفين . فاما ان نصفيهم أو يصفونا هنا ، لكي لايتكرر الاقتتال في اماكن اخرى .
في هذا الكلام شئ من المنطق ، خاصة بقدر مايتعلق الامر باضرار المناوشات والمصادمات المتفرقة هنا وهناك .. لكن الاشتباك الشامل لايقدم حلا للمشكلة ، انما يزيد من تعقيداتها . ولهذا لم نوافق مسعود ، بل اصررنا على تجنب هذا الاشتباك وابلغناه ان مقراتنا متشابكة وان ضرب مقرات أ.و.ك سيكون ضربا لمقراتنا ايضا ، عمدا كان ذلك أم عن غير عمد .
أخيرا رضخ مسعود لسلطان العقل وعاد مع قواته الى مقراته وأبعدنا شر الاقتتال في تلك الايام أو أبعدناه عن تلك المنطقة على الاقل.
****
في خريف 1981 قررنا نقل مقر هندرين الى السفوح الشمالية في وادي نيو زنك مع الابقاء على بعض المقرات المتداخلة مع مقرات أ.و.ك . وكانت هذه الاراضي والقسم الاكبر من اراضي الضفة الجنوبية من الوادي عراقية قبل اتفاق الجزائر وايرانية بموجب اتفاق الجزائر . ومع تزايد عدد فدائيينا نشرنا المقرات في بقعة اوسع وازدادت تعقيدات وضعنا وشكلنا مكتبا عسكريا مركزيا لقواتنا . كان لنا فصيل المدفعية في بقعة خلفية عالية مقابل قمة مامند ، التي كانت هي الاخرى في أيدي الثيشمرطة وكانت نقطة الحراسة الرئيسية لحماية هذا الوادي الصغير المحرر من قبضة النظام . وبنى فصيل مدفعيتنا مقرات جيد لنفسها مستفيدا من اشجار البلوط الضخمة المتوفرة حواليه . وفي الشتاء تحولت غرف المقر كلها الى عيون للمياه العذبة الرقراقة الباردة وصنعت انفاق صغيرة في الغرف لغرض تسريب المياه الى خارج الغرف . ونصبت صوندة امام كل غرفة كي يستخدم الماء الجاري للشرب والطبخ وغسل الايدي ، فيما ظلت الغرف مفروشة وتشتعل النيران في مدافئها الحديدية الكلاسيكية.
حضرت حفل رأس السنة ، الذي أقيم في كبرى غرف المقر ، تلبية لدعوة آمر الفصيل لازار (أبو نصير) . كان حفلا منظما وممتعا من حيث البرنامج السياسي ومن حيث التسلية البريئة معا.
تعلم قسم من افراد فصيل المدفعية ، المقيمين في المقر الخلفي ، سرقة الخرفان من قطيع للمواشي لبعض قرويي المنطقة ، لذبحها وأكلها . كان قائد هذا السطو كادرا وسطيا سخيفا (نسيت اسمه) من اهالي الحلة . وكان الآخرون يعرفون ويسكتون راضين من اكل اللحوم بهذه الطريقة . وتبين لاحقا ان بعض اعضاء المكتب السياسي قد حضروا هذه الولائم اكثر من مرة ودون ان يعرفوا مصدر اللحوم . وعندما انكشف امر السرقة اتخذت اجراءات من قبل هندرين ضد السارقين . لكنها كانت دون المستوى المطلوب ، الامر الذي اثار استياء العديد من الفدائيين . وأظن انه كان يجب طرد المسؤولين عن السرقة من الحزب والفصيل.

****
كان من المألوف ان يلتحق البعض تارة بصفوف احد الاحزاب الكردستانية وأحرى بصفوف مرتزقة السلطة . وهناك من انتقل مرات بين السلطة وبين هذه الاحزاب . غير انه ندر ان يلتحق الجحوش ـ المرتزقة ـ بصفوف الشيوعيين . في 1982 التحق بنا الجحش عبداللة ماويلي مع عدد من زملائه . وهو كان شيوعيا في وقت مامضى ثم انضم الى صفوف مرتزقة السلطة وارتكب ـ شأن الغالبية الساحقة من اضرابه ـ جرائم بحق الفدائيين من التشكيلات الاخرى ، خصوصا من أ.و.ك . فأثار انضمامه الينا السخط والاحتجاج لدى أ.و.ك بذريعة ان هذا الرجل قد قتل سابقا عددا من ثيشمةرطتة . وطالبنا بتسليمه اليه لمحاكمته على هذه الجرائم . رفضنا الطلب وأعطيناهم جوابا منطقيا:

 نحن مستعدون للاتفاق على تحديد ضوابط مشتركة تسرى على جميع الاحزاب ويعامل الجحش ، ايا كان الحزب الذي ينضم اليه ، وفق نفس الضوابط ، وليس العفو عمن ينضم الى بعض الاطراف وصب جام الغضب على من ينضم الى جهة اخرى.

لم يستجب أ.و.ك لاقتراحنا ولم يكن يقبل التعامل مع جحوش انضموا اليه على نفس الاسس بل اصر على رأيه ، ربما بسبب الخوف من تكرار التحاقات الجحوش بصفوف الشيوعيين . وكمن يريد فرض رأيه عنوة على الاخرين ويتكر الساحة لنفسه وحده اباح مسلحو أ.و.ك لأنفسهم حق تطويق الدار التي وجد فيها عبداللة بقرية درطلة وقتلوه بصورة استفزازية . ادى ذلك الى اثارة فدائيينا في تلك المنطقة وثأروا ، بقيادة علي كلاشنكوف ، لزميلهم القتيل بتطويق وقتل عدد من فدائيي أ.و.ك في قرية (ملكان) . وفي اعقاب ذلك وقع صدام مسلح بين مسلحي الطرفين في قرية (ورتى) وحواليها ، استمر ساعات وأصيب فيها البعض بجراح.

في هيئتنا ـ هندرين ـ استنكرنا بقوة مقتل عبداللة ماويلي وألقينا التبعة على أ.و.ك واعتبرنا رد علي كلاشنكوف ردا مشروعا وطالبنا بتشكيل لجنة تحقيق مشتركة . وتوترت العلاقات حتى على الصعيد القيادي وخيم على وادي الاحزاب خطر اصطدام اشمل . لكن كفة العقل رجحت ، لحسن الحظ ، ونجحت الوساطات . وكان د . قاسملو بين الوسطاء وأبلغنا بان سكرتير أ.و.ك أقر بان الذنب كان ذنب أ.و.ك في خلق هذه المشكلة.

قبل ان تسوى المشكلة وحين كان التوتر شديدا لاحظ بعض رفاقنا ان احد فدائيينا ـ ويدعي سلام ـ كان يترك المقر في (نوكان) ويتردد بصورة سرية على الطرف الاخرمن الوادي وشكوا انه كان ينقل الاخبار الى أ.و.ك فاعتقلوه وحققوا واعترف بانه جاءنا مدسوسا ، كما اعترف ايضا بسوء سلوكه وتورط البعض معه جنسيا ربما من كلا الطرفين.
****
في اوائل صيف 1981 أتتنا رسالة من المكتب السياسي الموجود في الخارج تطلب من اعضاء اللجنة المركزية الموجودين في كردستان السفر الى اوربا لحضور اجتماعها القريب . فأجبنا برسالة واعترضنا على عقد الاجتماع في الخارج ورجونا مجئ الرفاق لعقده في كردستان ، حيث يوجد ثمانية من اعضاء ومرشحي اللجنة المركزية . رفض المكتب السياسي طلبنا وأصر على سفرنا نحن . كررنا الطلب وأوفدنا ماجد عبدالرضا ، الذي كان يملك جواز السفر ، لتوضيح الاسباب التي تدعونا الى المطالبة بعقد الاجتماع عندنا . اوضحنا ان الوضع في كردستان معقد وان ترك المنطقة من قبلنا قد يؤدي الى خلق متاعب جدية لنا . لكن محاولاتنا لم تجد . وأصر المكتب السياسي على رأيه . وكان سبب هذا الاصرار واضحا ـ فالاجتماع سيعيد انتخاب المكتب السياسي ويصعب نقل الاصوات التي تضمن فوز المرغوب فيهم الى كردستان . اذن يجب عقد الاجتماع في اوربا ولامجال للتفكير في كردستان . اما ألا يمكن لثمانية من اعضاء اللجنة المركزية الموجودين في ساحة النضال الساخن داخل البلاد حضور ذلك الاجتماع فان هذه ليست مشكلة جدية في نظر سادة المكتب السياسي.

رضخنا للامر الواقع ، ورغبنا ، أنا وعمر الشيخ وسليمان اسطيفان ، في حضور الاجتماع . فوقع الاختيار على احمد بانيخيلاني لكي يبقى مسؤلا في كردستان فترة غيابنا ، رغم اننا جميعا كنا نشك في قدرته على الاضطلاع بهذه المهمة . وتحركنا في بداية تشرين الاول 1981 شطر قاعدتنا في الخابور لنتابع السفر من هناك وبصحبة رفاق موجودين هناك الى سوريا . كنت اعاني من آلام الظهر وعرق النسا . مع ذلك لم أرد التغيب عن الاجتماع . كانت سفرة متعبة وتأتى علينا الذهاب ليلا لمسافات طويلة . كنت أركب بغلا ، وهو حيوان عجيب تسنى لي أن أفهم الكثير عنه خلال هذه السفرة . كان يجمع بين ذكاء الفرس وقوتها وبين صبر الحمار وتحمله . كان يتابع سيره في ظلام الليل الدامس عبر طرق جبلية وعرة ، واحيانا عبر أشباه الطرق ، دون أن يضل السبيل أو يخطأ في السير . ويخرج من الطريق العادي ، حيثما تكون المياه والثلوج متجمدة ، ويسير على الثلج الهش بجانب الطريق لتجنب الانزلاق على الجليد . وكان يحرن ويمتنع عن السير حيثما يكون خطر اصطدام حمله بصخرة على جانب الطريق . وفي أثناء السير يلتقط بحركات خاطفة من رأسه الاشواك والاعشاب النابتة على احد جانبي الطريق ويأكلها كما يأكل قروي شديد المجاعة لقمة من الكباب.

بعد مسير ليلي متعب وصلنا في الصباح الباكر قرية (كاني بوت) المهدمة المهجورة في منطقة ميرطةسور . قادنا احد مرافقينا الى غرفة تهدمت جدرانها وسقفت بالواح حديدية تقيها من المطر . دخلنا الغرفة لنشاهد منظرا سارا جميلا : نارا ملتهبة وبجانبها جمرات كبيرة من حطب البلوط . وعلى لوح حديدي قريب كدس كبير من شرائح اللحم الطازج المنزوعة منها العظام كي يخف وزنها . وقدرت اللحوم بأكثر من (100) كغم . وبعيدا عن النار جلس رجل كهل وصبي في حوالي

الخمسة عشر عاما من عمره . رد الرجلان تحياتنا بالحرارة الفلاحية المعهودة ودعيانا للجلوس ووضعا وفرا من شرائح اللحم امامنا لنبدأ الشوي على الجمرات الجاهزة . شوينا لكل شخص سيخا صداميا يكاد يزن الكغم الواحد . وشربنا بعدئذ شايا لذيذا . تحدثت الى الرجل فاتضح انهم ثلاثة أشخاص من أهالي القرية ، قبل تهجيرها القسري ، يعيشون في مجمع ديانا القسري . وكان احدهم قد أخفى بندقيته في مكان ما قرب قريته أثناء التهجير . ويأتي كل عام مرة أو مرتين خلسة للصيد ثم يأخذ بندقيته ليخفيها ويعود مع زملائه باللحوم الى المجمع ليأكلول قسما منها ويبيعوا القسم الاخر . ساعة وصولنا الى هناك كان صاحب البندقية غائبا . قيل انه ذهب لأخفائها ايذانا بانتهاء الصيد والعودة . وصلنا قرية بارزان المهجورة ، التي رايتها لأول مرة . وباستثناء قصر الشيخ عثمان فان البيوت كلها كانت مهدمة . وكانت حديقة القصر غنية بالفواكه . وقطفنا منها كميات للطريق . كما تفرجت على غرف القصر المهجور . وعبرنا بعد ذلك الزاب الكبير على (الكلك) لنصل بعد مسافة الى أولى القرى الزيبارية التي كانت على عداء عشائري تقليدي مع عشيرة البارزان . وفي المساء وصلنا قرية (بانيه) الواقعة في مرتفع والمعتمدة كليا على مياه آبار محلية للناس والمواشي معا . كانت القرية مأهولة وتوزعنا على البيوت لتناول العشاء كي نجتمع بعده في الجامع . وكنت قد رجعت الى الجامع حين اعلن ملا القرية لجميع القرويين الحاضرين أثناء صلاة العشاء:

- غداً يبدأ موسم القطف فليبلغ حاضركم غائبكم وتوكلوا على اللة القدير .

استفسرت من احدهم عن هذا " القطف " فقال:

- يقصد الملا قطف (حبة خضرة) التي تشكل احد مصادر العيش للناس هنا . ولكي يتساوى الجميع في استثمار القطف فانهم اتفقوا على البدء بالقطف في يوم واحد يعلن عنه هنا من قبل الملا . ولا يجوز لأي كان ان يقطف ويجمع قبل هذا الاعلان . وقد استعد الجميع ليخرجوا صباح الغد الباكر الى الغابات حوالينا .

وفي (طارا) ـ وهي شبيهة بقوثي قرةداغ بعض الشئ ـ توزعنا على بيوت احدى القرى . وكنت في منزل رجل مسن يدعى الحاج محمد . سألته:

- من أي عشيرة أنتم أيها الحاج ؟
- لسنا من أية عشيرة ، وللة الحمد.

هذا الجواب زاد من الانطباع الذي تكون عندى حول اهالي قرية طارا وأصلهم . هم أكراد مسامون . الا ان اشكالهم وملامح وجوههم صورت لي وكأنهم من أصل كلداني (أو آشوري) . وقد اعتنقوا الاسلام دينا في وقت من الاوقات كطريق للتخلص من اضطهاد الاغوات الاكراد المسلمين ، وتعلموا اللغة الكردية تدريجيا ونسوا لغتهم عبر اجيال قليلة . وحتى الاسم (طارا) يبدو من الاسماء السريانية القديمة .

في مساء اليوم التالي كنا في منطقة (بريطارا) وتوزعنا في قرية (درطلة) . وصادف ان أكون مع عمر الشيخ في بيت واحد . وكان صاحبه يتقن اللهجة السورانية . فخاطب عمر ، الذي كان مرهقا ومتعبا أكثر من غيره ، قائلا:

- مالك ولهذه الحياة يار رجل ؟ لماذا تظل فدائيا للآن ، وأنت على وشك ان ترحل للعالم الآخر ؟

سبقت صاحبي في اجابة رب المنزل فقلت:

- أن ابنه فدائي هناك ، وهو ذاهب للتأكد من سلامته بعد ان سمع بأنه جرح.

سكت الرجل ونظر باشفاق الى عمر ، الذي التزم الصمت بدوره . وكان عمر هادئا قليل الكلام وكثير الصمت لدرجة تزعج مرافقية في السفر وفي الجلوس ، خاصة اذا كانوا من الشباب . وقد تفوه في أحد الايام ببعض الكلام المتعلق ببغله وضحك ضحطته الفاترة . فعلق مرافقنا الفدائي أبو كريم قائلا لزملائه:

- ايه ! الحمدللة والشكر ! أخيرا تكلم ابوفاروق وضحك . شوفوا شوفوا ضحك!

لاحظت ان لفلاحي قرى بهدينان تقاليد لاتوجد ، بالنسبة لبعض الامور ، في قرى منطقتنا . كنا نجلس في بيت فلاح له أولاد شبان وصبية موجودون في المنزل . ومع ذلك تأتي فتاة جميلة بالسماور وبسائر مستلزمات الشاي لتجلس بيننا واحيانا تشارك في الحديث ، وهي تصب لنا الشاي . ولم يندر ان تكون هذه الفتاة حسناء رائعة الجمال.

لقد مررنا في هذه السفرة الطويلة بكثرة من القرى الكردية المهدمة والمهجورة وببساتين الفواكه المتروكة من العنب والتفاح والخوخ والعرموط وبأشجار الجوز وغيرها . وكان أروع مارأيت على امتداد السفرة بساتين قرية روست الواقعة في سفوح جبل حساروست المتميزة بكثرة الينابيع العذبة والمناظر الطبيعية الخلابة . وقد هدم صدام الدور السبعمئة التي كانت موجودة حتى 1976 وهدم معها سعادة سبعمائة عائلة كردية فلاحية كانت تنتج الفواكه للسوق . لو كان في البلد حاكم عادل ومنصف وحريص على مصالح شعبه لأنشأ طريقا جيدا مبلطا للسيارات الى القرية ومنها الى فوق جبل حساروست ولحول المنطقة الى واحدة من اجمل مصايف هذه البلاد . لكن حظ قرية روست ، في ظل نظام البعث ، كان الهدم الشامل والتهجير القسري وحرمان البلد من نتاج عمل هؤلاء المنتجين .

كانت المحطات الرئيسية في طريقنا ، التي توقفنا فيها عند فدائيينا ، بعد ان غادرنا نيوزنك ، هي رزطة وثشتاشان وروست وطوستة وضلى وبعدها قاعدة الخابور التي كانت مقر قيادة فدائيينا في قاطع بهدينان . وقد انضم الينا في الخابور عضوا اللجنة المركزية توما توماس وسليم اسماعيل والعضو الاحتياط عمر الياس مع عدد آخر من المرافقين . وبعد مسيرة يوم واحد دخلنا كردستان تركياالنستقر بعدئذ في كوخ خشبي بناه احد الرعاة بـ "نيف آف" في منطقة أولودره . بقينا في هذا الكوخ

عشرين يوما . واحتفلنا فيه بذكرى ثورة اوكتوبر . في الحفل شربنا ـ وكنا 16 شخصا ـ قنينة ويسكي لم أدر كيف وجدت هناك وأكلنا خروفا جيدا اشتري بمبلغ 16 دينارا . لم يشرب عمر الشيخ حصته من الويسكي بل سربها الى جاره المحظوظ بصورة شبه سرية كما كانت عادته على الدوام .
كان الجو في (نيف آف) باردا تحت الصفر . لكن كثرة الحطب اليابس سمحت لنا بأن نحتفظ بنيران قوية في موقد وسط الكوخ . وكنا نتابع الاخبار بواسطة الترانسستيرات الموجودة عندنا . وفي هذا الكوخ بالذات حمل الينا الراديو مفاجأة غريبة اذ اذاعت محطة الثارتي ان قوات جود تمكنت من تأديب قوات أ.و.ك وطردها من منطقة ورتى وملاحقتها باتجاه (دوله رقه. (
نظرنا ، أنا وعمر الشيخ ، نظرة استغراب الى بعضنا وتساءلنا "هل من المعقول ان يكون فدائيونا ضمن تلك القوات ، التي شاركت في هذا الاقتتال ، ام ان الاطراف الاخرى قامت بهذه العملية باسم (جود) رغم عدم مشاركة رفاقنا ؟ شككنا في الامر . لكن بعض المخاوف ظل يساورنا حين كنا نتذكر بأن المسؤول الاول لجماعتنا هناك هو أحمد بانيخيلاني ، الذي لايمكن الرهان على مستوى نضجه السياسي . وبعد أيام عندنا الى قاعدة الخابور واطلعنا على البرقيات الواردة من نيوزنك فتأكدنا ان مسلحينا قد تورطوا في الاقتتال ولم يكونوا بمنأى مما حدث في غيابنا . وقبل ان نعرف التفاصيل الملموسة لما حدث هناك كنا على قناعة تامة بان المسؤولية الاولى عن التورط في هذا الخطأ الجسيم انما كانت تقع ـ بقدر ما يتعلق الامر بالشيوعيين ـ على عاتق احمد بانيخيلاني شخصيا لكونه المسؤول الاول فترة غيابنا . اما لماذا ارتكب هذا الخطأ الجسيم فذلك يعود ـ حسب اعتقادي ـ الى السببين التاليين:
1. رغم انه كان مناضلا عالي الجهادية ومضحيا وسائرا في الصفوف الامامية ايام الصعوبات ، الا انه لم يكن ذا مستوى سياسي يركن اليه ، لم يكن رجل السياسة القادر على مجابهة الاوضاع المعقدة ، وبالتالي لم يكن مستقلا في آرائه ومواقفه السياسية . وأظن انه كان عليه ان يتقاعد عن ممارسة النشاط القيادي قبل هذا الحادث بأ
2. انه كان يميل اصلا الى اي عمل *تأديب أ.و.ك* ووجد الفرصة في غياب من لايوافقونه على هذه الفكرة ليضعها موضع التطبيق . ويمكن القول انه وجد بين مرؤوسيه (بالاخص ابراهيم صوفي محمود ونعمان التميمي ولدرجة اقل ملا علي) من وافقوه بحماس على افكاره وأوجدوا جوا ينقاد فيه وراءهم بدل أن يقودهم ـ كما هو المفترض.
اصبح الاقتتال بين المنظمات الكردستانية شيئا مألوفا منذ 1964 وطيلة الاعوام اللاحقة . الاان مشاركة الشيوعيين في هذا الاقتتال لم يكن مالوفا . والمشاركة في هذا الاقتتال خريف 1981 لم يشبه في شئ ذلك الصدام الذي وقع بيننا وبين مسلحي أ.و.ك ، دون وجود طرف آخر في الاحداث ، ودون ان نكون نحن المبادرين الى القتال ، يوم قتل هؤلاء عبداللة ماويلي ودخل مسلحونا القتال من منطلق الدفاع الشرعي عن النفس والرد على المعتدي.
حين حاولنا اقناع المكتب السياسي بعقد اجتماع اللجنة المركزية في كردستان بدل أوروبا ، كنا قد ابدينا مخاوفنا من ان يؤدي ترك المنطقة ، وسط هذه الظروف المعقدة ، الى نتائج لا تحمد عقباها . وقد حدث مع الاسف ما كنا نخشى حدوثه على اثر مغادرتنا للمنطقة . ومن جهة اخرى حرمنا نحن ثمانية من اعضاء ومرشحي اللجنة المركزية من المشاركة في الاجتماع بسبب عدم استطاعتنا العبور الى سوريا خلال الايام العشرين التي قضيناها في كوخ نيف آف . في تلك الايام كان سفيرنا لدى كوك (وهو شيوعي اربيلي كان يتقن اللغة التركية) قد اعتقل من قبل السلطات التركية . كما اعتقل المهربون الذين كنا نعتمد عليهم فلم نفلح في اجتياز الحدود وقفلنا راجعين الى مقراتنا.
في طريق العودة تمرض عمر الشيخ في قاعدة الخابور ولم انتظره . كان معي مفرزة صغيرة ، ودليلنا الرئيسي ابو كريم ، وهو فدائي من اهل العمارة اصلا . بتنا الليلة الاولى في بيت فلاح كردي عراقي على الشريط الحدودي داخل تركيا . بنى هذا الفلاح دارا ريفية لنفسه هنا بعد ان هدم النظام البعثي القرية التي كان يسكنها . ورغم ان هذا الفلاح لم يعرف ولا كلمة من اللغة العربية ، وان ابو كريم لم يعرف اللغة الكردية ، فان صداقة متينة كانت تربطهما الى بعضهما . كانا يتفاهمان بلغة الاشارات . كانت هدية ابو كريم لصديقه الفلاح علبة سجاير . فأخذها ممتنا كما لو كانت هدية مهمة ووزع سجاير منها فورا على اطفاله الكثيرين ، بضمنهم طفل في الرابعة من عمره وطفلة في الخامسة . وخلال لحظات كان الجميع صغارا وكبارا يدخنون السجاير . وخلال وجبتي العشاء والفطور قدم لنا رب المنزل العسل والزبد . وحين غادرنا البيت صباح اليوم التالي حمل لنا علبة مليئة بالعسل قائلا:
- خذوا هذا معكم للطريق.
وعندما توزعنا في قرية (كي) الحدودية كنت مع فدائي آخر في منزل الفلاح الكهل العم عبداللة . في مجرى الحديث روى لي عبداللة جانبا من حياته الشخصية ، ففقال:
- في 1975 هدمت الحكومة كل القرى في هذه المنطقة ، بضمنها قريتنا وهجرت اهاليها عنوة الى المجمعات القسرية . أنا أبيت أن أخضع لقرار الحكومة وأهجر القرية . قررت ان ابقى هنا . وبقيت معي ابنتي الشابة مختفيين في الكهوف وفي الغابات والوديان حوالي القرية المهدمة لخمس سنوات كاملات . كنت اذهب احيانا الى القرى الحدودية في كردستان تركيا لشراء السكر والشاي والسجاير ثم اعود الى هنا . وفي الصيف كنا نزرع بصورة سرية بعض البامية والطماطة لأنفسنا . وفي عام 1980 انسحبت القوات العراقية من هذه المحيطة بنا ، فخرجنا الى العلن واعدت بناء داري هذه . عوائل اخرى لاعادة بناء دورها . وها نحن الآن سبعة بيوت في هذه القرية من اصل عشرين بيتا قبل التهجير القسري.

نظرت الى عبداللة ، وهو يروي هذه القصة الحقيقية دون ان يحاول افتعال شئ فيها او ادخال البهارات لتزيينها . وهي قصة لاتفضح فقط بربرية نظام البعث التكريتي ، بل تؤكد في الوقت نفسه تمسك المواطن الكردي البسيط بأرض اجداده ، وبكل ما ورثه من قيم مادية ومعنوية . ورغم انني لم اذهب مرة اخرى الى قرية (كي) فاني على ثقة من ان الوحش التكريتي هدمها مرة اخرى في مجرى انفال 1988 . ولا أدري ماذا فعل عبداللة بعد الهدم الثاني وهل اعاد بناء داره بعد انتفاضة الربيع الماضي.

بعد عبورنا لنهر هيزل صعدنا مرتفعا جبليا وحططنا الرحال هناك في دير آثوري مهجور يتخذه المسافرون هناك مكانا للمبيت الليلي . الدير مبني في كهف عال استفيد منه ، بدل الجدران ، من بعض الجوانب . وأنشئت الجدران من الصخور بصورة هندسية مناسبة في جوانب اخرى . كان واضحا ان هذا الديراقيم في هذه البقعة الجبلية النائية المعزولة في وقت كان قاطنو القرى القريبة منها من الاثوريين كليا او جزئيا وان القس والشماسين كانوا يستلمون المساعدات من هؤلاء القرويين.

مررنا في طريقنا ذهابا وايابا بقاعدتنا في طوستا ، وهي على الحدود مباشرة ، ويفصل نهر صغير بينها وبين اراضي كردستان تركيا . في الاياب بتنا ليلة في قرية (بلوطة) ـ وهي تحمل اسما سريانيا ـ الكردية قرب خط الحدود . كان مضيفنا الحاج عبداللة رجلا مرحا وفلاحا ثريا يتردد على المدن التركية والعراقية معا . وكان في المفرزة المرافقة لي رفاق عرب . فاراد احدهم ان يخبر رب البيت بانه يمت بصلة ما الى الاكراد وقال:

- أنا عربي ايها الحاج عبداللة ، ولكن زوجتي كردية.
- تقصد انك نكحت امرأة كردية ؟
- نعم بالضبط.
- مع شديد الاسف ! لعنة اللة على تلك المرأة ـ قال الحاج عبداللة.
- وأنا كردي وتزوجت امرأة عربية ، فانتقمت ، ايها الحاج ـ قلت له.
- عشت ! انك رائع ! يجب ان يكون الرجل الكردي فوق المرأة العربية وليس العكس.

كانت احدى اصعب الليالي ، التي مرت علي في حياتي كفدائي في المنطق الجبلية ، هي تلك الليلة التي غادرت فيه قاعدتنا في روست باتجاه ثشتاشان . بعد مغادرتنا القاعدة بساعة واحدة اظلمت الدنيا وبدأ هطول الامطار . كان هذا المطر مفيدا لنا حين عبرنا (الجسر الاصفر) فوق النهر المتحدر من دربند رايات ، حيث كان الجنود يبقون في داخل الربية المشرفة ولا تترك لهم الامطار مجالا لمراقبتنا . وعندما اقتربنا من سلسلة الربايا المحيطة بديلمان ضل دليلنا السبيل تماما فيما اشتد الظلام والمطر وغدونا أمام مخاطر الالغام والربايا . ولم يعد بامكاننا مواصلة السير اكثر ، خاصة مع البغل الذي كان يحمل لنا بعض الحاجات . فأمرت ، بصفتي مسؤول المفرزة ، بالجلوس في مكاننا حتى الصباح . لم يتوقف المطر ولا لحظة . ولم يكن هناك ما يقينا منه . مع ذلك كان البقاء جالسين تحت المطر أهون الشرين . وفي الصباح الباكر وجدنا مخرجا من المأزق . وتوجهنا الى الجبل في شبه هرولة ابتعادا عن الربايا العسكرية . ثم واصلنا السير تحت المطر المنهمر حتى وصلنا قرية مهجورة في وادي (بالييان) بجبل قنديل . هناك وجدنا غرفة واحدة فقط غير مهدمة ، وأشعلنا نيرانا وبدأنا نجفف ملابسنا بعد ان سقطت عليها امطار متواصلة طيلة 18 ساعة . في الليل اكلنا نصف خبزة لكل رجل ثم نمنا ـ نحن 16 شخصا ـ في تلك الغرفة الصغيرة ، بعد ان فرشنا فيها فقط شيئا من الحشيش اليابس ودون أي غطاء . صدقوني انها اروع وألذ نومة تمتعت بها طيلة حياتي . ولا يمكنني ان اقارنها بالنوم في أفضل فنادق اوربا .

وفي اليوم التالي غادرنا (بالييان) لنصل مساء آخر يوم من سنة 1981 الى مقراتنا في ثشتاشان . ولم أجد مايشير الى أي احتفال برأس السنة الجديدة . وفي ساعة متأخرة من الليل ذهب احد الفدائيين الى بستان عنب مجاور ليخرج لنا عناقيد العنب الفاخر من تحت الثلوج، التي كانت تغطي شجيرات الكروم منذ اكثر من شهر . في ذلك الوقت كانت مسألة نقل القيادة الى ثشتاشان قيد الدرس .

حين وصولنا الى قاعدة نيوزنك عائدين من سفرتنا الفاشلة كان قد انقضى شهران كاملان . وقد كتبت خلال ايام الرحلة يومياتي ، التي اصبحت كراسة صغيرة . وربما ضاعت ابان انفالات صدام عام 1988 . وقد رجعنا لنواجه المشاكل التي سببها زج مقاتلينا في اقتتال المنظمات القومية الكردستانية.

تمثلت احدى تلك المشاكل في وجود آمر قاعدتنا بقرةداغ نصر الدين هورامي ومستشارها السياسي رؤوف الحاج محمد ، مجمدين في نيوزنك بانتظار المحاسبة والمعاقبة . وكانت جريمتهما انهما لم يمتثلا لأوامر البانيخيلاني بشن الهجوم في منطقتها على قوات أ.و.ك . لم يفرح احد بعودتنا قدر فرحتهما لأنهما نجيا من العقاب المنتظر ووجدا فينا من يقول ان موقفهما بتجنيب الاقتتال كان هو الصحيح وليس موقف البانيخيلاني الذي أمرهما بالقتال.

****

بعد العودة من بهدينان مكثت اسبوعا واحدا في نيوزنك لأغادرها بعدئذ وبصحبة ملا علي ومفرزة كبيرة من فدائيينا شطر شهربازار وقرةداغ. في مساء اليوم الثالث من تحركنا كنا في قرية (طاثيلون) . وعند توزيعنا لتناول العشاء في بيوت القرويين دخلت مع فدائي آخر بيت فلاح لاأعرفه ولايعرفني . فانبرت ربة البيت لشن هجوم كلامي عنيف علينا قائلة:

□ أنتم لاتستحقون ان نطعمكم ولستم جديرين بأن نخدمكم ونضحي بشئ من أجلكم . أنتم لاتملكون شيئا من العقل ولستم جديرين بالاحترام.

فوجئت بهذا التهجم من هذه المرأة الجريئة ولم أعرف أول الامر سببه . سألت المرأة بهدوء:

□ لماذا يا أختي ؟ ماذا فعلنا من السوء حتى لانكون جديرين بالاحترام ؟

□ وهل هناك أسوأ مما فعلتم ؟ نحن نقدم لكم الطعام من خبزنا الشحيح ونخدمكم بشتى الاشكال لكي تحاربوا السلطة . ولكنكم تحاربوون وتقتلون بعضكم البعض . أفلا تخجلون من أنفسكم ؟ أتستحقون أن نطعمكم ؟ لماذا قتل شيركو شيخ علي وجمال علي باثير ؟

هنا فهمت سبب الغضب الشديد لدى ربة البيت . كان مقتل عضو اللجنة المركزية لـ ح.س.ك شيركو وأحد الكوادر البارزة لـ أ.و.ك جمال حدثا جديدا في تلك المنطقة . وكان شيركو شخصية معروفة في المنطقة ومن سكان احدى قراها . وكان الشائع آنئذ ان ذنب ماحدث انما يقع على عاتق أ.و.ك وان ملا بختيار ، الذي كان من قياديي أ.و.ك في ذلك الحين ، وراء الحادث لتصفية شيركو ـ ولست متأكدا شخصيا عما قيل ـ وان شقيق شيركو نصف المجنون ثأر لأخيه فورا بقتل جمال ، الذي كان البادئ بالقتل . ذلكم ماحدث . وها أنا أتعرض للمحاسبة الشديدة من لدن ربة البيت الريفي الذي دخلته لتناول العشاء . كان من الصعب ان أفهم هذه المرأة الصادقة في عواطفها وحرصها بأني من حزب آخر لا شأن له بما حدث واني لست من مؤيدي هذا الاقتتال أصلا . فأجبتها قائلا:

□ الحق معك يا اختي وليس من الصحيح أبدا أن نقتل بعضنا البعض وعدونا الرئيسي صدام يتفرج علينا . المستفيد الوحيد من هذا الاقتتال هو نظام صدام.

بدا ان هذه الاجابة خففت من ثوران المرأة الغاضبة . وبعد ذلك بربع ساعة صارحتها بأننا لسنا من الطرفين المتقاتلين ، بل نحن شيوعيون معارضون لهذا الاقتتال.

في طاثيلون نفسها كانت هناك ندوة نظمتها مفرزة من (كومله ـ أ.و.ك) للفلاحين . ولما اجتمعوا خطب فيهم كادر شاب قائلا:

□ نحن م.ل. ويعرف رفاق ح.ش.ع الجالسون هنا ماذا يعني م.ل

□ نظر القرويون في وجه هذا الشاب وفي وجوه بعضهم دون أن يفهموا شيئا مما قيل . وأوضح فدائي آخر من زملاء الشاب بعدئذ ان م.ل معناه (ماركسي ـ لينيني) . وهمس شاب من فدائيينا لزميله "انهم قوميون وليسوا ماركسيين. "

وكنا في قرية بزينيان وطورطةدةر وبعض القرى القريبة منها ، وكانت كثرة عددنا (حوالي مئتي مسلح) مظهرا استفزازيا لمسلحي أ.و.ك هناك ، رغم اننا لم نفعل شيئا يمسهم . ولكي يثبت مسؤولهم العسكري المحلي (وهاب زيومري) بأنهم الاقوى وانهم الحاكمون في القرى قام بضرب احد القرويين والقائه في حوض الماء البارد أمام جامع القرية . وبعكس ماتصور وهاب ، فانه خدمنا بهذه الحماقة اذ حمل القرويين على ان يقارنوا بينه وبيننا.

كان من المقرر ان نغادر القرية في صبيحة اليوم التالي 16 كانون الثاني 1982 ، غير ان سقوط الثلوج قطع الطريق وأرغمنا على البقاء . وقد استمر سقوط الثلج بغزارة ولأكثر من 48 ساعة . وتراكمت طبقة سميكة منه على الارض بشكل لم يسبق مثيله طيلة اكثر من خمسين عاما . وبعد اربعة ايام فتحنا الطريق بجهد مكثف للوصول بساعات الى قرية عازبان التي كانت تبعد قرابة اربعة كيلومترات وحسب . واضطررنا على البقاء في عازبان أياما . كان مقرنا المؤقت جامع القرية . وكنا نتوزع غلى البيوت اثناء وجبات الطعام . في هذا الجامع صنعت احجار الشطرنج بكاملها من خشب البلوط وفيه نظمت نشيدا أو أغنية بعنوان (كلاشنكوف) شبهت فيها الكلاشنكوف بحبيبة الفدائي وعروسته التي تحضنه في مسيره وفي مجلسه وتبيث معه على فراش النوم .. الخ .

وصلنا قرية خراجيان بضواحي مدينة السليمانية في منتصف الليل وأيقظنا القرويين من النوم لكي يستقبلونا ويطعمونا . لم أشعر بأي انزعاج لدى العائلة التي دخلت بيتها. وقد اسرعوا في تهيأة الطعام بطيبة خاطر وقدموا من من البيض المقلي واللبن الجيد والشاي الساخن وودعونا بنفس حرارة الاستقبال . وركبنا من هناك عربات تجرها تراكتورات ، نبدلها في كل قرية حتى وصلنا سفح الجبل الذي يفصل بين شهرزور وقرةداغ.

كنا موزعين على بيوت قرية (مضة كوير) في قرةداغ . وكانت الفدائيتان هناء ولينا معي في بيت واحد . لم تعرف ربة البيت أول الأمر انهما فتاتان الى أن طلبتا اخذهما الى عين الماء الخاص بالنساء . فاخذتهما الى هناك وسمعت النساء كلهن بوجود عدد من الفدائيات في المفرزة ، وربما للمرة الاولى بالنسبة الى هذه القرية . وبعد عودتهما الى البيت أتت الجارة الشابة لزيارتهما وأبدت اعجابها الشديد بأن تحمل فتيات ـ وكن عربيات باستثناء احداهن ـ السلاح لمقاتلة نظام البعث . وعبرت عن اعجابها بقولها:

□ فديت فرج الام التي انجبتكما ايتها الفدائيتان الباسلتان .

وفي قرية تكية ـ وهي مسقط رأسي والقرية التي قضيت فيها السنوات الاربع عشرة الاولى من عمري ـ اجتمع الاقارب والاصدقاء حوالي وزارني البعض قدوما من بلدة قرةداغ ومدينة السليمانية . كما زارني المسؤول المحلي آمر مفرزة أ.و.ك رستم ، وبحثنا بعض الامور . وجدته صريحا ومغرورا في آن واحد . وقال انه من كوادر كومله . واعترف انه لم يقرأ طيلة عمره أي كتاب بل ولا أية صفحة . انما تعاطف مع كومله وحسب . وبعد مغادرته لقريتنا قام في قرى اخرى بمضايقة وحجز

عدد من المتعاطفين مع ح.ش.ع لكي يثبت للفلاحين بهذا الاسلوب المرفوض ان أ.و.ك هو الاقوى وان المفرزة الفدائية الشيوعية التي قاربت اربعة اضعاف مفرزته هو ، ليست بذات شأن . وتعرضت لضغوط البعض من رفاقي كي أوافق على اجراءات مشابهة من قبلنا ضد المتعاطفين مع أ.و.ك ولكني رفضت القيام بشئ من هذا القبيل .
كنا في الطريق المؤدي من سنطاو الى قرية بانيخيلان الواقعة على الشارع الرئيسي قرب دربنديخان ، لغرض عقد ندوة اتكلم فيها للفلاحين هناك . وقد انفجرت قذيفة في الجو فوق رؤوسنا . توقفنا بعض الوقت ظانين انها كانت قذيفة انفلاق جوي اطلقها العدو من احدى الربايا بعد ان اكتشفنا . ولم يلبث ان اتضح انها كانت قذيفة آر بي جي وثارت من يد احد فدائيينا خطأ . فتابعنا المسير وأقمنا الندوة وتناولنا الطعام في بيوت القرية وغادرناها عائدين الى (درةدوين) في نفس الليلة.
قامت مفرزة من رجالنا ، تحت قيادة حمة رشيد قراخي ، بنصب كمين لسيارة عسكرية محملة بالجنود قرب بلدة قرةداغ . نجحت العملية في الحاق خسائر روحية كثيفة بأفراد القوة المعادية . غير ان النيران الكثيفة التي اطلقت من ناقلة جنود واحدة الربايا العسكرية القريبة لم تسمح بأخذ الاسلحة والغنائم من قتلى العدو . وفي اليوم التالي خرجت قوة عسكرية حكومية في عملية ثأرية حتى وصلت قرية (استيل السفلى) حيث سأل آمرها الضابط بعض الفلاحين:

- هل من الصحيح ان فدائيات عربيات كن ضمن المفرزة التي قامت بعملية امس ضد الجيش قرب البلدة ؟
- نعم صحيح ، كانت هناك فدائيات ايضا.
- تبا للعروبة وللامة العربية بأسرها. تبا لهذا الجيش الذي يباد على أيدي فتيات عربيات .

كان ملا علي يبحث عن مشروبه المفضل ـ العرق العراقي ـ أثناء جولاتنا ايضا . ويبدو انه حصل بشكل ما على قنينتين منه واتفق مع بعض زملائه سرا على اقامة حفل صغير خاص في منزل الفدائي الشيوعي توفيق فتح اللة بقرية بلكجار لتناول المشروب في سهرة ممتعة . وعندما حل الوقت المنتظر وهيئت المقبلات ـ المزة ـ وجد ملا علي القنينتين وقد افرغتا من العرق وملئتا بالماء الاعتيادي . وأدرك فورا ان الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعرف بمثل هذا الامر السري ويقدم على تبديل العرق بالماء هو خالد ، المسؤول الحزبي عن منطقة قرةداغ والمقيم في قرية تكية المجاورة . ولم يستطع ملا علي اثارة القضية خشية انتشار الخبر وخلق المزيد من المتاعب . وقيل ان هذا التصرف من خالد لم يكن بدافع الحرص على الحزب وحده ، بل انطوى كذلك على بعض المشاكل والاحقاد الشخصية .
كنت جالسا بين افراد عائلتي في تكية حين زارني وفد فلاحي كبير من اهالي قريتي بلكجار و (بردي) وكلهم من اقاربي ـ ليقدموا الي مطلبهم الوحيد:

- جئنا لنطلب منك عدم تأسيس مقر عسكري لكم في بلكجار.
- ومن قال لكم اننا نريد تأسيس مقر عسكري هناك ؟ ـ سألتهم ، وفي واقع الامر لم نفكر بتأسيس مثل هذا المقر هناك ـ ولماذا تعارضون تاسيس المقر ؟
- سمعنا انكم تؤسسون مقرا ، ونحن نخاف من القصف الجوي والمدفعي للقرية اذا وجد فيها المقر.

طمأنتهم بأننا لسنا بحاجة الى مقر كهذا في الوقت الحاضر . وقمت بآخر زيارة الى بلكجار في 1982/3/4 . وكانت الثلوج التي سقطت في 15-1/16 ، لاتزال تغطي الارض حوالي القرية.
في طريق العودة الى قاعدة نيوزنك كان يتأتى علينا ان ندخل أراضي كردستان ايران عند عبور الزاب الصغير مباشرة قرب قرية (هرزنه) ونقطع مسيرة يوم ونصف يوم أو يومين لنصل مقراتنا . وكنت في مقهى بقرية (درماناوا) حين وجدت احد افراد الحرس الاسلامي ـ ثاسدار ـ اسيرا لدى مفرزة فدائيي الحزب الديمقراطي الكردي الايراني . هدد احدهم الاسير قائلا:

- اذا لم تتصرف بالشكل المعقول فانك ستقتل.
- أنا لا أخشى منكم ايها الجبناء ـ أجاب الاسير متحديا ودون أن يظهر على وجهه شئ من علامات الخوف ـ اقتلوني ! اقتلوني ! أنتم جبناء اذا لم تقتلوني في هذه اللحظات .. أنا لا أخاف الموت لأني سأموت شهيدا من أجل الاسلام وسأذهب مباشرة الى الجنة .. لا أريد هذه الحياة البائسة في هذه الدنيا ، بل اريد الحياة الابدية السعيدة في الجنة .. اقتلوني !

كان الحارس الاسلامي الاسير فارسيا ، وكان مظهره يدل على انه من افقر الفقراء . كان يتكلم بجد ولم يكن خائفا من الموت أبدا . بل كان راسخا في الايمان باللة وبالجنة قدر رسوخي في رفض الخرافات . علق احد الزملاء على ما راى أمامه ، فقال :

- هذا المسكين لم يجد في هذه الدنيا ما يسعده فيأمل الحصول عليه في عالمه الآخر .

كنا جالسين في جامع قرية بيوران . وكان ملا القرية يلقي موعظة على حشد من الفلاحين ، الذين بقوا هناك بعد أداء الصلاة للاستماع اليه. كان يقرأ فقرات بالعربية في كتاب مفتوح امامه ليترجمه بعدئذ الى اللغة الكردية التي لايعرف مستمعوه غيرها . وكان الموضوع يتعلق بطيبة وعدالة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب . قال الملا:

- عرف عمر بوجود أرملة فقيرة مع أطفالها الجياع في بيتهم ، وما من معيل لهم . فنهض وحمل على ظهره شخصيا كيسا من الطحين اليهم لاطعامهم من بيت المال . وبعد أن وصل البيت ووجد الاطفال جياعا وضع كيس الطحين أمامهم . ثم نهض وحمل الكيس على ظهره مغادرا البيت .

من المؤكد ان الملا الواعظ كان ضعيفا في اللغة العربية فترجم العبارة التي قراها بالعربية بصورة خاطئة . لكنه كان يفتقر ايضا الى قليل من العقل والذوق السليم والا لما شوه الحقيقة على هذه الشاكلة اذ لماذا أتى عمر بالطحين الى اطفال وجدهم جياعا ثم اعاد الطحين بعيدا؟

****

وصلنا نبأ ، وكنت سكرتير لجنة اقليم كردستان في كانون الثاني 1982 ، مفاده ان حملة اعتقالات قد جرت في مدينة السليمانية وشملت سكرتير لجنة المحافظة نائب عبداللة وعددا من اعضائها وكوادرها امثال نوروز شاويس وكمال محمد امين وملا بكر . وسعيا لتطويق الحملة وتنبيه جميع الكوادر الى الخطر المحدق كتبت تصريحا باسم ناطق بلسان لجنة اقليم كردستان وقدمته الى اذاعة أ.و.ك لتبثه ـ وقد بثته فعلا . وبعد أيام من هذا التصريح وصلنا سكرتير المحافظة المعتقل نائب عبداللة وأفاد أمامنا في هندرين بأنه اعتقل من قبل الامن العام في المحافظة وتمكن ، بعد أيام ، من خدعهم مدعيا انه على موعد مع احد أعضاء المكتب السياسي للحزب وانه سيسلمه اليهم . فاطلقوا سراحه وتركوه ليعود الى بيته . وقد أهابت به زوجته ـ على حد تعبيره هو ـ لكي يهرب ويفلت من قبضة الامن العام . فهرب ووصلنا . أما كيف اعتقل اول الامر فانه ذهب الى بيت احدهم ووجده تحت الرقابة وعاد ولاحقوه واعتقلوه .
اعترف بأني صدقت ما رواه نائب ، شأني شان الآخرين في الهيأة . واقتصرت اجراءاتنا على تنحية نائب من عضوية اللجنة المركزية للحزب، بسبب موقف الضعف عنده ، مع ابقاءه ضمن لجنة اقليم كردستان . وبقي على هذا الاساس مسؤولا عن منظمة السليمانية لأكثر من سنتين الى ان اطلق سراح نوروز شاويس الذي كان هو الآخر ضعيفا امام الجلادين عند القبض عليه . لكن الشئ الذي أصر عليه نوروز ـ واتضح انه كان محقا في ذلك ـ هو ان نائب كان أول من اعتقل في السليمانية بخلاف ماكان يدعي ـ وقد انهار فورا وانه هو الذي سلم الآخرين الى السلطات . وكان علينا ان نفهم في بداية مجيئه الينا بأن الأمن العام ماكان ليطلق سراحه لولا التوثق من انه انهار كليا.

****

كنت على رأس لجنة اقليم كردستان وكان رفيق صابر آمر فصيل (أو مسؤول) مقرنا . وكانت العلاقة وثيقة بيننا . وكانت نقطة الخلاف الوحيدة بيننا هي مسألة سفره للخارج بهدف الدراسة الجامعية والحصول على شهادة الدكتوراه . كان يريد ذلك وكنت أعارضه الى أن افترقنا بانتقالي من منظمة الاقليم الى المكتب العسكري المركزي ، الذي تكون في تلك الايام مني مستشارا سياسيا ، أو منظما حزبيا ، ومن سليمان اسطيفات مسؤولا (وهو ضابط حقوقي سابق) واحمد بانيخيلاني وآرام خجدور عضوين.
مع نقل خدماتي الى المكتب العسكري انتقلنا ـ المكتب العسكري ثم القيادة كلها ـ الى ثشتاشان . في آيار 1982 سافرت ضمن مفرزة من نيوزنك الى ثشتاشان راكبا بغلا . وصلنا نهر (مارديو) الذي كان فائضا بسبب ذوبان الثلوج في جبل قنديل . وتوجه الفدائيون المشاة نحو شبه جسر خشبي صالح لعبور البشر وليس لعبور الدواب . وكان علي ان اعبر النهر راكبا البغل من مكان مناسب . بقي معي الفدائي الكلداني شوان ، وهو شاب شيوعي من شقلاوة ، لكي يراني اعبر ثم يذهب نحو الجسر . عندما بلغ البغل وسط النهر الفائض الهائج ، وانا راكبه فوق حمل خفيف ، جرفه تيار الماء القوي في النهر المزمجر السريع الانحدار . وانجرفت بدوري معه . كل مافعلته هو انني القيت بنفسي ضد المجرى لكي لاأقع تحت البغل المنجرف . وظللت أسبح وأحاول البقاء فوق سطح المياه لأتجنب الارتطام بالصخور الكبيرة التي منها كنت أخاف . وبعد انجراف استمر حوالي 30 ـ 40 مترا تمكنت من الامساك ببعض الغصينات الجانبية والخروج من النهر . وعلى امتداد الانجراف بقيت ماسكا بحبل رشمة البغل . فسحبته هو الآخر ورائي . وأما شوان فانه اصيب بذعر شديد . وربما اصيب باغماءة قصيرة ، حين رءني وقد جرفني الماء . وذكر لي فيما بعد انه كان شاهد غرق الفدائي الكربلائي عامر في نهر نوكان الفائض قبل هذا الحادث بحوالي اسبوعين ، وانه تصور بأني سأكون ثاني غريق يشهده خلال (15) يوما.
وصلنا ثشتاشان في اليوم التالي . بدت لي منطقة جبلية حصينة بالنسبة لمن يملك وسائل دفاع قوية ويرد على هجوم العدو مهما اشتد . ولكنها لم تكن صالحة لمن يضع احتمال الانسحاب الاضطراري في فصل الشتاء . ذلك لأن ثلوج قنديل تشكل العدو الاقوى الذي لايمكن قهره لمن يلاحق من الامام ويريد الانسحاب الى الوراء . وبهذا المفهوم كان اختيارها كمقر رئيسي للقيادة غير موفق . بيد ان الجميع كانوا يفكرون في الامر بقدر مايتعلق بهجمات السلطة وحسب . ولم يفكر احد في قضية الاقتتال الداخلي بين فصائل المعارضة بشكل يؤدي الى احتلال وتحطيم هذه القاعدة على أيدي مسلحي أ.و.ك .

****

مع حلول موسم صيد القبج قررت الاستمتاع باجازة بضعة ايام اقضيها فوق جبل قنديل . ورافقني ثلاثة شبان فدائيين اثنان منهما من بني اخوتي ، ليحملوا على ظهورهم ما نحتاج من الطعام والفراش . في اليوم الثاني من الصيد ـ 17 حزيران 1982 ـ أردت أن أجتاز بقعة ثلجية لأختصر الطريق الى مكان أردنا ان نجلس فيه لتهيأة الشاي وتناول طعام الغداء . كنت أتصور ان الثلج هش ، كما هو الحال في الشتاء . واتضح انني كنت مخطئا . فانزلقت رجلي بعد الخطوة الرابعة أو الخامسة وهويت على الثلج في ارض شديدة الانحدار ولم يعد باستطاعتي السيطرة على الموقف ولم انج من الارتطام ، في نهاية البقعة الثلجية ، بصخرة كانت على الثلج كما لو وضعت هناك عن عمد ككمين لي . لم أفقد الوعي جراء الارتطام ولكنني فقدت القدرة على

اي حركة . فاسرع الي الشبان وفرشوا بطانية ليضعوني فوقها ويحملوني الى بيت فلاح غنام من اهالي قرية (دوطومان ـ عشيرة آكو) . كانت آلامي شديدة للغاية ولم اكن قادرا على الاتيان باي حركة . وخلال الساعات الاربع والعشرين الاولى كنت يائسا من البقاء على قيد الحياة . لم يكن هناك طبيب أول الأمر ولم يكن بالامكان نقلي الى اي مستشفى ولا الى مقرنا في سفح الجبل . في اليوم التالي وصلني الطبيب الفدائي المرح (بهاء) دون ان يحمل معه اية اجهزة . وبعد الفحص اعرب عن اعتقاده بان المسألة هي تكسر ضلوعي . بقينا عشرة ايام كاملات في خيمة ملحقة ببيت الحاج الغنام وعائلته ، الذين قدموا لنا خدمات كبيرة . كان هناك وفر من اللبن الجيد ، بل من افضل الالبان الدنيا ، مع لحم الخروف الجيد وكبده مشويا . وكانت اللحوم تكثر عندهم لسبب خارج عن ارادتهم . في اليوم السادس اصبح في مقدوري ان اتحرك واتقلب على الفراش وفي اليوم التاسع نهضت بمساعدة زملائي وتمشيت قليلا . وفي صبيحة اليوم العاشر تركت خيمة الغنام وتحركت ببطء شديد متكئا على عصى لأصل بعد عشر ساعات الى المقر حيث بقيت طريح الفراش شهرا كاملا . وعندما تسنى لي اخذ صورة اشعاعية في المستشفى السوفيتي بطهران نهاية عام 1982 تبين ان تلك الحادثة كانت قد سببت تكسر خمسة من اضلاعي في الجهة اليمنى .

كنت لا أزال طريح الفراش يوم زارتني أخت زوجتي الفدائية هناء قادمة من قاعدة نيوزنك لتخبرني بانها تزوجت من الفدائي الشاب محي الذي كانت قد تعرفت عليه في قاعدة التدريب بلبنان عام 1980 . كانت نصيحتي لها أن تتجنب انجاب الاطفال اذا كانت راغبة في البقاء فدائية . وهي أخذت فعلا بهذه النصيحة طيلة الاعوام السبعة التي عاشتها مع زوجها فدائية في كردستان . وعلى العكس من ذلك كان البعض من فتياتنا الفدائيات تتزوج لتنجب الاطفال في اسرع وقت ولتتخذ من ذلك حجة لترك العمل الفدائي والذهاب ـ احيانا مع زوجها ـ الى الخارج بذريعة صعوبة مداراة الاطفال في ظروف العمل الصعبة بين الفدائيين.

****

منذ مشاركتي في أول اجتماع للمكتب العسكري المركزي أقر الاقتراح الذي قدمته بعقد اجتماع حزبي عسكري عام يشترك فيه مندوبو كافة تشكيلاتنا الحزبية بين الفدائيين والعسكرية ويناقش فيه وضعنا العام واعادة بناء تنظيماتنا الحزبية ـ العسكرية ومشروع نظام داخلي لقواتنا الفدائية ولتحديد شكل العلاقة بين العمل الحزبي وبين العمل العسكري . في أوائل أيلول 1982 توافد المشاركون وانعقد الاجتماع في ثشتاشان . وحضره سكرتير الحزب عزيز محمد ، الذي كان قد وصل الى كردستان منذ وقت قريب ، كما حضره البعض من اعضاء اللجنة المركزية . كان اول اجتماع من نوعه في كردستان . ونوقشت المسائل المطروحة في جدول العمل واقرت صيغة مشروع النظام الداخلي للقوات الفدائية الشيوعية كما أقرت اعادة بناء التنظيم العسكري بتقسيم كردستان الى ثلاثة قواطع ـ قاطع بهدينان وقاطع اربيل وقاطع السليمانية وكركوك ، مع الابقاء على المكتب العسكري المركزي . وكان يجب عرض القرارات على اللجنة المركزية أو المكتب السياسي قبل وضعها موضع التنفيذ .

****

كانت قضايا التحقيق والمحاكمات غير مستقرة على أسس ، وكانت تجري في بعض الاحيان حسب مشيئة المسؤولين المحليين ، الحزبيين والعسكريين . وكان الروتين الملازم لدوائر الدولة البيروقراطية المتخلفة تنعكس على أوضاع وتصرفات فدائيينا ايضا . وقد اعتقل شاب كنا ندعوه (أبو حاتم) وكان ابن رجل من الرجال الاربعة الذين داهموا بيتي باسم الامن العام واعتقلوني في 17 أيلول 1967 عند انشقاق جماعة عزيز الحاج . وكان يتردد بين القاعدة وبين المدن تارة لتدبير مجئ خطيبته واخرى للقيام ببعض النشاطات الحزبية . كانوا يشكون في ارتباطاته . والقي به الى السجن مدة طويلة واهمل دون أن يحاكم أو يفرج عنه ، حتى أضطررت الى التدخل مع المحققين والحكام مطالبا بانهاء قضيته بالادانة أو التبرأة . وأنشأنا بعد ذلك محكمة تابعة للمكتب العسكري المركزي وعين على رأسها شاب حقوقي حمل شهادة الدكتوراه في القانون ودعي (أبو هديل . (

21
عودة المكتب السياسي الى كردستان
الحزب الشيوعي في نكسة جديدة

في ذروة الهجمة البوليسية ، التي شنها النظام البعثي على ح.ش.ع ، انتقل المكتب السياسي للحزب الى خارج البلاد وتوزع اعضاؤه على عدة أقطار . وكانوا يجتمعون مرات قليلة ، مرة في هذا البلد وأخرى في ذاك . وخلال أعوام 1979 ـ 1980 ـ 1981 عقدت اجتماعات اللجنة المركزية في أوربا . وبعد سنوات ثلاث تحرك المكتب السياسي نحو كردستان لعقد أول اجتماع للجنة المركزية فيها ولابقاء البعض من اعضائه كي يعتبر عائدا.

بعد الاجتماع الحزبي ـ العسكري في ثشتاشان توجهنا الى وادي نيوزنك للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية على الحدود العراقية ـ الايرانية . كان مبعث الفرح ان ينعقد الاجتماع هذه المرة فوق أرض كردستان وفي مقرات فدائيينا . ولم يحزر أحد آنئذ انه سيكون بداية نكسة جديدة للحزب.

صادق الاجتماع على قرارات الاجتماع الحزبي ـ العسكري بتشكيل ثلاثة قواطع عسكرية واقرار مشروع النظام الداخلي للتشكيلات الفدائية . وعين مسؤولو القواطع من قبل المكتب السياسي ـ أنا مسؤولا عن قاطع السليمانية ـ كركوك ويوسف حنا عن قاطع أربيل وتوما توماس عن قاطع بهدينان . والفت هيئة القاطع ، التي افترض ان اقودها ، من عضو اللجنة المركزية عدنان عباس الكرد مستشارا سياسيا وعضو لجنة الاقليم ملا علي مسؤولا عسكريا في القاطع وعضو لجنة الاقليم ابراهيم صوفي محمود مسؤولا اداريا . اعترضت من جانبي على هذه التركيبة ، وخصوصاً على ابراهيم صوفي ، وابلغت عزيز محمد باعتراضي وقلت انها هيأة غير متجانسة . وقد رجاني عزيز محمد القبول بهذه التركيبة والسعي لتذليل المصاعب ومحاولة توفير التجانس.

كان علينا ان نختار المكان الذي يكون فيه مقر هيئة القاطع . وأجلنا ذلك الى ان نتحرك الى المنطقة ونختار المكان بعد الفحص الميداني . وانتقلنا في المرحلة الاولى الى قرية (دولكان) ـ وهي قرية في وادي آلان الايرانية ـ حيث كانت لنا قاعدة فدائية صغيرة . عند وصولنا وجب علينا ، قبل كل شئ ، ان نحل مشكلة طبيب القاعدة أبو هفال مع مسؤولها ابو هيمن . كان الطبيب قد سجن بسبب نزاع بينهما ، وكان الاثنان معقدين ومزعجين وصعبي الانسجام.

كان في نفس قرية دولكان مقر للحزب الديمقراطي الكردي في ايران ايضا . وبادلنا الزيارات مع دز قاسملو صادق شرفكندي ، اللذين كانا هناك آنئذ . ومن أطرف ما سمعت من د. قاسملو . وكان جالسا عندنا لتناول الفداء ، الحادث التالي:

جاءني فدائي مسن في عام 1980 ـ الحديث لقاسملو ـ وسألني:

- متى تنتهي مشكلتنا يا دكتور ؟ متى يسقط الخميني ؟
- قريبا.
- بعد كم من الوقت ؟ ـ أجبته انه يسقط بعد شهرين ـ فأضاف:
- أوه ! انها لمدة طويلة ان ننتظر شهرين كاملين.

توجهنا الى شهربازار . وبعد الاستطلاع الميداني وقع اختيارنا على قرية (حاجي مامند) الحصينة المجاورة لقمة (كوره كاذاو) والمحاطة بحزام جبلي يكاد يطبق عليها.

****

ظهر ورم في رجلي واشار بعض أطباءنا الى عرضه على الاخصائي وفحصه خشية ان يكون ورما خبيثا . ولم يكن بامكاني دخول مدن عراقية للفحص فسافرت مضطرا الى طهران . وكان بصحبتي احد اطباءنا ـ د. ناظم الجواهري . في نقطة تفتيش الحرس الاسلامي الايراني بدزلي عثروا في حقيبته على خارطة سياحية بسيطة لمدينة طهران وجعلوا من ذلك مشكلة خطيرة زعما بأن حامل هذه الخارطة ذاهب لتنفيذ عمليات تخريبية ضد ايران . ولولا الشاب الكردي العراقي طاهر نادر هورامي ، الذي ذهب مع ناظم وزكاه وانقذه ، لكان من المنتظر ان يقاد طبيبنا الى السجن والتحقيق ليس لأنهم وجدوا لديه مستمسكا جرميا بل لأن هؤلاء الحراس كانوا قرويين متخلفين جهلاء.

في طهران ذهبنا الى المستشفى السوفيتي ـ الذي اغلق بعد ذلك بسنة ـ وواجهنا المدير ، الذي سارع الى تدبير الفحص وعرض علي النوم في المستشفى لمعالجة ماكنت أشكو منه في ظهري . رفضت ذلك وقررت العودة السريعة الى كردستان.

من المفارقات العجيبة ان يوم وصولنا الى طهران كان كذلك يوم وصول الفتاة ايمان الزوجة المطلقة لناظم الجواهري . كانت ايمان ـ وهي ابنة سكرتير ح.ش.ع السابق سلام عادل ـ قد تزوجت ناظم في موسكو ، حيث كانا يدرسان الطب . وأنجبت منه طفلين . ثم طلقته لتتزوج بعدئذ من رجل آخر سوري مشلول بسبب حادث مؤسف . وكان هذا الاخير زوجا سابقا لسلام ، ابنة سكرتير الحزب الشيوعي السوري خالد بطداش . ويبدو ان هذا الزوج قد فرض في حينه على سلام دون أي رغبة منها . ثم طلقته وأصيب بالشلل ثم تزوجته ابنة سلام عادل . وحين سئمت ايمان من زوجها الجديد هذا طلقته وقررت العودة الى زوجها السابق ناظم وأتت اليه برجليها وتصادف وصولهما الى طهران في نفس اليوم.

في طريق العودة من طهران احتفلت بعيد رأس السنة 1982 ـ 1983 مع فدائيينا في قاعدة كرجال ـ جبال هورامان . كان الحفل داخل خيمة كبيرة منصوبة بشكل فني بديع داخل كهف عميق حصين . وكان البرنامج خليطا من التوعية السياسية والتسلية البريئة . ومن طرائف الحفل القاء قصيدة مزعومة كنت قد نظمتها خلال عشر دقائق على منوال العديد من القصائد الحديثة التي تسمى شعرا ، وهي تخلو ليس فقط من الوزن والقافية ، بل كذلك من كل عناصر الفن والجمال الشعري . قدمتها لتلقى كمجرد سخرية من بعض الاشعار . لكن بعض الحاضرين انغمروا مع بعضهم في نقاش طويل بحثا عن تفسير عميق لهذه القصيدة "العميقة. "

في قاعدة كرجل سألت بشكل ما من الرفاق الفدائيين عن رأيهم في مسؤوليهم . لاحظت انهم كانوا راضين عن مسؤولهم الاول علي كلاشنكوف . وقالوا انه يسير امامهم في الصعاب وفي العمليات العسكرية . لكنهم شكوا من ان عضو مكتب البتليون كريم حاجي منشغل على الدوام بالبحث عن الطعام اللذيذ لنفسه اكثر من انشغاله بأمور القاعدة وبمشاكل الفدائيين الحزبية والعسكرية.

في منتصف الليلة التالية ، ونحن في طريق العودة من كرجال الى مقر القاطع بشهربازار ، كنا جالسين لتناول قسط من الراحة قرب مجمع (شاندري) . وحين هممنا بالتحرك هرب البغل من يدي ، قبل أن أركبه . وعبثا حاولنا مسكه . فقد اتجه الى المجمع ، ولم يعد بامكاننا ان نلاحقه . وقال احد فدائيينا منكتا بعد ان يئس من البغل:

 انه خاننا وانضم الى المعسكر المعادي وذهب ليسجل نفسه جحشا.

كانت حقيبة ملابسي القليلة وكيس النوم السفري على ظهره . ولم يكن من عادتي ان اضع الوثائق أو الاشياء الشخصية الهامة داخل حمولة البغل او الحصان لان مثل هذه الحيوانات كانت على الدوام عرضة للهروب والضياع . غير ان فدائيا من الرفاق العرب كان قد عاد لتوه من طهران تصرف بشكل مغاير وخاطئ ، رغم تحذيري المسبق له . فقد جلب من طهران اعدادا كبيرة من الصور الفوتوغرافية للفدائيين في كردستان . ووضع تلك الصور في حقيبته التي كانت فوق البغل الهارب . ولم أدر ما اذا وقعت حمولة البغل في متناول السلطات الحكومية ام لم تقع.

عندما وصلنا الى مقر قاطعنا في قرية حاجي مامند وجدنا ان جماعة أ.و.ك قد اتخذوا من نفس القرية مقرا لقاطعهم . وكان ملا بختيار هو المسؤول الاول عنه . وكنت قد سمعت سابقا عن ملا بختيار كأحد المتشددين في قيادة أ.و.ك ـ وبالأخص في قيادة كومله . لكنني لم اتعرف عليه مباشرة من قرب الا في حاجي مامند ، حيث تجاورنا قرابة أربعة أشهر . وقد أقمنا علاقة طبيعية والى حد ما ودية مع قيادة قاطع أ.و.ك . وشجعنا على اقامة هذه العلاقة ان كان عضو المكتب السياسي والقائم بأعمال المسؤول الاول لـ ح.ش.ع في كردستان كريم احمد قد وقع في شباط 1983 اتفاقا للصداقة والتعاون مع قيادة أ.و.ك في نيوزنك . وقد أردنا ان نعقد بدورنا اتفاقا محليا بهدف توثيق العلاقات بين القاطعين ، اسوة بالقيادة . خولنا ممثلنا في العلاقات مع الاطراف الاخرى سعيد البرزنجي وزودناه بالملاحظات الضرورية كأساس للتباحث والتفاوض مع ممثل أ.و.ك . وفاجأني البرزنجي بعد ذلك بمشروع اتفاق تحريري وقعه هو وممثل أ.و.ك كما وقع سكرتير قاطع أ.و.ك ملا بختيار وأرسل الي لأوقع بدوري ويصبح نافذ المفعول . قرأت الوثيقة ووجدتها غير مقبولة اذ كانت تعطي الانطباع لمن يقرأها بأن ليس هناك اتفاق بين طرفين متكافئين ، بل رضي ممثلنا بدور ثانوي شبه تبعي . انتقدت ممثلنا البرزنجي بشدة لتوقيعه على هذا الاتفاق قبل ان يعرض المسودة علينا وقبل ان يأخذ رأينا بشأنها وحجزت كلتا نسختي الوثيقة عندي ، رغم مطالبات ملا بختيار المتكررة بها . كنت اريد طلب صياغة الاتفاق . لكن الاحداث داهمتنا ولم تمهلني لتحقيق ما اردت .

كان لقيادة الثارتي مقرها الخاص في قرية (بادانه) غير البعيدة عنا . ولغرض اقامة علاقات متوازنة من جانبنا مع الطرفين ، أ.و.ك والثارتي ، بادرت الى ارسال مفرزة صغيرة اشبه بالسفارة في تلك القرية . ولم يكن لمفرزة ح.س.ك ، التي كان يقودها عثمان قادر منور ، مقر ثابت معروف في شهربازار حتى نقيم معها علاقات محددة . يضاف الى ذلك ان هذه المفرزة لم تخلق لنفسها سمعة حسنة بين الناس هناك .

****

في أواخر آذار 1983 استلمت رسالة (أو مذكرة) من ملا بختيار ينبؤنا فيها بان عناصر ح.س.ك قتلت في احدى قرى شهرزور بعض فدائيي أ.و.ك . واطلق الطرف الآخر بدوره ادعاءات مشابهة ضد أ.و.ك . ونشأ جو متوتر ومشحون بالمخاطر بين فدائيي الجانبين . ودرسنا نحن في هيأة قاطعنا وبمشاركة كوادرنا المتقدمة هذا الوضع المستجد وقررنا تركيز قصارى جهدنا للتوسط بين الجانبين ولغرض حل النزاع قبل أن يحتكم الى البندقية .

كان الوضع يزداد توترا وكنا ثابتين على موقفنا . لكن قيادتنا الموجودة في ثشتاشان كانت تنظر الى الوضع المستجد بمنظار معاير كانت تدفعنا للتحيز الى جانب الثارتي و ح.س.ك (أي الى جانب جود ضد أ.و.ك ، الأمر الذي لم نقتنع به في قاطعنا.

في مجرى تزايد التوتر وضعت قيادة أ.و.ك كمينا في احدى الطرق بهدف قتل عثمان قادر المسؤول عن مفرزة ح.س.ك . ومرت سيارة عثمان وأطلق الكمين نيرانا كثيفة عليها وقتل من كان فيها . غير ان عثمان لم يكن موجودا ، بل كان قد كف عن التجول في سيارته كتدبير وقائي. وكان القتيل احد كوادر الثارتي (جزا علي كاتب) ، الذي كان قد استعار سيارة عثمان لاستعمالها . وفي السيارة نفسها قتل اثنان من فدائيي أ.و.ك . وفي اليوم التالي نصب الثارتي كمينا ثأريا لمسلحي أ.و.ك وأطلقت قذيفة آر بي جي على سيارة قتل فيها عشرة شبان . وهكذا اتسع النزاع ليشمل الثارتي ايضا . وكانت قيادة قاطع أ.و.ك هي المبادرة الى حشد مسلحيها في شاربازير باستدعاء الفصائل المسلحة من قرةداغ وطرميان وغيرهما وحشدها كلها في منطقة المجابهة.

نحن درسنا في قيادة قاطعنا الوضع المتأزم وقررنا بذل قصارى الجهد لحل النزاع بين الاطراف الاخرى عن طريق الوساطة وبصورة سليمة. بخلاف ماكان يطلب منا الانحياز الى جود . كان موقفنا مفهوما ومستحسنا من قبل اهالي القرى ، الذين اقتدوا بنا وشكلوا وفدا من عشرات الفلاحين ليزور ، بقيادة الملا محمد الشهرزوري ، الاطراف المعنية سعيا لاستبعاد الصدام المسلح . وكان ممثلنا سعيد البرزنجي يتحرك مع وفد القرى حتى اسفرت الجهود المشتركة عن عقد اجتماعين في قرية (قلة طيسكان) بمشاركة ممثلي الاطراف المتنازعة و ح.ش.ع ووفد فلاحي قرى المنطقة . ونشأ بعض التفاؤل بالعثور على حل للمشكلة عن طريق التفاهم . لكن هذا التفاؤل سرعان ماتبخر . وكان الطرف المصر على الاقتتال هو أ.و.ك بالدرجة الاساسية . وكان واضحا ان أ.و.ك أراد محاربة وتصفية ح.س.ك أولا لكن مقتل جزا علي كاتب أدى الى اقحام الثارتي ايضا في النزاع .

في 20 نيسان 1983 انتهت المصادمات الدموية ـ الجنونية في شهربازار بانتصار مسلحي أ.و.ك وملاحقة مسلحي الثارتي و ح.س.ك الى داخل الحدود الايرانية . وقد ذهب ضحية هذه الاشتباكات بين الفدائيين الاكراد قرابة 60 شخصا من القتلى . وكان اسوأ فصول الماساة ان قتل مسلحو أ.و.ك بضعة عشر فدائيا أسيرا من الطرف الآخر كانوا قد وقعوا في اسرهم.
في الوقت الذي سارت الامور في قاطعنا على هذا المنوال فان الوضع في قاطع اربيل كان معقدا ايضا ومخاطر الاشتباك كانت تتزايد . ورغم انني لم أكن على علم بتفاصيل الامور الجارية في ذلك القاطع ، الا ان لدي انطباعا راسخا بان فدائيي أ.و.ك كانوا الاكثر تهورا واستفزازا ، تحت تأثير جنوحهم الى الانفراد بالسيطرة على المناطق الخالية من السلطة . ولم ينج الفدائيون الشيوعيون هناك من تجاوزات فدائيي أ.و.ك . وكان مسؤول قاطعنا ذاك يوسف حنا مستعدا بطبيعته للانجراف وراء البعض والاصطدام بالبعض الاخر ، بدل التمسك بخطنا الصحيح لاتخاذ موقف الحياد تجاه جميع اجنحة الحركة القومية الكردية.
على ان نقطة الضعف الرئيسية لدى ح.ش.ع في تلك الفترة انما تمثلت في وجود كريم احمد مسؤولا أول وكالة على صعيد كردستان العراق ، وهو الرجل الذي لم يعد يصلح لأي مهمة قيادية منذ سنوات عديدة ولم يعد يعرف مساءا ماكان قد قاله صباحا حول اهم القضايا . واستطيع التأكيد جازما على ان ح.ش.ع كان يتخذ موقفا مغايرا من الاحداث فيما لوكان هناك رجل قيادي كفوء على راس الحزب ، بدل كريم احمد . ولايمكن بالطبع تبرير المواقف الخاطئة المسايرة لدى اعضاء المكتب السياسي الموجودين هناك آنئذ ـ باقر ابراهيم وعبدالرزاق الصافي وعمر الشيخ وسليمان اسطيفان ، الذين اثبتوا عدم جدارتهم القيادية في تلك الظروف المعقدة . وكان احمد بانيخيلاني هو الاخر نقطة الضعف الرئيسية في المكتب العسكري لأنه لم يكن ذا راي سياسي مستقل ولم يملك من النضج السياسي مايجعله قادرا على مواجهة وضع معقد كالذي كان ، فضلا عن انه كان يحمل فكرة اقحام الشيوعيين في الاقتتال بغية "تأديب" أ.و.ك ـ شأنه في ذلك شأن كريم احمد ، الذي كان يحث الثارتي و ح.س.ك ـ في اجتماع مشترك ـ على التحرك لتأديب أ.و.ك . وهنا لابد من الاشارة الى ان الثارتي و ح.س.ك لم يبديا أي استعداد لحشد المئات من المسلحين معنا للقيام بعملية عسكرية مشتركة ضد السلطة . ولكنهما كانا مستعدين لحشد كل قواتهما وخوض القتال ضد أ.و.ك . أنا لازلت على قناعة بأن المسؤولية الاولى عن اقتتال الاخوة في تلك الفترة تقع على قيادة أ.و.ك ، التي كانت ترى في الثارتي العدو رقم واحد ـ كما اكد في العديد من منشوراته . غير ان ذلك لاينفي بأي حال مسؤولية الاطراف الاخرى ، بما في ذلك قيادة ح.ش.ع ايضا ، عن مأساة اقتتال الاخوة.
لقد وردتنا في حاجي مامند برقيات مذيلة بتوقيع المكتب السياسي ، وكلها تحثنا على الابتعاد عن أ.وك والتعاون مع جود ، وبتعبير ادق : المشاركة في الاقتتال ضمن قوات جود . كان التوجيه مخالفا كليا لسياستنا الرسمية المبينة على اقامة العلاقات الودية مع جميع الاجنحة وعدم الانحياز الى اي جناح ضد آخر . وعلى العكس من ذلك ، فاني كنت متمسكا عن وعي وقناعة بالخط السياسي الرسمي ، الذي لم يخرق الا بعد عودة المكتب السياسي في 1982 الى كردستان.
كنت اعرض جميع برقيات المكتب السياسي على هيئة القاطع وعلى اللجنة الحزبية للقاطع . وكنا نتناقش ، وفي بعض الاحيان اجمع (26) رفيقا ـ هم جميع المسؤولين الحزبيين والعسكريين في قاطعنا ـ لتدارس الوضع وتحديد الموقف . وباستثناء شخص واحد من هيئة القاطع ـ هو ابراهيم صوفي محمود الذي وقف الى جانب راي المكتب السياسي الداعي الى ان ننضم الى سائر اطراف جود لمقاتلة أ.و.ك ـ فاننا جميعا كنا ضد اقحام الشيوعيين في الاقتتال بين المنظمات الكردستانية . وفي نهاية المطاف لم نشارك في القتال الدائر بين اجنحة الحركة القومية الكردية في شسهربازار . وفي اليوم التالي من انتهاء القتال بانتصار مسلحي أ.و.ك التقيت بسالار (نجم الدين عزيز) الذي لم تكن له مسؤولية قيادية في القاطع ولكنه كان على صلات وثيقة بمسؤول القاطع ملا بختيار ، وقلت له:
 اخشى ان تعتبروا أ.و.ك منتصرا في القتال . ولهذا أود التأكيد على ان الجميع ، بمن فيهم أ.و.ك وغيره ، خاسرون وان المنتصر الوحيد هو صدام حسين ونظامه.
ولم يوافقني سالار على هذا الرأي . بل كان يرى ان موقف ملا بختيار كان صحيحا ، اذ قال:
 لم يكن بالامكان لرجل مثل ملا بختيار اتخاذ موقف آخر غير هذا الموقف.
****
ردا على برقيات ورسائل المكتب السياسي المتتالية ، الداعية الى مشاركتنا في قاطع السليمانية في الاقتتال قدمنا عدة برقيات لتخطأة هذا الراي ولتبرير موقفنا . وفي 17 نيسان 1983 ارسلت من حاجي مامند الى المكتب السياسي أوضح واشمل برقية ، كانت تعبيرا عن راي كوادر القاطع . ذكرنا فيها نقطتين جوهريتين:
1. لا مصلحة للحركة الوطنية العراقية ولا للحركة القومية التحررية للشعب الكردي ولا لحزبنا الشيوعي نفسه في اثارة اي اقتتال بين اجنحة الحركة القومية الكردية . وسيكون النظام هو المستفيد الوحيد من مثل هذا الاقتتال . وعليه ينبغي بذل قصارى الجهد لكي لايقع الاقتتال . واذا لم نستطع الحيلولة دون اقتتال الاخرين فان بالامكان عدم اقحام انفسنا فيه.
2. واضافة الى ما سبق فاننا لانملك المستلزمات العسكرية لخوض القتال ضد أ.و.ك وسيكون التفوق العسكري بجانب الطرف الاخر لانه يملك الرجال والسلاح والعتاد بكميات اكبر وكفاءة قتالية اعلى . فهل من الصحيح ان ندخل معركة انتحارية نعرف مقدما اننا الخاسرون فيها ؟

لم نتلق جوابا على برقيتنا التأريخية هذه وهي لم تغير شيئا من النهج الصبياني لكريم احمد ، الذي واصل نشاطه الرامي الى تأديب أ.و.ك في قاطع اربيل ، حيث كان يوسف حنا متجاوبا معه . وفي 28 نيسان وردت سبرقية مذيلة بتوقيع المكتب السياسي تخبرنا بان قوات جود طردت قوات أ.و.ك من باليسان (وهي القرية التي كان فيها مقر قاطع أ.و.ك في منطقة خوشناو) . معنى ذلك ان الاصطدام قد اتسع وان الوضع ازداد تأزما .
كان مسؤول قاطع أ.و.ك ملا بختيار متفقا معي في تخطأة هذا الاقتتال . وقال مرة وبصراحة بأن أي اقتتال لن يحل المشاكل وان الجلوس على مائدة المفاوضات بالتفاهم سيظل الطريق الذي تحل به المشاكل . ولست أدري كيف كان يراسل قيادته وماذا كان يقول في تبرير موقفه بعدم الاندفاع ضدنا . غير ان ضغط قيادته كان قد اشتد عليه ، خاصة بعد الاستيلاء على باليسان من قبل قيادة جود ، لحمله على مهاجمتنا ـ كما صارحنا بذلك . وقد اتفقنا على ان نبتعد عن بعضنا مع تجنب الصدام المسلح فيما بيننا . وقررنا نحن في اجتماع ضم الكوادر ان نذهب الى قرةداغ ، حيث كان لنا نفوذ جماهيري جيد ، بعكس ماكنا عليه في شهربازار . وأبلغنا ملا بختيار بأننا ذاهبون ، ولكننا نبقي في مقرنا مفرزة صغيرة . اتفقنا على ذلك قبل ان يحدث شئ في ثشتاشان وقبل ان ينقطع الاتصال اللاسلكي بيننا وبين قيادتنا . على ان آخر برقية وردتنا من المكتب السياسي كانت تشير الى ان أ.و.ك يحشد قواته باتجا ثشتاشان.
قسمنا قواتنا المسلحة الى مفرزتين كبيرتين للانتقال الى قرةداغ . تحركت المفرزة الاولى بقيادة ملا علي في الصباح الباكر من اليوم الثلاثين من نيسان 1983 . وتحركت المفرزة الثانية ، وانا قائدها ، في فجر الاول من آيار . في مساء اليوم التالي توزعنا على بيوت القرويين في قرية (آوه كله) . وفي عصر اليوم الثالث من آيار كنا نمشي في سفوح جبل (دولوجه) عندما سمعنا ، لأول مرة ، اذاعة أ.و.ك ، وهي تيث نبأ احتلال مسلحيه بقيادة نوشيروان امقرات جود في ثشتاشان وملاحقة بقايا قوات ح.ش.ع والثارتي و ح.س.ك و ثاسوك لدفعها عبر جبل قنديل الى داخل ايران . اذا فان نتائج المعركة واضحة : انتقم مسلحوا أ.و.ك ، في ثشتاشان ، لهزيمتهم في باليسان . حققوا في المعركة الاخيرة انتصارا كاسحا ليمسحوا به عار هزيمتهم في باليسان . والفارق بين المعركتين ، بالنسبة الى ح.ش.ع و ح.س.ك ، هو انهما احتلافي باليسان مقر قاطع لـ أ.و.ك فيما فقدا في منطقة ثشتاشان مقر القيادة لكلا الحزبين وبكل مايحوي من ممتلكات وتجهيزات عسكرية وفنية واعلامية واقتصادية .
كانت خسارة ح.ش.ع في ثشتاشان جسيمة ولا يمكن مقارنتها مع خسائر الاحزاب الاخرى . ففي هذه المعركة فقدنا اكثر من ستين رفيقا ، اغلبهم من الكوادر الحزبية وليسوا من بسطاء الفدائيين . وفقدنا جهاز اذاعة صوت الشعب العراقي واجهزة الاعلام كله ، كما فقدنا كميات كبيرة من الاسلحة المتنوعة ـ بنادق ، دوشكات ، مدافع ، وحتى صواريخ سام سبعة التي جلبت لتطلق على الطائرات ولم تجرب ابدا . وفقدنا كمية كبيرة من المؤن وحتى من النقود ومن الممتلكات الشخصية للفدائيين ومن المباني والمقرات التي كلفت الكثير من الجهود والنقود لتشييدها . ويمكن القول انها كانت نكسة جديدة كبيرة اصيب بها ح.ش.ع قبل ان يخرج من نكسته الكبرى التي وقع فيها في 1978 - 1979 . ولابد من التاكيد على ان كلتا النكستين وقعتا تحت قيادة عزيز محمد ومن ساندوه وراهنوا على نهج التطور اللارأسمالي . والفرق بين النكستين هو ان هذه الاخيرة وقعت في ظروف متميزة بالنقاط التالية:

- ان الحزب كان جريحا وينزف الدم جراء النكسة السابقة ، وبالتالي كان ضعيف التحمل للمزيد من الضربات.
- ان الحزب كان قد انتقل ، من حيث نهجه السياسي ، الى صفوف معارضي السلطة ، وانه كان يملك قرابة (1500) مسلح وكان أمامه افق واضح للتطور والنمو واحراز النجاحات لاعادة بناء نفسه ، لو لم يقع في هذه النكسة الجديدة .

حاول كريم احمد ومن معه من اعضاء المكتب السياسي والمكتب العسكري المركزي القاء تبعة اخطائهم وهزائمهم على عاتقي بزعم انني لم اتحرك ولم ابادر الى مهاجمة قوات أ.و.ك ولم احاول اسنادهم فـ ثشتاشان . ذلكم كان جزءا من المبررات لهزيمتهم . واما السبب الآخر للهزيمة فانه كان يكمن ـ حسب التقييم الذي قدموه لاحداث المرحلة الاولى من معارك ثشتاشان ـ في عدم انتباه تلك القيادة الى ان قيادة برجوازية صغيرة ، كما هو شأن قيادة أ.و.ك ، يمكن ان تنقلب فجأة وعلى 180 درجة .
كان ايراد هذه (التفسيرات) لتبرير الهزيمة اشبه بتصرف النعامة حين تخفي راسها في الرمل لكي لاترى الخصم زعما بانه هو الاخر لايستطيع رؤيتها عند ذاك . ذلك لان المكتب السياسي كان يعرف جيدا ومسبقا بانني لست مع اقحام فدائيينا في هذا الاقتتال ولم اكن بالقائد الذي يخوض معركة انتحارية وهو يدرك انه يخسرها ـ كما فعل كريم احمد وبانيخيلاني . وفضلا عن ذلك فان الوسيلة الوحيدة لايصال مسلحينا من قاطعنا الى ثشتاشان كانت هي الطائرات العمودية.
لقد ادرك الجميع ، عدا بضعة حمقى من قيادتنا ، بان المكتب السياسي للحزب ارتكب خطأ جسيما ، بل حماقة لاتغتفر حين اقحم ح.ش.ع في هذا الاقتتال . واجاد الكادر الوسطي الشاب مصطفى غفور (من اهالي قلعة دزه) حين رد عمر الشيخ في اجتماع قاده هذا الاخير لبحث مأساة ثشتاشان ، ولتبرير موقف القيادة امام قاعدة الحزب . قال مصطفى مخاطبا عضو المكتب السياسي عمر الشيخ:

- لو قادنا مختار احدى القرى لكان اقدر وافضل منكم يا أبا فاروق.

****

قبل ان اسمع شيئا عن ماساة ثشتاشان كنت مع آمر احد بتليوناتنا حمه رشيد قرةداغي في قرب قرية دلوجة عندما وصلتنا برقية من مقر البتليون في قوثى قرةداغ مفادها ان مسلحي أ.و.ك قد نصبوا بالقرب من قرية مسويي كمينا لاحدى مفارزنا

الصغيرة ، المكونة من ستة فدائيين . لم يقع قبل ذلك أي قتال في قاطعنا بيننا وبين أ.و.ك . ولم تتجول مفرزتنا بحذر وخوف . ولهذا كان من السهل مباغتتها وضربها . وقد استشهد في هذا الهجوم اثنان من فدائيينا هما نجم محمد وكامل كانيساردي وجرح الاخرون واسروا باستثناء رؤوف الحاج محمد ـ المستشار السياسي للبتليون ـ الذي قاتل قتال الابطال ، وهو جريح في احدى يديه ، وافلت من قبضة المهاجمين ووصل الى مقر البتليون في قوثى ، حيث ارسلت لنا البرقية.
ترك هذا الحادث اثرا قويا فينا فجمعت حمه رشيد قره داغي ومن معنا من الكوادر وطلبت الرد بالمثل ونصب الكمين لاحدى مفارز أ.و.ك في المنطقة . وافق الاخرون وشكلنا مفرزة من فدائيي منطقة قره داغ بقيادة مجيد دوكاني وارسلناها فورا للرد في اي مكان مناسب . وبعد ثلاثة ايام عادت الينا المفرزة دون ان تقوم بعمل ما انتقامي . وقد اقتنعت مع نفسي بان حمه رشيد ومجيد دوكاني لم يكونا الى جانب الرد بالمثل. ولهذا السبب لم يكن هناك رد على العدوان.
وقد اتضح لاحقا ان مفرزة أ.و.ك لم تنفذ تلك العملية الاجرامية بأمر من قيادة قاطعها ، بل قامت بها بوحي من تةجيهات اذاعة أ.و.ك ، التي كانت تغذي روح الحقد باعنف مايكون ضد فدائيي الاطراف الاخرى ، بمن فيهم الشيوعيين ، وتدعو الى مهاجمتهم وابادتهم باي شكل كان . وقيل ان المبادر الى اقامة الكمين كان شابا طائشا متطبعا بروح القتل والاجرام ويدعي (محمود سنطاوي) . والاسوأ من كل ذلك ان مسؤولي أ.و.ك المحليين احتفظوا بجرحانا لديهم كاسرى حرب الى مدة غير قليلة .
ويجدر بالذكر اننا كنا قد ارسلنا تلك المفرزة الصغيرة بقيادة رؤوف للتجول بحثا عن العتاد وشرائه لنا . وكنا في وضع مالي سيء واضطررنا الى استدانة الفي دينار من نادر هورامي (الثارتي) قبيل الانسحاب من شهربازار . واصيبت مفرزتنا بهذه الكارثة قبل ان تفلح في شراء العتاد.
هنا اود العودة بكلمة الى مسؤولية هذه الماساة ، التي خدمت كثيرا النظام الدكتاتوري الفاشي . ودون ان اقلل من مسؤولية قيادات الاحزاب الاخرى ، بمن فيهم قيادة ح.ش.ع ، فانني القي المسؤولية الاولى على قيادة أ.و.ك التي كانت ترى في هذا الاقتتال وسيلة لفرض سلطانها على كردستان والانفراد بالسيطرة واحتكار كل شيء لنفسها . واظن ان عدد من قتلوا على ايدي مسلحي أ.و.ك من الاطراف الاخرى اكثر بكثير من قتلى أ.و.ك على ايدي مسلحي تلك الاطراف . وكان أسوأ تقليد همجي موروث من عهود التخل السحيقة ومستمر في عهد ثورة ايلول وكذلك في عهود أ.و.ك وغيره من الاحزاب الكردستانية ، هو قتل من يقعون في الاسر اثناء اقتتال الاخوة أو كتب لهم ان يعتقلوا حتى دون اقتتال . وقد ذهب ضحية هذا الاسلوب الهمجي حتى الفدائي الطاعن في السن (85 سنة) حمه آغا ميرطة سوري ـ الخال الحقيقي للبارزاني ـ مع ابناء واحفاد له عام 1975 اذ قتلوا وهم سجناء بامر من الملا مصطفى البارزاني نفسه ، وعلي العسكري وزملائه ، الذين اسروا ثم قتلوا عام 1978 وعلى أيدي القيادة المؤقتة ، والعديد من مسلحي الثارتي و ح.س.ك الذين قتلوا على ايدي مسلحي أ.و.ك في شهربازار ، في نيسان 1978 ، والعديد من الشيوعيين الذين أسرهم أ.و.ك بقيادة نوشيروان وقتلهم في ثشتاشان .. الخ . هذه مجرد نماذج من قتل الاسرى وصفحة من صفحات اقتتال الاخوة . اكتب هذه الحقائق المرة وآمل ان يكون ذلك مساهمة مني في رفع الوعي لدى الجميع الى درجة لايتكرر معها ماحدث بهذا الصدد .
****
غادرنا في عصر اليوم الثالث من آيار دلوجة نحو (استيل العليا) لنبيت فيها ليلة ثم نتوجه الى مسقط راسي قرية (تكية) ، التي اتخذنا منها مقرا مؤقتا لقيادة قاطعنا في بضعة ايام . وقيما كانت جهود ملا بختيار مستمرة للتفاهم ولاستبعاد القتال كان مسلحو أ.و.ك يقومون بالاستفزازات حوالينا ، فاقاموا مركز تحشد فوق الجبل الفاصل بين غرةداغ وطرميان ليشعلوا في الليالي نيرانا قوية مرئية من قريتنا . وقد جاءني الى (تكية) كادر من أ.و.ك يدعى (أنور) حاملا رسالة من قيادة قاطع أ.و.ك فأبلغته بان اقوالهم عن الرغبة في تجنب الاقتتال لاتنسجم مع اعمالهم ولايجمع جامع بين الحديث عن تجنب الصدام المسلح وبين نصب الكمين لمفرزتنا قرب قرية (مسويي) ، وذكرت له بانهم كانوا قادرين على اتخاذ اجراءات فورية وحازمة ضد القتلة المجرمين من مسلحيهم فيما لو جمعوا بين اقوالهم وبين أعمالهم . كما اخبرته بان سوء النية يتكشف في انهم اخذوا جرحانا المعتدى عليهم كاسرى ولم يتركوا لهم خيار العودة الينا.
وقف الفلاحون في قرى قره داغ ضد اقتتال الاخوة وكونوا وفدا كبيرا يمثل مختلف القرى لزيارتنا ولزيارة مقرات أ.و.ك (ولم يكن في المنطقة أي مقر ولا أي فدائي للجهات الاخرى آنئذ) ومناشدتنا كي نتلافى الاقتتال ونوجه بنادقنا الى قوات السلطة وليس الى صدور بعضنا البعض . تحدثت الى هؤلاء وأكدت موافقتنا لهم على رايهم وطلبت منهم ادانة مواقف أ.و.ك ، واشرت الى كمينهم لمفرزتنا كنموذج يكشف عن المعتدي الحقيقي ويثبت اننا نمارس حق الدفاع الشرعي عن النفس .
كانت آخر رسالة استلمتها في تكية من كادر محلي لـ أوك يدعى (حامد غالي) . كان يخاطبني وكأنه يريد الفصل بيني وبين الشيوعيين فأرسلت له جوابا خشنا لم يسمح له بتكرار مثل تلك اللهجة.
وردا على استيلاء مسلحي أوك على قطع من الاسلحة لدى بعض رفاقنا وأصدقائنا في القرى قمنا بالاستيلاء علمى أسلحة أناس محسوبة عليهم ، بما في ذلك بندقية زوج أختي الذي كان قد استلمها منهم في قرية بلكجار ، وصادرناها ضمن البنادق المصادرة .

كنا ، نحن وملا بختيار ، في موقف حرج اذ كان يصعب علينا وعليه أيضا التوفيق بين ما نحن مقتنعون به وما تريده القيادة . ولم نستبعد نحن احتمال الاقتتال في مثل هذه الاجواء . ولكننا لم نكن من الباحثين عن اي ذريعة لبدء الاقتتال . كان ابراهيم صوفي محمود ، المؤيد الوحيد لاقحامنا في الاقتتال ، موجودا آنئذ في مقرنا الخلفي بجبال هورامان ، ولم يكن بين مسؤولي وكوادر القاطع ، ونحن في تكية ، ولا صوت واحد مطالب بالاقتتال . كنا ندرك بان الاقتتال لن يحل النزاع ولن يمكن أي طرف من التغلب وازاحة الطرف الاخر عن الميدان ازاحة نهائية . وبالتالي لامناص من العودة ، عاجلا أم آجلا ، الى المفاوضات وطريق التفاهم السلمي لحل النزاع .

بعد مداولات واجتماعات بين كوادرنا العسكرية والحزبية اتفقنا على مغادرة تكية والانتقال الى قرى باوةخوشين وامام قادر وحواليهما . ارتحلنا في الليل لتلافي مشاكل غير متوقعة قد تنجم عن تصرفات بعض الشبان الطائشين . وفيما كنا نتابع مسيرة اعتيادية جاءني احدهم وقال:

 العم عزيز الاعزج متعب وعاجز عن السير على هذه الشاكلة ، ويطلب الرفاق الابطاء في المسير لكي يستطيع المواكبة.

هل من المعقول أن يبطئ المئات من وتيرة السير الاعتيادية أو الضرورية من أجل شخص واحد أعرج وغير قادر على مواكبتهم ؟ ـ فكرت مع نفسي . كم حاولت والححت على اخراج بعض الشيوخ والعجزة من صوف تشكيلاتنا الفدائية ـ العسكرية وتدبير أمر اقامتهم بشكل ما مع استمرار مساعدتهم ماديا والاستفادة منهم بشكل آخر . لكن زملائي كانوا يرفضون ذلك بحجة ان هؤلاء مناضلون شيوعيون لا يصح اهمالهم . والان يصبح احد هؤلاء ـ وهم قلة ـ عبئا على الجميع . فاصدرت الامر ، وسط احتجاجات البعض من رفاقي:

 خذوا منه البندقية وليتأخر هنا تحت أحد الكهوف ويتابع السير نهار الغد الى قرية (ديوانة) حيث يستقر البعض من مسلحينا غدا.

اتخذنا من قرية امام قادر ، على بعد بضعة عشر كيلومترا من مدينة دربنديخان ، مقرا لقيادة القاطع ووزعنا قواتنا في القرى المحيطة بنا وأقمنا نقاط حراسة في قمم الجبال الواقعة خلفنا . لم نفكر بالطبع في البقاء الدائم بهذه القرى ، بل كنا نفكر في مكان تكون له قاعدة خلفية أمينة للانسحاب اليها عند الحاجة . ولم يكن بمستطاعنا العثور على مثل هذا المكان في قره داغ ولا في أية بقعة من قاطعنا سوى شهرزور ، حيث كان متصلا بقاعدة خلفية أمينة وموجودة فعلا في جبال هورامان الملاصقة لشهرزور والفاصلة بين العراق ايران.

في مساء التاسع من أيار 1983 ، وبعد انقطاع دام عشرة أيام ، أرسل لنا ابراهيم صوفي محمود من جبال هورامان أول برقية واردة ـ عبر جهاز الثارتي ـ من المكتب السياسي (حيث لم يبق أي جهاز للارسال لدي قيادتنا بعد احداث ثشتاشان). كنت متلهفا الى معرفة أي خبر عن وضع المكتب السياسي . فقرأت البرقية وأعدت قراءتها بعناية . لم تتضمن البرقية أي شئ عن وضع المكتب السياسي ، ولم تعبر في شئ عن رأي القائم بأعمال السكرتير كريم أحمد ، الذي كان قد وقع في اسر أوك قبلئذ . كان هناك توجيه لنا منسجم مع تقديراتنا وتوجهنا العملي وغير منسجم بالمرة مع توجيهات المكتب السياسي المتكررة السابقة لاحداث ثشتاشان . وخلاصته:

))تجنبوا المعارك غير المتكافئة وانسحبوا الى مكان أمين((

لعل هذه البرقية قد كتبت في لحظات صحو لدى من بقي من المكتب السياسي ، الذين دفعتهم الهزيمة الى داخل الحدود الايرانية عبر قنديل.

****

خلال انقطاع صلتنا مع المكتب السياسي كان علينا البحث عما يكسب لنا الوقت ريثما تتوضح لنا الأمور بشكل أفضل . وبادرت شخصيا الى تقديم اقتراح يتيح لنا فرصة المناورة وكسب الوقت ، مع استبعاد أو ـ على الاقل ـ تأجيل أي صدام مسلح بين قواتنا وقوات أوك . وكانت قيادة قاطع أوك تلح علينا في هذا الوقت كي نلتقي ونتفاهم حول تجنب القتال . وخلاصة الفكرة التي قدمتها لكوادر قاطعنا هي : أن نستجيب لطلب جماعة أوك باللقاء والتفاوض ونقترح نحن ما يلي:

1. تقسيم القاطع تقسيما موقتا الى منطقتين ترابط قوات كل جهة في احداها ، بدءا من كفري وطرميان ومرورا بقرةداغ ةشهرزور الى شهربازار ـ وتكون قواتنا في المنطقة الشرقية منها.

2. يمتنع كل جانب عن التعرض المسلح للجانب الاخر ويعتمد اسلوب المداولات لايجاد حل للمشاكل.

حظي هذا الاقتراح بتأييد كوادرنا الحزبية والعسكرية كلهم . وابلغ ممثلو أوك باستعداد ممثلينا للقاء معهم . وعينا من جانبنا الوفد المفاوض من ثلاثة اشخاص هم مسؤول قاطعنا العسكري ملا علي وممثلنا في العلاقات سعيد البرزنجي وآمر فوجنا التاسع نصرالدين هورامي. وكانت برقية المكتب السياسي المشار اليها آنفا عامل تشجيع لي كي أسير في هذا الخط . وتقرر لقاء وعدنا مع وفد أوك بقرية ديوانة في العاشر من أيار 1983.

وخشية من يخطأ وفدنا سهوا او عن عمد في تنفيذ التوجيه المعطى الى اعضائه كتبت في وريقة النقاط التي يمكن التفاوض بشأنها ومحاولة الاتفاق عليها ، مع التأكيد على ارجاء الاتفاق على أي مسألة اخرى يمكن أن يقدمها الطرف الاخر لحين الاتصال معنا والتداول في المستجدات . سلمت هذه الوريقة الى رئيس الوفد ملا علي وتوجه الوفد صبيحة العاشر من ايار الى

قرية ديوانية . كان اختيار المكان للقاء الوفدين غير موفق لأن عائلة طوران (نجم) ، الفدائي الشيوعي الذي كان قد قتل على أيدي مسلحي أوك قبل اسبوع ، كانت مقيمة في تلك القرية.
خرج وفدنا من القرية باتفاق مغاير تماما لذلك الاتفاق الذي أردته أنا . فقد استهدفت من جانبي عقد هدنة مشرفة وحسب . لكن ملا علي وقع اتفاقية تعاون استفزازية مثيرة وغير مقبولة باي حال لفدائيينا اذ وافق على ادخال نقطتين أخريين من قبل ممثلي أوك الى ما اقترحنا نحن ، وهما:

1. قيام مسلحي الطرفين بجولات مشتركة في القرى.
2. الاقرار بأن لـ أوك الحق في ضرب مسلحينا متى ما وجدهم مع مسلحي سائر اطراف جود.

لم يكن هذا الاتفاق مجرد استفزاز عنيف لفدائيننا بدعوتهم الى الجولات المشتركة مع فدائيي أوك قبل أن تجف دماء شهدائنا في ثشتاشان وقرةداغ بل كان معناه شد ح.ش.ع (أو قاطعنا) الى ذيل أوك وتخويل الاخير بأن يحدد لنا الحليف والعدو . ورغم أن ملا علي كان يتحمل المسؤولية الاولى من ابرام مثل هذا الاتفاق ، فان سعيد البرزنجي ونصرالدين هورامي كانا يتحملان قسطهما من المسؤولية.
سمعت بنود هذا الاتفاق من جهاز اللاسلكي التابع لقاطع أوك ، وهو يرسلها الى قيادته ، قبل ان يعود وفدنا . وقد استفزني اشد ما يكون الاستفزاز . وطلبت عودة ملا علي فورا الى مقرنا في امام قادر ولكنه تماطل وبقي في تلك الليلة بعيدا عني لأنه كان يعرف جسامة الخطأ الذي ارتكبه ويتوقع مني الغضب الشديد والانفجار عند اللقاء . وقد حلفت ، على اثر ما حدث ، بألا أعمل طيلة حياتي مع ملا علي ضمن هيأة واحدة . وبادرت في الوقت نفسه الى:

1. تعميم رسالة مني ، بوصفي مسؤول القاطع ، على جميع لجاننا الحزبية والعسكرية استنكرت فيها صيغة الاتفاق المبرم ورفضته وأوضحت انه لم يكن ما أردناه نحن ولن نلتزم به من جانبنا.
2. اتصلت لاسلكيا بقاطع أوك وبينت رفضنا لأي التزام بهذا الاتفاق . في الوقت نفسه رتبت لقاءا لي مع مسؤول قاطع أوك في المنطقة محمد فرج والتقيت به فعلا في 1983/5/12 ، بقرية (دوكان) . كان هدفي سحب النسخة الموقعة من ممثلينا من الاتفاقية قبل أن ترسل الى قيادة أوك وتعمم .غير أنني لم أتوفق فيما اردت اذ أرسلت وعممت قبل ذلك.

لقد كان ملا علي وسعيد البرزنجي ونصرالدين شيوعيين ذوي تاريخ نضالي مجيد في الماضي وقدموا الكثير من التضحيات في سبيل مثلهم طوال اكثر من ربع قرن . غير أن تاثير تربية القيدة في سني التحالف الذيلي مع البعث ، من جهة ، وضعف الثقة بقيادة ح.ش.ع وما تبعه من البلبلة الفكرية ، من جهة أخرى ، والسذاجة السياسية ، من جهة ثالثة ـ كل هذه جعلت اعضاء وفدنا يتصرفون على هذه الشاكلة ، وكأن علينا نحن الشيوعيين أن نكون على الدوام غير مستقلين ، ذيلا للسلطة أو لأحدى الجهات الاخرى . والجانب السئ الاخر في ابرام الاتفاق هو أن أعضاء وفدنا ، وفي مقدمتهم ملا علي ، لم يلتزموا بالضبط الحزبي ـ العسكري ولم يرجعوا الى قصاصة الورقة الموجودة لديهم والحاوية على توجيهات تحريرية واضحة لهم.
ثار غضب غالبية فدائيينا على الاتفاق وعلى ملا علي و على قيادة القاطع معا وصمم البعض على ترك صفوفنا احتجاجا على هذه التبعية وهمهم البعض حول اجراء تأديبي ضدنا . وهكذا فان الاتفاق ، الذي اريد منه أن يكون عونا لنا وسبيلا للمناورة وكسب الوقت ، قد تحول الى فرعون علينا وحمل لنا تعقيدات جدية كنا في غنى عنها . ورغم الانتقادات المتكررة لملا علي فانني لم أسمع منه كلمة نقد ذاتي واحدة ولا أي تخطأة لهذه الاتفاقية ، التي أصبحت نقطة الضعف الرئيسية ، ان لم أقل الوحيدة ، في خط سير قاطعنا طيلة تلك الازمة . واستغل المكتب السياسي هذا الحدث في محاولة لتبرير أخطائه الفادحة ولالقاء مسؤولية هزائمه على قيادة قاطعنا وعلي شخصيا ، وجعل من الاتفاق موضوع النقاش والتشهير بي شخصيا في اللقاءات والاجتماعات الحزبية.
****
كنت في قرةداغ يوم سمعت تصريحات وبيانات كريم أحمد من محطة اذاعة أوك بعد وقوعه في أسرهم . لاحظت ان كريم كان قد انقلب في هذه التصريحات ـ مقارنة بموقفه قبل أحداث ثشتاشان ـ على 180 درجة . كما لاحظت انه كان يتكلم من الاذاعة وكأنه لايزال المسؤول الذي كان قبل أسره . وبعد أيام ثلاث أو أربعة من نشر تصريحاته هذه حمل الي أحدهم رسالة عن طريق أوك وقرأتها فوجدت أنها من كريم نفسه وأنه يحثني على تبني موقفه الجديد ، الذي تبناه على أثر أسره وانهياره . عرضت الرسالة على عدد من مسؤولي وكوادر القاطع ولم أجب عليها . الح جماعة أوك على أن أرسل له جوابا ما . فقلت لأحدهم ما يلي : ((لا أجيب على رسالته ولا أقيم اعتبارا لآرائه لأنه الآن في الاسر وأنظر الى ما يقوله فقط كقول رجل أسير)) . في وقت لاحق أرسلت نص الرسالة الى المكتب السياسي ، بعد أن استنسخت عليها نسخة طبق الاصل للاحتفاظ بها . ولم أعلم الا بعد حوالي الشهرين بان ما كان ينشره من اذاعة أوك عبر عن رأيه ورأي أحمد بانيخيلاني معا.
****
حددنا موعد الانتقال الى شهرزور ، حيث تكون قواعدنا الخليفة في جبال هورامان خط الانسحاب المأمون عند الضرورة ، بعكس ما كان الوضع في قرةداغ حيث لم يكن هناك مكان أمين ننسحب اليه في حالة خسران المعركة مع أوك . وقبل تحرك القوة أرسلنا مفقرزة استطلاع الى هناك ، كما أرسلنا رسائل الى مسؤول ح س ك محمد الحاج محمود والى المسؤول المحلي

للثارتي هناك طالبين منهما التعاون والتنسيق في العمل للاستيلاء على منطقة شهرزور والحفاظ عليها . أتانا الجواب بالايجاب .
وباقتراح مني قررت قيادة قاطعنا ألا نخلي قرةداغ وطرميان بصورة كلية ، بل نشكل مفارز سرية صغيرة من أفضل مقاتلينا لتبقى في حالة الاختفاء داخل المنطقة ، مع ابقاء أجهزة اللاسلكي عندها وتحديد الشفرة السرية . وقد أخترنا شبانا شجعانا لكلتا المفرزتين واجتمعنا بهم لبحث المهام وأسليب الاختفاء والتحرك والصلات السياسية مع الجماهير في القرى وغير ذلك.
عبرنا تحت جنح الظلام جبل ناوتاق ، مغادرين قرةداغ ومتجهين الى شهرزور ، لنستقر في اليوم التالي بقرى عازبان وأحمد برنه وحواليهما. ومما دفعنا الى التعجيل برحيلنا هو أن معلومات شبه موثوقة وصلتنا الى مقرنا (وكانت لنا صلات يومية مع رفاقنا في مدينة دربنديخان القريبة) بقرية امام قادر تشير الى مساعي النظام الهادفة الى اثارة القتال بيننا وبين أوك ، عن طريق الجحوش ، ومن ثم المبادرة الفورية الى استثمار ذلك لصالحه هو . مع تقدمنا من الشمال نحو شهرزور تقدمت مفارز ح س ك والثارتي من الجنوب واصبح شرقي شارع عربت ـ دربنديخان تحت سيطرتنا من دون القتال اذ انسحب مسؤول مسلحي أوك هناك شوكت حاج مشير متجنبا الصدام . واصبحت أطراف جود الثلاثة هي الجهة الحاكمة في قرى شهرزور .
كانت هذه القرى من أغنى مناطق محافظة السليمانية . وكانت قريبة من مدن السليمانية وحلبجة ودربنديخان وسيد صادق والمجمعات السكنية القسرية في سهل شهرزور . كانت منطقة جيدة لنا وكان رفاقنا واصدقاؤنا وذوونا جميعا قادرين على زيارتنا متى شاؤوا . وكانت الزيارات كثيرة ويأتي الزوار بالطعام الجاهز وبالثياب والاخبار.. وفي نفس الوقت كان المكتب السياسي للحزب وبقايا التشكيلات الفدائية الشيوعية ، التي تمكنت من الافلات في قاطع أربيل وفي ثشتاشان ، متمركزة داخل ايران وتحت رحمة السلطة الحاكمة هناك وفي أسوأ وضع نفسي ومعيشي .
تجولت لأول مرة في قرى شهرزور ، وبعضها تحمل أسماء سريانية (مثل بيسلمين ودق وقليجه وربما عازبان ايضا ..الخ.) ، والتقيت هناك مع شاب مربوع أو سمين يحمل في بده عصى ويحمل له أحد فدائييه سلاحه ويحظى باحترام وثقة كبيرين بين أتباعه ، الذين كانوا يخوضون المعارك بمزيد من الجرأة حين يكون معهم ـ محمد الحاج محمود ، الاقرب بطبيعته وسلوكه الى سياسي عشائري منه الى سياسي حزبي . تجولنا سوية في قرى شهرزور لأسابيع وتعززت اواصر الصداقة بيننا . واما مفرزة الثارتي ، التي نزلت أول الأمر الى شهرزور ، وكانت حوالي أربعين فدائيا ، فانها لم تلبث أن انسحبت شطر قواعدها في جبل هورامان ولم أرلها وجوادا في السهل بعدئذ . وقيل انهم نقلوا الى أماكن أخرى خارج قاطعنا .
انتقلت من شهرزور الى المناطق الجبلية التي كانت لنا فيها قواعد ، أو أردنا انشاء قواعد ـ وهي سورين وكرجال وخورنوزان . كانت مناطق حصينة نسبيا . ولكننا كنا نعاني في أغلب الاحيان من شحة المياه اللازمة للشرب والطبخ والغسيل . تشكل هذه المنطقة جزءا من خط يمر عبر كردستان الى دجلة ، وربما الى البحر الابيض المتوسط ، تشح فيه الينابيع الصغيرة وتوجد المنابع الكبيرة التي تشكل أنهاراً ، مثل نبع (زلم) و (سراو) و (سرضنار) و (سروضاوة) .. الخ .
وكان مقرنا في سورين (هزار أستون) من غرائب الطبيعة اذ فيه كهوف عالية بداخلها وأمامها اعمدة عالية صنعها ترسب الاملاح عبر العصور.
في سورين أصيب عضو لجنة اقليم كردستان سيد توفيق بجلطة قلبية أنهت حياته ، رغم مساعي طبيبنا د.دلشاد لانقاذه . وكان توفيق كادرا فلاحيا محترفا منذ سنوات.
وكانت قاعدتنا في كرجال بجانب قاعدة للثارتي ، في أعلي منبع (زلم) بساتين (أحمد آوا) . وكانت الربايا العسكرية الحكومية قريبة منا من جانبين . وكنا تحت رحمة مدافعها بمجرد أن نصبح خارج الكهوف والمخابئ . غير أننا كنا نستطيع ايضا الازعاج والحاق الاذى بالجنود في تلك الربايا أو البعض منها . ولهذا كان يسود ، في بعض الاحيان ، نوع من الهدنة بيننا وبينهم . وكان الوضع يتغير الى حد في أحيان أخرى . ولولا اصراري على الانسحاب 3 ـ 4 أمتار الى داخل المطبخ ، عند تناول الغداء في أحد الايام ، لكنت ضمن ضحايا قذيفة المدفع ، التي سقطت على بعد أمتار منا . وقد استشهد جراء هذه القذيفة الفدائي الشاب كامران مع عامل فني من المانيا الغربية ، فيما جرح زميله المهندس الميكانيكي الالماني . وكان هذان الالمانيان قد احتجزا من قبل احدى مفارزنا في قرةداغ وجلبا الى مقر القاطع في حاجي مامند ثم نقلا الى كرجال اثر حادث ثشتاشان .
وجاءنا ذات يوم رجل مرسل من السلطة يسأل عن شروطنا لأخلاء سبيلهما . فاجبت:
- نريد مبادلتهما بالسجناء الشيوعيين . نطلق سراحهما لقاء اطلاق سراح أربعة سجناء لدى السلطة ـ قدمت اسماءهم.
ذهب الرجل المرسل ولم يأت بعد أبدا ، الى أن تدخل الرئيس السوري حافظ الاسد ، وطلب اطلاق سراحهما . فجاءنا امر من المكتب السياسي باخلاء سبيلهما . وكان من المقرر أن ينقلا في اليوم التالي الى حيث يسلمان الى السلطات العراقية . لكن قذيفة المدفع ، التي أطلقتها قوات النظام العراقي ، انهت حياة أحدهما وجرحت الاخير .
هنا لابد من الاشارة الى أن البعض من جماعة أوك كانوا يخططون ـ حين كنا في حاجي مامند ـ لسرقة هذين الالمانيين بهدف بيعهما الى الحكومة الالمانية ، أي كسلعة للمتاجرة.
عاش هذان الالمانيان بيننا عيشة غريبة عليهما ورأيا القمل ، لأول مرة في حياتهما ، وتعودا على الاكل والشرب والنوم مثلنا . كانا ياكلان احيانا بين الصخور فيتخذان من احداها منضدة يضعان فوقها الطعام ويجلسان على صخرتين متقابلين . وكانا يضرطان دون حرج ، فيما يقهقه فدائيونا حواليهما كأن شيأ عجيبا قد حدث.

أوصينا مرة بشراء قنينة ويسكي ولحم وفواكه لهذين الالمانيين وأخذهما الى منبع (زلم) ليقضيا ساعات ويشربا ويأكلا . اعجبهما المنبع الجميل ، الذي صنعت الطبيعة هناك . وقال أحدهما بعد أن عادا الى المقر:

 لو كنت كرديا لقاتلت عشرين عاما من أجل وطني الجميل هذا.

****

كان علينا شراء المؤن من قرية (أحمد آوا) في سفح الجبل ونقلها على ظهور الدواب . وقد حاول فدائيونا مرة الحصول على بعض الدواب ولم يعطهم أحد اياها . فجلبوا رجلا من القرية لغرض التهديد . وفور بدء التحقيق اعترف بأن حليفنا المسؤول في لجنة الثارتي (وأظنه يدعى ملا عارف) طلب من جميع أهالي القرية عدم تقديم الحيوانات للشيوعيين وهدد كل من يقدم لهم حيوانا . فما الذي تنظره من حليف لك في جود وهو يتصرف تجاهك على هذه الشاكلة ؟

السلطة لم تميز بيننا وبين الثارتيين أثناء القصف المدفعي المتواصل ، بعكس البعض من الثارتيين الذين كانوا يعادون الشيوعية حتى حين كنا في جبهة موحدة . وقد سقطت قذيفة مدفع للعدو على مشجب الثارتي وأخذت الانفجارات تتوالي فيه طيلة ساعات متعاقبة . ورأيت فدائيا حاول اطفاء الحريق في المشجب بصب قدر من الماء . فانفجرت في تلك اللحظة احدى القذائف ورفعته امتارا عن الارض ليسقط شهيدا ممرودا . ولم يكن بمستطاع احد أن يقترب من جثته الا بعد اكثر من ساعات .

****

قبل مغادرتنا لقرةداغ كنا قد اسرنا ثلاثة من كوادر أوك . أطلقنا سراح احدهم في صفقة صغيرة وأخذنا معنا اثنين نحو جبال هورامان . في الليل هرب احدهما من فدائي حارس يدعى حمه سعيد قرةداغي . وأخذ الثالث ـ ويدعى جعفر عبداللة ـ الى سجن ح س ك مؤقتا لأننا لم نملك سجنا آنئذ . وبعد أيام قتل أحد الاسرى لدى ح س ك ، وكان من منتسبي أوك ويدعى سردار . قيل انه حاول الهرب فقتل . وهرع الي أكثر من شخص من الهوراميين بينهم من منتسبي ح س ك ، راجين نقل السجين جعفر عبداللة الينا قبل ان يقتل هو الاخر هناك . فاستجبت وأرسلت رسالة ومفرزة صغيرة وجلب الاسير الينا . أتانا أخوه وقدم لنا عشرين ألف دينار ثمنا لاخلاء سبيله ورفضت بحزم . وطلبت اطلاق سراح اربعة فدائيين شيوعيين من أسرانا لدى أوك كشرط لاطلاق سراحه . وبعد أيام قدم لنا الدليل المادي على أن أوك حرر هؤلاء الاربعة فحررنا بدورنا جعفر.

***** ***

على أثر توقيع ممثلينا لاتفاق ديوانه ذكرت اذاعة أوك ـ التي كانت تشن حملة شعواء على ح . ش .ع ـ بأن قاطع السليمانية للحزب الشيوعي انشق عنه ورفض مقاتلة قوات أوك . ورغم اننا كنا ضد الاقتتال فعلا ، الا اننا لم نرد أن يتصور الاخرون كما لو كنا مشقين . ولهذا بادرنا الى اصدار بيان سياسي باسم القاطع اكدنا فيه لأننا جزء لن يتجزأ من ح ش ع وأدنا بقوة سلوك وتصرفات أوك والاخطاء السابقة لقادته ، وطموحاتهم غير المشروعة . النقطة الوحيدة التي شذذنا فيها عن نهج البيانات المركزية هي اننا سمينا الاحداث الماساوية الجارية بأسمها الحقيقي ((اقتتال الاخوة)) . وقد اذاعت محطة الثارتي مقططفات اضافية من بياننا أكثر من مرة . كما أذعناها بأنفسنا من جهازنا رقم (9) ، الذي جعلنا منه محطة للاذاعة خلال يومين . ووصلت نسخ منه الى أعضاء المكتب السياسي فادانوه جميعا لسبب واحد : لأنه سمى الاحداث باقتتال الاخوة . وكانت قيادتنا آنئذ تعتبر أوك مجرما وخائنا للشعب والوطن، وتشترط لأي مصالحة ان تقر قيادة أوك بذنبها وتدين أعمالها . وبعد سنوات أربع من ذلك تهالكت قيادة ح ش ع على المصالحة غير المشروطة وعادت لتعترف بأن ما جرى كان اقتتال الاخوة ثم تحالفت مع أوك على أسس حددها الاخير.

***** ***

وصلنا ذات يوم وبصورة غير متوقعة أحمد بانيخيلاني حاملا رسالة من المكتب السياسي الينا لكي نضمه الى هيأة القاطع ونستفيد منه في عملنا . وبعيد مجيئه انفرد بنصرالدين هورامي وقال له ـ كما حدثني الاخير:

 اني فقدت شرفي وكرامتي هناك وجئت كي تساعدوني واسترجعهما هنا عندكم.

كان يقصد بذلك ما نجم عن موقفه المتخاذل اثر القبض عليه من قبل مسلحي أوك عقب أحداث ثشتاشان ، حيث أثيرت ضجة كبرى بين الفدائيين ضده وضد كريم أحمد مطالبة بمحاسبتهما ومعاقبتهما . ومن المؤكد ان السخط عليه لم يكن قليلا بين فدائيي قاطعنا أيضا . لكن كان لدرجة أقل بالمقارنة مع من كانوا حوالي المكتب السياسي والمكتب العسكري ورأوا عن قرب بعض الاحداث.

في الوقت نفسه كان الوضع في قاطعنا متأزما ، بصرف النظر عن مجئ أو عدم مجئ بانيخيلاني . فالنكسة الجديدة ، التي لحقت بالحزب ، نشرت البلبلة الفكرية الواسعة وأضعفت الثقة بالقيادة عامة ، بما في ذلك قيادة قاطعنا . والمأزق الذي وقع فيه قاطعنا ـ شان كل الحزب ـ كان شديدا وبحاجة ماسة الى البحث عن علاج له . عقدت مع هيئة القاطع ولجنته الحزبية ثم مع كوادرنا عامة سلسلة اجتماعات لمناقشة الوضع المستجد وللبحث عن حلول للمشاكل المستعصية وقد وافق الكادر بصورة شبه جماعية على الاقتراح التالي ، الذي كنت قد قدمته كسبيل للمعالجة:.

 اعادة بناء كافة لجاننا الحزبية والعسكرية عن طريق الانتخابات وبالاقتراع السري ، آخذين بنظر الاعتبار فقدان ثقة الفدائيين بقادتهم ، بمن في ذلك نحن واشاعة البلبلة والتسيب وضياع الضبط الحزبي والعسكري ، على ان يبدأ الانتخاب من

الفصيل حيث ينتخب الفدائييون آمر فصيلهم وينتخب الشيوعيون فيه منظمهم الحزبي الذي يكون مستشارا سياسيا للفصيل . ويجري نفس الشئ في السرية ثم الفوج . ثم يجتمع جميع المنتخبين الحزبيين والعسكريين في كونفرنس طارئ للقاطع ، ويكون جدول العمل المطروح امامه على الوجه التالي:

1. تقييم مسيرة القاكع ونشاطه منذ نشوءه في أواخر 1982 ، وخصوصا خلال الاشهر التي تخللها اقتتال الاخوة.
2. رسم الخط العام للفترة اللاحقة.
3. انتخاب هيئة القاطع من قبل الكونفرنس بالاقتراع السري ، وانتخاب اللجنة الحزبية للقاطع في جلسة خاصة بجميع الشيوعيين في الكونفرنس.

كان المعارض الوحيد للانتخاب ، حزبيا كان او عسكريا ، هو ابراهيم صوفي محمود ـ وربما سبب معارضته هو خوفه من ان لا ينتخب للهياة . وعارض ملا علي الانتخابات العسكرية بذريعة ألا سابقة لها ، فيما أيد الانتخابات الحزبية.
كتبنا الى المكتب السياسي عن قرارنا بالانتخاب كسبيل لمعالجة المشاكل ولاستعادة الثقة ـ وكان بانيخيلاني من مؤيدي الانتخابات ، على الاقل من الناحية الظاهرية . لم نتلق جوابا من القيادة . كنت اعرف انهم غير مرتاحين في القيادة ، ولكنهم لم يجرأوا على ابداء معارضة مكشوفة . فاعتبرنا السكوت دلالة الرضا وقررنا البدء بالانتخابات ابتداءا بالفوج السابع في هورامان ثم في فوجينا الاخرين المرابطين في شهرزور لحماية منطقتنا من أ.و.ك .
جرت الانتخابات في فصيل المقر ـ القاطع ـ وفي الفوج السابع . رشحنا الفدائيين الشوعيين علي كلاشنكوف وعبداللة مامة آمرا للفوج ومساعدا للامر ورشحنا يوسف ، الشيوعي العربي من بغداد ، مستشارا للفوج . ورشحنا أناسا للسرايا والفصائل . وشجعنا الآحرين جميعا على ترشيح انفسهم أو من يريدون لحوض منافسة انتخابية حقيقية حرة . ورشح الفدائي توفيق حاجي نفسه لمنصب آمر الفوج و وجد من رشحوا انفسهم لشتى المناصب الحزبية والعسكرية . ودبت الحيوية في الانتخابات ، الأولى من نوعها من تاريخ التشكيلات الشيوعية المسلحة بكردستان . واقتنع الجميع بانها انتخابات حقيقة حرة . بعد التصويت في كل جلسة كنا نترك للمجتمعين انفسهم اختيار اشخاص ثلاثة من بينهم لفرز الاصوات ثم لحرق الاوراق كي يطمئن الجميع الى ان احدا لن يتعرض مستقبلا للضغوط والملاحقات بسبب تصويته لهذا المرشح أو ذاك . وكانت النتيجة فوز جميع من رشحناهم باغلبية ساحقة ، باستثناء احد امراء السرايا الثلاث و أحد مستشاري الفصائل . وقد اقتنعت بعد ئذ بأن الشابين الذين انتخبا خارج مرشحينا ـ وهما شاب عربي من الناصرية وآخر كردي من السليمانية ـ كانا أفضل من مرشحينا الفاشلين في الانتخابات.

22
اقالتنا أنا وملا علي عن هيأة القاطع
وتعيين بانيخيلاني مسؤولا

بعثت هذه الانتخابات قدرا من الثقة والحيوية بين فدائيي الفوج السابع . واتضح منها أن الفدائيين يمتثلون لأوامر القيادة المنتخبة من قبلهم بشكل افضل . واتفقنا على ان نذهب ، أنا وبانيخيلاني ، الى شهرزور للاشراف على الانتخابات في فوجينا التاسع والخامس عشر ايضا ، الموجودين في الجبهة الامامية . ووجدت بين الفدائيين ترحيبا حارا بالانتخابات كطريق الى اعادة بناء تنظيمهم في وقت لم تكن لديهم الثقة بآمري الفوجين نصرالدين هورامي وبالأخص حمه رشيد قرةداغي . واجتمعنا صبيحة 13 آب 1983 بمسؤولي احد الفوجين واتفقنا على اجراء الانتخابات فيه يوم 8/14 . وفيما كنا نتداول مع هذا وذاك بقرية كاني بردينه لتشخيص أفضل من يمكن ترشيحهم من الفدائيين جاءت المفاجأة : ففي عصر 8/13 أرسل ابراهيم صوفي برقية مذيلة بتوقيع المكتب السياسي ملخصها ما يلي : الغاء الانتخابات + اقالتي أنا وملا علي من هيأة القاطع + تعيين أحمد بانيخيلاني مسؤولا عن القاطع.
كان هذا القرار صفحة أخرى من البيروقراطية والآمرية ، التي دأب عليها المكتب السياسيليضع نفسه على الدوام فوق الحزب وفوق المبادئ . فنحن ـ أنا وملا علي ـ اللذين بقينا مع الفدائيين داخل الوطن في ظروف المحن والصعاب ، واحتفظانا لأنفسنا بمنطقة شهرزور وابقينا راية ح ش ع عاليافيها ، نزاح الان من هياة القاطع لا لأي سبب سوى معارضتنا للنهج السياسي الخاطئ . في حين يعين بانيخيلاني مسؤولا للقاطع دون التفات الى أنه كان قد أنهار بالامس القريب عند وقوعه في أسر أوك وفقد ثقة الفدائيين ، وجاء الى قاطعنا هربا منهم ولكي يسترجع شرفه وكرامته ـ على حد تعبيره . ومن المؤكد ان بانيخيلاني نفسه كان يرفض المسؤولية بحزم فيما لو كان انسانا اكثر فهما واستقامة وتمسكا بالقيم والمبادئ ، آخذا بنظر الاعتبار انه غير مقبول من جمهرة الفدائيين . الا أنه قبلها فرحا وكأنه قد حقق نصرا مبينا . واكتفيت أنا بابداء اسفي وعدم رفضي لقرارات المكتب السياسي وتوقع نتائج سيئة . عدنا بعدئذ الى مقر كرجال .
حاول بانيخيلاني كثيرا اقناعي بالعمل عضوا في هيأة القاطع ، تحت قيادته وابلغته برفضي القاطع لية مسؤولية حزبية أو عسكرية لحين اجتماع اللجنة المركزية ومناقشة ما حدث . وارسلت برقية الى المكتب السياسي ـ كان مقره في لولان بعد ان عاد من ايران ـ مطالبا باللقاء . جاء الجواب بالموافقة . وفي ايلول 1983 سافرت بصحبة ملا علي عبر الاراضي الايرانية وبورقة من الثارتي . في الطريق الى لولان شاهدت ، للمرة الثانية ، بلدة شنو وصعدنا بالسيارة الجبل العملاق الذي يشكل

امتدادا لقنديل وتفرجت على (كيله شين) النصب الاثري الكبير الذي وضع هناك قبل أكثر من الفي سنة ليكون نقطة الحدود بين الدولتين الساسانية والاشورية . وبدلا من حماية هذا الاثر الهام، وخصوصا ما كتب عليه نحتا ، اطلق عليه المسلحون الاكراد مئات والوف الطلقات من بنادقهم لا لسبب سوى الجهل والتخلف.
حين وصلنا الى مقر المكتب السياسي (وكان مقر اذاعتنا واعلامنا المركزي ايضا) كان عمر الشيخ هو القائم بأعمال السكرتير في غياب عزيز محمد ، الذي اعتاد أن يكون بعيدا عن الحزب والوطن في أوقات المحن والشدائد . وفي وقت كان كريم أحمد قد ابعد مؤقتا عن منصب القائم بالاعمال على أثر موقفه في أحداث ثشتاشان . وقد وجهت اللوم الى عمر الشيخ على قبوله لهذه المسؤولية فزعم انه أحرج دون رغبة منه وأنه قبلها لحين عودة السكرتير.
عقدت جلسات استمرت يومين كاملين ، شاركنا فيها أنا وملا علي من جهة وعمر الشيخ وباقر ابراهيم وابو عامل (سليمان اسطيفان) وعدنان عباس الذي كان مستشارا سياسيا لقاطعنا حتى نهاية نيسان 1983 ، من جهة أخرى . وقد لاحظت أن عدنان ، الذي سحب من قاطعنا بسبب اخفاقه في العمل كمنظم حزبي للفدائيين وكمستشار سياسي للقاطع ، كان قد عين في لولان منظما حزبيا لجميع التشكيلات الفدائية في كردستان ، او في جميع القواطع . في النقاشات ، وموضوعها الرئيسي احداث ثشتاشان وما يتعلق بها من احداث في قاطعنا ، كان لي وملا علي ولعدنان رأي موحد بقدر ما يتعلق الامر بموقف قاطع السليمانية وكركوك من قضية اقتتال الاخوة . وأوضحنا ما لم يكن واضحا لدى المكتب السياسي . وحاولت جهدي تبرير نهجنا وتأكيد صحة مواقفنا وشرحت ملابسات أتفاق ديوانه ، وتطرقت الى قرار قاطعنا بالانتخابات والتدخل الخاطئ للمكتب السياسي بسبب خوفه من المطالبة بالانتخابات في القواطع الاخرى ايضا . وادنت بقوة سياسة ومواقف المكتب السياسي وحقيقة أن ح ش ع اصيبت بنكسة جديدة عميقة بسبب سياستهم وانهم المسؤولون عنها . سمع الحاضرون وناقش البعض وسأل ورد وبرر . وفي الختام قلت مخاطبا المكتب السياسي كهيأة:
 انتم المكتب السياسي مسؤولون عن الاخطاء والنكسات . ولم يعد بمستطاعكم ان تقدموا أي خدمة للحزب سوى شئ واحد فقط : أن تستقيلوا من عضوية المكتب السياسي واللجنة المركزية وتتركوا الشيوعيين العراقيين ليحلوا مشاكلهم بدون تدخلكم وبعيدا عن قيادتكم.
قدمت هذا الطلب الشفهي في الاجتماع عن قناعة عميقة وبصورة جدية . وفي اليوم التالي حولته الى رسالة تحريرية ، مع تبيان مبرراته. واطلعت عليها كلا من سليمان اسطيفان وثابت العاني وسليم اسماعيل وربما حاجي سليمان ايضا ، قبل أن أقدمها الى المكتب السياسي.
في الوقت نفسه اتفقنا ، نحن اعضاء اللجنة المركزية الموجودين في لولان ، على تقديم طلب الى المكتب السياسي لعقد اجتماع طارئ للجنة المركزية لمناقشة وتقييم أحداث ثشتاشان الخطيرة ، التي أثرت على وضع الحزب حتى اعمق اعماقه . ورفض المكتب السياسي كعادته طلبنا . ولم يعقد أي اجتماع للجنة المركزية الا بعد اربعة عشر شهرا من أحداث ثشتاشان . ولا أدري ماذا يمكن أن تكون هذه اللجنة القيادية وأي دور يمكن أن تلعب اذا لم يكن لها حق الاجتماع لمناقشة احداث عصفت بكيان الحزب الفكري ـ السياسي ـ التنظيمي والعسكري وأوقعته في نكسة جديدة كبيرة ، وهل يمكن أن يكون هناك مثال أصرخ للتجاوز على صلاحيات اللجنة المركزية وللاصرار على وضع المكتب السياسي فوقها ؟ وأجزم أن اي اجتماع للجنة المركزية ، خلال الاشهر القليلة التي اعقبت احداث ثشتاشان ، كان من شأنه وضع المكتب السياسي موضع المحاسبة الشديدة واتخاذ تدابير عقابية بحق البعض من اعضائه . وهذا ما لم يريدوا ولم يسمحوا بعقد الاجتماع الا بعد 14 شهرا .
توجهت من كرجال الى لولان ، وانا أحمل نسخة من تقييم سياسة ح ش ع الذي كنت كتبته منذ أواخر 1979 ـ أوائل 1980 ثم أضفت اليه اضافات جديدة . كنت أفكر أن الوقت قد حان لنشره وأن علي اجراء آخر التعديلات عليه بهدف النشر . وهناك استفدت من كتابة الطابعة الفدائية الموجودة لدى المكتب السياسي وكذلك من قادر رشيد لاستنساخ بضع نسخ أخرى وتوزيعها على عدد من أعضاء اللجنة المركزية (سليمان اسطيفان ، ثابت العاني ، سليم اسماعيل) ومن كوادر أخرى لغرض الاطلاع على ملاحظاتهم ، التي قد تغني الوثيقة . وقد استفدت فعلا من ملاحظاتهم ، بالاخص ملاحظات ثابت العاني.
وبتكليف من عمر الشيخ سافرت من مقر المكتب السياسي الى مقر جماعة حزب توده في دراو ، بمناسبة عيد تأسيس حزبهم . والقيت في الحفل كلمة ذكرت فيها أن كيانوري واحسان طبري قد انهارا ولكن الحركة الثورية في ايران لن تنهار . وعلمت فيما بعد أن بعض التودويين قد احتجوا على كلامي زعمين ان كيانوري صامد وان ما أدلى به من حديث في تلفزيون طهران كان تحت تأثير الخدر الناجم عن زرق الابر والعقاقير الطبية . وفي اليوم التالي نقل الي مسؤول التودويين المحلي هناك بأن (18) شخصا من قادة (توده) المنهارين قد شاركوا في الليلة الفائتة في ندوة تلفزيونية مكرسة للحديث ضد حزب توده في العاصمة طهران.
كنت في حاجة الى مبلغ من المال لأرسله الى أولادي الاربعة في الاتحاد السوفيتي . وطلبت سلفة من المكتب السياسي على أن أسددها بأقساط من مخصصاتي الشهرية الزهيدة . فرفض طلبي . واضطررت فيما بعد الى طلب العون من أحد اقاربي لأرسل لهم المبلغ المطلوب.
شجعني البعض في المكتب السياسي على البقاء في لولان او السفر الى أحد البلدان الاشتراكية ، فرفضت ذلك وقررت العودة الى كرجال مرورابطهران لاجراء فحوصات طبية وللبحث عن بعض أدوات الطباعة الخفيفة التي كنت بحاجة اليها لطبع

وثيقة التقييم . في طهران التقيت من جديد بعضو اللجنة المركزية جاسم الحلوائي ، المسؤول عن الشيوعيين العراقيين في ايران . وحين تطرقنا الى أحداث تشتاشان قال ان هذه النكسة كانت أكبر من النكسات السابقة . وعندما تطرقنا الى أوضاع ايران وسياسة حزب توده الذيلية كرر ما كان يقوله أثناء لقائي به ، أواخر 1982 ، من أن سياسة حزب توده كانت هي السياسة الصحيحة . كان لايزال ملكيا أكثر من الملك . وقد ساعدني على اجراء الفحوص ، وكنت اعاني من آلام في الكلية . وبعد الفحوص قال لي طبيب أخصائي ناصحا:

□ دواءك الوحيد والافضل لازالة هذه الالام هو الاكثار من شرب السوائل ولست بحاجة الى أي دواء آخر.

أخذت بهذه النصيحة وبدات أشرب الكثير من الشاي الخفيف ، الذي كان السائل الوحيد المتوفر في متناول يدي في الجبال . وآمنت بصواب ما قاله الطبيب اذ اختفت الالام فعلا منذ ذلك الوقت.

كنت مع الفدائي الشيوعي د. قادر في منزل الشاب الثارتي سرباز هورامي بدعوة منه ، بمدينة كرج لتناول العشاء . واتى الى هناك شاب كردي من خانقين يملك سيارة شوفرليت وسكن احدى فيلات كج . وشاركنا في الحديث . كان صاحبي قادر على معرفة جيدة به ـ وأظن انه من كوادر الثارتي ويدعى أكبر حيدر ـ واخبرني أنه جمد من قبل قيادة الثارتي بسبب الاختلاس . سألت قادر:

□ وماذا اختلس حتى يستحق التجميد ؟

□ كان يستلم هناك ـ في ايران ـ حصص (375) شخصا من فدائيي الثارتي وكان يسلم منها حصص (75) شخصا ويسرق الباقي لنفسه.

تجولت كثيرا في طهران حتى عثرت على طابعة صغيرة ذات احرف دقيقة ورونيو يدوي صغير لم يزد وزنه عن 10 ـ 12 كغم ، فاشتريتهما . وكنت على قناعة بان المكتب السياسي سيرفض نشر وثيقة التقييم التي قدمتها اليه . وكنت مصمما على أن انشرها في حالة رفضها من القيادة . لكنني لم استطع حمل الطابعة والرونيو معي . فكلفت سرباز هورامي بارسالهما الى مكان يمكن لي اخذهما منه الى حيث اشاء . وبما أن سرباز لم يعرف عن علاقتي الخاصة بهذين الجهازين فانه ارسلهما وارسل معهما رسالة أو خبرا الى قيادة القاطع . اهتم بانيخيلاني وابراهيم صوفي بالمسألة وكأنهما قد اكتشفا مؤامرة بالغة الخطورة وصادراهما حتى دون دفع ثمنهما الي واعتبراهما مستمسكا جرميا خطيرا ودليلا على وجود توجه انشقاقي لدي . ولم تكن لدي في الواقع نية الانشقاق . وقد رفضت طلبات تقدم بها الكثيرون من الكوادر للاقدام على الانشقاق تلك الايام.

****

بعد عودتي من طهران الى كرجال ، وخاصة بعد اكتشاف ومصادرة الطابعة والرونيو ، كثفت المضايقة والمراقبة علي . وكلف بانيخيلاني فدائيين ـ هما د.سالار ، أو سيروان عبداللة زنطنة ، وتحسين ، شاب قصير القامة من كربلاء ، بمراقبتي الدائمة ، وأنا في خيمتي ، وملاحقتي اينما اتوجه . وكان هذان الشابان يتصرفان كشرطيين سريين شبه أميين من شرطة العهد الملكي . وقد صرح تحسين ذات مرة ، وهو مرهق من واجب ((الملاحقة)) ، أمام عدد من الفدائيين:

□ أوامر ابو سرباز (بانيخيلاني) تقضي بان أكون شرطيا وأتابع خطى ابو سلام.

لم اكن منشقا ولكني كنت متهما بمحاولة الانشقاق . وهذا الزعم كان مبررا كافيا ، بالنسبة لقيادة القاطع ، لكي تلقى الاحاديث والمحاضرات ضدي وتثير حقد البعض علي في الاجتماعات الحزبية ، في وقت كنت لأزال عضوا في اللجنة المركزية ومقيما في المقر . ولم يكن هناك ما يخيفني أو يمنعني من الانشقاق فيما لو كنت مقتنعا بالاقدام عليه . وقد القى أحد الفدائيين ذات مساء بقصاصة ورق الى خيمتي وذهب مسرعا مخافة أن يراه بوليس بانيخيلاني . وقرأت القصاصة وفيها:

□ غرفتك معرضة للتفتيش في أي لحظة .. فكن حذرا!

لم أكن مكترثا للتفتيش المحتمل . كنت أقضي الوقت بين المطالعة والرياضة واللعب ثم الكتابة . راقبت الفرس العجيبة التي ولدت مهرا في الفضاء وفوق الثلوج . وكانت هي ومهرها يبقيان الليالي فوق الثلوج المتساقطة وفي جو تهبط درجة الحرارة الى ما تحت الصفر دوما . كانت الفرس كبيرة الحجم وسمينة . وكانت تخرج الحشيش من تحت الثلوج وتلتهمه بشهية تحسد عليها . وتذهب الى حيث يرمى بفضلات الطعام لتلتهمها ايضا . والمهر الصغير يعدو وراءها ولا يأكل شيا من ذلك ، بل يكتفي بحليب أمه . واشد ما أثار انتباهي هو أن هذا المهر الصغير كان يظل مع أمه الليالي وفوق الثلوج دون أن ينال منه البرد القارس .

وكان لي فصل مع عصفورين يسميان بالكردية (قلته) وهما نوع من البلابل . أتيا ذات يوم من ايام آذار 1984 الى الكهف العالي ، الذي بني داخله كوخي مع كوخ آخر من النيلون . كنت التذ بمراقبة تصرفات هذين الطائرين الصغيرين . كانا يقضيان وقتا طويلا في النهار ، يتجولان خلاله داخل الكهف ويمران تكرارا على كل شبر مربع ، وينقران الصخر كمن يريد فحصه . بعد اسبوع من الفحص والتدقيق اختارا النقطة التي يبنيان فيها عش الزوجية . في العشرين من آذار بدأ العمل لبناء العش . يشتغل الاثنان بنفس الهمة والحماس كعاملين وكبناءين فنيين . أكملا العش خلال شهر كامل . كانا يأتيان بالطين محمولا على منقاريهما ليبنيا جدارا رقيقا غاية الرقة ومتينا في نفس الوقت . بعد اكمال البناء صنعا له ممرا جانبيا أشبه بنفق قصير ليكون المدخل الى داخل العش . وكانا يفحصان أكثر من مرة الجدار من شتى نواحيه ويقومان بتحصينات اضافية لاحكام البناء ولسد المنافذ مهما كانت صغيرة . وقد فرشا العش ، بعد اكماله ، بطبقة من الريش وما شابه قبل أن تبيض فيه

الانثى . وكانا يبقيان بالتناوب على البيض حتى أصبحا ابوين لأربعة فراخ . وكانا يتعاونان على قدم المساواة في جلب الطعام للصغار وفي نقل الاوساخ من داخل العش لرميها بعيدا . كانا حريصين على ان يبقى البيت نظيفا أبدا . وبعد أن كبرت الفراخ تعاون الزوجان في اخراجها عنوة من العش بغية تدريبها على الطيران وعلى استحصال الطعام اعتمادا على النفس . واستغرقت عملية التدريب هذه أكثر من اسبوع كامل . وفي الختام اصبح اثنان من الفراخ طعاما للقط في مطبخنا وطار الاخران مع والديهما بعيدا . وكانت الزيارات تتكرر الى العش بعدئذ مرة في اليوم ثم مرة في عدة ايام . أسفت حينها لأني لم أملك كاميرا فديو لكي اصور ما كان يجري امامي.
طير آخر جلب انتباهي ، وأنا في كوخي هناك . كان من فصيلة البوم ، التي تخرج فقط في الليل لممارسة نشاطاتها المختلفة . كان هذا الطائر يغرد أو يستغيث طيلة الليل دون ان يسكن أو يقر له قرار . لم أدر أهو فحل يبحث عن الانثى لنفسه أم العكس . لكني كنت اسمعه وأنفعل مع انفعالاته . وقد حفزتني استغاثاته ، طبعا بالارتباط مع الوضع النفسي الذي كنت أعيشه ، على أن أنظم في تلك الايام واحدة من القصائد السبع أو الثماني التي نظمتها طيلة عمري .
في الواقع نظمت عام 1984 ثلاث قصائد ، هي حوالي نصف ما أنتجت من الشعر في عمري . كانت احداها مكرسة لزوجتي عائدة ياسين ومنتجة بمناسبة الذكرى السابعة عشر لزواجنا . واخرى مكرسة للذكرى الخمسينية لتاسيس ح ش ع وقد طلب مني جلال دباغ هذه الاخيرة بغية نشرها في أدبيات الحزب شريطة حذف بيتين يتضمنان نقد قيادة ح ش ع فرفضت طلبه المشروط وقررت أن تنشر كما هي أو لا تنشر.
****
في صباح باكر من كانون الثاني 1984 سمعت دقات على الباب النيلوني لكوخي بكرجال ، وأنا على فراش النوم . فتحت الباب فوجدت فدائيا من مفرزة توفيق حاجي وهو يجلب لي الرسالة الشفهية التالية من ملا علي:
- ملا علي وتوفيق في انتظارك داخل البستان لأمر ضروري وهام.
لم اكن على موعد معهما ولم أعرف في الواقع ما يريدان مني في هذا اللقاء . وكانت علاقتي ودية مع ملا علي شخصيا . ولكنني لم أكن على علاقة ودية ولا ثقة متبادلة مع توفيق . مع ذلك ذهبت اليهما . في الطريق وجدت شرطيي بانيخيلاني سيروان وتحسين ورائي . وحين اللقاء طلب مني ملا علي وتوفيق الانضمام اليهما للنزول سوية الى شهرزور تمردا على قيادة القاطع . قالا ان قرارهما هو النزول وان آمر السرية الفدائي فتاح طلالي أخبرهما بأنه سينضم اليهما . رفضت طلبهما بالذهاب معهما وابلغتهما بأن ذهابهما يكون مفيدا اذا كان شبه تمرد ووسيلة ضغط على قيادة القاطع لحملها على التراجع عن بعض التصرفات الخاطئة . وبالنسبة الي شخصيا لم استبعد كليا احتمال لجوئي الى الانشقاق في مجرى تطور الوضع المستجد . وكنت أفضل انتقال ملا علي شخصيا مع عدد محدود من الفدائيين الموثوق بهم الى قرةداغ لاقامة مقر يتيح مجال المناورة ويوجد خط الرجعة في حالة الاضطرار . لكني لم أكن مستعدا باي حال لتسليم لحيتي الى اناس لم اثق بهم مطلقا من أمثال توفيق حاجي وفتاح طلالي .
على أثر نزول مفرزة ملا علي وتوفيق حاجي ثارت ثائرة بانيخيلاني وابراهيم صوفي واشتد بهما القلق والخوف . واتهمت انا بأني وراء التمرد . ولمت بدوري بانيخيلاني مؤكدا ان ما حدث نتيجة منطقية لتصرفات هياة القاطع ، وعرضت عليه وساطتي عن طريق النزول برفقته الى شهرزور سعيا لحل المشكلة باللتي هي احسن . وكان من المحتمل أن يوافق لولا ملحة ابراهيم صوفي على استبعاد كل الحلول الوسطية . كان ابراهيم طائشا قصير النظر وكان يزعم انه سيذهب مع مفرزة معينة وسينهي المشكلة بالشكل الذي يروق له . وقد تحرك فعلا على راس مفرزة زاعما انه سيجرد المتمردين من السلاح بعملية عسكرية خاطفة . وسمعت انه كان قد طرح على الفدائيين فكرته هذه ، القاضية باثارة اقتتال الاخوة بين الشيوعيين انفسهم . غير ان الاخرين لم يخضعوا له ولم ينفذوا ما أراد.
طلبت اتاحة الفرصة لي كي اتحدث باللاسلكي الى ملا علي . ولم يسهل بانيخيلاني امر الاتصال الا بعد فوات الاوان اذ كان ملا علي ومن معه قد تركوا المنطقة التي وجدت فيها مفرزة ابراهيم صوفي وعبروا شارع عربت ـ دربنديخان الى منطقة سيطرة اوك لتجنب الصدام المسلح ـ حسب ادعائهم ـ مع ابراهيم صوفي . وهكذا تحول التمرد من وسيلة للضغط على قيادة القاطع الى انشقاق فعلي ـ لكنه كان انشقاقا هزيلا منذ بدايته ولم يمتلك مقومات النجاح.
في اليوم التالي من انتقال ملا علي ومن معه الى الجهة الاخرى من الشارع داهم مسلحو أوك منطقة شهرزور ، التي كانت في ايدي الشيوعيين منذ أيار 1983 ، شرقي شارع عربت ـ دربنديخان . واما ابراهيم صوفي ، الذي كان يلح علينا سابقا لكي نقاتل أوك ، فانه تراجع بسرعة خيالية مع افراد مفرزته امام تقدم قوة أوك تاركا شهرزور نحو قاعدة كرجال دون اطلاق رصاصة واحدة.
لم تنقطع الصلات بيني وبين ملا علي حتى بعد انتقاله الى منطقة سيطرة اوك وبعد عودة قوات أوك الى شهرزور . وقد ارسل الي اولى رسائله مع اخي نجم الدين ، الذي وصلني في كرجال . كان يكرر طلبه بان انضم اليهم . اجبته برسالة طالبا منه العودة الى القاعدة . من الواضح ان هذا القرار لم يكن بمعزل عن قناعته بفشل المحاولة الانشقاقية . وقد ذهبت في الموعد المحدد الى قرية احمد آوا لألقاه مع فتاح طلالي وبعض مسلحيه ، الذين قدموا لايصاله وليس للعودة معه . فرجعنا ، انا وملا علي وحده ، الى القاعدة فيما عاد فتاح الى شهرزور .

كان فشل محاولة الانقسام تلك متوقعا للأسباب التالية:

1. عدم تجانس العناصر المنشقة فيما بينها ، والدوافع الشخصية ـ الذاتية بالنسبة الى غالبية العناصر الرئيسية .
2. انعدام كادر حزبي ـ سياسي مؤهل لقيادة وتوجيه العملية.

لقد ولد الانقسام كسيحا وتفككت الجماعة المنشقة بسرعة قياسية . ففي اليوم الرابع عشر من نزول المفرزة انفصل توفيق حاجي مع 13 شخصا (اي حوالي ثلث المنشقين) عن ملا علي انفصالا تاما واصبحا جماعتين لا شأن لهما ببعضهما ، أو يضمران العداء لبعضهما . وعاد بابا علي مع عدد من الفدائيين الى القاعدة . ولم يبق مع ملا علي سوى فتاح طلالي ، الذي كان قد قطع الصلة الروحية مع الشيوعية ومع الثورة منذ أمد وتحول الى شبه اقطاعي عسكري ، ورسول ورويتن اللذين كانا اقرب الى عصابة نهب منه الى مفرزة ثوار.

في الوقت الذي واصلت المراسلات مع ملا علي ، قبل عودته الى القاعدة ، حاولت التأثير كذلك على توفيق ومفرزته . فارسلت اليهم رفيقا جهاديا جيدا هو ناصر ، الذي بقي على صلة سرية معي وحاول اعادتهم الى قاعدتنا . غير ان الموت داهمه قبل ان يفلح في انجاز مهمته . ويبدو انه ذهب ضحية النزاع بين ح س ك وبين أوك في شهرزور.

****

كنت مصمما على نشر وثيقة التقييم ، التي هيأتها ، دون انتظار الرخصة من القيادة ـ تماما كما فعل زكي خيري وعزيز الحاج عام 1965 .وفي مقر كرجل دبرت طبع نسخ اضافية منها بالالة الكاتبة وعلى يد طباع مكتب الاقليم نفسه . وبدأت اعرضها على كوادر حزبية في القاعدة ، بينهم نائب عبداللة المسؤول نئذ عن تنظيم مدينة السليمانية والذي أبدى شديد اعجابه بها ورغبته في ايصال نسخ منها الى كوادر المدينة ـ وكان على موعد قريب معهم ، حسب ادعائه ، في احدى قرى شهرزور . في اليوم التالي من اطلاع نائب على الوثيقة وجدت همهمة في مكتب القاطع واستدعاء البعض من هنا وهناك . ولم يلبث أن أخبرني نصرالدين هورامي ان بانيخيلاني وابراهيم صوفي علما بتوزيع نسخ من وثيقة التقييم وجن جنونهما . وفي عصر اليوم التالي علمت بأن المخبر كان نائب عبداللة . وهو سلم لهم النسخة التي اخذها لايصالها الى رفاق منظمة السليمانية . وأغلب الظن انه حاول بذلك التستر على انهياره وترضية المسؤولين بعد أن كشف نوروز شاويس حقيقة موقفه وطلب السفر الى مقر المكتب السياسي لاثارة الموضوع نفسه وللمطالبة باتخاذ الاجراءات ضد نائب . وكان العثور على نسخة واحدة لدى غيري كافيا لاثارة بانيخيلاني وابراهيم صوفي ، الحريصين على استمرار الوضع البيروقراطي السائد في الحزب اكثر من حرص المكتب السياسي نفسه . فبدأت اجراءات الردع ازائي . وكان من ضمنها توجيه برقية من المكتب السياسي الي تطلب حضوري الى مقره في لولان . فرفضت الاذعان ما لم اعرف سبب الاستدعاء ـ وكنت أعرف جيدا أن ليس هناك سبب سوى ابعادي عن كرجال وتجميدي أو احتجازي في لولان.

انتقلت منذ أيار 1984 الى صدر بساتين (أحمد آوا) لأقيم ، الى جانب ملا علي وعائلته وبعض الاخرين ، داخل بستان جميل وانصرفت الى كتابة حلقة جديدة من ذكرياتي باللغة الكردية . ولكي استميد من ملاحظات الشبان الاكراد حول ما أكتب فاني وزعت عليهم أول قسم مما كتب ـ بضع عشرات من الصفحات . كنت قريبا من نبع (زلم) الرائع . وكنت أزوره يوميا زيارة شئ مقدس : ثقب كبير في الجبل تخرج منه مياه تكاد تشكل نهرا حقيقيا كبيرا . ومناظر رائعة ابدعت في صنعها الطبيعة وزادتها البساتين ، التي زرعها الهوراميون ، جمالا . هنا لم تكن ارض زراعية ، رغم وفرة المياه .. هنا جبل وصخور وبقاع شديدة الانحدار . لكن ايدي الكدح والبحث عن الرزق صنعت من هذه البقع الصخرية المتحدرة ارضا للبساتين ، لتنتج الرمان والتين والعنب والجوز وغيرها.

كنت منصرفا الى الكتابة عندما وصلتني رسالة من مسؤول القاطع أحمد بانيخيلاني يقول فيها : سيعقد قريبا اجتماع اللجنة المركزية للحزب . واذا كنت راغبا في حضوره فهيئ نفسك للسفر . أجبت برسالة اليه قائلا اني كنت في انتظار هذا الاجتماع واريد المشاركة فيه بالطبع . في اليوم التالي استلمت منه رسالة ثانية يطلب مني التوجه الى مكان الاجتماع . فاجبته برسالة ثانية مؤكدا انني على أتم الاستعداد لمرافقته لحظة سفره ـ علما انه كان عضو اللجنة المركزية وكان يفترض ان يسافر لحضور الاجتماع . في 1984/6/13 وصلتني رسالة ثالثة منه يقول فيها انه يتأخر بعض الوقت بصفته مسؤولا عن القاطع . والافضل ألا أنتظره . وسيكون معي ملا علي ونوروز شاويس أيضا.

23

الى المعتقل بدل المشاركة في الاجتماع

غادرنا قاعدة كرجال في صبيحة 14 حزيران 1984 لنصعد الجبل الشاهق ونجتاز فوقه الحدود تاعراقية الايرانية في مخفر (مله خرد) . كنا نحمل أوراق المرور عبر ايران من الثارتي وكان علينا أن نمر عبر قرية (دزلي) ونصل الى سنندج لنسافر من هناك الى (أورمية) فالى مقر قيادة الثارتي في راذان كي نستعين بها في تدبير المرحلة التالية من الطريق . وبتنا الليلة الاولى في أحد فنادق سنندج والثالثة في ضيافة سكرتير الثارتي علي عبداللة الذي أكرمنا وسفرنا صباح اليوم التالي في احدى سياراتهم.

كنا متجهين الى لولان لاغراض مختلفة ـ أنا الى الاجتماع وملا علي للقاء مع المكتب السياسي ليدافع فيه عن نفسه ضد الاتهامات ونوروز يريد ايصال شكواه مباشرة الى المكتب السياسي ضد نائب عبداللة ورابعنا الشاب حمه آسو مرافقا لي حسب.
في فندق حافظ بأورمية التقيت بالفدائيين الشيوعيين سامي وأمين . وأخبرني سامي انه سجن مع أمين وآخر لعدة أشهر من قبل قيادة قاطع أربيل ، الذي كان يراسه يوسف حنا القس . وانهم تعرضوا للتعذيب الشديد . وذكر اسم د.مهند البراك كمحقق مارس التعذيب بنفسه ، وأن زميلهما الفدائي الشاب البغدادي (منتصر) قتل تحت التعذيب . واطلق سراحهما بعد ذلك وطلب منهما مغادرة المنطقة . وهمااستعانا بـ ح س ك لاستحصال ورقة السفر الى طهران والبحث هناك عن عمل . نصحت سامي بالتصرف باتزان والتريث لحين تبلور الاوضاع الداخلية في الحزب بصورة أوضح . كنت أعرف انه خاوي الجيوب وفي حاجة الى المساعدة المالية ، وأنا لا أملك المال . بعت الراديو الصغير الذي كنت أملكه وقاسمته ثمنه . وفي الساعات التالية لم تفارقني صورة الشاب الشيوعي منصر ، الذي قتل تحت التعذيب . أهذه من الشيوعية ، التي فهمناها كذروة العلاقات الانسانية ؟ أأنت شيوعي حقا يا يوسف حنا ، وفي سجونك يقتل شيوعي تحت التعذيب ؟ وماذا فعلت ازاء هذه الجريمة يا سكرتير الحزب بعد أن أحطت علما بها ؟ لا شئ بالتأكيد.
في 17 حزيران كانت سيارة الثارتي تنقلنا من راذان الى بلدة شنو . نمر عبر أراضي بديعة زينها الربيع بأعشابه الخضراء وأزهاره الملونة وشقائقه الحمراء البديعة . كان الربيع في أوجه ، كما يكون في قرةداغ أواسط الشهر الرابع . وكانت الشقائق من نفس النوع الموجود في قرةداغ ، ولكنها أكبر حجما بكثير . وقد غادرنا شنو لنصعد الجبل ولنمر من جديد عبر نصب (كيله شين) الأثري ولننزل بعدئذ من السيارة ، حيث انتهى الطريق ووجب السير مشيا على الاقدام ، نزولا نحو مقر الاعلام المركزي في لولان .
اقتربنا من المقر ورأيت فوق أحد الاسطح تجمعا . وبدأ يتفرق . استقبلنا عضو اللجنة المركزية ومسؤول الاعلام كاظم حبيب على بعد خطوات من المقر وأخذنا الى ما يسمى (المطعم) . لم أفكر في تلك اللحظات بأي شئ غير اعتيادي لأنني لم أتصور بأن كل ما يدور حولي هو تآمر متفق عليه في القيادة وبمشارك بانيخيلاني . قدموا لنا الجبن والخبز مع الشاي وبقي كاظم معنا حريصا على ألآ يزورنا الـبان الفدائيون. وخاطبني بلهجة عادية:
- تلقيت برقية . من المكتب السياسي ، وهو يطلب حضوركم الى مقره على جناح السرعة.
هذه مفاجأة لي ، لأني كنت أتصور أن المكتب السياسي مقيم في مقر الاعلام وأن اجتماع اللجنة المركزية سيعقد في نفس المكان . مع ذلك لم أجد ما يثير الشكوك . فسألت:
- أين هو مقر المكتب السياسي ؟
- هو في بارزان.
اذا علينا أن نتابع السير مشيا على الاقدام حوالي ثلاثة ايام أخرى . وأيقنت أن اجتماع اللجنة المركزية ، الذي جئت للمشاركة فيه ، سيكون هناك أيضا . مع ذلك سألت:
- هل سيعقد الاجتماع هناك ؟
- نعم سيكون هناك.
- ولماذا لم تذهب أنت حتى الان ؟
- بسبب مشاغل الاعلام .. أنتم تذهبون ونحن نلحقكم.
أن يسعى الاعداء لخداعي فان ذلك شئ مفهوم . أما أن يفعل ذلك سكرتير الحزب عزيز محمد وسائر أعضاء المكتب السياسي وان يفبركوا كذبة يمثل فيها كاظم حبيب ليرسلوني من المقر الحقيقي للمكتب السياسي والمكان الحقيقي للاجتماع الذي اليه دعيت وباسمه حضرت الى مقر مزعوم ، بل الى حيث اعتقل وتفرض علي الاقامة الجبرية ، فان ذلك ما لم أفكر فيه مجرد التفكير . امتثلنا لأمر كاظم حبيب ، الذي عجل بتسفيرنا بعد تناول العشاء ، بذريعة ألا مكان للنوم عنده . فذهبنا تحت جنح الظلام الى مقر يبعد ساعة لنبيت فيه ونواصل السفر صباح اليوم التالي ، حيث نسافر الى (دراو) لنبيت في مقرات التودويين والفدائيين الايرانيين وجماعة المؤتمر الرابع المنشقين على الحزب الديمقراطي الكردي في ايران . في اليوم التالي تابعنا السير حتى وصلنا عصرا لا الى مقر المكتب السياسي في بارزان ، انما الى المقر الصيفي لنفس الجماعات الايرانية في قرية (مرطور) المهجورة قريبا من مثلث الحدود العراقية الايرانية التركية . واستقر بنا المقام في مقر التودويين الذي كان قد حدد لنا حيث نبقى تحت الاقامة الجبرية ، دون أن نكون قد حوسبنا أو حوكمنا أو أبلغنا مجرد ابلاغ مسبقا.
خلال يومين من السير بين مقر الاعلام وبين مرطور حصلت على معلومات وافية ، من رفاق عراقيين همسوا في آذان بعضنا ومن فدائيين تودويين تكلموا عن غير عمد ، لأعرف ما دبر لنا المكتب السياسي من عمل وضيع لا يمت بصلة الى المبادئ والاخلاق والاستقامة السياسية . وساعتها ادركت أن دعوتي للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية كانت من أساسها فخا للايقاع بي وان بانيخيلاني كان على علم بذلك ومساهما في تنفيذه . وساعتها أيقنت أن وقوع بانيخيلاني في اسر أوك أيام أحداث ثشتاشان ، في أيار 1983 ، كان فاصلا بين مرحلتين من حياته الحزبية ـ السياسية اذ أصبح ، بعد هذا الحدث ، رجلا آخر مغايرا لما كان في الماضي وفقد ما كان يملكه سابقا من الجرءة والاعتداد بالنفس والاستقامة السياسية.

على أنني لم أفاجأ بقدر ما يتعلق الامر بسلوك عزيز محمد . فقد اقتنعت منذ اجتماع اللجنة المركزية عام 1980 بأنه مستعد للاقدام على أي عمل ، بعيدا عن المبادئ والمثل والمقاييس الخلقية ، في سبيل بقائه وبقاء النفر المساير له على كرسي الزعامة . يتراءى لي أن عزيز محمد مر بمرحلتين في حياته الحزبية ـ السياسية ، كما حدث ذلك لزعماء آخرين في بلدان أخرى . في المرحلة الاولى كان مناضلا شيوعيا مجاهدا مخلصا مستعدا للتضحية وقد تحمل السجن عشر سنوات وكان ملتزما بالمبادئ والاخلاق الفاضلة ، رغم بعض آرائه ومواقفه السياسية الخاطئة . وفي المرحلة الثانية ، التي أعقبت انتخابه سكرتيرا وتبلورت خاصة خلال سني التحالف الذيلي مع النظام البعثي ، أفسدته الزعامة المزمنة بما وفرته من الامتيازات فتحول الى انسان آخر حريص على نمط معين من العيش والعمل وحريص على أن يحيط نفسه بأناس مسايرين ، خصوصا من لون معين بين المثقفين ، لا يخلقون له المتاعب . وهو دبلوماسي بارع الى حد ويستطيع التأثير على مستمعه كما يستطيع الايحاء الى أشخاص ذوي اتجاهات متناقضة بأنه متعاطف مع أفكارهم . وقد قال أكثر من مرة أن كريم أحمد يملك سمعة طيبة ولا يملك الكفاءة . ومع ذلك ابقاه دوما في مكتبه السياسي . وقال أمام رفاق في 1980 أن فخري كريم لا يقبل ان يكون معه من هو أعلى منه ويخرب عن عمد ليثبت أن مسؤوله غير كفوء . ومع ذلك لم يتحرج من أن يصوت لفخري في آذار 1989 ويضمه الى مكتبه السياسي . ومن نقاط ضعفه الاخرى انه لم يكن يوما كتابة مقال أو تقرير . ومع ذلك لم يتحرج من أن تطبع له ((مؤلفاته كتبت بأقلام الاخرين . وأصبحت الخمرة جزءا من حياته ، وأفرط في الشرب أحيانا ولم يأبه بأن يخلق ذلك متاعب له هنا وهناك . لو استقال من منصب السكرتارية في السبعينات ، وكاقصى حد في 1978 ـ 1979 ، لصان لنفسه قدرا منا سبا من الاحترام والتقدير . لكن مسؤوليته اليوم عن الاخطاء الجسيمة والانحرافات المتتالية التي حطمت ح ش ع أكبر بكثير من أن تمسحها الاستقالة أو ممارسة النقد الذاتي .

****

حين غادرنا (دراو) في طريقنا الى (مرطور) وجدت في قارعة الطريق قنفذا وأخذته . لفت انتباهي أنه كان أكبر من قنافذ منطقة قرةداغ بحوالي ثلاث مرات . وفي (مرطور) جلسنا تحت شجرة (سورةضنار) منتصبة ومستقيمة وضخمة لدرجة خيالية ولا شبيه لها من نفس الاشجار في مناطقنا . وحسب حساباتي الاولية آنئذ كان بالامكان بيعها ، في حالة تحويلها الى ألواح خشبية ، بحوالي (800) دينارا .

وفي سفرتي الى مرطور أمكن لي حل لغز من ألغاز الطبيعة المحيرة . كان اللغز هو أن سيول المياه الخيالية في كبرها عبر العصور الغابرة تركت آثارا واضحة فوق التلول والمرتفعات الكبيرة وفي السهول والوديان ، في كل مكان من اليابسة على سطح كوكبنا . كنت أرى هذه الاثار وأفكر كيف حدثت ؟ هل من المعقول ان أنهارا جبارة تركت هذه الاثار . ولماذا لم يبق اي أثر لتلك الانهار ؟ أخيرا توصلت مع نفسي ، في ذلك اليوم من حزيران 1984 ، الى استنتاج مفاده ان البحار لم تكن موجودة على هذا الكوكب ، أو كانت موجودة بصورة جزئية ، وأن هذه الكميات الضخمة من المياه الراكدة في البحار اليوم كانت سائبة على الارض لزمن طويل تجري في سيول وأنهار جارية هنا وهناك وتجرف معها التربة وتترك الاثار ... الخ.

لم أجد بين الايرانيين في مرطور ولا عراقيا واحدا ، باستثناء دليل رافقنا من مقر المكتب السياسي . وقد كتبت في أول ليلة من وصولنا رسالة موجهة الى المكتب السياسي ، وذكرت فيها ان كل شئ واضح لدي وأني جئت للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية وليس للاعتقال على هذه الشاكلة . وطلبت التخلي عن هذه الاساليب الصبيانية وترك الصراع الحزبي الداخلي ليأخذ طريقه الاعتيادي وذكرتهم بان عزيز الحاج لجأالى نفس هذا الاسلوب في 1967 . وطلبت اللقاء الفوري مع المكتب السياسي لمناقشة ما يحدث . وطلبت الاجابة الفورية لكن أحدا لم يجب . ورسخت لدي القناعة بأن عزيز محمد كان يخاف من أن يؤدي وجودي في الاجتماع الى احراجه وازاحته عن منصبه.

بعد أيام قدمت رسالة ثانية أشد من الاولى ، ذكرت فيها انني عشت معهم قرابة أربعين عاما في السجون وفي حياة الاختفاء وفي مظاهرات المدن وفي الجبال والوديان .. الخ . فهل يليق بهم أن يتعاملوا معي على هذه الشاكلة ؟ كررت المطالبة باللقاء الفوري ، ولم أتلق جوابا . ما العمل ؟ قررت أن أذهب بنفسي الى مقر المكتب السياسي لمناقشة الامر . وقد ذهبت وحيدا بعد أن أصيب مرافقي بفسخ في رجله . وفي منتصف الطريق ـ دراو ـ كنت في مقر للتودويين عندما وصلت مفرزة ثلاثية مكونة من رئيس المحمة التابعة للحزب (أبو اسيل) ، وهو شاب عربي مؤدب ويحمل شهادة الدكتوراه في القانون ، وأبو سلوان ـ واظن انه كان مدرسا من الناصرية ـ و (هذار) وأظن انه من كركوك ، وكان يتصرف كرئيس للمفرزة . وفق طلب الاخير تركنا الكبره وابتعدنا 30 ـ 40 مترا لنجلس تحت شجرة بلوط ونتحدث . قال هذار :

□ نحن جئنا بأمر من المكتب السياسي لنبلغك بان تعود الى حيث كنت في مرطور حتى اشعار آخر.

□ أنا أرفض مثل هذا الامر الشفهي منكم . أنا عضو في اللجنة المركزية وجئت لأشارك في اجتماعاتها . كان بأمكان المكتب السياسي أن يرسل الي أحد أعضائه للتحدث معي ، أو يرسل الي ـ على الاقل ـ رسالة تحريرية لأبلاغي بما يريد ، بدلا من اتيانكم بمثل هذا الامر الشفهي.

بعد نقاش هادئ طويل أصررت فيه على رفض الامر الشفهي أخرج هذار رسالة من جيبه وطواها من كلا جانبيها ليعرض علي احدى الفقرات كدليل يثبت به ما يدعون . وقال:

□ هذه الرسالة من المكتب السياسي لنا نحن لجنة فصيل المقر ، كما يعرف الرفيقان أبو اسيل وأبو سلوان ، وهذه الفقرة ، التي أريك أياها ، تخصك . فارجو أن تطلع عليها كي تتأكد بأننأكد باننا لم نأت من تلقاء أنفسنا . بل جئنا لنوصل لك قرار المكتب السياسي .

□ وما على الرسول الا البلاغ ـ قال أبو أسيل .

قرأت الفقرة المعنية ، وهي فقرة من رسالة موجهة فعلا من المكتب السياسي الى لجنة الفصيل ، ومحتواها:

□ ابلاغي بأن أعود الى مرطور وابقى مع ملا علي حيث نحن ، أي مقر التودويين وحتى اشعار آخر.

□ ابلاغ الضيوف (اي التودويين وجماعة المؤتمر الرابع) بأنه لم تبق صفة حزبية ، حتى ولا عضوية الحزب ، لكل من بهاء وملا علي.

أثارت الرسالة غضبي الشديد . كدت أفقد السيطرة على اعصابي . فأنا عضو في اللجنة المركزية وشيوعي منذ 1946 وقيادي منذ 1949 . ومن أجل الشيوعية كابدت ألوان العذاب والحرمانات .. وهاهم يتعاملون معي بهذا الاسلوب اللاأخلاقي ، دون أن أكون مشبوها أو ارتكبت جريمة ، ويطردونني من الحزب دون لقاء معي ودون محاسبة وجاهية ودون سماع راي مني أو اتاحة الفرصة للدفع عن نفسي . أهكذا تحترمون نظام الحزب ، الذي صوتم له بأنفسكم في المؤتمر ، يا سكرتير الحزب وأعضاء قيادته ؟ هل هذا هو الخلق الشيوعي أيها السادة ، أم انها البيروقراطية والقمع واللاأخلاقية ؟ وهل كنتم ترضون بأقل من اعدامي لو كنتم على رأس السلطة ؟ تبا لتلك اللجنة المركزية التي تكون على مثل هذا المستوى وتتحول الى جهاز لأمرار ما يأمر به القائد.

قلت لرجال المفرزة ، وأنا متوتر الاعصاب:

□ اذهبوا وابلغوا مكتبكم السياسي بأني أضع قراراته تحت حذائي.

ولم يحتد ولم يتهور أي من رجال المفرزة . قال أبو أسيل بهدوء:

□ أنتم قادتنا ومنكم نتعلم نحن.

ساعدني هدوءهم على أن أهدأ بدوري وافكر برأس بارد فيما يجب عمله . وبعد حوالي نصف الساعة كنت قد اتخذت مع نفسي قراري النهائي:

العودة أولا الى المعتقل والبحث هناك بتأن ورأس بارد عن حل يناسبني . أما لماذا اتخذت هذا القرار فذلك للاسباب التالية:

1. لأن أولئك ، الذين لجأوا الى هذه الاجراءات تجاهي ، قد يلجأون الى اجراءات أسوأ ، بما في ذلك حتى السجن والاغتيال ، تجاهي .

2. لأني في حاجة الى مزيد من الوقت للتفكير في الخطوة التالية ، التي ينبغي الاقدام عليها.

عدت أدراجي الى معتقلي في مرطور . وواصلنا مع ملا علي هوايتنا في التفتيش بين الشجيرات عن أغصان تصلح لتحويلها الى عكازات نوزعها على من حوالينا . وابلغت ملا علي ونوروز بما حدث . ولم يكن غضب ملا علي أقل من غضبي . واقترحت على زملائي القيام بنزهة او سفرة للصيد في الجبال المحيطة بنا لبضعة ايام . وفي اليوم التالي كنا نحن الاربعة مع أثنين من فدائيي حزب توده فوق جبل شاهق بعيدا عن المقر.

الوقت أوائل تموز 1984 والارض خضراء والثلوج تذوب فوق الجبال لتشكل انهارا فضية جميلة تنساب في منحدرات متعرجة الى أسفل الجبل، حيث تصب في نهر ما . في اليوم الثاني من سفرتنا كنا فوق جبل عال . ابتعد ملا علي قليلا ونادى فجأة:

□ هذا نمر ! نمر!

نحن مسلحون وليس النمر مخيفا حتى وان لم يكن من الورق . عدوت نحوه واذا بنمر صغير مذبوح ذبحا . اقتربنا منه أكثر ونظرنا اليه بدقة . وجدنا نمرا حقيقيا في شكله ولون جلده وأنيابه ومخالبه .. الخ . شئ واحد يميزه عن النمر ـ له ذيل قصير يبلغ حوالي عشرة سم . يضاف الى ذلك أن حجمه أصغر من حجم النمر الاعتيادي . أخذنا من أفضل شرائح لحومه 6 ـ7 كغم ، فيما سلخ أحد التودويين جلده ليأخذه لنفسه . في تجوالنا سألنا الكثيرين من الغنامة عن اسم هذا الحيوان ولم نجد من يعرفه الى أن التقينا بعدد من رجال عشيرة الهركية ، حيث قال لنا احدهم :

□ هذا هو (وشك. (

بعد عودتنا الى المقر فتش نوروز في قاموس فارسي ووجد صورة لنفس الحيوان مكتوب تحتها نفس الاسم مع اختلاف في اللهجة (بشق. (

بعد اربعة أيام من الصيد عدنا الى خيمتنا في مرطور واقنعت نوروز بالتوجه الى مقر المكتب السياسي لأنه ليم يكن ضمن المغضوب عليهم ، بل جمعته الصدفة معنا فأحتجز ، وكتبت رسالة جديدة وعنيفة الى المكتب السياسي ، كررت فيها ما حوت رسائلي السابقة وقلت أن لي ديني ولهم دينهم ولم أعد أجد ما يبرر أن ألتزم تجاههم بعد كل ما فعلوا . ومع ذلك تركت لهم فرصة أخيرة للقاء والتداول شريطة ألا يتأخر ذلك عن اربعة أيام تعق وصول الرسالة اليهم . وقد صممت على أن أهرب من معتقلهم ، في حالة عدم أجابتهم أو اعطاء جواب استفزازي سخيف . وفاتحت ملا علي بذلك وسالته عما اذا كان راغبا في

مرافقتي فأعتذر بذريعة انه يريد تبرأة ذمته من تهمة التسبب في ضياع (45) بندقية اثر انشقاقه . ووعد باخفاء الهروب الى اقصى حد ممكن .
انتظرت الايام اربعة المحددة في رسالتي ، واضفت اليها يوما آخر . وقبل فجر الخامس عشر من تموز 1983 ، بعد حوالي الشهر على احتجازي القسري ، غادرت خيمتي هاربا من معتقل عزيز محمد ، سالكا طريقا جبليا لم أطرقه أبدا . تابعت السير في ذلك اليوم من الساعة الثالثة صباحا حتى التاسعة مساء ، لم اتوقف خلالها الا لتناول الاكل والشاي خلال أقل من عشرين دقيقة . وقد غسلت صفيحة (علبة) اللحم لأهئ فيها شايا كان لذيذا جدا . وفي وقت لاحق أخبرني ملا علي بأن الفدائي المدعو هذار كان قد أتى برسالة جوابية من المكتب السياسي الي ، بعد هروبي بيومين وأبلغه ملا علي قائلا:
□ ذهب أبو سلام الى مقر المكتب السياسي . واظن انك لقيته في الطريق.
كان هذار موصى من المكتب السياسي بأن يقرأ لنا الرسالة ولا يلسمها الينا ، وقد قرأ لملا علي وفيها النقطتان التاليتان:
1. يبقى أبو سلام وملا علي حتى الشهر التاسع في مقرات مطور ، بعد ذلك يقرر المكتب السياسي الاجراء التالي بشأنهما.
2. يظل أبو سلام مقيما لدى جماعة توده وينتقل ملا علي الى مقر جماعة فدائيي الشعب ، ليقيم عندهم.
معنى هذه الرسالة ان طلبي باللقاء مع المكتب السياسي مرفوض واني أبقى محتجزا دون توجيه أي تهمة الي ودون منحي حق الدفاع عن النفس ، تماما كما تفعل سلطات النظام العفلقي . والجديد في الامر أن علينا ، أنا وملا علي ، أن نتفرق وننعزل عن بعضنا لأن وجودنا سوية يشكل خطرا على أمن الحزب ومصالح الطبقة العاملة . هكذا فهم عزيز محمد وزكي خيري وكريم أحمد وعبدالرزاق الصافي وعمر الشيخ قضية الحياة الحزبية والديمقراطية الداخلية.
وعلمت لاحقا أن المكتب السياسي عمم برقية على كافة المقرات التابعة له بسجن الهارب بهاءالدين نوري حيثما يعثر عليه . في الوقت نفسه نظم حملة تشويه متعمد مقرونة بالاكاذيب ضدي . وبلغت هذه الحملة حد اتهامي بالعمالة للنظام العراقي . وأوصل بانيخيلاني خبر هذه ((العمالة)) الى قادة بعض الاحزاب الكردستانية .
وأنا لم أغلق الباب على المكتب السياسي لتصليح خطئه حتى بعد هروبي . فقد أرسلت ، وأنا في الطريق هاربا ، آخر رسالة مع أحد كوادر ح س ك الى القيادة تاركا لها فرصة تعديل وانتقاد اجراءاتها الطائشة . وفيما كان اتباع المكتب السياسي يبحثون عني للقبض علي كنت جالسا في مدينة السليمانية بعيدا عن مقرات الثيشمرطة . وكان أوك آنئذ في هدنة جديدة مع نظام البعث الفاشي . وبعد أيام وصلت قرية (تكيه) مسقط رأسي وأقمت في بيت أخي نجم الدين ، بل في نفس الغرفة التي ولدت فيها . وكانت قرةداغ ، بل منطقة سوران كلها ، تحت سيطرة مسلحي أوك.
وهكذا فان ما لم أرده بنفسي ، واعني الانشقاق عن ح ش ع ، فرضه علي السكرتير والمكتب السياسي . ولزام علي أن أعترف بأني لم أختر بنفسي الوقت والاسلوب المناسبين لاعلان الانفصال عن ح ش ع الرسمي الذي يقوده عزيز ، بل كانوا هم الذين اختاروا الوقت المناسب لاتخاذ الاجراءات ضدي . كما يجب أن أعترف بأني أخطأت في البقاء مع تلك القيادة كل هذه المدة . وكان علي أن أنفصل عنها منذ 1975 - 1976 مدركا بان محاولة علاج مشاكل ح ش ع المستعصية من داخل صفوفه كان مجرد وهم وسذاجة.
في تكية اتصلت عن طريق المراسلة بقيادة أوك ، وهي أوفدت الي ملا بختيار ، الذي كان مسؤولا عن قاطع أوك يوم كنت مسؤولا عن قاطع ح ش ع في السليمانية . والتقينا أكثر من مرة . ولم يلبث أن انتقل الى نفس القرية واقام فيها مع عائلته . ولم اكترث للاقاويل التي نشرتها قيادة ح ش ع وبعض اتباعها من انني ارتميت في أحضان ساحي الشيوعيين في ثشتاشان . ذلك لأنني كنت بين أهلي وأصدقائي وجماهير شعبي ولم أفقد قط استقلاليتي الفكرية السياسية ولم أغد ذيلا تابعا لأي جهة أخرى ، في حين كان هؤلاء وراء الحدود أو وسط الشريط الحدودي الضيق تحت رحمة السلطات الايرانية . وكان البعض من ((الزعماء)) متنعمين خارج البلاد ويتكرمون فقط بشرب الانخاب لرفاقهم المناضلين الحقيقيين في ساحة الكفاح الساخنة.
وقد حرصت منذ وصولي الى تكية على اقامة علاقة متوازنة قائمة على اسس سليمة بيني وبين أوك ، رغم عدم تكافوء القوى . ووقعنا ، أنا وملا بختيار المخول من قيادة أوك ، على الاتفاق التالي:
1. الاحترام المتبادل لاستقلالية النشاط الفكري ـ السياسي ـ التنظيمي لكل طرف وعدم التدخل في شؤونه الداخلية.
2. السعي المشترك لتثبيت اسس العلاقات الاخوية الديمقراطية بين مختلف الاحزاب والجماعات في الحركة الوطنية الكردستانية والعراقية ولتوثيق روابطها الكفاحية من أجل عراق ديمقراطي حر ومستقل يتمتع فيها الشعب الكردي بحكم ذاتي حقيقي.
****
وجدت في قرية تكية ، التي وصلتها عام 1984 ، الكثير مما هو جديد مقارنة مع ما كان ايام طفولتي . كانت فيها مدرسة ابتدائية وعدد كبير من الشبان الذين تعلموا القراءة والكتابة ، بينهم معلمون وخريجون . وفيها الانارة الكهربائية ، ولدى الكثيرين ثلاجات وتلفزيونات ومدافئ . ورتب القرويون لأنفسهم ، بمساهمة فعالة من أخي نجم الدين ، سحب المياه العذبة النقية من نبع في المضيق وتوزيعها في شبه اسالة على البيوت . وقد اقمت في بيت والدي . وكان المبنى يختلف قليلا عما كان ايام طفولتي.

اوفدت السلطات الي ، وانا في القرية ، وسطاء وعملاء ورسائل وعروضا مغرية بأمل جري الى جانبها . من جملة ما أرسل الي كانت رسالة مدير منظومة الاستخبارات لمنطقة الحكم الذاتي . واعتقد انه كان المسؤول الاكبر حكوميا في كردستان . ولم أجب عليها . بعد مدة عادت الي المرأة التي كانت قد جلبتها في البداية ، تقول انهم يريدون الجواب . فقلت ليطلقوا سراح السجناء الشيوعيين صفاء الحافظ وصباح الدرة وعائدة ياسين ورجاء عبدالمجيد ويرسلهم الي ـ وكنت أعرف انهم جميعا مقتولون ـ لكي أرسل الجواب مع أحدهم . وقد كف ذلك المدير عن محاولة الاتصال . لكن السلطة لم تكف . أرسلت خطيب الجامع الكبير في السليمانية محمد القرةداغي ـ وهو من أقاربي ـ مع رجل دين آخر لتقديم عرض بالتعاون . سخرت من هذا العرض ايضا . وعند توديعهما حذرتهما من المصير الذي آل اليه وفد من رجال الدين أوفدهم صدام الى البارزاني في أيلول 1971 وفجرهم في بيته.

وبعد أن يئست السلطات من محاولات الشراء والاغراء بالمال انصرفت الى محاولات الاغتيال ، تارة بشراء بعض أقاربي ومحاولة تسخيرهم واخرى بأرسال فواكه ومشروبات مسممة وثالثة بارسال مرتزقة للتنفيذ .. الخ . وقد يأتي الوقت المناسب لنشر المزيز عن هذه المسألة .

الشئ الذي صممت على القيام به ، وأنا في مقر كرجال ، ولم يتسن لي آنئذ ، ولكني فعلته بعد وصولي الى قرية تكية ، انما هو نشر وثيقة التقييم لسياسة ح ش ع . في البدء تناولت ونشرت تقييم فترة 1968 ـ 1983 أي فترة الحكم البعثي . وفيما بعد أضفت اليه تقييم فترة 1958 ـ 1968 أيضا . وقد حملت نسخة من التقييم معي حين غادرت مع ملا علي ونوروز مقر كرجال صوب لولان . وحملتها عند هروبي من معتقل مرطور الى السليمانية فالى قرةداغ ، حيث نشرتها.

المحلق رقم 1

9ـ الكلمة التي القاها بهاءالدين نوري امام المؤتمر الثالث للحزب

أيها الرفاق:

اسمحوا لي بالوقوف قليلاً عند مسألة كانت ولا تزال موضع النقاش في حزبنا وفي الحركة الشيوعية العالمية ـ أعني مسألة التطور اللارأسمالي ، التي تكون فكرة اساسية لبناء ستؤاتيجي وتكتيك الحزب ولتحديد آفاق تطور الوضع في بلادنا.

اذا كان المقصود بالتطور اللارأسمالي مايشبه تجربة منغوليا ، حيث جرى الانتقال ـ بقيادة حزب يسترشد بالماركسية ـ اللينينية ـ من مرحلة ماقبل الرأسمالية الى الاشتراكية مباشرة ، فان ذلك أمر لايختلف عليه أثنان . وان كان المقصود به ما يمكن ان يحدث في بعض البلدان المتخلفة التي لاتزال تعيش عهد ماقبل الرأسمالية ، فان ذلك يمكن وفق شروط محددة.

لكن هذه الفكرة ظهرت في السنين الأخيرة بارتباط مع انظمة حكم وطنية معادية للاستعمار في مصر واندونوسيا وغانا وما شابه من البلدان، التي قطعت شرطاً بعيداً في طريق التطور الرأسمالي . وفحوى الفكرة هنا هي بناء الأمال على تحول هذه الانظمة ، تحت قيادة فئات من البرجوازية الصغيرة أو البرجوازية الوطنية ، الى انظمة اشتراكية . وقد اعطى للطبقة العاملة واحزابها الماركسية ـ اللينينية دور التبعية وراء تلك الفئات . ووصل الامر احياناً الى حل التنظيم الشيوعي ـ كما حدث في مصر عام 1964.

وهكذا فان مفهوم التطور اللاراسمالي المعاصر يقوم ـ في رأي ـ على نظرة غير ديالكتيكية مقرونة بالمبالغة في دور فئات من البرجوازية أو البرجوازية الوطنية ، ومقرونةبتفليص الطموح الى تعزيز وتطوير الدور السياسي المستقل للطبقة العاملة واحزابها الماركسية ـ اللينينية وباستصغار اهمية الديمقراطية السياسية في بلدان العالم الثالث.

مامن شك في ان فئات متزايدة من البرجوازية الصصغيرة يمكن ان تنتقل ، في مثل هذا العصر ، الى مواقع جديدة أكثر تقدمية فكرياً وسياسياً . وهذه ظاهرة ايجابية لا يصح تجاهلها او التقليل من شأنها . غير ان مالايصح تجاهله ايضاً هو قدرة البرجوازية المعاصرة ، في بلدان العالم الثالث ، على التكيف للاوضاع المستجدة عبر ايجاد انماط جديدة من شكل الملكية والمظاهر والتسميات غير الرأسمالية صورياً ، دونما مساس بجوهر العلاقات الاجتماعية . ان برنامجنا المعروض هنا يتضمن افكاراً واحكاماً غير منسجمة مع بعضها حين يؤكد بصواب شروط ومقومات مرحلة الانتقال الى الاشتراكية ، من جهة ، ويصر على تصوير بعض الاجراءات الديمقراطية للبرجوازية التقدمية بأنها نهج من التطور اللارأسمالي ، صوب الاشتراكية ، من جهة اخرى.

ليس لفكرة التطور اللارأسمالي عندنا مفهوم واضح ومحدد . فهي تفهم بأشكال مختلفة يسميها البعض (فترة) أو (طوراً) ويسميها غيرهم (اسلوباً) أو (طريقاً) للتطور أو شكلاً لتطور الثورة الوطنية الديمقراطية .. والنهج اللاراسمالي يتجسد في تطور القطاع العام ، في نظر البعض ، فيما يرى آخرون خلاف ذلك.

ان التحلي عن فكرة التطور اللارأسمالي لايعني بأي حال التخلي عن تأييد ودعم اي اجراء تقدمي ، اقتصادي أو سياسي أو تشريعي ، في بلدان لعالم الثالث ، بل يعني التقييم الموضوعي لهذه الاجراءات من منطلقات طبقية .

ويجدر بالذكر تكاثر معارضي التطور اللارأسمالي في الحركة الشيوعية العالمية مؤخراً . ولم يرد ذكر هذه الصيغة نفسها في وثائق المؤتمر الـ (25) للحزب الشيوعي السوفيتي . وعلى الصعيد العملي لم تقدم الحياة في اي بلد من كوكبنا تجربة نجاح

نهج التطور اللارأسمالي بمفهومه المعاصر . في حين ان الانتصارات الكبرى ، التي حققت في الهند الصينية وفي اقطار اسيوية وافريقية ، لم ترتبط بهذا النهج.
اقتصرت صحافة حزبنا ن قبل المؤتمر ، على نشر الافكار المؤيدة لنهج لتطور اللارأسمالي ولم تنشر شيئاً من الافكار الاخرى . ولهذا لا يمكن القول ان النقاش قد حسم على اساس من تصارع وتبلور الأراء في حزبنا ، واعتقد بضرورة استمرار النقاش لفترة اخرى.
وعليه اقترح استبدال صيغة (التطور اللارأسمالي) ، حيثما وردت في برنامجنا ، بصيغ التطور التقدمي والديمقراطي والتحولات التقدمية وما الى ذلك.
هناك مسألة اخرى يستوجب التوقف عندها ، مسألة الديمقراطية السياسية . وقد عالج الفصل الثاني من برنامجنا هذه المسألة على اسس صحيحة عموماً ، ويربط بينها وبين آفاق تطور المحالفات السياسية.
بيد ان المكانة التي توضع فيها مسألة الديمقراطية السياسية ، بين اهداف ومهام الحزب والابعاد التي تحدد لأهميتها والاساليب التي تتبع من اجلها ـ كل هذه تبقى موضع نقاش لأن الحياة نفسها فرضت وتفرض هذا النقاش .
وفي رايي فان مشكلة الديمقراطية السياسية كاسلوب في الحكم وكحريات للجماهير ، تأتي في مقدمة المشاكل التي تجابه بلدان العالم الثالث أو غالبيتها ، في الظروف المعاصرة . ذلك لأن توفر وتطور الاجواء الديمقراطية هما الشرط الأول من شروط ومقومات تحريك وتعبئة الجماهير وضمان مساهمتها في جفع المسيرة الثورية التقدمية بالسبل السلمية الى الامام ، باتجاه تحويل الثورة الوطنية الديمقراطية الى ثورة اشتراكية ، ولسد الطرق امام دسائس الاوساط الامبريالية والرجعية ، التي تتشبث بكل السبل لاعادة سيطرتها .
وليس هناك اي تعارض بين النضال من اجل الديمقراطية السياسية وبينه من اجل تعزيز التحالف والجبهة . ويمكن الجزم على ان التحالف السياسي ، تكتيكاً كان ام ستراتيجاً ، يتعزز ويتطور بقدر ما تتوفر وتتطور الديمقراطية السياسية ، والعكس بالعكس.
ولهذا ارى ان توضع مسألة الديمقراطية بشكلها الصحيح ، ليس فقط في صيغ برنامجنا ، بل كذلك في النضالات العملية اللاحقة للحزب.

) لم تنته الكلمة بعد(

ملحق 2
رسالة الى م .س. في 1984/3/20
تعلمون ان تقييم سياسة الحزب وتشخيص الخطأ والصواب فيها وتحديد المسؤوليات الفردية والجماعية عن الاخطاء ... كل هذه تشغل بال الكوادر الحزبية منذ سنوات عديدة . ومنذ 5 ـ 6 سنوات طالبوا بتقييم فترة التحالف مع البعث . والآن يطالبون بتقييم سياسة الحزب في السنوات الأخيرة ايضاً.
وقد هيأت من جانبي وثيقة تقييم لسياسة الحزب لسنوات 68 ـ 1983 وخرجت منها باستنتاجات . وها أقدم هذه الوثيقة لكم ، معتقداً بانها تعبر عن رأي الكثيرين (ان لم أقل الأكثرية الساحقة) من كوادر الحزب واعضائه والجماهير المتعاطفة معه .
وبصرف النظر عن رايكم فيما كتبته وأضعه بين ايديكم ، فأني ارى من حقي ومن واجبي ان اطلب نشر وثيقتي هذه بنفس النطاق الذي تنشرون به وثيقة التقييم الصادرة عنكم.
اعرف جيداً ان طلبي هذا لا يكون طلباً اعتيادياً ومألوفاً عندما يمر الحزب بوضع اعتيادي . وما كنت لاتقدم بمثل هذا الطلب فيما لوتفضلتم بنشر وثيقة التقييم من جانبكم اياً كانت ، خلال السنوات الخمس المنصرمة ، تلبية لطلب جهرة كوادر الحزب وتنفيذاً لقرارات وتوصيات أكثر من اجتماع لـ ل.م . اما بعد ان اجلتم ، لاسباب غير مشروعة وغير نظامية ، اصدار وثيقة التقييم كل هذه السنوات فان ذلك يمنحني ـ انا وامثالي من اعضاء ل .م ـ حقاً مشروعاً في ان لاتكون وثيقتكم الوثيقة الوحيدة التي تنشر ، في ان اطالب بنشر وثيقتي ايضاً.
وبسبب الاخطاء التي تتحملون مسؤوليتها الاولى طيلة هذه السنوات ، وبسبب رفضكم غير المبرر لطلبات مجمل كوادر الحزب واعضائه بعقد المؤتمر واصدار التقييم فانكم لم تعودوا ، حسب اعتقادي ، مملكون حق الانفراد بنشر وليئنكم التقيمية وحدها ورفض نشر الرأي الأخر الذي قد لا ينسجم مع آرائكم.
أود الـاكيد على اني سأرفض أي ذريعة لعدم نشر وثيقة التقييم ، التي اقدمها لكم . ذلك ليس فقط لما آل اليه وضع الحزب المأساوي تحت قيادتكم ، بل كذلك لأن في حزبنا سابقة من هذا القبيل . ففي 1965 طبع وعمم الرفيق زكي خيري مع عزيز الحاج وآخرين تقييمهم الخاصن لسياسة الحزب حتى دون مراجعة واشعار م.س ، وفي 1967 وافقت قيادة الحزب على نشر وثيقتي تقييم احداهما كانت رأي الرفيق زكي خيري والأخرين .
واذ اطالب بنشر وثيقتي هذه ثم عرضها على مؤتمر الحزب ليقول فيها كلمته فاني انطلق في ذلك من حرصي على مصلحة الحزب واخلاصي لقضية الشيوعية. اني راغب من الاعماق في ان يأخذ الصراع الفكري الداخلي في الحزب طريقة المبدئي

والاصولي في اطار التنظيم الحزبي وعلى اساس صيانة وحدة الحزب وسد الطرق امام اي انقسام. ان من واجبي ، شأن كل شيوعي مخلص ، ان اذود عن وحدة الحزب. لكن من واجبي ايضاً ان اساهم باقصى ما يمكن في معالجة مشاكل الحزب المستفحلة ووضع الأمور في نصابها.
كل ما ارجوه منكم هو ان تدركوا بأنكم لم تفلحوا، فيما مضى، في أداء المهام الموكولة اليكم ولم تستطيعوا قيادة السفينة الى شاطئ الأمان ، وان تفكروا ملياً فيما يجب عليكم عمله الآن بعيداً عن المنطلقات الذاتية . ان في ايديكم بالذات قضية الحفاظ على وحدة الحزب أو التفريط بهذه الوحدة .. ذلك لأن ماقد تراكم في الحزب ، جراء الاخطاء والمآسي في ظل قيادتكم ، أصبح جاهزاً للانفجار اذا لم تحسنوا التصرف في مجابهة المشاكل المستفحلة.
ان كل مسعى لمعالجة المشاكل عن طريق قمع الانتقادات وملاحقة الرفاق المنتقدين سيزيد وضع الحزب تعقيداً ويعود عليه بالضرر البالغ.
انا بتانتظار جوابكم . ارجو الا ترمى رسالتي هذه في سلة المهملات.
مع التحيات الرفاقية . ابو
سلام

20/3/1984
ملحق 3
رسالة الى سكرتير الحزب في 1984/3/21
كان لي بعض الأمل في ان تزوروا منطقتنا بهدف الاطلاع عن كثب على وضع هذا الجزء من الحزب . يقيناً ان الكثير قد كتب وقيل لكم عني . وقد اكون انا الوحيد الذي لم تسمعوا رأيه فيما يقال . ولسوء الحظ فان الحكايات تروى عندنا ، في اغلب الاحيان ، بصورة لا موضوعية . لكن لندع ذلك جانباً . فانا لم اخف مرارتي ولم اخف انني فقدت الثقة ، التي هي اساس العمل والتضامن والحماس الثوري . لم افقد الثقة بالشيوعية بل بمن اثبتوا مراراً عدم الأهلية لأن يكونوا على رأس الحركة الشيوعية في هذا البلد ، اعرف ان للآخرين ايضاً رأيهم في الأمور رأيهم في شخصياً . هناك من يعتبر ني عنوداً وفردياً وجامداً عقائدياً ويسارياً متطرفاً ... الخ . لكن قرابة اربعين عاماً من العمل في صفوف الحزب والحركة السياسية علمتني الكثير ، علمتني ان افكر فيما اقدم عليه . ولست انا اليوم شاباً طائشاً ولا باحثاً عن المستحيلات ولا عائقاً للزعامة والمناصب . انا رجل كرس حياته لقضة الشيوعية . ولا يحركني شيء الا الحرص على مصالح الحزب والحركة الثورية . وانا رجل قدس الضبط الحزبي والنظام طيلة عمره الحزبي . ولكن للصبر حدوداً . فقد طفح الكيل بعد ان تراكمت المنكدات والمرارات ، بعد ان اعتدنا على انتظار خطأ جديد بعد كل خطأ وتوقع نكسة جديدة للحزب بعد كل نكسة.
ان احداث 1983 الماساوية ، التي سارت بالحزب خطوة كبيرة الى الوراء ، لم تفجرني ز لكن سلوك وتقديرات ودور م.س هي التي فجرتني . انني لست حجراص بل انسان من لحم ودم . ولم تعد لي طاقة بالتزام الصمت بعد ان سكت وصبرت السنين المتعاقبة وبعد ان اثبتت الحياة نفسها ان الذين قادوا السفينة لم يكشفوا عن الجدارة . انا لا أحمل الحقد والضغينة تجاه اي رفيق في الحزب ولا احب اثارة الشغب والمتاعب . ولكن خبرة العمل الحزبي طيلة 38 عاماً مضى تلقي على عاتقي مهمات ازاء الحزب الشيوعي وتلزمني بواجبات لت اتهرب منها ، مهما قال عني البعض.
أريد ان اصارحك ، ايها الرفيق ، بانك ـ وقد غدوت الشخص الأول في الحزب منذ عشرين عاماً ولحد الآن ـ تتحمل المسؤولية الأولى عما وقع في الحزب من اخطاء جسيمة ، فكرية وسياسية وتنظيمية طيلة هذه الفترة . لقد كنت ، بحكم مركزك الحزبي ، قادراً على صد الاتجاهات اليمينية الخاطئة وتجنيب الحزب الكثير من الاخطاء والنكسات . ولكنك قدت هذه الاتجاهات وراهنت عليها وظللت تقرب من نفسك دعاتها وتعتمد على الراكضين وراءها من عناصر أكاد اسميها طارئة على الحركة الشيوعية في هذا البلد . افلم يحن الوقت ، ايها الرفيق ، لكي تلقي نظرة دقيقة وعميقة الى الوراء ، الى كل ما مضى واسفر عنه من عواقب وانت شيوعي قديم متحدر من عائلة فلاحية معدمة ؟ انا لا اجعل من نفسي ناصحاً ومرشداً ولكني رفيق لك ومن واجبي ان اصارحك ، بالاخص في مثل هذه الرسالة الشخصية الخاصة.
انك انت الشخص الوحيد في ح ش ع اليوم ، الذي يملك ـ بحكم مركزه الحزبي ـ القدرة على القيام بمبادرات في سبيل معالجة مشاكل الحزب وتجنيبه المزيد من المتاعب والمآسي . فهل انت فاعل ذلك ؟ دعني اتمنى ذلك ن وسأكون تحت تصرفك بكل ما املك من طاقات عندما ارى الامور تسير في خطها الصحيح نحو معالجة جدية لمشاكل الحزب.
اما ان تظل الامور على ماكانت عليه وان يسير الوضع كما سار سابقاً وان يقتصر العلاج على سعي للترقيع او جرعة من المسكنات فان ذلك سيجرر الحزب بلا شك الى المزيد من المتاعب ، وقد يمزق الحزب تمزيقاً.
ارجو الا تغضبك كلماتي الجافة والصريحة ايها الرفيق ، فانا اتكلم اليوم ، في آذار 1984 ، وامام ناظري شريط الاحداث طووال السنوات المنصرمة ن سيما السنوات 72 ـ 1984 التي اجابت فيها الحياة نفسها على ماكان يطرح من الاسئلة سابقاً فالمراهنة على سياسة التحالف مع البعث انتهت الى الانهيار التام بعد ان كلفت الحزب ثمناً غالياً جداً . ولم يدفع المراهنون خلال سنوات اعقبتها أي حساب للحزب ، حتى ولا كلمة نقد ذاتي هاديء وملطف عل ما فعلوا . فهل يمكن تبرير ذلك ؟ هل

هو معقول ؟ هل من المبرر والمعقول الا تستطيعوا اصدار وثيقة طيلة أكثر من خمس سنوات ، رغم الحاجة الملحة لاصدارها والمطالبة الجماعية في الحزب بأصدارها ، ورغم بقاء التشكيلة القيادية ، التي رافقت فترة التحالف مع البعث ، بكامل قوامها تقريباً ؟ الم يكن بالأمكان ومن الضروري ان تصدروا هذه الوثيقة وتسدوا بها حلوق (الثرثارين) والمتسيبين من امثالي ؟ وهل يجوز ان يلام غيركم اليوم على ما يترتب من رفضكم لاصدار هذه الوثيقة او لعقد مؤتمر او كونفرنس للحزب طيلة تلك السنين ؟

وقد تبررون ما حدث . وبامكان المرء بالطبع ان يبرر أي تصرف خاطئ ، ولولم يكن على حق . وحتى بامكانه ان يسمي الابيض اسود . ولكن من الصعب عليه ان يقنع الآخرين بالمبررات غير المعقولة.

انني على يقين من ان الأخذ بقاعدة (عفا الله عما سلف) ، دون تلخيص وتعميم تجربة الماضي المرير ، سيقود الى ما لاتحمد عقباه ويدفع التاريخ ليعيد نفسه مرة اخرى ، كما حدث أكثر من مرة في حزبنا بالذات.

ان اختيار الطرق واساليب العمل الصحيحة لحل المشاكل ومعالجة الوضع هو اليوم اهم شيء .. وانا اعرف ان معالجة مشاكلنا المزمنة لم تعد من الأمور الهينة ، لأن المعالجة تصطدم بعراقيل كثيرة صنعتها سنوات من الاخطاء والانحرافات .

بيد انه لابديل عن العمل المخلص الجاد على معالجة المشاكل وتلافي المزيد من المتاعب . ولا اخفي عنك شكوكي في ان تستطيع عمل الكثير لمعالجة المشاكل ، حتى اذا اردت ذلك جاداً ، انن كنت تعتمد في ذلك على اناس يعيشون في عالم الاوهام ، بعيداً عن واقع العراق ، او يحلمون بالعودة الى وضع شبيه بمامر على الحزب قبل 1978.

مع رجائي لك بالصحة والتوفيق.

أبو سلام

21/3/1984

المحتويات

MEMORIES OF BAHADEEN NOORI

صاحب هذه المذكرات

ولد في 6/آذار 1927 بقرية (تكيه) في ناحية قرداغ التابعة لمحافظة السليمانية ، ودرس في كتاب القرية القرآن واوليات القراءة والكتابة .
في اوائل 1942 هاجر مع عائلته الى مدينة السليمانية ، والتحق فيما بعد بالدراسة المسائية حتى الرابع الاعدادي ، حيث ترك الدراسة واختفى بسبب نشاطه السياسي منذ اواخر 1948.
انضم الى الحزب الشيوعي العراقي منذ ربيع 1946 وابان نكسة الحزب في 1949 غدا سكرتير منظمة المحافظة.
انتقل الى بغداد في حزيران 1949 وتسلم المسؤولية الاولى في الحزب وبقي سكرتيرا الى نيسان 1953 ، حيث اعتقلته سلطات النظام الملكي وحكم عليه بالسجن المؤبد . وخرج من السجن اثر ثورة 14 تموز 1958.
بعد خروجه من السجن استأنف نشاطه كعضو في المكتب السياسي وكأحد قيادي الحزب حتى صيف سنة 1984 ، وهي السنة التي انقطعت فيها صلته مع الحزب الشيوعي العراقي ، والتي تتوقف عندها كتابة هذه المذكرات.
وفي ايلول 1991 اصدر في مدينة السليمانية مجلة سياسية ثقافية مستقلة بأسم (ديموكراسي. (
وفي 1994 قدم مع زملائه طلبا الى حكومة اقليم كردستان لتأسيس حزب سياسي بأسم (حركة الديمقراطيين) ويعمل حالياً كسطرتير لهذا الحزب .

صدر للمؤلف

1. قرية في سفح الجبل
2. أيام صعبة (ذكريات شيوعي من العراق(
3. على ضفاف الهور (انتفاضة فلاحي آل ازيرج في 1952(
4. والراية ترفرف (ذكريات شيوعي من العراق(
5. اعصار في خريف (ذكريات شيوعي من العراق (
6. في تقييم سياسة الحزب الشيوعي العراقي لسني 1958 - 1983
7. ويرانه (باللغة الكردية) ـ قصة احداث كردستان العراق في غضون ستة اشهر من عام 1988
8. ترجمة الجزء الاول من كتاب ((الخبرة الترايخية للحركة العمالية والشيوعية العالمية)) الى اللغة العربية وطبعها
9. العمل الحزبي واليسار في كردستان
10. شيوعية عمالية ام تخبط البرجوازية الصغيرة ؟

وسيصدر (اذا تسنى له ان ينجز) : ماذا بعد سقوط الانظمة الاشتراكية الدور التأريخي للاديان